

الفتح القسّى في الفتح القدسى

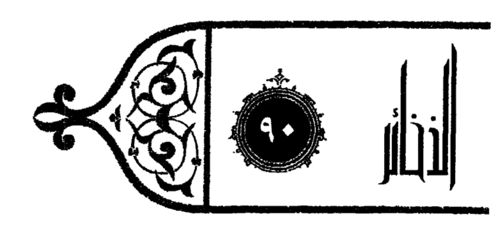
للعماد الكاتب الأصفهانى
٥١٩ - ٥٩٧ هـ

تحقيق وشرح وتقديم
محمد محمود صبح

قدم له
أ.د. حامد زيّان غانم



الهيئة العامة لقصور الثقافة



الفتح القسي في الفتح القدسي

للعماد الكاتب الأصفهاني
٥١٩ - ٥٩٧ هـ

تحقيق وشرح وتقديم
محمد محمود صبح

قدم له
أ.د. حامد زيان غانم



الهيئة العامة لقصور الثقافة

رقم الإيداع : ٤٣٠٥ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 305 - 384 - 9



المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الذخائر

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى

١٦ أ ش أمين سامى قصر العينى - القاهرة

رقم بريدى ١٢٥٦١

الإشراف الفنى : غريب ندا

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف

عزيزى القارىء . . الكتاب الذى تقدّمه (الذخائر) فى هذه الحلقة هو كتاب (**الفتح القُسىّ فى الفتح القدسىّ**) لمؤلفه عماد الدين الأصفهانى الكاتب (٥١٩ - ٥٩٧ هـ) ، يقدّم الكتاب جانباً من الصّور البطوليّة لكفاح المسلمين والعرب ضدّ الغزو الاستيطانى الصليبى ، وهو الكفاح الذى قاد أعظم فصوله السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولعلّ هذا ما حدَا بناشره صاحب طبعة ليْدِنْ التى صدرت سنة ١٨٨٨ م إلى أن يطلق عليه عنوان (فتح صلاح الدين لسوريّة وفلسطين) - Conquete de la Syrie et de la palestine par Salah ed - din .

عنوان الكتاب كما فى هذه الطبعة هو « الفتْح القُسّىّ فى الفتح القدسّى » ، ولقد وَرَدَ العنوانُ على هذا النحو فى (إرشاد الأريب . . .) لياقوت المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، وكذلك فى (سير أعلام النبلاء) للذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، وبهذا اللفظ نفسه ورد العنوانُ العربى فى طبعة ليدن التى سبقت الإشارة إليها .

بينما جاء فى (مفتّح السعادة . . . .) لـ : طاشكبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٨ هـ كلمة (**الفَيْح القسّى**) بدلاًمن (الفتح القسىّ) أما فى (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) لحاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ فقد ورد اسم كتاب (**قدح القسىّ فى الفتح القدسىّ**) ضمن عدد من الكتب فى تواريخ القدس ، دون ذكر لاسم المؤلف .

وأغلب الظنّ أنه نوع من التحريف ، تماماً كما فى كلمة (الفَيْح) ، وإن كان للكلمة الأخيرة وجهُها ، فإذا كان المقصود (بالفتح القُسّى) ما فُتِحَ به على المؤلف من بلاغة ومقدرة فى وصف فتح القدس ومعارك صلاح الدين ، وهى بلاغة ومقدرة تَستمدّان صفاتهما من انتسابهما إلى بلاغة قُسّ بن ساعدة الإيادى الخطيب الجاهلىّ المُفوّه ، الذى يقال : إن الرسول محمدًا ﷺ قد استمع فى طفولته إلى خطبةٍ له مشهورة ذات معان سامية . . فإن الأمر نفسه أو المعنى قائم باستخدام كلمة (الفَيْح) بالياء ، إذْ هى : النفحة أو العبير ، أو لنقل - مرة أخرى - الأثر القُسىّ ، أو البلاغة المستمدة من بلاغة ذلك الخطيب .

والحقيقة أنّ البحثَ عن وجهٍ لكلمة (الفَيْح) لا يعدو أنْ يكون بحثًا عن عُذر أو تبرير لوقوع التصحيف فيها من حيث إنّ لها وجهًا من المعنى ، أمّا العنوان الحقيقى للكتاب ففيه

كلمة (الفتح) صراحةً باعتراف المؤلِّف ثم براويته قصة حول العنوان ، وأنه كان من اقتراح القاضى الفاضل - أحد بلغاء عصره من كتّاب صلاح الدين - لأن الله سبحانه قد فتح على العماد « بفصاحة قُسٍّ وبلاغته . . .ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته »

[ص ٥٧ ، ٥٨ من الكتاب]

بذلك يتأكّد صدقُ رواية كلّ من ياقوت والذّهَبى للعنوان ، وتسقط روايةُ صاحب (مفتاح السعادة) وكذلك روايةُ صاحب (كشف الظنون) - إنْ كان الأخير قد قصد بعنوان (قدح القِسىّ) إلى كتاب العماد - فالثابت المؤكد أن عنوان الكتاب هو : **(الفتح القُسّىّ فى الفتح القدسىّ)**

ويبدو أنّ لكلمة (الفتح) نوعًا من الجاذبيّة الدينيّة ، فقد وردت فى القرآن الكريم أكثر من عشر مرات مقترنةً غالبًا بمعنى النصر ومناسبته ، منها (إنّا فتحنالكَ فتحا مبينا) [١] ، ومنها (إذا جاء نصر الله والفتح) [٢] ، ومنها (. . . نصر من الله وفتح قريب) [٣] ، ومنها (. . .فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبا) [٤] .

من هنا - فيما يبدو - كان غرامُ الشعراء والأدباء عامة بتلك اللّفظة ، خاصّةً عند ذكر الوقائع والانتصارات ؛ إذ نسمع أحدَ شعراء الرشيد - فى معرض العمل على تخفيف غضب الخليفة وثورته ، وقد بلغه أن (نقفور) امبراطور الروم قد نقض عهده معه وتحدّاه - قال الشاعر :

نَقَضَ الذى أعطيتَه نِقْفُورُ   فعليه دائرةُ البَوَار تدُورُ
أبْشِرِ أميرَ المؤمنين فإنّه   فتحٌ أتاكَ به الإله خطيرُ

أما أبو تمام فقد أطلق كلمةَ (الفتح) على انتصار الخليفة العباسى المعتصم بالله على الروم فى وقعة عَمّوريّة ، ووصف ذلك الانتصار بأنه (فتح الفتوح) الذى تعجز بلاغة الشعراء والخطباء عن الإحاطة بوصفه فقال :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به   نظم من الشعر أو نثر من الخطب

أمّا العماد الأصفهانى فقد أضاف إلى (الفتح) - بمعنى الانتصار فى الحرب - فتحا آخر وصفه بـ (القُسّىّ)

---

(١) سورة الفتح آية (١) .

(٢) سورة النصر آية (١) .

(٣) سورة الصف آية (١٣) .

(٤) سورة الفتح آية (١٨) .

وقد سبق القول إن كلمة (القُسّى) هى نسبة إلى قُسّ بن ساعدة الإيادى ، الخطيب الجاهلّى المشهور الذى عاش قريباً من عصر البعثة النبوية ، أمّا تسمية العماد إنشاءَه ، أو إبداعه ، فى وصف انتصارات صلاح الدين فتحًا . . فهو ما تقرّه أعراف الأدباء فى استعمال اللغة فى مثل هذه المواقف ، فالشاعر ، أو الأديب عمومًا (يفتتح القول) أى يبتدئه ، وحين يعسر الكلام على الأديب فلا يجد ما يقوله ، يقولون : قد استغلق عليه القول ، فإذا واتته القريحة بعد هذه الحال ، قالوا : لقد فُتح له القول .

بذلك يكون لدينا فى العنوان الذى حمَله كتابُ العماد . . (فتحان) : (فتح) باللسان والقلم ، و(فتح) بالسّلاح والقوة ، أحدهما أداته حدّة القريحة وصفاء الذهن وقوة الطبع والموهبة ، والآخر أداته العزيمة والإصرار ثم جودة السلاح وشجاعة الأبطال . وقد سمّى العمادُ كلا العملين - أى الإبداع الأدبى والانتصار فى الحرب - فتحا . ومن قبل جنَحَ المتنبّى إلى أسلوب (المشاكلة) وذهب إلى عكس مذهب العماد فسمّى العملين معاً (كتابةً) ، وذلك حيث يقول فى فلسفة القوة :

حتى رجعتُ وأقلامى قَوَائِلُ لى   المجد للسيف ، ليس المجد للقلم

اكتُب به أبدا قبل الكتاب بنا   فإنما نحن للأسياف كالخدم

هكذا اطلق المتنبى على فعل السيف وأثره فى توجيه الأحداث اسم (الكتابة) ، فهناك الكتابة بالسيف والكتابة بالقلم ، والأولى أكثر فاعلية وأثرا ، أما الأخرى فَتَتْلُوها وتسجل ما سبق للسيف أن دونه على صفحة التاريخ ، وهذا - على الأرجح - هو ما قصد إليه العماد فى كتابه ، أعنى قصْدَه إلى إيراد ما جاش به خاطرُه وجادتْ به قريحتُه ، أو ما (فُتِح) له به من إبداعات فى وصف انتصارات صلاح الدين .

ومع ذلك . . ففى العنوان الذى وَرَدَ تحته الكتاب بصورتيه : (الفتح) و (الفيْـح) - بفرض صحتها - روحُ العماد فى غرامه بالصنعة البديعية ، خاصّة الجناس والمزاوجة والطباق والسجع . واللون الأخير - أعنى السجع - واضح فى العنوان بصورتيه ، وكذلك الجناس ، حيث يجىء تامًّا باستخدام كلمة (الفتح) وناقصا باستخدام كلمة (الفيْح) ، وكذلك هو بين (القُسّى) و(القدسى) ، وكذلك المزاوجة الواضحة فى توازن كلمات الجزءين فى العنوان .

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن المؤلف الذى أتقن الكثير من المعارف وإنْ غلب عليه الأدب والتاريخ ، ففى المجال الأخير يذكر له كتاب (**البرق الشامى**) فى سبع مجلّدات ، وكتاب (**نصرة الفترة**) فى أخبار بنى سلجوق ، و (**الفتح القُسّى فى الفتح القدسى**) فى مجلدين ؛ أما فى مجال الأدب فقد ترك ديوان شعر فى أربع مجلدات ، وديوان رسائل فى عدة مجلدات ، ويمكن تصنيف كتابه الكبير (**خريدة القصر وجريدة العصر**) ضمن كتب

تاريخ الأدب ، ويغلب على إنشائه من الشعر والنثر - كما قلنا - الصنعة البديعية التى أصبحت طابع العصر ، خاصّة تلك الألوان التى سبق أن أشرنا إليها ، يضاف إليها لون آخر هو استخدام العبارات التى تصلح لأن تُقرأ معكوسةً فلا يتغيّر معناها ويظلّ نطقها كما هو ، هذا فضلاً عن إجادته الاقتباس من القرآن الكريم والشعر السابق عليه .

أما محقّق الكتاب الأستاذ **محمد محمود صبح** فلم تسعفنى المصادر ، ولا معلوماتى الخاصّة بالكثير عنه ، سوى أنه سبق له تحقيق كتاب (**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**) المعروف بـ (**سيرة صلاح الدين**) لابن شدّاد، وهو الكتاب الذى سبق إصدارُه فى هذه السلسلة بتحقيق المرحوم الدكتور **جمال الدين الشيّال** .

وأمّا مقدّم هذه الطّبعة فهو الأستاذ الدكتور **حامد زيّان غانم** ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة القاهرة ، وقد تخرج فى نفس الكلية ، وحصل على الماجستير والدكتوراه منها ، وتدرّج فى سلك أعضاء هيئة التدريس ، وعُيِّن رئيسا لقسم التاريخ ومديراً لمركز البحوث والدراسات التاريخيّة بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

وللدكتور زيّان عديد من المؤلفات فى مجال التاريخ ، من بينها :

- الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبيّة .
- العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى .
- الأزمات الاقتصاديّة والأوبئة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك .
- الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبيّة الثالثة .

عزيزى القارىء . . .إن كتاب (**الفتح القسى فى الفتح القدسى**) هو الكتاب الثانى الذى تصدره الذخائر فى تاريخ صلاح الدين وتسجيل انتصارته ، وهو يجمع - بصورة ما - بين الأدب والتاريخ ، الأدب المتمثل فى إنشاء العماد ورسائله وحكاياته الخاصّة ، والتاريخ المتمثّل فى تسجيل فروسية صلاح الدين الذى لم يكن رجل حرب من أجل الحرب ، فهو إنما حارب من أجل السلام . . السلام القائم على الحق والعدل . . لذلك ظل دائماً - حتى خلال الحرب - رافعاً شعار الحوار والتفاهم ، لكن الغرب جاءه رافعا لواء العداء والتّصادم .

عزيزى القارىء . . . إلى أين سينتهى المطاف بالعالم . . إلى الحوار أم إلى الصدام ؟ لا أحد يعرف على وجه اليقين ، ولكن الذى أثبتته الأيام . . أنه حتى الحوار ، بل وحتى الدعوة إلى السلام . . يحتاج كلاهما إلى قوة تحميه وتؤكده ، بل وتفرضة ، شأنه فى ذلك تماماً شأن مسلك الصدام.

عبد الحكيم راضى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مؤلف هذه (الذخيرة) هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله ، المعروف بـ(أَلُهْ)[1] الملقب عماد الدين الكاتب الأصبهانى ، ولد بأصبهان فى ثانى جمادى الآخرة عام ٥١٩ هـ / عام ١١٢٥ م ، ونشأ بها حيث تلقى تعليمه الأول على المذهب الشافعى ، ثم التحق بالمدرسة النظامية ببغداد حيث تفقه على يد كبار علمائها فى تلك الفترة ، ثم رجع إلى بغداد ليعمل بصناعة الكتابة فبرع فيها وذاع صيته وصار ملازماً للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة [٢] ، وزير الخليفة المقتفى لأمر الله العباسى ، فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط ، واستمر العماد يلى هذه الوظائف حتى وفاة الوزير ابن هبيرة عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م « فاضطربت أحواله وأقام . . . مدة فى عيش منكد وجفن مسهد » على حد قول معاصره ابن خلكان [٣] .

ونتيجة ما حدث للعماد من حساده بعد وفاة ابن هبيرة ، غادر بغداد متجهاً إلى دمشق عام ٥٦٢هـ / ١١٦٦ م حيث تقابل مع القاضى كمال الدين أبى الفضل محمد بن الشهرزورى الذى كان متولياً أمور دمشق من قبل السلطان نور الدين محمود (حاكم الموصل وحلب ودمشق) ، وارتبط العماد بالشهرزورى ارتباطاً كبيراً حيث كان يحضر

---

(١) أله : بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء ، اسم فارسى معناه باللغة العربية العقاب ، وهو الطائر المعروف . [راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ص ١٥٢] .

(٢) قال عنه ابن خلكان : « حصل من كل فن طرفاً وقرأ الكتاب العزيز ، وقرأ النحو ، واطلع على أيام العرب وأحوال الناس ، ولازم الكتابة ، وحفظ ألفاظ البلغاء ، وتعلم صناعة الإنشاء » وتولى الوزارة للخليفة المقتفى لأمر الله عام ٥٥٤ هـ / ١١٥٩م وبعد ولايته للوزارة لقب بعون الدين ، ثم استمر فى الوزارة بعد وفاة المقتفى حيث استوزره الخليفة المستنجد بالله العباسى ، واستمر يلى الوزارة حتى وفاته عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠ . [راجع وفيات الأعيان ، جـ ٦ ص ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٣] .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ص ١٤٨ .

مجالس علمه . وبعد أن عرف الشهرزورى مكانة العماد العلمية ولاه التدريس بالمدرسة النورية [1] بدمشق عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وهى التى عرفت بعد ذلك باسم المدرسة العمادية نسبة إلى العماد الأصبهانى نفسه . [2] وفى دمشق توطدت علاقة العماد الأصبهانى بالأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبى ، وكان قد سبق تعرفه عليه عندما كان نجم الدين والياً على تكريت[3] ، ويذكر ياقوت الحموى [4] أن نجم الدين أيوب هو الذى سعى إلى العماد ، وذهب للترحيب به بعد وصوله إلى دمشق .

ولم يلبث القاضى الشهرزورى أن رشح العماد الأصبهانى ليعمل فى ديوان إنشاء السلطان نور الدين محمود ، وذلك بعد أن تأكد مما بلغه العماد من النبوغ فى العلم ، غير أن العماد تردد فى قبول هذا العمل ؛ لأنه لم يسبق له الاشتغال فى الكتابة بديوان الإنشاء من قبل « خوفاً من التقصير فيما لم يمارسه . . . مع توفر مواد هذه الصناعة عنده » [5] ، لكن العماد لم يلبث أن قبل هذه الوظيفة وأثبت جدارته فى العمل بها ، وتفوق على القاضى الشهرزورى نفسه ، حيث كان يكتب بالفارسية بالإضافة إلى العربية « وعلت منزلته عند نور الدين محمود وصار صاحب سره » ، ولذلك ولاه نور الدين محمود الإشراف على ديوان الإنشاء عام ٥٦٨هـ / ١١٧٣م[6] .

والمعروف أن ديوان الإنشاء ، وهو الذى يماثل وزارة الخارجية فى وقتنا الحاضر - يجعل القائم على العمل به قريباً من السلطان وشئون الحكم ؛ لأن هذا الديوان منه وإليه تخرج وترد مختلف الرسائل والمكاتبات إلى مختلف الملوك والسلاطين ، ومن خلاله يتم صياغة وكتابة المعاهدات والهدن التى تعقد ، وهذا يجعل القائم على أمر هذا الديوان قريباً من السلطان بل كاتم أسراره [7] . تقلبت الأحوال بالعماد الكاتب بعد وفاة السلطان نور

---

(١) نسبة إلى السلطان نور الدين محمود .

(٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ ١٩ ص ١٣ .

(٣) المعروف أن نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان الكردى كان واليا على تكريت ثم غادرها على أثر خلاف مع حاكمها عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م .

(٤) معجم الأدباء : جـ ١٩ص ١٣٠ .

(٥) ياقوت الحموى : معجم الأدباء : جـ ١٩ ص ١٤ .

(٦) ياقوت : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٧) عن ديوان الإنشاء ، راجع الموسوعة المصرية : تاريخ وآثارمصر الإسلامية ، مادة كاتب وكتاب ص ١١١٦ .

الدين محمود (٥٦٩هـ / ١١٧٤م) ، كما تقلبت أحوال البلاد بموته ، حيث ورثه فى الحكم ابنه الملك الصالح إسماعيل الذى كان فى الحادية عشرة من العمر ، فالتف حوله جماعة من الأفراد كان همهم المصلحة الشخصية وتصفية من يقف ضد هذه المصلحة ، فخاف العماد على نفسه من غائلتهم ؛ فرحل عن دمشق متجهاً صوب بغداد ، وأصابه وهو فى الطريق مرض جعله يستريح بالموصل ، وأثناء وجوده بالموصل سمع عن خروج صلاح الدين الأيوبى من مصر متجهاً صوب دمشق ؛ ليقف بجوار ابن سيده الملك الصالح إسماعيل ويعيد الأمور إلى نصابها بعد اضطرابها عقب وفاة نور الدين محمود . وكان العماد قد تماثل للشفاء من مرضه فعزم على التوجه إلى الشام ، وبالفعل خرج من الموصل عام ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م متجهاً صوب صلاح الدين حيث اجتمع به فى حمص ، ومنذ تلك اللحظة لم يفارق العمادُ الكاتبُ صلاحَ الدين الأيوبى لا فى حله ولا ترحاله [١] .

ازداد قرب العماد الكاتب من صلاح الدين الأيوبى وصار كاتبه ، واعتمد عليه صلاح الدين اعتماداً كبيراً ، « فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة ، وعلا قدره وطار صيته ، وكان إذا انقطع القاضى الفاضل عن الديوان ناب عنه فى النظر عليه وألقى إليه السلطان مقاليده ، وركن إليه بأسراره ، فتقدم الأعيانَ ، وأشير إليه بالبنان » [٢] .

غير أن الدنيا لا تدوم لأحد سوى الله سبحانه وتعالى ، فبعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ، وما حدث من الصراع بين أولاده وأخوته وأبناء عمومته ، اختلت أحوال العماد فلزم بيته ، حيث أخذ فى التأليف والتصنيف حتى وافته المنية يوم الاثنين أول رمضان عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م ، ودفن بدمشق فى مقابر الصوفية خارج باب النصر ، بعد أن قضى حياة مليئة بالعمل والنشاط بين سراديب الحكم منذ أن التحق بالعمل فى ديوان الإنشاء للسلطان نور الدين محمود حتى وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى [٣] .

وقد مدحه معاصروه فقال عنه ابن الأثير الجزرى [٤] : « وكان كاتباً مفلقاً ، قادراً على

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ص ١٤٩ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، ج ١٩ ص ١٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٥٢ .

(٤) الكامل ، جـ ١٢ص ١٧١ .

القول » ، أما أبو شامة [1] فقال : « كان مبرزاً فى النظم والنثر عارفاً بالأدب ، حافظاً لدواوين العرب » .

أما العصر الذى عاش فيه العماد الكاتب فيعرف باسم عصر الحروب الصليبية ، وهو عصر ذو طابع خاص من الناحيتين السياسية والثقافية . فقد ولد العماد فى وقت كانت فيه الخلافة العباسية تمر بمرحلة من التدهور السياسى ، وكان السلاجقة هم الحكام الحقيقيين للدولة .

والواقع أن السلاجقة نفخوا روحاً جديدة في جثمان الدولة العباسية المنهار ، ويعود ذلك لجهود ثلاثة من أعظم سلاطين السلاجقة هم طغرلبك (٤٢٩ - ٤٥٥هـ / ١٠٣٧ - ١٠٦٣ م) ، وألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) ، وكان آخرهم السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) الذى كانت وفاته إيذاناً بانهيار وتفكك قوة السلاجقة وتبع ذلك انهيار قوة الشرق الإسلامى [2] .

فى تلك الأثناء أخذ الغرب الأوربى فى تنظيم عدة حملات لغزو الشرق ، هى التى أطلق عليها اسم الحروب الصليبية ، وذلك من أجل سلب خيرات الشرق والاستيلاء على أراضيه ، ونتيجة ذلك الانهيار والتفكك الذى كان يمر به الشرق نجح الفرنج فى تحقيق هدفهم واستطاعوا إنزال الهزائم بقوة السلاجقة المنهارة ، واستولوا على عدة مناطق بالشرق مؤسسين أربعة كيانات لهم هى : الرّها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس [3] .

واستمر هذا الوضع إلى أن ظهر على مسرح الأحداث أحد رموز الوحدة الإسلامية وهو عماد الدين الزنكى بن قسيم الدولة أقسنقر الحاجب (٥٢١ - ٥٤١ هـ / ١١٢٧ - ١١٤٦م) [4] ، الذى نشأ وسط هذا الجو المشحون بالفرقة والانقسام ، وأيقن زنكى أن الحل الوحيد للخروج من هذه الكارثة هو توحيد الجبهة الإسلامية [5] .

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص ٢٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية و الصلاحية ، حـ ١ ص ٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج١ ص ٢٣ ، حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، ص ٩ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جا ص ٥٦٣ وما بعدها .

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٢٤ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٥) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٢٧ .

وبالفعل أخذ عماد الدين الزنكى يجاهد من أجل توحيد الجبهة الإسلامية للصمود أمام العدوان الصليبى ، واستطاع إنزال أول هزيمة ساحقة بالفرنج ، وسقطت فى يده أول إمارة صليبية تأسيساً وهى إمارة الرّها عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤ م [١] ، ليدق بذلك أول مسمار فى نعش الصليبيين ، وذلك بعد أن بلغ العماد الكاتب العشرين من عمره وأصبح فى زهرة شبابه .

وإذا كان زنكى قد قتل بعد استيلائه على الرّها بعامين (٥٤١هـ/ ١١٤٦ م) ، فإن ابنه نور الدين محمود قام بأمر الجهاد ضد الصليبيين من بعده خيرَ قيام ، واستطاع أن يعيد توحيد الجبهة الإسلامية [٢] ، ويصمد أمام الحملة الصليبية الثانية [٣] ، ثم أخذ فى تصفية إمارة إنطاكية ولم يبق منها سوى حصون مهدمة [٤] .

وهكذا استطاع نور الدين محمود تصفية الوجود الصليبى بشمال الشام ، ولم يبق أمامه سوى الصليبيين الموجودين بجنوب بلاد الشام (بيت المقدس - طرابلس) ، ولم يكن أمام نور الدين محمود إلا أن يوحد الجبهة الإسلامية بالجنوب حيث يضم إليه دمشق ثم مصر ، وبذلك يحصر الصليبيين بين شِقَّى الرّحى ، وبالفعل استطاع نور الدين ضم دمشق [٥] ، ثم تبسم له الحظ نتيجة الخلافات التى سرت بين وزراء الخليفة الفاطمى الشيعى حاكم مصر ، وجاءته دعوة لإرسال جيوشه إلى مصر ، فلم يتردد نور الدين محمود وأرسل قائده أسد الدين شيركوه وبصحبته صلاح الدين الأيوبى ابن أخت شيركوه إلى مصر ، وبعد صراع استطاع شيركوه أن يتولى وزارة الخليفة العاضد الفاطمى عام ٥٦٤هـ /

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ص ٤٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٠٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ص ١٢٣ .

(٣) نتيجة سقوط الرها جهز الغرب الأوربى حملة صليبية جديدة هى الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤١هـ / ١١٤٧ م ، التى تزعمها ملك فرنسا لويس السابع وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية، جـ ٢ ص٦٢٩ وما بعدها .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٠٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٩٨ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٥٨ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص٣١٨ .

١١٦٨ م ، وهو فى نفس الوقت قائد جيش نور الدين [١] ، ولكنه لم يستمر فى الوزارة طويلاً إذ توفى بعد خمسة وستين يوما [٢] .

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه تولى صلاح الدين الأيوبى الوزارة خلفاً لعمه [٣] ، ولم تلبث الخلافة الفاطمية نفسها أن سقطت [٤] ، وبذلك أصبح صلاح الدين الأيوبى طليق اليد فى مصر .

ولم يلبث أن دب نزاع خفى بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، ويعزو البعض سبب هذا النزاع وتلك الجفوة إلى غضب نور الدين من صلاح الدين ، حينما أرسل إلى الخليفة العباسى ببشارة سقوط الخلافة الفاطمية مباشرة متغاضياً عن نور الدين الذى هو سيده وصاحب مصر من الوجهة الشرعية [٥] .

ثم تتابعت بعد ذلك شكوك كل فى صاحبه ، فصلاح الدين يخشى من نور الدين ، لذلك رفض الاجتماع به فى حصن الأكراد ، ثم إنه جمع أهل بيته ؛ ليستشيرهم فيما يفعله حينما نمى إلى سمعه أن نور الدين يستعد لقصده [٦] .

غير أن وفاة نور الدين محمود فى شوال سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤ م ، أتاحت لصلاح الدين الأيوبى فرصة تأسيس دولة تحمل اسمه وتصبح مصر هى قاعدته [٧] .

وفى بلاد الشام جلس الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود والبالغ من العمر إحدى عشرةَ سنة محل والده فى السلطنة ، مما أتاح الفرصة للطامعين من الأمراء أن

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٩ – ٣٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٥٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٧٣ .

(٤) سقطت الخلافة الفاطمية فى أول جمعة من شهر المحرم عام ٥٦٧هـ / ١١٧١ م ، وكان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مريضا فلم يعلم بنبأ سقوط دولته ، وتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام .
[راجع : ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٥٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ١ص ٢٠١] .

(٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ص ٤٤ ، حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٧٥.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ص ١٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ص ٢٢٣ .

(٧) حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ، ص ٧٥ .

يتلاعبوا بهذا الصبى ، وأتاح الفرصة أيضاً للصليبيين أن يسترجعوا ما فقدوه من أراض [١] ، وقد استاء صلاح الدين كثيراً بعد سماعه بالفوضى والاضطرابات التى عمت مملكة نور الدين بعد وفاته ، كما غضب لما فعله الصليبيون بالبلدان الإسلامية وغاراتهم المتتالية عليها ، لذلك قرر التوجه إلى الشام ؛ لمعاقبة هؤلاء الأمراء الذين فرّطوا فى دولة نور الدين ؛ وليضع حدّاً لهجمات الصليبيين على الممتلكات الإسلامية ؛ ولإعادة توحيد الجبهة الإسلامية [٢] .

وما أن وصل صلاح الدين إلى الشام حتى فتحت دمشق أبوابها له ، وبعد صراع مع الأمراء الطامعين ، استطاع صلاح الدين إعادة توحيد الجبهة الإسلامية تحت رايته ليحمل عِبْءَ الجهاد ضد الصليبيين [٣] .

وكانت معركة حطين هى أولى معارك صلاح الدين الحاسمة ضد الصليبيين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م ، حيث استطاع من خلالها تصفية الوجود الصليبى بجنوب الشام واستعادة بيت المقدس من الصليبيين ، مما دفع الغرب الأوربى للدعوة إلى حملة صليبية جديدة ، هى التى عرفت فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الثالثة ، والتى تزعمها ثلاثة من أكبر ملوك أوربا هم : ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، والإمبراطور فريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا [٤] .

وإذا كان فريدريك بربروسا قد لقى حتفه فى بداية هذه الحملة [٥] ، فإن كلاً من فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد قد أخذا يعملان من أجل استعادة بيت المقدس ، غير أن فيليب أوغسطس فضل العودة إلى فرنسا ، بينما ظل ريتشارد فى بلاد الشام يتصارع مع صلاح الدين ، لكنه بعد أن أحس بعدم جدوى محاربة صلاح الدين فضل أن يعقد معه اتفاقية ، هى التى عرفت باسم صلح الرملة عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، ويعود أدراجه إلى أوربا [٦] .

---

(١) حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى ، ص ٧٧ – ٧٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ص ١٨٢ ، حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى ، ص ٧٨ .

(٣) حامد زيان : الصراع السياسى والعسكرى ، ص ٧٩ – ٨٣ .

(٤) حامد زيان : الإمبراطور فريدريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ، ص ١٠ – ١١ .

(٥) المرجع السابق : ص ٥٨ – ٥٩ .

(٦) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ص ٨٦٠ – ٨٦٥ .

وفى العام التالى (٥٨٩ هـ / ١١٩٣م) ، توفى صلاح الدين الأيوبى وهو ابن سبعة وخمسين عاماً لتنقسم مملكته الواسعة بين أبنائه وأخوته وأبناء عمومته [(١)] ، وبعد رحيل صلاح الدين الأيوبى بثمان سنوات لحق به صاحبنا العماد الكاتب (عام ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) ، بعد أن عاش فترة من أخصب فترات التاريخ من النشاط السياسى والعسكرى والثقافى أيضاً .

ذلك أن العماد الكاتب عاصر فترة مزدهرة ثقافياً ، فالمعروف أن السلاجقة عملوا على تشجيع الحركة العلمية والأدبية فى دولتهم بخرسان وسائر البلاد التى خضعت لحكمهم ، وتعتبر المدارس من أهم منشآت السلاجقة ، وتأتى على رأسها المدرسة النظامية ببغداد[(٢)] ، كذلك يعتبر العصر الزنكى من العصور التى ازدهرت فيها العلوم والثقافة ، وقد جاء هذا الازدهار مصاحباً للحروب الصليبية وهو ما يدعو للتعجب ؛ فكيف تستقيم الحرب وعدم الاستقرار مع النمو والازدهار العلمى الذى يتطلب الهدوء والاستقرار ؟ .

وتكمن الإجابة فى أن كثيراً من الحكام اتخذوا من النشاط الأدبى والعلمى وسيلة لهم فى الحرب والسياسة ، وأهم مثل على ذلك ما كان عليه العماد الكاتب مع نور الدين محمود ، فقد روى العماد أن السلطان نور الدين محمود طلب منه يوماً أن ينشده بعضَ الأبيات فى معنى الجهاد فأنشد :

أقسمتُ سِوى الجهاد مالى أرَبُ والرّاحة فى سِواه عندى تَعَبُ
إلاّ بالجدّ لاُ ينال الطّلَبُ والعيش بِلا جِدُّ جهادٍ لَعِبُ

ويطلب نور الدين محمود من العماد مرة أخرى أن يصف له معركة دارت بينه وبين الصليبيين ، ويطلب مرة ثالثة أن يكتب على لسانه رسالة يبعث بها إلى بغداد ، يتحدث فيها عن جهاده ضد الصليبيين وما أصابهم من هزيمة وخذلان ، كذلك يطلب نور الدين محمود من أسامة بن منقذ الفارس والشاعر المعروف أن يرد بالشعر على الملك طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفاطمى بمصر فى إحدى رسائله [(٣)] .

هكذا أصبح الأدب شعراً ونثراً أداة من أدوات الحرب والقتال ، وقد أدرك العماد الكاتب نفسه قوة قلمه وكثيراً ما مدح هذا القلم وقال عنه : إنه أقوى من السيف وأكثر أثراً

---

(١) عماد الدين الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٦٢٩ - ٦٣٦ .

(٢) نسبة إلى الوزير نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى .

(٣) أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٣٠ .

منه ، من ذلك الحوار الذى دار بينه وبين صلاح الدين إذ قال العماد الكاتب لصلاح الدين مازحاً : « . . .وسلاح قلمى أحَدُّ وأجَدُّ وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمى ، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكَلْمها من جولمع كَلِمِى » [١] .

كذلك من الأسباب التى أدت إلى اهتمام بنو زنكى بالعلم والأدب ، أن بنى زنكى حملوا على عاتقهم محاربة المذهب الشيعى ببلاد الشام ونشر المذهب السنى ، وكان من المنتظر أن يقوم العلماء والأدباء بتلك المهمة ، وقد سار صلاح الدين الأيوبى على نفس هذه السياسة عندما أخذ فى محاربة المذهب الشيعى بمصر [٢] .

أما عن المدارس فيعتبر العصر الزنكى هو عصر ازدهارها ببلاد الشام [٣] ، وبطبيعة الحال يرجع إلى السلاجقة بداية إنشائها ببغداد ، حيث أنشأ الوزير نظام الملك أول مدرسة ببغداد وهى المدرسة النظامية عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م [٤] ، بعد أن كان التعليم يتم فى المساجد ، وهى المدرسة التى تعلم بها صاحبنا العماد الكاتب . ومنذ ذلك الحين توسع السلاجقة فى إنشاء المدارس فى أنحاء الدولة الإسلامية ، وقد سار عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود على نفس سياسة السلاجقة فى إنشاء المدارس ورعايتها ، كما تبعهم فى ذلك صلاح الدين الأيوبى .

ولم يقتصر الأمر على إنشاء المدارس ورعايتها ، وإنما اهتم بنو زنكى برعاية العلماء حيث كان نور الدين محمود يكرم العلماء ويعظمهم ، وكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ويستقدمهم من شتى البلاد [٥] ، « وكان مع عظمته إذا دخل عليه أحد العلماء يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه » [٦] ، وأجزل له العطاء ، وحينما أشار عليه أحد أصدقائه بقطع إدرارات الفقهاء والقراء بدولته واستخدامها فى إعداد

---

(١) العماد الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٦٥٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ص ٦٠٧ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ص ٥ ، المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ٦٧ ، محمد كرد على : خطط ، جـ ٤ ص ٣٨ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٤ ص ١٩٣ .

(٥) النعيمى : الدارس ، جـ ١ ص ٦٠٨ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٥ ص ٢٥٣ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

الجيوش ؛ لمحاربة الصليبيين رفض هذا بشدة وقال : « إن هؤلاء [هم] الذين يدافعون عنا بسيوف لاتفل »[1] .

وعلى هذا النحو كان عصر العماد الكاتب الأصبهانى عصراً مليئاً بمختلف التيارات السياسية والثقافية ، مما أهله لأن يلعب دوراً كبيراً فى هذا العصر فى النواحى السياسية والثقافية .

وعلى الرغم من اشتغال العماد بأمور السياسة والعمل فى ديوان الإنشاء ومصاحبة السلطان فى حله وترحاله ، لكنه استطاع أن يؤلف عددًا من الكتب الهامة ، لعل أشهرها كتابه : « **خريدة القصر وجريدة العصر** » ، وهو كتاب كبير جمع فيه تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس الذين عاشوا فى القرن السادس الهجرى إلى عام ٥٧٢هـ . كذلك له كتاب « **البرق الشامى** » يؤرخ فيه لحياته ورحلته مع الحياة وأخباره مع السلطان نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين الأيوبى .

أما كتابه « **الفتح القسّى فى الفتح القدسى** » فهو هذه الذخيرة التى نقدمها اليوم ، وتتناول أحداث السنوات التى تبدأ من عام ٥٨٣ هـ ، وهى السنة التى شهدت معركة حِطّين واستعادة بيت المقدس ، إلى أن يصل إلى بداية عام ٥٨٩هـ ، تاريخ وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وما حدث من تقسيم مملكته بين أولاده واخوته وأبناء عمومته . أى إنه يؤرخ لحوالى سبع سنوات من أهم سنوات التاريخ بصفة عامة ؛ لأن أحداث هذه الفترة كان لها آثار كبيرة على كل من الشرق والغرب جميعاً . ذلك أن معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م ، وما نتج عنها من استعادة صلاح الدين لبيت المقدس جعلت الغرب الأوروبى يحسب لصلاح الدين ألف حساب وجعلت اسمه يملأ الأرض شرقاً وغرباً .

ومن المفيد أن نذكر أن العماد الأصفهانى بدأ هذا الكتاب بعام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م ، على اعتبار أن هذا العام شهد معركة حطين واستردادَ بيت المقدس واعتبره تاريخاً جديداً ، حيث سماها **هجرة ثانية** ، فيقول العماد : « وأنا أرخت بهجرة ثانية ، تشهد للهجرة الأولى ، بأن أمدَها بالقيامة مَذوق ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق ، وهذه الهجرة هى هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ص ١٣٣ .

السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق . . .»[١] .

وأشار العماد الكاتب فى مقدمة كتابه إلى سبب تسميته بهذا الاسم فيقول : سميته (الفتح القدسى) تنبيها على جلالة قدره ، وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضى الأجَلّ الفاضل ، وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل ، فقال لى : سمه (الفتح القُسّىّ فى الفتح القدسى) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قُسٍّ وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته »[٢] . وعلى هذا النحو أخذ العماد برأى القاضى الفاضل وسماه بما أشار عليه به .

ولم ينس العماد أن يحيطنا علماً فى مقدمة كتابه بأنه توخى الدقة الكاملة فى تسجيل أحداث هذه الفترة ، وكيف سار على منهج الكتابة التاريخية الصحيحة التى يلتزم صاحبها بذكر الحقيقية المجردة المتأكد من صدقها ، بعد التأكد من صدق رواة أحداثها فيقول : « وما شهدت الا بما شاهدته وشهدته ، وما عنيت إلا بإيراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة إلا على أسس ماتبيّنته فبيّنته ، وما توخيت إلا الصدق ، وما انتهيت إلا بالحق ، ولاذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت إلا ما يرضى الله ولا يسخط »[٣] .

وقد ساعد العمادَ الكاتبَ على أن يلم بدقائق الأمور كَوْنُه قريبَ الصلة من دوائر الحكم والسلطان ، لذلك جاء هذا السفر حاوياً قدراً كبيراً من المعلومات التى لا يعرفها غيره ، والتى رواها لنا العماد بعد أن تأكد من صدقها وصحتها كما سبق أن أشار إلى ذلك ، لذلك يعتبر كتاب الفتح القسى وثيقة هامة لكاتب عاصر وشارك فى أحداث هذه الفترة .

تناول العماد فى هذا الكتاب الأحداث التى أدت إلى معركة حطين ، عندما تأزم الموقف بين صلاح الدين وبين القوى الصليبية خاصة ملك بيت المقدس ، ذلك الموقف الذى انتهى بإعلان الحرب ضد الصليبيين ، واستنفار همم كافة الدول الإسلامية للاشتراك فى الحرب المقبلة ضدّهم ، وفى ذلك يقول العماد : « كتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد ، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر الغزو ، من الحضر والبدو »[٤] .

---

(١) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٥٨ .

(٤) العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٥٨ .

ثم تحدث العماد بعد ذلك عن أحداث معركة حطين وهزيمة الصليبيين ، ووقوع ملك بيت المقدس وبقية أمراء الفرنج أسرى فى يد صلاح الدين ، وما تلا ذلك من أحداث من فتح بقية بلدان الشام التى استولى عليها الفرنج .

كذلك تناول العماد أهم نتائج معركة حطين ، خاصة قيام الغرب الأوروبى بتجهيز حملة جديدة من أجل ضرب صلاح الدين واستعادة بيت المقدس ، وهى المعروفة باسم « الحملة الصليبية الثالثة » ، وشرح العماد أحداث هذه الحملة بالتفصيل وما انتهى إليه أمرها ، من فشل وعقد هدنة بين صلاح الدين والصليبيين ، وهى المعروفة باسم صلح الرملة .

ثم ينتقل العماد إلى أهم أحداث عام ٥٨٩ هـ ، وما حدث فى بدايته من وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى (صفر ٥٨٩هـ) ، وما حدث من تقسيم مملكته بين أولاده واخوته وأبناء عمومته .

وينهى العماد كتابه بذكر مناقب السلطان صلاح الدين الأيوبى وأهم ما تميز به رحمه الله .

أما أسلوب العماد فى الكتابة فكان أسلوب عصره ، وهو ما كان يسمى باسم « مذهب التصنّع » ، وهو الإتيان بالمحسنات من سجع وجناس وطباق وغير ذلك بصورة مفرطة [١] ، وإن كان هذا الأسلوب يؤدى إلى بعض الصعوبات أمام المستفيدين من هذا السفر .

وصفوة القول أننا أمام ذخيرة من أهم ذخائر تراثنا الإسلامى ، كاتبها علم فى صناعته ، قريب من دوائر الحكم والسلطان ، على دراية بخفايا الأمور ، تناول أحداث فترة محددة (سبع سنوات) شرح خلالها أدق التفصيلات التى من الصعب على غيره الإحاطة بها ؛ لذلك جاء مؤلفه ذا قيمة أدبية عالية وأهمية تاريخية لا مثيل لها .

أ.د. حامد زَيَّان غانم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة القاهرة

---

(١) أحمد أحمد بدوى : الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٣٦٤ - ٣٧٢ .

الفتح القسي
في
الفتح القدسي

للعماد الكاتب الأصفهاني
٥١٩ - ٥٩٧ هـ

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	صفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصحفة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

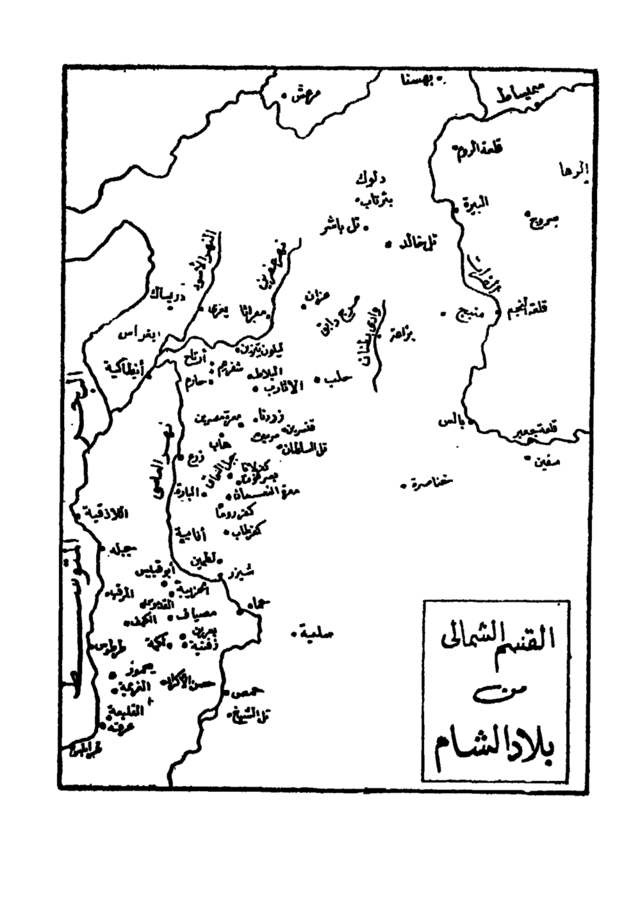
الموضوع	الصفحة

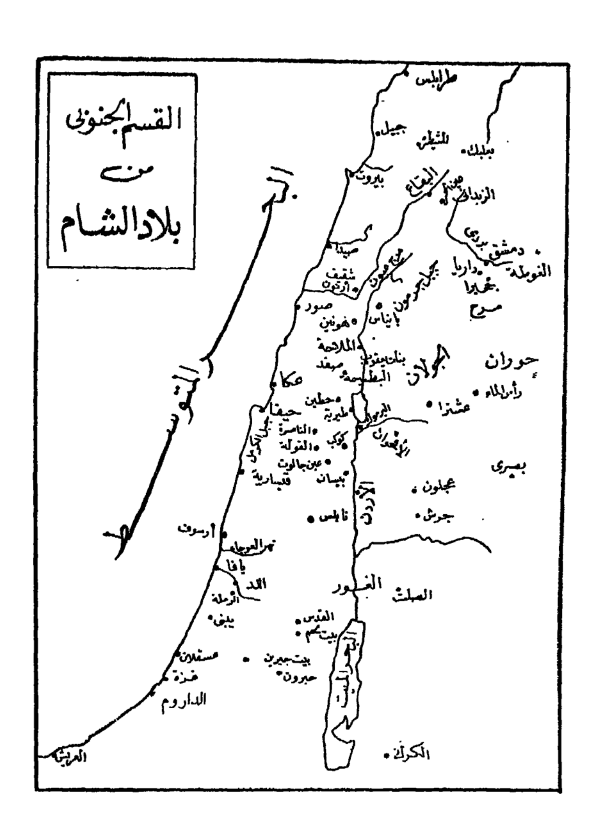
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


القسم الشمالي
من
بلاد الشام
بهسنا
مرعش
سميساط
قلعة الروم
الرها
دلوك
تل باشر
تل خالد
البيرة
سروج
الفرات
منبج
قلعة نجم
عزاز
مرج دابق
بزاعة
حلب
الأثارب
حارم
أرتاح
بغراس
دربساك
أنطاكية
النهر الأسود
نهر عفرين
نهر العاصي
بالس
قلعة جعبر
صفين
خناصرة
قنسرين
سرمين
تل السلطان
معرة مصرين
زردنا
البارة
معرة النعمان
كفر روما
كفرطاب
أفامية
لطمين
شيزر
حماة
سلمية
اللاذقية
جبلة
أبو قبيس
الخوابي
القدموس
مصياف
الكهف
بارين
طرطوس
حصن الأكراد
حمص
تل الشيخ


القسم الجنوبي
من
بلاد الشام
البحر المتوسط
طرابلس
جبيل
المنيطرة
بعلبك
بيروت
البقاع
الزبداني
دمشق
بردى
الغوطة
داريا
صيدا
شقيف
أرنون
صور
هونين
بانياس
الملاحة
بنات يعقوب
صفد
البطيحة
الجولان
حوران
عكا
حيفا
حطين
طبرية
اليرموك
الناصرة
كوكب
الفولة
عين جالوت
بيسان
قيسارية
عشترا
رأس الماء
بصرى
عجلون
جرش
نابلس
أرسوف
نهر العوجاء
يافا
اللد
الرملة
يبنى
الغور
الصلت
القدس
بيت لحم
عسقلان
بيت جبرين
حبرون
غزة
الداروم
العريش
الكرك

بسم الله الرحمن الرحيم

****

مقدمة التحقيق

لله تعالى الحمد والمنة، وبه العون والقوة ، ومنه الفضل والنعمة . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير قدوة للناس فى الخلق والعمل ، وللانسانية إلى يوم الدين أسمى مثل ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ...

فى كل جيل من الأجيال ، أو عصر من العصور ، تبرز شخصيات فى الوجود يجعلها الله — سبحانه وتعالى — التاريخ الحى لزمنها ، والنزوع الدافع للحياة فيه ، تنفخ فيه من روحها ، وتصنع أحداثه ، وتسطر بأعمالها المجيدة صفحاته .

صلاح الدين فى التاريخ :

ولقد كان ما تجرى به الأقلام على الصفحات ، وما تحفل به المؤلفات فى تراجم الأشخاص ، أبطالا كانوا أوعلماء أومفكرين ، محببا إلى نفوس القارئين — يقبلون عليه ويؤثرونه على ما سواه . ولهذا الحب وذلك الاقبال « أسباب نفسية وفنية ، إذ هى مرايا تتراءى فيها صور أشخاص صانعى التاريخ ومحركى الحياة »(١) ، وأمثلة عليا تتطلع إليها أنظار المبدعين من الأجيال التالية لهم ، ومشاعل يهتدى بها فى ظلمات الحياة حينما تتفرق السبل بالسائر فى طريقها .

ومن السير التى أثارت اهتمام الناس فى حياة صاحبها ، وستظل هكذا عبر القرون والأجيال « سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب » ذلك البطل السرىّ المجاهد ، الذى يستوقف النظر فى تاريخ الحروب الصليبية .

---

(١) مالك تجارب حياة للاستاذ أمين الخولى .

وحينما أذكر الحروب الصليبية ، لا أريد أن أتناولها بالوصف التفصيلى وذكر الأسباب التى دفعت إليها و..و.. الخ ، فقد كثر الحديث فيها وتناولها بذلك كثير من الكتاب من قبل ، وإنما أريد أن أبين الدور الذى لعبته القيادة الحكيمة المخلصة ، والتكتل الشعبى الذى التف حولها ، تدفعه وتسانده يقظة واعية . أثمرت تلك الانتصارات الساحقة التى أحرزها أبطال ثلاثة حملوا لواء الفكرتين وعملوا لهما مخلصين لله تعالى معتصمين به ، تحوطهم قلوب الشعب المؤمنة ، وتعمل معهم لبلوغ هدف مشترك ، ألا وهو طرد العدو المستعمر ، واستعادة الأجزاء السليبة من الوطن العربى .

ضعف فى الشرق يؤدى إلى كارثة :

يحدثنا التاريخ بأن الشرق الاسلامى شقى منذ القرن الثالث الهجرى بالفرقة والانقسام والتطاحن بين أمرائه وحكامه ، ثم عمته يقظة عامة على يد السلاجقة بلغت أوجها على يد « ملكشاه » ثم آذن موته ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢ م بعودة الفرقة والشحناء ثانية إليه ، وزاد الطين بلة ذلك الصراع الذى كان بين خلافتين ضعيفتين متهاويتين ، سنية فى بغداد وشيعية فى مصر .

فالأمراء والخلفاء يتناحرون ويتطاحنون ، والشعوب فى العراق والشام ومصر تكتوى بنار هذه الفرقة وذلك الصراع .

أدت هذه الحالة إلى استقرار الغزاة الصليبيين فى إماراتهم الأولى التى أقاموا صروحها فى « الرها » و« أنطاكية » و« بيت المقدس » و« طرابلس » بعد أن ارتكبوا من الحماقات الحربية ، وسفك الدماء بلاحساب ، وقتل الأبرياء والضعفاء ، وألوان التخريب والتدمير والفتك ، فى أنطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس ، ما تقشعر من هوله الأبدان ، وماسيظل سبة فى تاريخهم فى كل آن وزمان .

خير توالد من شر :

وإذا جاز أن نقول : ان من الشر لخيرا . فقد كانت هذه الفظاعات التى ارتكبت ، وهذه الشدائد التى صبها المستعمر على بلاد الشرق الاسلامى وشعوبه — إيقاظا له ولها من رقدته التى طال أمدها ، وصحوة له من سباته

العميق ، ومساعدا كبيرا على نبذ عوامل الفرقة والانقسام والتشتت ، وعونا على ظهور فكرتى القيادة الموحدة والتكتل الشعبى المتسم باليقظة والوعى لبلوغ هدف مشترك واحد .

برزت الفكرتان فى أول الأمر فى صورة « غزوات جهادية ضد الكفار » يقوم بها الخليفة العباسى تارة ، والسلطان السلجوقى أخرى ، أو بعض من الأمراء فى العالم الإسلامى — لا فى صورة حرب منظمة موجهة تحت قيادة واحدة لوحدة اسلامية شعبية متماسكة . ولم تكن هذه الغزوات إلا جهوداً ضائعة — أمام عدو متشبث قوى عنيد — يزول أثرها بزوال وقتها .

دعت هذه الحالة الرأى العام إلى التفكير فى الأمر ، فلابد لبلوغ النصر على العدو وتدميره وطرده ؛ من قيادة واحدة لوحدة شعبية دافعة .

فكرتا القيادة الموحدة والوحدة الشعبية تخرجان إلى الحيز العملى :

وشاء الحق جل وعلا أن يمن على الذين استضعفوا فى الشرق وبلاده ويجعلهم أئمة ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، ومن بعد ذلهم وفرقتهم عزا وقوة ، فحمل لواء الأمر رجال ثلاثة ، اتسموا بصلابة العود ، وصعوبة المراس ، فى صراع العدو ومنازلته .

كان أول من فطن إلى الأمر وهب يعمل نه فى عزم وثبات ، أمير الموصل « عماد الدين زنكى » ، إذ سرعان ما أصبح الشخصية المرموقة التى التف حولها الشعب بعد أن كون له ملكا واسعا بين الجزيرة العراقية والشام فقد أخضع « حلب » و « حماة » و « حمص » و « بعلبك » وأقام فى سورية الداخلية دولة قوية البنيان يحميها جيش قوى وتصرف أمورها إدارة منظمة يسيرها رجال أكفاء ، ثم اندفع إلى معقل الصليبيين الأول فى « الرها » و « سروج » ، فزلزل أركانه ، وأسقطه سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ م ، وظل يوجه ضرباته السديدة القاصمة إليهم حتى فارق الدنيا ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م ممهدا لابنه وخلفه الطريق ليضرب الضربة الثانية ضد العدو الجاثم على صدر البلاد .

آمن « نورالدين محمود » الملقب بالشهيد — ذلك المجاهد التقى المخلص —

بأن رضاء الله تعالى لا يتم إلا بالجهاد فى سبيله ــ ضد عدو البلاد وتحقيق السياسة التى بدأها أبوه من قبل ، فاشترى الآخرة بالحياة الدنيا ، لا يهمه مطامع شخصية ، ولا مكاسب مادية ، وآثر الوحدة والتكتل ــ ضد العدو المشترك ــ على الفرقة والتنازع ، وضرب لذلك مثلا بتسامحه ــ مع القدرة ــ فى استرداد « بعلبك » من أمير دمشق ذلك الذى كان قد اقتنصها عقب وفاة « عماد الدين زنكى » .

وافتتح عهده بضربة سديدة وجهها إلى الصليبيين استرد بها الرها وكانوا قد استعادوها عقب وفاة زنكى ، ثم قصم ظهرى امبراطور ألمانيا وملك فرنسا أمام أسوار دمشق فعادا وجنودهما إلى بلادهم خائبين مدحورين . وفتحت « دمشق » أبوابها له مرحبة سنة ٥٤٩ هـ فنقل عاصمة ملكه إليها ، وازداد بهذا الفتح المبين تدعيم الجبهة الداخلية ، كما ازداد التكتل الشعبى تحت رايته ، وسارت جيوشه تحرسها عناية الله سبحانه تدك صروح الصليبية الغاشمة وجنودها فى الشام ، وسرت روح اليقظة والتكتل والوحدة القيادية فى ربوع العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

ثم تتابعت الأحداث فى مصر ، وشاء الله سبحانه أن تتضافر الظروف المختلفة على شد أزره وتقوية مركزه ، وتوحيد الجبهة الاسلامية كلها تحت قيادته الحكيمة ، وتحقيق حلم طالما سعى الشرق إلى تحقيقه ــ ذلك هو سقوط مصر فى قبضة جيوشه التى قادها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين سنة ٥٦٤ هـ ، وزوال الفتن الداخلية التى عمتها ، والتى كادت أن تمكن الأسد الصليبى من أن ينشب أظفاره فيها ، ثم سقوط الخلافة الشيعية واحلال الخلافة السنية مكانها سنة ٥٦٧ هـ .

ظل نور الدين ــ والشعب حوله ــ مخلصا للهدف الذى كرس حياته له حتى انتقل إلى الدار الآخرة سنة ٥٦٩ هـ ، بعد أن أثبت فى مدة ربع القرن التى حكمها بأنه بطل خدم القضية الاسلامية العربية والوحدة الشعبية ، وسياسى مخلص قدير ، حقق ما رسمه وأعد له أبوه من قبل ، واستطاع أن يسير فى سبيل وحدة الصف وقيادة الشعب خطوات واسعة موفقة ، ويستفيد من الوعى واليقظة الشعبية التى سرت فى بقاع العالم الإسلامى العربى ، وأن

يرسى القواعد التى بلغ بها خلفه فى القيادة ذروة النصر فى حطين من بعد ، هذا إلى ما امتاز به من نشر عدل ، وقوامة خلق ، وسلامة دين ، وتشجيع للعلم والعلماء .

صلاح الدين يصل بالهدفين إلى الذروة :

كانت وفاة نور الدين خطراً هدد الوحدة القيادية ، وهز كيان التكتل الشعبى ، إذ آل الملك إلى ابنه الطفل ، فتنازعته أهواء القادة من حوله ومطامعهم وأوشك ذلك البنيان الشامخ الذى شاده الشعب بدمائه ، ودعمته حكمة وقوة القائدين – عماد الدين ونور الدين – على الانهيار ، لولا أن قيض الله تعالى له برحمته من سار به إلى نهاية الشوط ، وارتفع به إلى الذروة التى تطلع إليها الشعب المخلص الأمين فى دفعه ، ذلك هو البطل « صلاح الدين الأيوبى » .

امتاز صلاح الدين بصفات شخصية واجتماعية وحربية ودينية ، جمعت حوله قلوب الرعية وجذبت لحبه نفوسهم ، فانقادوا له ، وتكتلوا حول لوائه .

فلقد رأوا فيه رجلا صائب الرأى حصيفا ، يبدو فى معالجة الأمور كأنه موحى إليه أو ملهم ، ذو عزم ماض ويقظة دائمة وتنبه ، وهمة عظيمة بعيدة الآمال ، ومقابلة للشدائد بصدر رحب وصبر ، مع استعذاب ولذة فى عراكها ، وزهد فى الحياة الدنيا وزخرفها ، وعفة فى قدرة ، وتواضع فى عزة ، ولين لا يمس الهيبة ، وكف ندى ، وشجاعة فى إقدام ، ومراقبة لله سبحانه فى كل عمل ، وابتغاء لمرضاته فى السر والعلن .

وضع صلاح الدين نصب عينيه منذ أن دانت له وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ العمل على إتمام توحيد القوى ضد الصليبيين ، والوصول إلى نهاية الشوط الذى بدأه عماد الدين ، وتوجيه هذه القوى ضد العدو وطرده من أرض العالم الاسلامى العربى إلى غير رجعة .

أحس منذ اللحظة الأولى بأن الله قد أعده لأمر عظيم ، فقال كلمته

« لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى » (١) .

وشاء الحق جل وعلا أن يمده بأسباب تثبيت سلطانه فى مصر وأن يجعل له من أهلها وشعبها الوفى المخلص ، الدرع القوى الأول ، فانطلق به تحدوه قلوبهم ، وتدفعه عزماتهم ، وتؤيده جموعهم ، يدافع عن مصر ضد من هاجمها من الصليبيين فى دمياط سنة ٥٦٥ هـ ، وفى الاسكندرية سنة ٥٦٩ هـ حتى ردهم عنها أذلاء مدحورين . ثم تغلب به على المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهته ، كما ثبت به قواعد ملكه فى النوبة والحجاز واليمن وشمال افريقية . ودفع عنها غائلة الطامعين والمفسدين، ثم انطلق إلى الشام يقضى فيه على الفوضى وعوامل الضعف التى أخذت تهدده ، فسارت رايته من ظفر إلى ظفر ، ومن نصر إلى نصر ، تسبقها سيرته العطره ، ومآثره الحميدة ، وانتصاراته على الفرنج ، وفتحت له دمشق أبوابها مرحبة به سنة ٥٧٠ هـ كما رحبت بنور الدين من قبل ، ودانت له البلاد من أقصاها إلى أقصاها . وتم له ما تمناه من وحدة قوية تسودها وتدفعها يقظة الشعوب ووعيها .

ثم بدأ بها الجولة التى بلغ بها ذروة النصر فى حطين سنة ٥٨٣ هـ = ١١٨٧م وما أعقبه من سقوط بيت المقدس وغيره من البلاد ، ذلك النصر الذى زلزل أوربا ودمر أكبر قوة للصليبيين فى الشرق الاسلامى العربى . وتمت كلمة ربك بنصر المعتصمين بحبله المتين ، المخلصين لبلوغ الهدف النبيل « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

والناظر فى الكلمات السابقة يرى أن القدر قد رسم بريشته الحكيمة صورة بديعة لتطور الوحدة القيادية ، والتكتل الشعبى الذى اتسم باليقظة والوعى الدافع لهذه القيادة . والتى كانت سراجا وهداية لمن خلف صلاح الدين من القادة والشعوب حتى طهر الشرق من العدو الصليبى فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م .

---

(١) صلاح الدين لابن شداد تحقيق محمد محمود صبح نشر الدار القومية فبراير ١٩٦٢ .

أثار نصر حطين وسقوط بيت المقدس فى قبضة صلاح الدين نفوس الشعراء ، وحرك أقلام الكتاب فجرت تشيد بهذا النصر المبين ، وتذكر آلاء الله تعالى على المحاربين والمجاهدين ، وممن اتخذ سنة عودة القدس أساسا لمؤلفه عن عهد صلاح الدين « العماد الاصفهانى » صاحب كتابنا هذا .

مؤلف الكتاب :

مولده ونشأته :

هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله القرشى الأصفهانى ، المعروف بـ « ألـه » - وأله اسم أعجمى معناه العقاب وهو الطائر المعروف ، وقد اشتهر به العماد الأصفهانى .

ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ ونشأ بها ، ثم قدم بغداد مع أبيه شابا حدثا فأقام بها مدة ، انتظم فيها فى سلك المدرسة النظامية ، وتفقه على الشيخ أبى منصور سعيد بن محمد بن الوزان (١) ، وسمع الحديث من أبى الحسن على ابن هبة الله بن عبد السلام ، وأبى منصور محمد بن عبد الملك بن جيرون(٢) ، وأبى المكارم المبارك بن على السمرقندى ، وأبى بكر أحمد بن على بن الأشقر وغيرهم . وأجاز له أبو عبد الله الفراوى وأبو القاسم بن الحصين .

اشتغاله بالكتابة :

ثم عاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه - أصبهان - فتفقه بها على محمد بن عبد اللطيف الخجندى ، وأبو المعالى الوركانى ، ثم رجع إلى بغداد ، وشاء الله تعالى أن يكون فى هذه الرجعة بدء صعوده سلم المجد كأديب وكاتب له مكانته السامية فى عالم الأدب ودنياه . اشتغل العماد بصناعه الكتابة فبرع

(١) فى معجم الأدباء بتحقيق د . فريد رفاعى « الرزاز » .

(٢) « خيرون » فى المرجع السابق .

فها ونبغ ، ثم بدأ نجمه في الصعود والتألق، فاتصل بالوزير عون الدين يحيي ابن هبيرة(١) ، فولاه النظر بالبصرة أولا ثم بواسط .

ظل العماد مسر العيش ، هانئ البال في حياة ابن هبيرة ، ولم يدر ما خبأه له الدهر من شدائد ومنغصات ، فما أن وافت المنية ذلك الوزير حتى صدرت أوامر الخليفة باعتقال جماعة من أتباعه من بينهم العماد ، فكتب من حبسه إلى عماد الدين بن عضد الدين ابن رئيس الرؤساء — وكان حينئذ أستاذ الدار (٢) المستنجديه وذلك في شعبان سنة ٥٦٠ هـ قصيدة منها :

قل للإمام علام حبس وليكم أولوا جميلكم جميل ولائه
أو ليس إذ حبس الغمام وليه خلى أبوك سبيله بدعائه (٣)

فأمر باطلاق سراحه وتخلية سبيله .

أقام العماد في بغداد فترة كان فيها منكد العيش ، مسهد الجفن وما أشد على النفس من ذل بعد عز ، ومن ضيق بعد فرج وسعة — فعزم على أن يرحل منها إلى دمشق ، علّه أن يجد في كنف سلطانها العادل نور الدين محمود ، الأمن والطمأنينة ، وسعة العيش ورغده ، فشد الرحال إليها فدخلها في شعبان سنة ٥٦٢ هـ .

كان حاكم دمشق ومتولي أمورها لنور الدين محمود آنئذ هو القاضي

---

(١) ابن هبيره : هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني ، وزير بغداد ، ولد سنة ٤٩٧ هـ بقرية الدور من نواحي بغداد . وزر للمقتفي ثم المستنجد ، وتوفى سنة ٥٦٠ هـ . كان عالما دينا وله عدة مصنفات منها «الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح» (الروضتين تحقيق . د . محمد حلمي أحمد قسم ثان ص ٣٥٩)

(٢) (ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ : ٩٣) أنه من «إليه أمر بيوت السلطان كلها من المصالح والنفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك . وهو من أمراء المئين . وذكر الإمام السبكى في كتابه معيد النعم ومبيد النقم في ص ٢٦ : بتحقيق محمد على النجار وزميليه أنه المتكلم في اقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم ، وهى كلمة فارسية الأصل صواب كتابتها « استدار » أو « استذار » .

(٣) في البيتين إشارة جميلة إلى حادثة استسقاء عمر بن الخطاب بالعباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم .

كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبدالله بن القاسم بن الشهرزورى (١) ، فتعرف به العماد ، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية ، وكان يحضر مجالسه ، ويذاكره بمسألة الخلاف فى الفروع . وعرفه الأمير نجم الدين أبو الشكر أيوب والد صلاح الدين — وكان العماد له سابق معرفة به وبأخيه أسد الدين شيركوه منذ أن كان عمه (أى عم العماد) معتقلا بقلعة تكريت ، « ونجم الدين إذ ذاك وليها » فانتسجت المودة بينهم من هناك ، فلما سمع ابن أيوب بوصوله « بكر إلى منزله لتبجيله » وأحسن إليه وأكرمه ، وميزه عن الأعيان والأماثل ، فمدحه العماد بقصيدة منها :

موفق الرأى ، ماضى العزم ، مرتفع	على الأعاجم مجدا والأعاريب
أحبك الله إذ لازمت نجدته	على جبين بتاج الملك معصوب
أخوك وابنك (٢) صدقا منهما ، اعتصما	بالله ، والنصر وعد غير مكذوب

بدء اتصاله بصلاح الدين :

ولما عاد أسد الدين وصلاح الدين من مصر ، اتصلت بين العماد وصلاح الدين المودة ، وأخذ يستهديه نظمه ونثره ، وكأنما شاء الله تعالى أن يمهد بهذه الصلة لما سيكون فيما بعد بين الاثنين من وشائج قوية .

ارتفع ذكر العماد فى دمشق ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعوضه مافقد من عز أيام ابن هبيرة فى بغداد ، وما لاقاه من عنت ومذلة بعد وفاته ، فنوه « الشهرزورى » بذكره أمام « نور الدين » وعدد عليه فضائله ، وأهله لكتابة الانشاء ، ولما كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده ، إذ لم يكن قد مارسها من قبل ، خاف الاقدام فى أول الأمر ، وبقى متحيراً . ويحدثنا العماد عن نفسه فيقول : « فبقيت متحيراً فى الدخول فيما ليس من شأنى

---

(١) هو أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله الفقيه الشافعى ، كان قاضى الموصل أيام عماد الدين زنكى ، ثم قدم دمشق ٥٥٠ ﻫ فولاه نور الدين قضاءها سنة ٥٥٥ ﻫ ، وكانت وفاته سنة ٥٧٢ ﻫ (ارجع إلى طبقات الشافعية الكبرى) .

(٢) يشير العماد إلى أسد الدين وصلاح الدين اللذين كانا آنئذ بمصر للدفاع عنها ضد الصليبيين .

ولا وظيفتي ، ولا تقدمت لى به دراية » ، غير أنه ما لبث أن تيسر له أمرها ، وهانت له حين مارسها وأجادها إجادة لم تكن له في الحسبان ، وأتى فيها بالغريب الذى لفت إليه الأنظار ، وأثار انتباه ذوى الحجا والأقلام . فبرز اسمه بين أسماء البارزين في هذه الصناعة ، وعلت منزلته عند نور الدين ، وصار صاحب سره .

وسيره رسولا إلى بغداد ، كما فوض إليه في سنة ٥٦٧ هـ أمر المدرسة النورية الشافعية وهى التى عرفت فيما بعد بالعمادية نسبة إليه ، كما ولاه الاشراف على ديوان الانشاء سنة ٥٦٨ هـ .

ابث العماد يتقلب في نعم الله ، وطاب عيشه ، واستقام حاله ، طيلة حياة نور الدين . حتى إذا مات وخلفه ابنه الصالح اسماعيل سنة ٥٦٩ هـ ، نفس الحاقدون عليه مكانته السابقة ، فأخذوا يدبرون له المكائد ، ويضايقونه بشتى المضايقات ، وينسجون حوله ما أخافه وأفزعه ، فآثر السلامة بترك جميع ماهو فيه ، وشد الرحال إلى بغداد ، حتى إذا بلغ « الموصل » في طريقه ، هاجمه المرض هجوما شديدا : وكاد يقضي عليه . لولا أن تداركته رحمة الله الواسعة فبرىء منه .

في هذه الفترة سرى خبر خروج صلاح الدين من مصر قاصدا دمشق لتخليص الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود من حاشية السوء والانتهازيين الذين أحاطوا به ، ولتوحيد الدولة في قوة تقف أمام الصليبيين — سريان ضوء الشمس ، فانثنى عزم العماد سنة ٥٧٠ هـ عن مواصلة السير إلى بغداد ، ورأى في العود إلى دمشق والالتقاء بصلاح الدين خيرا وبركة ، وأمنا وطمأنينة ، فقد سبق أن توثقت عرا الصداقة بينهما ، وتوطدت العلائق ، وتأكدت المودة فعاد إليها ، وكان صلاح الدين قد غادرها إلى حلب ثم إلى حمص فلحق به ، وكان قد تسلم قلعتها فمدحه بقصيدة طويلة ؛ ولزم بابه ، ينزل لنزوله ، ويدحل لرحيله ، واستمر مدة يغشى مجالس صلاح الدين متقربا إليه وإلى القاضي الفاضل ، ينشد السلطان المدائح ويعرض بصحبته القديمة ، حتى نظمه في سلك جماعته .

هكذا طويت صفحة مليئة بالمتاعب والشدائد من حياة العماد، ونشرت صفحة جديدة سيبلغ فيها أوج المجد ويرتفع ذكره ، ويخلد اسمه بين الخالدين من أدباء ومؤرخين .

فلقد استكتبه صلاح الدين ووثق به ، وقربه إليه ، وصار من خاصته ، يضاهى الوزراء ويجرى فى مضمارهم ، « صاحب السر المكتوم إذا غاب القاضى الفاضل والنائب عنه » وأن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التى كانت للفاضل فى نفس صلاح الدين .

مكانة العماد بين القاضيين الفاضل وبهاء الدين بن شداد :

ويطيب لى فى هذا المقام أن أبين فى بضع سطور ، الفارق فى المكانة بين رجال ثلاثة ، كانوا دعامة الحكم فى عهد صلاح الدين ، وموضع ثقته البالغة . أولئك هم القاضى الفاضل . والعماد الكاتب . وبهاء الدين بن شداد .

كان القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى رجلا أتاحت له ظروفه ومنصبه أن يعاصر فترتين من فترات الحكم فى مصر . سقوط الفاطمى . وقيام الأيوبى ، كما كان صاحب ديوان الانشاء فى عهدى شيركوه وصلاح الدين ، وقد كان للكفاءة الإدارية التى امتاز بها . ولطول باع تلمه . ولاخلاصه فى عمله وتدينه ، الفضل الأكبر فى أن يصبح الساعد الأيمن لصلاح الدين « يعتمد عليه فى كل ما يتعلق بشئون دولته » . ينيبه عنه فى مصر إذا غاب . ويستمده النصح والمشورة إذا أشكل عليه أمر أو عرضت له شدة . ولذلك كانت له فى قلب صلاح الدين المكانة الأولى التى لا تدانيها مكانة : وما أجمل قول صلاح الدين فى تقدير منزلته ، لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل » .

أما القاضى بهاء الدين بن شداد فقد كانت صلته به بسبب إعجابه بعلمه وبشخصيته ، إذ رأى فيه من السمات والصفات والعلم ما يدعو إلى احترامه والركون إليه . فعرض عليه فى سنة ٥٨٤ هـ تولى قضاء العسكر فقبل . وبدأت الصلة تقوى بينهما منذ هذا التاريخ . وزادت القربى والمحبة . وظل ابن شداد ملازما لصلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ . ولذلك نرى أن مكانته

بالنسبة لتدبير شئون دولة صلاح الدين بين الثلاثة، هى التالية للعماد، والثانية بعد الفاضل فى الدين والعلم وفى الميل والاطمئنان الشخصى .

صلة وطيدة بين العماد والفاضل :

توطدت الصلة بين العماد والفاضل وتآلفا اجتماعيا ، ولاعجب فى ذلك فقد كان العماد ينحو فى كتاباته نحو « مذهب أصحاب التصنع » ذلك المذهب الذى كان الفاضل يتبعه ويدعوله ، والذى كان لديه فيه من البراعة الفنية ماجعله « ينهض بصعوباته دون أن يستشعر الإنسان ما فيها من أثقال » ، وما من شك فى أن الفاضل « كان أبلغ كتاب العصر الأيوبى فدفع العصر كله من ورائه فى دوائر نماذجه » ، وكان العماد يقول عنه « رب القلم والبيان ، واللسن واللسان » كما كان الفاضل يقدره بقوله « العماد الكاتب كالزناد الوقاد » .

وقد سجلت لنا كتب الأدب والتاريخ بعضا من المحاورات اللطاف التى كانت بين الكاتبين :

فقد لقى العمادُ الفاضل وهو راكب على فرس فقال له : « سرْ فلا كبَا بك الفرس » فرد عليه الفاضل : دام علُا العماد (١) .

واجتمعا يوما فى موكب صلاح الدين ، وقد انتشر من الغبار لكثْرة الفرسان ما سد الفضاء ، فتعجبا من ذلك ، فأنشد العماد فى الحال :

أما الغبار فانه ... مما أثارته السّنَابك
والجو منه مظلم ... لكن أثارته السّنَابك
يا دهرُ لى عبد الرحيم فلست أخشى مس نابك (٢)

حج الفاضل سنة ٥٨٤ هـ من مصر وركب البحر فى طريقه فكتب العماد إليه رسالة نذكر منها :

« طوبى للحجر والحجون من ذى الحجر والحجا ، منيل الجدا ، ومنير

---

(١) وهذا مما يقرأ مقلوبا وصحيحا ، سواء . وهو ضرب من البديع يسمونه القلب ، وهو من المحسنات اللفظية .

(٢) لقد اتفق له الجناس فى الأبيات الثلاثة وهو فى غاية الحسن .

الدجا ، ولندى الكعبة من كعبة الندا ، وللهدايا المشعرات من مشعر الندى وللمقام الكريم » ...... إلى أن قال « لقد عاد « قُسّ » إلى عُكاظه ، وعاد « قيس » لحفاظه ، وياعجبا لكعبة يقصدها كعبة الفضل والأفضال ، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والاقبال » ...

وقد ذكر العماد فضل الفاضل عليه فى عدة مواضع من كتابه « الفتح القدسى » من ذلك قوله عنه حين قدم على صلاح الدين بالشام سنة ٥٨٧ هـ « رب الفضائل والفواضل ... » ثم يذكر كيف تحدث مع السلطان فى رفع رتبته وراتبه « ونبه قدرى ، ونوه بذكرى ، وسعى فى رفع رتبتى وزيادة راتبى ... ولولا أننى قويت به لأقويت ، ولولا أنه أولانى عارفته لما عرفت ولا توليت ، فأنا شاكر نعمه عمرى ، وعامر كرمه بشكرى » .

العماد الشاعر :

لم يكن العماد كاتبا فقط ، بل عرف أيضاً كشاعر من شعراء العصر الأيوبى المعدودين ، غير أن قدرته فى الشعر وشهرته فيه ما كانت لتقف أمام قدرته ومكانته كأديب وكاتب رفعه قلمه ، وسمت به أساليبه الفنية إلى صفوف المبرزين من أهل الكتابة . وقد جمع لنفسه ديوانا من شعره فى أربعة مجلدات ، وديوانا آخر صغيرا ، فمن قوله من قصيدة يمدح بها صلاح الدين :

جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت ... ملائكة الرحمن أجنادك الخمسا
وكم لبنى أيوب عبـــد كعنتر ... إذا ذكروا بالناس لم يذكروا عبسا

ومن قوله ينوه بكرم صلاح الدين :

وقيل لنا : فى الأرض سبعة أبحـــر ... ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

ومن قوله وهو يطمح فى أن يفتح صلاح الدين القدس ، ويوحد بلاد الإسلام :

توكل على الله الــذى لك أصبحت ... كلاءته درعا ، وعصمته ترسا
ولا تُنْسَ شرْك الشرق غرْبك مرْويا ... بماء الطلى من صاديات الظبا الخمسا
فان بلاد الشرق مظلمة ، فخُــذْ ... خراسان والنهرين والترك والفرْسا

ولم يقتصر فى شعره على الوصف والمدح بل قال فى الغزل أيضاً ، وإليك بعضا مما قال :

أفدى الذى خلبت قلبى لواحظــه   وخلفت لذعات الوجـد فى كبدى
صفات ناظره سقم بــلا ألم . . .   سكر بلا قدح جرح بلا قــود
على محياه من نار الصبا شعــــل   وورد خديه من ماء الجمال ندى

كما طرق ضروبا أخرى فمن حكمياته ·

اقنع ولا تطمع فان الغنى   كماله فى عــزة النفس
فانما ينقص بــدر الدجى   لأخــذه الضوء من الشمس

وقوله أيضاً :

وما هــذه الأيام إلا صحائف   يؤرخُ فيها ثم يمحى ويمحــق
ولم أر فى دهرى كدائرة المنى   توسعها الآمال والعمــر ضيق

ومن قوله فى معاملة الناس :

دار غير اللبيب إنْ كُنْتَ ذا لُبّ   ولاطفــه حين يأتى بحـــذق
فأخــو السُكْر لا يُخاطبــه الصا   حى إلى أن يفيق إلا برفـــق

ومن مراثيه من قصيدته التى رثا بها صلاح الدين والتى بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتا :

شمل الهدى والملك عمّ شتــاتُــه   والدهر ساء وأقلعت حسناتــــه
أين الذى كانت له طاعاتنــــا   مبذولة ، ولربــه طاعاتــــه
أين الذى شرف الزمان بفضلـه   وسمت على الفضلاء تشريفاتــه
أين الذى عنت الفرنج لبأســه   ذلا ومنها أدركت ثاراتــــه

نعم العماد بثقة صلاح الدين واطمئنانه إليه فى تصريف الأمور ، والرضا بقسمة الأموال التى يسلمها إليه . والتوقيع على ما يوقع عليه دون مراجعة، وقضاء حاجات من لجأ إليه من الناس عن طريقه ، وقد سجل لنا ذلك فى

كتابه . « وان أصحاب المطالب ، والراغبون(١) فى الرغائب ، والذاهبون فى المذاهب ، يحضرون عندى ويعرفون فى انجاز أمورهم وانجاح قصدهم ، فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم ، وأنتهى فى الاملاء بنهاية مأمولاتهم ، فيجريها ويمضيها ، ويضع علاماته فيها ويرتضيها ، فاذا ألفى توقيعا بخطى ، علم فيه ، ولم يقف بنشره على سر مطاويه ، الفا بما ألفه من صحبتى ومناصحتى ، وكفاء للمهمات بكفايتى » .

والناظر فى هذا الكتاب يرى أن العماد قد اعتز بقلمه ، ووثق بأسلوبه وبأثره فى عدة مواضع . وفى كثير من المناسبات ؛ اعتزازا وثقة تدفعان إلى الظن باتهامه بتجاوز حد التواضع إلى الزهو والخيلاء ، فتارة يقول : فبشرت بأقلامى أقاليم البشر ، وعبرت بأعاجيبى عن عجائب العبر ، وملأت البروج بالدرارى ، والدروج بالدرر » .

وأخرى يذكر « وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزيره ، وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، والقوا السقم فى غيره فأنفوه . » .

ويبلغ قمة الاعتزاز بقلمه حين يذكر أن خطره أشد من سيوف أصحاب السيف والرمح « وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ، ومن رماحهم أخطى وأخطب ، ومن سهامهم أنجى وأنجب ، ومن قسيهم أكسى واكسب » ، بل نراه يجاوز حد هذا القول بأن آثار قلمه لا تحمل ولا تخمد بينما يصيب آثار السيف الطوى والنسيان فيقول : «وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها ، وآثارى من الذكر لا تحمل ولا تخمد » .

. وها هو ذا يحدثك عن نفسه فيبلغ قمة الاعتزاز ، إذ يقول بأن أخباره التى يحدث بها عن صلاح الدين لا تموت ولا تنسى ، بينما تموت أخبار غيره « فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته ، وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته ، والذى أخبر أنابه عنه روض يزهو إذا أقلعت الأيام

(١) الراغبون ، الذاهبون ، هكذا فى الأصل ، ولعل وجهة نظر المؤلف أن هذه الجملة مقطوعة عما قبلها ولذلك رفعت بتقدير الخبر ، وهذا مثل قوله تعالى « إن الذين آمنو والذين هادوا والصائبون والنصارى ... » (الآية ٦٩ سورة المائدة)

سحبا ، ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا ، فهو قول يذكر ، وينسي كل فعل وفاعله ، لا قول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لايأتى فى غد إلا جاهله » .

صنف العماد عدة مؤلفات تعتبر مراجع قيمة فى الأدب والتاريخ هى : « خريدة القصر وجريدة العصر » ذكر فيه الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة ٥٧٢ هـ وجمع فيه شعراء الشرق الاسلامى والشام ومصر والمغرب فى عشر مجلدات (١) ، ولم يذكر فيها النادر الخامل .

وكتاب « نصرة الفطرة وعصرة القطرة فى أخبار الدولة السلجوقية » وهو يشمل تاريخ من اتصل بهم من ملوك الدولة السلجوقية قبل قدومه إلى الشام .

كما أن له كتابا فى سبع مجلدات ، هو مجموع تاريخ ، بدأه بالحديث عن نفسه ، وصور فيه انتقاله من العراق إلى الشام ، وتاريخه فى دولة نور الدين وخدمته لصلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ ، وذكر شيئا من الفتوحات بالشام وقد سماه « البرق الشامى » لأنه شبه أوقاته فى تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها .

وغير ما ذكرنا فإن له أيضاً ديوان رسائل ، و « كتاب السيل على الذيل » ، و « كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى » الذى نحن بصدده .

هذا الكتاب :

أما كتاب الفتح القسى .... » فهو سجل لما قام به صلاح الدين من جهاد وحروب منذ سنة ٥٨٣ هـ حتى سنة ٥٨٩ هـ ضد الصليبيين ، أى منذ السنة التى فتح فيها بيت المقدس إلى السنة التى توفى فيها ، وما أعقب هذه الوفاة من أحداث .

وقد تميزت هذه الفترة بمظهر الوحدة الكاملة للعالم الإسلامى الذى يقوده صلاح الدين ضد عدو البلاد ، وبحدوث الضربة القاصمة له فى « حطين » ،

---

(١) لا يزال هذا الكتاب فى معظمه مخطوطا ، ولم ينشر منه إلا جزءان عن أدباء مصر وجزء عن أدباء الشام والجزيرة .

وما أعقبها من سقوط بيت المقدس فى قبضته ، وسقوط كثير من البلدان والقلاع الصليبية التى كانت تعد مراكز هامة للفرنج فى فلسطين والشام ، ثم سقوط عكا ثانية فى يد الفرنج ، والصراع الذى كان بين صلاح الدين من جهة ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الأسد ملك انجلترا من جهة أخرى — ذلك الصراع الذى انتهى بمعاهدة الرملة سنة ٥٨٩ هـ .

كما سجل طرفا من صفات وسجايا صلاح الدين ، وما أعقب وفاته من تقسيم للبلاد بين أولاده وآله . ويشمل الكتاب كذلك الكتب والرسائل التى بعثها صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد ، وإلى سائر الملوك والسلاطين المسلمين لاستنفارهم إلى الجهاد ، أو وصف حالة الحرب ، أو تبشيرهم بالنصر — أو غير ذلك — من إنشاء العماد . كما أنه تبيان للعلاقات التى كانت قائمة بين مصر وغيرها من البلدان فى هذه الفترة ، ولذلك فهو وثيقة تاريخية هامة لعصر صلاح الدين ، تضاف إلى الوثائق الأخرى مثل كتاب « سيرة صلاح الدين لابن شداد » ومراسلات القاضى الفاضل .

ولما كان المؤلف أديبا واسع الأفق والثقافة ؛ وكاتبا بليغا صادق الحس ؛ فقد استطاع فى سرده للأحداث التاريخية ؛ ووصفه للمعارك الحربية ؛ أن يربط بينها وبين المسرح الجغرافى لهذه الأحداث ، ربطا امتاز بالدقة وتجلت فيه مقدرته على إبراز الصورة الواضحة التى تكاد تنبض بالحياة ، وتبين مواطن الضعف والقوة فيها ، ومشاعر المحاربين فى البر والبحر أثناءها . كما نجح نجاحا كبيراً فى وصف البقاع والبلدان والمنشآت التى تناولها ، والحالة الاجتماعية التى عليها سكان البلدان .

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه حديث من شاهد الأحداث بنفسه أو وقف عليها فى أثناء عمله بديوان الانشاء ، أوسمع عنها فتحرى الدقة والتثبت فيما سمع .

وقد اتبع المؤلف فى ايراد الأخبار « نظام الحوليات » الذى كان سائدا فى عصره ، ولم يتعرض لترجمة الأعلام سواء أكانوا علماء أو رجال سيف أو حكاما إلا فى النادر القليل .

ويحدثنا العماد فى مقدمة كتابه هذا أنه اختار اسم « الفتح القدسى » لكتابه قبل عرضه على القاضى الفاضل ، فلما عرضه عليه قال له : « سمه الفتح القسى فى الفتح القدسى » تنبيها على جلالة قدره ، وتنويها بدلالة فخره ، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس(١) وبلاغته ،وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته » .

وقد اختار العماد الأسلوب الأدبى للكتاب ليكون روضا يعيش الأديب فيه ، ويطوف أرجاءه ، ويمشى فى جنباته ، يقطف من أزاهيره اليانعة ، وينهل من غدرانه ، كما يجد فيه المؤرخ ضالته ، وفى ذلك يقول · « و هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع ، والأديب أن يقول » .

أسلوب الكتاب :

التزم العماد فى هذا الكتاب « اللغة الفنية المصنوعة من ألف الكتاب إلى يائه » كما التزم السجع التزاما لم يتخل عنه ، واعتمد على الاكثار من استعمال المحسنات البديعية واللفظية إلى درجة كبيرة ، « تجعل استخلاص الحقائق التاريخية منه أمرا صعبا ، ومهمة شاقة » على بعض القراء ، ولكن الصدق الذى امتازت به هذه المعلومات يجعلها تستحق ما يصرف فى سبيل استخلاصها من عناء وجهد .

وإذا تحدثت عن أسلوب العماد فتجدر الاشارة إلى أنه نهج منهج أصحاب مذهب التصنع ـــ وهو مذهب ساد المشرق والأقاليم الاسلامية فى القرن السادس الهجرى ، وكان العماد كغيره من أدباء عصره يعيش فى الاطار الفنى العام له ، من استعمال للمحسنات البديعية واللفظية : من تنظير ، وتشخيص ، وتورية ، وجناسات منقوصة وغير منقوصة ، واقتباس من آى

---

(١) يقصد قس بن ساعدة الايادى خطيب العرب وفصيحها فى الجاهلية .

الذكر الحكيم وتضمين بديع لها ، وبراعة فى ذكرها فى مواضعها ، وكذلك تضمين الشعر ، كما استخدم عناصر التصنع لمصطلحات العلوم والنحو ، ومراعاة النظير ، والطباق ،والجناس المقلوب، كما عنى بالتشخيص والتصوير

فى خضم المذاهب الكتابية التى كانت سائدة ؛ من تصنيع(١) وتصنع نشأ العماد ..... وترعرع واستوى عوده ، وبلغ أشده ، ومنها أخذ ونهل ، فلا غرابة أنه قد التزم مذهب التصنيع فى الأغلب فى كتابة الفتح القسى وفى كتبه الأخرى ورسائله جميعها .

تحقيق هذا الكتاب :

كان للأهمية التى حظى بها - بفضل الله تعالى - كتاب « سيرة صلاح الدين لابن شداد » بتحقيقى والذى نشرته الدار القومية للطباعة والنشر فى ١٥ فبراير سنة ١٩٦٢ - أثر بليغ ؛ ودافع قوى لى ؛ للبحث عما يفيد كمصدر هام فى تاريخ صلاح الدين ، ذلك البطل الذى وهب نفسه وحياته وضحى براحته والعيش الرغيد لاعلاء كلمة الله سبحانه ، والدفاع عن ديار الاسلام

---

(١) عنى كتاب العصر العباسى بحرفة الكتابة من ناحية قيامها على الزخرف والتنميق ، وقد أخذت هذه العناية تزداد شيئاً فشيئاً على مر الزمن حتى برز مذهب أدبى أطلق عليه مذهب التصنع - وهو مذهب كان يعتمد على السجع من جهة والبديع من جهة أخرى وكان أستاذ هذا المذهب هو ابن العميد - فهو الذى وسع - لأول مرة - طاقة الزخرف فى تعبير النثر وتحبيره . ثم أخذ هذا المذهب يتطور حتى أصبحت كتابة الكتاب زركشة خالصة « من تطريز بالسجع ، وترصيع بالبديع » وازدادت هذه الحالة قوة حتى بلغت درجة الحدة فى القرن الرابع الهجرى ، وقد اصطبغت « أعمال الكتاب والأدباء بهذه الصبغة ولم يسلم منها أحد حتى كتاب التاريخ أنفسهم ، إذ ظهر منهم من اختار لنفسه هذا الأسلوب ، فطرز ما ساقه من أخبار بهذا الأسلوب وكان أول كتاب ظهر فى هذا الثوب هو « كتاب التاجى فى أخبار بنى بوية للصابىء » ثم تبعه « كتاب اليمينى للعتبى » . ولم يلتزم الكتاب هذا المذهب التزاما تاما بل أخذت تظهر على أساليبهم بوادر مذهب التصنع وهو مذهب « يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضروبا مختلفة من التعقيد » ويعتبر أبو العلاء أبرز من « حقق لهذا المذهب ، كل ما يمكن من صور التصعيب » ثم تبعه الكتاب . حتى إذا أوفى القرن السادس الهجرى نجد أن الكتاب فى الاقاليم المختلفة قد غمرهم « ذوق التصنع فى الكثير الأكثر وقلما تركوا هذا الذوق إلى ذوق التصنيع » (النثر الفنى ومذاهبه للدكتور شوقى ضيف) .

والعروبة ، ضد مستعمر ظلوم تستر بستار دينه ليحقق أطماعا سياسية واقتصادية في الشرق ، ويستذل أهله ويسلبهم ما بأيديهم من خيرات .

وحدا بي هذا الدافع إلى تناول الكتاب ، إذ لم يتناوله أحد بالشرح أو التعليق أو الدراسة التي تيسر مفاهيمه وتفتح مغاليقه ، وتجعل معانيه دانية القطوف للدارسين ، على الرغم من أنه قد حقق من قبل ، فى نسخة طبعت فى ليدن سنة ١٨٨٨ م عن نسخة مخطوطة بمكتبه ليدن ، كتبت بعد وفاة المؤلف بأربع سنين ، وقوبلت نسخة ليدن بنسخة أخرى كانت من طرابلس ، كما طبع بعد ذلك فى القاهرة عدة طبعات . وقد اخترت لتقويم نص هذا الكتاب إحدى النسخ المطبوعة فى القاهرة بمطبعة الموسوعات سنة ١٣٢١ هـ وقابلتها على نسخة ليدن المذكورة ، ثم على نسخة مخطوطة بمكتبة الجامعة الأزهرية مؤرخة ١١٦٦ هـ بقلم عبد الله الإدكاوى فى ٤١٨ لوحة وهى نسخة كاملة .

وبمقابلة النسخ الثلاث استطعت تقويم النص واثبات الفروق بينها . ثم قمت بالشروح اللغوية بقدر الطاقة مكتفيا بذكر معانى الكلمات الصعبة بما يتفق والعبارة ، إذ من المعلوم أن كثيراً من معانى الكلمات العربية لها مترادفات عدة ، وما يصلح من معنى فى مقام لا يصلح لآخر ، وأشرت أحيانا إلى ما يقصده الكاتب بعبارته . على أنى فى معظم الشروح اللغوية تركت للقارىء إعمال الفكر قليلا ليصل هو إلى المعنى المقصود . كما قمت بالترجمة لما ورد من أعلام وخصوصا البارز منهم ، وكذلك التعريف بالبلدان ، والتعليق على الأحداث التاريخية ، والتعريف بالآلات الحربية ، وشرح الكلمات الدخيلة فى العربية من فارسية وغيرها ، معتمدا فى ذلك على المراجع الهامة التى ذكرتها فى ثبت بآخر الكتاب .

على أنى أرى من الواجب على واعترافا بالفضل قبل أن أختم كلمتى هذه أن أنوه بالتشجيع الصادق الذى دفعنى به الأستاذ الأديب الكبير محمد عطا لتيسير هذا الكتاب وتقديمه للقارىء العربى ، والعون الكبير الذى عاوننى به كل من الأستاذ الفاضل الأديب الجليل محمد عبد اللطيف بن الخطيب ،

وزوجتى الفاضلة فيه حتى خرج فى هذه الصورة . فجزاهم الله تعالى خير الجزاء .

وإنى لأرجو بعد بذل كل ما استطعت من جهد أن أكون قد وفقت – بفضل الله ورحمته إلى تحقيق الهدف الذى قصدته من نشر هذا الكتاب كما أرجو الله تعالى أن يوفق غيرى فى إكمال ما عجزت عنه – إن كان هناك عجز أو تقصير – والحمد الله الذى بنعمته وبعونه يدرك كل خير ويتم كل فضل .

المحقق

محمد محمود صبح

****

رموز النسخ

(ا) النسخة المحفوظة بمكتبة الجامع الأزهر وهى مخطوطة . ى = يمين ، ش = شمال .

(ب) النسخة المطبوعة بمطبعة الموسوعات بالقاهرة .

(ل) نسخة ليدن .



مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد ما يبلغ قضاء حقّه (وإن حقّه لعظيم) (٠). ومن الرشد ما يكتب سلامة نيّاتنا فى الطريق إلى كرمه وإنه لكريم . ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه (١) إلينا بأنهما حادث وقديم . ونستزيده ونستديمه نعمه (٢) ولن يخيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل (فإذا الذى بيننا وبينه (٣)) عداوة كأنه ولىّ حميم . والحمد الله الذى بدأ بنعمه متطولا ، وبمزيده متفضلا ، وعلمنا شكر فضله الموفور ، وقبل منا عفو خواطرنا المنزور (٤) . فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة ، ولا يطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد (٥) الساقة (٦) . وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب (٧) غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدمنا ينتاب مُنْتابه (٨) راجيا وداعيا ، ومستيقظا وساهيا ، وصامتا ومتقاضيا ، لنا منه على كل حال كلّ حال من مواهب ربما عطل (٩) عنها لسان شكرنا ، وضمير ذكرنا ، وباتت ساوية

---

(٠) فى أ « وان حق الله لعظيم »

(١) فى أ « إحسانه » .

(٢) فى أ « نعمته »

(٣) فى ب و ل « فاذا وهو الذى بيننا وبينه » والمذكور من أ .

(٤) المنزور ، القليل .

(٥) ساقطة فى أ مثبته فى ب و ل

(٦) الساقة : مؤخر الجيش .

(٧) فى أ « ورب » .

(٨) ينتاب منتابه : يأتى فضله مرة بعد أخرى . والنوبة : الفرصة .

(٩) عطل عنها : سكت . والتعطيل : التفريغ والاخلاء وترك الشىء ضياعا .

إلينا لاطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم ان الله (تعالى) (١) سامحنا فى حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا ، ومتجرعنا ومسيغنا : فتارة يقبله ضميرا مجمجما (٢) ، وتارة يحيط به قولا (٣) مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه ، ومرة يسمعه همسا من لسان يناجى ملكه بنغمات مسموعه ، وكيف لا يعلم السر وأخفى من بعينه مسارحه . وكيف لا يعلم الغيب من عنده مفاتحه .

ونرغب إليه فى أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم . فإنا لانرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا ، فنصلى إليه صلاتنا ونؤدى إليه ودنا ، ونعظم موقعه حين كان منه قاب قوسين أو أدنى . ونشكره على أن فتح علينا الدار التى كانت إلى الله طريقه ليلة أسرى به . فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين فى اقترابه. ما كذب الفؤاد ، ولاخاب المراد . ولاصدق المراد (٤) . وأين من أخبر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأنك (بالوادى المقدس طوى) (٥) .

فمن كان فى روض القرآن يسرح ، فرق بين المنزلتين من (رب اشرح) و (ألم نشرح (٦)) ونصلى على آله وأصحابه (ولاة الحق . وقضاة الخلق (٧)) ورتقة الفتق (٨) ، و غرر السبق ، وألسنة الفرق ، وفتحة الغرب والشرق .

---

(١) مثبته فى أ : ساقطة فى ب و ل .

(٢) مجمجما : الجمجمة ، عدم ابانة الكلام وإخفاء الشىء فى الصدر .

(٣) فى أ « فضلا » .

(٤) المراد : جمع مارد ويطلق على العاتى المتجبر وأكثر ما يطلق على الجن .

(٥) فى ب « بأنك بالواد » وما ذكر من أ .

(٦) « رب اشرح لى صدرى » الآية ٢٥ من سورة طه وهى دعاء موسى عليه السلام لربه : و « ألم نشرح لك صدرك » الآية ١ سورة الانشراح وهى خطاب الرب تعالى لخاتم أنبيائه عليه صلوات الله وسلامه .

(٧) فى ب و ل « ولاة الحق ، وقضاة الخلق » .

(٨) رتق الفتق : أصلحه والمقصود بالكلمة ، المصلحون .

منهم (١) من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرّتها وتيجانها عن هامها . وأخمد عبدة نيرانه أن يطعموها(٢) حطبا ولو وصلت إليهم لأكلتهم ، وأخمد (٣) عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجّدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق فى سبيل الله وجهّز ، ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشداء على الكفار ، ومنهم (٤) الأسداء إذا زاغت الأبصار . ومنهم السّاجدون الراكعون ، ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهم نحن أهل الزمن الآخر ، وقد سلم علينا سلام الله عليه فى زمنه الحاضر . وسمّانا إخوانا واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنما نرد عليه تحيته والبادىء أكرم ، وإنما نرجو شفاعته (٥) بالمودة التى قدمها والفضل للأقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية . يأخذ (الفريقان منه) (٦) (على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول . فان فيه من الألفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التى نولّدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التى نوردها .

وإنما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإمامستفتحة بمعقب منالدول الأخرى . فلاأمة من الأمم ذوات الملل(٧)؛ وذوات الدول ، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه ؛ ويعولون عليه . ينقله

---

(١) فى ب « منه » والتصحيح من أ و ل .

(٢) فى أ « أن تطعمها » .

(٣) فى أ « أخل » .

(٤) ساقطة فى أ .

(٥) فى أ « الشفاعة » .

(٦) فى أ « منه الفريقان » .

(٧) فى أ « الملك » .

خلفها عن سلفها ، وحاضرها عن غابرها . تقيد به شوارد الأيام ، وتنصب به معالم الأعلام .

ولولا ذلك لانقطعت الوصل ، وجهلت الدّول ومات فى أيام (١) الأخر ذكر الأول . ولم يعلم الناس أنهم اعرق الثّرى ، وأنهم نُطف فى ظلمات الأصلاب طويلة السرى (٢) . وأن أعمارهم مبتدأة من العهد الذى تقادم لآدم . وقد أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم (٣) لما أراده من ظهورهم .

(ليعلم المرء) (٤) قبل انقضاء عمره ؛ وقبل نزول قبره ؛ ما استبعده اهل الطى (٥) من حقيقة النشر ، وتقبل فى واحدة من الأطوار شهادة عشر ، فقد قطع عمرا بعد عمر ، وسار دهراً بعد دهر ، وثوى وأنشر فى ألف قبر ، وإنما كان من الظهور فى ليل إلى أن وصل من العيون إلى فجر .

ولولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذامّ هى الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها ، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها ، وما وراء سهولتها من صعوبتها .

فأرخ بنو آدم بيومه ، وكان أول من اشترى الموت نفسه ، وقام النّزع مقام سوْمه(٠)، ثم أرخ الأولون بالطوفان الذى بلل الأرض وأغرقها ، ثم بالعام الذى بلبل الألسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولها كلشاه (٦) ومعنى هذا الاسم ملك الطين ، فاليه ترجع

---

(١) فى أ « الأيام » .

(٢) السرى : سير عامة الليل ، والمقصود هنا ، طول سير النطف فى الظلمات وتنقلها فى الأصلاب .

(٣) قال الله تعالى فى الآية ١٧٢ من سورة الأعراف « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » .

(٤) ما ذكر من أ و فى ب و ل « فليعلم المرء » .

(٥) الطى : ضد النشر والمقصود بأهل الطى ، المنكرون البعث والنشور .

(٠) سومه : أى مساومته على بيع نفسه .

(٦) كلشاه : كلمة فارسية معناها : آدم . وهو اسم أول ملك من البشداديين « كيومرث » (انظر معجم الألفاظ الفارسية د . محمد موسى هنداوى) .

الفرس بأنسابها . وعليه ينسق (١) عقد حسابها . وهى الآن تؤرخ بيزدجرْد (٢) آخر ملوكها . وهو الذى بزه الإسلام تاج إيوانه . وأطفأ نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس (٣) أبى الاسكندر (٤) وإلى قلوبطرة (٥) آخرهم ؛ وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون . وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره ، وشهرة أثره . وأرخ النبط (٦) — بالعراق — والقبط — بمصر — بتواريخ موجودة فى الكتب التى خلدوها ، والأزياج (٧) التى رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم ، وبعمارة البيت المقدس (٨) وبخرابه (٩) على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم .

وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فكانت

---

(١) فى أ « يتسق » .

(٢) هو يزد جرد الثالث وقد قتل سنة ٣١ هـ = ٦٥٢ م فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وبموته زالت الدولة الساسانية من حكم فارس (تاريخ الإسلام السياسى د . حسن ابراهيم حسن ج ١ : ٢٣٢) .

(٣) هو فيليب الثانى ملك مقدونيا من ٣٥٩ ق . م إلى ٣٣٦ ق . م

(٤) يقصد الاسكندر الأكبر المقدونى الذى ترامت امبراطوريته من مقدونيا وشملت اليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس والشام ومصر من (٣٣٦ ق . م — ٣٢٣ ق . م) .

(٥) يقصد كليوباترا آخر ملكة من أسرة البطالمة — الذين حكموا مصر من ٣٣٣ق . م إلى ٣٠ ق . م — بعد هزيمتها فى موقعة اكتيوم هى وحليفها انطونيوس على يد أوكتافيوس الرومانى

(٦) النبط : قوم ظهروا على مسرح التاريخ حوالى القرن الخامس قبل الميلاد واستمر بقاؤهم قرابة ستة قرون ، كانوا بمنطقة الحجاز الأعلى ثم نزحوا إلى وادى العربة وخليج العقبة بعد تغلبهم على الأدوميين ، وقد امتدت دولتهم حتى شمالى دمشق ، وظلت قوية حتى احتلها الرومان بعد احتلال عاصمتهم البتراء سنة ١٠٦ م .

(٧) الأزياج : جمع زيج وهى كلمة فارسية الأصل معناها الجدول الذى يستعمله الفلكيون فى رصد النجوم (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير) .

(٨ و ٩) عمره نبى الله الملك سليمان بن داود (٩٦٠ — ٩٣٥ ق . م) ، وقد استغرقت عمارته سبع سنوات . أما خرابه فقد قام به بختنصر (نبوخذ نصر) الكلدانى بعد أن أسقط بيت المقدس ٥٨٦ ق . م وأرسل السكان أسرى إلى بابل حيث ظلوا سبعين عاما ثم سمح لهم كورش ملك فارس بالعودة وبناء الهيكل ثانية .

حمْير تؤرخ بالتبابعة (١) ممن يلقب بـ « ذو » (٢) ويسمى بـ « قيل » (٣). وكانت غسان (٤) تؤ خ بعام السد (٥) حين أرسل الله عرم السيل. وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشه على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه (٦). وأرخت معد (٧) بغلبة جرهم (٨) للعماليق واخراجهم عن الحرم. ثم أرخوا بعام الفساد — وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع فى الديار

---

(١) حمير والتبابعة : قبائل من العرب القحطانيين أنشأوا مملكة بين سبأ والبحر الأحمر فى جنوب الجزيرة العربية حوالي ١١٥ ق. م وكان مقر ملكهم مدينة ظفار التى عرفت فيما بعد باسم ريدان. وكان ملوكها يلقبون بالتبابعة (جمع تبع) وقد دامت هذه المملكة قرابة ٦٤٠ سنة حتّى قضى عليها أرياط الحبشى سنة ٥٢٥ م (ارجع إلى تاريخ لاسلام السياسى د. حسن ابراهيم ج ١ : ٢٩ — ٣١) و (تاريخ العرب العام لسديو ص : ٤٨).

(٢و٣) القيل : الرئيس وهو لقب كان يطلق على الملك من الحميريين. وكلمة تبع كانت تطلق عليه إذا ضم إليه حضرموت. وكلمة ذو كانت تضاف إلى اسمه ، مثل ذو نواس.

(٤و٥) بعد تهدم سد مأرب وكان ذلك حوالى ٥٤٣ م (كما جاء فى كتاب العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان ص ١٦٨) هاجرت قبائل من الأزد واستقرت على ماء يقال له غسان على حدود الشام بعد تغلبها على السكان الأصليين وهم الضجاغمة ، وعرفوا باسم هذا الماء وكان أول ملك لهم هو جفنة بن عمرو وظلت هذه الدولة تحت حماية الروم حتّى قضى عليها المسلمون سنة ١٣ هـ (تاريخ الاسلام السياسى ج ١ : ٤١) و (تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ج ١).

(٦) فى سنة ٥٢٣ م اعتنق يوسف ذو نواس ملك حمير اليهودية واضطهد المسيحيين وكانت حادثة الأخدود التى ذكرها الله تعالى فى القرآن العظيم. فقام الأحباش باخضاع اليمن ٥٢٥ م وأذلوا أهل البلاد قرابة خمسين عاما. ثم استنجد سيف بن ذى يزن الحميرى بالفرس على الأحباش فأخضعوا اليمن لسلطانهم سنة ٥٧٥ م وأصبح سيف حاكمها من قبل الفرس (تاريخ الاسلام السياسى ج ١ : ٣١ — ٣٢) و (تاريخ العرب العام لسديو ٤٨ — ٤٩).

(٧ و ٨) معد : هو ابن عدنان وينتهى نسبه إلى رسول الله اسماعيل عليه السلام ومن أجداد النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، أما جرهم : فهم القبائل القحطانية الأولى التى هاجرت من اليمن واستقرت حول الحرم المكى وقد اختلطت بهم هاجر زوجة النبى ابراهيم عليه السلام. ثم صاهرهم بعد ذلك اسماعيل عليه السلام. والعبارة فى (أ) (وأرخت معد بغلبة جرهم العماليق) وعبارة (واخراجهم من الحرم) ساقطة.

فنقلوا منها ، وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب (١) — ابني وائل — وهي حرب البسوس (٢) . ثم أرخوا بحرب عبس وذبيان — ابني بغيض — وهي حرب داحس والغبراء (٣) ، وكانت قبل البعث بستين سنة . ثم أرخوا بعام الخنان (٤) . قال النابغة الذبياني (٥) .

فمن يك سائلا عني فاني   من الفتيان في عام الخنان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخانق ، وعام الذنائب (٦) ؛ ويوم ذي قار (٧) ، وبحرب الفجار (٨) ، وهي

(١ و ٢) حرب البسوس : حرب قامت قبل الاسلام من ٤٩٤ م إلى ٥٣٤ م بين قبيلتي بكر وتغلب وسببها أن كليبا بن ربيعة عقر ناقة لامرأة عجوز تدعى « البسوس » بنت منقذ التميمية وهي خالة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ؛ فقتل جساس كليبا فقامت الحرب (تاريخ الاسلام السياسي ج ١ : ٢٢ و ٥٠ — ٥٧) .

(٣) حرب داحس والغبراء : بعد انتهاء حرب البسوس بقليل ؛ قامت هذه الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان وسببها أن داحسا حل قيس بن زهير سبقت الغبراء فرس « حمل بن بدر » بعد أن ردفتية قيس الغبراء عن بلوغ الغاية وقد ظلت من (٥٦٨ — ٦٠٨ م) .

(ارجع إلى تاريخ الاسلام السياسي ج ١ : ٥٧ — ٥٩) و (تاريخ العرب العام لسديو : ٥٥)

(٤) الخنان : داء يأخذ الطير في حلوقها وأعينها ، وزكام يصيب الابل كالوباء . وانتشر هذا الوباء في الابل في أحد أعوام حكم المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (٥١٠ — ٥٣٣ م) .

(٥) النابغة الذبياني : هو أبو امامة ، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري ، أحد أشراف الجاهلية وأفن شعراء الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، كانت تضرب له قبة بسوق عكاظ ، ويقصده الشعراء يعرضون عليه أشعارهم وكان حظيا عند النعمان بن المنذر ، وكان حسن شعراء العرب ديباجة ولا تكلف في شعره أو حشو ، مات ٦٠٤ م تقريباً (الأعلام للزركلي ج ١ : ٣٤٢) .

(٦) عام الذنائب : عام حدثت فيه واقعة من وقائع حرب البسوس عرفت بيوم الذنائب ، ظفر فيه التغلبيون وقتلوا من بكر مقتلة عظيمة (العرب قبل الاسلام لجورجي زيدان : ٢٦٦) .

(٧) يوم ذي قار : فيه انتصر عرب بكر على اياس بن قبيصة حاكم الحيرة وحلفائه من الفرس وذلك من سنة ٦١٢ م = ٣ في البعثة النبوية وقد فر اياس على فرسه (الحمامة) وبقيت الحيرة تحت حكم الفرس حتى فتحها خالد بن الوليد ١٣ هـ — ٦٣٣ م (تاريخ الاسلام السياسي ج ١ : ٤٠) (والعرب قبل الاسلام لجورجي زيدان) .

(٨) حرب الفجار : حروب أربعة وقعت بين قبائل العرب في الأشهر الحرم قبل البعثة النبوية ، ودامت تسع سنوات وقد خاضها النبي مع أعمامه وهو ابن ١٤ سنة (تاريخ الاسلام السياسي ج ١ : ٥٩ — ٦٣) (وتاريخ العرب العام : ٦٦) .

اربع حروب ذكرها المؤرخون ، وأسندها الراوون . وأدنى ما أرخوا به قبل الاسلام بحلف الفضول (١) منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين (٢) — وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل(٣)وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة (٤) فطويت الصحف وجفت الأقلام .

وأظهر الله على الأديان الدين القيم (٥) ، ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم ، فأمن وقوع الخلف الواقع فى تواريخ الأمم ، وجبّت الهجرة ماقبلها جبّ الأنوار للظلم . ودفع الله الناس بعضهم ببعض ، واستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأموال والأنفس ما يعيده اليهم مضاعفا من القرض .

ووقت هذه الهجرة الوقت (٦) الذى أمر به أمر الاسلام ، ويومها اليوم (٧) الذى ما ولدت الليالى مثله من بنيها الأيام ، وعامها الخاص بالفضل وكل مابعده يعد من عوام الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة

---

(١) حلف الفضول : حلف أخذت فيه قريش على نفسها ألا تجد فى مكة مظلوما إلا نصرته ولا ضالا إلا آوته وقيل كان فى سنة ٥٩٥ م (تاريخ الاسلام السياسى ج ١ : ٥٠) و (تاريخ العرب العام : ٦٧) .

(٢) حلف المطيبين : حلف عقده عبد مناف من ولد قصى بن كلاب مع بعض البطون العربية ضد بنى عمومتهم — بنى عبد الدار — وكانوا قد رفضوا التنازل عن امتيازات لهم من عهد جدهم قصى ، وسمى بذلك لأن الطرفين المتخالفين غمسا أيديهم فى إناء طيب على مقربة من الكعبة (سيرة ابن هشام) .

(٣) عام الفيل : كان تقريباً عام ٥٧٠ م وقد هاجم فيه أبرهه مكة ليهدم الكعبه ويحول الناس للحج إلى كنيسة بناها فى صنعاء باليمن ، وقد أهلكه الله تعالى و جيشه كما جاء فى القرآن الكريم.

(٤) هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم وهو امام الأنبياء .

(٥) فى «أ» القويم .

(٦) ساقطة فى «أ» مثبتة فى ب ول .

(٧) ساقطة فى «أ» مثبته فى ب و ل.

معلوق (١) ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير المذوق(٢) ، وهذه الهجرة هى هجرة الاسلام الى البيت المقدس ، وقائمها السلطان «صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب» . وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق ، وتسفر عن أهلتها دآدىء(٣) المداد وتنشق (٤) ، وهى وان كانت هجرة الاسلام الى القدس (٥) ثانية ؛ فقد كان انثنى عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية .

وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى (٦) الكرتين . فان العرب كانت اذا تناهت فى وصف الرجل بالقوة قالت (كأنه كسر ثم جبر) . والحق أن نقول : إن أطول الحياتين حياة المرء اذا مات ثم نشر » . والعيان يشهد أن أمنع السودين ماعمر بعد أن ثُغر ، والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر وبين فتوحه فى أول الأمر فرق يتبين تبين الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر .

فان الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد ، والوحى ما كاد يتعطل فى طريقه من السماء الى الأرض يريد (٧) ، والعيون التى شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل (٨) سيوفها من أجفانها ، والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح منها بعيانها . ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة ، ونجدات السماء الى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردفة (٩) .

---

(١) يقال اعتلق فلانا بكذا ، إذا اختصه به والمقصود أن أمد الهجرة مختص بالقيامة

(٢) أى المخلوط .

(٣) دآدئ : جمع دأداء ودؤدؤ ، من الليالى : الشديدة المظلمة والمقصود هنا سواد المداد الذى يشبه الظلمة فى لونه .

(٤) فى «أ» تناسق .

(٥) فى «أ» البيت المقدس .

(٦) فى «أ» أقوى .

(٧) الرسول ، أو المسافة التى يسيرها وقدرت باثنى عشر ميلا .

(٨) فى «أ» تسال .

(٩) مسومة : معلمة . مردفة : متتابعة .

وقد اخبرهم سيدنا وسيدهم آن الأرض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المثوبة (١) المرحومة ماضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر(٢) : والفرس يومئذ رخم ما استبصر(٣) ، والحديد ماتنوعت أشكاله الرائعة ،ولاطبعت سيوفه هذه القاطعة ، ولانسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لاتعرف الامشيدة لامجلدة (٤)، والمنجنيقات(٥) لايتوثب مايتوثب(٦) اليوم من خشبها المسندة . والأقران لاتتراجم بالنيران المذكاة ، والأسوار لا تتناطح بالكباش المشلاة (٧) .

وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لوكانوا عزلا ، والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون الى الموقف حفاة غرلا(٨) ، وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء ، وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء .

والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا ، وهريق شبابه ،واستَشَن(٩)أديمه ، وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا ، وقد اطلع شرف الستمائة وهى للملك المعترك ، وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك ، وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب(١٠) ، وذوى غصنه وكان الرطيب ، ونصلت كفه(١١) وكانت الخضيب .

---

(١) فى «أ» المثابة .

(٢و٣) بغاث الطير : شراره . الرخم ، طائر من الجوارح الكبيرة الوحشية الطباع. والمقصود بالعبارتين ، أن الروم والفرس كانوا ضعفاء على الرغم من شرورهم .

(٤) البروج المجلدة : أى الحصون التى فى حاجة إلى التمكين والتقوية .

(٥) المنجنيق : آلة لرمى الحجارة على الأمكنة البعيدة والمرتفعة . (القاموس المحيط).

(٦) فى «أ» توثب .

(٧) أى المقطعة .

(٨) الغرل : الذى لم يختن ، والمراد بذلك أنهم « حفاة عراة غرلا » .

(٩) أى بلى جلده .

(١٠) الجديد النظيف الأبيض .

(١١) نصلت كفه : حرمت من الخضاب ، وكان من عادة سادة القوم وكبرائهم الاختضاب بالحناء ونحوها .

وطال الأمد (١) على القلوب فقست ، ورانت (٢) الفتن على البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه ، ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الجزيل فى الآخرة كسبه.والكفار قد خشنت عرائكهم(٣) واتسعت ممالكهم ، واستبصروا فى الضلال (٤) ، واستبضعوا للقتال ، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون امامهم من البرناشية الصوت(٥) .

وقاتلوا جندا ورعية ، واستباحوا الأنفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعية (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)(٦) وامدهم فى طغيانهم يعمهون ، ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ، واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها الامزرور الشفاه على القطوب بلا بشرْ ولا مزح . شقرا كأنما لفحت النار وجوههم (٧) (وهم فيها كالحون) (٨) ، زرقا كأنما عيونهم من حديدهم فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون ، قد نزع الله الرقة من قلوبهم ، ونقلها (٩) الى غروبهم ، وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم ، واشتعلت نار جهلهم فى فحم ذنوبهم ، تستعيذ المردة (١٠) من مردتهم ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم .

فظاظ غلاظ ، جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ (١١) ،

---

(١) فى «أ» الأمل .

(٢) رانت : غطت .

(٣) شديد العريكة : أبى شديد النفس .

(٤) استبصروا فى الضلال : المقصود هنا أنهم تمادوا فيه .

(٥) ناشية : رائحة ، ونشأ الخبر ، علمه . والمقصود أنهم يطلبون كل ناطق ليقتلوه .

(٦) الآية ٤٣ سورة الأنعام .

(٧) فى «أ» لفحت وجوهم النار » .

(٨) الآية ١٠٤ سورة المؤمنون .

(٩) فى «أ» فنقلها .

(١٠) المرده : الجن العاتية .

(١١) شواظ : لهب لادخان فيه ، حر النار أو الشمس .

(لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)(١) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة ، فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال (وَقودها الناسُ والحجارة) (٢) . وإلا فالحجارة لاتستحق الوقود ، إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجُلمود في الجمود .

ومضت ملوك الاسلام ، ومضت (٣) أيامهم كالبارق وان لم يخلع الاظلام ، وزادت أيامهم الأيام خيالا فتنازع الناس(٤) طرائف الأحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم ، وكانوا محاربين كمسالمين وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين .

اللهم غفرا (لكل أجلٍ كتاب) (٥) و (كلَّ يو م هو في شأن) (٦) ولكل مقدور أجل ، ولكلٍ ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير ، والأيام تمخض وتمطل بالزبدة (٧) ، والسور تتلى الى أن تأتي بالسجدة (٨) ، والناس يريدون الخروج ولكن ما أعدوا له عدة ، والعذر على كل لسان لكل قوم مدة .

اذا عجزوا قالوا مقادير قُدرت وما العجز الا ما تجر المقادر

وأبى (٩) الله من يقبل عذرا صحيحا ، وكفى بلفظة النبوة لوما صريحا(١٠)

(١) الآية ١٩ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٦ سورة التحريم .

(٣) التصحيح من «أ» . وفي ب و ل ومضت .

(٤) زيادة من «أ» وهي ساقطة في ب و ل .

(٥) الآية ١٩ سورة الرعد

(٦) الآية ٢٩ من سورة الرحمن .

(٧) مطل : سوف وأخر . الزبدة : الخلاصة والعبارة كناية عن أن الأيام تبخل بالمطلوب والنفيس .

(٨) في «أ» السجدة .

(٩) في «أ» أبى والله .

(١٠) أي أن الله تعالى عاتب رسوله عليه الصلاة والسلام في بعض الأحيان فكيف لا يلام هؤلاء على تقصيرهم في الجهاد .

فلما أراد الله الساعة التى جلاها لوقتها ؛ وأظهر الآية التى لا أخت لها ؛ فنقول : فهى أكبر من أختها ؛ أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها ، ووصلت الدنيا الحامل الى تمام شهرها . وجاءت بواحدها الذى تضاف اليه الأعداد ، ومالكها الذى له السماء خيْمة والحبك (١) أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد ، والشمس دينار والقطر دراهم والأفلاك خدم والنجوم أولاد (صلاح الدنيا والدين) . ومهما دعوْنا له فان الله قد سبق اليه كونا ، ورأينا بين منانا وبين كرمه بوْنا . فهو سبحانه أكرم بالنوال منا بالسوْال . والكريم بكرَم الله مجزى ، والساكت عن الدعاء له مكفى .

فان قلنا : أحسن الله اليه : فقد قال (إنا لا نُضيعُ أجر من أحسن عملا (٢)) . وان قلنا : جزاه الله بالاحسان : فقد قال (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) (٣) وان قلنا : هداه الله سبيله : فقد قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (٤) : وان قلنا : لا ضيع الله عمله : فقد قال (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيعُ عملَ عامل) (٥) . وإن قلنا : لاجعل الله لدهر عليه سبيلا : فقد قال (ما على المحسنين من سبيل) (٦) . وان قلنا : زاده الله هدى : فقد قال (والذين اهتدوا زادهم هدى) (٧)

كل مسئول سائل ... فى معاليه قد كمل
لا يسل منه (٨) سائل ... سبق الجود ما سأل
ولتُصحِّح (٩) تأملا ... تجد (١٠) الله قد فعل

---

(١) الحبك من السماء : طرائق النجوم .
(٢) الآية ٣٠ سورة الكهف .
(٣) الآية ٦٠ سورة الرحمن .
(٤) الآية ٦٩ سورة العنكبوت .
(٥) الآية ١٩ سورة آل عمران .
(٦) الآية ٩١ سورة التوبة .
(٧) الآية ١٧ سورة محمد .
(٨) فى (أ) منه وفى ب و ل فيه .
(٩) فى أ ولتصحح وفى ب و ل وليصحح .
(١٠) فى «أ» تجد وفى ب و ل يجد .

ونعود إلى ذكره – أعز الله ذكره – فجاد إلى أنْ لم يبق مال ولا أمل ، وجاهد الى آن لم يبق سيف ولا قلل (١) فلا كفتح على يديه فتح) (٢) وما هو فتح واحد ؛ ما هو الا فتحان : فتح والدم ذائب ، وفتحٌ والذهب جامد . فما البلاد التى جمعها فاتحا ، بأغرب من البلاد التى فرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن حديدا ، وزاد لأنه ضرب بالسيوف التى كسرها (مدى ومنالا) (٣) ثم ضربها ، [واستوعب جوده ما والدت المعادن ذهبا وزاد لأنه نقل الى الأعداء ثمن سلع ثم نهبها فوهبها . فكل معادٍ معادى الا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسود الا هذا المداد . (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) (٤) ، أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح ! وما على يد الجود من قبل المدائح](٥) .

الناس أكيس من أن يمدحوا ملكا ولم يروا عنده آثار احسان

وانا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمر الذين آمنوا أن يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسنين لأنا أحسنا وصف احسان الله الى عباده ، ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وان كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقة ، وان القلم فى ايدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان ؛ وكأن السيف يشنع بأنه فروقه . ولسنا نسميه قصيرا وان جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا الى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه .

ونقول للقلم اذا فاخره السيف (ان شانئك هو الأبتر) (٦) ونريد اذا أوردناه وصف مولانا بـ (إنا أعطيْناك الكوْثر) (٧) . على أن هذا القلم يلزم الأدب لذكره – أعلاه الله – فينكس رأسه ، ويقبل بين يديه

(١) فى «أ» فلل . والقلل : جمع قلة وهى أعلى الجبل .
(٢) فى «أ» (فالفتح على يديه فتح) .
(٣) زيادة من «أ» .
(٤) الآية ١٥ سورة الطور .
(٥) ما بين المعقوفين ساقط فى «أ» .
(٦و٧) الآيتان ٣ و ١ سورة الكوثر .

[كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولست ببعيد فى تقييد هذه المفاخر ، وتشييد هذه المآثر من رجال الطعن والضرب الذين فتحوا بين يديه وأوجبوا الحق عليه ، بل حتى من حقوقهم أوجه وأوجب ، وقلمى من سيوفهم أضرى وأضرب ، ومن رماحهم أخطى وأخطب ، ومن سهامهم أنجى وأنجب (١) ، ومن قسيهم أكسى وأكسب ، (٢) ومن جيادهم أسرى وأسرب (٣) . ومدادى من نقعهم أغلى وأغلب (٤) ، وقرطاسى من راياتهم آجلى وأجلب (٥) . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد (٦) ، وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها (٧) ، وآثارى من الذكر لا تخمل ولا تخمد .

وما السيف أسوى ضربة من لسانيا

فكل أثر خبر به غيرى يموت الخبر بموته ، وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته ، والذى أخبر أنا به عنه روض يزهو اذا أقلعت الأيام سحبا ، ونجم يبدو اذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا ، فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله ، لاقول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لايأتى فى غد الا جاهله . فهذه الكتب تهب الأعمار الثانية . وتُفاخر الألسنة القائلة بها الأيدى الكاتبة البانية (٨)] .

---

(١) أى أن قلمه أقطع وأشد أثرا .

(٢) من قسيهم أكسى وأكسب : الكثناء بفتح الكاف : المجد والشرف والمعنى أن قلمه يكسب المجد والشرف .

(٣) ومن جيادهم أسرى وأسرب : السرب بسكون الراء : الطريق والوجهة والمقصود أن قلمه أسرع وجهة .

(٤) النقع : رفع الصوت ، والغبار يثار عند الحرب .

(٥) أجلى وأجلب : أى أشد ظهورا ، وأقوى فى جمع الناس للقيام بالحرب .

(٦) يقال عمد الشىء : إذا أسقطه أو ضربه بالعمد - والمقصود أنه لا يضرب بالعمد كما تضرب السيوف .

(٧) رقأ الدم : جف وانقطع .

(٨) ما بين المعقوفين ساقط فى أ

[فانظروا الى ايوان كسرى(١) وسينية البحترى (٢) فى وصفه ، تجدوا الايوان قد خرت شعفاته (٣) ، وعفرت شرفاته ، وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها اسم كسرى فى ديوانه . أضعاف مابقى شخصه فى ايوانه ، وانما نراوح بين الأوصاف الغادية ، ونناوب بين السمات السامية ، للاشارة الى من ينبه على مسماه ، وينوه بسيماه .

فأما من يقول الله لاسمه « أنت من معقبات حمدى » ويقول الدهر لذكره « أنت الباقى من بعدى » فانما يلزم الأدب بوصف فضله العظيم ، ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم] (٤) .

[ويسر الله هذه الفتوح وأنزل بها الملائكة والروح ، فى أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبى العباس أحمد (٥) بن الامام المستضىء بالله أبى محمد الحسن بن الامام المستنجد (٦) بالله أبى المظفر يوسف بن الامام المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن الامام المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن الامام المقتدى بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر بالله أبى العباس أحمد بن الأمير اسحاق بن الامام المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله] (٧)

---

(١) ذكر ياقوت أن ايوان كسرى الذى بالمدائن هو من بناء كسرى ابرويز ، وأنه كان هناك ايوان آخر لسابور بن أردشير .

(٢) هى القصيدة التى قالها البحترى الشاعر فى وصف الإيوان ومطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى ... وترفعت عن جدا كل جبس

والبحترى : هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائى ، أبو عبادة ، ولد بمنبج سنة ٢٠٦ هـ ، ورحل إلى العراق واتصل بالخلفاء وأولهم المتوكل العباسى ثم عاد إلى الشام ، وتوفى بمنبج سنة ٢٨٤ هـ (الأعلام للزركلى ج ٣ : ١١٨٣) .

(٣) الشعفات : رءوس الجبال والمقصود أعالى الايوان .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط فى «أ» .

(٥) الناصر لدين الله أبو العباس أحمد : ولد سنة ٥٥٣ هـ وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنجد بالله سنة ٥٦٥ هـ وقد لبث فى الخلافة ٤٦ عاما ولم يل الخلافة من هو أطول مدة منه ، توفى سنة ٦٢٢ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦١-٢٦٢ ط . دار الكتب) .

(٦) فى ب المستنجد والتصحيح من ل .

(٧) ما بين المعقوفين ساقط فى « أ »

[أبى العباس أحمد بن الموفق بالله أبى أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبى الفضل جعفر بن الامام المعتصم بالله أبى اسحاق محمد بن الامام الرشيد بالله أبى جعفر هارون بن الامام المهدى بالله أبى عبد الله محمد بن الامام المنصور أبى جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس صلوات الله عليه وعلى آبائه (١) الطاهرين والخلفاء الراشدين ، وهى الأيام التى زواهر أيامها زواه ، ومضاء مضاربها فى القضاء مضاه .

فما أجلها فضلا وأفضلها جلالا ، وأقبلها جدا وأجدها اقبالا ، وأقربها ندى ونوالا ، وأبعدها مدى ومنالا] (٢) وما أعلى سنى مجدها ، وأحلا جنى رفدها ، وأفغم ريا رياض فضائلها . وأفعم حيا (٣) حياض فواضلها ، وأسح سماء سماحها أمطارا ، وأصح جناح نجاحها مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته وداعى نصرته ، ووليه الطائع وسيفه القاطع ، والمحكم بأمره ، والمؤمر بحكمه . فرأيت ابداء ميامن هذه الأيام الغرّ على الآباد بغرر الآداب ، وقيدت شوارد معانيها ، وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب ، وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتؤام ، در السحاب ودر السخاب (٤) .

وسميته « الفتح القدسى » تنبيها على جلالة قدره ، وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضى الاجل الفاضل (٥) ، وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال لى : سمه (الفتح القسىّ فى الفتح

---

(٣) لقد تغالى المؤلف رحمه الله فأجرى على العباس ما لايجرى إلا على الأنبياء دون سائر الناس .

(٤) ما بين المعقوفين ساقط فى «أ» .

(٥) الحيا : المطر والخصب .

(٦) السخاب : قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جوهر .

(٦) القاضى الفاضل : هو عبد الرحيم بن على بن محمد بن على بن محمد بن حسن اللخمى البيسانى ، أبو على ، محى الدين العسقلانى المولد ، المصرى الدار ، وزير صلاح الدين الأيوبى ، برز فى صناعة الانشاء وفى العلم والبيان ، وكان مع فضله كثير العبادة ، تاليا للقرآن الكريم دينا خيرا ، مات سنة ٥٩٦ هـ (النجوم الزاهرة ج . ٦ : ١٥٦-١٥٧ ط . دار الكتب) .

القدسى) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس (١) وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته .

ولما كان هذا الفتح فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها ، وأنشأت رياضى بسحبها ، وما شهدت الا بما شاهدته وشهدته ، وما استمطرت إلاعهاد العهد الذى عهدته ، وما عنيت الا بايراد ماعاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على أس ماتبينته فبينته ، وما توخيت الا الصدق ، وما انتهيت إلا الحق ، ولا ذكرت كلمة تسقط ولا اعتمدت الا مايرضى الله ولا يسخط . وبالله التوفيق والعصمة ، وله الحمد ومنه النعمة .

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائه

وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الأقطار والبلاد ، يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد ، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر الغزو ، من الحضر والبدو .

وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود ، واستحشاد (٢) الحشود ، واصحار (٣) الأسود ، واحضار البيض والسود ، مضىء العز ، ماضى العزم ، صائب السهم ، ثاقب الفهم ، ثابت السعود ، كابت الحسود ، وخيم على قصر سلامة من بصرى (٤) ، وكفت (٥) يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى ، وأقام (٦) على ارتقاب اقتراب

---

(١) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك من بنى اياد ، أحد حكماء العرب فى الجاهلية ، وأسقف نجران ، أول عربى خطب متكئا على سيف أو عصا ، وكتب « من فلان إلى فلان » وقال فى كلامه « أما بعد » ، طالت حياته وأدركه النبى صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ورآه فى سوق عكاظ ، وسئل عنه فقال « يحشر أمة وحده » (الأعلام للزركلى ج ٢ : ٧٩٥) .

(٢) فى ١٧ «أ» احتشاد .

(٣) إصحار الأسود : مشيهم فى الصحراء ، يقال أصحر القوم ، : إذا مشوا فى الصحراء .

(٤) بصرى : بلد بالشام ، كانت من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران (معجم البلدان ج ٤ : ٤٤١ ط . بيروت) .

(٥) كفت فى ب و ل أما فى « أ » (كف) .

(٦) فى «أ» فأقام .

الحجاج ، وقد رتب الفرنج من الأرصاد أفواجا على تلك الفجاج ، لاسيما ابرنس الكرك (١) ، فانه كان حريصا على الدرك ، ناصبا شر الشرْك . نصب الشرَك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد ، عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج فى أول صفر وقد قضوا حاجهم ، ورضوا منهاجهم ، وخرجوا عن (٢) فرضهم ، ودخلوا الى أرضهم ، وفرغ القلب من شغلهم ، وخف (٣) ما لزم من ثقلهم .

وانتظر السلطان وصول العسكر المصرى المستدعى ، ورعى منه حصول العدد المسترعى . فأبطأ عليه وروده ، واختلفت فى الاسراع وعوده ، فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل «نور الدين عليا (٤) » ؛ ولم يزل مكانه عنده عليا ؛ أن يقيم على رأس الأمراء برأس الماء (٥) ، وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء .

وتقدم السلطان فى أتباعه وأشياعه ، الى الكرك وضياعه ، فأقام عليها يرهق ويزهق ، ، ويحرب (٦) ويحرق ، ويرعب بصاعقة بأسه ويبرق ؛ حتى ألحق الموجود بالمعدوم ، وأتى بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع ، وعرى الدروع ، واستأصل الأصول والفروع . حتى أقوت من الأقوات ، واستعرت الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت آجال الأرزاق ، وانحلت عرا الأرماق . وأقفر بلد الشرك ، وامتلأ من الكرد والترك .

---

(١) هو ارناط وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام Renauld de Chatillon) مفرج الكروب ٢ : تحقيق د . الشيال : ١٩٢) والكرك : قلعة بنواحى البلقاء بين أيلة والبحر الأحمر وبيت المقدس على جبل عال (معجم البلدان ج ١٦ : ٤٥٣ ط . بيروت .) .

(٢) فى ١٧ «أ» من .

(٣) فى ١٧ «ا» خفف .

(٤) الملك الأفضل نور الدين على : هو أبو الحسن ، ابن صلاح الدين ، ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ ، كان ملك الشام فى حياة أبيه ثم من بعده ، اختلف مع أخيه العزيز وعمه العادل وتقلبت به الأحوال إلى أن صار صاحب سميساط وبقى بها إلى أن مات سنة ٦٢٢ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٦٢٢ — ٦٢٣ ط . دار الكتب) .

(٥) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران على بعد نحو عشرين ميلا شمالى درعا The Damascus Chronicle p · 306

(٦) يقال حربه يحربه حربا . إذا سلب ماله ، ورجل حرب ومحرب : شديد الحرب شجاع .

وسار الى الشوبك (١) فأسأر به شوبا (٢) ، وألحفه من عريه ثوبا . وأخلاه من زرع ونبات ، وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع ، وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال ، وداس الغلال . وقشر الثرى وبشره ، وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون مسكونها ، وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها ، وقد عدم ليلها المصباح ، وصباحها الاصباح .

ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين ، وفرقه على أعمال القلعتين ، وأقام على هذه الحالة فى ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء ، فى جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة ، والحواصل الواصلة ، والعساكر الكاسرة ، والقساور (٣) القاسرة (٤) . والبواتر الواترة . والخضرم (٥) الضرم (٦) ، والعرمرم (٧)العرم ، واللهام (٨) الملتهم . والجيش الجائش(٩) ، والترك والأكادش(١٠). والجنود والبنود(١١) والأسود السود . والفيالق (١٢) الفوالق (١٣) . والبيارق (١٤) البوارق .

---

(١) الشوبك : بلد صغير كثير البساتين وغالب ساكنيه من النصارى وهو على طرف الشام من جهة الحجاز وينبع ، به قلعة حصينة (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤ حاشية ٣) .

(٢) فاسأربه شوبا : الشوبة : الخديعة . والشوب ، الخلط . اسأر : ابقى بقية .

(٣) جمع قسورة وهو الأسد .

(٤) القاسرة : القاهرة ، من قسره على الأمر .

(٥و٦) الخضرم الضرم : أى السيد الحمول الجاد .

(٧) الجيش الكثير .

(٨) الجيش العظيم .

(٩) الجائش : الفائر .

(١٠) جمع أكديش وهو لفظ يطلق على الحصان الخليط أو غير الأصيل أو الصغير غير الجيد ، وقد يستعمل اللفظ أحيانا للخيل الصغيرة الجياد . وقد كان سلاطين المماليك يقدمونها هدايا للأمراء (Dozy. Supp. Dict. Arabe) و(مفرج الكروب ج ٢ : ٤٢٧ تحقيق د.الشيال)

(١١) البنود : الأعلام الكبيرة ، مفردها بند .

(١٢) الفيالق : الجيوش ، الرجال العظماء .

(١٣) الفوالق : مفردها فلق بكسر الفاء وهو الداهية .

(١٤) البيارق : جمع بيرق وهى الراية

وبنات الأغماد (١) قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدا ، ظامئات الى ورود (٢) الوريد وما أحسن حلى نجيع الكفر على عرائس الهدى .

والعزم يستنهضه ، والعز يحرضه ، والدين يستبطيه ، والنصر يستعطيه . والقدر يحركه ، والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره ، والاسلام قد متّ (٣) بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه ، ويكتب اليه ويقتضيه ، من رأيه بما رأيه يقتضيه .

ولما استمر تأخر الأمر استمر التأخير ، وقدم فى الاقدام التبكير والتكبير . وانتهز الفرصة وأحرز الحصة . وانتخى (٤) وانتخب الأجناد الأنجاد (٥) ، وجرد الجرد (٦) واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية ، وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طَبريّة (٧) . و(عليهم) « مظفر الدين بن زين الدين على كوجاك » (٨) المقدم المقدام ، والهمام الهمام ، والأسد الأسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق « قايماز

---

(١) بنات الأغماد : قصد بها السيوف فى أغمادها .

(٢) فى ب و أ (ورد) وما ذكر فى ل .

(٣) مت : مد .

(٤) انتخى : افتخر وتعظم اى انتخب من يفتخر به .

(٥) الأنجاد : جمع نجد ، وهو الشجاع الماضى فيما يعجز غيره ، السريع الإجابة إلى ما دعى إليه .

(٦) الجرد : جمع اجرد وهو السباق من الخيل .

(٧) طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بهذا الاسم ، وهى فى طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها ، من أعمال الأردن فى طرف الغور (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣١) .

(٨) مظفر الدين كوجك : هو مظفر الدين كوكبورى بن زين على كوجك بن بكتكين التركانى ، وكوجك معناه اللطيف القدر ، ولى الملك بعد موت أبيه ولم يتجاوز الرابعة عشرة إلا أنه عزل وولى أخوه مكانه ، ولما شب اتصل بصلاح الدين الأيوبى فزوجه أخته الصغرى ، كانت له مواقف مشهوده فى حروب صلاح الدين ، ولما مات أخوه صاحب أربل ، أخذ منه صلاح الدين حران والرها وولاه أربل وشهرزور ، وكان من أحسن الملوك تمسكاً بدينه ، توفى سنة ٦٣٩ هـ (ارجع إلى النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٨٢ ، وشذرات الذهب ج ٥ : ١٣٩) .

النجمى » . وعلى عسكر حلب « دلدرم الياروق » (١) . فساروا مدججين ، وسروا مدلجين (٢) . وصبحوا صفّورية (٣) وساء صباح المنذرين .

فخرج اليهم الفرنج فى جمع شاك ، وجمر ذاك . وقُنطاريات (٤) طائرات ، وسابريات (٥) سابغات . وللداوى (٦) دوى . وللاسبتارى (٧) هوى . والبارونى يقدم على البوار ، والترْكبُولى (٨) يلقّى نفسه على النار .

---

(١) دلدرم الياروق : هو ابن ياروق صاحب تل مباشر ، توفى سنة ٦١١ هـ وخلفه ابنه فتح الدين (تاريخ أبو الفداء ج ٢ : ١١٥ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) ادلج القوم : إذا ساروا الليل كله أو آخره .

(٣) صفورية : كورة وبلد من نواحى الأردن قرب طبرية (ياقوت ج ١٢ : ٤١٤ طب) .

(٤) قنطاريات : جمع قنطارية أوقنطرة وهى فى الأصل خشب الرمح أو الحربة ثم اتسع استعمالها فأطلقت على الرمح نفسه ، وقد قال الأستاذ جب بأنها هى ما يطلق عليها كلمة lances (ارجع إلى Dozy. Supp. وإلى The Damascus Chronicle P. 334 وإلى الروضتين لأبى شامة بتحقيق د. محمد حلمى أحمد) .

(٥) سابريات : دروع دقيقة النسج محكمة تنسب إلى مدينة سابور .

(٦) الداوى : أحد أفراد فرقة الداوية أو الديوية ، وهم قوم من الافرنج وقفوا أنفسهم على جهاد المسلمين وامتنعوا عن ملذات الحياة ، ولم يكن لأحد عليهم طاعة ، وكانوا ينسبون إلى حصن حصين بنواحى الشام ، أطلق المسلمون هذا الإسم على فرسان المعبد templers وهم جماعة أسسها Hugh de Payers سنة ١١٢٩ م لحماية طريق الحاج المسيحى بين يافا والقدس ثم تحولت هذه الجماعة إلى هيئة حربية دينية كان لها شأنها فى التاريخ الصليبى الإسلامى (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣٣) و (سيرة صلاح الدين لابن شداد بتحقيق المحقق ، نشر الدار القومية ، ١٩٦٢) .

(٧) الاسبتارى : أحد أفراد فرقة الاسبتارية وهى جماعة من فرسان الصليبيين لها كثير من خصائص الداوية ، ويطلق عليهم أيضاً اسم المسبتارية أو المسبتالين Hospitallers التى تأسست ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وان كانت قد نشطت قبل ذلك بكثير وكان هدفها الأول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم (المرجعان السابقان) .

(٨) التركبولى : فرسان ينحدر أصلهم من أمهات يونانية وآباء أتراك أوعرب (الاعتبار لأسامة بن منقذ : ٥١ نشر فيليب حتى) .

وقد ثاروا والثار قد وقد ، والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج ، (١) وارتجز عجاج العجاج . وانفض الفضاء ، وانقض القضاء . و كادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل (٢) ، ويحلون العقد ويعقدون ما انحل .

فثبت « قايماز النجمى » فى صدورهم ، وأشرع الأسنة الى نحورهم . وروى اللهاذم (٣) من تامورهم (٤) وعطف «مظفرالدين» يشلهم ويفلهم . ولايكترث بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم « دلدرم » بالوجه الأبيض ، والعزم الأنهض . والجد الأجد ، والحد الأحد . وانجلى الغبار وقد عم الفرنج القتل والأسار ، وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله حُصاص (٥) ، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلك محاص . وأخلفت رنة السراء أنة الإسراء ، وكانت هذه النوبة بلا نبوة (٦) . والهبّة بلا هبوة (٧) .

وسكنت القلوب بهذه الحركة ، وركنت النفوس الى هذه البركة . وسارت البشرى وسرت ، ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك من اقبال « الملك الأفضل » وفضل الملك المقبل . وحسنت السنة بالنصر وأحسنت الألسنة فى الشكر . هذا والعساكر فى كل يوم يفدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق اليه من النكاية فى العدو يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك فأيقنت الآمال بالنجح والدرك . وسار سلطاننا « الملك الناصر صلاح الدين » ووصل السير بالسرى ، وخيم بعشترا (٨)فغصت بسيول الخيول الوهاد والذرا . واجتمع به ولده ، وقر عينا بشبل العرين اسده .

---

(١) الزجاج : مفردها زج بضم الزاى ، وهو طرف المرفق أو الحديدة فى طرف الرمح

(٢) أى المنهزمون .

(٣) اللهاذم : جمع لهذم ، وهو القاطع من الأسنة .

(٤) التامور : النفس وحياتها ، والقلب وحبته وحياته ودمه .

(٥) الحصاص : الفرار وشدة العدو فى سرعة .

(٦) أى الكلال والضعف .

(٧) غبرة .

(٨) عشترا : موضع بحوران من أعمال دمشق (ياقوت ١٣ : ١٢٥ ط.ب)

وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر، ولا أكرث (١) للكفر ولا أكثر . وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (ولله جنودُ السماوات والأرض) (٢) . فى ألوية كأنما عقدتّها حور الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبتها أنف الرياض بزهرها . ويوم كالليل عجاجا ، وليل كاليوم ابتلاجا . ومناصل بالمنى صات(٣) ، وقساطل (٤) بالقسى طلت . وفيلق لهام اللهام (٥) يفلق . وقلوب يمانية رقاق فى صدور الأغماد تقلق ، وطيور سهام من أوتار الحنايا الى أوكار المنايا تمرق . وسوابغ مفاضة ، وسوابق مرتاضة . وهضاب راسيات ، وهواضب (٦) ساريات .

ولما تم العرض ، حسُم الفرض . وتعين الجهاد ، وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث (٧) ، وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع القرنج بكثرة الجمع الجم ، وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد الى التثليث (٨) ، وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث . فخافوا وخابوا ، وهبوا وهابوا . وعرفوا أن حزبهم مخذول ، وأن غربهم (٩) مفلول . وأن حدهم مثلوم (١٠) ، وأن جندهم مهزوم . وأنه قد جاءهم مالا عهد لهم بمثله ، وأن الايمان كله برز الى الشرك كله .

---

(١) أشد غما .

(٢) الآية ٤ سورة الفتح .

(٣) صوت .

(٤) قساطل : جمع قسطل وهو الغبار .

(٥) الجيش العظيم والعدد الكثير .

(٦) هواضب : جمع هضب بكسر الهاء وسكون الضاد وهو الفرس الشديد . وهضبت السماء أمطرت .

(٧) الوعوث : جمع وعث ، وهو المكان السهل تغيب فيه الاقدام ، والطريق العسر .

(٨) قصد المؤلف المسيحية لأنها تقول بأن الله ثالث ثلاثة (تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً) .

(٩) الغرب : الحدة والنشاط .

(١٠) مكسور .

وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث ، وحلف منتكث . ووقوع نفار بين الأنفار ، ووقود شرار بين الشرار . ولما استدنوا حين حينْهم ، سعوا فى اصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص (١) ليتقمص له بالود الأخلص . ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه . فاصطحبا بعد ما اصطلحا . واصحبا بعد ماجمحا .

وتزاور الفرنج وتوازروا . وتآمروا مابينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى دنا منه الوهى هوى ، وعود اذا عاده الأذى ذوى . فالمسيح لنا ، والصليب معنا . والمعمودية (٢) عمدتنا ، والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا ، وصحافنا صفاحنا . وفى لوائنا اللأواء (٣) . ومع أودائنا الداوية الأدواء . وطوارقنا (٤) الطوارق ، وببارقنا البوائق (٥) . وسيف الاسبتار بتار ، ولقرن البارونى من مقارنته بوار. ومعنا الدلاص(٦) والصلاد (٧) ، والصعاب والصعاد . وفى كل قنطارى قنطار ، ولكل سابرى من أسنتنا مسبار (٨) .

وقد عم بحرنا الساحل ، وشددنا به المعاقد والمعاقل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة ، وما تضيق بنا فى هذه السنة ، وأرماحنا إلى هذه الغاية من الأسواء أسوار هذه البقاع والأمكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا

---

(١) القومص : هو الكونت ريمون الثالث صاحب امارة طرابلس الصليبية ويلقب فى بعض المراجع العربية بالصنجيل تحريفاً للقبه الفرنسى The conte Raymond de Saint Angilles (مفرج الكروب ج ٢ : ٢٩ تحقيق د. الشيال) .

(٢) المعمودية : ماء للنصارى يغمسون فيه صغارهم معتقدين أنه تطهير لهم .

(٣) أى القوة والشدة والبأس .

(٤) الطوارق : أو الطارقيات جمع طارقة وهى الدرقة أو الترس (الروضتين لأبى شامه ج ١ تحقيق د . محمد حلمى أحمد (عن Buckler)

(٥) البوائق : جمع بائقة وهى النازلة أو الداهية .

(٦) درع دلاص : ملساء لينة .

(٧) الصلاد : أى الأسلحة الصلبة الملساء .

(٨) السابرى : الدرع المحكمة الدقيقة الصنع . والمسبار : الممتحن لغور الجروح وغيرها .

أن يسلموا إلينا ويسالمونا ، ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا ، وطالما ناصفونا وما صافونا ، وهادونا وهادنونا . وفى جمعنا تفريقهم ، وفى وقعتنا تعويقهم .

فقال القومص وكان مُحَرِّبا مجربا ، متدبرا متدربا « هذا صلاح الدين لا يقاس بأحد من السلاطين لتسلطه ، وإقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغة والمغاورة والصبر . والصواب ألا نخالطه ولا نباسطه ، ولا نخالفه ونقبل شرائطه »

فقال له الملك « أنت قد قلبتك الآفة ، وفى قلبك المخافة . وأنت للحور رخو ، وللخشية حشو . وأنا لا بد أن أصدمه وأصده ، وأكدمه وأكدّه (١) ، وأرادده حتى أرده . وأقيم صليب الصلبوت(٢) فلا يقعدعنه من أهل الأحد (٣) أحد . وأمد يد الأيْد(٤) بجمعى فلا تمتد لأهل الجمعة يد »

فقبل القومص قوله على مضض ، وصح ظاهره معه على ما كان فى الباطن من مرض . ولما (٥) أحس منه الملك بالوفاء والوفاق ؛ وعدم أهل(٦) الشقاء ماوجدوه بينهما من الشقاق ؛ اشتغلوا بالحشد والحشر ، والطى والنشر .

---

(١) أكده : ألح فى طلبه .

(٢) صليب الصلبوت : قطعة من الخشب يعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام صلب عليها وتذكر المراجع أن هذا الصليب قد نقل إلى جزيرة قبرص بعد جلاء الصليبيين عن الشام ثم استولى المسلمون عليه عند فتحهم الجزيرة سنة ١٤٢٦ م على أنه بقى بتلك الجزيرة ، ورآه أحد الأوروبيين الرحالة سنة ١٤٨٨م Ziada Mamlouk Conquest of Cyprus, P 102 (ومفرج الكروب ج ٢ : ١٨٩ تحقيق د. الشيال) .

(٣) أهل الأحد : هم الصليبيون وذلك لعظم يوم الأحد عندهم .

(٤) الأيد : القوة .

(٥) فى ١٩ أ فلما .

(٦) ساقطة فى ب مثبته فى أ و « ل » .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أمارى (١) بن فلك فى آخر سنة تسع وستين (٢) وخمسمائة خلف ولدا مجذوما ، وكان مع الوجود معدوما . قد أعضل داؤه ، وأيس شفاؤه ، وسقطت أعضاؤه ، وطال بلاؤه . فوضع الفرنج التاج على رأسه ، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه (٣) . ونفخوا فى ضرمه (٤) ، وتسمنوا بورمه ، وصحوا بسقمه ، ورقوا فى سلمه ، ورضوا بتقدمه . وأكبروه وأركبوه . وأقدموا به وقدّموه . وهم يكرثون (٥) بجذاذ (٦) ملكهم هذا ، ولا يكترثون بجذامه، ويحمون حماه أن يُحم حلول حمامه ، وبقى بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا ، معارا من إشفاقهم واتفاقهم مراعى .

فلما أحس بهلاكه ، وسكون حراكه . أحضر البطرك (٧) والقسوس ، والمقدمين والرءوس . وكان له ابن أخت صغير ؛ عن التطاول إلى الملك قصير ،

---

(١) أمارى : هو أمورى ومرى Amarlic I ، تولى مملكة القدس الصليبية سنة ٥٥٦ هـ بعد وفاة بلدوين الثالث Boldwin III . وكان عمره آنئذ ٢٧ سنة ، وقد تقدمت جيوشه لغزو مصر مرتين فى النزاع الذى قام بها بين الوزيرين شاور وضرغام ، توفى سنة ٥٦٩ هـ (الروضتين ج ١ : ٢٩٣ تحقيق د. محمد حلمى أحمد) .

(٢) فى ب تسعين وهذا خطأ والتصحيح من أ و ل .

(٣) أمراس : الحبال ، والمقصود بالعبارة أنهم تمسكوا به رغم مرضه .

(٤) ضرمه : جمرة . يقال ماقى الدار نافخ ضرمة أى أحد .

(٥ و ٦) كرثه الغم : اشتد عليه . جذاذ : حجارة الذهب والمقصود أنهم اهتموا بذهب ملكهم ولم يهتموا بمرضه .

(٧) البطرك : أو البطريق معرب اللفظ Patricius بمعنى القائد وأحياناً يطلق على رؤساء الأساقفة على أقطار معينة أو على طائفة من طوائف المسيحيين ، وجاء فى (تاريخ العرب العام لسديو) بأن الكلمة لقب سام جداً كان يمنحه الروم البيزنطيون لبعض الناس. وطبقة البطارقة فى القسطنطينية كانت أعلى الطبقات الاجتماعية ، وهى أرقى من رتبة قنصل ، وعلاقتها بالإمبراطور نسبة علاقة الكرادلة بالبابا ، والبطرك أعلى من فيلارك (ارجع إلى الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . ب ١٩٠٨ م) وال (تاريخ العرب العام لسديو) .

وقال لهم : «المُلك فى هذا ، ولكن القومص يكفله مدة سنى صغره ، وهو يستقل به بعد كبره . فهو الآن لايستبد ، ومن أمر القومص يستمد .» فقبل القومص الوصية، وجمع إليه الأطراف الدانية والقصية : وسكن بطبرية . فإن صاحبتها كانت تزوجت به ، وطمعت فى قوته وقربه .

وهلك الملك المجذوم ، وظهر السر المكتوم . وطمع القومص فى الملك استقلالا ، فعدم موافقة الداوية . وقالوا « يلزمك العمل بشرط الوصية ». فكفل بالأمر وهو مغلوب ، وتفقد اختياره فإذا هو مسلوب . ورغب فى مقاربة السلطان صلاح الدنيا والدين ، ليقوى بجانبه ، ويحظى من مواهبه . فاشتد أزره ، واستد أمره ؛ واستقل بنفسه . واستولى على جنسه ؛ حتّى مات الملك الصغير فانتقل الملك منه إلى أمه ؛ وبطل ما كان فى عزم القومص برغمه .

وانتقل الملك إليها ؛ واجتمع الفرنج عليها . فقالت لهم « زوجى أقدر . وهو أحق بالملك وأجدر». وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه ، وعاش رجاءه بعد يأسه . وراش (١) غناه بعد إفلاسه ، وانتاش (٢) إبليسه(٣) بعدابلاسه(٤)وقامت قيامةالقومص بإجلاسه. وطالبه الملك الجديد بحساب ماتولاه ، فما أجاب دعوته ولا لباه . واستنصر عليه بسلطاننا الملك الناصر ؛ وأقام بطبرّية فى زى المتطاول المتقاصر . وضم إليه من الافرنجية من استرغبه ، بما استماحه من سلطاننا واستوهبه .

وحث العزم السلطانى على قصدهم ليرد إليه الملك ، ويجد له فى نظم أمره السلك . فلما اجتمعت العساكر الاسلامية ، وتألفت منها الجزرية والديار بكرية والمصرية والشامية ؛ جاء الملك إلى القومص بنفسه ، وفتح له ما وجده من وحْشته وعدمه من أنسه . وقال أصحاب القومص له « إن لم تنصره فنحن ما نخذل الدين،ولا نكون بأيدينا مسلمين إلى المسلمين». وتمت بينهم ليوم المصاف المصافاة ، وزالت المنافرة والمنافاة .

---

(١) راش : جمع المال والأثاث واغتنى .

(٢ و٣) انتاش ابليسه : نهض شيطانه وأسرع فى النهوض .

(٤) بعد ابلاسه : بعد يأسه . وأبلس : يئس وتحير ومنه سمى ابليس لتحيره وليأسه من الرحمة .

ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر إلى ديار الفرنج

أصبح بالمخيم عارضا من العسكر لعارض ثجاج (١) ، وبحر بالعجاج (٢) عجّاج . وخضم بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح ذى أمواج . وقد رتب أبطاله وأطْلابه (٣) . وسحب على وجه الأرض سحابه ، ونقل به من الثرى إلى الثريا ترابه (٤) . وأطار إلى النسر الواقع من الغبار غرابه . وقد فض الفضاء ختام القتام (٥) . وشُدّت للشدائد كتب الكتب على حمام (٦) الحمام ؛ وحنت ضلوع الحنايا على أجنة (٧) السهام وتكفلت العوجاء بالمعتدلة ؛ وضمت المنفلتة (٨) إلى المنفتلة . ووفت الأوتار بالأوتار ؛ وثار كل طُلب (٩) لطلب الثار . ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيبا ؛ ويبوبه تبويبا . ويعبيه بعيداً وقريبا . وقرر لكل أمير أمرا ولكل مقدام (١٠) مقاما . ولكل موفق موقفا . ولكل كمين مكانا . ولكل قرن قرانا (١١) . ولكل جمر مطفئا ، ولكل

---

(١) العارض : السحاب الممطر . والثجاج : الذى يسيل ماؤه بغزارة .

(٢) العجاج ، بفتح الجيم ، الغبار والدخان . وبتشديد الجيم ، الصياح من كل ذى صوت.

(٣) الأطلاب : جمع طلب ، وهو لفظ كردى يطلق على الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، كما يطلق أيضاً على القائد الذى يقود مائة جندى أو سبعين (Dozy. Supp.) و(السلوك للمقريزى ج ١ : ٢٤٨ تحقيق دكتور زيادة) .

(٤) فى أ (ونقل من الثريا إلى الثرى ترابه) وأما فى ب ول (ونقل من الثرى إلى الثريا ترابه) .

(٥) أى الغبار .

(٦) فى ب حم والتصحيح من أ ول .

(٧) جمع جنين وهو الولد فى الرحم ويطلق على كل مستور ولعله أراد أن حنايا الضلوع قد حنت على كل مستور من السهام .

(٨) فى ا المتقلبة .

(٩) فى أ طالب .

(١٠) فى أ مقدم .

(١١) القرن : الكفء فى الشجاعة . والقران : حبل من سلك يشد فى العنق ، والمقصود أنه جعل لكل سيد شجاع من الأعداء حبلا يشد به عنقه .

جمع مُكَفْنا . ولكل زنْد موريا ؛ ولكل حد ممهيا(١) . ولكل قضية(٢) حكما ، ولكل حنية (٣) سهما . ولكل يمين مقضبا (٤) . ولكل يمان مقبضا . ولكل ضامر مضمارا ؛ ولكل مغوار مغارا (٥) . ولكل رام مرتمى . ولكل نام منتمى . ولكل سام مَسْمّى ، ولكل اسم مسمى .

وعين لكل أمير موقفا فى الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه . ولايغيب جمع ولا يبرح أحد منه . وأخرج الجاليشية(٦) الرماة الكماة من كل طلب ، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب . وقال « إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا . ومواضع أطلابنا ، ومطالع أبطالنا . ومصارع أسنتنا . وشوارع أعنتنا . وميادين جردنا (٧) ، وبساتين وردنا . ومواقف صروفنا . ومصارف وقوفنا . ومرامى مرامنا ، ومجالى مجالنا . »

وقوى الآمال بما بذله من الأموال ، وحقق فى انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال ، وجمع العدد ؛ وفرق العُدد . ووهب الجياد وأجاد المواهب ؛ ورغب فى العطايا وأعطى الرغائب . ونثر الخزائن ، ونثل (٨) الكنائن . وأنفق الذخائر ، واستنفد كرائمها والأخاير . وقسم أحمال النشّاب(٩) فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب . وأجرى الجرد وأجنى الأجناد(١٠) ؛

---

(١) أمهى الحديدة : أحدها وسقاها الماء .

(٢) فى أ و ب قضيبة .

(٣) أى القوس وتجمع كلمة حنية على حنايا وحنى .

(٤) مقضب : ما قطع من الأغصان للسهام أو القسى .

(٥) أى الكهف .

(٦) الجاليش : الأصل فى معناها هو الراية العظيمة فى رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلقت على مقدمة القلب فى الجيش أو على الطليعة منه . ارجع إلى (السلوك للمقريزى ج ١ : تحقيق د . زيادة (و) سيرة صلاح الدين لابن شداد . تحقيق محمد محمود صبح ص ١٠١) .

(٧) الجرد : واحدها أجرد وهو السباق من الخيل .

(٨) نثل الكنائن : استخرج نبالها ونثرها .

(٩) النشاب : جمع نشابه وهى النبل أو السهام .

(١٠) أجنى الأجناد : كثرها .

وأذكى المذاكى وأشهد الأشهاد . وأذال (١) مناقب المقانب(٢) ، واستمال معاطف المعاطب . وقوى القواطع ، وروى الروائع .

وعاد إلى المخيم مسرورا محبورا ، مقبولا مبرورا ، موفورا مشكورا . وقد رتب وربت (٣) ، وقنب (٤) وكتّب ، وثبت ونبت . قد بر عمله ، وأبر أمله . وفاح نشره ، ولاح بشره . وتأرج رياه ، وتبلج محياه . وأيقن بالظفر وظفر باليقين ، وأمن إلى الدعوى المستدعية للتأمين ، وتيمن بأوضاح (٥) عرابه (٦) الميامين ، وإيضاح إعرابه فى اقتضاء دين الدين . وأنس ببهجة الخيل ولهجة الخير ، وسر سره بما سرى له من وجه السير . وشد حُزُم الحزْم ، وجد فى العزم الجزم . وقدم الإسْراج للإسراء ، وألجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة السابع عشر شهر ربيع الآخر والتوفيق مسايره ، والتأييد موازره ، والتمكين مضافره ، والسعد مظاهره ، والجد مكاثره ، واليمن محاضره ، والعز مسامره ، والظفر مجاوره ، والاسلام شاكره ، والله عز وجل ناصره . وسار على الهيئة التى قدمنا ذكرها من المقانب المقنّبة ، والكتائب المكتّبة ، والمراتب المرتبة . والمذاهب المهذبة . والسلاهب المجنّبة (٧) والصوائب (٨) المجعبة . والمواضب (٩) المقربة (١٠) . والثعالب

---

(١) أذال : أهان .

(٢) المقانب : مخالب الأسد .

(٣) ربت : ربى .

(٤) يقال قنب الأسد مخلبه : إذا غيبه فى فريسته .

(٥) أوضاح : جمع وضح وهو الغرة والتحجيل فى قوائم الأسد .

(٦) عراب : أى ليست بهجين بل عربية أصيلة .

(٧) السلاهب : واحدها سلهب وهو الطويل من الخيل . والمجنبة : التى تسير جنباً إلى جنب .

(٨) الصوائب : جمع صائب وهو الذى يجيد التصويب . والمجعبة نسبة إلى الجعبة وهى كنانة النشاب .

(٩و١٠) فى ب و ل القواضب المقربة والتصحيح من نسخة أ .

المذربة(١) . واللهاذم الماذمة(٢) . والصلادم(٣) اللاذمة(٤) . والضراغم(٥) الضاغمة .

وخيم على خسفين (٦) ، وقد أدنى الله الخسف بالعدو وخسوفه ، وكسف الكفر وكسوفه . وبات والوجوه سافرة ، والعيون فى سبيل الله ساهرة ، والأيدى لسيوف الأيد شاهرة ، والألسن لأنعم الله شاكرة . والقلوب بالإخلاص عامرة ، والأنفس للأنس مسامرة . والإقدام بالأقدار متضافرة متظاهرة .

ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة، بعزم الصيال(٧) وعز الصيانة . وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط ، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط . وبرزت الأرض فى قشب أثوابها (٨) ، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها . ورست سفن المضارب على تلك الأثباج(٩) ، وطمت الأطلاب أمواجا على أمواج . وانعقدت سماء العجاج (١٠) ، وطلعت فيها أنجم الخرصان (١١) والزجاج (١٢) .

---

(١) الثعالب المذربة : ثعالب هنا بمعنى أطراف الرماح الداخلة فى جبة السنان ، والمذربة : الحادة .

(٢) اللهاذم : واحدها لهذم وهو القاطع من الأسنة . والماذمة : القاطعة .

(٣) الصلادم : جمع صلدم وهو الأسد ،

(٤) اللاذمة : فى ب اللازمة والتصحيح من أول والمعنى أنها تعجب ويولع بها .

(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد . والضاغمة : التى تعض .

(٦) خسفين : قرية من أعمال حوران فى الطريق إلى مصر بين نوى والأردن – (ياقوت ج ٧ : ٣٨١ ط . ب) .

(٧) الصيال : الذى يسطو ويستطيل على خصمه .

(٨) قشب أثوابها : أى جديدها . وسلاح قشيب : مجلو .

(٩) الأثباج : جمع ثبج وهو وسط الشيء ومعظمه .

(١٠) العجاج : الغبار والدخان .

(١١) الخرصان : جمع خرص وهو الرمح .

(١٢) الزجاج : جمع زج بضم الزاى ، وهو الحديدة فى أسفل الرمح .

وأعاد الأقحوانة رياضا نضرة ، وحدائق مزهرة . من فرس ورد(١) ، وفارس كالأسد الورد(٢) ومشرفيات (٣) كطاقات الرياحين ، ويزنيات(٤) كأشجار البساتين ، ورايات صفر تخفق بعذبات الياسمين . وألوية حمر(٥) كشقائق النعمان . وموضونة زغف كالغدران ، ومصقولة بيض كالخلجان . ومريشة(٦) زرق كالأطيار(٧) ، ومحنية(٨) عوج كالأفنان ، وبيض تلمع كثغور الأقحوان . وحبب ترائك على نحور الدارعين (٩) ، وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين .

والفرنج قد صفوا راياتهم بصفّورية (١٠) . ولووا الألوية ، ومدوا على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات ، وأوقدوا فى ظلام القتام الثائر سرج (١١) السريجيات . وصوبوا إلى صوب قرا الأقران نياب اليزنيات (١٢) . وأحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم ، وحاطوا بواترهم بواترهم . وجمعوا الأوشاب (١٣) والأوباش (١٤) ، ورتبوا الجيش وثبتوا الجاش .

وحشدوا الفارس والراجل ، والرامح والنابل ، ونشروا ذوائب

---

(١) فى ب (رده) — والتصحيح من ل و ١٨ أ ، وفرس ورد : أى الأحمر والأشقر .

(٢) ورد : أى جرئ .

(٣) المشرفيات : السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام .

(٤) يزنيات : الرماح والسيوف المنسوبة إلى يزن أحد ملوك حمير .

(٥) فى ب حق والتصحيح من ل وأ ١٨ .

(٦) مريشة : السهام يلصق عليها الريش ليحملها فى الهواء كما يحمل الطائر.

(٧) فى أ ١٨ كالظبان .

(٨) محنية : قوس .

(٩) فى أ ١٨ جشث تزايل على نحور الدارعين .

(١٠) سبق التعريف بها .

(١١) فى ب سروج والتصحيح من ل ومن أ١٨ .

(١٢) ارجع إلى هامش ٤ .

(١٣) الأوشاب : مفردها وشب بسكون الشين وهم خليط الناس وأوباشهم .

(١٤) الأوباش : سفلة الناس وأخلاطهم .

النوابل (١) ، وحشروا أبطال الباطل ورفعوا صليب الصلبوت ، فاجتمع إليه عباد الطاغوت (٢) ، وضلال الناسوت (٣) واللاهوت . ونادوا فى نوادى أقاليم أهل الأقانيم (٤) ، وصلبوا الصليب الأعظم بالتعظيم . وما عصاهم منْ له عصا ، وخرجوا عن العد والاحصا ، وكانوا عدد الحصى . وصاروا فى زهاء خمسين ألفا أو يزيدون ، ويكيدون ما يكيدون . قد توافوا على صعيد ، ووافوا من قريب وبعيد . وهم هناك مقيمون ، لا يرومون حركة ولا يريمون (٥) .

والسلطان صلاح الدين فى كل صباح يسير إليهم ، ويشرف عليهم ، ويراميهم وينكى فيهم . ويتعرض لهم ليتعرضوا له ، ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله . فربضوا وما نبضوا ، وقعدوا وما نهضوا . فلو برزوا لبرز إليهم القتل فى مضاجعهم (٦) ، وعاينوا مقام صارعهم فى سوْقهم إلى مصارعهم . وفزعوا مما فيه وقعوا . وجبنوا عمّا له تشجعوا .

فرأى السلطان أن يطيب ريه من طبريه (٧) ، ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفية . ويحوز حوزتّها ويملك مملكتها . فجرّ على الأردن أرْدان الرديْنيّات (٨) ، وأطلع النقع المثار من البحر بحوافر الأعوجيات (٩) ،

---

(١) النوابل : الدقيقة .

(٢) الطاغوت : الصنم أوهو كل رأس فى الضلال .

(٣) الناسوت : طبيعة الإنسان فى مقابلة اللاهوت .

(٤) الأقانيم : جمع أقنوم وهو الأصل ، ويقول بعض المسيحيين إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة وهى الأب والابن وروح القدس (تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً) .

(٥) أى لا يبرح .

(٦) أى لكتب عليهم الموت ، يعنى المؤلف قول الله تعالى « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » .

(٧) طبرية : سبق التعريف بها .

(٨) الردينيات : الرماح وتنسب إلى ردينة وهى امرأة اشتهرت بتقويم الرماح .

(٩) الأعوجيات : جمع أعوج وهو فرس مشهور لبنى هلال تنسب إليه الخيل الجياد .

واستسهل عليها ولم يستوعر بيات العربيات . فأمر عساكره ، وأمراء جيشه وأكابره ؛ أن يقيموا قبالة الفرنج ، ويضيقوا عليهم واسع النهج . فان خرجوا للمصاف بادروا إلى الانتقام منهم والانتصاف . وإن تحركوا إلى بعض الجوانب ؛ وثبوا بهم وثب الأسود بالأرانب ؛ وإن قصدوا طبرية لصونها ؛ وأن يكونوا فى عونها ؛ عجلوا الإعلام ليعجل عليهم الإقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية فى خواصه، وذوى استخلاصه. وأحضر الجانْدارِيّة(١) والنقّابين والخراسانية والحجارين . وأطاف بسورها ، وشرع فى هدم معمورها . وصدقها القتال ، وما صدف عنها النزال ، وكان ذلك يوم الخميس . وأخذ النقابون النقب فى برج فهدوه وهدموه ، وتسلقوا فيه وتسلموه ، ودخل الليل وصباح الفتح مسفر ، وليل الويل على العدو معتكر. وامتنعت القلعة بمن فيها — من القومصية — ست طبرية — وبنيها .

ولما سمع القومص بفتح طبرية وأخْذ بلده : سقط فى يده ، وخرج عن جلد جلده ، وسمح للفرنج بسبده ولبده (٢) . وقال لهم « لاقعود بعد اليوم ، ولابد لنا من وقم القوم (٣) ، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد ، وذهبت الطراف والتلاد (٤) . وما بقى لى صبر ، وما بعد هذا الكسر لى جبر » .

وكان الملك قد حالفه ، فما خالفه ، ووافقه فما نافقه ، وماحضه فما ماذقه (٥) ، ووادده فما رادده ، وواعده فما عاوده ، ورحل بجمعه ، وبصره وسمعه . وثعابينه وشياطينه ، وسراحيبه (٦) وسراحينه . وأتباع غيه ، وأشياع بغيه . فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غبرته

---

(١) الجاندارية : وظيفة صاحبها كالمتسلم الباب يستأذن على دخول الأمراء الخدمة ويدخل أمامهم الديوان ، وكلمة جاندار فارسية الأصل مركبة من كلمة جان بمعنى سلاح ودار بمعنى ماسك (السلوك للمقريزى تحقيق د. زيادة ج ١ : ١٣٣) و(صبح الأعشى ج ٤ : ٢٠). و(النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٣٢) .

(٢) السبد : قليل الشعر ، واللبد : كثيره .

(٣) وقم القوم : أى إذ لالهم وقهرهم وردهم أسوأ رد .

(٤) الطراف والتلاد : حديث المال وقديمه .

(٥) ماذقه : لم يخلص له الود .

(٦) سراحيب : جمع سرحوب وهو الفرس الطويلة ، وسراحين : وأحدها سرحان وهو الذئب أو الأسد .

ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن أثبات ثباتهم ووثبوا . وعبّوْا وعبوا . ودبوا حتى يذبوا . وشبوا النار ، ولبوا الثار ،وقدموا للنزول بالدار البدار . وذلك فى يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر.

فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه ؛ بما سبق به حكمه ، وسرّحين أحاط بمسيرهم علمه . وقال « قد حصل المطلوب ، وكمل المخطوب . وجاءنا ما نريد ، ولنا بحمد الله الجد الجديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد ، والنصر العتيد . وإذا صحت كسرتهم ، وقتلت وأسرت أسرتهم ؛ فطبرية وجميع الساحل مادونها مانع . ولاعن فتحها وازع » .

واستخار الله وسار ، وعدم القرار . وجاء يوم الجمعة رابع عشرى شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية بقضّهم وقضيضهم (١) ، وكأنهم على اليفاع (٢) فى حضيضهم . وقد ماجت خضارمهم(٣) ، وهاجت ضراغمهم ، وطارت قشاعمهم (٤) ، وثارت غماغمهم (٥) ، وسدت الآفاق غمائمهم ، وشاقت ضاربيها جماجمهم .

وهم كالجبال السائرة ، وكالبحار الزاخرة . أمواجها ملتطمة ، وأفواجها مزدحمة ، وفجاجها محتدمة . وأعلاجها (٦) مصطلمة(٧) . وقد جوى الجو ، وضوى الضوّ ، ودوى الدو . والفضاء منفض ، والقضاء منقض . والثريا قد استزار الثرى ، وجر ذيل الخيل قد برّى البرى (٨) .

---

(١) بقضهم وقضيضهم : القض ، الحصى الصغار والقضيض الكبار والمعنى أنهم جاءوا بالكبير والصغير .

(٢) اليفاع : كل ما ارتفع من الأرض من تل وغيره .

(٣) خضارم : السادة الكرام الذين يتحملون عظائم الأمور.

(٤) قشاعم : واحدها قشعم وهو المسن من النسور والرجال والنساء والمقصود كل القوم خرجوا للحرب .

(٥) غماغم : جمع غمغمه ، وهو صوت البطل عند القتال وصوت الثور عند الذعر.

(٦) أعلاج : واحدها علج وهو الرجل الضخم من كفار العجم ، ويطلق على الكافر عموماً ، كما يطلق أيضاً على الحمار الوحشى .

(٧) اصطلم : استأصل .

(٨) البرى : التراب .

والحوافز الحوافز للأرض حوافر ، والفوارس اللوابس فى البيض (١) سوافر . وذئاب الذياد (٢) وأجلاد الجلاد ؛ قد حملوا كل عُدة ، وكملوا كل عدة .

فرتب السلطان فى مقابلتهم أطلابه ، وقصر على مقاتلتهم آرابه . وحصل بعسكره قدامهم ، ورقب على الحملة إقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء ، ومنع ذمامهم (٣) على الذماء(٤) . وحلأهم(٥)عن الورد،وصدعهم بالصد. ذاك واليوم قيظ ، وللقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة ، فوقدتها غير هاجرة، وشربت ماكان فى إداوتها (٦) فهى على الظمأ غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الإسلام للكفر مقابلا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا . والهدى للضلال مراقباً ، والإيمان للشرك محارباً . وهيئت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان ، وانتظر مالك واستبشر رضوان (٧).

حتى إذا أسفر الصباح ؛ وسفر الصباح ؛ وفجّر الفجر أنهار النهار ؛ ونفّر النفير غراب الغبار، وانتبهت فى الجفون الصوارم،والتهبت فى الضوامر الضوارم ؛ وتيقظت الأوتار ؛ وتغيظت النار ؛ وسل الغرار (٨) ؛ وسلب القرار ؛ خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ، ورنت القسي وغنت الأوتار . ورقصت مرّان (٩) المراد ، بجلاء عرائس الجلاد .

---

(١) البيض : جمع بيضة وهى الخوذة من الحديد تلبس على الرأس لوقايتها عند الحرب .

(٢) الذياد : الدفع أو الطرد .

(٣) ذمام : الحق .

(٤) الذماء : أى بقية الروح .

(٥) حلأ : طرد ومنع عن ورود الماء .

(٦) الإداوة : اناء صغير من جلد .

(٧) يقصد أن مالك خازن النار أعد نفسه لاستقبال أهل الكفر والضلال وأن رضوان خازن الجنان مستبشر لاستقباله الشهداء من مجاهدى المسلمين .

(٨) الغرار : حد السيف ، أو الرمح ، أو السهم .

(٩) مران : رماح لدنه فى صلابه .

وبرزت البيض من ملاثها فى الملأ عارية ، ورتعت السمر لكلثها من الكلى راعية .

فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا، وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء، ومالهم سوى مابأيديهم من ماء الفرنْد (١) ماء . فشوتّهم نار السهام وأشوتّهم ، وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتهم . وأعجزوا وأزعجوا ، وأحرجوا وأخرجوا. وكلما حملوا رُدّوا وأرْدوا ، وكلما ساروا وشدّوا ؛ أسروا وشُدّوا . وما دبت منهم نملة ، ولاذبت عنهم حملة ، واضطرموا واضطربوا ، والتهفوا والتهبوا . وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ . فآووا إلى جبل حطين (٢) يعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا (٣) ، وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا ، وقشرتّهم المنايا ، وقرشتهم البلايا ، ورقشتهم (٤) الرزايا ، وصاروا للردى درايا ، وللقضايا رمايا .

ولما أحس القومص بالكسرة ، حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة ، واحتال فى الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر ، واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطلبه يطلب الخروج ، واعوج إلى الوادى وماود أن يعوج (٥) . ومضى كومض البرق ، ووسع خطى خرقه قبل اتساع الخرق . وأفلت فى عدة معدودة ، ولم يلتفت إلى ردة مردودة . وغاب حالة حضور الوغى ، ونابه الرعب الذى نوى الهزيمة به وماونى .

ثم استجرت (٦) الحرب ، واشتجر الطعن والضرب : وأحيط بالفرنج

---

(١) الفرند : السيف ، ويقال سيف فرند أى لا مثيل له .

(٢) حطين : قرية بين طبرية وعكا ، بينها وبين طبرية فرسخين ، وبقرية جبارة بالقرب منها قبر يقال أنه قبر النبى شعيب عليه السلام . (ياقوت ج ٧ : ٢٧٣ — ٢٧٤ ط . ب) . .

(٣) الظبا : جمع ظبية بضم الظاء وسكون الباء ، وهى حد السيف أو السنان .

(٤) رقش : نقش . ورقش الكلام ، كتبه وزينه .

(٥) يعوج : يعود .

(٦) أى استمرت.

من حواليهم بما حووا إليهم ، ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا فى ضرب خيامهم ، وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم ، وفلت حدود الرماة الكماة مضاربهم . وأعجلوا عن نصب الخيم ورفعها ، وشغلوا عن أصل الحياة وفرعها . وترجوا خيراً فترجلوا عن الخيل، وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . وأحاط بهم العسكر إحاطة النار بأهلها ، ولجأوا إلى حزم الأرض فبلغ حزامهم الطبيين(١) من سهلها . وأسر الشيطان وجنوده ، وملك الملك وكنوده (٢) .

وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى ، وهم يتهادون فى القيود تهادى السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية ، ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاسبتارية . وأحضر الملك (كى) (٣) وأخوه (جفرى) و(أوك)(٤) صاحب جبيل و(هنفرى) (٥) . و (البرنس أرناط) (٦) صاحب الكَرَك — وهو أول من وقع فى الشرك . وكان السلطان قد (٧) نذر دمه ، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه .

فلما حضر بين يديه ، أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه ، وقرعه على غدره وذكره بذنبه ، وقال له « كم تحلف وتحنث،وتعهد وتنكث . وتبرم

---

(١) الطبيين : وأحدها طبى وهى حلمة الضرع لكل ذات خف أوظلف أوحافر أوالسباع والمقصود بالعبارة أنهم بلغوا وسطها وثبتوا أنفسهم بها .

(٢) كنود : جمع كند بضم الكاف وسكون النون ، وهو الفارس الباسل الشاكى السلاح . وهى كلمة فارسية الأصل بمعنى الشرس الشديد (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢١٤) . و(الألفاظ الفارسية المعربة لإدى‌شير) .

(٣) الملك كى : Guy of Lusignan king of Jerusalem أسره صلاح الدين يوم حطين وفك أسره بعد أن أقسم ألا يحاربه (مذكرات فى تاريخ العصور الوسطى فى أوروبا والشرق لمحمد رفعت) .

(٤) أوك صاحب جبيل هو Hugh II Embriacol Lord of Jebail (مفرج الكروب ج ٢ : ١٩٢ تحقيق د. الشيال) .

(٥) فى ا ٢٢ منفرى وهذا مخالف لما جاء فى ب ول وسيرة صلاح الدين لابن شداد .

(٦) سبق التعريف به .

(٧) زياده من أ ٢٢ .

الميثاق وتنقض ، وتقبل على الوفاق ثم تعرض » فقال الترجمان عنه (١) يقول « قد جرت بذلك عادة الملوك ، وما سلكت غير السنن المسلوك » .

وكان الملك يلهث ظمياً ، ويميل من سكرة الرعب منتشياً . فآنسه السلطان وحاوره ، وفثأ سوْرة الوجل الذى ساوره . وسكن رعبه ، وأمن قلبه ، وأتى بماء مثلوج أزال لهثه ، وأزاح من العطش ماكرثه . وناوله الابرنس ليخمد أيضاً لهبه ، فأخذه من يده وشربه . فقال السلطان للملك « لم تأخذ منى فى سقيه إذنا ، فلا يوجب ذلك له منى أمنا » ، ثم ركب وخلاهما ، وبنار الوهل أصلاهما . ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه ، وركزت أعلامه وبيارقه ، وعادت عن الحومة إلى الحمى فيالقه .

فلما دخل سرادقه ، استحضر الابرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه . وحين صرع أمر برأسه فقطع ، وجر برجله قدّام الملك حين أخرج فارتاع وانزعج . فعرف السلطان أنه خامره الفزع ، وساوره الهلع ،وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وأمنه وطمنه ، ومكنه منقربه وسكنه . وقال له « ذاك رداءته أردته (٢) ، وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغْيه (٣) ، ونبا زند حياته ووردها عن وَرِيْه وريّه » .

وصحت هذه الكسرة ؛ وتمت هذه النصرة ؛ يوم السبت . وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد ، وكانوا أسوداً فعادوا من النقد(٤) . فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد ، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد . وَامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى ، وانجلى الغبارعنهم بالنصر الذى تجلى . وقيدتالأسارى بالحبال واجفة القلوب ، وفرشت القتلى فى الوهاد والجبال واجبة الجنوب .

---

(١) فى ب ول أن والمذكور من أ ٢٢ .

(٢) فى ب ول أودته والتصحيح من أ (٢٢ ش) .

(٣) فى أ (٢٢ش) ببغيه وفيه .

(٤) النقد : جنس من الغنم صغير الأرجل والعبارة كناية عن أنهم عادوا ضعافا بعد أن كانوا متأسدين .

وحطت حطين تلك الجيف على متنها ، وطاب نشر النصر بنتنها . وعبرْت بها فلقيت أشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاة ، بالعراء عراة . ممزقة بالمازق ، مفصلة المفاصل مفرقة المرافق،مفلقة المفالق . محذوفة الرقاب ، مقصوفة الأصلاب . مقطعة الهام ، موزعة الأقدام . مجدوعة الآناف ، منزوعة الأطراف . معضاة الأعضاء ، مجزأة الأجزاء . مفقوءة العيون ، مبعوجة البطون . مخضوبة الضفائر ، معضوبة المرائر . مبرية البنان ، مفرية اللبان (١) .

مقصومة الأضالع ، مفصومة الأشاجع (٢) . مرضوضة الصدور ، مفضوضة النحور . منصفة الأجساد ، مقصفة الأعضاد . مقلصة الشفاه ، مخلصة الجباه . قانية الذوائب ، دامية الترائب . مشكوكة الأضلع ، مفكوكة الأذرع . مكسورة العظام ، محسورة اللثام . بائدة الوجوه ، بادية المكروه . مبشورة الأبشار (٣) ، معشورة الأعشار . منشورة الشعور ، مقشورة الظهور . مهدومة البنيان ، مهتومة الأسنان . مهرقة الدماء ، مرهقة الذماء . هاوية الذرا ، واهية العرا ، سائلة الأحداق ، مائلة الأعناق . مفتوتة الأفلاذ ، مبتوتة الأفخاذ . مشلوخة الهامات ، مسلوخة اللبات . عديمة الأرواح ، هشيمة الأشباح . كالأحجار بين الأحجار ، عبرة لأولى الأبصار

وصارت تلك المعركة ، بالدماء دأماء(٤)، وعادت الغبراء(٥)حمراء . وجرت أنهار الدم المنهر ، وسفر بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر . فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث ، وما ألهب عذبات(٦) العذاب فى تلك

---

(١) اللبان : الصدر أوما بين الثديين .

(٢) الأشاجع : هى أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف أو هى عروق ظاهر الكف .

(٣) الأبشار : جمع بشر ، وهو ظاهر جلد الإنسان . والبشر : القشر .

(٤) ق ب ول أد ماء والتصحيح من أ . (٢٢ش) ، والدأماء : البحر .

(٥) ق ب ول الغيرة والمذكور من أ (٢٢ ش) .

(٦) ق ب ول عذابات والتصحيح من أ (٢٢ ش) .

الجثث ، وما أحسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث ، وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث . هذا حساب من قتل . فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده . وأما من أسر : فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده . ولقد رأيت فى حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفى بقعة واحدة مائة أو مائتين(١) يحميهم حارس . وهنالك العتاة عناه ، والعداة عراه . وذوو الأسرة أسرى ، وأولو الأثرة عثرى . والقوامص قنائص ، والفوارس فرائس ، وغوالى الأرواح رخائص . ووجوه الداوية الداوية عوابس ، والرءوس تحت الأخامص ، (٢) ومطالع الأجسام ذوات المقاطع والمخالص . فكم أصيد صيد ، وقائد قيّد وقيد . ومشرك مكثر ، وكافر مفكر . ومثلث منصف ، ومكيف مكتف . وجارح مجروح ، وقارح مقروح . وملك مملوك ، وهاتك مهتوك . ومتبر مبتور ، ومحسر محسور . . وكابل (٣) فى الكبول (٤) ، ومغتال فى الغلول . وحر فى الرق ، ومبطل فى يد المحق .

---

(١) (و) فى ب ول والتصحيح من أ (٢٣ ش) .

(٢) ساقطة فى أ (٢٣ ش) .

(٣) فى أ (٢٤ ى) كابل وفى ل مكتبل .

(٤) الكبول : القيود .

ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت ، وأهلك دونه أهل الطاغوت . وهو الذى إذا نصب وأقيم ورفع ؛ سجد له كل نصرانى وركع. وهم يزعمون أنه من الخشبة التى يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم . وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر . وأعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود . فإذا أخرجته القسوس ؛ وحملته الرعوس ؛ تبادروا إليه ، وانثالوا (١) عليه . ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن أتباعه فى نفسه التصرف . وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب هم فى ذلك المعترك . فإن الصليب السليب ماله عوض ، ولا لهم فى سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض . فهو إلههم وتعفرله جباههم ، وتسبح له أفواههم . يتغاشون عند احضاره ، ويتعاشون لإبصاره ، ويتلاشون لإظهاره ، ويتغاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج . بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها ، ويخشعون لها فى بيوتهم ويشهدونها .

فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت أصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيماً ، والموقف المنصور كريماً . فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب ، لم يتخلف أحد من يومهم العصيب . فهلكوا قتلا واسراً ، وملكوا قهراً وقسرا . ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر ، والقمر المبدر .

---

(١) انثالوا عليه : تقاطروا عليه ، انصبوا عليه .

وندب إلى حصنها من تسلمه أمانا ، وأسكنه بعد الكفر إيماناً . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته ، ونقلت إليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على أصحابها وأموالها ، وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها ، وسارت إلى طرابلس[1] بلد زوجها القومص بمالها وحالها .

وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الإيمان ، وعين لولايتها (صارم الدين قايماز النجمى) وهو من الأكابر الأعيان . هذا والملك الناصر ، نازل ظاهر طبرية ، وقد طب البرية ، وعسكره طبق البرية .

(١) طرابلس : أو أطرابلس ، بلد على طرف خارج فى البحر ، فتحها المسلمون سنة ١٨٦ هـ ثم خربوها وعمروا على مقربة منها وعلى بعد ميل مدينة باسمها (ياقوت ج ١٣ : ٢٥ — ٢٦ ط .ب) .

ذكر ما اعتمده فى الأسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم وإعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشرى شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين ، طلب الأسارى من الداوية والاسبتارية وقال « أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين ، وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين (١) ، فأحضر العسكر فى الحال مئين (٢) . وأمر بضرب أعناقهم ، واختار قتلهم على استرقاقهم .

وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف ، وعدة من ذوى التعفف والتعيف (٣) . فسأل كل واحد فى قتل واحد ، وسل سيفه وحسر عن ساعد . والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف ، والأمراء فى السماطين وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشُكر ، ومنهم من أبى ونبا وعذر. ومنهم من يضحك منه ، وينوب سواه عنه .

وشاهدت هناك الضحوك القتال ، ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد أنجزه ، وحمد أحرزه ، وأجر استدامه بدم أجراه ، وبرأعنق إليه بعنق براه . ونصل خضبه ، لنصر خطبه . وأسل (٤) اعتقله ، لأسد عقله . وداء داواه ، لداوى أدواه . وقوة أهداها لهداة قواها ، ولواء نشره للأواء (٥) طواها . وكفر أماته لاسلام أحياه . وشرك هدمه لتوحيد بناه . وعزمة أمضاها (٦) لأمة أرضاها . وعدو قصمه ، لولى عصمه .

---

(١) يقصد خمسين دينارا (الروضتين ج ٢ : ٧٩ تحقيق د. محمد حلمى أحمد) .

(٢) مئين : جمع مائة .

(٣) التعيف : التكهن ، وهو زجر الطير والاتصاف بالابتكار.

(٤) أى الرمح .

(٥) أى شدة ومحنة .

(٦) فى أ أنضاها وهذا تصحيف وفى ب مضاها والتصحيح من ل .

وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجون ، وتستبدل بحركاتهم السكون . وتفرقت العساكر بما حوته (١) أيديهم من السبى أيدى سبا . وخمد جمر جمع الكفر وخبا .

---

(١) فى أ (٢٥ ش) جمعت .

ذكر فتح عكاء

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهراً على أهل التثليث ، مديلا للطيب مزيلا للخبيث (١) . وسار عسكره ، وثار عثيره (٢) . وظهرت راياته ، وبهرت آياته . ونعرت كوساته (٣) ، وصاحت بوقاته . وجالت خيوله ، وسالت سيوله . وطلعت فى سماء (٤) العجاج نجوم خرصانه ، وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه . وحفرت حوافر الصلادم أصلاب الصلاد الصلاب ، وفصحت بإعراب الحماحم (٥) صواهل الجياد العراب .

والأسنة مشرعة ، والأعنة مسرعة . وبحور السوابح متموجة ، وغدران السوابغ مترجرجة ، وبوارق البيارق متبوجة ، وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة . ونزل عشية بأرض لوبية (٦) ، لداعى الفتح ملبياً ، ولجيش النصر معبياً ، ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا . وبات بها معرسا بانيا على عروس الظفر البكر ، جانيا ثمار الأمانى من غروس البيض والسمر . وأصبح وقد أصحب جماح الدهر ، وصح نجاح الأمر ، وحص جناح الكفر . وأسفر فجر الفرج ، وسفر وجه البهج .

وسار سارّا سره ، باراً بأرباب الدين بره . زائرة أسوده ، طائرة بنوده . ظاهرة جنوده ، زاهرة جدوده . سامية أضواؤه . هامية أنواؤه . رائعة مواكبه ، رائقة مراكبه . مجنبة عتاقه ، مذربة رقاقه . وكان أمير المدينة النبوية — صلوات الله على ساكنها — فى موكبه . فكأن رسول الله — صلى الله

---

(١) فى ب الخبث والتصحيح من ل ومن أ (٢٦ ى) .

(٢) العثير : التراب .

(٣) كوسات : أوكوس ، صنوج من نحاس تشبه التروس الصغيرة يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٦٥ حاشية ٣ ط . دار الكتب) .

(٤) فى ب سماع والتصحيح من ل .

(٥) الحماحم : الحمحمة ، أصوات الخيل الجياد .

(٦) لوبيا : أرض بالقرب من طبرية (مفرج الكروب ج ٢ : ٨٩ تحقيق د . الشيال) .

عليه وسلم — سير للفقير إلى نصرته من يثرى به من يثربه(١) . وهذا الأمير (عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنى الحسينى) قد وفد فى تلك السنة أوان عود الحاج ، وهو ذو شيبة تقد كالسراج .

وما برح مع الملك الناصر ، مأثور المآثر . ميمون الصحبة ، مأمون المحبة . مبارك الطلعة ، مشاركاً فى الوقعة . فما تم فتح فى تلك السنين إلا بحضوره ، ولا أشرق مطلع من النصر إلا بنوره . فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايراً ، ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً . وأنا أسير معهما . وقد دنوت منهما ليسمعانى وأسمعهما . ولاحت أعلام عكا ، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى . وكأن عذبات النيران تصاعدت بعذاب أهلها ، وقد توافرت عساكر الإسلام إليها من وعرها وسهلها .

فلما قرب منها خيم وراء تلها ، وآذنت عروش معاشر الشرك بفلها ، وعقود معاقدى الكفر بحلها . وأصبح يوم الخميس وركب فى خميسه(٢) ، ووقف كالأسد فى عريسه(٣) . فخرج أهل البلد يطلبون الأمان ، ويبذلون الإذعان . فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال ، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال . وكان فى ظنهم أنه يستبيح دماءهم ، ويسبي ذريتهم ونساءهم . وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة ، واغتنموا تلك المهلة .

وفتح الباب للخاصة ، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوى الخصاصة . فإن القوم ما صدقوا من الخوف المزعج ، والفرج المحرج . كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون ، وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم أنهم يغنمون . فترك معظمهم المدينة ، وعندهم أنه ما كسب السكينة إلا من ركب السفينة . وذلك أن الجند لما دخلوها استولوا على الدور ونزلوها . وركز كل منهم بيرقه على دار ، وقال صاحبها « كيف يصح المقام مع الأسد في غابة ولامقام على زار » .

---

(١) يقصد يثرب وهو الاسم القديم لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى المدينةالمنورة .

(٢) أى جيشه .

(٣) العريس بتشديد الراء وكسر العين ، مأوى الأسد .

وكان السلطان جعل للفقيه (عيسى الهكارى)[1] كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع ، ومواضع ورباع ، فأخذها بما فيها من غلال ومتاع . ووهب عكاء لولده الملك الأفضل ، فأجراها من نظره على الأحسن الأجمل. ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فأقمنا بها الجمعة ، ووصلنا فريضتها المنقطعة . وأعدنا الكنيسة العظمى مسجداً جامعاً ، وعاد نور الهدى الخافى بالضلالة لامعاً .

وحضر القاضى الأجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للإسلام بعد الإظلام سنّى الصبح المسفر . وخطب (جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبى النجيب السهْرَوَرْدى) فإنه تولى بها القضاء والخطابة ، وملأنا بعد الذئاب بالآساد السادة تلك الغابة . وخلى سكان البلد دورهم ، ومخزونهم ومذخورهم . وتركوها لمن أخذها ، ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذها .

وافتقر من الفرنج أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء . ولو دخرت تلك الحواصل ، وحصلت تلك الذخائر ؛ وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر ؛ لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد فرتعت فى خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروح الأطماع ، وطال لمستحليها ومستحلها الامتاع بذلك المتاع .

وأقام السلطان بباب عكاء على التل مخيما ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً ، ولمملكتها متمما. وكان قد كتب إلى أخيه الملك العادل (سيف الدين أبى بكر (٢)) ـــ وهو بمصر بما أتاحه الله من النصر ، وقيضه له من افتضاض الفتح البكر . فوصلت البشرى بوصوله باشراً ، وللواء الحمد ناشراً

---

(١) الفقيه عيسى الهكارى : هو أبو محمد ، عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد ابن القاسم ، ضياء الدين ، حضر فتح مصر مع أسدالدين شيركوه ، وحضر مع صلاح الدين فتح القدس والغزوات وكان صلاح الدين يميل إليه ويستشيره ، وكان ورعاً عفيفاً ديناً ، توفى سنة ٥٨٥ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ط. دار الكتب) .

(٢) الملك العادل : هو أبو بكر ، محمد أبو الشكر ، نجم الدين ، أيوب بن شاذى ابن مروان الدوينى ، التكريتّى ، الدمشقى ، ولد سنة ٥٣٩ هـ ، وتولى حكم الديار المصرية سنة ٥٩٦ هـ ، توفى بعالقين إحدى قرى دمشق سنة ٦١٥ هـ ودفن بدمشق (النجوم الزاهرة ج ٦ ٢٢١ ط . دار الكتب) .

ولاستفتاح ماق طريقه من الحصون مباشراً . وأنه فتح حصن مجدل يابا (١) ومدينة يافا عنوة ، واغتنمها غزوة ، وتسلمها حظوة . فقصده من عساكرنا القصاد ، ووفد إليه من عندنا الوفاد . فحباهم بالحباء من السبايا ، وآتاهم المرباع (٢) والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالنقود ووعدهم مما سيحصل بالنسايا (٣) .

وشرع يستضيف حصناً فحصناً ، ويستفيض حسنى وحسناً . ويستزيد بلداً ، ويستزير (٤) مدداً . ويستنزل من الكفر يداً ، ويستميل إلى الهدى هدى . والدين بسيف سيفه منصور ، والإسلام بنصر ناصره مسرور : والملك العادل مالك بعدله ، سالك نهج النجح بفضله . فائز العزيمة ، حائز الغنيمة ، ماضى الضريبة ، قاضى الكتيبة . ميمون النقيبة ، مأمول الرغيبة(٥) :

---

(١) مجدليابه : أو مجدل يابه ، قرية قرب الرملة بفلسطين ، بها حصن محكم (ياقوت ج ١٧ : ٥٧ ط.ب) .

(٢) المرباع : المكان ينبت زرعه فى أول الربيع .

(٣) النسايا : ما يتركه المرتحلون من متاعهم .

(٤) أن يسأله أن يزوره .

(٥) فى ب الرغبة والتصحيح من ل .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافراً بمغنمه ، ظاهراً بكرمه ، شاكراً عرام(١) عرمرمه . ملهباً ضرام مخذمه (٢)، مروياً أوام (٣) لَهذَمه . وأمر أمراءه بقصد البلاد المجاورة ، وأمدهم بالضراغم المراوغة المغاورة .

(١) عرام : شدة .
(٢) مخذم : القاطع من السيوف . آلة للخذم .
(٣) أوام : عطش .

فتح الناصرة (١) وصفورية (٢)

فسار (مظفر الدين كوكبورى) إلى الناصرة فاستباح حماها ، واستبى دماها . وحلها واستحلها ، وأزالها وأزلّها(٣) وخف إليها واستخفها ، واستشفها وشفها (٤) . وشافهها بشفار البواتر ، فشفه منها موالد الذخائر واجتلى عرائسها ، واجتنى مغارسها ، وجمع نفائسها ، ونزع ملابسها ، واستدرّ طُبْيها ، واستردّ سبيها .

واستقل منها بما استقل به . من كل غانية عانية (٥) ، ورقيقة رقيقة ، ومصابة مُصْبية ، ومسبية مصبية ، ومجلوة مجلوبة ، وسالبة مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعنف جارية ، وأسيرة من أسرة ، وحاسرة عن حسرة . وثاكلة لواحدها ، وآكلة لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختم الدمع على خديها . وناهدة متنهدة ، وفريدة متفردة ، وناعمة شقية ، وقيْنة نقية . وعذراء مفترعة ، وحسناء منتزعة . ومخطفة مختطفة ، وقوية مستضعفة . وعزيزة ذليلة ، وصحيحة عليلة . وساجية عبرى ، وصاحية سكرى . وغريرة غراء ، وظبية ظمياء . وغضيضة غضة ، وفضة منفضة . وخمارة مخمورة . وسحارة مسحورة . ومخدرة مهتوكة ، وموقرة منهوكة وجاءوا بالأسارى بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، مقودين فى الأقياد . مسوقين إلى السوق ، والحديد منهم فى الأعناق والسوق . وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بها من الذخائر مبلغ وافر .

---

(١) الناصرة : قرية بينها وبين طبريه ١٣ ميلا ، منها اشتق اسم النصارى لأن المسيح عليه السلام سكنها فنسب إليها (ياقوت ج ١٨ : ٢٥١ ط . ب) .

(٢) سبق التعريف بها .

(٣) أى أسقطها .

(٤) شفها : أوهنها .

(٥) عانية : مأسورة ، عنى . عنا فى القوم : صار أسيراً فيهم .

فتح قَيْسارية (١)

وتوجه (بدر الدين دلدرم) و(غرس الدين قليج) وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف ، وسلطوا على الأنفس والنفائس بها حاكمى الحتف والحيف ؛ وسبوا وحبوا وسلبوا وجلبوا . وجالوا ونالوا.ووقذوا (٢) وأخذوا ، واحتووا وارتووا ، وربطوا وضبطوا . واستفادوا واستقادوا ، وفرسوا الفوارس ، وكنسوا الكنائس ، واستبوا الأبكار العرائس . والعُون (٣) العوانس . وتسلمت بعدها (حيفا) و (أرسوف) (٤) واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف :

---

(١) قيسارية : بلدة على ساحل (البحر الأبيض المتوسط) من أعمال فلسطين (ياقوت ج ١٦ : ٤٢١ ط. ب) .

(٢) وقذ : صرع .

(٣) العون : عانت المرأة ، تعون ، صارت عوانا أى فى منتصف عمرها ، وعون جمع عوان .

(٤) أرسوف : مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا (ياقوت ج ٢ : ١٥٢ ط.ب)

فتح نابلس (١)

وسار (حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين (٢)) على سمت نابلس حاسماً بحسامه داء الشرك، مالئاً بسهام الفتك جعاب الترك . تالياً آى الفتح ، جالياً رأى النجح . ووصل إلى (سُمَسْطِيَة) (٣) فتسلمها . وتعجل مغنمها . ووجد مشهد (زكريا) عليه السلام — قد اتخذه القسوس كنيسة ، وأعادوها بالصور والآلات النفيسة أنيسة . فاستخرج المصونات والمصوغات ، واستوعب العدد والآلات . وأعاده مشهدا ، ورده مسجداً . ووضع فيه من بره بالإسلام منبراً ، وأصبح الدين به مُثرياً والكفر مقتراً .

ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف جده غير كاب . وحد بأسه(٤)طرير ، وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سُلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وأيقنوا أنهم إن أقاموا لا يأمنون المنون . فإن المسلمين بها وبأعمالها نهضوا إليهم فى مواطنهم، فأجفلوا من مساكنهم، وانتقلوا من أماكنهم. وخلوا دورهم وأخلوها، وتسللوا منها وسلوها. وتحول الأقوياء إلى قلعتها ، وتحصنوا بتَلعتها(٥). ونازلها (حسام الدين) وحاصرها، وطال عليه حصرها وصابرها . ولم يزل عليها مقيما ؛ واقتالها مديما ؛ إلى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا بإحسانه . وسلّموا وسلموا ، واستأمنوا وأمنوا . وخلصت

---

(١) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين (ياقوت ج ١٨ : ٢٤٨ ط.ب).

(٢) حسام الدين لاجين : هو محمد بن عمر بن لاجين ، ابن ست الشام أخت السلطان صلاح الدين الأيوبى ، توفى سنة ٥٨٧ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦٤) .

(٣) سمسطية : ذكرها ياقوت «سبسطية » وهى مدينة من نواحى فلسطين من أعمال بيت المقدس (ياقوت ج ١ : ١٨٤ ط . ب) .

(٤) طرير : محدد .

(٥) تلعة : ماعلا أوما هبط من الأرض ، الجبل ، المرتفع من الأرض وهو المقصود .

له نابلس وأعمالها ، وحليت به أحوالها . ولكون معظم أهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين ؛ لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقهم إلا أن يكونوا لحصنهم مسلّمين . فانمحى بالسعود رسم النحوس ، ونزعنا عنها لبوس البوس ، واستبشرت وجوه أهلها بعد العبوس ، وقام جاه الآذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة(١) وغيرها

وكانت الفولة أحسن قلعة وأحصنها ، وأملأها بالرجال والعدد وأشحنها . وهي للداوية حصن حصين : ومكان مكين ، وركن ركين . ولهم بها منبع منيع ، ومربع مريع ، ومسند مشيد ، ومهاد مهيد . وفيها مشتاهم ومصيفهم : ومقراهم ومضيفهم . ومربط خيولهم ، ومجر ذيولهم ، ومجرى سيولهم ، ومجمع اخوانهم ، ومشرع شيطانهم ، وموضع صلبانهم . ومورد جمتهم(٢) ، وموقد جمرتهم ؛

فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم : واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا وأسروا ؛ وخسروا وتحسروا ؛ خلت طلول الفولة ؛ بحدود أهلها المفلولة ؛ ودماء داويتها المطلولة ، ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلولة .

ولم يبق بها إلا رعايا رعاع ، وغلمان وأتباع ، وأشياع شعاع(٣) . فعدموا إمكان حماية المكان ، ووجدوا أمنهم في الاستئمان ، فسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان ، وكانت فيه أخاير الذخائر ونفائس الأعلاق(٤) ، فوثقوا بما أحكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين ، ودخلوا في الذمام لاجين ، وللسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثل (دَبورية)(٥) و (جينين)(٦) و (زرْعين)(٧) و (الطور)(٨)

---

(١) الفوله : بلدة بفلسطين (ياقوت ج ١٥ : ٢٨٠ ط.ب) .

(٢) جمه : هنا بمعنى الكثرة .

(٣) شعاع : أى متفرقين .

(٤) الأعلاق : واحدها علق وهو النفيس من كل شيء .

(٥) دبورية : بليد قرب طبرية من أعمال الأردن (ياقوت ج ٨ : ٤٣٧ ط . ب) .

(٦) جينين أوجانين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من الأردن ، بها مياه وعيون (الفهرس الجغرافى لكتاب النوادر السلطانية ط. ليدن رقم G) .

(٧) زرعين : موضع من نواحى الأردن (المرجع السابق رقم S) .

(٨) الطور : جبل مطل على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٢١ ط . دار الكتب) .

و (اللجون) (١) و (بيسان) (٢) و (القيْمون) (٣) . وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات . و (الزيب) (٤) و (مَعْليا) (٥) و (البعنة) ، و (اسكندرونة) (٦) و (مَنْوات) (٧) .

---

(١) اللجون : بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلا فى وسطها صخرة مدورة عليها قبة يقال إنها مسجد ابراهيم عليه السلام (ياقوت ج ١٧ : ١٣ و١٤ ط . ب) .

(٢) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامى بين حوران وفلسطين (ياقوت ج ٤ : ٥٢٧ ط . ب) .

(٣) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين (ياقوت ج ١٦ : ٤٢٤ ط.ب) .

(٤) الزيب : قرية قرب عكا على (ساحل البحر الأبيض المتوسط) وتعرف بشارستان عكا (ياقوت ج ١٠ : ١٦٢ – ١٦٣ ط . ب) .

(٥) معليا : من نواحى الأردن بالشام (ياقوت ج ١٨ : ١٥٨ ط . ب) .

(٦) اسكندرونة : مدينة فى شرق انطاكية على (ساحل البحر الأبيض المتوسط) بينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ (ياقوت ج ٢ : ١٨٢ ط . ب) .

(٧) منوات : بليدة بسواحل الشام قرب عكا(المرجع السابق ج ١٨ : ٢١٦) .

فتح تبْنين(1)

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال ؛ وقلصت من الضلال تلك الظلال ؛ وصفت الممالك ؛ ووفت المدارك ؛ أوعز السلطان إلى ابن أخيه الملك المظفر (عمر بن شاهنشاه تقى الدين)(2) بقصد حصن تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين . فألقى عليه جران باسه ، ولقى بالتذليل حران ناسه ، وأخذ فى مضايقته بأنفاسه ، ولمح ما لمع من قبس فتحه فشعف باقتباسه . وسنح له قنصه فاشرأب باقتناصه وافتراسه .

وكتب إلى السلطان يبعثه على الوصول إليه بعسكره ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره . فضُرب الكوس وسمت النفوس. وأنارت فى ظلام القتام من الترك والترائك(3) الأقمار والشموس ، واشتعلت من شيب البيارق فى شعاع تلك البوارق الرءوس . وتحرك السواد كمهيل النقا(4) ، واشتبك على الآساد غيل القنا . وسالت الأودية بالسابحات العتاق ، وطالت على السير أعناق الإعناق(5) . ومالت إلى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق . (وجرت الفجاج ، وجُرّت الزجاج(6) وتموجت الأفواج ،

---

(1) تبنين : أوتبنين . بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور (ياقوت ج ٥ : ١٤ ط .ب) .

(2) الملك المظفر تقى الدين عمر : هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، أبو سعيد . أعطاه عمه صلاح الدين حماه وعدة بلاد من حماه إلى ديار بكر ثم طمع فى بلاد الشرق فقامت بينه وبين صاحب خلاط عدة وقائع وحروب ، كان شجاعاً مقداما ، كما كان شاعراً ، مات ببلاد الشرق سنة ٥٨٧ هـ فدفن فى ميافارقين ثم نقل إلى مدرسته بحماه بعد ذلك (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٤ط دار الكتب) .

(3) الترائك : واحدها ترك وهى بيضة الحديد (الخوذه) .

(4) مهيل النقا : مكان رملى محدودب مخيف ذو أهوال .

(5) أى الجماعة من الناس ، أو الرؤساء .

(6) زيادة من أ (٣١ ش) .

وتفوّجت(١) الأمواج) . وتحركت غدران السوابغ(٢) من رياح السوابق ، وتدركت ضوامن الضوامر بالارفاد فى أرداف الحق اللاحق ، وأسفر من بريق البيض(٣) والبيْض(٤) فتق الفيالق .

وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل ، وساح الساحل، وراح الراحل . ووصلنا إلى (تبنين) فى ثلاث مراحل . فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الأثافى(٥) ، وأوطأناهم بشفاه الشفار(٦) على حدود الأشافى . ونزلنا عليها بالنوازل . وبسطنا من المجانيق عليها أيدى الغوائل . فتبلدوا من الرعب ، وتجلدوا على الحرب . ثم خاروا وحاروا ، وجأروا وجاروا . ورغبوا ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصحبوا . وعجزوا فجزعوا، وفزّهم الحصر وفزعوا . وشكوا الندوب وندبوا ، فدانوا ودنوا . وأذْعَنوا إذْ عَنوا ، واعتذروا مما جنوا .

وراسلوا السلطان ، وسألوا الأمان . واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا . وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا . وأقلع من بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبث العُلق(٧) بالمهلة .وتقربوا باطلاق الأسارى المسْلمين . وترقبوا انقضاء المهلة لسلامة المسلّمين . فخرج المأسورون — مسرورين ، وأصبح الصحب المكسورون مجبورين . محبوين بالفرج بعد الشدة محبورين .

وسُر بهم السلطان وسرّبهم (٨) ، وأقرهم وقربهم . وكساهم

---

(١) أى صارت أفواجا .

(٢) العبارة فى أ (٣١ ش) : وجرت الزجاج ، وتموجت الأمواج ، وتحركت غدران السوابغ .

(٣) أى خوذات الحرب ومفردها بيضة بسكون الياء .

(٤) أى السيوف ومفردها أبيض .

(٥) يقال رميناهم بثالثة الأثافى ، أى بالشركله .

(٦) الشفار جمع شفره ، والمقصود هنا حدود السيوف .

(٧) أى الأشغال .

(٨) أطلقهم .

وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم . وهذا دأبه فى كل بلد يفتحه ، ومُلك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد بعد عدمها وجودها ؛ ويحيى بعد اليأس آمالها . ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها . فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير للقيود إلف ، ووقع فى أسرنا من الكفار مائة ألف .

ولما خلوا القلعة وأخلوا البقعة ؛ سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور(١) ورتب فى الموضع مملوكه (سُنقر الدووىّ) ، فأرشد به ذلك الصقع الغوىّ . فإن أعمال جبل عاملة (٢) مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنيس النافر ، وتعكيس الكافر . وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل. وقال له « تَبْنِى بتبنين ما هدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخندقها كل ما يمكن من التوثيق والتعميق » ، ورحل ومعه رفيق التوفيق . وكان النزول على تبنين ، يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى ، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر منه.

---

(١) صور : بلد مشرف على البحر الأبيض المتوسط (بحر الشام) داخلة فيه ، يحيط الماء بها من جميع الجهات إلا من الجهة الداخلة. على بعد ستة فراسخ من عكاء إلى جهة الشرق منها (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٤ ط. . ب) .

(٢) جبل عاملة : يقع عند ملتقى الطرق الموصلة بين صفد وتبنين وبانياس

فتح صيْداء[1]

يوم الأربعاء الحادى والعشرين من جمادى الأولى يوم النزول عليها

وسنحت له صيداء فتصدى لصيدها ، وكانت همته فى قيدها ، وبادرها إشفاقاً من مكر العداة وكيدها. وسرْنا و سرّنا مرتاح، ونصرنا متاح، والجد جديد والمزاح مزاح . والعزم جزم ، والحكم حتّم . ونفحات الفتوح لمناشق أهل الهدى تفوح . ولفحات[2] الردى لأعين العدا تلوح . ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل . وفكر الكفر قد توزع ؛ وشرَك الشرْك قد تقطع وتقلع . وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف . والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر . وأوجهنا وأوجه البشائر باشرة ، ونيوب النوائب فى أوجه المشركين كاشرة ، والألسن لحديث الفتح الحديث ناشرة . وقد جفت أجفانها البواتر الواترة . وجلت دياجير[3] النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة . واتصلت للممالك[4] من الملائك أمداد النصرة المتوالية المتواترة .

ووصلنا فى يومين إلى صيداء إلى منهل فتحها صادين[5] ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادّين. ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ماتوعر، وصفا من الأمر ما ظن أنه تكدر . فصرفنا الأعنة إلى صرَفنْد[6] ،

---

(١) صيدا : بلدة شرقى صور على بعد ستة فراسخ منها ، سقطت فى يد الفرنج سنة ٥٠٤ هـ ويقيت فى حوزتهم حتى استنقذها صلاح الدين سنة ٥٣٨ هـ – (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٧ – ٤٣٨ طاب) .

(٢) فى ب نفحات والتصحيح من ل ومن ا (٣٣ى) .

(٣) دياجير : واحدها ديجور وهو الظلام أو التراب الأغبر الضارب إلى السواد كالرماد.

(٤) فى ب المالك والتصحيح من ل وا (٣٣ى)

(٥) صاد أى عطشان بشدة .

(٦) صرفند : من قرى صور ! بين صور وصيدا على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) (ياقوت ج ١٢ : ٤٠٢ ط ب) .

وأسمنّا(١) فى مسارحها الجند . وهى مدينة لطيفة على الساحل ، موروودة المناهل . ذات بساتين ، وأزهار ورياحين . وأشجار النارنج والأترنج تعرب مسراتها لجُنانها عن أشجان الفرنج . فجُسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلا لها . وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية . وقرتنا بما اشتهينامن فواكهها تلك القرية .

ولم نعرّج عليها حتى خيمنا على صيداء وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها . فقد جاءت رسل صاحبها . بمفاتيحها ، وأذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها ، وطلعت الراية الصفراء(٢) باليد البيضاء على سورها . وجلت غياهب تلك المذاهب بنورها ، وفتحت أبوابها ، وأنجحت آرابها . وعز مسلموها ، وذل مشركوها وسكن ساكنوها ، وهلك أهلوها . وعادت معالمها مأهولة بعد أن كانت مقفرة مجهولة . وصدح منبرها ، وصدق مفخرها . وربح متجرها ، ووضح منظرها . وأقيمت بها الجمعة والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة .

---

(١) أسام : أى أرعى .

(٢) هذه إشارة إلى لون راية صلاح الدين .

فتح بيروت

وكان النزول عليها يوم الخميس ثانى عشرى جمادى الأولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صيداء وتبنين ؛ وجمع لهما التحصين والتحسين ؛ قال لعصمة الله« شيدى مابصيداء وتبْنين تَبْنين . وألحفيهما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ولا يطرق ماتحمين » ، ثم صرف عنانه ، وأرهف سنانه (١) . ورحل على سمْت بيروت ، مالئاً بعسكره الآكام والمُروت(٢) . وسار على الساحل ، بتلك الجحافل . ببحر على البحر مائج ، ومَجنْر مُجنْر إلى الهياج هائج ، ونقد من عقد الجـد رائج ، وعزم على صدق القصد عائج(٣) .

ووصل إليها ونزل عليها . وبنيت القباب ، وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحباب(٤) ، وزحف إلى الأعداء الأحباب ، وضويق البلد ، وفورق الجلد . وأحاط الرجال بأرجائه ؛ ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال فى سمائه . وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه . وترجل دونه الناس ، وتعجل نحوه الباس ، واصطفت الّتراس ، واشتد المراس . واحتد القتال ، واحتدم النّزال . وامتد المصاع(٥) والمصال(٦) .

واتصل خروج الجروخ(٧) للجروح ؛ ودام احتّراق الروح على اقتّراح

---

(١) السنان : نصل الرمح .

(٢) المروت : جمع مرت ، وهى المفازة أى الأرض لانبات فيها

(٣) عائج : عاج على بمعنى مال وعطف .

(٤) الحباب : الفقاقيع التى تعلو الماء أو الخمر.

(٥) المصاع : القتال .

(٦) المصال : مكان الصولة أو الاستطالة .

(٧) الجروخ : جمع جرخ،وهى آلة حربية كانت تستعمل لرى السهام والنفط المشتعل والحجارة (Dozy· Supp. Dict. Arabe)

القروح . ومدت الجفاتى(١) — كأنها أعناق البخاتى(٢) : وأتى العاتى ، وعتا الآتى ، وأحمد النصر الموافى المواتى ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بحذى وهاتى . وطارت القوارير ، وثارت المساعير . واشتعل النفط ، واشتغل الرهط . والتهم الزرّاق ، والتهب الحرّاق . ومرق الشهم الكمى ، مروق السهم من الرمى ، وأتى الوادى فطمّ على القرىّ(٣) . ودبت الدبابة(٤) بليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث النبال ؛ وارتجزت رواعد الأبطال ، وانتجزت مواعد الآجال ، وجالت فى الضمائر ضوامر الأوجال ، وهالت بالنوازل نوازى الأهوال .

ورعدت بوارق البوار ، وأسعدت الأقدار بالإقدار . وشغلت الرقاب قواضى القواضب ، وحملت العدد النواكب على المناكب . وخفت للأثقال أكتاف الفتاك ، وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الإشراك .

ودام القتال أياما ، يتضاعف اصطلاءً واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا واضطراما . وبنات الحنايا هائجة ؛ وأدات المنايا ناتجة . ورجمت بشهب النفّاطات(٥) شياطين الداوية المردة ؛ وتعادت الأسود العادية على أولئك القردة . حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق .

---

(١) الجفاتى جمع جفتا ، قال Dozy بأنها تقابل الكلمة الفرنسية **pallisade** بمعنى السياج الساتر ، وأضاف الدكتور جمال الشيال فى مفرج الكروب ج ٢ : ٥٨ بأنها كانت نوعاً من المتراس أو الحاجز المعيق لتقدم العدو . أو الستر الذى يستتر وراءه الجنود الرماة أثناء القتال .

(٢) البخاتى : جمع بخت وهى الإبل الخراسانية .

(٣) القرى : كل شيء على طريق واحد ، ومسيل الماء من الربوة إلى الروضة وهو المقصود .

(٤) الدبابة : شبه برج متحرك يكون أحيانا من طبقات أربع من خشب أو حديد أو رصاص أو نحاس يتحرك على عجلات ، فى طبقاته يستقر الجنود لمهاجمة الحصون أو تسلق الأسوار وأبسط صورة للدبابة هى أن تكون من خشب مكسو بجلد قد نقع فى الخل لعيانتها من الاحتراق **Dozy. Supp. Dict** و(السلوك ج ١ : ٦٦ تحقيق د. زياده) .

(٥) النفاطات : جمع نفاطه : وهى أداة من النحاس يرمى فيها بالنفط (القاموس المحيط للفيروزابادى) .

وكاد النقب يتسع ، والبرج يقع . والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تنفض وترفض . وسوار السور ينكسر ، وقناع النقع لاينحسر .

وخرج من البلد رجال ، إلى الموت عجال . وقفوا دون الباشورة(١) مباشرين ، ولمعاشر أصحابنا بمعاطات كؤوس المنون معاشرين . فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام الكلام . وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح. وتواصلوا بالقواطع ، وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع . وتجلدوا وتجالدوا ، وتواقحوا ، وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا . والبيْض يَقد ، والبيض تقدّ . والباسل يرد ، والباس يرد . والصقيل الصادى يصدأ بالدم ويروى ، وحزب الكفر يضعف وحزب الإسلام يقوى .

ثم انحصروا فى البلد ، وانحشروا على اللدد(٢) . وضافهم الرعب ، وضاق بهم الرحب . وذلوا وخاروا ، وضلوا وحاروا . ولما خاب المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت أن المسلمين دخلوا . فأجفلوا إلى البحر إذ عدموا سكينتهم ، ليركبوا سفينتهم ، ويخلوا مدينتهم .

فخرج احد المقدمين يستدعى الأمان ، ويستعدى الايمان . ويطلب مثالا يعصمهم ، وذماما يحرمهم . وعهدا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدا فى عقد الأمن ينظمهم . وكنت يومئذ فى مرض قد أزعجنى وأعجزنى ، ومضض أخفانى ولعيون العوّاد أبرزنى . وانقطعْت عن الحضور عند السلطان ، وضعفت عن تحرير كتاب الأمان . فطلب السلطان كل كاتب فى ديوانه. وكل من يمسك قلما من أفاضل الملك وأعيانه. فلم يرضه ما كتبوه ، ولم يكفه مارتبوه . فجاءنى فى تلك الحالة من استملاه منى ، ومرضت أذهان الأصحاء ولم يمرض ذهنى. فتسلم بيروت بخطى ، وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطى.

وكان الناس قد أنسوا لما أسطره وأزبره ، وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره . وألفوا الصحة فيه فألفوه ، ولقوا السقم فى غيره فأنفوه . فلم يكن فى ذلك العوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله توثيق . فما فُتح فتح إلا بمفتاحه

---

(١) الباشورة : هى الحائط الظاهرى من الحصن الذى يختفى وراءه الجند عند النضال
Dozy. Supp. Dict. Arabe

(٢) اللدد : شدة الخصومة .

ولا رتق فتق إلا باصلاحه . ولا جلى ظلام إلا باصباحه ، ولا ورى زند إلا باقتداحه .

وكانت يومئذ جمرة الحر متوهجة ، ووقدة القيظ متأججة . وضرم مرضى ملتهبا ، وروح روحى منتهبا . وبقيت مضطرا مضطربا ، ولقيت من ذلك الوصب نصبا . وحصلت من الإقامة أو السفر ، على الخطر أو الحذر . وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن آلاء شغلى بالآلام . وحملنى اختلالى بنصبى على إخلالى بمنصبى . وعزت على مفارقة السلطان ، وهو باعزازى على مواصلة الاحسان . فمضيت على مضض ، وانصرفت بمضرة ومرض . وحملت إلى دمشق فى محفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل بخفة . فتفضل الله بالشفاء ، وبدل الكدر بالصفاء .

وعدت إلى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الوحشة إلى الأنس . وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى مطاع الأمر ، مشاع النصر ، مذاع السر فى تضوع[1] النشر ، وتوضح البشر . مستفيض السيادة ، مستضيف الزيادة ، ناجح الإرادة ، راجح العبادة . رابح المتجر ، واضح المفخر . قد شب غرب الهدى ، وجب راغب العدا . واستجدى من منّ الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحاً ، واستفاد مُلكاً ، واستزاد ملكاً .

وبر بيروت إذ برّت ، وانبرى لبرّى قوسها فأبرّت ، وقرر مصالحها ومناجحها فاستقرت ، وحفلت له أخلاف الفتوحات فدرت . واستمرى صوب الصواب من عزائمه وصرائمه فاستمرت .

---

(١) تضوع : ضياع وذهاب الشىء .

فتح جُبيْل(١)

يوم الثلاثاء سابع عشرى جمادى الأولى

ووصل (كتاب الصفى بن القابض) وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق إلى الكافى الناهض. يتضمن أن (أوك) صاحب جبيل– أسر إليه فى أسره، واستشاره فى أمره –. وقال له « إن قنع منى بتسليم جبيل سلّمت وسلمّت وأبحتها لكم وتحرمْت: وأخرجتها من عصمتى وخرجْت واعتصمْت. فأنا أطلقها إن أطلقت، وأزيلها من وثاقى إذا وثقت »، فأجيب باحترازه من كيده، واحضاره فى قيده. فأحضر فى صفده، وسمح ببلده. فخلص ناجيا، وملص راجيا.

وملكت مدينة جبيل، وجرت عليها الفتوح الذيل. ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون، ولأعداء الله مصابرون مكابرون. وكان معظم أهل صيداء وبيروت وجبيل مسلمين مساكين، لمساكنة الفرنج مستسلمين. فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثْرة بعد القلة. وصدقت البشائر، وصدحت المنابر. وترنمت المحاريب، وترنحت المطاريب. وتليت الآيات، وجليت الغيايات (٢). وخربت الكنائس وعمرت المدارس. وظهر عيب البيع؛ وشهر جميع الجمع. وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان. ونطقت الأعواد، وحقت الأعياد. وخرصت النواقيس، وبطلت النواميس.

ورفع المسلمون رءوسهم، وعرفوا نفوسهم. وانتعشوا من شكاة عثارهم (٣)، وانتقشوا (٤) من شوكة عارهم، وقروا فى ديارهم، وقروا أبصارا بأبصارهم، وكان كل من استأمن من الكفار، يمضى إلى صور محمى الذمار. وصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجى شريدهم، ومأمن خاشيهم، ومكمن عاشيهم. وهى التى فر القومص إليها يوم كسرتهم، بل يوم حسرتهم.

---

(١) جبيل: بلدة شرقى بيروت وعلى مسافة ثمانية فراسخ منها (ياقوت ج ٥: ٢٠٩ ط.ب)

(٢) الغيايات: جمع غياية، وهى كل ما أظل الإنسان من سحاب أو غيره.

(٣) أى السقوط.

(٤) انتقش الشوكة: أخرجها من رجله والمقصود أنهم تخلصوا مما لحقهم من عار الذلة والهزيمة.

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس إلى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها ، وآوى إلى طرابلس وثواها . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغي نجْوة ... من هلاك فهلك

فما أنجاه الفرار من القضاء ، وفر من البلاء إلى بلاده فوقع في البلاء . وظن أن صور خلت : وأن مجانيها حلت . وأن جماحها أذعن ، وأن كفاحها أمكن . وأن فرصتها انتهزت ، وأن حصتها أحرزت . وأن قيادها أطاع ، وأن مرتادها استطاع . لكنها تعوّضت عن القومص بالمركيس ، كما يُتعوض عن الشيطان بابليس . فأدرك ذماء[1] الكفر بعد ما أشفى[2] ، وأيقظ روع الروع بعد ما أغفى . وضبط صور بمن فيها ، من مهزومي الفرنج ومنفييها .

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه ، وأضرى سراحينه . وأخبث ذئابه ، وأنجس كلابه . وأنهش صلاله ، وأفحش ضلاّله. وأعوى أعوانه ، وأخون إخوانه . وأبغى بغاته ، وأجفى جفاته ، وأرعى حماته ، وأحمى رعاته . وشر شراره ، وأنكر نُكاره ، وأفجر فجاره . وأروغ ثعالبه ، وألسب عقاربه . وأحنث معاهديه ، وأنكث معاقديه .

وهو الطاغية الداهية ، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل إلى بلاد الساحل قبل هذا العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف الاسلام .

واتفق وصوله إلى ميناء عكاء وهو بفتحها جاهل ، وعمن فيها من المسلمين ذاهل . فعزم على ارساء الشينيّ[3] بالمينا . ثم تعجب وقال

---

(١) أي بقية الروح .

(٢) أشفى : أشرف على الموت .

(٣) الشيني : هو السفينة البحرية الكبيرة كانت تقام فيها الأبراج والقلاع وكانت تنزلق على الماء بمساعدة مائة وأربعين مجدافا « السلوك ج ١ : ٥٦ تحقيق د. زيادة (و) Dozy و (الروضتين ٢ : ٥٨٨ تحقيق د. محمد حلمي أحمد) و (تاريخ الإسلام السياسي ج ١ _ ٥٢٣) و (سيرة صلاح الدين لابن شداد : ٨٠ تحقيق محمد محمود صبح) .

« ما نرى أحدا من أهلها يلتقينا » . ورأى زى الناس غير الزى الذى يعرفه ، فارتاب وارتاع وحدث عن الدخول توقفه . وبان تندمه ، وتأخر تقدمه . وسأل عن الحال فأخبر بها ، ففكر فى النجاة وكيف يتعلق بسببها . ثم وقف بالقرب ، فلبث على الرعب . والهواء راكد ، والفضاء عنه راقد . فانه لو خرج إليه مركب لأخذه ، ولو وقف له قاصد لوقذه . فاحتال كيف يخرج بسفينته ، ولايدخل مع فقد سكينته .

وانتظر هبوب الريح الموافقة له فلم تهب . . وماتم له الافلات على ما أحب . فسأل عن البلد ومن إليه أمره ، ومن بيده نفعه وضره . فقيل : هو الملك الأفضل ، والمالك الأكمل . فقال « خذوا لى منه أمانا حتى أدخل ، وأرفع إليكم مامعى من المتاع وأنقل » فجىء إليه بالأمان . وقيل : هذا بعلامة السلطان فقال : « ما أثق إلا بخط يده ، ، ولا أنزل إلا بعهده إلى بلده » . فما زال يردد الرسل ، ويدبر الحيل ؛ حتى وافقته الريح فأقلع ، وأفلت من الشرك بعد ما وقع . وصار فى صور ، فزم الأمور ، وأجم الجمهور » . وجرأ الكفر بعد خوره ، وبصر الشيطان بعد عماه وعوره . فاستعلى بالخزى ، واستولى بالغى والبغى .

وأرسل رسله إلى الجزائر ، وذوى الجرائر . يستعدى ويستدعى ، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعى ، ويستثير ويستزير . ويستنفر ويستنصر . وثبت فى صور ونبت ، وجمع إليه من الفرنج من تشتت . وما فتح بلد بالأمان . ؛ إلا سار أهله فى حفظ السلطان ؛ حتى يصيروا فى صور ، ويأمنوا المحظور .

فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة ، بالقلوب المقفلة المغلقة المقروحة . فامتلأت وكانت خالية ، وانتشأت وكانت بالية . وتعللت وكانت معتلة ، وتعقدت وكانت منحلة ، وتسددت وكانت مختلة . ولم يحتفل بها فأخر فتحها ، وما ظن بها الضن(١) حتى علم شحها . فاستجدت رمقا بالمهلة ، وتصعبت بعد مقادتها السهلة .

فقضى إمهالها بإهمالها ، وعادت عيونها إلى الاغفاء باغفالها . وألمى

---

(١) الضن : البخل .

عن طلبها طلب ما هو أشرف ، والعزم بفتحه أشعف وهو البيت المقدس، فان فتحه من كل فتح أنفس . والمركيس فى أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه، ويعقد الموثق[1] ويبرمه ، ويجمع المفرق وينظمه .

وسنذكر ما تجدد منه فى أوقاته . وما فات من فرصة الامكان فى دفع آفاته .

(١) فى ب الموقعة والتصحيح من ل .

ذكر فتح عسقلان(١) وغزة والداروم(٢) والمعاقل التى يأتى ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة . ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ، ثنى عنانه يجر ويُجرى من العسكر والعثير على السماء والأرض الذيل والسيل . وعاد عابرا على صيداء وصرفند ، وقد أورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند .

وجاء إلى صور ناظرا إليها ، وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها ، ولا متحدث فى حصرها ، ولا معتقد فى تعقدها ، ولا متئد فى توردها . وعلم أيضاً أنها ممتنعة ، وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم ، وعمد إلى العزم . ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب ، ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحصن ، فعطف الأعنة إلى ما هو منها أهون .

وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية ، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية ، متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية . وعبر والعيون صور إلى صور ، والمركيس ما شك أنه بها محسور محصور . فلما أرخى من وثاقه ؛ واتسع ضيق خناقه . حلق فى مطار أوطاره ، وحرك لخواته أوتار أوتاره .

واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل ، واتفقا على طى المراحل ، ونشر القساطل ، وحل معاقد المعاقل ، وسل قواصم القواصل(٣) . ونزل على عسقلان ، وشديدها قد لان ، وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار ، وتخوفت أسودها الخادرة من الإصحار . وتربصوا وتصبروا ، وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا ، وحانوا وناحوا . وأبلسوا وأبسلوا(٤) ، وأعولوا

---

(١) عسقلان : بلدة من أعمال فلسطين على جانب البحر بينها وبين غزة نحو ثلاثة فراسخ كان يقال لها عروس الشام (ياقوت ج ١٣ : ١٢٢ ط . ب) .

(٢) الداروم : أو الدارون ، قلعة بعد غزة لقاصد مصر بينها وبين البحر فرسخ (ياقوت ج ٤ ط . الخانجى) .

(٣) القواصل : السيوف القاطعة .

(٤) فى ب أسبلوا والتصحيح من ل . وأبسلوا : وطنوا أنفسهم للموت .

مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا ، وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت واستقتلوا . وتعقدوا على الفتح وما تحللوا ، وأحزنوا فى الإباء وما أسهلوا . وجهدوا وجهلوا! .

فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقهـا (١) ، وفرجت بالحجارة طريقها ، ورجت بالتفريق فريقها ، ووسعت بالتضييق ضيقها ، وأضعفت بالتوثيق وثوقها. وجمعت شمل الحجارة بالنار التى وقودها الناس والحجارة ، ولفحتهم نيرانها . وتوالت عليهم بعد الشرارة الشرارة ، وخربت منهم العمارة ، ووجبت بالجسارة منا لهم الخسارة . وتهدمت الصخور بالصخور ، وازم عبث بورهم بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقـاب ، وباشر الباشورة فرفع الحجاب . واشتد القتال ، واحتد المصال .

وراسلهم عند ذلك الملك المأسور . وقال : قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت حالات ، وتكررت حوالات ، وترددت رسالات . وقال لهم الملك الأسير « لاتخالفوا ما به أشير ، وأطيعونى مااستطعتم ، واسمعوا منى إذا سمعتم ، واحفظوا رأسى فهو رأس مالكم ، وحلية حالكم ، ولاتخطروا غيرى ببالكم . فانى إذا تخلصت خلصت ، وإذا استُنقذت استنقذت » .

وخرج مقدمون وشـاوروا الملك ، ونهجوا فى التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين ، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة ، وتلألأت السعود فى أوجها بالأوجه السافرة .

وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الكبراء (ابراهيم بن حسين المهرانى) وهو أول أمير افتتح بالشهادة . واختتم بالسعادة . وكان السلطان

---

(١) نيقها : أرفع مواضع فى جبالها . ومج الشىء : كرهه ورمى به .

قد أخذ فى طريقه إليها الرملة[1] ويُبْنى[2] وبيت لحم[3] والخليل[4] .
وأقام بها حتّى تسلم حصون الداوية : غزة والنطرون[5] وبيت جبريل[6] .
وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه أنه متّى سلم معاقلهم
أطلقه . فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه .

واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر (الملك العزيز عثمان)[7] على
عسقلان بشارة وبشارة ، وراية وآية . وهيئةوهيبة ، وثرة[8] وثرْوة .
وهزة وعزة . وعدة وعدة ، وجدة وجدة ، وشدة وشدة ، وحد وحدة .
وضوعة وروعة ، ونخوة وسطوة . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت .
ومساعير ومغاوير . ودُهم ودهم . وشهب وكُمت . وصلاب وصلاد .
وأنجاب وأنجاد . وجلب ولجب ، وبيْض ويلب[9] . وبيض وسود ،
وأساود وأسود . وجرد ومرد . وكهول وفحول . ورقاق وعتاق . وقود

---

(١) الرملة : كورة ومدينة عظيمة بفلسطين (ياقوت ج ٩ : ٦٩ — ٨٠ ط . ب) .

(٢) يبنى : أويبنا : بليد قرب الرملة (ياقوت ج ٢٠ : ٤٢٨ ط .ب) .

(٣) بيت لحم : بليد عامر قرب القدس ، مكان مهد عيسى عليه السلام (ياقوت ج ٤ : ٥٢ ط . ب) .

(٤) الخليل : اسم لموضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق يقرب بيت المقدس (ياقوت ج ٨ : ٣٨٧ — ٣٨٨ ط . ب) .

(٥) النطرون : اسم محرف للماطرون وهو موضع قرب دمشق (ياقوت ج ١٧ : ٤٢ ط . ب) .

(٦) بيت جبريل : أوبيت جبرين ، بليد بين غزة وبيت المقدس . بينه وبين القدس مرحلتان ، كانت فيه قلعة حصينة ضربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الإفرنج (ياقوت ج ٤ : ٥١٩ ط.ب) .

(٧) الملك العزيز عثمان : هو أبو الفتح ، عماد الدين ، ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولد بالقاهرة سنة ٥٦٧ ﻫ ، وولى ملك مصر بعد وفاة والده سنة ٥٨٩ ﻫ وتوفى بها سنة ٥٩٥ ﻫ ، (النجوم الزاهرة ج ٦ ط . دار الكتب).

(٨) ثرء : الاتساع فى الخير.

(٩) اليلب : الترس أو الدروع اليمانية من الجلد ، وقيل جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس فى الحرب واحدها يلبه .

وقيدود(١) . وأطلاب وأبطال ، وفوارس ورجال ، وخفاف وثقال . وعراب وأعاريب ، وسراحين وسراحيب . وحد لا يكل ، وجد لا يمل . وجمر يتقى ، وجمع لا يلتقى .

ومعه رماة الأحداق(٢) كماة الأتراك ، وهداة التوحيد عداة الاشراك . فقرت عينه بولده ، واعتضد بعضده ، ووضع يده بتأييد الله فى يده . وكان قد استدعى الأساطيل المنصورة فوافت كالفُتخ(٣) الكواسر ، بالفلك المواخر . وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا ، وأفواج تزاحم أفواجا . تدب على البحر عقاربها ، وتخب كقطع الليل سحائبها ، وتجر بالذوابل ذوائبها ، وتزاحم مناكب الأطواد مناكبها . (والحاجب لؤلؤ(٤)) مقدّمها ومقدامها ، وضرغام غابها وهمامها . فطفق يكسر ويكسب ، ويسل ويسلب . ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له فى جزائر البحر على مذاهبه . وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ، ويظهر فى وقائعه حسن موقعه .

---

(١) القود : الخيل التى تقاد ولا تركب . والقيدود : الناقة الطويلة الظهر .

(٢) الأحداق : جمع حدقة وهى سواد العين الأعظم ويقال رماة الحدق أى المهرة فى الرمى والنضال .

(٣) الفتخ : يقال أسد افتخ ، أى عريض الكف . والفتخة حلقة تلبس فى اليد أو الرجل لافص فيها ، والمقصود هنا أنهم كالأسود الكواسر .

(٤) الحاجب لؤلؤ : من كبار رجال الدولة الصلاحية ، كان مقدم العسكر ضد الفرنج الذين أرسلهم أرناط صاحب حصن الكرك لحرب مكة والمدينة فى البحر ، قيل إن لؤلؤ سار جازما بالنصر وأخذ معه قيوداً بعدد الفرنج من كرك الشوبك مع طائفة من العرب المرتدة وقد أدركهم لؤلؤ على بعد يوم من المدينة وبذل الأموال للعرب فانضموا إليه ، ونزل الفرنج إلى الساحل واعتصموا بجبل ، فترجل لؤلؤ وصعد إليهم بالناس فهابوه ، وسلموا أنفسهم جميعاً وقدم بهم إلى مصر ، كان لؤلؤ شيخاً أرمنياً من خدام القصر خدم مع صلاح الدين وأخلص له ، مات سنة ٥٩٧ هـ (شذرات الذهب ج ٤) .

ثم رحل عن عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا ، وللنصر مصاحبا . ولذيل العز ساحبا . قد أصحب ريّض مناه ، وأخصب روض غناه . وأصبح رائج الرجاء . أرج الأرجاء . صيب(1) العرف . طيب العرف . ظاهر اليد ، قاهر الأيْد . سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملأ فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق ، وكأنما أعاد العجاج رأد(2) الضحى جنح الغسق . فالأرض شاكية من اجحاف الجحافل ، والسماء حاظية بأقساط القساطل .

وسار سارا بالأحوال الخوالى : مروية أحاديث فتوحه العوالى من العوالى(3) . مطوية مدارك مناجحه على ما تنشره الآمال من الأمالى (4) . وقد حلت وعلت من مغارس النصر ومطالعه ، المجانى(5) والمجالى(6) . والاسلام يخطب من القدس عروسا ، ويبذل لها فى المهر نفوسا ، ويحمل إليها نُعمى(7) ليحمل عنها بوسى . ويهدى بشرا ليذهب عبوسا .

ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها على أعدائها ، واجابة دعائها وتلبية ندائها ، واطلاع زهر المصابيح فى سمائها . وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه . ورده إلى سكونه وسكنه . واقصاء الذين

---

(1) فى ب ول سيب والتصحيح من أ (42 ى) : والصيب : السحاب والمطر ، وصيب العرف : كثير الجود والعطاء .

(2) رأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء .

(3) العوالى : الأولى بمعنى العاليات ، والثانية جمع عاليه وتطلق على أعلى القناة أو النصف الأعلى من السنان ، أو على الرماح .

(4) واحدها املاء وهى ما يملى من الأقوال .

(5) المجانى : جمع مجنى وهو الموضع الذى يجنى منه الشىء كالثمر مثلا .

(6) المجالى : جمع مجلى ، وهو مقدم الرأس .

(7) فى ب تعى والتصحيح من ل ومن أ (42 ش) .

أقصاهم الله بلعنته من الأقصى ، وجذب قياد فتحه الذى استعصى . واسكات الناقوس منه بانطاق الآذان ، وكف كف الكفر عنه بأيمان الايمان . وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس ، وأدناس أدنى الناس . وافحام الأفهام بإخراس الأجراس .

وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت ، وخفقت أفئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت : وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت . وكان به[1] من مقدمى الافرنج (باليان بن بارزان) و(البطرك الأعظم) ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل بال باليان واشتعل بالنيران ، وخمدت نار بطر البطرك . وضاقت بالقوم منازلهم فكأن كل دار منها شرك للمشرك[2] . وقاموا بالتدبير فى مقام الإدبار ، وتقسمت أفكار الكفار . وأيس الفرنج من الفرج[3] ، وأجمعوا على بذل المهج .

---

(١) فى أ (٤٢ ش) بها .

(٢) ماذكر هو فى ب ول وأما فى أ (٤٣ ى) للمشرك شرك .

(٣) فى ب الحرج والتصحيح من ل .

ذكر كنيسة قُمامة(١)

وقالوا ها هنا نطرح الرءوس . ونسبك النفوس . ونسفك الدماء ، وتهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح ، واجتراح الجروح ، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا ، فيها مقامتنا ،ومنها تقوم قيامتنا ؛ وتصيح هامتنا ، وتصح ندامتنا، وتسيح علامتنا . وتسح غمامتنا، وبها غرامنا وعليها غرامتنا ؛ وباكرامها كرامتنا ، وبسلامتها سلامتنا ، وباستقامتها استقامتنا ، وفى استدامتها استدامتنا . وان تخلينا عنها لزمت لآمتنا ، ووجبت ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب ، والمذبح والمقرب ؛ والمجمع والمعبد ، والمهبط والمصعد . والمرقى والمرقب ، والمشرب والملعب ، والمموه والمذهب . والمطلع والمقطع ، والمربى والمربع . والمرخّم(٢) والمخرم ، والمحلل والمحرم ؛ والصور والأشكال ، والأنظار والأمثال ، والآساد والأشبال . والأشباه والأشباح ، والأعمدة والألواح ، والأجسام والأرواح .

وفيها صور الحواريين(٣) فى حوارهم ، والأحبار(٤) فى أخبارهم ، والرهابين فى صوامعهم ، والأقسّاء(٥) فى مجامعهم . والسحرة(٦) وحبالها ، والكهنة وخيالها . ومثال السيدة والسيد ، والهيكل(٧) والمولد . والمائدة والحوت (٨) ، والمنعوت والمنحوت ، والتلميذ والمعلم ، والمهد والصبى

(١) كنيسة قمامة : ببيت المقدس ويقولون إن بها قبر المسيح عليه السلام .

(٢) أى المكسو بالرخام .

(٣) هم أصحاب عيسى عليه السلام وعددهم اثنا عشر .

(٤) الأحبار : جمع حبر وهو العالم الكبير .

(٥) جمع قس .

(٦) أى السحرة الذين جمعهم فرعون مصر ليتحدى بهم موسى عليه السلام .

(٧) المقصود هيكل سليمان الذى أقامه ببيت المقدس وقد سبق الحديث عنه .

(٨) أى المائدة التى أنزلها الله تعالى من السماء معجزة لعيسى عليه السلام وكان عليها الحوت وقد ورد ذكر هذه الحادثة فى سورة المائدة من القرآن العظيم .

المتكلم(١) . وصورة الكبش والحمار ، والجنة والنار . والنواقيس والنواميس قالوا « وفيها صلب المسيح ، وقرب الذبيح ، وتجسُّد اللاهوت(٢) ، وتأله الناسوت(٣) . واستقام التّركيب ، وقام الصليب . ونزل النور ، وزل الديجور . وازدوجت الطبيعة بالأقنوم(٤) ، وامتزج الموجـود بالمعدوم(٥) . وعمدت معمودية المعبود ، ومخضت البتول(٦) بالمولود » . وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ، ما ضلوا فيه بالشُبه عن نَهج الدلالات. وقالوا :« دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتّها منا نفوت ، وعنها ندافع ، وعليها نقارع . ومالنا لا نقاتل ! وكيف لاننازع ولاننازل ! ولأى معنى نتركهم حتّى يأخذوا ! وندعهم حتّى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا ! »

وتأهبوا وتبـاهوا ، وما انتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق أمّات الأسواء على الأسوار . وستّروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار . واستشاطت شياطينهم ، وسرحت سراحينهم ، وطغت طواغيتهم ، وأصلتت مصاليتهم ، ونشرت طواميرهم(٧) ، وتسعرت مساعيرهم . وهاج هائجهم ، وماج مائجهم ، ودعت دواعيهم ، وعدت عواديهم ، وسعت أفاعيهم .

وحضتهم قسوسهم ، وحرضتهم رءوسهم ، وحركتهم نفوسهم ، وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم. وأخبرتّهم باقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود ، منشورة البنود ، موصولة القواطع بالأشاجع ، مهجورة الغمود .

---

(١) المقصود به عيسى عليه السلام حين تكلم فى المهد ليبرئ أمه أمام قومها .

(٢) أى تجسد الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) .

(٣) أى طبيعة الإنسان فى مقابلة اللاهوت والمراد تأله عيسى وقد برأ نفسه وبرأه الله من ذلك فى سورة المائدة .

(٤) الأقنوم : الأصل ، وأراد المؤلف بالعبادة ما يزعمونه من أن الله سبحانه وتعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة ، الأب والإبن وروح القدس (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) .

(٥) البتول : هى من انقطعت عن الدنيا إلى الله تعالى ، والمقصود بها مريم أم عيسى عليهما السلام .

(٦) أمات : جمع أم وتطلق على البهائم .

(٧) الطوامير : جمع طومار وهو الصحيفة .

مشهورة القواضب ، مشهودة الكتائب . مقودة الضوامر إلى ثار العدا ، موقدة الضمائر بنار المدى . مشبوبة العزائم ، مجنوبة الصلادم . مسلولة الظُبا ، مطلولة الربا . مجنونة أجنة أغدادها . مسنونة أسنة صعادها . مطلقة أعنة جيادها ، محققة مظنة طرادها .

قد سالت الوهاد بآكامها ، وجالت الأعلام فى أعلامها . وسدت الفجاج أفواجها ، ومدت العجّاج أمواجها ، وحجبت الغزالة عقبانها . وألهبت الُذبالة خرصانها . وجرت بالجبال رياحها ، وجُرّت كالحبال رماحها ، واشتمل على الضراغم غيلها . وأقبل بالعظائم قبيلها .

ووافى كل واف بعهد ربه ، كاف لكف خطبه ، شاف لهمّ قلبه ، ضاف يفيض شربه ، خاف فى لبوسه ، ناف لبوسه ، باسل بباسه ، عاسل(١) بأمراسه ، ناسل بنت الغمد من جفنه ، غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند(٢) بسواعده ، فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده . حاد بجده ، جاد بحده .

وكل شاب بنار الحرب شاب ، ورب دين لدين الرب راب ، وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذى ذباب(٣) عن الهدى ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال ، سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال مائل فى سبيل الله إلى انفاق مال .

وأقبل السلطان بإقبال سلطانه ، وأبطال شجعانه ، وأقيال أولاده واخوانه . وأشبال مماليكه وغلمانه . وكرام أمرائه ، وعظام أوليائه . فى مقانب(٤) بالمناقب مقنبة ، وكتائب بالمواكب مكتّبة(٥) . وذوابل بالكواكب

---

(١) عاسل بأمراسه : العبارة كناية عن أنه ذو شدة وقوة يطيب الثناء عليه بهما .

(٢) بيض الهند : أى السيوف الهندية .

(٣) ذو ذباب : الذباب من السيف ، هو حده وطرفه ، وكذلك بمعنى جنون « فى الدفاع عن الحق » .

(٤) مقانب : جماعة من الخيل تجتمع للغارة . والمناقب : أطراف الجبل .

(٥) مكتبة : مجمعة ، كتب الجنود . جمعهم وجعلهم كتائب .

منصّلة ، وجحافل بمضاء المضارب محفلة . وألوية صفر للأواء بنى الأصفر . بيض وسمر تزرق زرق العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل ، وقنا وقنابل ، وصوافن[1] وصواهل ، وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس[2] ، وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقه الأدنى وفريقه الأسنى ، ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى .

---

(١) واحدها صافن وهو الفرس القائم على ثلاثة قوائم .

(٢) فوارس : أى يدقون أعناق أعدائهم . فرس الأسد فريسته : دق عنقها، اصطادها ، فرس الذبيحة : قطع نخاعها .

وقال : « إن أسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا ، وأى يد له عندنا إذا أيدنا . فانه مكث فى يد الكفر إحدى وتسعين سنة ، لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة ، ودامت همم الملوك دونه متوسنة[1] وخلت القرون عنه متخلية[2] . وحلت الفرنج به متولية . فما ادخر الله فضيلة فتحه إلاّ لآل أيوب ، ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله به على الأعصار ، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار .

وكيف لا يُهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى[3] ؛ والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى ؛ وهو مقام الأنبياء ، وموقف الأولياء ، ومعبد الأتقياء ، ومزار أبدال[4] الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر ، ويتواقد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر . وفيه الصخرة التى صينت جدة أبهاجها[5] من الإنهاج[6] ، ومنها منهاج المعراج ، ولها القبة الشماء التى على رأسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البُراق . وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق .

ومن أبوابه : (باب الرحمة) الذى يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول الخلود ،وفيه (كرسى سليمان) و (محراب داود) ، وله (عين سُلوان) التى تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود . وهو أول القبلتين[7] ،

(1) متوسنة : أى مسترخيه غير متيقظة .

(2) هذه العبارة ساقطة فى أ (د ٤ ش) والتى بعدها فيها كلمة خلت بدلا من حلت .

(3) ساقطة فى أ (٥ ٤ ش) .

(٤) الأبدال : قيل إنهم قوم من الصالحين لاتخلو الدنيا منهم فاذا مات واحد أبدل الله مكانه آخرا .

(5) فى أ (٥ ٤ ش) أنها جها .

(6) الانهاج : هو البلى والاخلاق بكسر الهمزة .

(7) يقصد القبلة الأولى للمسلمين وهى بيت المقدس والقبلة الثانية وهى تجاه الكعبة بمكة .

وثانى البيتين(١) ، وثالث الحرمين(٢) . وهو أحد المساجد الثلاثة(٣) التى جاء فى الخبر النبوى أنها تشد إليها الرحال ، ويعقد الرجاء بها الرجال .

ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صورة ، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه فى أول سورة ، وقال عز من قائل (سُبحان الذى أسْرى بعبْده ليْلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى(٤)) وله فضائل ومناقب لا تحصى . وإليه ومنه كان الاسراء ، ولأرضه فتحت السماء ، وعنه تؤثر أنباء الأنبياء ، وآلاء الأولياء ، ومشاهد الشهداء ، وكرامات الكرماء ، وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار ، ومسارح المسار .

وصخرته الطولى ، القبلة الأولى . ومنها تعالت القدم النبوية ، وتوالت البركة العلوية . وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين ، وصحب الروح الأمين(٥) ، وصعد منها إلى أعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها السلام الذى قال الله فيه (كُلّما دخل عليها زكريّا(٦)) ، ولنهاره التعبد ولليله المحيا . وهو الذى أسسه داود ووصى ببنائه سليمان . ولأجل اجلاله أنزل الله سبحان(٧) ، وهو الذى افتتحه الفاروق(٨) وافتتحت به سورة الفرقان .

فما أجله وأعظمه ، وأشرفه وأفخمه ، وأعلاه وأجلاه ، وأسماه وأسناه . وأيمن بركاته وأبرك ميامنه ، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه ، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه . وقد أظهر الله طَوله وطوْله ، بقوله (الذى باركْنا حوْله)(٩) . وكم فيه من الآيات التى أراها الله نبيه ، وجعل مسموعنا

(١) أى البيت المقدس والبيت الحرام بمكة .

(٢) أى الحرم المكى والحرم المدنى والمسجد الأقصى بالقدس .

(٣) أى المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة والمسجد الأقصى .

(٤) الآية ١ سورة الإسراء .

(٥) جبريل عليه السلام .

(٦) الآية ٣٧ سورة آل عمران .

(٧) الآية ١ سورة الاسراء .

(٨) الفاروق : هو الخليفة السامى الرشيد عمر بن الخطاب وكان حكمه من ١٣ هـ إلى ٢٣ هـ .

(٩) الآية ١ سورة الاسراء .

من فضائله مرئية . ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه : ما وثق على استعادة آلائه مواثيقه وآلاياه . وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه ، ويرفع بأعلاه علمه ، وتخطو إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصغى إلى صرخة الصخرة ، ويبغى بالبشرى بشر أسرة الأسرة .

وسار واثقا بكمال النصرة ، وزوال العسرة : وحسر التمرنج قناع الحسرة . ونزل على غربى القدس يوم الأحد خامس عشر رجب ، وقلب الكفر قد وجب ، وحزب الشرك قدشارف الشجى والشجب(١) : والقدر قد أظهر العجب .

وكان فى القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل ، من سائف ونابل ، وبطل للباطل ، وعاس(٢) عاسل بالعاسل (٣) . قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون ، ويعاجزون ويناجزون ، ويرمون ويدمون ، ويُحموْن ويحمُون ، ويحتدون ويحتدمون. ويضطربون ويضطرمون. ويذودون ويذبون ، ويشبون ويسبّون . ويصرخون ويحرّضون ، ويلهثون ويتغوثون ، ويلوذون ويلوبون ، ويجولون ويجوبون ، ويقدمون ويحجمون ، ويتململون ويألمون . ويتعاوَوْن ويتضاعون(٤) ، ويحترقون للبلايا(٥) ، ويقترحون المنايا .

وقاتلوا أشد قتال ، وناضلوا أحد نضال ، ونازلوا أجد نزال . وطافوا بصحاف الصفاح(٦) لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح ، وجالوا بالأوجال ، وأجالوا قداح الآجال ، وصالوا لقطع الأوصال . والتهموا

---

(١) الشجب : العنت يصيب الانسان من مرض أو قتال .

(٢) عاس : أى يطوف بالليل ، يحرس الناس ويكشف أهل الريبه ومنه العسس .

(٣) العاسل : : السيف .

(٤) يتضاغون : تضاغى تضور من الجوع أوالضرب وصاح

(٥) فى ب للبايا والتصحيح من ل ومن أ (٤٧ ى)

(٦) الصفاح : جمع صفح يفتح الصاد وسكون الفاء ، عرض السيف

والتهبوا ، وتأشّبوا[1] ونشبوا[2] . واستهدفوا للسهام ، واستوقفوا للحمام .

وقالوا « كل واحد منا بعشرين ، وكل عشرة بمئين . ودون القمامة تقوم القيامة ، ولحب سلامتها تقلى السلامة » . ودامت الحرب ، واستمر الطعن والضرب . فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالى وخيم هنالك ، وضيق على الفرنج المسالك ، ووسع عليهم المهالك . ونصب المجانيق ، ومرى[3] من آفاتها الأفاويق[4] . وأصرخ الصخرة بالصخور ، وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا يُخرجون من السور الرءوس ، الا ويلقون البوس ، واليوم العبوس ، ويلقون على الردى النفوس .

« فللداوية » دوى ، و « للبارونية » من البوار فى الهاوية هوى . و « للاسبتار » تبار ، وما « للفريرية » من الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم حجاب ، وفى كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه لتُقبل النصال مكشوفة ، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والأيدى على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة ، والنفوس لاستبطاء الهمم فى الاهتمام مهمومة ، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة .

فكأن المجانيق مجانين يرامون ، ومناجيد لا يرامون . وجبال تجذبها حبال ، ورجال تنجدها رجال . وأمّات الدواهى والمنايا ، وحوامل تلد البلايا . لا حجْر عليها فى حجَر ، ولا أمن عندها من حذر ، ولا تخطر سهامها الا بالخطر . ولا يفطر[5] مرورها الا مرارات ذوى الفطر . فكم نجم من سمائها ينقض . وصخر من أرضها يرفض ! وجمر من

---

(١) تأشبوا : اختلطوا .

(٢) نشبوا : ثاروا واشتبكوا .

(٣) مرى : استخرج .

(٤) الأفاويق : واحدها فيقه وهو اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين أو الماء المجتمع فى السحاب يمطر ساعة بعد أخرى والمقصود أنه صب عليهم المصائب .

(٥) فى ب‍ يخطر والتصحيح من ل ومن أ (٤٨ ى) .

شرارها ينقض ! وما شيء كآفات كفاتها ، وآيات نكاياتها ، ودركات ادراكاتها ، ولفتات فلتاتها ، وجذبات عذباتها .

فما زالت تقلع بمقالعها ، وتقرع بمقارعها . وتمتح(١) بأشطانها ، وتمرح فى أرسانها(٢) . وتصدم وتهدم ، وتصرع وتصدع ، وتنهز بدلائها ، وتجهز ببلائها ، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها ، وتفل شمل المبانى بتفريقها وتبديدها ، وتقوض القواعد بضربها من أساسها ، وتنقض المعاقد بجذبها فى أمراسها ، وتشفه الموارد بشربها من كأسها . حتى تركت السور سورا(٣) . وجعلت الذاب عنه محسورا ، وعاد العدو من نظمه المبتور متبورا(٤) .

وخرق الخندق وحفز الزحف ، وظهر للإسلام الفتح وللكفر الحتف . وأخذ النقب ، وسهل الصعب . وبذل المجهود ، وحصل المقصود . وكمل المراد ، وكلم المراد . وثغر الثغر ، وأمر الأمر . وأربى الأرب ، واستتب السبب . وخاف القوم الوقم ، واستعاضوا من الصحة السقم . وأسلم البلد وقطع زنار خندقه ، وبرز (ابن بارزان) ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الأمان لقومه ، وتمنع السلطان وتسامى فى سومه . وقال « لاأمن لكم ولا أمان وما هوانا (٥) إلا أن نديم لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا ، ونوسعكم قتلا وأسرا . ونسفك من الرجال الدماء ، ونسلط على الذرية والنساء السباء » . وأبى فى تأمينهم الا الإباء . فتعرضوا للتضرع ، وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع . وقالوا « إذا أيسنا من أمانكم ؛ وخفنا من سلطانكم ؛ وخبنا من إحسانكم ؛ وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح ؛ ولا صلح ولا اصلاح ؛ ولا سلم ولا سلامة ، ولا نعمة ولا كرامة ، فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم ؛ ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم

(١) تمتح : ترمى ب .
(٢) ارسان : جمع رسن وهو الحبل المعروف الدابه .
(٣) سورا : أى أصبح يمكن التسلق عليه .
(٤) أى هالك .
(٥) فى ب وهو والتصحيح من ل ومن أ (٤٨ ى) .

إقدام المستشرى بالشر ، ونقتحم اقتحام المستضرى من الضر ، ونلق أنفسنا على النار ، ولا نلقى بأيدينا إلى التهلكة والعار . ولا يُجرح واحد منا حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى تُرى أيدينا بالفتك منتشرة . وانا نحرق الدور ونخرب القبة ، ونترك عليكم فى سبْينا السبة . ونقلع الصخرة ، ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف ، وقد عرف أن كلاً منا من الذل عزوف ، وللعز ألوف . وأما الأموال فانا نَعْطبها ولا نُعطيها ، وأما الذرارى فانا نسارع الى إعدامها ولا نستبطيها . فأية فائدة لكم فى هذا الشح ، وكل خسر لكم فى هذا الربح ، وربّ خيبة جاءت من رجاء النجح ، ولا يصلح السوء سوى الصلح ، ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل إسفار الصبح » .

فعقد السلطان محضرا للمشورة ، وأحضر كبراء عساكره المنصورة . وشاورهم فى الأمر ، وحاورهم فى السر والجهر ، واستطلع خبايا ضمائرهم واستكشف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم ، واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصلحة المترجحة ، وفاوضهم فى المصالحة المربحة . وقال « إن الفرصة قد أمكنت فنحرص فى انتهازها . وان الحصة قد حصلت ونستخير الله فى إحرازها . وإن فاتت لاتستدرك ، وإن أفلتت لاتملك » . فقالوا «قد خصك الله بالسعادة ، وأخلصك لهذه العبادة . ورأيك راشد ، وعزمك لضالة النصر ناشد ، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد ، وكلنا لك فى اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد » .

واستقر بعد مراودات ومعاودات ؛ ومفاوضات وتفويضات ؛ وضراعات من القوم وشفاعات ؛ على قطيعة تكمل بها الغبطة ، وتحصل منها الحوطة . واشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم ، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على أنه من عجز بعد أربعين يوما عما لزمه ؛ أو امتنع منه وما سلمه ؛ ضرب عليه الرق ، وثبت فى تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل صغير أو صغيرة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار فى الضمان .

وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء ، وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء فمن سلّم خرج من بيته آمنا . ولم يعد اليه ساكنا .

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة ، وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان ، من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الأبواب ، ورتب لعرضهم واستخراج مايلزمهم النواب : ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير . يحصر الخارجين : ويحصى الوالجين . فمن استخرج منه خرج ، ومن لم يقم بما عليه قعد فى الحبس وعدم الفرج .

ولو حفظ هذا المال حق حفظه : لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنّما تم التفريط ، وعم التخليط . فكل منْ رشَا مشى : وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرُشا . فمنهم من أدلى من السور بالحبال ، ومنهم من حمل مخفيا فى الرحال . ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزى الجند ، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد .

وكانت فى القدس ملكة رومية مترهبة : فى عبادة الصليب متصلبة : وعلى مصابها به ملتهبة : وفى التمسك بملتها متصعبة متعصبة . أنفاسها متصاعدة للحزن : وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن . ولها حال ومال وأشياء وأشياع ، ومتاع وأتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج ، وأذن فى اخراج كل مالها فى الأكياس والأخراج . فراحت فَرْحى : وان كانت من شجنها قرحى .

وكانت زوجة الملك المأسور — ابنة الملك أمارى — مقيمة فى جوار القدس مع مالها من الخدم والخول(١) والجوارى . فخلصت هى بمن معها ومن تبعها . ومن ادعى أنه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فيليب أم هنفرى : أعفيت من الوزن ، وتوفر مالُها عليها فى الخزن . واستطلق صاحب ألبيرة(٢) زهاء خمسمائة أرمنى : ذكر أنهم من

(١) الخول : جمع خول وهم العبيد والاماء وغيرهم من الحاشية .

(٢) البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الواقعة على حدود الروم (آسيا الصغرى) وهى قلعة حصينة لها رستاق (ياقوت ج ٢ : ط . الخانجى) .

بلده . وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده ، وطلب مظفر الدين ابن على كوجك) زهاء ألف أرمنى ادعى أنهم من الرّها ، فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى .

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين(١) ، فى كل ديوان منها عدة من النواب من(٢) المصريين ومنهم من الشاميين ، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلق مع الطلقاء ، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء . فذكر لى من لا أشك(٣) فى مقاله ؛ أنه كان يحضر فى الديوان ويطلع على حاله ، فربما كتبوا خطا لمن نقده فى كيسهم ، ويلبس أمر تابيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه . وخانوه على ماحصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه ، ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب مائة ألف دينار ، وبقى من بقى تحت رق وأسار ، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة ، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة .

---

(١) فى أ (٥٠ ش) عدة من الدواوين .

(٢) ساقطة فى أ (٥٠ ش) .

(٣) فى أ (٥٠ ش) يشك . (مبنى للمجهول) .

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى رجب

واتفق فتح البيت المقدس فى يوم كان فى مثل ليلته منه (١) المعراج ، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج ، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج . وجلس السلطان للهناء ، للقاء (٢) الأكابر والأمراء ، والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار ، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار . ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجح وافر (٣) ظافر .وبابه مفتوح ، ورفده ممنوح . وحجابه مرفوع ، وخطابه مسموع . ونشاطه مقبل ، وبساطه مقبّل . ومحياه يلوح ، ورياه يفوح . ومحبته تروق ومهابته تروع ، وآفاقه تضيء وأخلاقه تضوع . ويده لفيض أمواه السخاء ، وفض أفواه العطاء (٤) ؛ ظاهرها قبلة القبل ؛ وباطنها كعبة الأمل .

قد حلت له حالة الظفر ، وكأن دَسْتَه (٥) به هالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون ، والشعراء وقوف يُنشدون ويَنشدون . والأعلام تبرز لتنشر ، والأقلام تزبر لتبشر . والعيون من فرط المسرة (٦) تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والألسنة بالابتهال الى الله تضرع ، والكاتب ينشى ويوشى ويوشع (٧) ، والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع .

---

(١) ساقطة فى أ (٥٠ ش) .

(٢) فى أ (٥٠ ش) ولقاء .

(٣) ساقطة فى ب و ل مثبته فى أ (٥٠ ش) .

(٤) فى أ (٥١ش) العظماء .

(٥) الدست كلمة كردية لها معان كثيرة وهى هنا بمعنى صدر المجلس (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . ب١٩٠٨ م) .

(٦) فى أ (٥١ش) الاسرة .

(٧) يوشع : أى يزيد وينمق ، ووشع فى الجبل : أخذ يمينا وشمالا ، ووشعت الغنم فى الجبل صعدت لترعاه ، والوشيع علم الثوب وما يجعل حول الحديقة من الشوك ونحوه منعا للداخلين .

فما شبهت قلمى إلا بشائر أرْى(١) البشائر ، ولا وجهت كلمى الا لطائف وحىْ اللطائف . وما أرسلت يراعى الا ليراعى الرسائل ، ويوشع الفضائل(٢) ، ويشيع الفواضل . ويشبع القول ، ويسبغ الطول . ويطول بالحجة وان كان فى طوله(٣) قصر ، ويصول باللهجة وان كان فى حجمه(٤) حصر . ويسمّن(٥) الملك به وهو نحيف ، ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدى بياض الغرة من سواد الدهمة ، ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجرى بالآجال والأرزاق ، والمنع والاطلاق ، والخلف والوفاق ، والارقاق والإعتاق . والعدة والانجاز ، والجدة والإعواز . والفتق والرتق ، والرقع والخرق .

وهو الذى يجمع الجيوش ، ويرفع العروش . ويوحش المستأنس ، ويؤنس المستوحش . وبه(٦) ينعش العاثر ، ويعثر المنتعش(٧) ويجرى بالإعداء على الأعداء ، وبالإيلاء للأولياء .

فبشرت بأقلامى أقاليم البشر ، وعبرت بأعاجيبى عن عجائب(٨) العبر ، وملأت البروج بالدرارى والدروج(٩) بالدرر . ورُويت تلك البشرى حتى أطابت ريا (الرى)(١٠) وسمر (سمرقند)(١١) ، وأطربت وحلت حتى (فاقت القنْديد والقُنْد)(١٢) . وعلقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت ، وشرحت فضيلتها وبينت ، وأديت فريضة زيارتها وتعينت .

---

(١) شائر أرى جامع عسل ومجنّن له .

(٢) عبارة يوشع الفضائل ساقطة ، فى ب ول مثبته فى أ (٥١ ش) .

(٣) فى ب ول حجمه ، والتصحيح من أ (٥١ ش) .

(٤) فى ب ول هجمه والتصحيح من أ (٥١ ش)

(٥) فى ب و ل يسمى وهو تحريف والتصحيح من أ (٥١ ش) .

(٦و٧) ساقطتان فى ب و ل مثبتتان فى أ (٥١ ش) .

(٨) فى أ (٥١ ش) أعاجيب .

(٩) الدروج : أى الرياح السريعة المرور .

(١٠) الرى : مدينة كبيرة بايران .

(١١) سمرقند : يقال لها بالعربية سمران من بلاد ماوراء النهر وهو قصبة الصغد (ياقوت ١١ : ٢٤٦ ط . ب) .

(١٢) القنديد : الكافور ، طيب يعمل بالزعفران . القند : عسل قصب السكر إذا جمد

وكنت قد انقطعت من الصحبة ؛ لما عرض لى فى (١) المرض من النوبة . فأقمت بدمشق أداوى مزاجى ؛ وأدارى منهاجى ؛ وأعالج تدبيرى وأدبر علاجى ؛ الى أن وصل الخبر بأن السلطان نزل على القدس ، فوجدت خفة فى النفس ، وأنست بابلالى بعض الأنس ، وأمنت لوثوق بالصحة والاستقامة من النكس .

فأوجهت الى تلك الجهة ، وسرت بطاعة النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المتكرهة . واخترت تعب السفر على راحة الاقامة ، ورأيت فى ركوب طريق العطب وجه السلامة . ووصلت بكرة السبت ثانى يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح .

فوصلنى السلطان عند وصولى بأجلى بشاشة ، وأحلى هشاشة . وسرى عنه وسُرّ ، وأبرّ وبر . وقال « أين كنْت ولما أبطأت ، وحيث أصبت فى المجىء فما أخطأت . وقد كنا فى انتظارك ، والسؤال عن أخبارك . وهذا أوان احسانك ، فأين احسان أوانك ، فأجْر بنانك بجرأة بيانك ، واجْر فى ميدانك . وما للبشائر إلا واصفها، وللفرائد الا راصفها . وللفصاحة الاقسّها (٢) ، وللحصافة الا قيْسها (٣) » .

وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها ، واقتضاب معان ما اقتضاها . وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز فقال

(١) فى أ (٥٢ ى) من .

(٢) يقصد قس بن ساعدة الايادى فصيح العرب وخطيبها فى الجاهلية وقد سبقت ترجمته

(٣) يقصد قيس بن زهير حصيف العرب فى الجاهلية وهو قيس بن زهير بن جذيمه بن رواحة العبسى ، أمير عبس وداهيتها ، وأحد السادة القادة فى عرب العراق ، وكان يلقب بقيس الرأى لجودة رأيه ، كما يضرب بدهائه المثل ، وحكمته فى مأثور كلامه مستفيضة وخطبه غير قليلة وشعره جيد فحل ، توفى سنة ١٠ ﻫ (الأعلام للزركلى ج ٢ : ٨٠ ط . المطبعة العربية ١٣٤٦ ﻫ) .

« لهذا مَن هو أقوم به » ، وعنَّانى ، فلما رآنى نادانى واستدنانى ، فصرفت الى امتثال أمره عنانى . وسلم الى الكتب التى كتبوها بالألفاظ التى رتبوها . وقال « غيرها ولا تسيرها » وغرضه أنى أعدل معوجها ، وأبدل مثبجها (١) وأفترع المعنى البكر للفتح البكر ، وأوشح ذكر آياته بآيات الذكر .

فاستجديتُها فما استجدتُها ، واستَلمحتها فما استملحتها . وشممتها وبها سهك (٢) ، وكشفتها وسترها هتك ، وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك . فتسرعت فى افتضاض الأبكار ، واقتضاء الأفكار . واقتراح القريحة ، واقتراء رحاب الكلم الفصيحة الفسيحة . وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز ، وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز . ووشحْت ووشعت ، وشعبت وأشبعت . وأطلْتُ وأطبت ، وصبت (٣) وأصبت ، وأعجزت وأعجبت ، وأطربت وأطربت . وأبعدت وأبدعت ، ورصعت وصرعت . وطابقت وجانست ، ووافقت وأنست .

وبينت فضل عصر الامام على الأعصار السابقة ، بالأبصار الصادقة . وأن هذا الفتح ادخره الله لزمانه ، ومكن منه لمكانه ، وسلط عليه بسلطانه ، وحسنه لنا باحسانه . وقد عبرت القرون الماضية على حسرته ، وظفر هو وأشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة أيامه ، وحركة اعتزامه . وذكرت من هذا كل ما راق وشاق ، ونور الآفاق . وأن هذه الفتوح تفوح بأرج نشره ، وتحيا بحيا بره . فما أيمن أيامنا بأيامه ، وما أسعد آمالنا بانعامه .

وكتبْت الى كل ذى طرف بمعنى طريف ، ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالى حتى نظمت اللآلى ، وحليت المعالى ، وقرحت المعادى وفرحت الموالى . وسارت شواردى الى المشرق والمغرب ، مُعْرِبة عن

---

(١) مثبجها : أى معظمها وأكثرها .

(٢) سهك : ريح كريهة .

(٣) صبت : صاب المطر يصوب ، انصب ونزل والمقصود هنا أن المؤلف شبه نفسه بالمطر المنهمر وأنه أصاب القصد والمعنى اللذين رمى إليهما .

هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى . وتلوت (شرع لكم من الدين ما وَصى)(١)

وهنأت الحجر الأسود بالصخرة البيضاء(٢) ، ومنزل الوحى بمحل الإسراء(٣) ، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء . ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى — صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، وأدام أهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين .

وتسامع الناس بهذا النصر الكريم ، والفتح العظيم ، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق ، وسلكوا إليه فى كل طريق ، وأحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق ، وتنزهوا من أزهار كراماته فى الروض الأنيق .

---

(١) الآية ١٣ سورة الشورى .

(٢) يقصد الصخرة التى أقام عليها عبد الملك بن مروان القبة سنة ٧٦ ه .

(٣) يقصد حادثة اسراء الرسول من مكة إلى القدس .

وشرع الافرنج فى بيع الأمتعة ، واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوها بالمجان فى سوق الهوان ، وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الأثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مايساوى أكثر من عشرة ، وجدوا فى ضم ماوجدوا من أمور لهم منتشرة . وكنسوا كنائسهم ، وأخذوا منها نفائسهم . ونقلوا منها الذهبيات(١) والفضيات من الأوانى والقناديل ، والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن ، واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين ، وجمع ما كان فى قمامة من الجنسين والنسجين .

فقلت للسلطان « هذه أموال وافرة ، وأحوال ظاهرة ، تبلغ مائتى ألف دينار ، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار . فلا تتركها فى أيدى هؤلاء الفجار » ، فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر ، وهم جاهلون بسر هذا الأمر . ونحن نجريهم على ظاهر الأمان ، ولا نتركهم يرمون أهل الايمان بنكث الأيمان ، بل يتحدثون بما أفضناه من الاحسان» .

فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز وخف ، ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف . وانتقل معظمهم الى صور . وكتفوا بالديجور(٢) الديجور ، وبقى منهم زهاء خمسة عشر ألفا امتنعوا من مشروع الحق ، فاختُصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا فى تقدير سبعة آلاف فانهم ألفوا ذلا لم يكونوا له بألاف . فاقتسمتهم أيدى السبى أيدى سبَا ، وتفرق الغانمون بجمعهم فى الوهاد والربا . وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة ، عادت بيننا مقتسمة ، وأصبحت بيكائها وجوه الدولة مبتسمة .

فكم محجوبة هتكت ، ومالكة ملكت ، وعزباء نكحت ، وعزيزة

---

(١) فى أ (٥٤ ى) ذهبياتهم .

(٢) ساقطة فى أ (٥٤ ى) والديجور : بمعنى التراب الأغبر الضارب إلى السواد ، الظلام

منحت ، وبخيلة تسمحت ، (١) وحيية توقحت ، ومجدة مزحت ، ومصونة ابتذلت ، وفارغة شغلت ، وعقيلة امتهنت ، وجميلة امتحنت ، وعذراء افترعت (٢) ، وشماء قرعت ، ولمياء (٣) رشفت ، وظمياء (٤) فرشت ، وريضة أصحبت ورضية أصخبت .

فكم تسرى منهن سرى ، وتجرأ عليهن جرىّ . وقضى وطره عزب ، ونفى نهمه سغب ، وفثأ سورته شغب . وكم غانية استخلصت ، وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت ، وعالية استنزلت . ووحشية صيدت ، وعرشية قيدت .

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز ؛ وخلع لباس الذل ولبس خلع العز ؛ أبى النصارى بعد أداء القطيعة أن يخرجوا ، وتضرعوا فى أن يسكنوا ولا يزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا ببذول ، وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول . وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وشحت (٥) أفواهم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا فى الذمة ، وخرجوا الى العصمة ، وشغلوا بالخدمة ، واستعملوا فى المهنة ، وعدوا المحنة فى تلك المحنة .

---

(١) فى ب خييه والتصحيح من ل ومن أ (٥٥ ى) .

(٢) افترعت : أزيلت بكارتها .

(٣) لمياء : فعلها لمى يلمى ، وهى مؤنث ألمى والمعنى بشفتها سواد .

(٤) ظمياء : مؤنث أظمى والمقصود هنا بصفة عامة الرقيقة النحيفة .

(٥) فى أ (٥٥ ش) شجيت .

ولما تسلم السلطان القدس أمر باظهار المحراب . وحتّم به أمر الإيجاب . وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا(١) ، وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بنوا(٢) من غربى القبلة دارا وسيعة ، وكنيسة رفيعة . فأوعز برفْع ذلك الحجاب ، وكشف النقاب ، عن عروس المحراب . وهدم ما قدامه من الأبنية ، وتنْظيف ماحوله من الأفنية . بحيث يجتمع الناس فى الجمعة فى العرصة(٣) المتسعة .

ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر . ونقض ما أحدثوه بين السوارى(٤) ، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبوارى(٥) . وعلقت القناديل ، وتلى التنْزيل ، وحق الحق وبطلت الأباطيل ، وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصُفت السجادات ، وصفت العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأديمت الدعوات ، وتجلت البركات ، وانجلت الكربات ، وانجابت الغيايات ، وانتابت الهدايات ، وتليت الايات ، وأعليت الرايات .

ونطق الأذان وخرس الناقوس ، وحضر المؤذنون وغاب القسوس ، وزال العبوس والبوس ، وطابت الأنفاس والنفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه ، وطلب الفضل من معدنه . وورد القراء وقرىء الأوراد ، واجتمع الزهاد والعباد ، والأبدال والأوتاد(٦) . وعُبد الواحد ووحد العابد ، وتوافد الراكع والساجد ،

---

(١) هريا : مخازن الغلال .

(٢) ساقطة فى أ (٥٥ ش)

(٣) العرصة : ساحة الدار أو كل بقعة لابناء فيها .

(٤) السوارى : الاسطوانات التى تشبه الأعمدة ، أو الأعمدة التى تنصب فى وسط السفينة لتعليق القلوع .

(٥) البوارى : الحصير المنسوج .

(٦) الأوتاد : أى الرؤساء .

والخاشع والواجد ، والزاهى والزاهد ، والحاكم والشاهد ، والجاهد والمجاهد ، والقائم والقاعد ، والمتهجد الساهد ، والزائر والوافد .

وصدح المنبر وصدع المذكر ، وانبعث المعشر وذكر البعث والمحشر . وأملى الحفاظ ، وأسلى (١) الوعاظ . وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء . وتحدث الرواة وروى المحدثون، وتحنف الهداة وهدى المتحنفون . وأخلص الداعون ودعا المخلصون ، وأخذ بالعزيمة المترخصون ، ولخص المفسرون وفسر الملخصون . وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء . وكثر المترشحون للخطابة ، المتوشحون بالاصابة ، المعروفون بالفصاحة ، الموصوفون بالحصافة .

فما فيهم الا من خطب الرتبة ، ورتب الخطبة . وأنشأ معنى شائقا ، ووشى لفظا رائقا ، وسوى كلاما بالموضع لائقا ، وروى مبتكرا من البلاغة فائقا . وفيهم من عرض على خطبته ، وطلب منى نصبته . وتمنى أن ترجح فضيلته ، وتنجح وسيلته ، وتسبق منيته فيها أمنيته . وكلهم طال الى الالتهاء بها عنقه ، وسال من الالتهاب عليها عرقه . وما منهم الا من يتأهب ويترقب ، ويتوسل ويتقرب . وفيهم من يتعرض ويتضرع ، ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه ، وضرب فى أخماسه أسداسه ، ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان لايعين ولا يبين ، ولا يخص ولا ينص .

ومنهم من يقول « ليتنى خطبت فى الجمعة الأولى ، وفزت باليد الطولى . وإذا ظفرت بطالع سعدى ؛ فما أبالى بمن يخطب بعدى » .

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان ؛ أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطيب السلطان . وامتلأ الجامع ، واحتفلت المجامع ، وتوجست الأبصار والمسامع ، وفاضت لرقة القلوب المدامع ، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع ، وشاعت من سر السرور بلبس حبر الحبور الشوائع ، وغصت بالسابقين اليها المواضع . وتوسمت العيون ، وتقسمت الظنون .

---

(١) أسلى : كشف عنهم الهم .

وقال الناس « هذا يوم كريم ، وفضل عميم ، وموسم عظيم . هذا يوم تجاب فيه الدعوات ، وتصب البركات ، وتسال العبرات ، وتقال العثرات . ويتيقظ الغافلون ، ويتعظ العاملون . وطوبى لمن عاش ، حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الاسلام وارتاش . وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة ، والعصبة الطاهرة ، والأمة الظاهرة . وما أكرم هذه النصرة الناصرية ، والأسرة الامامية،والدعوة العباسية ، والمملكة الأيوبية ، والدولة الصلاحية . وهل فى بلاد الاسلام أشرف من هذه الجماعة ، التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة » .

وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب . وتفاوضوا فى التفويض ، وتحدثوا بالتصريح والتعريض . والأعلام تعلى ، والمنبر يكسى ويجلى . والأصوات ترتفع ، والجماعات تجتمع . والأفواج تزدحم ، والأمواج تلتطم . وللعارفين من الضجيج ؛ مافى عرفات للحجيج . حتى حان الزوال ، وزال الاعتدال . وخيعل (١) الداعى ، وأعجل الساعى . فنصب السلطان الخطيب بنصه ، وأبان عن اختياره بعد فحصه . وأوعز إلى القاضى (محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين على القرشى) (٢) بأن يرقى ذلك المرقى ، وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى . فأعرته من عندى أهبة (٣) سوداء من تشريف الخلافة ، حتى تكمل له شرف الافاضة والاضافة ؛ فرقى العود ، ولقى السعود . واهتزت أعطاف المنبر ، واعتزت أطراف المعشر .

وخطب وأنصتوا ، ونطق وسكتوا . وأفصح وأعرب ، وأبدع وأغرب ، وأعجز وأعجب ، وأوجز وأسهب . ووعظ فى خطبتيه ، وخطب بموعظتيه . وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه ، والمسجد الأقصى من

---

(١) خيعل : أى ألبس .

(٢) محيى الدين أبى المعالى بن زكى الدين على القرشى : كان قاضى قضاة دمشق ، مات سنة ٥٩٨ هـ عن ٤٨ سنة (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٨١ ط . دار الكتب) .

(٣) الأهبة كالهبة بكسر الهاء وتشديد الباء : القطعة من الثوب .

أول تأسيسه ، وتطهيره بعد تنجيسه ، واخراس ناقوسه واخراج قسيسه .
ودعا للخليفة والسلطان.وختم بقوله تعالى (إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان(١))
ونزل وصلى فى المحراب ، وافتتح ببسم الله من أم الكتاب . فائتم بتلك
الأمة ، وتم نزول الرحمة ، وكمل وصول النعمة ٥

ولما قضيت الصلاة انتشر الناس ، واشتهر الايناس ، وانعقد الاجماع
واطرد القياس . وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ، ليفرعه كبير .
فجلس عليه (زين الدين أبو الحسن على بن نجا(٢)) ، فذكّر من خاف ومن
رجا ، ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا ، وخوف بالحجة ذوى الحجا ،
وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا . وأتى بكل عظة ، للراقدين
موقظة ، وللظالمين محفظة ، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة .

وضج المتباكون ، وعج المتشاكون . ورقت القلوب ، وخفت الكروب
وتصاعدت النعرات ، وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون ، وأناب المتحوّبون ،
وصاح التوّابون ، وناح الأوّابون . وجرت حالات جلت ، وجلوات حامت ،
ودعوات علت ، وضراعات قبلت ، وفرص من الولاية الالهية انتهزت
وحصص من العناية الربانية احرزت .

وصلى السلطان فى قبة الصخرة ، والصفوف على سعة الصحن(٣) بها
متصلة ، والأمة إلى الله بدوام نصره مبتهلة ، والوجوه الموجهة إلى القبلة
علية مقبلة . والأيدى إلى الله مرفوعة ، والدعوات له(٤) مسموعة . ثم
رتب فى المسجد الأقصى خطيبا استمرت خطبته ، واستقرت نصبته .

---

(١) الآية ٩٠ سورة النحل .

(٢) زين الدين ، أبو الحسن ، على بن ابراهيم بن نجا ، ويعرف بابن نجيه ، الفقيه الحنبلى ، الواعظ ، أحب الوعظ واشتغل به ، فعرف به . اقتنى أموالا عظيمة حتى قيل أنه كان فى داره عشرون جارية للفراش ، وكان يقدم فى داره من الأطعمة الكثيرة الجيدة مالا يقدم إلا فى دور الملوك ، ومع هذا مات فقيرا سنة ٥٩٩ هـ ، فكفنه أصحابه (شذرات الذهب ج ٤ : ٣٤٠–٣٤١) و (الروضتين ج ٢ : ٣١٢ تحقيق د . محمد حلمى) و (النجوم الزاهرة ج ٦ ط . دار الكتب) .

(٣) الصحن : صحن الدار ، ساحتها ووسطها .

(٤) ساقطة فى أ (٥٨ ش) .

وأما الصخرة فقد كان الفرنج (١) قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا ، ولم يتركوا فيها للأيدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل ، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل . وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منصبة. وقالوا « محل قدم المسيح » وهو مقام التقديس والتسبيح » وكانت فيها صور الأنعام مثبتة فى الرخام . ورأيت فى تلك التصاوير أشباه الخنازير . والصخرة المقصودة المزورة ، بما عليها من الأبنية مستورة ، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة .

فأمر السلطان بكشف نقابها ، ورفع حجابها ، وحسر لثامها ، وقشر رخامها ، وكسر رجامها ، ونقض بنائها ، وفض غطائها . وابرازها للزائرين ، واظهارها للناظرين . ونزع لبوسها ، وزفاف عروسها . واخراج درها من الصدف ، واطلاع بدرها من السُدُف (٢) . وهدم سجنها ، وفك رهنها ، واراءة حسنها ، واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح ، وجلاء شرفها الصريح . وردها إلى الحالة الحالية ، والقيمة الغالية ، والرتبة العالية . وهى التى حلْيها عطل ، وعُطْلها حلْى ، وعريها كسوة وكسوتها عُرى.

فعادت كما كانت فى الزمن القديم ، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم ، وسيم بهاء حسنها الوسيم . وما كان يظهر منها قبل الفتح الاقطعة من تحتها ، قد أساء أهل الكفر فى نحتها . وظهرت الآن أحسن ظهور ، وسفرت أيمن سفور ، وأشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد ، والاعتناء بها إلى الآن كل يوم فى مزيد .

ورتب السلطان فى قبة الصخرة إماما من أحسن القراء تلاوة ، وأزينهم

---

(١) ساقطة فى أ (٥٨ ش) .

(٢) السدف : الظلمة أو الحجاب .

طلاوة . وأنداهم صوتا ، وأسماهم فى الديانة صيتا . وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر ، وأطيبهم فى العرف والنشر . وأغناه وأقناه ، وأولاه لما ولاه . ووقف عليه داراً وأرضا وبستانا ، وأسدى إليه معروفا داراً واحسانا.

وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات ؛ وربعات معظمات ؛ لا تزال بين أيدى الزائرين على كراسيها مرفوعة ، وعلى أسرتها موضوعة .

ورتب لهذه القبة خاصة ؛ وللبيت المقدس عامة ؛ قومة(١) لشمل مصالحها ضامة . فما ترتب إلا العارفون العاكفون ، القائمون بالعبادة الواقفون .

فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع ! وزهرت الشموع ! وبان الخشوع ! ودان الخضوع ! ودرت من المتقين الدموع ! واستعرت من العارفين الضلوع !

فهناك كل ولى يعبد ربه ويأمل بره ، وكل (أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره(٢)) وهناك كل من يحيى الليل ويقومه ، ويسمو بالحق ويسومه . وهناك كل من يختم القرآن ويرتله ، ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته لمعرفته الأسحار ، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأذكار .

وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زوارها ، وتلحف الشمس أنوارها ، وتحمل القلوب إليها أسرارها ، وتضع الجناة عندها أوزارها ، وتستهدى صبيحة كل يوم منها اسفارها ، وما أظهر من تولى اطهارها ! وأطهر من باشر إظهارها !

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها إلى قسطنطينية ، ونقلوا منها إلى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبا ، واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ؛ ظهرت مواضعها ؛ وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها ؛ فهى الآن مبرزة للعيون بحزها ، باقية على الأيام بعزها ، مصونة للاسلام فى خدرها وحرزها . وهذا كله تم بعد انفصال السلطان والشروع فى العمران .

---

(١) قومه : أى قائمون بأمرها .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب أشعث أغبر لا يوبه له لو أقسم على الله لأبره »

وأمر بترخيم محراب الأقصى ، وأن يبالغ فيه ويستقصى . وتنافس ملوك بنى أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة،وفيما يجمع لهم ود القلوب وشكر الألسنة . فما منهم إلاّ من أجمل وأحسن ، وفعل ما أمكن ، وجلا وبين . وحلا وزين . وأشفق وأنفق ، وأغنى وأقنى (١) ، واعتنى وابتنى . ووفى وأوفى ، وأصفى وأضفى .

وأتى (الملك العادل سيف الدين أبو بكر) بكل صنع بكر ، موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ، ورفد جزيل ، ومن جلىّ ومنح جليل . ومكرمة حميدة ، ومحمدة كريمة . وفضيلة بها ترجح ، ووسيلة بها (تنجح)

وأتى (الملك المظفر تقى الدين عمر) بكل ما عم به العرف وغمر ، ونهى وأمر ، وبنى وعمر . ومن جمله أفعاله المشكورة ، ومكرماته المشهورة ؛ أنه حضر يوما فى قبة الصخرة ، مع جماعة من السراة والأمرة(٢) ومعه من ماء الورد احمال ، ولأجل الصدقة والرفد مال . فانتهز فرصة هذه الفضيلة التى ابتكرها بالافتراص (٣) ، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص . ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ، ثم أتبع الماء بماء الورد صبّا حتى تعطرت . وكذلك طهر حيطانها ، وغسل جدرانها . ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت ، وتضوعت وتعرفت . وفغمت مناشق أهل الهدى ، وأرغمت آناف العدا .

وما زال مع قومه ؛ فى تطهير البقعة المباركة طول يومه ؛ حتى تيقنت طهارتها ؛ وبينت عمارتها ، وراقت نضارتها ، ووقفت عليها الاستحسان نظارتها . ثم فرق ذلك المال فيها على ذوى الاستحقاق ، وافتخر بأن فاق الكرام بالانفاق .

وجاء (الملك الأفضل نور الدين على) ؛ بكل نور جلى ، وكرم ملى ، واحسان سنى ، وانعام هنى ، وعَرف زكى ، وعُرف ذكى . وعطاء مبتدع ، وسخاء مخترع . وجود مبتكر ، ورفد معتبر . وآتى بكل ما خالد

---

(١) أغنى وأعطى .

(٢) أى العالمون بالأمر .

(٣) أى انتهاز الفرصة .

الأثر الحسن ، وأنطق بحمده الألسن . وبسط بها الصنيعة ، وفرش فيها البسط الرفيعة . وهدى وأهدى ، وأعاد بعد ما أبدى ، وأنار وأسدى . وأفاض الندى ، وفض الجدا(١) . ونفض الآكياس ، حتى خلنا به الانفاض والافلاس .

وسيأتى ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه ، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه ؛ ما لم يشق أحد فيه غباره ، ولاملك سابق فى مضماره .

وأما (الملك العزيز عثمان) ؛ فانه أتى بالاحسان الذى استظهر به الايمان . وذلك ؛ أنه لما عاد إلى مصر وقد شاهد الفتح والنصر ؛ ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ، ولم ير بعد حصولها به نقلها . وكانت أحمالا بأموال ، وأثقالا كجبال . وذخائر وافية ، وعددا واقية . ودروعا سوابغ ، ونصولا دوامغ . وخوذا وترائك ، ورماحات ونيازك(٢) . وقنا وقنابل ، وصواقل وذوابل . وجروخا وقسيًا ، ويمانيا وهنديا ويزنيا ، وردينيا ومشرفيا . وجفاتى وجنويات ، وطوارق(٣) وقنطاريات . ورانات(٤) حديد وزانات . وآلات وزيّارات(٥) وزراقات ، ونفّاطات وقطّاعات . وعدد النقوب ، وجميع أدوات الحروب . فاستظهرت بها المدينة ، وتوثقت بها عراها المتينة .

وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدّتهم ، ويخرجوا قبل أن يستوفى الباقون فى أداء القطيعة مدّتهم . فتوفرت بذلك عدد البلد ، واستغنى بذلك عما يصل من المدد .

---

(١) فض الجدا : فرق العطاء وقسمه .

(٢) نيازك : رماح قصيرة .

(٣) طوارق : جمع طارقه وهى الدرقة أو الترس (Buckler)

(٤) الران : كالخف إلا أنه لا قدم له وهو أطول منه .

(٥) زيارات : جمع زيارة ، نوع من القسى الرامية للسهام يذكر غالبا مع القسى الأخرى كالجرخ والعقار ولكنها أكبر منها وأضخم (مفرج الكروب ج ٢ : ٢٦٢ تحقيق د . الشيال) و (Dozy. Supp. Dict. Arabe) .

ذكر محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام
وتبطيل الكنائس وانشاء المدارس

وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى ؛ فانه فى حصن عند باب المدينة منيع ، وموضع عال رفيع . وهو الحصن الذى يقيم به الوالى ، فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى (١) . ورتب له إماما ، ومؤذنين وقواما . وهو مثابة الصالحين . ومزار الغادين والرائحين . فأحياه وجدده ، ونهج لقاصديه جدده (٢) . وأمر بعمارة جميع المساجد ، وصون المشاهد ، وانجاح المقاصد ؛ واصفاء الموارد ، للقاصد والوارد ؛ وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام ، وكان ينتابهما فيها الأنام .

وكان الملك العادل نازلا فى كنيسة صهيون ، وأجناده على بابها مخيمون ؛ وفاوض السلطان جلساوه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار ؛ فى مدرسة للفقهاء الشافعية ، ورباط للصلحاء الصوفية . فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة (٣) — عند باب أسباط . وعين دار البطرك وهى بقرب كنيسة قمامة — للرباط . ووقف عليهما وقوفا ، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفا ؛ وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف .

وأمر باغلاق أبواب كنيسة قمامة ، وحرم على النصارى زيارتها ولا الإلمامة . وتفاوض الناس عنده فيها ، فمنهم من أشار بهدم مبانيها . وتعفية آثارها ، وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها ، وازاحة أباطيلها ،

---

(١) أى المتغيرة المتقلبة .

(٢) الجدد : الطرق المختلفة والخطط تكون فى الجبال .

(٣) كنيسة صندحنة : هذه الكنيسة يقال أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام ، وقد صارت مدرسة أقامها صلاح الدين ، (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ٨٣ ط . المطبعة الحسنية ١٣٢٥ هـ) . ويبدو أن كلمة صند هى تحريف الكلمة الفرنسية saint بمعنى قديسه (المحقق) .

واطفاء قناديلها ، واعفاء أناجيلها ، واذهاب تساويلها (١) ، واكذاب اقاويلها .

وقالوا « إذا هدمت مبانيها ؛ وألحقت بأسافلها أعاليها ؛ ونبشت المقبرة وعفيت ؛ وأخمدت نيرانها وأطفيت ؛ ومحيت رسومها ونفيت ؛ وحرثت أرضها ؛ ودمر طولها وعرضها ؛ انقطعت عنها امداد الزوار ، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة ؛ استمرت الزيارة » .

وقال أكثر الناس « لا فائدة فى هدمها ولاهدها ، ولا يؤذن بصد أبواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها فى السماء؛ولما فتح أمير المؤمنين عمر — رضي الله عنه — القدس فى صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ، ولم يأمرهم بهدم البنيان » .

(١) لعل المؤلف أراد ، إذهاب الأباطيل التى يسولها الشيطان لهم .

ومما كتبته إلى الديوان العزيز مجده الله للبشرى بفتح القدس

مع الرسول ضياء الدين الشهرزورى (١) من رسالة

وقد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم ، والنصر العميم ، والعرف الجسيم ، والفضل الوسيم ، واليوم الأغر الأعز الكريم . والشرف الذى ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار ، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته ، وافتضاض عذرته ، وخص من أجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس إلى قدسه ، وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره ، وخرج قمر الهدى به من سراره (٢) ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس ، وأمنت المخلوف فيها وبها فصارت صباح السُّرى ومناخ التعريس (٣) . وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون الأقربون ، والملائكة المقربون . وخرس الناقوس بزجل المسبحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين .

وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلا ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه شملا . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت بألسنة عذبها (نصْرٌ من الله وفتحٌ قريب (٤)) . وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين . وبعُد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين . فذُكر بها ما كاد

(١) ضياء الدين الشهرزورى : هو القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم ، أبو الفضائل ، الشافعى ، كان فقيها فاضلا، جوادا كريما ، أديبا شاعرا ، توفى سنة ٥٩٩ هـ (ارجع إلى النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٨٣-١٨٤ ط . دار الكتب) .

(٢) السرار : الخفاء الشديد .

(٣) عرس القوم : نزلوا للاستراحة من السفر والمقصود ، الإقامة والاستراحة .

(٤) آية ١٣ سورة الصف .

ينسى من عهد المعراج النبوى ، وقامت بدلالتها براهين الاعجاز المحمدى . وصافحت الأيدى منها موضع القدم ، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها فى القدم .

فهو ثانى المسجدين ، بل ثالث الحرمين . فليُهنّ البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر ، واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر . وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس ، وتضوع أرج الرجاء فى أرجائه بعد الياس ، .

فالحمد لله الذى أبدل الايحاش بالايناس ، ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس . وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — على الأعصر مفضلا ، وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه ، فأصبح فخر الدين والدنيابه مكملا . ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها ، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها . ولقد حُل الكفر عُروة عروة ، وهُد ذُروة ذروة . وعادت حباله رثاثا ، وعقوده أنكاثا ، ومساكنه أجداثا ، وصار حديثاً بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثا .

فالرتاج (١) مستفتح ، والرجاء مستنجح . والبلاد مستخلصة ، والقيم الغوالى منها بسوم العوالى مسترخصة . والعقائل مقتضة ، والمعاقل منفضة ، ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضة ، ونجوم الرجوم (٢) على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضة . والثغور مبتسمة ، والأمور منتظمة ، والحصون متسلمة ، والخصوم مذعنة مستسلمة . وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها ، بل يستولى على أوساطها وأكنافها ، ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين ؛ وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة ، والموهبة وإن خصت هذا الاقليم فهى فى جميع أقاليم المسلمين عميمة .

ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ؛ ودلالة المكرمة ؛ لكبا قلم

---

(١) الرتاج ، الباب المغلق عليه باب صغير .

(٢) الرجوم : أى التى يرجم بها كالشهب — قال الله تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » سورة الملك » .

البليغ فى مضمار البيان ولم يبلغ مدى (قُلْ لوْ كان البحرُ مداداً لكلماتِ ربى لنفد البحرُ قبل أنْ تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمِثْله مدَدًا (١)) ، والقاضى ضياء الدين القاسم الشهرزورى ، قد توجه لهذه النعمة واصفا ، وعند ما يؤمر(٢)به من انهاء البشرى بها واقفا ، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تنى بشرح الصدور مصادر شرحه ، ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ما تسنى من فتحه . ويحدث وهو الضياء باسفار صبحه .

(١) الآية ١٠٩ سورة الكهف .

(٢) فى ب يأمر والتصحيح من ل .

عاد الحديث إلى ما جرى بعد فتح القدس

وأقام السلطان على القدس حتّى تسلم ما بقربها من حصون ، واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الأفضل قبله إلى عكاء عائدا ، وعن حوزتّها بيأسه وجوده ذائدا . ثم تبعه(١) الملك المظفر فرحل ، وسار إلى عكاء وبها نزل . ثم عمد السلطان إلى ما جمعه ففرقه ، وأخرجه فى ذوى الاستحقاق وأنفقه . وفرضه بعوارفه ، وفضه فى مصارفه . فسد خلة المعيل ، وأسهم منه ابن السبيل . وحمل به عن الغارم (٢) . وأحيا به سنن المكارم ووضعه فى أهله ، وأحله فى محله ، وصرفه فى حله . وقدم التوسعة على ذوى الاضاقة ، والانفاق فى أهل الفاقه . وأجنى الأجناد منه مقاطف ، وجعل للمجاهدين منه وظائف . وأبقاه بافنائه ذخرا للآخرة ، وكسبا للمحامد الفاخرة .

فأكثروا عذله(٣)على بذله ، واستكثروا ما فضه بفضله . فقال « كيف أمنع الحق مستحقيه ، وهذا الذى أنفقه هو الذى أبقيه ، وإذا قبله منى المستحق فالمنة له علىّ فيه . فانه يخلصنى من الأمانة ويطلقنى من وثاقها ، فان الذى فى يدى وديعة أحفظها لذوى استحقاقها » .

فما عاد الوفد الابوفر ودثر (٤) ، والافاضة فى نظْم منْ حمْده ونثْر : وحاز كل ذى فضيلة منه فضلا ، وتفيأ كل فئة من فيئْه ظلا . وكثْر السائلون بالفضائل ، والقائلون بالوسائل . والقاصدون بالقصائد،والوافدون بالفوائد ،

---

(١) فى أ (٦٣ ى) اتبعه .

(٢) الغارم : المثقل بالدين « وكذلك الذى أصابه اضطهاد ، وغرم فى سبيل الدين والوطن، قال تعالى ، « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (أوضح التفاسير لابن الخطيب : ١٦٠ الطبعة الخامسة) .

(٣) أى لومه .

(٤) أى كثير .

والواردون بالفوارد . والسابقون بالشوافع ، والشافعون بالسوابق : والسالكون للطرائق ، والمالكون للحقائق .

فما ترى الافارئا باللسان الفصيح ، وراويا للكتاب الصحيح . ومتكلما فى مسألة ، ومتفحصا عن مشكلة . ومُوردا لحديث نبوى ، وذاكرا لحكم مذهبى ، وسائلا عن لفظ لغوى . ومعنّى نحوى . أو مُقرضا بقريض ، أو معرضا بتصريح أو مصرحا بتعريض . أو جاليا لمدحه ، أو طالبا لمنحة : أو مستشهدا بفاقة ، أو مستسعفا بافاقة . أو ناشدا بنشيد ، أو مسمعا بتغريب وتغريد .

وما فيهم إلا من أحظى بسهم ، أو أرضى بقسم . وأصيب بنصيب وأجيب ، وأجيز بتقرير وتقريب : فقيل له « لو ذخرت هذا المال للمآل لشفيت به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال » ، فقال « أملى قوى من الله الكافل بنجح الآمال » وجمع الأسراء المطلقين ، وكانوا الوفا من المسلمين : فكساهم وأساهم ، وواساهم وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره ، ناجيا من ضرره ووضره (١) .

ومكث السلطان عليه مقيما ، للنظر فى مصالحه مستديما . فقيل « ما قعودك عن صور ؟ فأنهض إليها عسكرك المنصور . وأنت تدخلها يوم وصولك ، وتحظى منها بمرادك وسولك . فانو السير واحو الخير . واحصر الخبر ، واحظر التأخير . وفى تعجيل النهضة تحصيلها فى القبضة ، وفى بدار الإلمام بدارها بشرى أهلة الفتوح المقمرة بابدارها . فأسر بالعسكر وأسرع ، واقطع عن الكفر تلك الأعمال وأقطع » ؛

وأكثر من كان يستحثه ؛ وعلى النهوض يبعثه ؛ الأمير (على بن أحمد المعروف بالمشطوب (٢)) . وكان من أكابر الأمراءالكافين للخطوب، الكافين

---

(١) الوضر : وسخ الدسم ، أثر الطعام فى القصعة ، غسالة القصعة ونحوها .

(٢) الأمير سيف الدين المشطوب : هو على بن أحمد الهكارى ، ملك الهكارية ، والمشطوب شهرة كانت له من أثر طعنة فى وجهه ، كان شجاعا صابرا فى الحروب مطاعا فى قبيلته ، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر فى مراته الثلاث ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين ، توفى سنة ٥٨٨ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٧ ط . دار الكتب) (ومفرج الكروب ج ٢ تحقيق د. الشيال) .

فى الحروب . وكانت معه صيداء وبيروت وهما بقرب صور — وقد أشفق أن فتحها يفوت . فرأى الحظ فى الحض ، وحرض على الفرض ». ولم يفكر فى قوتها بانتقال رجال الساحل إليها ، وأنه يشق فى هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا ، وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا . وقد استجد قدامها من البحر إلى البحر خندقا ، وجعل الطريق إليها مضيقا . وأحكم أسباب الاحكام ، وأخذ بالحزم فى الاهتمام (١) .

(١) فى أ (٦٥ ى) بالاهتام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعْبان ، وقد عنا لأمره كل قاص ودان . وودعه ولده عزيز مصر فى أول منزلة ، وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة . ثم وصاه وشيعه ، واستصحب أخاه الملك العادل معه . مستظهرا بإخائه ، مستبشرا بآلائه ، مستبصرا بآرائه ، مستنصرا بمضائه ، مستغنيا بغنائه ، موقيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل ، وبشده يشد وبحلوله يحل . والعساكر بالفضاء فائضة ، وللخطوب الريضة رائضة ، وإلى استنهاض النصر لانصارها ناهضة ، ومن هواها أنها فى دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل إلى عكاء فى أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه . باهرا بتأخيره وتقديمه . قاهراً بشباه (١) المبير (٢) ، زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره ، ظاهرا فى بحره .

وأقام أياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخبر . والمشطوب يستعجله ولايمهله . ويحرض بالبعث ، ويحذر من المكث ، ويقول « الفرصة تدرك بالحث ، وتفوت باللبث » .. فسار لندائه ملبيا ، ولجيش النصر معبيا ولرأيه مقلدا ، وبالله — عز وجل — متأيدا . فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة بالجحافل المحتفلة ، والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سُورها ، سعيدا فى ترتيب أمورها . مضروبة قبابه ، مجنوبة عرابه . محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماوُه ، منشورة غاياته . منصورة آراوُه : خافقة على الأعداء عذبات عذابه ، دافقة فى ثرى النجح فى الأنحاء ثرات(٣) صوْب (٤) صوابه . قد كست خيامه عرى العراء ، وفضت أشعة بيضه

---

(١) الشبا : جمع شباة وهو قدر مايقطع به من السيف .

(٢) أى المهلك .

(٣) ثرات : قطرات المطر الواسعة الغزيرة .

(٤) : صوب : المطر ، والعطاء على التشبيه ، عدم الزوغان عن القصد يمينا وشمالا .

وسمره الفضة بالفضاء ، واحتوت مضاربه المضيئة بآلائه وآرائه على مضاربه المضاء ، وباحت استباحة حمى المشركين للموحدين بسر السراء .

فمكث أياما حتى تواصل المدد ، وتكامل العدد . واستحضر آلات الحصار ، واستكثر من المجانيق الصغار والكبار . ثم تقدم إليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس ، (فى خميس[1] يسير فى الوشيج[2] كالأسد فى الخيس [3]) [4]

ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس ، فوقع فى الدرديس[5] ، والعذاب البئيس . فكأنما نفخ فى صور (صور) : فحشر أهل جهنم وملأوا السور . واتصلت زيارة الزيارات للجروح بالجروخ وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ ، وأرسلت الحجارات حاجرة حاجزة ، وألسنة أهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزة .

وكانت صور على السوء مستوية ، وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا ، وعاجوا وعجوا ، ولجأوا[6] ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا ، وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا فى الجبال ، ومدوا فى الحبال . ورموا من الشرافات بالشرور والآفات . وساب الحجار حجاها وأمت الأمة وجاءها وجاها . فكم من رءوس أطارت ! ونفوس أبارت ! وبر خسفت ، وبدر كسفت ، وبحر نزفت ، وطود نسفت .

فحول السلطان إلى قربها له خيمة صغيرة ، وأنهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصف الجفاتى ، فصدف أتيها الآتى . وعارض بحرها بعرض بحره ، ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق فى نحره . فأحبط

---

(1) فى ل خمس غير أن المذكور أنسب للسياق والخميس هنا بمعنى الجيش

(2) الوشيج : أى الرماح والمقصود أنهم يسيرون حاملين رماحهم .

(3) الخيس : غابة الأسد .

(4) العبارة بين القوسين ساقطة فى أ (٦٦ ى) .

(5) الدرديس : الداهيه .

(6) فى ب ولجوا والتصحيح من ل ومن أ (٦٦ ى) .

أعمالهم بأعماله ، وأهبط رجالهم برجاله . وقابل الأبراج بالأبراج ، وحاول بالردى علاج الأعلاج . ووالاها حجارات وصخورا ، حتى جعلت سور صور سورا . وجد فى أمرها ، وأجاد فى حصرها .

ووصل إليه فى تلك الأيام من قوى به ظهر الاسلام ؛ ولده (الملك الظاهر غياث الدين غازى (١)) ، وهو الذى جل فى سماحته وحماسته عن المُوازن والمُوازى . فقدم مبارك القدم ، متدارك النعم ، عالى الهمم ، غالى القيم . ومعه عسكر مجْر لجب ، جلبه من حلب ، قد استصحب البيض والسمر والبيْض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب ، وأغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب . ورأى نصب خيمته وراء خيمة أبيه المنصوبة ، وجد فى استرجاع مدينة الاسلام المغصوبة . وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب ناجح ، لصُمّ الصفاح مصافح . وكل جانْدار جان در الردى للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار . وكل منجنيقى من جنانه تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخى رخى البال بالهدى لإصماء أهل الضلالة .

وكل رام رام النجم فى الافق فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه . وكل مقدام قرنه دام ؛ وكل ضرغام صريعه فى غرام . وكل قُمقام (٢) ضارب بصمصام (٣) ، وكل حام شارب بكأس حمام . وكل ذمر (٤) مشيح ، لذمار الكفر مبيح ، ولروح الجد مريح ، ولذماء (٥)

---

(١) الملك الظاهر غياث الدين غازى : هو أبو المنصور غازى بن صلاح الدين الأيوبى ، ولد بمصر سنة ٥٦٨ هـ وولاه أبوه سلطنة حلب فى حياته ، كان ملكا مهيبا ذا سياسة وفطنة ، حضر معظم الغزوات مع والده ، وكان ملجأ للغرباء ، وكهفا للفقراء ، مات سنة ٦١٣ هـ ودفن بحلب . (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢١٧ -٢١٨ ط . دار الكتب) .

(٢) قمقام : العدد الكثير .

(٣) صمصام : السيف الذى لا ينثنى .

(٤) ذمر : شجاع .

(٥) ذماء : أى الحركة .

المزاح مزيح . وكل فاتك لحبل الوريد باتك (١) ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم العداة سافك .

وكل شجاع إلى الموت داع ، وإلى المجد ساع ، وللاسلام راع ، وللاشراك ناع . وكل فارس للفوارس فارس ، وللذوابل فى النحور غارس ، وفى اليوم العابس غير عابس . وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر الناس بشجاعته ناج ، وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج . وكل عتال عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين ، وكل زائر للعدا بحين .

فاجتمعوا وزحفوا ، وجفوا على القوم ورجفوا . وأصموا وصمموا ، وأوقدوا نارا وأضرموا : وأطاروا من أعشاش الأقواس إلى أوكار الأحداق أفراخا ، واستصرخوا الأقدار لأقدارهم فجبتهم حين أجبتهم إصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق (٢) ، وأولوا الشقاء لأولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا ، وتطاولوا وما تقاصروا . وما فيهم إلا من أبان عن جد ، وأبان بجد . وألان الشديد ، وأعان السديد ، وأفلح ففلح الحديد بالحديد ، وجد الجديد ، ومد المديد .

وصور مرتجة أبوابها ، مرتجة أربابها ، مغتصة جوانبها ، مرتصة عصائبها ، مشحونة أبراجها ، مسجونة أعلاجها ، محصورة كلابها ، محسورة ذئابها ، محشورة ثعالبها ، محشودة كتائبها : والمركيس بها متجهم ، وابليس عليه متحكم . وقد سقط فى يده ، وسخط لبلده ، وارتبط بجلده ، واختلط بكمده . وغلت مراجل غلوائه ، وعدت غوائل عدوائه . وطاش وجاش ، وأوخش (٣) الأوباش والأوخاش (٤) . وتوشح بالشر وتوحش ، وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره ، وبعل بأمره ، وضرى بضره ، وجال بوجله فى مكر مكره ، وكر فى وكره . وعشا (٥) عشه ، وغشى غشه . وثبت على لجاجه ، ونبت فى أجاجه . وتسعر وتعسر ، وتربص وتصبر .

(١) باتك : قاطع .

(٢) الرقاق : السيوف .

(٣) أوخش : خلط .

(٤) الأوخاش : جمع وخش وهو الرذيل من الناس .

(٥) أى لزم موضعه .

والسلطان مصيب حكمه ، صائب سهمه ، ماض عزمه ، قاض حزمه ، بار حده ، جار جده ، وار زنده ، سار وفده (١) . باتك غربه ، فاتك ضربه . قاطع شبا باسه ، ساطع سنى ايناسه . قد اتسقت أسبابه ، واتسعت رحابه ، واجتمع أصحابه . فازدحم على بابه ؛ وحول قبابه ؛ كل مبارز بار ، وكل ضارب ضار ، وكل حجار جار . وكل رامح ورام ، وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف ، وكل عاصف قاصف .

وكل آكل للحرب شارب ، وكل طالع بالضرب غارب (٢) . وكل هاجم هائج ، وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد ، وكل مجرب مجرد . وكل ذكر مذكور ، وكل غضنفر مشكور . وكل ليث ملاث (٣) وكل غيث غياث ، وكل سفاك لدم الكفر سفاح ، وكل جرّاد لسيف الفتك جراح . وكل مكتتم فى درعه ، مكتمن فى نقعه . ملثم بزغفه ، مثلم بحرفه . مقنع بلأمه ، ملفع بقتامه . سابح فى بحر الموت بسابحه ، سامع فى الصباح صوت صائحه .

فجمع إليه أمراءه ؛ واستحضر عظماء ملكه وخبراءه . وقالوا « هذا بلد حصين ، ومكانه من الأرض مكين . فى البحر ثلاثة أرباعه ، وفى السماء ارتفاع يفاعه . وطريقه الذى يسلك من البر إليه ، قد أحاط به البحر من جانبيه . وقد قطعوه بخندق فى عرضه ، وعمقوه ونزلوا فى أرضه . وكان من احكام الحزم ؛ وإتمام العزم ؛ تكميل الآلات وتتميمها ، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتأليفها ، وتقريب الجفاتى والجنويات وتصفيفها ، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها ، وتنحية أثقال العسكر وتخفيفها ، وتنخية (٤) نُخب الرجال وتصريفها . وتسنية الأسباب ، وتهيئة الأخشاب . واستحضار كل ما يراد للحصار ؛ واستنفار كل ما يرام من الأنصار .

---

(١) فى أ (٦٨ ى) رفده .

(٢) غارب : أى ذو حدة ونشاط .

(٣) الملاث : السيد الشريف يطاف ويلاذ به ، فعله ألاث .

(٤) ملح .

فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياع ، وتيسرت وتوفرت الأصول والأتباع ، رحب الذرع فى الحصر والمضايقة وطال الباع ، وإذا حالت الأحوال وضاعت الأوضاع ؛ اختل واعتل النزال والنزاع » .

وأمر السلطان بازاحة العلل ، وإزالة الخلل ، وشغل الصناع بالعمل ، ، ونقل الأمل إلى طريق الأجل . وتقدم بقطع أشجار الغياض (١) ، وحمل ما بتلك النواحى من الأنقاض . فاجتمع هناك كل ألة (٢) وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقبض ، ومجرب ومحرب . وسهم وشهم ، وشُهب ودُهم . وأحمال وأثقال . ونظمت الستائر (٣) من القضيب ، وصفت من سور صور بالمكان القريب . وكمت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتى قدامها الرماة . واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه . فمن جان بمنجنيق ، ودان إلى نيق . وداب بدبابة ، وذاب بذبابة . ونازع فى حنية ، وناز بمنية . وقاذف بشرارة ، وحاذف بحجارة ، وهاتك من ستارة ، وفاتك بجسارة . وجاذب فى حبال ، وجالب لوبال . ومُروّ فى قلع ومسوّ لمقلاع ، ومدبرّ بايجاف (٤) ومدمّر بايجاع .

ولم تزل المنجنيقات ترمى ، والحجارات تدمر وتدمى ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروخ ، وأطباق البرج تُبنى وتغطى بالسلوخ حتى امتد الزمان ، واشتد الحران (٥) . وضاق الحصر ، واعتاق النصر . وكان العسكر قد ألف تيسّر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين

---

(١) الغياض : جمع غيضة وهى الأجمة أو مجتمع الشجر فى مغيض الماء .

(٢) ألة : الحربة ، أو جميع أدوات الحرب .

(٣) الستائر : جمع ستارة ، وهى من أهم معدات القتال عند المسلمين فى القرون الوسطى ، وكانت تعمل من الجلود أو اللبود المبللة بالخل والشبه والنطرون وكانت تتخذ لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط واستعملت بوجه خاص لحماية آلات الحرب التى كانت تصنع من الخشب ، وكذلك لحماية الأبراج والسفن الحربية (مفرج الكروب ج ٢ : ٢٠٣ تحقيق د . الشيال) عن آثار الأول للحسن بن عبد الله) .

(٤) أوجف الشيء : حوله وصيره يضطرب .

(٥) حرنت الدابة حرانا : أى استدر جريها فوقفت .

صعب ، وتبع هواه لما تعب . ولم يألف الناس إلا إرواء ظمائهم بنهلة ، والحصول على أكساب سهلة ، وفتح ما يقصدونه من البلاد بغير مهلة .

فلما توقف هذا الفتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأففوا . والسلطان مع ذلك يزداد فى حدّه حدة ، وفى شدّه شدّة ، وفى جده جدّة . يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ، ويقول « إن الله أمر بالمصابرة ، ولا مصابرة إلا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا ، وصابروا تفتحوا » .

ذكر ما تم على الأسطول

وكان السلطان قد نفذ من صور ، وأحضر إليها من عكاء ما كان بها من مراكب الأسطول المنصور . فوصلت منها عشر شوان، على العدا جوان، وللردى لهم جوان . فعمرها بالرجال ، وجهزها للقتال . واتصلت بها مراكب لنا من بيروت وجُبيْل ، فاستشعر المركيس وأشياعه منها الويل . وعمروا لهم مراكب ، ورفعوا بها مناكب .

وسفننا بالساحل عندنا مربوطة ، وبحفْظنا مضبوطة محوطة . ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريها ، وتجرى سواربها (١) ، وتسرى جواريها ، وتطير للقنص بزاتها ، وتغير للفرس غزاتها . وتكسر بكواسرها وتدور بدوائرها . وتلاطم الأمواج بأمواجها ، وتزاحم الأثباج بأثباجها . وترفع شرع الهداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواة بأقلاعها . وتنقض على شياطين الكفر شهبها ، وترفض بشآبيب (٢) الذعر سحبها .

فكأنها الأساود السود ، ركبتها الأسود . من كل أفعوان يحمله أفعوان(٣) ، وشجاع امتطته شجعان ، وغراب بشتات العدا ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق . فيالها من أغربة دارت بعقبان ، وأجنحة طارت بظلمان . (٤) ورواس سوار ، وغواز بغوار . وقد ملئت برماة الحدق (٥) ، وحماة الحلق . وزراق النار ، وطراق الثار . والخاطفين بالخطاطيف ، والقاذفين بالمقاذيف . والكالمين بالكلاليب (٦)، والسالبين بالأساليب ، والحاربين

---

(١) السوارب : جمع سربة وهى القطيع والجماعة من الخيل وغيرها .

(٢) شآبيب : جمع شؤبوب ، والمقصود شدة اندفاع الشيء .

(٣) الأفعوان : ذكر الأفعى .

(٤) ظلمان : واحدها ظليم وهو ذكر النعام .

(٥) أى المهرة فى النضال والرمى .

(٦) الكلاليب : جمع كلاب أو كلوب ، وهى المهماز أو الحديدة التى على خف رائض الخيل أو راكبها .

بالمحاريب . والراجمين بالرجام(١) ، والمعلمين على الأعلام .

فانشقت مرائر الفرنج ، وأزاحت سفنها عن النهج . وقرنصت بُزاة البيزانية ، وتقلصت جناة الجنوية(٢) . وكرثت أدواء الداوية ، وكثرت أسواء الاسبتارية ، وزادت آلام الألمانية ، وعادت أسقام الافرنسيسية . وصارت مراكبهم فى المينا لا تبين ، وشدّتهم بشدّ شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهم السفن ، فلو خرجت كانت جبالا نسفن .

وأنس أصحابنا بعلوّ الأمر ، وخلوّ البحر . وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف . ودام تطوافهم ، واستقام ايجافهم . واغتروا بالسلامة، وسروا بالاستقامة . وباتت لنا شوان خمس ، لها بزوال الوحشة أنس . وربطت بقرب ميناء صور راصدة ، ولأخذ ما يخرج من شوانيها قاصدة . والدياجى مدلهمة ، والدواهى ملتمة . وعيون الزُهر راقدة ، وعيون الكفر ساهدة . وللمكايد مصايد ، وللعوادى عوائد ، وللغوائل طوائل ، وللمسائل دلائل وللمقادير مقاد ، ولأولئك المرّاد مراد .

فحفظ أصحابنا إلى السحر الحرس ، وسهروا إلى أن شارفوا الغلس ، وكل منهم لما استأنس نعس ، وغاص فى النوم وما تنفس . فما انتبهوا إلا وسفن الفرنج بهم محدقة ، ونيرانهم محرقة . فولجوا فى البحر والتجوا ، وتطافروا (٣) إلى الماء لينجوا . وعدت العداة ، وأخذت تلك الشوانى الشناة . وأسروا منها عدة ، ولقى الباقون شدة .

فاغتم السلطان بسبب هذه النكبة ، وفرح الكفار بتلك الضربة . وكانت تلك أولى حادثه كرثت وكارثة حدثت . ونائبة رابت ، ورائبة(٤) نابت . فضاقت القلوب ، وضافت الكروب . وحصلت تجربة الغارين، واتصلت حركة الفارين . واستيقظ الناعس ، واستوحش الآنس . وهب الراقد ، ودب الراكد . وذاب الجامد ، وشب الخامد . وهاج الزائر ، وماج الزاخر .

(١) الرجام : جمع رجمة وهى الحجارة التى تنصب على القبر كعلامة ، ورجم القبر علمه أو وضع عليه الرجام .

(٢) الجنوية : هم أهل جنوا بايطاليا .

(٣) أى قفزوا .

(٤) يقال « راب دمه » أى حان هلاكه ، والرائبة هنا بمعنى نازلة .

وتحرك الساكن ، وتورّك(١) الراكن . وعقل من غفل ، وذهن من ذهل ؛ وتيقظ من غفا ، وتحفظ من هفا . وتقبض من انبسط ، وتقيد من نشط ، ووهم من عف ، وألم من كف .

ورجفت الآفاق بالمرجفين ، وطالت ألسنة المعنفين . فمنهم من يؤنب ويذنب ، ومنهم من يقول ويطنب ، والعاقل يتجنب ، ويقيم العذر لمن يذنب ويقول « هذه من الله موعظة ، وآية لنا موقظة » .

وأشار الناس بانفاذ الشواني البواقي ، وقطعوا بأن هذه القطع لا تكفى للاقاة من يلاقى . فجهزوها نهارا ، وصيروا سرها جهارا . وأمروا بتسييرها إلى بيروت ، ورجوا أن تسبق وتفوت. وركب العسكر فى الساحل يباريها ، وهى بالقرب تجاريه فى البحر وهو فى البر يجاريها . فأبصر ملاحوها شوانى الفرنج لمبارزتها مبرزة ، وللاجهاز وراءها مجهزة .

وكانوا رجالا من بحرية مصر مجمعة ، وأصبحت قلوبهم بما جرى على أنظارهم مروعة . فتواقعوا إلى الماء ، وخافوا على دمائهم فى الدأماء . وخرجوا إلى البر على وجوههم ، وخافوا مكرهم فى مكروههم . وفروا وفاروا ، وطاروا وثاروا . ولم يلفت أحد منهم ليتا(٢) ولم يزدهم دعاؤهم إلى التجمع الا تشتيتا .

فظهر بهذه النوبة الواقعة ، والنبوة الرائعة ، أن نواب مصر لم يجر منهم بالأسطول احتفال ، ولم يرتب فيه على ما يراد رجال . وإنما حشدوا إليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة ، ومستضعفة غير آلفة ولا مألوفة . فلاجرم لما شاهدوا الروع ارتاعوا ، ولما أُزموا بالطاعة ما استطاعوا .

وكان فى جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس (جُبيْل) كأنها جُبيْل ، وفيها بحرية مزذوى التجربة والتجرى والتجرية مالها جبن ولا ميْل . فقاتل بأسلحة الدفاع ؛ وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات ، وهيهات أن يدرك هيهات . فنجا النجباء ، وآب بهم الاباء . فقيت المراكب الباقية

(١) أى اعتمد على وركه .

(٢) الليت : هى صفحة العنق .

وقد أخلاها حماتها الواقية . فرفعناها إلى البر ، ورأينا الصحة منها فى الكسر . وفرغنا من شغل المراكب فى البحر .

هذا والمنجنيقات ترميهم ، والمفوّقات(١) الموفّقات تعميهم وتصميهم . والقتال قائم ، والنزال دائم. والصخور تفلق ، والصدور تقلق . والأحجار تقلقل ، والأسوار تحلحل . والأطواد تضعضع ، والأبراج القيام تسجد وتركع . والأصلاد تقدح ، والأجلاد تقرح . والألواح تصدع ، والأرواح تودع . والحدود لشفاه الشفار ملثومة ، والحدود بضراب الأضراب مثلومة. والجروح بين أكفاء الكفاح مقسومة ، والقروح بها قوارح القوارع موسومة .

والحنايا واترة موترة ، والمنايا مأثورة موثِّرة . وظعائن الضغائن تُحدى بصليل البواتر ، وصهيل الضوامر . وحقوق الحقود تقتضى بألسنة الأسنة وعنت الأعنة من الغريم الكافر . والأوداج شاخبة كالعيون البواكى ، والأبشار دامية من الزنْبوركات(٢) والناوكات(٣) النواكى . وهناك العقل معزول بالتهور ، والرأى مشغول عن التدبر . والعلْم والحلْم خالطهما الجهل والسفاه،والجرخى يبتدىء ببسم الله ، والمنجنيق يختم بلا اله إلا الله . والزراق بالنار يطيب القارورة ، ويحرق الساتورة ، والسباق إلى المضمار يساور السور ويباشر الباشورة .

---

(١) فوق السهم ، وضع فوقته فى الوتر . وفوق الرجل السهم ، جعل له فوقا والمقصود هنا السهام .

(٢) الزنبوركات : جمع زنبورك وهو نوع من السهام فى سمك الابهام وطول الذراع ، ذو أوجه أربعة وطرف حديدى ، وهو مريش ليكون فى انطلاقه أكثر ثباتا) (Dozy. Supp. Dici. Arabe) (و) مفرج الكروب ج ٢ تحقيق د . الشيال) .

(٣) ناوكات : جمع ناوك وهو لفظ فارسى الأصل معناه : السهم الصغير (معجم الألفاظ الفارسية للدكتور محمد مرسى هنداوى : ٣٢١) .

ذكر خروج الفرنج للقتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة ، وظنوا فينا الفتور لأجل تلك الفترة ؛ وقالوا « مراكبهم انحل تركيبها ، وكتائبهم اختل ترتيبها ، وستجرى بها عنا الندامة التى يحدثها تجريبها . وهم الآن على صوت لهم مخيف ، وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدنا عنهم ، ولا وجه لتباعدنا منهم . فلو خرجنا صدمناهم ، وأقدمنا عليهم وهزمناهم » .

وخرجوا يوما قبل العصر ، فى عدة كالليل خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلأموا ، وانضموا وانتظموا وتقدموا ، وأقدموا للطوارق حاملين . وللجمالات(١) مطرقين ، وعلى الفرق مجتمعين وللجماعات مفرقين ، وبالرهق(٢) جادين وبالجد مرهقين . وللعقود حالين ، ومن الغمود سالين . وللمناصل(٣) منتضين(٤) ، وللطوائل(٥) مقتضين ، وللسيوف مجردين ، وللسيول مجرين ، وبالزغف(٦) ماتثمين ، وفى الحتف مقتحمين . وبالقنطاريات طائرين ، وبالزيارات زائرين .

من كل مغوار وار ، ومحضار ضار ، وفجار جار ، وجبار بار . وعدو عنود(٧) ، وكند كنود(٨) . وداوى ذى دوى ، وباورنى غوى . ومن كل مصمم اذا وتر ، مُصْمٍ(٩) اذا أوتر ، مصمّ إذا نعر ، مصر اذا

---

(١) الجمالات : جمع جمالة وهو الحبل الغليظ .

(٢) الرهق : الاثم ، خفة العقل ، الجهل .

(٣) أى السيوف .

(٤) منتضين . فعله انتضى : أى رفع .

(٥) الطوائل : جمع طائل وطائلة ، يقال بينهم طائلة أى عداوة والمعنى أنهم للعداوات مستوجبين .

(٦) الزغف : الدرع الواسعة الطويلة .

(٧) العنود : هو المخالف للحق وهو عارف به .

(٨) كافر بالنعمة جحود .

(٩) مصم : أفعله أصمى ، والمقصود هنا أنه رام يصيب هدفه قاتل لصيده .

ذعر ، هائج اذا استعر ، مائج اذا ذخر ، متنمر اذا زأر ، متذمر اذا زحر. فتناوبوا وتواثبوا ، وتجاولوا وتجاوبوا . ودنوا من متارس المنجنيقات، وجنوا من مغارس الجنويات . وبنوا أمرهم على أن الناس ناسون غارون ، وأن أهل البأس فى خيمهم هاجمون قارون .

فتلقاهم منا كل ضارب للهام ، ضار بالحمام ، جار إلى الإقدام . ملب للصوت ، محب للموت . مشتهر بالغناء ، مشته للقاء ، مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضى ، متقاض بالقواضب القواضى . وكل أبيض بالبيض ضراب وللبيْض رضاض ، وأغلب للمغلب قضقاض(١) ، والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه ، معتقد مراحه . مهتز لطرب الشهادة ، معتز بأرب السعادة . متمن للمنون ، متجن على الجنون . مضرم نار الحديد فى ماء الوريد ، مغرم فى تفريق العدا بجمع العديد . مفرغ ماء الظبا على نار النجيع ، مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثم باللام ، وتلفع باللثام . وتقنع بالزرد ، وتدرع بالجلد . وتجوشن(٢) بالصبر ، وتخشن بالزبر(٣) وصال بالقضب ، وجال بالهضب . وطال بالهندى على الفرنجى ، وخاض من دم الشرك فى البحر اللجى .

فلم يسمع الا أنين الحنية ، لحنين المنية ، ورنين الأوتار ، من كنين(٤) الأوتار . وهفيف السهام لذفيف(٥) الهام . وصليل بنات الغمود ، من غليل أبناء الحقود . وهمهمة الأبطال ، وغمغمة الأقتال . وزئير الضرغام ، وزفير الضرام. وقرع الظبا بالظبا ، ووقع الشبا على الشبا . وضجة الحديد من الحديد ، وعجة الشديد من الشديد . وجعجعة رحى الحرب ، وقعقعة أداة الطعن والضرب . وجرجرة الفحـول ، وزمجرة الذحـول(٦) ، وهدير حمام الحمام ، وهدير قروم الإقدام . ووعوعة ذئاب الوغى

---

(١) قضقاض : أى ممزق كاسر لعدوه . يقال قضقض الأسد فريسته أى كسرها ومزقها .

(٢) تدرع .

(٣) الزبر : بفتح الزاى وسكون الباء : الصبر ، والعقل الذى ينهى .

(٤) مستور .

(٥) الذفيف : الاهلاك ، ذف الطاعون فلانا أى أهلكه .

(٦) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر أو العداوة أو الحقد .

ومعمعة التهاب اللظى . ودعدعة صـــاع المصاع(١) ، وجلجلة سباع القراع . وصلصلة الزبر(٢) ، وولولة الزمر . وحيعلة دعاة النصر ، وهيضلة(٣) رعاة الكفر .

ورفرفة المريشات(٤) الراشقة . وهسهسة الطعنات الفاهقة . وهزهزة أعطاف المران ، وزهزهة أصوات الشجعان . ونعير الغالبين ، وصخب السالبين ، ولجب الجالبين ، وزجير الطالبين . ونهيت الأسود ، وقصيف الرعـود . وهدة الأركان ، ودهدهة الرعان(٥) ، وقهقهة الأقران . وقرقرة كم الكماة ،وصرصرة بزاة الغزاة . وكشيش(٦) صلال الضلال ، ونشيش مراجل الرجال . وهزيز ريح الباس ، وهزيم رعد المراس . وإرنان المعاجس(٧) ، وارزام القناعس(٨) . وهيعة(٩) الصارخ ، وصيحة النافخ . وزعقة المستفزع ، ونعقة المستنزع . وشعشعة الخرصان ، وزهزمة النيران . وهينمة الأجل ، وجمجمة الزجل . وتكبير المؤمنين ، وتهليل المؤمّنين . وصرير أبواب الجنان للشهداء ، وصريف أنياب الجنّان(١٠) للأعداء ، والدعاء الى اللقاء ، والنداء الى الارداء . وارتفعت الأصوات ، واشتبهت الأحياء والأموات . ووقع أصحابنا فيهم وقوع النار فى الحطب ، وأروهم فى مرايا البيض وجوه العطب ، وولوا مدبرين ، بعد ماتولوا مدبّرين .

---

(١) القتال والمجالدة .

(٢) الزبر : جمع زبره : قطعة الحديد .

(٣) أصوات .

(٤) السهام المريشه .

(٥) الرعان : جمع رعن وهو الجبل الطويل أو أنف الجبل . والدهدهة : الدحرجة .

(٦) كشيش : صوت الأفعى من جلدها ، والمعنى فى العبارة مستعار من ذلك .

(٧) المعاجس : جمع معجس وهو مقبض القوس .

(٨) أرزام : غضب . والقناعس : جمع قنعاس وهو الرجل الشديد المنيع أو العظيم الخلق .

(٩) صوت مفزع .

(١٠) الجن .

وجنودنا تشلهم ، وحدودنا تفلهم . ولتوتنا(١) ترضهم ، ونيوثنا تفضهم . وعادوا إلى البلد ، عادمى الجلد . وفيهم ندوب وعليهم نوادب ، وأيدى الردى بهم لواعب ومنهم لواغب . ودخل الليل ، وعمهم الويل . وأسرنا منهم مقدمين ، ثبتوا على الموت مقدمين .

وممن أسر فخسر قومص عظيم ، بل شيطان رجيم . فترك فى قيد الاسار ، ليكشف عن حاله بالنهار ، وكان (الملك الظاهر غازى) لم يحضر فيما تقدم من المغازى . فرأى أن يحقق اسمه بقتله ، فضرب عنقه بحد نصله . وكان للمركيس شبيها ، وفى الفرنج وجيها . فظنوا أنه هو للشبه ، وبات أهل الكفر بالعمى والعمه . ثم عُرف أن المركيس فى نفسه لم ينكأ ولم ينكب ، ولما عطب أشياعه لم يعطب ، وندم على ما قدم ، ومن تقدم على غرة تندم .

---

(١) لتوت : جمع لت وهو القدوم أو الفأس الكبيرة .

ولما امتنع البلد ، وارتدع الجلد ، وارتتج العدو ولج ، ضجر العسكر وضج . واجتمع أمراء يحبون الافلات ، ولا يكرهون الفوات .

وقالوا « مُطاولة ما نقصر عنه تُتعب ، ومزاولة مالا يزول تصّعب . ومحاولة الممتنع محال ، ومطال غريم هذا الفتح مُطال ، وما يتسع لنا فى هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان جاهد على المصابرة ، مجد فى المكابرة . لا يكترث بالكارث ، ولا يدخل سمعه حديث الحادث . ولا يبالى بمن بلى ، ولا يفكر فيمن ولىّ أو ولى . ولا راحة له إلاّ فى التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة إلاّ من النصب . وكل ما جرى إلى اليوم منا ومن القوم لم يرعه ولم يردعه ، وقد قيل : إذا لم تستطع شيئا فدعه . فكيف السبيل إلى استعطافه ؟ ، وما التدبير فى استسعافه ؟ . وبم نتوسل ونتوصل ؟ وإذا عرفناه أن الداء يعضل ، والخطب يشكل ، لعله يجتُوى(١) الاقامة ويرحل » .

فاطلع على ما أسروه ، ومر به ما أمروه . وأهمه ما به هموا ، وآلمه ما به ألموّا . فراسلهم بالهبات ، وواصلهم بالصلات . ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ، ووعدهم بكل ما على أملهم أوفى .

وقال لهم : « كيف نخلى هذا المكان ، وما استفرغنا فى شغله الإمكان . وما استنفدنا فى مضايقته الوسع ، ولا أحسنا بعد فى محاصرته الصنع ، ولا زحف إليه الجمع ، ولا حفز منه المنع . ولا أصابنا من مكسّر أهله مكروه ولا ورْد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفّوه . وكيف تجرى بنا الحيل عنه قبل التجريب ، وهذا الأرب ما يخطر بخاطر الأريب . وما عذرنا إلى الله وإلى المسلمين إذا تركناه ، وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما أدركناه . (والفرصة إذا فاتت لا تدرك ، والبغية إذا واتت فحقها تملك) . ونواظر الناس إلى ما سيكون منا فى صور صور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها إلاّ نور . (ومن لا يتعب لا يستريح ، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح) . وان

---

(١) يجتوى : يكره الإقامة فى البلد .

نجدّوا تجدوا ، وان تردّوا على المنهل العدى تردوا . وان تصبروا تصيبوا ، فارجعوا إلى الله وأنيبوا . وهذا الرجل متواصل ، والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها ، ونلزم كُلاًّ منهم ملازمة البقعة التى هو بها ، وهذا البرج قد ارتفع ، والوسع قد اتسع . وقد امتلأت بالرجال طبقاته ، وتوالت منها فى الكفر رشقاته ، والنصر قد آن أن تطيب نشقاته ، والمركيس أبعده الله — قد قرب أن تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح ، لا التطاول إلى الرواح . وفى التثبت على المقام ، التوثب على المرام » .

ثم أخرج المال وصبه من أكياسه ، وفرقه على ناسه ، وأنفقه فى أهل باسه ، وواصل البذل ، وهجر العذل . وملأ الأيدى بالغنى ، وروج للرجاء نجح المنى . وأمر فامتثل ، وقال فقبل . ونادى فسمع ، وحشر فجمع . وعادت عادة الحصار ، وأسعدت سعادة الأنصار .

ذكر فتح حصن هُونين(١)

وورد الخبر عن هونين أنها هانت ، ودنا أمرها ودانت ، وأن طريق فتحها بانت ، وأنها عنت فإن(٢) ألطاف الله أعانت ، وأنها بذلت ماصانت ، ولم تبق للكفر على ما كانت ، وأن شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض أمرائه ، وأمده بمددئ جنده وعطائه . فلبث(٣) إلى هذه الغاية ، يصميها بسهام النكاية . حتى طلب أهلها الأمان على الوفاء بما يشترطون ، ويشطون منها ولا يشتطون ، فأول ماقالوا « أمهلونا حتى نعلم ما يكون من صور ، ونكشف هذه الأمور ، فان أخذتموها أخذتم هذه ، وشفعنا أمر السلطان بنفاذه . وان خليتموها فياهوان هونين ! . ونحن نجعل على هذا عدة من الأصحاب مرهونين » .

فندب السلطان (بدر الدين دلدرم الياروقى) وهو من أكابر عظمائه ، وأكارم أمرائه ؛ وأمره باستنزالهم واستذلالهم(٤) ، والأمان لنسائهم ورجالهم . فمضى ورغبهم فى الأمن والسلامة ، وخوفهم عقبى الحسرة والندامة . وقال لهم « أنتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون إذا خاب رجاؤكم وبان الياس . وإذا أبيتم التسليم عدمتم سلامتكم ، وأقمتم قيامتكم ، واستباحكم السلطان واستباكم ، وكرهكم وأباكم ، وحل بالقتل حباكم(٥) ، وفل شباكم » .

فما زال يغرب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا ، وأخذوا الأمان على أن

(١) هونين : بلدة فى جبال عاملة تطل على نواحى مصر القريبة منها (ياقوت ج ٢٠ : ٤٢٠ : ط . ب) .

(٢) فى أ (٧٧ ى) وأن .

(٣) فى أ (٧٧ ى) ولبث .

(٤) فى ب استزلا لهم والتصحيح من ل ومن أ (٧٧ ش) .

(٥) الحبوة وجمعها حبى بضم أو كسر الحاء ، ما يحتبى به أى يشتمل به من ثوب أو عمامة والمعنى هنا أنه حل بالقتل كل ما احتبيتم به .

يذهبوا . ووصل الخبر إلى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم ، ولمقاتلة أهلها مستديم ، وإلى ما عند الله من نصره مستنيم . وتُسلمت هونين بما فيها من عدة وذخيرة ، وقوة وميرة ، وآلات وأدوات كثيرة . وتسلمها (بيرم) أخو صاحب بانياس ، واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التى تعذر فتحها ؛ وبرح بالقلوب برحها ؛ من عمل صيداء : قلعة أبى الحسن وشقيف أرنون[١] ، ومن عمل طبرية والغور : صفد[٢] وكوكب[٣] — وهما من أحكم الحصون . وقد وكل بهما أميرين ، من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج[٤] ، ومنعا من الدخول والخروج .

وأقام السلطان على صور محاصرا ، وللدين الحنيف ناصرا ، وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح ؛ ويقابلها بكل كفاح ؛ حتى كادت تستكين ، وشدتّها تلين ، وأبيتها تدين ، وسريرها يبين .

وكان قد دخل كانون[٥] ، وظهر من سر الشتاء المكنون . وقبض البرد الأيدى عن الانبساط ، وأعدم الهمم دواعى النشاط . وعادت العزائم المتوهجة تبرد ، والصرائم[٦] المتأججة تخمد[٧] . والنخوات المتحركة تجمد ، والحميات المتيقظة ترقد . والضرام المحتدم يخبو ، والحسام المخذم ينبو . والطباع تتكره ، والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختل ، ومعاقدة النزال تنحل . فلحاهم[٨] السلطان على ما لاح ، وعرفهم أن فى الصبر

(١) شقيف أرنون : قلعة حصينة جدا فى كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل (ياقوت ١٢ : ٣٥٦ ط . ب) .

(٢) صفد : مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهى من جبال لبنان (ياقوت ج ١٢ : ٤١٢ ط . ب) .

(٣) كوكب : اسم لقلعة حصينة على الجبل المطل على طبرية ، مشرفة على الأردن (ياقوت ج ١٦ : ٢٩٤ ط . ب .)

(٤) العلوج : جمع علج وهو الكافر .

(٥) كانون : ديسمبر .

(٦) الصرائم : جمع صريمة وهى العزيمة .

(٧) فى ب يخلم والتصحيح من ل .

(٨) لحاهم : قبحهم واستنكر فعلهم وقولهم .

الفلاح . وأمرهم بالمقام والاستقامة على الأمر ، وأنه لا ظفر إلا مع الصبر ، وأن الظلم تنجلى عند تجلى الفجر .

وكان فى الأمراء جماعة منتخبون منتخون ، أبت أماناتهم فى حمية الدين أن يخون . مقيمون على الكريهة ولا كراهة منهم للمقام ، ويحبون أن تقام وظيفة الانتقام . ويؤثرون بأنفسهم فى طاعة الله وموافقة السلطان، وعصيان الشيطان فى مفارقة المكان . فاذا أرجف بالرحيل رجفوا ، وسخفوا رأى المشير به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا ، وتذمموا وتلوموا .

وقالوا « كيف نترك ما حويناه ، ونعوج ما سويناه ، وننشر كفرا طويناه ، ونهجر خيرا نويناه . ونداوى توحيدا شفيناه ، ونشفى اشراكا أدويناه . وما للراحة اليوم طالب ؛ إلا وهو غدا بالتعب مطلوب . ومن أمسى وهو الآن غالب ، يوشك إذا ولى أن يصبح وهو مغلوب . وهذه صورة صور قد تشوهت ، وموارد قوتها شفهت ، وإذا تخلينا عنها وخليناها ترفهت واستفرهت(١) ، وإذا حلمنا عنها سفهت ، وهبت من غشية خشيتها وتنبهت . وتارك المصابرة مصاب ، والآخذ بالمثابرة مثاب » .

فمنهم الأمير طُمان بن غازى(٢) – ما اطمأن يوما فى الغزو ولا سكن . وعز الدين جُرْديك النورى(٣) – كم جرد على أعناق المشركين سيفه الذى به تمكن ، وهما همامان مقدّمان مقدامان ، من عادتهما

---

(١) كثرت وزادت .

(٢) طمان الدين غازى : هو الأمير حسام الدين طمان بن غازى صاحب الرقة ، كان شجاعا جوادا محبا للخير ، كثير الصدقات ، محبا للفقهاء والعلماء ، بنى مدرسة بحلب للحنيفية ، وكانت وفاته فى تل العياضية قرب عكاء فى شعبان سنة ٥٨٥ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٠٩ ط . دار الكتب) .

(٣) عز الدين جورديك النورى : هو جرديك بن عبد الله النورى ، كان من أكابر رجال الملك العادل نور الدين محمود ، ثم خدم صلاح الدين الأيوبى فى جميع غزواته وحروبه ، منذ أن قتل شاور بمصر وابن الخشاب بحلب ، وقد كان شجاعا مهيبا جوادا ، ولاه صلاح الدين نيابة القدس إلى أن أخذها منه الأفضل بن صلاح الدين ، توفى سنة ٥٩٤ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٣ ط . د دار الكتب) .

الوثبات على ثُبات العداة يرومان الثبات، ولا يريمان . وجماعة أخر بهما يتشبهون ، وبالكريهة لا يتكرهون .

وأما الباقون فانهم أحبوا البقاء ، وأبغضوا اللقاء ، واتقوا الاتقاء ، وأبوا إلا الإباء . وقالوا «قد لغبنا وما بلغنا،وجرحنا وما رجحنا ، فلو رحنا استرحنا ، ثم عجنا ورجعنا . وما نحن بأول واضع للاصر ، راجع عن الحصر . معتف للعقل ، مستعف من الثقل . عامل بمحض الحزم ، عالم بوقت العزم . هذا وقد علم ما عرا من ضروب الكروب ، وثلّم ما يرى من غروب الحروب . وبقدر ما هدم من مبانى البلد ، هدم أكثر منه من مبانى الجلد » .

فقال السلطان « بل نجد فى القتال أياما ، ونقدم بأسا واقداما(١) . ونزحف بجميع رجالنا ، ونصدقهم فى نزالنا . ونقاتلهم من جميع النواحى ، فان تعذر لاح العذر للاحى(٢) » .

وأصبح العسكر وقد استعد ، وامتد قبالة البلد من البحر إلى البحر والنصر استمد . وركب الأمراء بأجنادهم ووقفوا ، وأثمر لهم ورق الحديد الأخضر فقطفوا . وتناوبوا فى الزحف ، و تعاقبوا على الحتف . وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت ، وجاءت الطائفة الأخرى فصدقت وصدعت ، وقارعت وقرعت ، وصارعت وصرعت . فلم ير أشد من ذلك اليوم ، فى وقم القوم . واجترأ أصحابنا وراض جماحهم إصحابنا . وخاضت خيلنا فى البحر خلف منهزميهم ، وأقدم من أحجم منا لاحجام مقدميهم . فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها ،وأسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها . وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت : « هل منْ مزيد(٣) » ، وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت : « هل من شهيد » . وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الأسلحة ، وملت الأجنحة . وانهاصت قوادم الإنهاض، وانفضت الجموع من إقْواء القوى والانفاض :

---

(١) فى ب أقدام وهو خطأ لغوى .

(٢) اللاحى : لاحى فلان فلانا دافعه ومانعه ولاومه واللاحى اسم الفاعل منه .

(٣) الآية ٣٠ سورة ق .

وبات الناس على ضجر وضجاج ، ولجب ولجاج . فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم أياما ، لنلنا من فتحه مراما . لكنهم أصبحوا على سأم ، وألموا بابداء ألم . وقالوا « قلت كثرتنا ، فلو أقيلت عثرتنا لانجبرت كسرتنا وفينا الجريح والطليح(١) ، وحتى متى لا نستريح ! وقد توالت الأمطار فلا مطار ، وعلينا هذا الحصار صار ! » .

وكانت الجراحات كثيرة ، والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من العمل ، وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل . وما زالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل ، ويقولون « لا تتعب على تحصيل المستحيل ولا تذهب الأيام فى ابرام السحيل . ودعنا نستجد دعة ، ونسترد قُوى عند لطف الله مودعة . ونشتغل بفتح الأيسر وهو أكثر ، ونؤخر التشاغل بما لعله يتعسر » .

وكان السلطان فى تلك المدة ، أنفق أموالا كثيرة على تلك الآلة والعدة . وما أمكن نقلها ، ولامكن من نقلها ثقْلها . ولو أبقاها لقوى بها الكفر ، واشتغل بسببها الفكر . فرأى نقضها ، وفك بعضها . وأحرق منها ما تعذر حملها ، وشتت بعد التجمع شملها . وحمل بعضها إلى صيداء، وبعضها إلى عكاء . وجرت أعاجيب ما تكاد تحكى ، وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وأبكى .

وتأخر السلطان وتباعد عن قرب صور إلى المنزلة الأولى ، ويد أيْده على جميع الأحوال طولى . فشرع العسكر فى الانصراف ، وتزود للانكفاء(٢) والانكفاف . وأخذ الجمع فى الافتراق، وانتشر فى الآفاق . وذهب من ذهب على مواعدة فى المعاودة ، ومسارعة فى الرجوع إلى المساعدة .

وودع (الملك المظفر تقى الدين) من هناك ، وأوعد بوعد عوده الاشراك . وسار على طريق هونين إلى دمشق مغذّا ، وفارق الغزو وكان له ذلك المغزى مغذى . وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ،

---

(١) المزيل والمتعب إلى درجة كبيرة .

(٢) فى ب الانفكاء والتصحيح من ل .

وكل طير منهم اشتاق إلى وكر . وما عرفوا أن هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا ، وأن هذا العدوّ الذى مالوا إليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا .

وبقى السلطان يتلهف على ما تركه ، ويتأسف على الفتح الذى ما أدركه والذين أشاروا بهذا الرأى يسهلون الصعب ، ويهوّنون الخطب . ويقولون « نمضى ونعود ، وتساعدنا السعود ، وتنجدنا الجنود ، وتتجدد الجدود ، ويورق العود ، وتصدق الوعــود . وإذا أبقل(۱) الربيع ، أقبل الجميع . وطاب الزمان ، ووفى الضمان ، وأمكن الاسعاد وساعد الامكان » .

وما زالوا بنا حتّى رحلنا ، وعلى الرأى الرائب منهم أحلنا ، ولو أقمنا لنقمنا ، وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره محتوم ، وسر غيبه المكتوب فى اللوح المحفوظ مكتوم . وأراد ولا مرد لمراده ، وقضى ولا محيد لما قضاه فى عباده . أن تبقّى صور فى تلك الحالة للكفر وكرا ، وللمكر مكرا ، وللشرك شركا ، ولنار جهنم دركا .

وقد منا عن صور الارتحال آخر شوال غرة كانون الثانى ، وعم البرد فى القاصى والدانى . وتوحّمت السماء من حوامل السحائب ، وتوحلت الأرض من سوائل المذانب(۲) . والنكب(۳) الرياح عواصف عواسف قواصم قواصف ، والسحب الدّلاح(٤) هوامل هوامر رواعد رواعف(٥) والبرد قارس قارس ، والماء جامد جامس(٦) . والشتاء شتات بتات(۷) ، وما مع مقامه وثباته مقام وثبات .

(۱) ظهر .

(۲) المذانب : جمع مذنب بكسر الميم وهو مسيل الماء والجدول إذا لم يكن واسعا .

(۳) النكب : جمع نكباء وهى الريح انحرفت عن مهاب الريح القويم ووقعت بين ريحين . عواسف : جمع عاسف ، وهى من الابل المصاب بالغدة كالنزع للانسان والمقصود أنها رياح مهلكة .

(٤) الدلاح : الكثيرة الماء .

(٥) رواعف : يقصد أنها كثيرة الماء حتى أنه يسيل .

(٦) متجمد .

(۷) بتات : مشتت ، قاطع للوصل .

وسرنا عباديد(١) فى لبابيد(٢) ، وبين جليد وجلاميد . على الناقورة(٣) وطريقها ، والأثقال قد ازدحمت فى مضيقها . والأحمال تتواقع ، والأجمال تتقاطع . والسبل تنسد ، والسابلة ترتد . وسلكت الخيل الجبل ؛ وقطع العسكر طريقه إلى المخيم ووصل . وتأخر الثقل إلى أن تخلص ، وتقدم من سبق وتملص .

ووصلنا إلى عكاء فى ثلاث مراحل ، وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل ، سامى المحل ، نامى الفضل . دائم الفكر فى تدبير الأمر ، وتدمير الكفر ، واثقا من الله بانجاز عدة النصر .

(١) عباديد : أى فرق (مجموعات) .

(٢) لبابيد : جمع لبيد وهو الجولق أو المخلاة .

(٣) الناقورة : قرية ساحلية فى لبنان على الحدود بين لبنان وفلسطين .

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي (محمود أخو جاولي) ، وكان من جملة الأمراء أعف وليّ ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد ، وقضى صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ، أن السلطان لعلمه بديانته وأمانته ؛ وبأسه وبسالته ؛ ويقظته ونهضته وحزامته ؛ وكله بحصن كوكب الذي على الغور وكانت فيها جمرة الاسبتارية القريبة الجور البعيدة الغور . وقد تمنعوا بشدتهم ، واشتدوا بمنعتهم . وهو حصن لا يرام ، وركن لا يضام ، ومعقل لا يسامى ولا يسام . وذروة لا تفرع ، ومروة لا تقرع ، وعقيلة لا تفترع . وبكر لا تخطب ، وقلعة لا تطلب .

ولما ملك الساحل ، وهلك الباطل ، ونظمت الحصون في سلك الحصول وظفر الاسلام بالفتح المأمون المأمول ، وافتتحت طبرية وأعمالها ، وتملكت أغوار تلك البلاد وجبالها ، تمنعت قلعتا صفد بالداويه وكوكب بالاسبتاريه وتعذر فتحهما ، وتعثر منحهما ، ووقف أمرهما ، وأعدى البلاد ضرهما ، فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية ، من أهل الأبية والنخوة والحمية. ومقدمهم (مسعود الصلتي) أصلتت سعادته منه سيفا إصليتا ، لا يلفت عن لقاء العدو ليتا .

ورتب على كوكب هذا (محمودا) ، وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة ، وصحة النصرة . فأحاطا بالحصنين واحتاطا ، وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن ، وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكونهم ، وأغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حزب ، واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم ، وخلا من العزم . واحتقر عدوه ، وحسب من العجز هدوه .

وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا (١) ، قد أقام

---

(١) عفر بلا : بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (ياقوت ج ١٤ : ١٣١ ط . ب)

به جاما جامعا فيه ما أمرّ وحلا. وكان ذا دين متين، ومكان من النسك مكين. وهو يسهر أكثر ليله متهجدا ، وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله ، يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال ، وهى ليلة ذات أهوال ، مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة ، ليلاء قتماء ، باردة مقشعرة ، أنوارها بائدة ، وأنواؤها جائدة ، وهزيع جنحها دجوجىّ[1] ، وهزيم ودْقها[2] لحىّ ، وسحبها سحم[3] ، وأقطارها دهم . وصبيرها صيب ، وصنبرها مشيب ، لا يفرق فيها السماء من الأرض (ظُلُماتٌ بعضُها فوْق بعض[4]) خرج أهل كوكب وقت السحر ، ومضوا إليه وقد رقد بعد طول السهر . والناس رقود ، والحراس هجود ، والجنود جمود ، والأنفاس خمود ، والهمم رقود . والسيوف أسرار أضمرتها الغمود ، والعدم قد دنا منه الوجود .

فما أحس محمود المحمود ، وأصحابه الهمود ، إلا بالفرنج وقد سلكوا إليهم ، وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع ، ولم يقدروا على الدفاع . فجاءتهم السعادة ، وفجأتهم الشهادة . وبقى الأمير حتى استشهد محصورا ، (وكان أمر الله قدَرا مقْدورا[5]) . ونقاوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع ، وخيل وكراع [6] .

فلما عرف السلطان ما أصابهم ؛ احتسب عند الله مصابهم ؛ وأحمد إلى الجنة مآبهم . فندب إلى كوكب (صارم الدين قايماز النجمى) — الصارم المخْذم ، والحازم المقدم . والعضب[7] البتار ، والندب[8] المغوار . والأسد

(١) مظلم .

(٢) ودقها لحى . : مطرها دائم .

(٣) سحم : جمع اسحم ، أى أسود .

(٤) الآية ٤٠ سورة النور .

(٥) الآية ٣٨ سو ة الأحزاب .

(٦) بقر وغنم وحمير وبغال .

(٧) السيف القاطع .

(٨) الندب : المغوار من الرجال الكثير الغارات ، السريع إلى الفضائل ، الخفيف فى الحاجة لأنه إذا ندب إليه حف لقضائها .

الأسد ، والأحمى الأحمد . فى خمسمائة فارس من ذوى النجدة ، والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها ، ومنع من الدخول إليها والخروج منها . ولم يزل عليها مقيما ولحصرها مستديما ؛ إلى أن يسر الله فتحها ؛ وسهل للآمال فيها نجحها . وسنذكر ذلك فى موضعه ، وكيف أشرق صبح النصر من مطلعه .

ذكر ماجرى بعد نزول السلطان على عكاء بعد عوده من صور

استأذن (الملك الظاهر) والده فى العود إلى حلب فأذن له وودعه ، بعد ما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع (الملك العادل) وأوّجه إلى مصر ، مستقبل الظفر والنصر . وأقام (الملك الأفضل) بعكاء مستقلا بالآراء ، مستهلا بالآلاء ، مستبدا بتدبير أسباب الهدى ، مستعدا لتدمير أحزاب العدا .

وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين ، ولاقامة شرائطها مداومين . وكل يطلب اذنا فى الانصراف ، ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من عندنا من الجند ، وثقل علينا عبء البرد . وتناوحت الهوج(1) ، وتراوحت الثلوج ، ورجت الدروج(2) ، ونجت النوُوج(3) . وارتجز عجاج الودق ، وارتجس نجاج البرق . وجفت الحرجف(4) ، وطفح الأوطف(5) . وتقطعت الخيام وتقلعت الأوتاد ، وتجللت بأبراد الجليد من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق ، ودام تواصل البوارح والبوارق .

ودخل السلطان إلى المدينة ، وسكن بها فى كنف السكينة ، مستقيما على المحجة المستبينة ، مقيما للحجة المتينة . وشرع فى إعداد العدد ، واستمداد المدد . وابرام معاقد الحل والعقد ، واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء سنة السماح والفضل ، واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافادة الكرام واكرام الوفود ، واعادة ما بدأ به من إفاضة الجود . واجازة الراجين ، واجارة اللاجين ، واسعاف العافين ، وإبعاد العادين . وادناء أهل العلم ، واغناء ذوى العدم . وانجاح المقاصد ، وانجاز المواعد .

---

(1) الهوج : واحدها هوجاء وهى الرياح التى لا تستوى فى هبوبها وتقلع البيوت .

(2) رجت الدروج : تحركت الرياح السريعة المرور .

(3) نجت النؤوج : أسرعت الرياح الشديدة .

(4) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

(5) السحاب القريب من الأرض .

وكانت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق ، عاكفين على بابه ، قاطفين جنى جنابه ، واقفين لرفع حجابه . مستسعفين لنعمائه ، مستعطفين لإبائه . متعرضين لثوابه ، متضرعين فى خطابه . وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته ، وخصه بنجح وسيلته ، وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك ، وهداه إلى سبيله وقد تعذر بهم إليه السلوك ؛ وهو فتح القدس الذى درج على حسرته القرون الأولى ، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى .

فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه ؛ ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة ويخاطب فى الصدق ، ويحقق المظاهرة لاظهار الحق ، ويتقرب بالوفاء والوفاق ، ويتباعد عن الشقاء والشقاق .

ومن جملتهم رسول صاحب الرىّ (قتلُغ إينانج بن بهلوان) ، ورسول (قزل أرسلان (١)) – المستولى على ممالك همذان (٢) وأذربيجان وأرّان (٣) – وهو (عز الدين الطالبى) – الطالب للعز ، الراغب فى الفوز .

فما من يوم يمضى ؛ وشهر ينقضى ؛ إلا ويصل منهم رسول ، ويتصل به سول . وتنجلى غمة ، وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى وتستبشر وجوه ، ويُكفّ مكر ويكفى مكروه .

ونظر فى أحوال عكاء فرتبها ، وفى أمورها فهذبها ؛ وفى مضارها

---

(١) قزل أرسلان : هو ابن ايلدكز ، مظفر الدين ، ملك أذربيجان ، وأران وهمذان ، وأصبهان ، والرى ، كان قد خلف أخاه البهلوان محمد ٥٨٢ هـ ، قتل غيلة على فراشه ٥٨٦ هـ (شذرات الذهب ج ٤) .

(٢) همذان : احدى مدن ايران .

(٣) أران : صقع من أصقاع أرمينية بينها وبين أذربيجان نهر الرس ، فكل ما شماله وغربه من أران . وأران قلعة مشهورة من نواحى قزوين (ياقوت ج ٢ : ١٣٦ ط . ب)

فأذهبها ، وفى منافعها فقربها . وولى (عز الدين جُرديك) بها واليا ، وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الأفضل حاليا . ووقف بها وقوفا ، وأجنى المستحقين منها قطوفا ، وأسدى معروفا ، وأعطى ألوفا ، وأرغم من الأعداء أنوفا ، وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفة ، وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة ، ونصفها مدرسة للمتفقهة ، وللطلبة المتعففة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل ، والنجح والأمل ، وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل . واتخذ لطلب مرضاة الله دار الأسقف بيمارستان المرضى وأتى بكل ما يحبه الله وبه يرضى .

فلم يبق سنة إلا خلدها ، ولامنّة إلا قلدها . ولاأجرا إلا أجراه ، ولاهدى إلا أهداه . ولا أمرا إلا أمره ، ولادَرّا إلا أدرّه . ولافريضة إلا أداها ، ولا فضيلة إلا أتاها . ولافرصة صواب إلاّ انتهزها ، ولا حصة ثواب إلا أحرزها . ولا رمم(١) فواضل إلا أنشرها ونشرها ، ولا أمم فضائل إلا حشدها وحشرها . وما ترك قارئا إلا قراه ، ولا راويا إلا أشبعه وأرواه . ولاحافظ حديث إلا حفظه من الحدْثان ، ولا محسن صنعة إلا اصطنعه بالإحسان . ولاناظم مدائح إلا نظم له المنائح . ولاموافيا بقريض إلا وفى قروضه ، وأعجز عن القيام بحمل حمده نهوضه .

وتقدم إلى الوالى بالتردد فى الأعمال ، وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال . وتعليل السقيم وتسقيم المعتل،وتحليل العقد وتعقيد المنحل. فاستقرت بولايته الولاية ، واستمرت لرعيته الرعاية . ودرّت أفاويق(٢) الآفاق ، ودارت أسواق الأرزاق .

---

(١) رمم : بال متقطع .

(٢) أفاويق : جمع فيق والمقصود خيراته واحساناته .

ذكر وصول أخى تاج الدين أبى بكر حامد من دار الخلافة للرسالة فى العتب على أحداث ثقلت . وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت(١) . وسعايات فى السلطان عثت(٢) . فى الأحوال وشعثت وذلك فى شوال . ونحن على حصار صور ونزاع ونزال

(ذكر السبب فى ذلك)

لما تم الفتح الأكبر ؛ وخص وعم النجح الأظهر ؛ وقطع دابر المشركين ؛ وحط إقبال المسلمين أوزار ادبار الكفر بحطين ؛ أمرنى السلطان بانشاء كتب البشائر إلى الآفاق ، وتقديم البشرى به إلى العراق . فقلت « هذا فتح كريم ، ومنح من الله عظيم ، وملك عقيم ، وسمو وسيم . فلا يجب أن يكون مبشر دار الخلافة ، بما أنزله الله لنا من الرحمة والرأفة ؛ إلا من هو عندنا أجل وأجلى ، وأعلم وأعلى ، وأجمع لفنون الفضائل ، وأعرف بأداء الرسائل . فلا تُوجه بهذه الكرامة إلا الكريم الوجيه ، ولاتُنبه لهذه المقامة إلا القويم النبيه . ولا ترفع العظيم إلا بالعظيم الرفيع ، فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع » . فقال « هذه نصرة مبتكرة بكرت ، وموهبة ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا ، ونوءخر للاجلال كما ذكرت سفيرا » .

وكان فى الخدمة شاب بغدادى من الأجناد ، قد هاجر للاسترفاد . وتوجه بعد وصوله ، ونبه بعد خموله . فسأل فى البشارة إلى بغداد . وزعم أنه يداوم إليها الاغذاذ . وشفع له جماعة من الأكابر ، حتى خص بأشرف البشائر . فقلت « هذا لا يحصل له وقع ، ولا يصل إليه نفع . والواجب أن يسير فى هذا الخطير خطير ، وفى هذه النصرة الكبرى كبير . فان الرسول من يندب للتفهيم والتفخيم ، ويرتب فى الأمر العظيم للتعظيم » .

---

(١) أوقد نار الفتنة .

(٢) عثت : عثت الحية فلانا عضته والمقصود أنه أصابته بشرها وما نتج عنها من أذى .

ثم سار المندوب ، وشغلت عن ارسال سواد الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب ، ونفذ بها كتاب . ووصل البشير الجندى فلم تجل به على كنوز الجلالة من اندى المدى . وحقروه وما وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين ، وحبوه بما يليق به من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله ، وأنه لم يعصب المنصب فى تلك الرسالة بأهله . وتسمح المندوب بكلام أخذ عليه ، وبدرت منه أحاديث نسبت إليه . وقال فى سكره وحالة نكره ، ما يعرض عن ذكره . فخيل وموه ، وتنكر وتكره . وظن أن لكلامه أصلا ولقطعه منا وصلا . وأنهيت إلى العرض الأشرف مقالاته ، وعلمت جهالاته .

وتجنى على السلطان بارساله ، وطرق إلى هداه ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله . ووجد الأعداء حينئذ إلى السعاية طريقا ، وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقا . واختلقوا أضاليل ، ولفقوا أباطيل . وقالوا : هذا يزعم أنه يقلب الدولة ، ويغلب الصولة . وأنه ينعت بالملك الناصر ، نعت الإمام الناصر ، ويدل بما له من القوة والعساكر .

فأشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه ، وبرز الأمر المطاع بارسال أخى وانفاذه ، وقالوا : هذا تاج الدين أخو العماد ، يكفل لنا فى كشف سر الأمر بالمراد . فان أخاه هناك مطلع على الأسرار ؛ وهو منتظم فى سلك الأولياء الأبرار . وعول عليه الديوان العزيز فى السفارة ، وورد معه جواب البشارة . وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب ، ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنة ، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الأمامية لينة . ونشر الاعتاب فى طى العتاب ، ورروح الارضاء فى شخص الاغضاب . وبرد الموهبة فى برد المهابة يرد ظن الخطأ إلى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الأخ ، فصار وهو يبذخ . وقد أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام ذيلا ، وألحف من نور الأهبة العباسية نهارا وليلا . فوصل السير بالسرى ، وقطع الوهاد والذرا . وجاء إلى دمشق بشارة رائقة ، وبشارة رائعة ، واشارة رادعة . وشعار مهيب ، وشرع مصيب . وهيبة

روعة امامية ، وهيئة عصمة عصامية . وفرند نبوى لاينبو ، وزند ورى لايكبو . ولسان فى الصرامة جرىّ ، وجنان بالشهامة حرىّ. وبلاغة بابلاغ ماليس بلاغ . وفئة وافية ، وصيغة بصياغة كل غريبة قول ورغيبة طول كافلة كافية . وسنى نور وقار يستعير منه سنير(١) ، وثبات خلق يتخاق به ثبير (٢) .

وكان قد عاد المندوب نادبا عاديا ، جاحدا للنعمة شاكيا . ذاكرا أنه عُدم الحفاظ ، ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فما حُرّك شمّام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض ، وخطب مقد وغضب مغض . ولفظ فظ ، وحض على غير حظ . ومعه الملامات المؤلمات ، والظلامات المظلمات فقلت له « اسكت واصمت ، وبمالك من وسم الوصم مت ، ولاتدخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا بعشك فادرج » .

وقلت للسلطان « سمعا وطاعة لأمر الديوان ، فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان » . فقال « نعْم ما قلت ، وقد طُلْتُ بارسال أخيك وطلْت ، وما أسعدنى إذا شرفت بالعتاب ، واسعفت بالخطاب ، والمملوك ينفعه التأديب ، ويزعه التهذيب . على أننا لم نأت إلا بكل ما قوّى الهدى وأضعف العدا ، وكف الكفر وأدنى الدين ، وما زلنا فى طاعة أمير المؤمنين مجدين .

أما فتحْنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعى وفرخت ، أما استأنفْنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت . أما استخلصْتُ اليمن وللدعى بها داع ، وللهدى فيها ناع ، وللضلال منها راع . أما أرحْتُ من رق الشرك الساحل ، أما أزحْتُ عن حق الملك الباطل . أما فتحْتُ البيت المقدس وألحقتُه بالبيت الحرام ، وألحفتُه رداء الاكرام ، وأعدت إلى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعتُ الغرب بغرْب(٣) عزْمى ، ووزعت الشرق بشرع حُكْمى. وما تعبدتُ إلا بالعبودية للدار العزيزة ، وهذه الفطرة

(١) سنير : شرس الخلق .

(٢) من فى خلقه سوء وشر .

(٣) غرب : حدة ونشاط .

متمكنة مني فى الغريزة . فأهلا وسهلا بالرسول وبالسول ، وحبًا ومرحبا بالاقبال والقبول . وما أنى إلا بالحب والحبور ، ولإمرار الأمور ، ولاظهار سر السرور . والبارق يشام إذا رعد ، والصادق يرام إذا وعد . وما أسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسرة . وأبرنا بالجد وأجدنا بالمبرة . وسمعت منه كل ما هدى سمعى ، وأبدى لمعى ، وجمع شملى وشمل بالعز جمعى .

ولما قرب أخى ، أصبحت اقدومه أنتخى . فأمر السلطان الأمراء على مراتبهم باستقباله ، وتقدم بجلالة قدومه باجلاله . ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبه بأنسه . ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار ، ومصارع الكفار . ومواطىء أقدام ذوى الإقدام ، ومواطن بسالة أهل الاسلام . ثم نزل وأنزله بالقرب ، وعقد له بالحباء حُبًا الحب . وسفر وجهه لوجاهة السفير ، وأحل محل التوقير والتوفير . وتباج له صبح التبجيل ، وتأمل منه نجح التأميل . ثم حضر عنده ، وقد أخلى مجلسه لى وله وحده . فأدى الأمانة فى مشافهته ، ووجه مقاصده فى مواجهته .

وأحضر التذكرة ، وقد جمعت المعرفة والنكرة . فقرأتها عليه بفصولها وفصوصها ، وألزمته حكمىْ عمومها وخصوصها ، ووقفته على ظواهرها ونصوصها . وكانت فى الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطة ، وخيلت سقطة ، وجلبت سخطه . وقال « ان الامام أجل أن يأمر بهذه الألفاظ الفظاظ ، والأسجاع الغلاظ . فقد أمكن ايداع هذه المعانى فى أرق منها لفظا وأرفق ، وأوفى منها فضلا وأوفق . ومعاذ الله أن يحبط عملى ، ويهبط أملى » .

وامتعض وارتمض(١) ، ثم أعرض عما عرض . ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف . وقال « أما ما تمحله الأعداء وعدا بهالمتمحلون(٢) ، وتنفق به المتقولون ، وتسوق المبطلون ؛ فماعرف منى إلا الاعتراف بالعارفة ، وما هزرت(٣) منذ أعتززت اعطاف العز إلا لما يعزنى من العاطفة . وإن

---

(١) ارتمض من الحزن . : احترق .

(٢) أصحاب الكيد والخديعة .

(٣) أى لم أكن غير جاد .

شرفى بالنعمة السالفة ؛ يوجب أنفى من هذه الآنفة . وأما النعت الذى أنكر ، ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر ، فهذا من عهد الإمام المستضىء رضوان الله عليه – وجرى لتحققه منى على الألسنة ، ومتى عدّ سيئة ما عد من الحسنة . والآن كل ما يشرفنى به أمير المؤمنين من السمة فانه اسمى الذى هو أسمى وأشرف ، وأطرأ وأطرف ، وأرفع وأعرف .

وما زاده ذلك العتب الاخلوص ولاء ، وخصوص اعتزاز واعتزاء(١) ثم قال « كل ما اعتمده من نصرة الدين وقهر أعداء أمير المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه ، ما تعبدت به سواه . فانى أفترض الطاعة الامامية للدين لا للدنيا ، وما أتقوى فيها إلا بالتقوى . وما فى عزمى إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين ، وقطع دابر المنافقين والمشركين . وإذا عادت عواطفه عطفت على فى الحسن العوائد ، وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقاصد ، وبعُد الأباعد ، وبعد الحاسد الحاشد . وهُجر هجْر الساعى وأجرى أجر الداعى . وعلم جهل الواشى ، وعذر ذعر الخاشى ، وجُرّب غش الغاشى ، وخرب عش العاشى . وذوت هموم ذوى الهمم ، وأوليت كرامة أولى الكرم » .

وما زال السلطان مدة مقام أخى عنده ، يورى فى اعظامه زنده ويأمر باكرامه جنده . فكنت أشفق من تكدر ذات البين بعود الأنس والوصلة إلى الوحشة والبين . وأن جماعة من الأكابر اجتمعوا بالسلطان ، وقالوا له « قد نسب حقك إلى البطلان ، ورميت بالبهتان ، ولمحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت وما عفت ، وألفت وما أنفت ، ورغت وما غرت ، وصبرت وما سبرت ، وأغضيت لما أغضبت ، وأعتبت لما عوتبت ، وراقبت وما روقبت » .

فقال « تذللى للديوان العزيز تعزز به أدين ، وتوسلى إلى مرْضاته توصّل بالله فيه أستعين . فتواضعى ترفع ، وتخشعى تورع . وحبل حبى متين ، ومكان قربى مكين » . ومما قلت له وأوضحت له سبله « إنا كنا بطاعة أمير

---

(١) اعتزاء : فعله اعتزى : انتسب صدقا أو كذباً .إلى فلان .

المؤمنين نطول ونصول ، ونزاول بها الملوك وعنها لانزول . وهذه فضيلتنا التي رجحت ، ووسيلتنا التي نجحت . وكنا بها مسعودين ، وعليها محسودين. وقد شملت بها بركاتها ، وكملت حسناتها . وصفت مشارع يمنها ، وصفت مدارع حسنها . فلا تلتفت إلى من يلفتك، ولا تتثبت لمن لا يثبتك . وأعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، وانهض لمن ينهضك للائتلاف » . فقال « هذا ديني وديدني ، وبه أعني وأعتني ، ولنُوره ولنوّره أجتلي وأجتني » .

ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وأمر بأن يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل ما في النفس . وبالغ في إبداء التضرع والتذرع ، واظهار التخشي والتخشع .

وأنشأت عنه إلى الديوان كتبا معه وبعده ، ضمنتها كل ما حلا وجلا جدّة وجُدة . وكل ما يبطل سوق المتنفقين ، ويعطل نفاق المتسوقين ، ويهجن خلق المختلقين ، ويزيل تلفيق الساعين ، ويزيح سعاية الملفقين . ويتعرف إلى العوارف الغزر بالشكر ، ويستعطف العواطف الغر بالعذر . ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار . وينفض عن وجه البشر ما عليه من الغبار . وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى ، ومضى ما مضى . وقضى القدر من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير (شمس الدين بن المقدّم[1]) بالموقف في عرفه ، لابداعه رسما ما عرفه . فذهب غلطا ، وعطب فرطا . وذلك

---

(١) شمس الدين بن المقدم : هو محمد بن عبد الملك بن المقدم ، من أكابر أمراء السلطانين نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي ، كانت له مواقف مشهودة . حضر جميع الفتوحات للسلطان صلاح الدين ، استأذن في الحج فأذن له صلاح الدين على كره منه ؛ وفي عرفات حدث خلاف بينه وبين طاشتكين مملوك الخليفة على رفع العلم ، فرماه مملوك لطاشتكين فمات يوم النحر سنة ٥٨٣ ﻫ (النجوم الزاهرة : ج ٦ : ١٠٥ ط . دار الكتب).

أن أمير الحاج (طاشتكين (١)) أنكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب إليه من به وبأصحابه أوقع . فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت نفرة . ولما نمى الخبر إلى السلطان ؛ لم يبد منه سوى الاذعان . وقال « لاشك أن طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش » . وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين .

(١) طاشتكين : هو الأمير مجير الدين، طاشتكين بن عبد الله المقتفوى أمير الحاج ، حج بالناس ٢٦ حجة ، وكان يسير فى طريق الحج مثل الملوك ، كان شجاعا جوادا سمحا ، قليل الكلام ، يمضى عليه الأسبوع ولا يتكلم ، استغاث إليه رجل يوما فلم يكلمه فقال الرجل : الله كلم موسى ؟ فقال : وأنت موسى ؟ فرد الرجل : وأنت الله ؟ فقضى حاجته . ومن حلمه ، أن رجلا استغاث إليه من أحد نوابه فلم يجبه . فقال الرجل : أنت حمار فقال طاشتكين : لا . كانت « الحلة » اقطاعه ، وكان الخليفة قد ولاه « خوزستان » وكان يتشيع ، توفى سنة ٦٠٢ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٩٠ ط . دار الكتب) و (أبو الفداء ج ٣ : ١٠٧ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

نسخة كتاب جامع للفتح القدسى الأيمن

أنشأتها الى سيف الاسلام(١)

أخى السلطان باليمن

صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى ضاعف الله علاءه ، وظاهر آلاءه ، وضافر نعماءه وأظفر بالنجح رجاءه ، وأضعف حساده وأعز أولياءه ، وأذل أعداءه . ولا زالت أيامه بالأيامن مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمرة ، ومكارمه بالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ومعاهد معاديه بقهر النقم مقفرة . دالة على البشرى بالفتح الأكبر ، والنجح الأزهر ، والنصر الأشهر ، والعصر الأبهر ، والفضل الأكثر ، والافضال الأوفر ، واليوم الأنور ، واليمن الأنضر ، والفجر الأسفر ، والفخر الأظهر ، والجد الأشم الأشمخ ، والمجد الأبلج الأبلخ(٢) . والعز الأسمق(٣) الأسمى ، والنور الأنم الأنمى . والظفر الأجل الأجلى ، والوطر الأحل الأحلى . والشرف الأسنم الأسنى ، والعزم الأغنم الأغنى ، والسعد الأجد الأجدى ، والصيت الأبدى الأبدى .

وهو الفتح الذى تفوح بمحابه مهاب الفتوح ، وتبوح بسرّ روحه وملكه سرائر الملائكة والروح ، وتروح وتغدو غوادى النعم وروائحها الى روض الهدى المروح ، وتلوح تباشير بشراه فى لوح الدهر لكل مؤمن يتلقاها بالوجه السافر والصدر المشروح ، وتنوح ناعية الكفر فى كل ناحية ولكل نادبة للأسى على قتيلها وأسيرها ندوب فى القلب المقروح .

وهو فتح بيت الله المقدس الذى غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه ،

---

(١) هو سيف الاسلام ، ظهير الدين ، طغتكين بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى ، كان والى اليمن ، وقد ملكها من زبيد إلى حضرموت ، وكان مقداما شجاعا شهما ، توفى بزبيد ٥٩٤ هـ وخلفه ابنه شمس الملوك اسماعيل (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٢) .

(٢) الأبلخ : العظيم المتكبر . والمقصود أنه مجد عظيم يدعو إلى الكبرياء .

(٣) الأسمق : السامق ، وهو الخالص البحت .

وطال فى أسره سجنه ، واستحكم وهنه . وقوى نكره ، وضعف ركنه . وزاد حزنه ، وزال حسنه ، وأجدبت من الهدى أرضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خوفه ، وفارقه أمنه ، واشتغل خاطر الاسلام بسببه(١) ، وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الأحد ، الذى تعالى عن الولد ، أن المسيح ابنه ، وأربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهى متنه .

ودرج الملوك الأقدمون على تمنى استنقاذه فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه ، وكان فى الغيب(٢) الالهى أن معاده فى الآخرة الى معاذه وأن نفاد ليل الشرك باسفار صبح أمرنا واشراق مطالع نفاذه . ودخر الله هذه الفضيلة لنا ولهذا العصر ، وأنزل على نصلنا نص النصر ، وأطلع لليل عزمنا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل أسباب الاسلام وقطع دابر الكفر .

وذلك أنا استفتحنا سنة ثلاث وثمانين بقمع أهل التثليث ، وأصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث . وخرجنا من دمشق فى المحرم ، فى العزم المصمم ، والرعب المجهز الى الكفر والبأس المقدم . وكنا أشفقنا على طريق الحج من قصد الفرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم ، وتصدينا لجهادهم بردهم عن المراد وصدهم . وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع الى المناهل ونظمنا سلك امدادهم فى ذلك المسلك حتى وصل الحاج سالما ، وذل الكفر عن قصده راغما .

ولما فرغ القلب من شغله ؛ وفاز كل بجمع شمله بأهله ؛ سرنا الى الكرك فى الأمراء والمفردين الخواص ، وشفعنا للجهاد فى سبيل الله الفاتحة بالاخلاص . وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات ، وترقبنا توافيهم بالميقات . وأمرنا والدنا الملك الأفضل أن يقيم برأس الماء(٣) . ويكون فى خدمته جميع الأمراء . وسرنا الى الكرك والشوبك فأخربنا عماراتها ، وأحرقنا غلاتها ، وقطعنا ثمراتها . وأزعجنا ساكنيها ،

---

(١) فى ب لسببه والتصحيح من ل .

(٢) فى ب يغيب والتصحيح من ل .

(٣) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران ، على بعد نحو عشرين ميلا شمالى درعا
(The Damascus Chronicle P. 306)

وأخفنا آمنيها ، وأجلينا عنها فلاحيها ، وأقمنا النوائح عليها فى نواحيها .

ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية ، فقويت به قلوب الأمة المحمدية . واجتمع بالمخيم الأفضلى ، برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفراتية ، والجزرية والموصلية والديار بكرية . فانتهز ولدنا هناك فرصة الامكان ، وأنهض الى الكفر سرية(١) سرية(٢) من أهل الايمان . فساروا سارين(٣) ، وأغاروا غارين(٤) وأخذوا ونهبوا ، وسبوا وسلبوا . فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهم الطريق ، وأخذت دون خروجهم الى السعة المضيق ، فثبتوا ثبوت الجبال بالرياح العواصف ، وشرعوا الى عرازين الكفر أسنة الرماح القواصف .

وكان مقدم عسكرنا (مظفر الدين بن زين الدين)(٥) ومعه مملوكنا (قايماز النجمى صارم الدين) . فلقيا بصدريهما صدور العوامل ، وحملا فى عسكرنا على الفارس والراجل . وحصل الفرنج منهم فى دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى . وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى ، واتصلت بنا ونحن فى بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الأخرى .

ولما قضينا الوطر(٦) من تلك البلاد ، ووفينا باحراق أقوات أهل النار بالنار حق الجهاد ، اجتمعنا باصحابنا القادمين من مصر ، وتناصرت الدينا دلائل الظهور وتظاهرت أمارات النصر ، وعدنا(٧) إلى الشام ؛ وقد تكاملت به جموع الاسلام ؛ وزخر بحر الفضاء بأمواج الأعلام ؛

---

(١) سرية : القسم من الجيش .

(٢) سرية : السرى . هو صاحب السخاء والمروءة فى شرف .

(٣) أى ساروا فى سرية . وتسار القوم : تناجوا وأطلع بعضهم بعضا على سر ما .

(٤) أى على غرة .

(٥) المقصود بمظفر الدين كوكبورى ؛ بن زين الدين صاحب أربل وقد سبقت ترجمته .

(٦) الحاجة والبغية .

(٧) زيادة الواو اقتضاها السياق .

وطفا على أثباج (١) لجة حباب الخيام ؛ وقد فض الفضاء ختام القتام ؛ وعلق بالفلق من ذلك الفيلق غرام الرغام (٢) . فخيمنا يعشرا شهرا ؛ وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا ؛ وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا .

وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا ؛ ونادوا فى بلادهم فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر ، وحشروا فى تلك الأشهر من جمعهم فى المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت. فتهافت الى شعلة ناره فراشهم ،وتوافى الى ظلة ضلاله خشاشهم(٣) . وقاموا وقيامة رعبهم قائمة ، وسوابح جردهم فى بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية وسراياهم طالعة ، ومقدمات رعبهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم مقضة خالعة .

فلما تكامل منا الجمع ؛ وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع ؛ عرضنا عساكرنا فى يوم يذكر بيوم العرض ، ويتلو مشاهده لمنزل الملائكة (ولله جنودُ السماوات والأرض(٤)) ، فى رايات خافقة كقلوب الأعداء ، عالية كهمم الأولياء ، وسرنا فى جموع ضاق بها واسع الفضاء ، وسار فى كتائبها نازل القضاء ، وسحب ذيل الأرض بُمثار نقعها على السماء . وقطعنا الأردن وتأييد الله مواصل،وقدره باقدارنا على الأعداء كافل . فما ألممنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف،ودخلناها دخول المغير لادخول الضيف . وتسلمنا المدينة ، ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر ، والخميس(٥) يوم الخميس . وأسد الوغى قد اتخذت من وشيجها العريس .

---

(١) فى ب اتباع والتصحيح من ل ، والاثباج جمع ثبج وهو أعلى الشىء أو معظمه أو وسطه .

(٢) التراب ، الرمل المختلطة بالتراب .

(٣) الخشاش ، حشرات الأرض والعصافير ونحوها والمقصود الضعفاء والردىء منهم .

(٤) الآية ٧ سورة الفتح .

(٥) الخميس : الجيش وقد ذكر أبو البقاء فى كلياته أنه من ٤٠٠ إلى ١٢٠٠٠ جندى . كما جاء فى لسان العرب أنه الجيش الجرار .

هذا والملك العادل عنا غائب ، ومعه أيضا بمصر كتائب ، وتوفيق الله له مصاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبرية ، أن نلاقى الفرنج على صفورية . فى مركزهم ومجتمعهم ، ونلابسهم فى مخيمهم . فحين نزلنا من الثغر بالاقحوانة ؛ وتمسكنا من الله بالاستنجاد والاستعانة ، ركبنا قبل قصد طبرية الى الفرنج فى مجمعهم ، وأشرفنا عليهم فى موضعهم . فما برحوا من مكانهم ، ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم .

وارتدنا فى صحراء لوبية موضعا للمصاف واسعا ، وفضاء لمازق الجمعين جامعا . وبتنا هناك بأطلاب الأبطال ميمنة وميسرة ، ووجدنا بتأييد الله أسباب الظهور ميسرة . وجئنا فى خواصنا والجاندارية ، ونزلنا فى العدة المجردة على طبرية . وأخذ النقابون ساعة النزول فى النقب ، فصرع قائم سورها للجنب ، ودخل الناس اليها ليلا للنهب . وكانت ليلة مدلهمة معتمة ، وأرجاء المدينة مظلمة ، فأشعلوا وأوقدوا(١) ، ودخلوا الدور وتفقدوا ما لم يفقدوا .

وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار ، فاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصن أهلها بقلعتها ، وتمنعوا بمنعتها . فأصبحنا على حصرها ، وسلكنا جدد الجد فى أمرها .

فجاءت رسل الأمراء أن الفرنج قد تحركت ، وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت ، وأدركهم الندم كيف تركت وما أدركت . وأنها قد عبت جنودها ، وشبت وقودها ، ولبت نداء جموعها ، وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت فى غدران سوابغها السابرية ، وفاضت ببحار سوابحها الأعوجية .

وأن جمرهم قد استعر ، وأن بحرهم قد زخر ، وأنهم قد أتوا فى عددهم وعديدهم ، وحدهم وحديدهم ، وخيلهم ورجلهم ، وطلهم ووبلهم ، وفارسهم وراجلهم ، وأحزاب ضلالهم وأبطال باطلهم . وأنهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية ؛ وسبقنا بفضيلة فتحها البرية ،

(١) فى ب أوقدا والتصحيح من ل .

ثاروا على العقيلة السبية؛وأشعلت نخواتهم نار الحمية ، وساقوا (أنفسهم) الى معترك الردى وملتقى المنية .

ولما عرفنا قربهم ؛ قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم ، وأشرفنا عليهم . واللجب الساري كالجبل الراسي ، وقد أفاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي . ولمعت بوارق بيارقه ، وراعت طوارق طوارقه . وبرقت قوانس(١) قوامصه (٢) ، وارتعدت فرائص فرائصه : وأمكنت فرائس فوارسه ، وباح الحديد على عوابسه بوساوسه . وماجت بحار سلاهبه ، واشتعلت نيران قواضبه . وشدت الأجادل (٣) دون صوار (٤) صوارمه (٥) وسدت بعرض أفواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الألفات بلاماته ، وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنمنا الفرصة فى اللقاء ، وهجنا الى الهيجاء. وأسرعت الأعنة ، وأشرعت الأسنة . ونقع النقع أوام الجو،وأجاب الصدى دوى الدو . وجال الجاليش ، وطار السهم المريش . وعصفت رياح السوابق ، واستعبرت عيون البوارق . ولقيناهم فى عرمرم عارم ، ومحشر جار وعوامل جوازم ، وصواهل صلادم . وضراغم ضوار ، وجوارح جوار . وأسود قد اعتقلت أساود ، وجياد قد حملت أجاود . وسوابح قد أقلت بحورا ، وصقور قد ركبت صقورا .

وأوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك ، وبازلهم (٦) لا يبرك . وصفهم لا ينفض ، وجدارهم لا ينقض . وبنيانهم مرصوص ،

---

(١) قوانس : واحدها قنس وهو أعلى الرأس .

(٢) القوامص : واحدها قمص وهى الفرس .

(٣) الأجادل : الدروع المحكمة .

(٤) صوار يقال . صرت الغصن لأجتنى الثمر أى أملته .

(٥) صوارمه : الصارم هو الشجاع أو الأسد أو السيف القاطع .

(٦) بازلهم : بزل البعير ، انشق نابه ، أو بزل ناب البعير ، طلع فهو أوهى بازل : البعير أو الناقة .

وطائرهم عن الطيران محصوص (١) . حتى دخل الليل ، وقر فى الوادى ذلك السيل . وبات الفريقان على تعبيتهما ، واجابة داعى الموت بتلبيتهما .

وأصبحنا يوم السبت وأهل الأحد على حالهم ، لم يرءوا موضع قتالهم . وما زالت الحملات تتناوب ، والأسلات (٢) تتواثب وتتثاوب (٣) . والسواعد بقرع الظبا سواع ، والرواعف فى زرع الطلى رواع . والمنايا تئن ، والحنايا تحن . والبيض تصافح البيض صفاحها ، والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكرعند اللقاء اقاحها . والذوابل فى أشاجع الشجعان ذواب ، والصوارم بجوامح النيران شواب . وضمائر الغمود قد باحت بأسرارها ، ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها (٤) .

ولما أحسوا بأسنا ، وامرار أمراسنا ، والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره ، والأوام يتوقد ولا يتوقى احراقهم بأواره ، مالوا الى طلب الماء ، وأخذوا طريق البحيرة للارتواء . فأخذنا قدامهم ووقفنا أمامهم . وحلأناهم عن الورد ، وألجأناهم الى الردى بالرد . فاعتصموا بتل حطين (٥) وصرنا بهم محيطين . وتحكمت فيهم قواضى القواضب ، ونشبت من النشاب بهم نيوب النوائب . وكان جمعهم جمرا وقد وقد ، فصب عليهم السيف نهرا فخمد . وقضوا بالقضاء ، وفرشوا بالعراء ، وعب دأماء الدماء ، وغصت الفجاج بالقتلى والأسراء .

وأسر الملك وأخوه ، والابرنس الكركى وموازروه ، ووجوه الكفر ومقدموه . ومقدم الداوية وأعوانه ، وصاحب جبيل وأعيانه . وهنفرى

---

(١) محصوص : طائر أحص الجناح أى قليل ريش الجناح والعبارة هنا كناية عن الضعف وعدم القدرة .

(٢) الاسلات : واحدها أسلة وهى الرماح .

(٣) تتثاوب : تتعاود .

(٤) غرارها : الغرار هنا بمعنى القليل من النوم .

(٥) حطين : هى قرية بين طبرية وعكة ، بينها وبين طبرية فرسخان ، وبالقرب منها قرية يقال لها جبارة يقال أن بها قبر شعيب عليه السلام (ياقوت ج٧ : ٢٧٣-٢٦٤ ط . ب) .

ابن هنفرى وابن صاحب اسكندرونه وصاحب مرقية . (١) .

ولم يفلت الا ابن بارزان والقومص ، وتم لهما من الورطة المخلص . وكان كلاهما ملهما عند اللقاء بالقتال ، وعند الفرار بالاحتيال . فأما القومص فانه لما مر بطرابلس أدركه الموت فى برجه المشيد ، ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم أهل الجبروت ، وحيز صليب الصلبوت ، وبار وباد أولياء الطاغوت ، وهلك عبدة الناسوت واللاهوت ، وملك عليهم القدر كتاب الأجل الموقوت .

وقدمنا الابرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر ، وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر . وألحقنا به الداوية والاسبتارية ، وأدرنا عليهم صبرا كؤوس المنية . وروينا ظماء الظبى من نجيعهم وقرينا سيد الفلا من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعتها ، وحللنا عقدتها ، وفرعنا ذروتها ، وافترعنا عذرتها .

ثم سرنا الى عكاء ففتحناها بالأمان ، وأعلنا بها شعار الايمان . واستقرينا بعدها البلاد الساحلية من جبيل وحد طرابلس الى الداروم غير صور فانها امتنعت بسورها ، ولم يبق فى كأس الكفر غير سورها ، وانها وجدت فسحة فى أيام اشتغالنا بفتح أخواتها ، وكثفت من عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على القدس ، وذلك يوم الجمعة ثالث عشر رجب ، فرجف بها قلب الكفر ووجب . وظن أهلها أنهم يعتصمون ، وأنهم من بأسنا يسلمون .

فنصبنا عليهم منجنيقات هدت أحجار السور بسورة أحجارها ، وآذن ركوعها بسجود الأبراج فى إجبارها . ووفت الصخور باصراخ الصخرة ، وعثرت تلك القلل باقالة ما دام بها من العثرة . وكشف النقب ونقب الأسوار ، ورمت الجنادل جوانب ذلك الجدار ، وعلم الكفار لمن عقبى الدار ، وأيقنوا بالقتل والاسار .

فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان ، مبتلهين فى طلب الأمان . فأبينا

---

(١) مرقية : قلعة بساحل الشام قرب حمص (ياقوت ج ١٧ : ١٠٩ ط . ب)

كل الاباء ، الاسفك الدماء من الرجال وسبى الذرارى والنساء . فخوفوا بقتل الأسراء ، واخراب العمران وهدم البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لأثمانهم لو أسروا أو سبوا . فأمنوا من أن يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفى منهم بالقطيعة حرج بحكم العتق ، ومن عجز عن أدائه دخل تحت الرق .

وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ، ورجع بنيانه من التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه . وبطل بنص النصر قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لأهلها ، ودخلت قبة الصخرة لفضلها . وباشرت الجباه بها مواضع سجودها ، وصافحت أيدى الأولياء آثار القدم النبوية لتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج وموطىء براقه ، ورئى نور الاسراء ومطلع اشراقه .

ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد ، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد . وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس ، وجليت هدى الهدى من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح ، وليل فطرها بالتراويح ، وشفى الله بسقيا هذا الفتح ما كان دهم القلوب لأجلها من تبار التباريح .

فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس ، مفدى منا كلاهما من المهج والانفس بالأنفس . وانه من المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال الرجال ، ويضيق عن وصف شرفها فى حلبة البيان المجال . وهو للحرمين ثالث ولا تثليث فى حرم توحيده ، فتجدد جد الاسلام بتجديده .

ولما فرغ البال من تدبيره ؛ وقضينا حق تقديسه وتطهيره ؛ صرنا الى صور ، ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفى صور سور الكفر وبقيته ، وقد تحصن بسورها ومنعته شرذمته . وهى مدينة حصينة ، متوسطة فى البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا عليها المنجنيقات فنكأت فيها ، ورمت من أعاليها،وهدمت من مبانيها . ولم يبق فى جعبة الكفر سوى نشابها ، وان جمحت علينا فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تؤذن بإصحابها ، واذا تسلمناها تسلمنا — باذن الله — كل بلد للفرنج باق ، وما لهم من عذاب الله الواقع بهم واق .

ثم رأينا أن حصار صور يطول ، وأن مسألة بيكار (١) العسكر فيها تعول . وأن فتحها لا يفوت ، وله وقته الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل ، وأعيا وكل . وقد دخل الشتاء وبرد الهواء . وجادت السماء ، وتواترت الأنواء ، وتواصلت الأنداء . ولا بد من استئناف جمع العساكر فى أيام الربيع ، واستمداد النصر الذى يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع .

ورحلنا عنها بعد أن رتبنا حولها ، فى الثغور المجاورة لها ؛ من يديم شن الغارات عليها ، ويواظب على النهوض اليها . وفسحنا لاجنادنا فى الاستراحة مدة شهرين الى النيروز (٢) . فان فى تلك الأيام تتوفر العزائم على المبارزة والبروز . وقد جرت المواعدة على المعاودة ، والمعاقدة للمعاضدة والمعاهدة للمساعدة . فليس فى الفرنج من يقاتل الآن على الخيل ، والنهار عليهم فى اظلام الليل ، والعز متقلص الظل عنهم والذل ضافى الذيل . وقد حزب حزبهم من حربنا مثير للحرب والويل .

وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة ، والمعاقل المبينة ، وهى : طبرية ، عكاء ، الزيب ، معليا ، اسكندرونة ، تبنين ، هونين ، الناصرة ، الطور صفورية ، الفولة ، جينين ، زرعين ، دبوريه ، عفر بلا ، بيسان ، سمسطية نابلس ، اللجون ، ريحا (٣) ، سنجيل (٤) ، البيرة (٥) ، يافا ، أرسوف ،

---

(١) بيكار : كلمة فارسية معناها الحرب (Dozy. Supp. Dict. Arabe) و (الروضتين لابى شامه ج ٢ : ١٤٨ تحقيق د . محمد حلمى أحمد) .

(٢) النيروز : أو النوروز رأس السنة الشمسية عند الفرس ، وكلمة نوروز معناها يوم جديد (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . ب ١٩٠٨ م) .

(٣) ريحا : مدينة قرب بيت القدس من أعمال الأردن بينها وبين القدس خمسة فراسخ (يقال لها أريحا أيضا) (ياقوت ج ٩ : ١١٢ ط . ب) .

(٤) سنجيل : ذكرت فى ياقوت بدون ياء ، بليدة من نواحى فلسطين (يقال أن بها جب يوسف عليه السلام) ياقوت (ج ١١ : ٢٦٤) .

(٥) البيرة : قلعة قرب سميساط بين حلب والثغور الواقعة على حدود الروم (آسيا الصغرى) لها رستاق ، والمقصود هنا بلدة بين القدس ونابلس بهذا الاسم (ياقوت ١٢ ط . الخانجى) .

قيسارية ، حيفا ، صرفند ، صيداء ، قلعة أبي الحسن(١) ، جبل جليل ، بيروت ، جبيل ، مجدل يابا ، مجدل حباب، الداروم ، غزة ، عسقلان ، تل الصافية (٢) ، التل الاحمر (٣) ، الأطرون (٤) ، بيت جبريل ، جبل الخليل ، بيت لحم ، لد (٥) ، الرملة ، قرتيّ (٦) ، القدس ، صوبا(٧) هُرمس (٨) ، السلع (٩) ، عفرا (١٠) ، الشقيف ، ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع ، والأبراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع .

ولكل واحدة من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع ، وأماكن ومواضع . قد جاس المسلمون خلالها ، واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصدنا البلاد ؛ وعرضنا للجهاد الأجناد ؛ كاتبنا أخانا الملك العادل سيف الدين أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب ، وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا ،

---

(١) قلعة أبي الحسن : قلعة ساحلية قرب صيداء (ياقوت ١٦ : ٣٨٩ ط . ب)

(٢) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة (ياقوت ج ٥ : ٤٢ ط . ب) .

(٣) التل الأحمر : قرية في سورية (قضاء طرابلس) على يسار الفرات ذكرت باسم تل برسيب في الألف الثالثة ق . م. كانت تصعد إليها السفن من وداي الفرات لتشحن خشب جبل طوروس .

(٤) الاطرون : بلد من نواحي فلسطين ثم من نواحي الرملة (ياقوت ج ٢ : ٢١٨ ط .ب)

(٥) لد : قرية من نواحي فلسطين قرب القدس (ياقوت ج ١٧ : ١٥ ط . ب)

(٦) قرتيا : بلد قرب بيت جبرين من نواحي فلسطين من أعمال بيت المقدس (ياقوت ج ١٥ : ٣٢ ط . ب) .

(٧) صوبا : من قرى بيت المقدس (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٢ ط . ب)

(٨) هرمس : ذكرها ياقوت هرمز : وهي قلعة بوادي موسى عليه السلام بين القدس والكرك (ياقوت ج ٢٠ : ٤٠٢ ط . ب) .

(٩) السلع : حصن بوادي موسى عليه السلام بقرب البيت المقدس (ياقوت ج ١٠ : ٢٣٦ ط . ب) .

(١٠) عفرا : أو عفربلا وهي بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (معجم البلدان ج ١٤ : ١٣١ ط . ب) .

والظفر الذى أضحك الأولياء وأزعج الاعداء وأبكى ؛ وتُلى عليه (قد أفلح المؤمنون (١) و (قد أفلح من تزكى (٢)) ؛ كان وصل الى السوادة فى سواده وبياضه ، وبحار جيشه وبراضه (٣) وورد من مورد النصر إلى حياضه . فجاش بجيوشه ، وجاز العريش بعريشه ، وزار دار الداروم بدءورها ، وأجفلت قدامه البلاد فى كل من اعتمد عليه بأمورها .

ووصل الى يافا ففتحها عنوة ، ونال العسكر منها بالنهب والسباء حظوة . ثم حضر مجدل يابا وحصرها ، وطلبت منه الأمان فأنظرها . وكتبنا اليه بالاقامة فى ذلك الجانب ، ماضى العزائم قاضى القواضب . وأن يستفتح من البلاد ما يتعجل فتحه ، ويقدم من الرجاء ما يتيسر نجحه ، إلى أن نفتح مافى جانبنا من البلاد ونتسلمه ، وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده ونغتنمه .

وقد كنا أنهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية ؛ وحيفا وقيسارية ؛ من يتولى افتتاحه ، ويستقبل من مهب النصر أرواحه . فنصرهم الله على الناصرة وقيسارية قسرا ، وتسلمت البواقى سلما ، ورأى من كان فيها سلامته غنما ، ورضى بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبنين وبيروت بالأمان ، بعد أن قاتلنا أهلهما قتالا شديدا ألجأهم الى الاذعان . فأما صيداء فان صاحبها أذعن الى التسليم ، بعد أن بات منا بليله السليم . وأما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الأسر ، ورأى ربح خلاصه فيما تعجله من الخسر .

وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك العادل على عسقلان ، وهان لنا كل ما استصعب منها ودان ، وظهر انا منها وجه الفتح وبان ، وأمكن كل ما تعذر واشتد ولان . وزاحمنا مناكب أبراجها من المنجنيقات بمناكب ، وأصبنا فوائدها لما رميناها بمصائب . وأصمينا مقاتل الأسوار بسهام

(١) الآية ١ سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٤ سورة الأعلى .

(٣) براضه : البراض جمع البرض وهو القليل والمعنى أنه وصل فى كثير جيشه وقليله .

قسيها ، وعاقبناها بحبالها وعصيها ، واقتدنا بخزائم الكره أنف الطاعة من عصيها ، وصافحنا ببيض الصفائح يد الرضى من أبيّها . وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها ، ونهضت أحجار الرماة إلى أحجار البناء فهدّتها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب ، فرقصت للاضطراب لا الإطراب . وعادت الحجارة الى أصلها من التراب .

ولما أيقن أهلها بالعطب ، لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسلمين مستسلمين ، وانقادوا مستكينين مذعنين . وأسلم البلد وأسلم ، وجدع أنف الكفر وأرغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه ، وقر منه الاسلام القريب فى مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة ، وأعدنا اليها العزة . وأتينا على الرملة ولد والنطرون ، وفتحنا بيت جبريل وجبل الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون .

ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الأرض المقدسة ، والحمد لله على نعمه المفرجة للكروب والطافه المنفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية بماهناه الله من الموهبة السنية ، وسناه من المنحة الهنية ؛ لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطي(١) ، وأمرناه أن يسير فيها من أصحابه من يقوم فيها بحق منابه. والمجلس السامى يشيع ميامنها ببلاد اليمن ، ويجلو عروسها البكر فى حسنها الحالى وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله التى خصنا بها وعمت الأمة ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم النعمة ، لازال المجلس مشكور الشيمة ، عالى الهمة ، منصور العزم إن شاء الله .

---

(١) سنقر الخلاطى : هو حسام الدين ، أحد مماليك صلاح الدين المعدودين توفى فى رجب سنة ٥٨٥ هـ .

ودخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان صلاح الدين (١) مقيم بعكا (٢) وربيب الربيع رضيع ، ووشى الروض وشيع ، وصنيع القدر نصيع ،وشمل الظفر جميع ، وفضاء الفضائل وسيع ، ومَراد المُراد مريع ، ونسيم الأسحار لاسرار الأزهار مذيع ، وأريج الجو العليل فى شفاء غليل الجوى شفيع . والدهر قد ثمل وأفاق ، والزهر قد شمل الآفاق . وللمحاب مهاب ، وفى الشعاب أعشاب . وخدود الشقائق (٣) محمرة ، وثغور الأقاحى (٤) مفترة ، وعيون النرجس مصفرة ، وشفاء المنابع مخضرة . وأحداق الحدائق الناضرة ناظرة ، ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت متموجة ، وحافات المناهل متدبجة . وجباه الغدران متغضنة ، وجفون النوار متوسنة ، والأفنان مورقة والورق (٥) متفننة . وخد الخيرى (٦) مورد ، وخد العرار (٧) مجرد . وعرف البهار قد تأرج ، ووجه الجلنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل ، وعذر الزمان قد قبل . وشارب النبت قد طر (٨) وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى وسر ، وطُبْى الطيب قد حفل ودر .

وتقاضى السلطان غريم عزمه بدين الدين ، وآن أن يصحر ليث بأسه الخادر من العرين . فأبرز مضاربه ، وجهز كتائبه . وضرب سرادقه ،

---

(١) زيادة من أ (١٠١ ى) ساقطة فى ب و ل .

(٣) الشقائق : جمع شقيقة النعمان ، وهو نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء .

(٤) الأقاحى : جمع أقحوانه ، وهو نبات أوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان .

(٥) الورق : جمع أورق وورقاء ، وهو كل مالونه لون الرماد ، والورقاء، تطلق على الحمامة كما تطلق على شجرة لها ورق ناعم مدور واسع غبراء الساق .

(٦) الخيرى : هو المنثور الأصفر (نوع من الزهور) .

(٧) العرار : هو النرجس البرى ، بهار ناعم طيب الرائحة .

(٨) طلع وظهر .

وعرض فيالقه ، ونشر بيارقه ، وحشر رواعده وبوارقه.وأنفق خزائنه ، وأنفد دفائنه . وبذل فى صون الدين ديناره ، وأشعل فى حفظ ماء الهدى وعلى العدا ناره .

وسار على سمت حصن كوكب ، وعن قصده ما تنكب . ونزلنا عليه فى العشر الأوسط من المحرم ، ومامنا الا من له بقتال العدو فيه لهج المحب المغرم ، ولعزمه وهج اللهيب المضرم .

فوجدنا كوكب فى سمائها كأنها الكوكب ، وظن الفرنج أنها لاتنكأ ولا تنكب ، وهى من المصاعيب التى لاتبرك ولا تركب . فأحطنا بالحصن وخيمنا حوله ، واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليها الرجال ، وتناوب عليه القتال .

وركب اليه السلطان ورازه (١) ، واستصعب احتيازه . ورأى أن مقاتلته تطول ، وأن مسألته تعول . وأن محاولته فى مطاولته ، ومصابه فى مصابرته ، واضاقته فى مضايقته . وأن مافى هذه الحال اقتضى تعذر اقتضاض عذرته ، ولامطمع الآن فى فرع ذروته ، ولا قرع مروته .

وكان فى خواصه وأهل استخلاصه ، لم تتجمع عساكره ، ولم تتموج زواخره . فأقام هناك بالتدبير مشتغلا وللاشغال مدبرا ، وبالاستظهار متأيدا وبتأييد الله مستظهرا ، حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس ، من كل محرب للحرب ممارس . وسلمهم الى (طغرل الجاندار) ، لمرابطتها بالليل والنهار . ووكل بكوكب (قايماز النجمى) فى خمسمائة مقاتل ، من كل ناصر للحق وللباطل خاذل . وكان (سعد الدين كُمُشْتَبَة الأسدى) بقلعة الكرك موكلا ، وبحفظها مكفلا .

---

(١) أى خبره .

ذكر حال الكرك من أول الفتح

وقد(١) مضى ذكر وقوع ابرنس الكرك فى الشرك ، بمعتكر (٢) يومه فى المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه ، وبسط كف الانتقام عليه بقبضه وكفه . وأنه أخذ رأسه ، وقطعت أنفاسه ، وقلعت أساسه . وكانت زوجته ابنة فليب صاحبة الكرك بالقدس مقيمة ، ولحفظ معاقلها مستديمة . وحصل ولدها (هنفرى بن هنفرى) فى قبض(٣) الأسار ، وقيد الخسار ، وغمة الانكساف والانكسار .

فلما يسر الله فتح البيت المقدس ، وأصبح الاسلام عالى اليد والكفر غارم المعطس ؛ خرجت صاحبة الكرك متعرضة للخضوع ، متضرعة بالخشوع ، وبرزت مسكينة مستكينة ، مستعطفة (٤) مراحم السلطان مستلينة . رافعة عقيرتها بالابتهال ، شافعة فى فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا من شأنه التضفر ، مسفرة عن وجه من عادته التخفر . حاسرة حسرى ، باسرة لحزنها بأسرى . والدة تنشد ولدها ، والهة دخل الرعب خلدها . مطلقة ميسورها ، مستطلقة مأسورها . ثانية عِطفى العطف لواحدها ، راثية بعانى الذل فى خلاص ساعدها .

سائلة فى فلذة كبدها ، جائلة بجلوة كدها ، باسطة يدها لقبض يدها . ناثرة خرزات دموعها ، عاثرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها ، ناهضة فى نجاح استشعافها . زاجرة بنوحها ، عاجزة عن بوحها .

وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك ، كأنها من بنات الفلك ، باديا صبح وجهها اليقق (٥) فى ليل شعرها الحلك . مشرقة من أوجها ، مشفقة

---

(١) الواو ساقطة فى أ (١٠٢ ش) .

(٢) فى أ (١٠٢ ش) ومعتكر .

(٣) فى أ (١٠٣ ى) قنص .

(٤) فى ب مستعطفة والتصحيح من ل ومن أ (١٠٣ ى) .

(٥) اليقق : القطن ، جمار النخل ، الشحم الأبيض والمقصود بياض وجهها المتلىء .

على زوجها . محترقة على فداء الخليل ، مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد أصفرت من مطالعها وأصحرت ، حادرة عبرة فى مدامعها طحرت (١) . ناهدة متنهدة ، واجدة متوجدة . معتزة متذللة ، مهتزة متململة . باكية متلهفة ، شاكية متأسفة . مستدعية مستعدية ، عاطية مستعطية . ساكبة عبراتها ، راكبة عثراتها . خامشة وجناتها ، خادشة بشراتها .

وحضرت الملكة فى زوجها الملك خاطبة ، ولقرمها (٢) الندب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها ، وطلبت بطلها الذى هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم السلطان وفادتهن ، ووفر افادتهن ،وقرب ارادتهن ، وقرر زيادتهن . ووهب لهن ولأتباعهن وأشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة ، ووصلهن بصلاته الرفيعة . وخصهن بما لاق بكرمه من حسن الصنيعة ، ووثقهن بنجح الذريعة .

وأما الملكة فانه مكن محلها ، وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتى الشوبك والكرك ، ودخولهما فى معاقلنا وخروج أصحابهما منهما فى الدرك . فاستحضر ابنها هنفرى من دمشق إليها ، وأقر برؤيته عينيها . وسار معهم من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل ، ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل . فمضت إليها مع ولدها ، حسنة الظن بأهل بلدها .

فلما وصلت قاطعوها ، ودافعوها عن حصونها ومانعوها . وأخلفوا ظنها وخالفوها ، حيث ما ألفوها كما (٣) ألفوها . وجنحوا وجمحوا ، واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها وأقصوها ، وعددوا عليها الذنوب وأحصوها . وأفحشوا لها فى خطأ الخطاب ، وأوحشوها بالتنحى عن صوب الصواب . وسبعوها (٤) وسبوها ، وإلى موافقة الاسلام نسبوها .

---

(١) طحرت العين قذاها : رمت به .

(٢) السيد العظيم .

(٣) فى ب (كا) والتصحيح من ل .

(٤) أى شتموها واغتابوها .

وكلما لاينتهم خاشنوها ، وكلما قاربتهم باينوها . فوجدت نبوة توابها ، وعدمت إصحاب أصحابها ، وذكرتهم بحقوقها ، وحذرتهم من عقوقها . ولاطفتهم فغلظوا ، واسترضتهم فأحفظوا ، واسترعتهم العهد فما حفظوا ، ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا .

وانفصلت عنهم خائبة مخفقة ، هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها إلى السجن ، وعودها من الاصحار إلى الدجن (١) . ومضت إلى الحصن الآخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر . فانها لما ألمت بالشوبك ألمت من شوب كدرها ، وأملت نفعها فعادت بضررها . ولقيت من نوابها نوائب ، وفى موارد المراد منها أقذاء وشوائب ، فآبت بالأمل الخائب والعمل العائب ، والخوف الصادق والرجاء الكاذب .

فلما رجعت قبل السلطان عذرها ، وأزال ذعرها . وأعلمها بأن ولدها محفوظ ، وبالرعاية ملحوظ ، وبالعناية به محظوظ ، وهو فى حصن السلامة إلى أن تتسلم الحصون ، وإذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت إلى الوعد ، وسكنت بعكاء فى ظل الرفه والرغد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكاء إلى صور ، واستودعت السلطان ابنها المأسور .

وأمد السلطان (سعد الدين كمشبه) فى حصار الكرك والشوبك ، بأمراء يساعدونه فى الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفى لمحاصرتها ، ويفى بمصابرتها ، ويلبث فى مقابلتها ، ولا يعبث . بمقاتلتها .فانها تبقى على قوتها مالم تُقْوِ من قوتها ، وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب السلطان هذه المراتب ، ورب هذه المآرب ، أقام حتى وثق باستمرارها وتحقق حتى استقرارها .

---

(١) الدجن : المطر الكثير الغيم المطبق المظلم والمقصود هنا أنها اغتمت وحزنت حزنا شديدا بعد أملها وفرحها بخلاص ابنها من الأسر.

ذكر ما دبره فى عمارة عكاء

اختلفت الآراء فى أمر عكاء فإنها كانت مدينة متخرقة ، وبيوتها متفرقة . وسورها غير معمور ، ومعظمها بلا سور . ورأوا أن فى ابقائها خطرا ، وأن فى اخلائها ضررا . فمن أصحابنا من أشار بخرابها وحفظ الحصون ، وبناء قلعة القيمون ، ومنهم من قال : إذا صينت عكاء ، ملك البحر ، وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية قفلا ، وكانت بها بلاد الكفر عقلا . فمن قائل بابقاء برج الداوية لحفظ مينائها ، ومن قائل نختصرها من أدنائها ، ومن قائل نجدد سورها ، ونحكم أمورها ، ونبقيها بحالها ، ونعمرها بكمالها . على أن أسوار هذه البلاد سيوفها التى هى عند الفتوح مفاتيح أقفالها ، وأجالوا الفكر فيمن يجلى غوائلها ، ويحلى عواطلها . ويتوحد بتدبيرها ، ويتفرد بتعميرها ، ويجتهد فى تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش (١) لتولى عمارة عكاء

فقال السلطان « ما أرى لكفاية الأمر المهم ؛ وكف الخطب الملم ، غير الشهم الماضى السهم ؛ والمضىء الفهم ، الهمام المحرب ؛ النقاب المجرب ؛ المهذب الاوذعى (٢) ؛ المرجب (٣) الألمعى ؛ الراجح الرأى ؛ الناجح السعى ؛ الكافى الكافل بتذليل الجوامح ؛ وتعديل الجوانح ؛ وهو الثبت الذى لا يتزلزل ، والطود الذى لا يتحلحل ؛ (بهاء الدين قراقوش) الذى يكفل جأشه بمالا تكفل به الجيوش »

« وهو الذى أدار السور على مصر والقاهرة ، وفات وفاق الفحول بآثار مساعيه الظاهرة ، فنأمره أن يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة ، ونؤمره لهذا الأمر فهو جدير بالأمر والإمارة » وكوتب بالحضور ، لتولى الأمور ، وعمارة السور . فوصل متكفلا بالشغل ، متحملا للثقل . منشرح الصدر بالعمل ، منفسح السر والأمل . مبتهجا بالأمر ، ملتهجا بالشكر .

وقد استصحب معه كل ما يفتقر إليه من أسباب العمارة وآلاتها ، وأدويتها وأدواتها ، وأبقارها وأبقارها ، ورجالها وعمالها وعمارها ، ومهندسيها ومؤسسيها ، وحجاريها ومعماريها . والأسارى والصناع ، والنجات والقطاع . والمال الكثير للنفقة ، والذهب الإبريز والرقة .

---

(١) بهاء الدين قراقوش : هو قراقوش بن عبد الملك الأسدى ، الخادم الصلاحى وقراقوش لفظ فارسي معناه العقاب ويطلق على الإنسان الشهم الشجاع ، اتصل بخدمة صلاح الدين بعد عمه أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين يثق به ويعتمد عليه فى مهماته ، وهو الذى بنى قلعة الجبل والسور على مصر والقاهرة والقنطرة التى عند الأهرام ، وقد سلم إليه صلاح الدين عكا بعد فتحها ثم أسره الفرنج بعد استردادها فافتداه صلاح الدين ، توفى سنة ٥٩٧ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٧٧ — ١٧٨ ط . دار الكتب) .

(٢) الوذعى : الذكى اللحن ، الحديد الفؤاد ، الفصيح اللسان .

(٣) المرجب : المهيب المعظم .

ومثل بالخدمة السلطانية على كوكب ، وحضر الموكب . وشرف بأسنى الخلع وأعطى الملبس والمركب . وفوّض إليه وقلده ، وأسعفه من عنده وأسعده . وقوى جانبه ، وأعذب مشاربه ، وأوضح مذاهبه ، وأنجح مآربه . وأيّد يده ، وأجد جدده ، وكثر مدده ، ووفر عدده وعُدده . وخصه بعطاياه ، واستخلصه لوصاياه .

فتوجه إلى عكاء وشغله متوجه ، وعزمه متنبه ، وسره مترفه ، وفكره فى رياض الهدى متنزه . وأمره ماض ، وحكمه قاض ، والله عنه راض . وقام بما أقيم له ،ونهض بالعبء وحمله ، ومشى بكفايته عمله . وشرع فى التعمير والتسوير ، وتسوية الأمور بحسن التدبير .

وسيأتى شرح ماجرى بعد ذلك فى مكانه . وما ظهر من حسن إيالته واحسانه .

ذكر وصول سلطان الروم قليج أرسلان (١) وغيره من الرسل

لما شاع خبر السلطان باستيلائه على البلاد ؛ واستعلائه فى الجهاد ؛ وتأرجت الأرجاء بعَرْف عُرفه ، وأرخت السير بمحاسن وصفه ؛ عنت الأمصار لمصره ، وأذعنت الأملاك لملكه ؛ وانقادت الأمراء القادة بأمره : وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح ، وشروح ايراده وإصداره تحل فى صدر الزمان المشروح . فتهيبه بالضراعة كل عظيم، وتأهب له بالطاعة كل إقليم .

ورهبه ملوك الأطراف ، وتعلق باستزادة الشرف منه أمل الأشراف : فكاتبوه مستسعفين ، وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا ، وواصلوه بالهدايا . ورغبوا فى امتراء (٢) خلف الامتزاج ، والأتشاح والالتحاف بحلف الاتشاج . وخطبوا الوصلة ، وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه أماناً ، وليده وقدمه من تمكينه وتأييده إمكاناً ومكاناً . ويتوصل ويتوسل ، ويتلطف ويتطفل ، ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه ، ويتخشى عواقبه. ويديم التردد للتودد ، والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسُوله ، ولايقبل عليه منه إلا بقبوله .

ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد ؛ المتسببين إلى حصول الاتحاد ؛ سلطان الروم (قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان) . فإنه بذل الإذعان وسأل الإحسان . وأدى فى المودة الأمانة ، وأبدى للرغبة الاستكانة .

---

(١) قليج أرسلان : هو السلطان ، عز الدين ، قليج أرسلان بن مسعود بن سليمان قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق صاحب بلاد الروم (آسيا الصغرى)، طالت أيامه واتسعت ممالكه، ثم أصابه الفالج ، وتنافس أولاده ، وقد حكم عليه ابنه قطب الدين ملكشاه بعد أن كسر جنوده ونقله إلى قيسارية ، وعهد عند موته لابنه غياث الدين ولم يعهد لقطب الدين المذكور ، توفى سنة ٥٨٨ هـ – (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٨ ط . دار الكتب).

(٢) امتراء خلف : امترى واستمرى ، استخرج اللبن واستدره . والخلف ، حلمة ضرع الناقة والمقصود أنهم رغبوا فى التقرب واستدرار خير صلاح الدين .

واستنهض فى سفارته السفيز الألب ، وندب النَّدْب . وأنفذ أكبر أمرائه ، وأعظم سفرائه ؛ وهو (اختيار الدين حسن بن غُفْراس) . وكان فى دولته مقدماً ، وفى مملكته محكماً ، وعند أهل ولايته معظماً . وقد استعلى عليه واستولى ، واستبد بالتدبير عليه كأنه بمُلكه أولى . ولا تصرف له فى ملك ولامال إلا بتصريفه ، ولا تعرف له عن حادث وحال إلا بتعريفه .

فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد ، وتشييد المقاصد . وتجديد العهود ، وتأكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادماً ، وخدم حاضراً وحضر خادماً . وقبل البساط وبسط وجه القبول، وتمثل له الشرف فتشرف بالمثول . وحيا تحية المماليك للملوك ، وحفظ الأدب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك .

فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب ، والبر والتقريب . وأعزه بنزوله فى ذراه ، وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الإنعام بما ضاق عنه أمله ، وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله ، وشفع رسالته بالإصغاء ، ورفع مقالته عن الإلغاء . وسمع ما جاء به وأجابه ، وأبعد بادناء مآربه ما رابه . وشافهه بشفائه ، وأرواه برؤاه ، وأولاه لولائه ، وعرفه بالتعرف إلى آلائه .

ونصبت له خيمة مسردقة ، شهادات الإقبال الناصرى لها مصدقة ، ووجوه الكرامات بها محدقة ، وسحب المبرات لها مغدقة . فأقام أياما بأيامن مقيمة ، ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمة . فلما استقام أمره استقل، واستدر له بارق البر من سماء السماح واستهل . ومارام حتى نال مارام ، ووثق لإحكام المواثيق الأحكام .

ووصل فى تلك المدة أيضاً (الصلاح قُتلغ أبة) وهو أتابك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا أرسلان(١)، وافيا موافياً بإحسان الخطبة وخطبة

(١) قطب الدين سكمان : أو سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب آمد وحصن كيفا ، خلف أباه على آمد وغيرها سنة ٥٨١ هـ ، مات سنة ٥٩٧ هـ بسبب سقوطه من سطح جوسق له بحصن كيفا (أبو الفداء ج ٣ : ٦٩ و١٠٢ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

الإحسان . راغباً فى تتميم الوصلة ، وتعميم الصلة : آخذاً لصاحبه ملك ديار بكر عهداً محكما ، وعقداً من الميثاق مبرماً . وقد أحضر قضاة بلاده شهوداً ، واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهوداً .

وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل ، ومت بكثرة الشوافع والوسائل . وكان خائفاً على آمد فإنها من فتوح السلطان ، ووهبها لأبيه (نور الدين بن قرا أرسلان(١)) . فأشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده ، ورأى الأمن عليها وعلى جميع بلاده من أكبر مقاصده . ورغب فى المصاهرة للمظاهرة وأن يفتح بها باب المزاورة للموازرة .

فآواه الملك العادل إلى ظل هذه المواشجة ، ووثقت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه ، وعم يمنه ، وزاد قربه ، وزال رعبه .

وجلس السلطان ، وحضر عنده الأماثل والأعيان . وكان وكيل أخيه الغائب ، فى إنشاء العقد مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد بأركانه ، اعتضد ملك ديار بكر بمكانه . وسار صاحبه بالمسار مصحوباً وعاد ذيله بالفخار مسحوباً ، وقال له « قد وجدت الحزن فلا تحزن ، واشتد ركنك فإلى سواه لا تركن » . وما من كبير أو أمير إلا وقد وصل منه أكبر أمرائه ، ليتظم بعهد السلطان فى زمرة أوليائه .

---

(١) نور الدين ابن قرا أرسلان : هو محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وكان قد تسلم آمد قبل ذلك من صلاح الدين الأيوبى ، توفى سنة ٥٨١هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٠٣ ، ط . دار الكتب) .

وأقمنا على كوكب إلى آخر صفر ، ننتظر منها يمن كفر الظفر. ثم رأينا أنه يطول حصرها ، ولا يفوت أمرها . وأن الفتح يبطىء وان كان السهم لا يخطىء : فأمر الأمراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون ؛ بالمقام عليها وابتذال سرها المصون .

ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة،ظاهر العزيمة . سامى اللواء ، هامى الأنواء ، نامى الأنوار فى مطالع المضاء . ودخل إليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول؛بالصدر الأرحب والباع الأطول . وتلقاه أهل البلد بوجوه لإقباله متهللة ، وألسنة بالدعاء له مبتهلة ، وعيون لأنواره مجتلية ، وقلوب بولائه ممتلية ، وأسماع لأمره مستمعة ، وأيد إلى الله فى نصره مرتفعة ، وصدور بأيامه منشرحة ، وآمال فى انعامه منفسحة ، ونفوس على طاعة الله فى طاعته مجبولة ، وأعمال فى رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة ، وأدخل إليها السكينة . فوجدت الروح بسلطانها ، وعادت الروح إلى جثمانها وقرت به عيون أعيانها ، وأقرت له بحسنها واحسانها .

وابتدأ بالجلوس فى دار العدل ، وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل . واسترفع قصص المتظلمين ، واستمع (إلى) غصص المتألمين . وكشف الظلامات المظلمة ، وفصل الحكومات (١) المستحكمة . وقرأ كل قصة ، وقرأها بكل حصة (٢) . وحقق الحقوق ، ورتق الفتوق ، وأقام للشرع السوق ، وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحل بانصافه كل مشكلة ، وطب باسعافه كل معضلة . وأصحت سماء السماح ، وأصحب جماح النجاح. وأعدى المستعدى ، وأروى الصدى ، وحيا الحَيِّ وأردى الردى ، ومجد المجدى ، ومهد الحق حتى قيل هو المهدى. فما انقضى ذلك اليوم ؛ وانفض أولئك القوم ؛ إلا عن مظلوم أجيز بالحق ، ومعلوم أجرى من الرزق .

---

(١) الحكومات : أى الأقضية والأحكام .

(٢) حصة : نصيب والمقصود بكل نصيب من الدقة والاهتمام .

وعالم أعين ، وظالم أهين . وهاد زين ، وعاد شين ، ومختل سدد ، ومنحل عقد . ومعتل شفى ، ومعتر كفى . وما حل جيد ، وآمل زيد ، وركن حق شد وشيد ، وخدن باطل أبيروأبيد . وراج أدنى فوزه ، ولاج أسنى عزه .

وجلس يوما آخر للأكابر والأماثل ، والأكارم والأفاضل . فأضاء النادى ، وفاضت الأيادى . وغدق الندى ، وصدق الهدى . وكر الكرم ، وفرالعدم . وحفل الدر ، ودرّ الحفل ، وشمل النظام وانتظم الشمل ، وصان العلماء بالبذل ، وأعان بافضاله أعيان أهل الفضل . وفاز بالحمد وحاز الثناء . وأجاز الشعراء ، وأكرم الكرماء ، وروج الرجاء ، وأولى النعماء ، ونعم الأولياء . وتقاضاه عزمه بالحركة؛ لاستفاضة البركة، واستضافة المملكة إلى المملكة فلم تستقر به دار ، ولم يدر به قرار ، ولم يثبت فى جفنيه غرار . ولم يبت إلا وبين جنبيه لحب لقاء العدا أهل النار نار .

وكان (الصفى بن القابض) (١) قد استجد للسلطان على بعض أبراج القلعة داراً ؛ وأذهب فى نضارتها ذهباً ونضارا (٢) . وهى متطاولة بين البروج، مطلة على المروج . مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين . صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهوشهية الزهو، مجددة لأهل الجد ذكرى اللهو . فرشها بماء الورد،وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق ستورها ، وأعلى نورها ،وحبز حبورها . وسرسرورها . وسنى أنواع نمارقها وأسمى أنوار مشارقها . وتوصل إلى حضور السلطان بها وجلوسه ، وذهبت تباشيز بشره بخطوب الزمان وعبوسه . وأحضره كل مقرظ بقريض وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضالة رجائه بنشيد ، وكل قاصد جلالة أرجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب، وكل مطر مطرب .

وظن أن السلطان تروقه تلك الحلية والحالة ، وتلك الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة ، وتلك الرقعة المقدسة . وذلك المشرف العالى ، وذلك

---

(١) هو صفى الدين بن القابض ، مات فى دمشق سنة ٥٨٧ هـ .

(٢) يقصد بالنضار : الأثل وهو شجر خشبه صلب جيد ، تصنع منه الجفان والقصاع أيضاً لجودته .

المشرف الحالى . وانتظر نظر استحسانه لإحسانه ، وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما أعاره لحظاً ، ولا أزاره حظاً . ولالمحه بطرف استطراف ، ولامنحه حرف استعطاف . بل أعرض بنظره عن تلك النضارة ، وأغضى عن تلك الغضارة (١) . وغض عن تلك الغضاضة ، واشتغل عن تلك الرياض بالرياضة .

فالعاقل من لايتخذ فى دار الدوائر معقلا ، ولايجد فى منازل النوازل منزلا . ولايركن إلى فناء الفناء لبيب ، ولايسكن فى غار الغرور أريب . وكيف يبنى العمران والعمر إلى الهدم ، والغنم فى الدنيا الدنيئة عين الغرم . وقال « السعيد من يبنى دار الآخرة ، وينجو من أمواج الدنيا الزاخرة » . ثم صرف فى تلك الأيام (الصفى) عن ديوانه ، وأبقاه فى شغل الخزانة على مكانه . وسمعته يقول فى بعض محافله ، وقد أجرى له حديث من يفرح بمنازله « كان من ذنوب الصفى عندى أنه بنى لى تلك البنية » ، فدل على أنه لم يوافق منه الأمنية . وقال « ما يعمل بالدار من يتوقع المنية وما خلقنا إلا للعبادة ، والسعى للسعادة . وما يخطر لنا فى هذه الدار خلود بالخلد ، ومالنا وللمقام فى البلاء والبلد . وما جئنا لنقيم ، وما نروم إلا أن لانريم ، وما تحركنا إلا للسكون ، وما أسهلنا إلا للنهوض إلى الحزون . فما يجنى ثمر الراحة إلا من مغرس التعب ، وما يجنى نصيب المغنم إلا من مغرم النصب . فأين الأين ، الذى تقر به العين ، وما يحصل السكون فى المسكون ولايكمل الوطر فى الوطن . لاسيما والدين يطالبنا بدينه ، والكفر يستعرب منا حين حينه . والبلاد سائبة ، والبلاء هائبة ، فلا تفوح الفتوح إلا بهبوبنا ، ولاينزل النصر إلابركوبنا » ، وغدا للحزم متمما ، وللعزم مصمما .

ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق بالغرب الماضى ، والحد القاضى . والجمع الوافر الوافد ، والجمر اللافح الواقد . وأن (عماد الدين زنكى ابن

---

(١) النعمة وطيب العيش والسعة والخصب .

مودود بن زنكي)(١) قد أقبل بقبيله ، ووصل برعيله . وقدم بجده ، وأقدم بجده . وأنه حل بحلب ثم سار عنها مسارعاً ، وجاء معه الجيش للنجدة والجلة جامعاً . فازهف العزم السلطاني خبر وصوله ، وحل بالشك للرحيل عقد حلوله .

وكان القاضي الأجل الفاضل ذو الجلالة والفضل ، والنباهة والنبل ، متأخراً في بيته بدمشق لشكاة أقام في غيرها ، واستقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال أثرها . والسلطان بنجح سعيه متبرك ، وبنصح رأيه متمسك ، وبطوله عالم ، وبقوله عامل ، وبعبارته قائل ، وللإشارته قابل :

فأراد السلطان أن يقدم بلقائه الاجتماع ، وبرأيه الانتفاع . ويستنير بنوره ، ويستشيره في أموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته ، ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته . فإنه طالما اجتلى سنى السعادة من مطالعه ، واجتنى جنى الإرادة من صنائعه . وافتتح الأقاليم بمفاتح أقلامه ، وأحكم المملكة بثبوت أحكامه . ووافاه بأمداد السودد الوافى سواد مداده ، وجاءه بالوجاهة في دينه ودنياه لإسعافه وإسعاده .

وكان قد خرج إلى جوسق (٢) بالشرف الغربي الأعلى ، ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى . فأصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول على الرحيل ، وقصده لإبرام ما وجده في مملكته من الأمر السحيل(٣) . وأقام عنده في الجوسق إلى الظهر ، مستظهراً به على الدهر حتى كشف مهماته ، ورشف شفاه مشافهاته . والتجى معه في الآراء والآراب . وانتجع لريه من رأيه صوب الصواب ، وارتجع وديعة سر الغيب ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه ، ودعا له الأجل الفاضل وشيعه .

---

(١) عماد الدين زنكي : هو زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر ، ابن أخي نورالدين محمود ، صاحب سنجار ، كان عاقلا جوادا ، وكان صلاح الدين يحبه ويحترمه مثل احترامه لنور الدين ويقدم له الأموال والهدايا ، ولم يزل مع صلاح الدين حتى وفاته ، توفى بسنجار سنة ٥٩٤ هـ ، ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده قطب الدين محمد الذى لقب بالملك المنصور (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٤ ط . دار الكتب) .

(٢) قصر .

(٣) أى الضعيف ، أو المرذول ، أو المعيب أو المتأخر .

وبات تلك الليلة مخيماً بالعرادة (١) . مختماً بالسعادة ، راجح السيادة ، ناجح الإرادة . ثم سلك فى جبل يُبُوس(٢) إلى عين الجر(٣) إلى الدهمية على البقاع . وهو مطيع أمر الخالق ومتبعه والخلق تابع أمره المطاع . وأتى بعلبك المحروسة ، وخيم بمرج عدوسة . وأقام حتى أمرّ أمرها ، وأدر درها وقسم لها من عدله ، وعدل بها من قسمه ، وحكم فيها بفضله ، وأفضل عليها بحكمه . وكشف الظلم والمظالم ، وصرف المكاره وصرّف المكارم، ورفع من المعالى المعالم ، وأجرى رسوم الأجر والمراسم .

وأمر الرعاة برعاية أمر الرعية ، وحكم على القضاة بالحكم فى كل قضية بالجهة الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبوة، معصوم النوبة من النبوة . مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم أوجه إلى الزراعة وزرع الظفر قد توجه ، وشرع النصر الصافى الشرعة من الكدر قد تنزه ، وقد كحل عثير العسكر طرف الجو الأمره . وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة أن تعاود الهبّة وتتنبه ، وزرع بالزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الحظ وقتاد الخرط ، وضاق ذلك الفضاء الواسع بخط رحال الرهط .

---

(١) العرادة : قرية قرب نصيبين (القاموس المحيط) .

(٢) جبل يبوس : بالشام بوادى التيم من دمشق (ياقوت ج ٨ ط . ب) .

(٣) عين الجر : موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق (ياقوت ج ١٤ : ١٧٧ ط . ب) .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار (١) والاجتماع به

ووصل الخبر بأن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وصل جامعاً من الأدانى والأقاصى ، ونزل طائعاً على العاصى (٢) . وخيم على قدَس(٣)، وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأنس ، والكفر بقدومه تعكس . وأنه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه على قهر الشرك ونصر الإيمان . فركبنا وابن ذكاء (٤) فى إسفاره ، والصبح قد زحف على الليل برايات أنواره والفجر قد فجر أنهار نهاره . وسرنا بصدق النزاع وقصد الاجتماع : فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب مقبلا .

ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة وأكرم ملقاه . ونزلا فتعانقا ، ثم ركبا وتوافقا وتساوقا . وخيمنا بقرب مخيمه، وجثمنا عند مجثمه ، وحططنا هناك رحالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا . وتساعد الجندان ، وسعد الجدان ، وجد السعدان . وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمان . واتحدت الكلم ، واتآدت الهمم .

وسأل السلطان أن يوازره ويزوره ، ويحضره بحضوره حبوره ، فساق معه إلى مضربه(٥) . وضافه فى موكبه . وانقلب إلى قربه ، وتقرب إلى قلبه(٦) وارتفع فى صدره ، ورفع من قدره . وصار العسكران مختلطين ، وجلسا

---

(١) سنجار : بلدة فى لحف جبل عال من أعمال الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام (ياقوت ج ١١ : ٢٦٢ – ٢٦٣ ط . ب) . .

(٢) العاصى : نهر يخرج من بحيرة قدس ويصب فى (البحر الأبيض المتوسط) قرب أنطاكية ويسمى عندها الأرند ويذكر ياقوت أن تسميته بالعاصى ترجع إلى أن أكثر الأنهار تتجه نحو الجنوب بينما يتجه هو نحو الشمال (ياقوت ج ٦ : ٩٦ ط . ب) .

(٣) قدس : قرية قرب حمص (القاموس المحيط) .

(٤) أى الصبح .

(٥) ساقطة فى ب ، مثبتة فى ل وفى أ (١١٣ ش) .

(٦) ما بين القوسين ساقط فى ب مثبت فى ل وفى أ (١١٣ ش) .

منبسطين : ووقف الأمراء والعظماء سماطين[1] كالسمطين[2] . وقرأ القراء ، وأورد الشعراء ، وتجاذب بينهم أطراف الطرفِ والآداب الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شاعره (السنجارى ابن الهائم) [3] ، ومن عادته إيراد المدائح فى مثل تلك المواسم . فأنشد مدحاً ، ونشد منحاً . ثم بسط السماط وسمط[4] البساط . ومدت الموائد ، وعادت العوائد . ونضد الخوان وكونت الألوان ، ولونت الأكوان ، وصفّت الجفان . وأحضر الطهاة من كل حاجة وباجة[5] ، وخروف ودجاجة . وحلو حامت[6] وحامز[7] وحامض ، وتفه وقابض . ومطبوخ ومشوى ، ومصنوع ومقلى — ما طاب مذاق مذقه ومحضه[8] ، وطالت الأيدى فى بسطه وقبضه .

فلما رفع من ناديه القرى ، وفرع بأياديه الذرا[9] ، قدم ما أعده للهدايا ، والتحف السنايا من الجياد المقربة ، والثياب المذهبة ، والعدد المعجبة ، والأسلحة المذربة[10] . وكل ما يروق ويروع ، ويضىء ويضوع . ثم انفض النادى عن ندى منفض ، وسدى لبكر الشكر مقتض .

---

(١) السماط : ما يبسط ليوضع عليه الطعام

(٢) السمط : هو الخيط مادام الخرز أو اللؤلؤ منتظماً فيه .

(٣) ابن الهائم السنجارى : هو أسعد بن يحيى بن موسى ، السنجارى ، بهاء الدين ، فقيه غلب عليه الشعر ، من أهل سنجار ، ولد بها سنة ٥٣٣ هـ كما مات فيها سنة ٦٢٢هـ ، له ديوان شعر فى مجلد كبير ، وفى شعره رقة (معجم الأدباء ج ١٠ تحقيق د . فريد رفاعى) .

(٤) علق .

(٥) الباجه : بالنوع أو الشكل .

(٦) أى شديد الحلاوة .

(٧) الحامز : من الشراب أو الطعام هو ما كان فيه لذع وحدة أى حموضة .

(٨) الخالص الغير مخلوط .

(٩) الذرا : جمع ذروة وهو العلو ، المكان المرتفع ، أعلى كل شىء والمقصود كل شىء سام .

(١٠) الحادة القاطعة .

وعين السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده ، وأنه يستضيف فيه خواصه وأمراءه وجنده . فوسع مرافقه ، ووشع (١) نمارقه (٢) ، وضرب بيت الخشب له لحسب بيته ، وأسميت (الحسنى) بحسن سمته وسمته ، واحتفل بحفله ، وأجل لأجله . وأرجت أرجاء النادي بالند (٣) . وراق مد النواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد ، وبسط على البسط ماحضر من الياسمين والورد . وفاح النشر ، ولاح البشر . وفرش الثرى ، وشرف البرى . ورفع الحجاب ، وأشرعت القباب ، وتوجهت الأسباب ، وتنزهت الألباب . وتضوعت نوافح النوافج ، ووضحت مناهج المباهج ووضعت المطارح والمساند ، والأسرة والوسائد .

وجاء عماد الدين في خواصه وأمرائه وصحبه ، فتلقاه السلطان برحبه ، وقرب له السرير وسر بقربه ، وأجلسه إلى جنبه ، وحباه بحبه ، وأقبل عليه بوجهه وقلبه ، وجلس من جرى بالجلوس رسمه ، وسما في الرءوس اسمه . ووقف الأمراء والحجاب ، والعظماء والأصحاب ، على مراتبهم في مواقفهم ودب للاعتزاز الاهتزاز في معاطفهم .

وكان النادى مهيباً ، والندي مجيباً ، والذرا (٤) رحيباً ، والقرى قريباً . والظل ممدودا والفضل مورودا . والحفل حافلا ، والشمل شاملا ، والبساط مقبلا ، والنشاط مقبّلا . والمرئى حالياً ، والمروى عالياً . والمسموع مطرباً ، والمجموع مغربا . والمنظر والمخبر جليلا جميلا ، والمطلع والمطلب منيراً منيلا . والمكان عليا ، والزمان جلياً . والربيع في انتهائه ، والصنيع في اشتهائه ، والمصيف في ابتدائه ، والمضيف في انتدائه . والنعيم في نضرته والكريم في نصرته . والأريب في أربه ، والطروب في طربه ، والضريب من المخلق المحسن في ضربه .

---

(١) فرق وزين ونظم .

(٢) النمارق : وأحدها نمرق ، وهى الوسادة الصغيرة للاتكاء عليها .

(٣) الند : عود يتبخر به .

(٤) الذرا : فناء الدار ونواحيها والمقصود فناء النادي .

وكانت أيام المشمش وقد وصلت من دمشق أحمالها،وحلت فى تلك الحالة حالها ، وأقدم الجذل قدومها ، وطلعت فى أبراج الأطباق نجومها . كأنها كرات من التبر مصوغة ، أو بالورس (١) مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلا ذوقاً ، وأحل شوقاً ، ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو أحلى من السكر ، وأعبق من العبهر(٢) ، وأحسن هيئة من النارنج الأحمر ، والليمون المركب المدور ، وقد زفت عروسه فىالثوب المعصفر ، والخمار المزعفر . كأنما خرط من الصندل ، وخلط بالمندل . وجمد من الثلج والعسل ، فهو الذى يضرب بضربه مثل الثمل ، ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه ما نضر ، وما حظر ماحضر . ورقّى هناك لقطوفه قطاف ، ولطوافيزه (٣) طواف . ولعقوده مصارف ، ولنقوده صيارف . فكأنها وجوه العشاق اكتست اصفراراً ، أو جمرات تشتعل ناراً وتبدى شراراً ، وقد أعاد لجينها صواغ القدرة الإلهية نضاراً . بل هى أحداق الحدائق ، وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صبغها بلونه البرق ، وصفرها من خوفه الرعد، ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت من مهابة الجنات الجناة (٤) ، وانتظمت من جواهر الحيا للحياة ، واضطرمت لهاها شوقاً إلى فتح اللهاة .

ثم صرفت الأطباق ، ونظفت الآفاق . وبسط المكان ، وسمط الخوان . ونبهت أجفان الجفان للقدور الرقود ، وشبهت المراجل لغليانها بصدور ذوى الحقود . وتزيد مقال المقالى النشاشة ، وتزينت مقار المقارى بالبشاشة. ومادت أعطاف الموائد بالألطاف ، وتهادت أكتاف السرادق بموشى الأفواف(٥) . وهناك المسموط والمسلوخ ، والمخطوب المطبوخ . والمقلو المقلوب ، والمحبو المحبوب . والأغذية واللحمان ، والأشوية والحملان،

---

(١) الورس : نبات كالسمسم يصبغ به .

(٢) العبهر : النرجس أو الياسمين .

(٣) الطوافير : الخيل الوثابة .

(٤) الجناة : ما يجنى من الأشجار . أجنت الأرض ، كثر جناها وخيرها .

(٥) الأفواف : جمع فوف وهو الثوب الرقيق ، أو الثوب فيه خطوط بيض على الطول .

والألبان والألوان . والجوابى والروابى ، والصوانى والأوانى . وقد صفت البوارد ، وصفت الموارد . وتنوقت (١) الطهاه ، وتنوعت المشتهاه . وحلت الأطعمة ، وعلت الأسنمة . وجاش جاش الجاشنكير الرابط ، وعاش إخوان الخوانسلار (٢) الغابط . وتداولوا وتناولوا النوالات (٣) ، والحوالات (٤) ، والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا ، وحوضاً مورودا ، وروضاً معهوداً ، ورواقاً ممدوداً ، ورواءاً مودودا ، وجمعا مسعوداً ، وصنعاً محموداً .

ولما فرغت الموائد ، وبلغت المقاصد أحضر السلطان لعماد الدين هداياه وحباه بأحسن من تحاياه ، من خيل صفون ، وحُصن كحصون . وعراب جياد من طوائف الطريفيات (٥) ، وسوابق سوابح من العتاق الأعوجيات والمذاكى المنسوبات . من كل مطهم مطهر الخيم (٦) وكريم من نسل الكريم ، وصافن صافى الأديم . ومعرب مقرب ، ومجنب مُكرب (٧)، وسكب (٨) مشذب ، وفيض سلهب ، وبحر جموم (٩) وطرف لهُموم (١٠)

---

(١) تنوقت : أجادت فى مطعمها ، أوتجودت .

(٢) الخوانسلار : كلمة فارسية الأصل ، مركبة من كلمتين : خوان بمعنى مائدة وسلار بمعنى رئيس أو أمير أوقائد (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . ب ١٩٠٨ م) .

وجاء فى معجم الألفاظ الفارسية الدكتور محمد موسى هنداوى : ١٢٩ أن خانسلار هى بمعنى رئيس الطهاة فى القصر الملكى ، أو رئيس الديوان .

(٣) النوالات : واحدها نوله بسكون الواو وفتح النون وهى ما يناله الإنسان .

(٤) الحوالات : نوع من الضرائب المؤقتة كانت تفرضه الحكومة فى مناسبات مختلفة ومن أمثلتها حوالة الأسواق وحوالة الأجناد (الروضتين لأبى شامه ج ١ تحقيق د . محمد حلمى أحمد و Dozy. Supp. Dict. Arabe)

(٥) الطريفيات : الكريم النسب من الخيل .

(٦) الخيم : الطبيعة والسجية .

(٧) مكرب : الصلب ، الممتلىء عصبا .

(٨) سكب : شديد الجرى .

(٩) جموم : تجيمع ماؤه بكثرة .

(١٠) الهموم : الجواد من الخيل ، أو الناس .

وسرحوب(١) شيظم(٢) . ويعبوب(٣) ضلدم . وأجرد قوود . وضامر قيدود(٤) . وأقب(٥) نهد ، وجواد ورد . ومسحرفل(٦)طمر(٧) . وأشق(٨) أمق (٩) غمر (١٠) . ومفرع طموح . وعتيق غير جموح . وهيكل عال وعنجوج (١١) ذيال . فاختار منها كل طرف . قد حط من قدره إذا قوم بألف . من كل أشهب قرطاسي ، وأشعل سوسني ، وأغر صنابي . وأدهم غيهبي . وأحم أحوى . وأشقر مدمى . وأبرش مدثر ، وكميت مضمر . وأخضر وأدبس (١٢) ، وسمند أغبس (١٣) .

ثم أحضر له ما يناسبها من التحف اللائقة ، والطرف الرائقة ، والعدد الزائقة ، والأسلحة المائعة . والسابريات السابغات ، والدروع والزرديات ، والزووس والزانات . والخوذ والترائك ، والبواتر البواتك . والدلاص الموضونة ، والنصال المسنونة .

---

(١) سرحوب : طويل متناسب الأعضاء .

(٢) الشيظم : الطويل الجسم الفتى من الإبل والخيل .

(٣) يعبوب : السريع الطويل من الخيل .

(٤) ضامر قيدود : الضامر ، ما قل لحمه . والقيدود ، من الدواب ، ما يمشي أمامها أحد آخذ بقيادها .

(٥) أقب نهد : الأقب من الخيل ، الضامر البطن الدقيق . والنهد : الذي يبرز ويسرع إلى قتال العدو .

(٦) الرفل : ذي الذنب الطويل من الخيل .

(٧) أي الفرس الجواد الطويل القوائم .

(٨) الأشق من الخيل هو الذي يشق في عدوه يميناً وشمالا .

(٩) الأمق : البعيد الأطراف .

(١٠) الغمر : من الخيل الجواد .

(١١) عنجوج : أي الجيد من الخيل والإبل ، والذيال : الطويل الذيل .

(١٢) أدبس : يقال أدبست الأرض أي أظهرت النبات وذلك عندما يرى أول سواد نبتها والمقصود ماكان لونه كلون سواد الأرض أول نبتها .

(١٣) السمند : هو طائر يكثر وجوده في الهند . والأغبس ماكان لونه لون الرماد والمقصود كل مالونه لون طائر السمند .

ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية، والملحم والدبيقي(١) والمصمت والمغربي والعراقي. ومن نسج تونة وتنيس (٢)، كل ثمين ونفيس. وما شاكله من أنواع الطيب، على النمط والترتيب. ثم انصرف وعترف خلده متضوع، وعرف جده متنوع. وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح، وأمره متخير متربع، ووده مترج مترجح. ودعاؤه صالح، وثناؤه صادح. ولسانه داع، وجنانه واع، وعهده راع، وسعده ساع.

وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس، والتناجي بما في النفوس، والتدبر فيما يقدم ويؤخر، ويقرب ويقرر، ويورد ويصدر. وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده، ويوفى العزم فيها الجهاد حق جهده. واتفقوا على عرقا (٣) وعرقها وعقرها، والنزول بمقترها. وأنها إذا ملكت ملكت طرابلس. وأسفر عن صبح فتحها الغلس، وأقام العسكر أياما على (قدس)، وتبيس النصر قد تأنس، ولسان الظفر قد توجس. وأتى العرب، ووافى الأرب. واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع، وآن الليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع، وانبعث الفيوض من النعم وفاض الينبوع، وأينعت ثمار المبار وطابت الينوع. ثم رحلنا أول شهر ربيع الآخر إلى البقيعة تحت حصن الأكراد (٤)، وخيمنا على الربا والوهاد، وصوبنا إلى الجهاد هوادي الجياد، وأدنينا قطاف ألطاف الله لاجتناء الأجناد. وكانت الأعشاب بالشعاب واصية، والشوائب من المشارب قاصية، والقضب للقرب في طاعة الله عاصية. وطار الرعب، وثار العجم والعرب، وخاف الكفر، وطاف الذعر، وقال نفر الشرك نفر ولا نستقر، وتشوروا وتشاوروا، وحاروا وتحاوروا. كأنهم في قبور حصونهم أموات،

---

(١) الدبيقي: اثواب تنسب إلى مدينة دبيق التي كانت بمصر.

(٢) تونه: جزيرة قرب تنيس ودمياط يضرب المثل بحسن مصنوع ثيابها وطرزها (ياقوت ج ٥: ١٤١ - ١٤٢ ط. ب).

(٣) عرقا: أو عرقة، بلدة شرقي طرابلس، بينهما أربعة فراسخ وهي بآخر عمل دمشق (ياقوت ج ١٣: ١٠٩ ط. ب).

(٤) حصن الأكراد: حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، ويقابل هذا الجبل حمص من جهة الغرب (ياقوت ج ٣: ٢٦٤ ط. ب).

لا ترتفع لهم من الوهل والوله أصوات . وأجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب ، وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر عن الأثقال ، وتجرأ على أخذ أهبة القتال .

وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر يبكى . (ومظفر الدين كوكبورى) وهو الذى حين يوارى صارمه المشهور فى نجيع العدا لزند الظفر يورى . وصحبه من فرسان العرب كل فارس معرب ، ومن شجعان الأكراد كل فاتك محرب . ومن فتاك الأتراك كل قسور قاسر ، ومن صيد الصناديد كل كسروى كاسر . وكل كمى كميش(١) ، واكْديش على اكديش (٢) . وقارح على قارح ، وخضم على سابح ، وجرى جار جارح . وبُهمة (٣) وبطل ، وجبل على جبل ، وفحل على فحل ، وذمر نكل (٤) . وورد على ورد ، ومرد على جرد . وحلس(٥) وحلبس(٦)، وباشر بالموت معبس . وأهيس(٧) أليس ، وأحمى أحمس . وغشمشم (٨) همام ، وأيهم(٩) مقدام . وباسل ذى باس،وعاسل عاس . ورئبال على رئبال (١٠) ، ومشتمل على شمال . وبحر على بحر ، وصقر على صقر.

وركبوا سلاهبهم (١١) ، وجنبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا ،

---

(١) الكمى : الشجاع أولابس السلاح — والكميش : السريع العزوم .

(٢) الأكديش : الحصان الخليط أوغير الأصيل أو الصغير غير الجيد ، وأحياناً يطلق اللفظ على الخيل الصغيرة الجيدة

(٣) أى الشجاع الذى يستبهم مأتاه على أقرانه .

(٤) الذمر : الشجاع . النكل : القوى الذى يغلب قرمه .

(٥) الحلس : الشجاع الحريص .

(٦) الحلبس : الشجاع .

(٧) الأهيس : الشجاع . والأليس : هو الشجاع الذى لا يبالى هولا ولا يردعه شىء .

(٨) غشمشم : من يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شىء .

(٩) الأيهم : الرجل الجرئ الذى لا يستطاع دفعه .

(١٠) الأسد .

(١١) السلاهب : جمع سلهب وهو الطويل من الخيل .

وجروا بالنوابل ذيولا . وطارابليس طرابلس بخوافى الخوف ، ودام الجوى فى رعب أهلها بدم الجوف . وماسار إلا من خف فى نهضته ، ونهض بخفته . وأحس حصن الأكراد بالأكدار ، وصفت على صافيثا(١) بوارق البوار . وقطع عرق (عرْقا) وعقرت ، وتعرمت (العُريْمة(٢)) وتعرقت ، ومزعت تلك الأعمال ومزقت ، وأرهقت وأزهقت . ونفرت أنفارها ، وبقرت أبقارها ، وملئت بالدوائر ديارها . وسيقت مواشيها ، وحشيت بالنيران أوساطها وحواشيها .

ونزل السلطان على حصن يحمور (٣) فما قدروا يحمونه ، وابتذل مصونه ، واستخرج مكنونه . وفتحه ومتحه(٤) ، ومساه بالدمار وصبحه . وأقام فى تلك الديار عشرة أيام يجوسها ويدوسها ، وقد حيزت له نفائسها ونفوسها . ثم رحل بمغنمه ، وقفل إلى مخيمه ، وعاد العسكر مسروراً منصوراً محبوراً موفوراً ، قد اطلع من تلك البلاد على العورات ، واضطلع بالغنائم من تلك الغارات ، ونكأمنها فى الأعمار والعمارات .

وانقضى شهر ربيع الآخر ، وذلك المرج يموج بالعساكر موج البحر الزاخر . وقد وصل قاضى جبله(٥) يحث على قصدها ، ويحض على إنجاز وعدها ، ويحرض على إعذاب وردها ، ويحقق أن الظفر فى هذه السنة يبتدئ من عندها ؛

ويقول «ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحتراسها ؛ وكثرة ناسها ؛ وتدرعها بلباس باسها ؛ واستعدادها للحصار ، وتجنبها عن الإصحار ؛ يذهب الزمان ، ويفوت الإمكان . وهذه جبلة وماوراءها من المعاقل ،

---

(١) صافيثا : قلعة تقع إلى الشمال من عرقة ، من أعمال حلب قرب اللاذقية .
The Crausaders in the east p. 192

(٢) العريمة : بلد تتاخم الدهناء وكان حصناً قوياً من الحصون التى دخلت فى نطاق نفوذ امارة طرابلس اللاتينية (ياقوت ج ١٣ : ١١٥ ط . ب) .

(٣) حصن يحمور : ارجع إلى خريطة القسم الشمالى من الشام . وهو حصن فى يحمور بلد شمالى العريمة .

(٤) متحه : أى انتزعه .

(٥) جبلة : قلعة بساحل الشام قرب اللاذقية ، كانت أيام ياقوت من أعمال حلب (ياقوت ج ٥ : ١٠٥ ط . ب) .

قنيصة للحابل(١) ، وفرصة للمتناول ، ولهنة (٢) للآكل ، وتنغية(٣) للناهل وأمنية للعاقل . فما دونها مانع ، ولا عنها مدافع . وهي على غرتها وغرورها وغفلتها وفتورها ؛ لم يفترع عذرة أمنها ذعر ، ولم يفثأ سورة نفعها ضر ، ولم يقرع باب يسرها عسر . فإن سلكنا سبيلها ، ملكنا سابيلها . وان جزنا بساحتها ، جزنا راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها ، وان إعتدنا حواءها حوينا عتادها . وان افتتحنا بها فتحناها . والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم » فعرفناه بصحة نصحه ، ورفعناه بحجة نجحه .

وأصغى السلطان إلى قوله ، وأصغى له ورد طوله ، وأقبل عليه وقبله ، وأجزل له العطاء وأكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا (٤) ، فوفر لهم رواتبهم وأجرى . وخلع عليهم وشرفهم ، وأسعدهم بالمواهب وأسعفهم . فندبوا إلى أتباعهم ، وكتبوا إلى أشياعهم . وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل .

ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى ، حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي المنصل(٥) . فسرنا في آجام مؤتشبة (٦) ، وآكام معشبة . وحزون (٧) وسهول ، وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل ، وروابي وهواجل(٨) . ومغايض وغياض ، وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا إلى ساحة الساحل ، ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك النواحي المواحل(٩) . ومعنا أجمال وأوساق

---

(١) الحابل : الصائد لنصبه الحبالة .

(٢) لهنة : ما يتعلل به قبل الغذاء .

(٣) تغية : جرعة .

(٤) جبل بهرا : أو بهراة ، مدينة بكرمان ، والبهرة أقصى ماء يلي قرقرى لبني عيسى بن زيد مياه باليمامة (ياقوت ج ٤ : ٥١٥ ط . ب) .

(٥) أي السيف .

(٦) أي مختلطة .

(٧) حزون : جمع حزن بسكون الزاى وهو ماغلظ من الأرض ، وقل مايكون إلا مرتفعا .

(٨) هواجل : جمع هوجل وهي المفازة البعيدة التي ليست بها علامات .

(٩) المواحل : جمع موحل هو موضع الوحل .

وأثقال وأسواق . وأزواد وامداد، وعدد وأعداد. والخيل عرمرم، والسيل عرم . والمجر لجب ، والغيل أشب (١)، والأسد فى عريس من الأسل العراص ، والفوارس الصلاد فى غدران من السوابغ الدلاص ، وقد نشأ العجاج كعجاج النشاص(٢).

فانحلت بحلولنا معاقد المعاقل ، واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبة سيوفنا كرائم الحوالى(٣) والعواطل(٤) . ونحن فى استباحة واستباء واصطلام واصطلاء ، وارتياد وارتياء ، وفتك بأعداء ، وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوى الفجور ، وهتك لحجاب ذوات الخدور . ننال من العدو كل نيل ، وندير عليه فى داره دائرة كل ويل . فما تقطع الأوأديا يغيظ الكفار ، ولا نحضر الا ناديا نزيدهم به الدمار .

وسرنا الساحل الساحل، فى ثلاث مراحل . حتى وصلنا إلى أنطرطوس(٥) يوم الأحد سادس الشهر. فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، ووجفت إليها النابين، وحفز عليها الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها اليابن . وقاتلناها ساعة ، فلم يجد أهلها للدفاع استطاعة . ودخلت من جوانبها ، وتخللت من مذاهبها ، وأصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها ، وفل غربها وجب غاربها . وقتل من لحق من رجالها ، ونهب ما وجد من أموالها ، ونقل ما صودف من غلالها ، وسبى من أخذ من نسائها وأطفالها .

واعتصم من نجا ببرجين اختصصا بالامتناع ، وهما هنالك من أحكم القلاع . وفى أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم مقدمهم الذى أطاق من الأسر .

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف : أشب : نام مرتفع .

(٢) عجاج : صوت . النشاص : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض .

(٣) الحوالى : ذوو الحيلة ، شديدو الاحتيال ، البصراء بتحويل الأمور .

(٤) العواطل : جمع عطل وعاطل وعاطلة : وهى المرأة لم يكن عليها حلى .

(٥) انطرطوس : بلد من سواحل الشام وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص ، كانت حصناً عند فتح عبادة بن الصامت لها ، ثم بنى معاوية المدينة وحصنها (ياقوت ج ٣ : ٢٧٠ ط . ب) .

وفى البرج الآخر المنهزمون الناجون ، والفارون إليه اللاجون . فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم إلى الخروج بالتسكين. ووثقوا بأمانه وأمنوا بميثاقه ، ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه .

فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده ، وحل من إحكامه ما الكفر شده . وركب النقب على ركنه العالى ، ونكبه فى ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالى . وخرب إلى أساسه سوره ، ورمى إلى البحر صخوره . وامتنع برج الداوية بدائها الدوى ، واتبع مردتهم فى التمرد هوى طاغوتهم الهوى .

وأقام العسكر حتى نقض أسوار أنطرطوس وقوضها ، وربضنا بها إلى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج تركناه ، وماكانت فيه فرصة لو أدركناه . وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن فتح البلاد ، وللفرص أوقات هى لها بالمرصاد ، ومن يسلك الجدد اللاحب (١) لايعرج على بنيات الطرق ، ولا يستغنى مدلج الليل بالدرارى عن الفلق .

ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين على الأعداء سيوف القهر . ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت ، وتشعثت عمارتها واختلت . وكان جوازنا إلى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب (٢) ، وهو معقل للاسبتارية عالى المنكب ، سامى المرقى والمرقب ، ضيق المذهب ، عسر المطلب . فلم يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطريق .

وقد صفت الفرنج فى البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الراجل والراكب . وفوقوا الجرخ للجرح ، وسددوا الزنبورك للقرح والطرح . فعثر العبور ، وكثر العثور . وامتنع الجواز ، ووجب الاحتراز ، وأعوز الظهور وظهر الاعواز .

وذلك أن صاحب صقلية ، رام أن يكشف عن الفرنج البلية . فجهز

---

(١) اللاحب : الطريق الواضح .

(٢) حصن المرقب : قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) وعلى مدينة بانياس وهو على ساحل جبلة (ياقوت ج ١٦ : ١٠٨ ط.ب) .

أسطولا بجهازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبثا ثقيلا ، واتفق وصوله فى تلك الأيام فى ستين قطعة ، تحسبكل واحدة منها قلعة أوتلعة . من كل شيئ من شأنه شن الغارة ، ومن عادته العادية تشعيث العمارة . مع طاغية يقال له المرغريط ، قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وأنجس العفاريت . فوصل إلى طرابلس بطوْله وأسطوله وصوْلة وصوله . فما أحلى ولا أمر ،ولا نفع ولاضر ،ولا استقل ولا استقر ، ولانقض ولا أمر . بل صار على الفرنج وبالا ، وأحدث لهم بما يسومهم من موّونته إمحالا(١)، وما خفف عنهم بل زادهم على الثقل أثقالا ، ووجدالكفر فى أوان توانيه ، فلم ينتفع ولم يرتفع شأن شوانيه . وصار إلى صور ثم رجع إلى طرابلس ، وتردد فى البحر وتلدد وأبلس . وتفرقت جماعته، وتجبنت شجاعته . واضطرب فى البحر أشهراً ، لايظهر له رأى ولايرى له مظهراً . فتقطعت أقطاعه ، وتتابعت فى الفرار أتباعه . حتى عاد فى عدة يسيرة ، وشدة عسيرة .

وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة فى البحر من جوانبه . قد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفاتى إلى هناك وتصفيفها ، والستائر وتأليفها ، والتراس وترصيفها ، وأقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم وازائها ؛ الكماة النخية ، والرماة الجرخية . حتى تباعدت تلك السفن ، ودب إليها الوهن ، وتمت عليها المحن ، وأنحت الإحن (٢) . ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابراً ، وسار ظاهراً وظهر سائراً . وجزنا على مدينة يقال لها بُلنْياس(٣) ، وقد أجفِل عنها الناس . ونزلنا فى أرضها ، وخيمنا فى طولها وعرضها ، وأنسنا بنهرها وزهرها فى الارواء والرواء ، وحبسنا على تواضر رياضها

---

(١) الجدب .

(٢) الاحن : جمع احنه وهو الحقد .

(٣) بلنياس : كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر ولعلها سميت باسم الحكيم بلنياس صاحب الطلسمات (ياقوت ج ٤ : ٤٨٩ ط .ب) .

نواظر الارتضاء . وبتنا ونفحات النادي مريضة . وجنبات الوادي مريضة . والنسيم العليل بليل ، والعزم الصحيح دليل ، ورسم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل . وأصبحنا على الرحيل مبكرين ، فساء صباح المنذرين .

وسرنا وسرّنا في سرور ، وسفرنا في سفور . وجمعنا في اجتماع ، وجدنا في ارتفاع ، ونهجنا في اتساع ، وركبنا في امتناع . وعارضنا نهر عريض عميق ، ما فيه طريق . وهو مطرد من الجبل إلى البحر ، فازدحم العسكر عند ذلك النهر ، وتواقعت الأحمال والأثقال عند العبر ، وليس عليه إلا قنطرة واحدة فتصادموا على ذلك الجسر .

وسار السلطان من فوق على سفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر الزمر . ونزل عشية الخميس على بلدة (١) . وعانت الأثقال في تخلصها من الشدة الشدة . وتكامل نزولها حين انتصف الليل ، ووصل إلى القرار السيل .

وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطىء هذا النهر ، وساحل البحر . حصينة البناء مصونة الفناء . قد حصنها الإستظهار ، وحسنها الاستظهار . وقطعوا عنها سلوك الطرق ، بتعميق ذلك النهر المخترق . وألفينا بلدة أيضاً خاوية على العروش ، حاوية للوحوش . خالية من الأنس والإنس ، (كأن لم تغن بالأمس)(٢) . وقد انزعج أهلها ، وتشتت شملها ، وتخوف آمنوها ، وعدم السكون ساكنوها .

---

(١) بلدة : من مدن سواحل الشام قريبة من جبلة (ياقوت ج ٢ ص ٢٦٨ طبع الخانجي ١٣٢٧ هـ)

(٢) آية ٢٤ سورة يونس .

ذكر فتح جَبَلَة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر . وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، وأقدم على قصدها بالعزيمة المصممة .

فلما بصر مسلمو البلد ، بما وضح في الجد من الجدد ، وسنح من الظفر المتضافر المدد ؛ خرجوا مستبسلين مسلّمين ، مستمسكين بعز الإسلام معتصمين . وعلت على السور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجت القلوب المحبورة .

وتحصن الكفرة من الجبن ، ولجأوا في التحيّز إلى الحصنين ، فمن لاذ بالحصن الذي على الميناء ، قال إنه بحصانته ومنعته يحمينا . وعاد معظمهم الأكثر ، بحصن البلد وهو المعقل الأكبر ، وتوسط لهم قاضي جبلة في أخذ الأمان بعد قبض الرهائن . على أن يعيدوا من استرهنوه في أنطاكية من أهله ويجمعوا شملهم بشمله . ويسلموا إلينا كل مالهم من سلاح وعدة ، وخيل وذخيرة وغلة .

وتسلمنا الحصنين يوم الخميس ، وعادا مأهولين من الاسلام بالأنيس ، وكرمت بالكرام جبلّة جبلة ، ونفت عنها بالفئة المقبلة الفئة الشقية المختبلة . وسعد أهلها بعد الشقاء ، وتعوضوا من الشدة بالرخاء ، وأفضى اليأس بهم إلى الرجاء ، وفاءوا إلى الوفاء . وانتقل أهل الجبل إلى جبلة طائعين بعد العصيان ، مصافحين بالمصافاة بالأيمان أيمان أهل الإيمان .

وكان حصن بكسرائيل (١) قد تسلم من قبل واتصل بفتحه الجبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجانب وأهله ، وكانوا لقاضي جبلة مذعنين ، بإيمانه مؤمنين ، ولدعائه ملبين ، ولبقائه محبين . ونجوا من العار والتبار ،

---

(١) حصن بكسرائيل : حصن من سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل (ياقوت ج ١ : ٤٧ ط ب) .

وضيم الكفار ، وتناجوا بالاستبصار والاستنصار ، والاستغفار والاستنفار ، وآضت(١) تلك الولاية لاحسانها والية ،وتلك الناحية على سكانها حانية ،وتلك المدينة لأهل الدين دائنة دانية ، وتلك الجنة العذبة الجنى لورْد دم الجناة من شوك القناجانية . وتلك البنيّة لمعالم المعالى فى هدم أساس الاساءة بانية ، وتلك الهضبة راسية ، والترْبة كاسية ،والرتبة سامية ، والربوة رابية ، والذروة عالية ، والحالة حالية .

وأقام السلطان بها أياما حتّى أزال شعثها ، وأزاح (٢) خبثها ، ورأب صدعها ، ورب (٣) ربعها ،وشاد ركنها ، وشد حصنها ، وجبّ كفرها ، وجبر كسرها ، وجد بها جدبها ، وخص بها خصبها . وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها . وبالرعاية ملأها ، وللرعية كلأها . ويجّل قاضى جبلة وشرفه ، وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفه ، وصرّفه فى أملاك آبائه ، وحكمه فى ولاية حكمه وقضائه .

(١) أى طلبت وأريدت .

(٢) فى ب أزاغ والتصحيح من ل .

(٣) أى أصلح .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشرى الشهر يوم الأربعاء ، منشور اللواء ، منصور الأولياء ، مشكور المضاء ، عالى القدر قادر العلاء . ناجح الآراب راجح الآراء . وسار برعب إلى العدو يقدمه ، وعزم على الغزو يصممه ، وأمر بامرار الأحكام يحكمه . وجد على تدبير الدين يقفه ، وحد فى تدمير الماردين يرهفه . وسعادة تؤيده ، وتأييد من الله يسعده . وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة فى أهل النار يشعلها . وجيش للوثبات ينشطه ، وجأش للثبات يربطه . وهيبة تروع الخواطر ، وهيئة تروق النواظر .

وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين . قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم ، وعروة كل قلب لهم من الرعب فى يد فاصم . والخوف عليهم مستول ، والذعر فيهم مستعل . والأفئدة منهم خافقة ، والأندية بهم متضايقة ، والمهج فى سوق الردى نافقة . ونحن طول الليل من السوابغ فى جر الذيل ، ومن السوابق فى اجراء الخيل . ومن نشاط العزم فى اهتزاز ، ومن احتياط الحزم فى احتراز . ومن انتخاب الأجواد والجياد فى انتخاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق فى انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالهواضب فى انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضب فى اقتضاء ، والمقرّبات تسرج والسريْجيّات تقرّب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب . والصوارم تنتضى[1] ،والصرائم [2] تقتضى . والقوارح[3] تضمر ، والقرائح تخمّر . والضوامر تجنّرى ،والبواترتعرى. والصلاد تلجم ،والدلاص تستلأم . والحنايا توتر ،والمنايا توتّر . والجاليشية تعبى ،والجاووشية [4] تلبى.

---

(١) تنتضى : تستل من أغمادها .

(٢) الصرائم : العزائم .

(٣) القوارح : جمع قارح وهو الأسد .

(٤) الجاووشية : يفهم من السياق أنهم كانوا جنوداً عملهم النداء لاستنفار الناس أو الجند للجهاد أو القتال (السلوك للمقريزى ج ١ : ٨٧ تحقيق د. زيادة) و (Dozy . Supp Dict . Arabe)

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح ، والمتجر مربح ، والمفخر متوضح ، وللجاش فرح ، وللجيش مرح وقرح ، والعدو مقترح ، وزند الفتح مقتدح ، وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الأحداق ، وخطنا بابر السهام من موقها الآماق ، وأخرجنا منهم بالارهاق الأرماق ، وأنهضنا إليها الحجار والنقاب والزراق . وأطرنا النشاب إلى أوكار المقل ، وأزرناهم رسل النضال بكتاب الأجل ، وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل ، ورأيناهم تغلى صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل ، وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين مابين تلك القلل . وجدوا فى القتال ، وشدوا على الرجال ، ومدوا ظلال الضلال ، واحتدوا بالنصال فى النضال ، وردوا النبال بالنبال ، وسدوا مذاهب الأهواء بالأهوال .

وهناك فى الزنبورك بورك ، فانه بالجرخ دورك ، وقلنا للكفر اخرج لندخل إلى دورك ، وأى دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك ، وطالما سكنت دارنا فاخرج ، ودرجت إليها فادرج .

وما زلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار ، ونغطى سنى يومنا بليل الغبار ، ونرفع من السورحجابه بالحجار ، حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار ، وأخذت عليهم النقوب ، ووقذت منهم القلوب . وبلغ النقب من الشمال فى الطول ستين ذراعا ، وأربع أذرع فى العرض اتساعا . وهى ثلاث قلاع متلاصقات ، على طول التل متناسقات . كأنهن على رأس رأس راسخ ، وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها (١) ، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها . وناوبنا عليه القتال ، وجاوبنا بالنصال النصال ، وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن ، وأثارت من مكامن الأحقاد كوامن الدفائن .

ودام الرماء ، ومريت(٢) الدماء . وانتجع النجيع ، ووقع ذلك الرفيع ، فاستبطى السريع ، وتخطى الضريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله ، وعاينوا ما عانوه من غريم الموت المطل فى مطله . وفتح الحتف بابه ، وحفر

(١) أى نزولها .

(٢) مريت : جرى الدم وأرسله .

الزحف أصحابه ، وكشر الشرك نابه ، وصادف الكفر لدمه المطلول مصبه ومصابه . ونفر الناس إليهم ، واستطالوا عليهم . وطمعوا فيهم ، والأجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم ، بواء (١) فى بوارهم . ووبل النبل هام ، وأهل الجهد فى ضراب وضرام ، وجمر الجمع فى التهاب والتهام . ووقع منهم الزمع(٢) ، ومنّا فيهم الطمع . حتى ازدحم على التل الصغار والكبار ، واستشعروا منا وزال منا الاستشعار .

وكان لى مملوك صغير قد زحف ، وأرهق وأرهف ، فقبل خده سهم ، فرجع وإذا وجهه طلق لا جهم ، وهو بقرحه فرح ، وللفرح بالشهادة مقترح ، وقد عدله الجرح ، وحسنه القبح .

فلما عرفوا أنهم مدركون ؛ وأنهم يؤخذون ولا يتركون ؛ صاحوا الأمان ؛ واستماحوا الايمان . وذلك فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشية ، وكان فتح ذلك المعقل من الله مشية . فانه موضع مافيه مطمع ، ولم يكن للكفر غيره مفزع . وصعد إليهم قاضى جبلة يوم السبت غدوة ، وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عنوة . وطلع السنجق (٣) المنصور ، وانجلت الظلمة وتجلى النور ، وأشرق الفلق وزهق الديجور ، وبدأ الفجر وباد الفجور ، وسرت القلوب وأقبل السرور .

وسلموا القلاع بما فيها من عدة وذخيرة ، وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم ، وذريتهم وأطفالهم ، وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم فى عقد الذمة ، وتمسكوا بحبل العصمة . وانتقل الباقون إلى أنطاكية ، وأيقنوا أنهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافيه .

ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه ، وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه ، ثم ولى بها سنقر

---

(١) بواء : مساوله .

(٢) الزمع : القلق ، أورعدة تعترى الإنسان إذاهم بالأمر.

(٣) السنجق : اللواء.

الخلاطى ــ مملوكه ، وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه . فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية ، وانتهى إلى الغاية فى نهى أولى الغواية ، وأقام جاليا للغاية ، عالى الرأى والراية .

وركب السلطان إلى البلد وطافه ، وهز إلى إحسانه أعطافه ، وأدنى إلى عدله قطافه ، ووفر ألطافه ، وأصفى نطافه ، وأمنه بعد ما أخافه .

ورأيتُها بلدة واسعة الأفنية ، جامعة الأبنية . متناسبة المعانى ، متناسقة المغانى ، قريبة المجانى ، رحيبة الموانى . فى كل دار بستان ، وفى كل قطر بنيان ، وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أمكنتُها مخرّمة ، وأروقتها مرخّمة ، وعقودها محكمة ، ومعالمها معلمة ، ودعائمها منظمة ، ومساكنها مهندسة مهندمة ، وأماكنها ممكنة ، ومحاسنها مبينة ، ومراتبها معينة . وسقوفها عالية ، وقطوفها دانية . وأسواقها فضية ، وآفاقها مضية ، ومطالعها مشرقة ، ومرابعها مونقة (١) . وأرجاؤها فسيحة ، وأهواؤها صحيحة .

لكن العسكر شعث عمارتها ، وأذهب نضارتها ، وأزعج ساكنيها ، وأخرج قاطنيها . وملك دور المشركين للموحدين ، وطهرها من رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام ، ونقلوا منه أحمالا إلى منازلهم بالشام . فشوهوا وجوه الأماكن ، ومحوا سنى المحاسن .

وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة ، نفيسة قديمة ، بأجزاء الأجزاع مرصعة ، وبألوان الرخام مجزعة (٢) ، وأجناس تصاويرها متنوعة ، وأصول تماثيلها متفرعة . وهى متوازية الزوايا ، متوازنة البنايا . قد تحيرت بها أشباح الأشباه ، وصورت فيها أمواج الأمواه ، وزينت لاخوان الشيطان ، وعينت لعبدة الصلبان .

---

(١) مونقه : حسنة تعجب الرائى .

(٢) مجزعة : جزعت بالرخام ، جعل فيها قطع منه .

ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها ، وشوهوا أعلامها ، وحسروا لثامها ، وكسروا أجرامها ، وأهدوا الأسى لهد أساسها ، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها ، وحكموا بعد الغنى بافلاسها . وافتقرت وأقفرت ، وخربت وتربت .

ثم لما طابت النفوس ؛ وتجلى عن البلد بفتحه البوس ؛ عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس ؛ وهى متشوهة متشعثة ، مستمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة . ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت ، ولكنما زاد سرورى بأنها عادت للاسلام مرابع ، ولسروحه مراتع ، ولجموعه مجامع ، ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليتها وحالتها بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها ، لشاقت وراقت ، وكما أفاقت فاقت . وشأت (١) البلاد إذا شاءت ، لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاسلام إلى أحسن حالة ، وجلا لها فى السناء أسنى جلالة .

ورغب فى إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن ، حبا للوطن وسكونا إلى السكن . فآض مأمول الجنى مأهول الجناب ، وعاد بتجار البحار مملوء الرحاب . وتبدل بالأبدال الأخيار ، والأرباب الأبرار ، من بعد الكفار الفجار ، والأشرار أهل النار .

وكانت شوانى صقلية قد قابلت فى البحر اللاذقية طمعا فى امتناعها ، وطلبا لذيادها عنها ودفاعها . فلما خابت خبت نارها ، وباخ(٢) أوارها ، وقصدت بجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها ، لكونهم شغلوا عن صونها ببذلها . فامتنعوا عن الانتقال ، وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال .

وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها ، وقد حصّل من ترتيب العمارة مناها . فطلب مقدمُ تلك الشوانى أمانه ، ليصعد ويشاهد سلطانه ، فأمنّه حتى صعد ، ولو أسلم ذلك الشقى اقلبْت سعد . ولما حضر

---

(١) شأت : تسابقت ، تفرقت .

(٢) باخ : خمد وفتر .

الكافر عفر وكفر ، وتروى ساعة وتمكر . وأحضرنا الترجمان ، وأدى عنه البيان وقال « أنت سلطان عظيم ، وملك كريم ، ومالك رحيم . وقد شاع عدلك ، وذاع فضلك ، وقهر سلطانك ، وظهر احسانك . فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت ؛ وأفضلت عليها وأحسنت ؛ لملكت قيادها إذا أعدت بلادها . وساروا لك عبيدا ، وأطاعوك قريبا وبعيدا . وان أبيت غير الغيرة والاباء ، ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء ؛ جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق ، وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثار ، وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوى الأقانيم ، من سائر الممالك والأقاليم . وأتى الأتى ، ولا يقاوم القدر المانى . وهؤلاء أهون منهم ، فاتركهم واصفح عنهم » .

فقال السلطان « قد أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون فى طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد فى الجهاد ، وامتثال أمره فيه بالانقياد ، وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد ، ولا تكترث الآساد بكثرة النقاد (١) ، ولو اجتمع أهل الأرض ، ذات الطول والعرض ، لتوكلنا على الله فى اللقاء ، ولم نبال بأعداد الأعداء » .فلما سمع ما فهمه من نجهه ، ذهب بعد أن صلب على وجهه ، وركب بكربه ، وكر بركبه ، ولم يغن خطابه عن خطبه .

(١) النقاد : جمع نقد أو نقدة ، جنس من الغنم صغير الأرجل ، سفلة الناس والمقصود عدم الاكتراث بالكثرة .

ذكر فتح حصن صهيون (١)

ورحلنا ظهر يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى ، والهدى فى نصره بين أنصاره يتهادى ، وقد تيقنا أن الفتح لا يتمادى ، وأن العزم عن الفداء بالمهج فى سبيل الله لا يتفادى . وأخذنا على سمت صهيون ، وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون ، وطلبناه كما يطلب الدائن المديون ، ونحن للكفر مميتون ، وللاسلام محيون .

وكان الطريق إليه فى أودية وشعاب ، ومنافذ صعاب ، ومضايق غير رحاب . وأوعاث (٢) وأوعار ، وأنجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطرق فى يومين ، ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين ، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين ، ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهى قلعة على ذروة جبل فى مجتمع واديين ، بها محيطين من جانبين . والجانب الجبلى قد قطع بخندق عميق ، وسور وثيق . والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب ، ممتلئة بذئاب سغاب ، وأسد غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع ، وهى ممتنعة علينا بالركن الأمنع ، والسمو الأمتع .

ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل بكرة اليوم ، وشرع فى محاصرة القوم ، وقامت أسواق الأقواس للمنون فى مغالاة السوم . وتوفرت سهام السهام من المقل ، وتبدت بنات الكنائن من الدم القانى حمر الحلل . وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة الصخور ، وكشفت صدور الكنانيات أكنة الصدور ، وظهر سر السراء ، وكثر مراء الرماء . وزخر دأماء الدماء . وطارت الحجارات وحجرت الطيارات . ودارت حميًا الحمام على أولئك ، واستنجدت ملوكنا الملائك ، وأدامت إليهم المجانيق والجروخ والقسى الرمى المتدارك .

---

(١) حصن صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام (البحر الابيض) من أعمال حمص ليس بمشرف على البحر (ياقوت ج ١٢ : ٤٣٦ ط ب)

(٢) أوعاث جمع وعث أو أوعث ، وهو الطريق الغليظ العسر السلوك .

وأقام الملك الظاهر غازى صاحب حلب منجنيقين ، ونهج بهما من جانب الوادى إلى ردى الأعادى طريقين . وكان له فى فتح هذه القلعة الجدّ العالى ، والجدّ الوالى . والعزم الماضى ، والحزم القاضى . والسعى الناجح ، والرأى الراجح . والبأس البالغ ، والسطو الدامغ . فانه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماه ، وقد استصحب الكماة الحماة . ومعه الرجال الحلبية ، والمنجنيقية والجرخية ، والجاندارية والخراسانية . فأظهر على صهيون اليد البيضاء ، وكسب الذكر والثناء ، وأنار فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتال على المكان من جانبه ومن جانب السلطان . والملك الظاهر فى تظاهر ملكه . وتضافر سلكه ، وريعان اقباله ، وعنفوان جلاله ، وشباب رهان مجاراته ، وشبا برهان مباراته ، وايراق عوده ، واشراق سعوده ، وغرة عزته ، وميعة(١) منعته ،وصدر تصدره ،وشرخ(٢) تأمره وتشمره . وقد وصل فى أول نشاطه ، ونشوء اغتباطه ، وفتاء (٣) فتوته ، ورُوَاء رويته . وارتقاء ارتفاعه ، وايفاع يفاعه . وترعرع سنه ، وتعرعر (٤) ركنه ، وتسامى سيادته ، وتراقى سعادته . وأجد لعز العزم الجد ، وأعد لرى الرأى العد . واستلذ فى سبيل الله نصبه ، ورفع المنجنيق ونصبه ، وجعل لرجاله نوبا ، ولأحواله رتبا ، وألقم أفواه كفّاته (٥) حجرا ، وأجرى فى الحق من الحجارات الجاريات من منابعه نهرا ، ورجم الحصن الزانى رجم المحصن ، وأحسن إلى الإسلام وأساء إلى الكفر فلله در المسيء المحسن . وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمى ؛ والحنايا بسهام المنايا تصمى ؛ حتى قتلت مقاتلة الحصن ، وهان بما دب فيه من الوهن .

وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة ، وطما بحر العسكر

---

(١) ميعة : الشيء ، أوله وأصله .

(٢) أى أوله وريعانه .

(٣) فتاء : جمع فتى ، هو الشاب من كل شيء .

(٤) تعرعره : علو ركنه ، والمقصود كناية عن السمو والرفعة .

(٥) كفاته : أى مسابقيه .

بأمواجه الزاخرة ، وازدحم الناس فى الزحف كأنهم فى الحشر بالساهرة .
وهاج الشباب ، وماج العباب . وتسابق ذوو الجرأة والقوة ، وتلاحق ذوو الحمية والنخوة . وكان فى قرنة (١) الخندق عند خرقه إلى الوادى موضع لم يكمل تعميقه ، ولم يتم توثيقه . فتطرقوا من تلك القرنة إلى القنة (٢) .
وتسوروا السور وتسلقوا ، وتقلعوا إلى القلعة وتعلقوا . وتملكوا الذروة وأمسكوا العروة . واستولى على أهلها الرعب ، واستشرى بهم الكرب ، فتعادوا إلى القلة (٣) ، وتفادوا من الخوف لا من القلّة . وملكت عليهم ثلاثة أسوار ، بما فيها من متاع وشُوار(٤) ، ونعم وأبقار ، وصاحوا : الأمان ! وبذلوا الإذعان . ونادوا ، مكنونا من السلامة ، وتسلموا المكان! .

فما أمنوا على المال والنفس ، حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس .
وأغلقت دونهم الأبواب . وسيّر إليهم النواب . وما استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار . وجبى الدرهم والدينار ، وعم الكبار والصّغار الصَغار . وتولى ذلك (شجاع الدين طُغرل الجاندار) . ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله ؛ وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله ؛ إلى الأمير (ناصر الدين منْكورْس بن خُمارْتكين (٥)) ، أسد العرين وأمير المجاهدين . المقدام الهمام ، والمطعان المطعام . فألقى الثغر سداده بسَداده ، وأمرع به مراد مراده .

---

(١) قرنة الخندق : أى الطرف الشاخص منه ، زاويته .

(٢) القنة : قنة كل شيء أعلاه ، أو الجبل الصغير .

(٣) القلة : رأس الجبل .

(٤) أى من لباس ومتاع مستحسن .

(٥) ناصر الدين منكورس بن خمار تكين : كان صاحب قلعة أبى قبيس ، وكان أحد أصحاب صلاح الدين ، سلمه صلاح الدين قلعة صهيون سنة ٥٨٤ هـ وكذلك حصن برزيه (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ٧٤ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

وتسلم يوم السبت قلعة العيذو (١) . ويوم الأحد قلعة الجماهريين . ويوم الاثنين حصن بلاطنس . وندب إلى كل حصن من تسلمه ، وسلكه فى سلك الفتوح ونظمه .

(١) قلعة العيذو أو العيذ أوعيذون ، بنواحى حلب (ياقوت ج ١٤ : ١٧٦ ط.ب) .

ذكر فتح حصنى بكاس والشغر(1)

وسار السلطان ثانى يوم فتح صهيون على سمت القرشيّة (2) ، ومشية الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على (العاصى) فى طاعة الله والنصر قد نزل ؛ والكفر قد انخذل ؛ يوم الثلاثاء سادس الشهر ، وبحور السوابح فى غدران السوابغ مائجة على ذلك النهر ، وحكم السلطان فى القهر ماض باذن الله على الدهر . وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور .

وحول خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشغر ، وهى قلة شامخة من أعلى القلل على هضبة منقطعة ، عالية مرتفعة . ومن نواحيها واد ، خاف من العمق غير باد ، فى أعماق ووهاد . وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادى خندقها ، وأخذ من العوادى موثقها . فما إليها طريق ولا عليها طُروق ، ولا فيها للطمع عُلوق(3) ، ولا للسهم إليها مروق . ولا للزحف فيها مطمع ، ولا للذر نحوها مطلع . ولا للطير فى مراحها وكر ، ولا للمكر فى افتتاحها مكرّ . ولا للوهم فى توقلها (4) مجال ، ولا للفهم من تصورها منال ، ولا لها بمن يحتفل بها احتفال ، وما عليها للنازلين عليها قتال ولانزال ، ولا يتغير لها مع تغير الأحوال حال . وصعب شغل الشفر (5) واشتغل فكر الكفر .

ولم ير السلطان طريقا غير الرمى من المنجنيق ، لعله ينال جمعها بالتفريق .

---

(1) حصنا بكاس والشغر : قلعتان متقابلتان على نهر العاصى من نواحى حلب بينهما واد ضيق (ياقوت ج 4 : 374 ط.ب) .

(2) القرشية : قرية بسواحل حمص وهى آخر أعمالها ، مما يلى حلب وأنطاكية (ياقوت ج 15 : 323 ط.ب) .

(3) أى النفيس من كل شىء .

(4) أى الصعود إليها .

(5) الشفر : ناحية كل شىء ، والشفر من الوادى أعلاه .

وداومها بالحجارات أياما ، ولكم سدد بها مرمى ومراما : ولم تعبأ بأعبائها ، فانها ترامت عن رمائها .وأبت إلا ثباتها ، وثبتت على إبائها ، وأعيا اعضال دائها ، واستفحال بلائها ، وخام الرجاء بالإرجاء عن أرجائها . ولولم يضجر حاميها لضجر راميها ، وسئم سائمها لتساميها . لكنه وهى جلده ، وهوى خلده ، وخار قلبه، وحار لبه . وخاف من الاقامة ، وخاب من السلامة . وارتاح إلى الراحة ، وسما إلى السماحة . وعاج إلى الانزعاج ، وعاد لداء خوفه فى الاستئمان يطلب العلاج . ودعا إلى الدعة ، والخروج من الضيق إلى السعة .

فبينا نحن فى تروّ وتفكر ؛ وتخير للرأى وتدبر ؛ ونقول « : هذا حصر يشتد وأمر يمتد ؛ وعمل يصعب ؛ وأمل يتعب ؛ ومعقل لا يختل ، ومعقد لا يحتل ؛ ومقصد لا يدرك ؛ ومورد لا يملك ؛ ومكان لا إمكان لفتحه ؛ ورجاء يطول الزمان فى تطلب نجحه » ؛ إذ خرج من الحصن ؛ من يضرع فى الأمان ويمترى ضرع الأمن . فشكرنا الله على تسهيل المتوعر ، وتيسير المتعسر ، وتحصيل المتعذر ، وتلقيح الرجاء من الياس ، وتنقيح مناط حكم الصحة عند اضطراب علة القياس . وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء ، وسألوا فى مهلة ثلاثة أيام والارجاء ، ليخبروا صاحب انطاكية ويستأذنوه ، ويبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن ويسلموه .

فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر ، وجناب الشرك مقفر . والشغر شاغر ، والكفر صاغر ، وفم القهر منا لهم فاغر ، والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مثاغر (١) . والحصن البكر مفترع ، والدين المتأصل بشعب النصر متفرع . وطلع العلم إلى ذلك العلم الطالع ، وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع (٢) . وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين ، وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع الواعين . وعاد الحصن (٣) آهلا بأهل الاحصان ،

---

(١) مثاغر : جمع مثغر وهو الموضع المتاخم للعدو .

(٢) الظالع : المائل . المتّهم .

(٣) فى ب آهل وهو خطأ لغوى والتصحيح من ل .

وصافح بأيدى الأيْد أيْمان ذوى الإيمان . فابتسم عن النصر ثغر الثغر ، وفرغ القلب من شغل الشغر . وسلم هو وحصن بكاس ، إلى (غرس الدين قليج الساقى) — عدوّه الموت — بكاس الباس .

وانتقل السلطان يوم السبت إلى مخيمه ، والاقبال جاثم فى مجثمه . وسرى والده الملك الظاهر إلى قلعة سُرْمانيه (١) ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واستطاق منها البزرة العانية ، وقطف مجانيها الدانية ؛ وأخلى مغانيها الغانية . وما قطع قرارها حتى قرر عليها قطيعة ، وكلفها ما كانت له من المال مستطيعة ، ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعة . ثم خرّبها حتى خرّ بها عاليها ، وعطل حاليها ، وانجلى ثاويها ، وانتأى جاليها . وبقيت دمْنة دائرة ، ودُمية عاثرة . ورسما عافيا ، ورقما خافيا ، وربعا باليا ، وصقعا خاليا . وعادت دارا دارسة ، مستوحشة بعد أن كانت آنسة ، وكان فتحها فى يوم الجمعة الثالث والعشرين ، فأخلى الله من السباع الضوارى ذلك العرين .

ومن نوادر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية ، فى أيام الجمع الخمس المتوالية . باء فيها لنصر أهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد (٢) . وأصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد ، ظاهر اليد .

---

(١) سرمانية : أوسرمينية ، بليدة مشهورة من أعمال حلب أهلها اسماعيلية (ياقوت ج ١٠ : ٢١٥ ط.ب) .

(٢) يقصد بأهل الجمعة ، المسلمين . وبأهل السبت ، اليهود . وبأهل الأحد ، الصليبيين .

ذكر فتح حصن بُرزيْه (١)

وسرنا إلى قلعة برزيه وسرنا سار ، ودر الظفر لنا دار . وهى أحصن القلاع وأفرعها ، وأحسن التلاع وأرفعها ، وأسمق الرواسى وأسماها ، وأسنم الرواسخ وأسناها . وكان السلطان سبق إليها وأشرف عليها . ثم استدعى الثقل واستحضر ، وجمع بالفضاء تحتها العسكر . وذلك رابع عشرى الشهر يوم السبت ، وقد تهيأت فى العدو أسباب الكبوة والكبت .

ثم تجرد يوم الأحد فى العدد والعُدد . ورقى إلى الجبل ، مع أبطاله النبل . فرأيناها قلعة شماء فى الذرا ، لا تكاد من سموها ترى . وهى على سن من الجبل عال مترامية فى السماء ارتفاعا ، وقيل قدّر علوّ ثلُثه فكان خمسمائة ونيفا وسبعين ذراعا . فأحدقنا بها وبالجبل ، وقطعنا عنها متصلات السبل . ونصبنا عليها المجانيق فى ذلك السفح ، فلم تصافحها صفائحها وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها ، وحارت الأوهام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها . وتحاجزت عنها الحجارة فلها من اجازتها بها الاجارة. فما بلغت إلى القلعة قلائعها (٢) ، ولا طلعت إلى التلعة طلائعها ، هذا والنجم يلامع بلامعها ، وتقارن طوالعه طوالعها . فكأن الصخور سلم نحورها ، فإن سوّرتها تنكسر دون الوصول إلى سورها .

ولما رأى السلطان أنه لا وصول إلى نيقها (٣) بالمنجنيق ؛ وان الاشتغال به يطيل زمان التعويق ؛ مال إلى الزحف ، ولاحف جموعه فى ذلك اللحف . وذلك فى السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاء ، فقسم الناس

---

(١) قلعة برزيه . حصن بالسواحل الشامية ، والعامة تقول برزويه – على سن جبل شاهق ، وعلو قلعتها ٥٧٠ ذراعا كانت بيد الافرنج حتى فتحها صلاح الدين ٥٨٤ هـ (ياقوت ج ٣ : ٣٨٣ ط.ب).

(٢) قلائع : الحجر والمدر يقتلع من الأرض فيرمى به .

(٣) أى أعلى مواضع فيها .

ثلاثة أقسام على السواء ، : وجعل النوبة الأولى لعماد الدين صاحب سنجار — الليث الهصّار (١) ، والغيث المدرار ، والبحر الزخار . والسيد الحُلاحل(٢) ، والملك العادل . فى صحابه الصباح ، كفاة الكفاح ، وعفاة الصفاح . ونفاة الهام ، بثبات الأقدام فى الإقدام ، وشفاة الأوام بعلة الانتقام من الأقوام ، وأساة ذوى الاساءة باحسان الحسام ، وكساة عرى العراء أردية القتام ؛ ورقاة أراقم (٣) اللهاذم ، وسقاة حوائم (٤) الصوارم . والمزّاق فى حومة الردى رداء المآزق ، والسباق فى حلبة الهدى بهوادى السوابق . من كل شارب ماء الوريد بشفاه الشفار ، وضارب هام المريد ببتار التبار ، ولاسع بحمة الحمام فى الأسل العاسل عاسل ، ولابس لباس الباس كالأسد الباسر(٥) باسل . ومعتقد للدين بالردينى معتقل . ومعتد على العلو بعادىّ معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتاز ، ومجتب لحب المنون لرهون نفائس النفوس محتاز .

فانقضوا على الهضْب (٦) ، وعضوا على العَضْب (٧) . ودام الصفا يدهده(٨) ، والصدى يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر ، والحافز يخفى ويظهر . والرجال تتعالى ، والحجار تتوالى . والمصاعد ترقى ، والمصاعب تلقى . والمضايق تولج ، والبوائق تحرج . والآكام تفرع ، والرجام تقرع . وللصخور ترديد ، والجلاميد (٩) تميد .

وما زالت هذه النوبة تنازل وتقاتل ، وتناضل وتطاول ، وتَرمى وتُرمى ،

---

(١) الهصار : الكثير الهصر لأنه يهصر فريسته أى — يكسرها كسرا .

(٢) أى السيد فى عشيرته .

(٣) أراقم : جمع أرقم ، وهى الحية الخبيثة ، ماكان منها فيه سواد وبياض .

(٤) حوائم : جمع حائم وهو العطشان .

(٥) أى المقطب وجهه .

(٦) سبق التعريف بها .

(٧) أى السيف القاطع .

(٨) يدهده : يتدحرج .

(٩) الجلاميد : جمع جلمود ؛ وهو الصخر.

وتُدمي وتدمى ، وتُصمى[1] وتصمى. وتَرد وتُرد ، وتصد وتصد، وتصدم وتصدم ، وتقدم وتحجم ، وتصدع وتصدع ، وتحمل وترجع ، وتذكو وتنطفى ، وتبدو وتختفى ، حتى كلت وملت ، وانحلت وتخلت ، وكانت غلبت لولا أنها لغبت ، وسمت لولا أنها سئمت . وألقيت هذه النوبة خاصة، لأهل الحصن حاصة [2] . فانهم تولوا بأجمعهم القتال ولم يقصدوا للتناوب الاستبدال .

ولما ظهرت فى النوبة النبوة ؛ وكاد جوادها تناله الكبوة ؛ تقدم السلطان بنفسه فى النوبة الثانية ، والسطوة الدانية ، والعزمة الناوية غير الوانية . وخف فى الثقال من الرجال ، وزحف إلى الجبل بالجبال ، وتضافروا فتطافروا فى الأوعار كالأوعال . وجروا كالسيول فى تلك المسائل ، وجروا ذيول السوابغ على تلك المواجل [3] . وترقوا فى ذراها ، وقروا على قراها [4] . وتلبسوا بجوانبها ، وتوجسوا من مثاعبها [5] ، وتدرجوا فى مدارجها ، وعرجوا فى معارجها ، وخرجوا فى مداخلها ودخلوا فى مخارجها . وصارت الجروخ تجوزهم ، والجروح لا تحوزهم . والسهام تعبرهم ، والآكام تسترهم . والنخوة تحميهم ، والحمية تنخيهم .

وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم ، والتحذير من توريطهم وتفريطهم . فمن انقبض بسطه ، ومن أعرض ضبطه ، ومن أقبل أربطه ، ومن أدبر أسخطه . ومن تقدم قرظه ، ومن تقاعس أحفظه،ومن تناعس أيقظه . وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا ، وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا .

فمنهم من تمكن من الطلوع ، ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا فى تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا أهل الحصن العناء والعياء ،

---

(١) أصمى : وثب وأسرع .

(٢) حاصه : أى داء أو مرض .

(٣) المواجل : المفازات البعيدة التى ليس بها علامات.

(٤) أى ظهرها .

(٥) المثاعب : جمع مثعب وهو مسيل الحوض أو السطح .

وعمهم البلاء وأدركهم الشقاء . فإنهم ما زالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا ، فمنهم من صد صديعا ، ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور ، وبدا منهم القصور .

وجاءت النوبة الثالثة تالية ، وأقدمت أمدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة الأولى لنشاطها ، وزادت فى انبساطها . فبلغوا وغلبوا ، والتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور ، وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة ، وقلعت الطلعة . وافتضت العذرة (١) ، واقتضيت النصرة . وأعان القدر فقدر الأعوان ، ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان (٢) . وان أهل القلعة لما أيقنوا أنهم ملكوا ، طلبوا الأمان حتى لا يهلكوا .

فلما سمع أصحابنا بالأمان صياحهم ، وعرفوا للضراعة التياعهم(٣) والتياحهم (٤) ، كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان ، وإشفاقا من سبي من يشمله الأمان . وكان جماعة من دهاة الخواص عارفين بطرق الاقتناص ، فأظهروا أن السلطان آمن أهل القلعة ، وأنه يدافع عنهم فى هذه الدفعة . وجمعوهم فى مواضع وكنائس ، وأحرزوا النفوس والنفائس . وعاد عنهم من حضرهم ، على ظن أن السلطان آمنهم وحظرهم . وبقى أولئك الأفراد بهم متفردين ، ولتجريدهم للسبي متجردين . وصار ما بالقلعة ومن فيها لهم كسبا وسبيا ، وما رأوا لحق من شاركهم فى السعى رعيا . وحرموا ماارتفقوا به وحرموا الرفقاء ؛ وحازوا دون الغانمين النهب والسباء . وملك واحد مائة ، وحاز الرى وحـلأ عنه رفقة ظمئه .

ولما تسنى ذلك الفتح وتهنأ ؛ وتسهل ذلك الصعب وتهيأ ؛ عاد السلطان الى خيامه ، وعاذت الأيامن بأيامه . وكانت صاحبة حصن برزيه — أخت زوجة الابرنس صاحبة انطاكية — وقد سبيت وخبئت . فما زال يطلبها

---

(١) أى البكارة .

(٢) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد أخرى أو أشد الحروب .

(٣) أى احتراق قلوبهم من الهم .

(٤) أى تعطشهم إلى الشىء .

حتى أظهروها وأحضروها ، وكان بعد هتك سترها ستروها . فمن عليها بالاعتاق من الإرقاق ، وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق ، وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم فى الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات ، ووصل حبلهم بعد البتات (١) . وشعبهم وقد تصدعوا ، وأشبعهم وقد تجوعوا ، وحظرهم وقد استحلوا ، وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا ، ومنعهم وقد استميحوا . واحياهم بعد ما هلكوا ، وعصمهم بعد ماهتكوا . وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا ، وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا .

وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها ، فسرت بأختها ، وأعلنت بمقتها من سر مقتها ، وأذاعت من مضمر بغضها بمظهر حبها ، وجاءها الفرح فى غمها والفرج فى كربها ، وتشكت لأخذ بلدها ، وتشكرت لترك أختها وولدها .

وأنعم السلطان بهذا الحصن على (عز الدين بن المقدم (٢)) — الكريم المكرم ، والمقدام المقدم ، والعظيم المعظم ، والماجد الممجد — (ابراهيم ابن محمد) . فان هذه القلعة لثغر أفامية (٣) الجارية فى اقطاعه متاخمة ، وهى لها فى السلم مقاسمة ، وفى الحرب مزاحمة . وسرت هذه البشرى وسارت ، ودرت هذه النعمى ودارت ، وطارت كتب البشائر : وسرحته على جناح الطائر .

وفيما كتبت « ان هذه البشرى بما أجده الله من الفتح العزيز ؛ والنصر الوجيز ؛ بفتح حصن برزيه الذى برزت له الأرض فى قشب أثوابها ، وتفتحت له السماء لتنزل الملائكة من أبوابها ، بل سفرت به عرائس

---

(١) البتات : القطع .

(٢) عز الدين بن المقدم : هو ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، صاحب منبج وقلعة نجم وأفاميه وكفر طاب ، توفى سنة ٥٩٧ هـ ، وخلفه أخوه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ٩٩ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٣) ثغر أفاميه : مدينة حصينة من نواحى الشام وكورة من كور حمص (ياقوت ج ٢ : ٢٢٧ ط . ب).

الأيام فى حلى أيامنها ، وأشرقت منه أقمار الليالى فى أنوار محاسنها ، وهذا الحصن لا يمكن وصف ما هو عليه من الحصانة ، وكأن حجره فى حجر حضن للحصانة . وقد عرف مافتحناه من البلاد والحصون ، وسلبنا أهل الكفربها من السلامة والسكون . وفتحنا كل مرتج لم يكن فتحه مرتجى ، ولم يجد من حصل فى أسر الدهر به مخرجا . حتى أتت أيامنا : ودانى فيه مرامنا ، فجاءه عصرنا ، وفجأه أمرنا ، ووصل الينا ماهو فى الأزل ذخرنا ، وكمل بهذه الفتوحات فخرنا .

وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية ، وسقينا بماء الحديد الجارى فى أنهار دم أهل النار مغارس الهدى الزاكية ، وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العدو الباكية . وهذه الحصون التى فتحناها ، والمعاقل التى استبحناها ، لو وكلنا الله الى اجتهادنا فى فتح أحدها لتعذر ولو أنجلبت عساكر الدنيا بمددها . لكن الله سهل ويسر ، وفتح ونصر ، وأنزل الظفر . وان حصن برزيه لم يكن عليه قتال ، ولا للوهم فيه مجال . ولا منصب عليه لمنجنيق ، ولا مسلك اليه لسالك طريق .

وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله فى أمره ، غير طامعين فى فتحه ، ولا راجين لنجحه . فانقاد جماحه ، وانخفض جناحه ، وساء صباحه ، وكل سلاحه . وتوقل (١) الرجال فى ذروته توقل النجوم فى الأفلاك ، ونصر الله أهل التوحيد على أهل الاشراك . وفتحناه بالسيف عنوة ، ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضحوة ، فانا لما توكلنا على الله فى منازلته ، واستعنا به فى مقاتلته ؛ نظر الله الى النيات ، وأعان ذوى العزائم والثبات . فتعلقوا فى الجبل ، وتسلقوا الى القلل ، وسعوا الى الأجل ، فى طلب تسنى الأمل . فكان كما قال الله تعالى (وما أمرُنا إلاّ واحدةٌ كلَمْحٍ بالبصر(٢)) حتى منّ الله بالظفر ، وأصفى الورد والصدر من الكدر .

وقد بقيت انطاكية وما لها بقاء ، ولا لها فى الاعتصام رجاء . وقد نقصنا أطرافها ، واستبحنا أكنافها ، وشفهنا نطافها ، وعضدنا من رءوس

---

(١) توقل : صعد.

(٢) آية ٥٠ سورة القمر.

أهلها بحدود الصوارم قطافها . ولم يبق من معاقلها إلاّ القُصَيْر(1) ، ودربساك(2) ، وبغراس (3) ، وقدتقدم اليها الفاتحان ، الرعب والباس .

---

(1) القصير : ضيعة وهي أول منزل لمن يريد حمص من دمشق (ياقوت ج 15 : 367 ط . ب) .

(2) دربساك : قلعة مرتفعة حصينة لها أعين وبساتين ولها من شرقها مروج كثيرة العشب وهو فى شمال بغراس بميلة إلى الشرق وبينهما عشرة أميال (الفهرس الجغرافى النوادر السلطانية ط. ليدن رقم D) .

(3) بغراس : مدينة فى لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية فى حلب فى المنطقة المطلة على نواحى طرسوس (ياقوت ج 4 : 467 ط . ب) .

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت آماله ، ورجحت أعماله ، وجل اقباله ، وأقبل جلاله ، وعبر عند (شقيف دركوش (١)) الى شرقى العاصى . وقد دانت ودنت له المقاصد العواصى القواصى . وأقام آياما على جسر الحديد (٢) حديد الجسارة ، شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح وللمشركين من الخسارة .

ثم قصدنا دربساك وجددنا بتأييد الله فى حصره الاستمساك ، ووجدناه حصنا مرتفع الذُرا ممتنع الذَرا (٣) ، قد جاوز الجوزاء ، وناجت أرضه السماء . وكان عش الداوية بل عرينهم ، وطالما أطال فى التعدى أيديهم وعرانينهم (٤) ، وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون ، وركنوا بسكنى هذا المعقل إلى السكون ، فلما أشرفنا عليهم أشرفوا على المنون .

ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب ، وقلب الكفر قد وجب . ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها ، وصوبت اليهم مسددات مراميها ومرامها ، وراميناهم بها ليلا ونهارا ، وأرسلنا اليهم أمثال قلوبهم ووجوههم أحجارا . وكدنا لا نذر فى أرضها التى هى فى السماء من الكافرين ديارا (٥) . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى ، وأسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال فى حمُر المرعى .

---

(١) شقيف دركوش : قلعة من نواحى حلب قبل حارم (ياقوت ج ١٢ : ٣٥٦ ط . ب)

(٢) جسر الحديد : على نهر العاصى بالقرب من أنطاكية (أبو الفداء ج ٣ : ٧٥ ط . المطبعة الحسينية) .

(٣) الذرا : النواحى .

(٤) العرانين : جمع عرنين وهو الأنف كله أوما صلب منه وهذا كناية عن أنهم يتقوون بموقعه .

(٥) ديارا : أى صاحب دار أوساكن .

وأصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب ، وقد شارف الفرنج الشجا والشجب ، ووجه نجاتهم قد احتجب ، وقد وقع بالنقب برج من السور الى الخارج ، وظهر فيه عروج للدارج ، ودروج للعارج . فطابوا على مراجعة أنطاكية الأمان ، وأن ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه المكان . فأجيبوا إلى ذلك على قطيعة ، وردوا ما كان للاسلام معهم من وديعة . وتسلم الحصن بما فية ثانى عشرى الشهر يوم الجمعة ، واصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة .

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغراس ، وقد ضايقنا الأعداء وضيقنا منهم وعليهم النفوس والانفاس . وهي قلعة من أنطاكية قريبة ، وأنها فى الشدائد لدعاتها مجيبة . ورأيناها راسخة على رأس راس ، شامخة على عاص عاس . أرضها فى السماء ، وجوازها على الجوزاء . متوغلة فى الشعاب : متوقلة على الهضاب . منسحبة فى السحاب ، مضببة بالضباب . مربة على الرباب(١) . متعلقة بالنيرين(٢) ، متسلقة الى الفرقدين(٣) ، محلقة الى النسرين . ولا مطمع نحوها لطالع ، ولا مطلع فيها لطامع . ولا مطمح للامح ، ولا ملمح لطامح .

وهي للداوية وجار(٤) ضباعها ، وغاب سباعها . ودار دوائرها ، وغار مغاورها . وغيل غوائلها ، ومنزل نوازلها . وجعبة نبالها ، وهضبة رئالها(٥) ، ومذب ذئابها ، ومدب ذبابها ، وكوارة(٦) زنابيرها ، ومغارة خنازيرها ، ومرقب صقورها ، ومرقد نسورها ، ومكنس وحوشها ، ومعرّس جيوشها .

فخيمنا بقربها فى المرج ، وقد أثارت من مشرعات أسنتنا فى ظلماء نقع خيلنا مشعلات السرج . وتقدم من العسكر جمع كثير ، وجم غفير . وخيم بين انطاكية وبينها ، ووكل بها ناظر يقظته وأرقد عينها . فأقام على سبيل اليزك ، ودخل فى حفظ جانبها فى الدرك . وصار يركب

---

(١) مربة على الرباب : هنا بمعنى أنها مقامة على علو شاهق فوق الرباب = هنا بمعنى السحاب الأبيض والسحاب بطبيعته عال جداً فى الفضاء .

(٢) النيرين : هنا بمعنى جانبى الطريق .

(٣) الفرقدان : نجمان أحدهما قريب من القطب الشمالى يهتدى به والآخر أخفى منه .

(٤) وجار : حجر .

(٥) رئال : جمع رأل وهو ولد النعام .

(٦) كوارة : شيء يتخذ للنحل فى القضبان أو الطين تأوى إليه أو هى عملها فى الشمع .

كل يوم ويقف تجاه انطاكية صفا ، ويسومها من الغارات عسفا . وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقابل رجسها منه الطهر .

وصعد السلطان فى جريدة عسكره الى الجبل ، ووقف بإزاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته ، وصوب لقم الحجر الى لهاته ، ووافق آمربه بالاذعان على خلاف نهاته ، وقلنا للمقيم به خذ الأمان وهاته .

وما زالت الحجارات تناوبه ؛ وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه ؛ والصخور فيه تتواقع ؛ والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بابه ، وألجأ جماح أصحابنا عليه جماحه الى أصحابه . وخرج مقدم الداوية يستأذن فى الحضور ، ويسأل الأمن من المحذور ، والحل من المحظور . ويقول « انما قنينا بغراس بغراس القنا ، وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى . والمعاقل لايحميها الا معتقلوها ، والبلاد لايحفظها إلا أهلوها . وما فى هذا الحصن الا مقدمان ، وما لنا بمقاومتكم يدان » .

وعاد إلى أصحابه من السلطان بالأمان . وتسلمت القلعة كما تسلمت اختها دربساك بالأمس ، وسلمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد أولئك الشُمس(١) ، وأباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس . وأنار فى مطلعها سنى السنجق المنصور ، وآذن المتطاول فيها من تطاولنا بالقصور . وذلك فى ثانى شعبان ، وسر النصر فيه شاع وبان .

وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى (علم الدين سليمان(٢)) — وكان صاحب حصن عزاز(٣) وقد حاز الغنى به وفاز ، وما كان فى

---

(١) الشمس : جمع الشموس وهو العسر فى عداوته شديد الخلاف على من عاداه .

(٢) علم الدين سليمان : هو ابن جندر ، كان من أكابر أمراء حلب ومن مشايخ الدولتين النورية والصلاحية شهد مع صلاح الدين حروبه كلها ، وهو الذى أشار بخراب عسقلان مصلحة للمسلمين ، توفى سنة ٥٨٧ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٣ ط . دار الكتب) .

(٣) عزاز : أو أعزاز ، بليدة فيها قلعة ، شمالى حلب وقريباً منها (ياقوت ج ١٣ : ١١٨ ط.ب) .

الأمراء الأكابر من لايدّعى سواه الاعواز . فألزمه بهما ليعتنى بحفظهما ، وحضه من عصمتهما على حظهما . فتسلمهما بذخائرهما ، واطلع من النفائس على مستودعات ضمائرهما .

وكانت حينئذ أنطاكية قد أسعر غلتها غلاء سعر الغلة . وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة . والغرارة تساوى اثنى عشر ديناراً ، والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا . وحزنا ما فى بغراس خاصة من الغلة ؛ سوى ما فيها من تفصيل الأقوات والجملة ، فكان تقدير اثنى عشر ألف غرارة ، فحصل سليمان من منبع هذا الملك على غزارة عن غرارة .

فقلت : « كأنى به وقد نقل هذه الغلة الى أنطاكية وباعها ، وأعرض عن متاعب الآخرة وحوى من الدنيا متاعها ، وأذهب الغلة بذهب يغله . ويستحلى مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستغنى من حفظ الثغر ويشير بتخريبه ، ووقع لى فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع أنطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون ؛ وظفر من فتوحها بالسر المصون ؛عول على قصد أنطاكية فانها كانت مريضة على شفا ، ورسم قوتها قد عفا ، وخلق ثيابها قد انتفى ، والدهر قد انتقم منها واشتفى ، ووجه الفلاح عن أهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها ، لحص دعائمها وحصدها .

وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال أخي زوجته ، يسأل فى سلم يعود ببقاء بهجته ، وسلامة مهجته . وعقد الهدنة على بلده ؛ وأمن على ما فى يده ؛ وذلك لثمانية أشهر من تشرين[1] الى آخر أيار[2] ، ووافق من السلطان الاختيار . لكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها ، فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها . ولم يكن له رغبة فى اتمام هذا الصلح ، لكمال الغبطة لنا فى الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الاقامة ، وأبدى السآمة ، وأراد السلم والسلامة وقيل بهذه المدة من الهدنة لا تزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جدة ولا ترجو لها عدة منجدة ، ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عدة .

وأما حصونها فقد حصلنا على عسلها ، وقتلنا نحلها ، وأما هى فنعمل فيها بقول الله تعالى (وان جنحوا للسّلم فاجنح لها[3]) . وشرط على صاحب أنطاكية اطلاق من فى الأسر من المسلمين ، واستوفى رسولها على عقد

---

(١) تشرين : أى شهر أكتوبر.

(٢) أيار أى شهر مايو .

(٣) الآية ٦١ سورة الأنفال .

الهدنة اليمين . وسار رسولنا مع (شمس الدولة بن مُنقذ)[1] للأسارى منقذا ، وللأوامر منفذا ، وعلى المقاصد مستحوذا . وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبى والغنيمة وسلب وخلب .

(١) شمس الدولة بن منقذ : هو الأمير أسامه بن مرشد بن على بن المقلد بن نصر بن منقذ ، أبو الحارث ، الكنانى ، مؤيد الدولة ، مجد الدين . ولد بشيزر سنة ٤٨٨ هـ ، كان فارساً شجاعاً ، عاقلا مدبراً ، وكانت له اليد الطولى فى الأدب والكتابة والشعر ، طاف البلاد ثم استوطن حماة وكان صلاح الدين مغرما بشعره ، توفى سنة ٥٨٤ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٠٧ ط.دار الكتب).

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي
وعساكر البلاد وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعه بكرامة كرام أشياعه ، وخصه بعد ما سير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة مجملة ، وحرمة مكملة . ووعد جميل يرغب فى العود ، وجود جزيل منسكب الجود . وذلك سوى ماغندوه من كسب وكسبوه من غنم ، واستطلقوه من رسم ، واستجزلوه من قسم . وملكوه من رق سبى ، وأدركوه من حق سعى . وأجلوه من غرض ، وأدوه من مفترض . وأحيوه من حسنة النصر ، وأماتوه من سيئة الكفر . واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجح .

وسار السلطان فى عسكره حامدا لله فى مورده ومصدره . وارتاح الى العبور على أرتاح(1) ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتاح . ووصل الى (حلب) وحلب احتفالا بوصوله حافل . والملك بها للاهتزاز بقدومه فى ملابس البهاء رافل . ودخلناها وقد خرج كل من بها للتلقى ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقى . وشاهدنا من النظارة عيونا للمحاسن ناظرة ، ووجوها ناضرة ، وقلوبا حاضرة ، وألسنا شاكرة ، وأيديا فى بسطها الى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة .

واقتضت حركتنا الى الشهباء(2) ، لساكنيها سكون الدهماء . وأقام بقلعتها أياما يسيرة ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقام ، واتسقت الأمور بأوامره على النظام ، ولم يرحل الا وقد خص عوامنا وخواصنا بالانعام الخاص والعام . وأبان عن

---

(1) ارتاح : اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب ، ومدينة (ياقوت ج ٢ : ١٤٠ ط .ب) .

(2) الشهباء : هى حلب وقيل أن هذا الاسم أطلق عليها لبياض مبانيها .

كل منقبة ، وأعان بكل موهبة : فما رآه والده مذ حل بحلب الا فى أجمل حلية وأكمل حالة ، وأجلى بهجة وأبهى جلالة . وقد أجد لعينه ولنفسه قرة وقرارا ، وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا .

ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طرقنا المتصلة بدليلى الشكر والثناء . وتنكبنا طريق المعرة ، بسلوك طريق المعرة(١) وأوفيناها(٢) بالمبرة الموفية المبرة . وتيمن السلطان بزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقى (أبى زكريا المغربى(٣)) — وهو مقيم فى مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز . (٤) ومشهده . وقصده السلطان على فراسخ ، ولقى منه فى الحلم والوقار الطود الراسخ . واهتدى بسجاياه ، واقتدى بوصاياه .

ووصلنا الى حماه وبتنا بها ليلة واحدة ، ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جاحدة . فان (الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب) قد كشف عنها بايالته الكروب ، وملك القبول من أهلها والقلوب . وأعاد لها بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبته ظلا مديدا . وكانت قلعة حماه لاتعد فى القلاع المعدودة المحمية ، ولا تذكر مع المعاقل المرعية المرضية . وهى ذات تل متبطح ، غير مترفع ولامتسفح . فلما تولاها تقى الدين قطع من التل ما كان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيدا

---

(١) المعرة : اسم لموضعين بالشام أحدهما معرة مصرين وهى بليدة وكورة بنواحى حلب ، والثانية معرة النعمان ، وتنسب إلى النعمان بن بشير الصحابى وهى مدينة كبيرة بين حلب وحماه (وهى المقصودة هنا) (مراصد الاطلاع : تحقيق على البجاوى) .

(٢) أوفيناها : هنا بمعنى أمددناها وأعطيناها ميرة تامة .

(٣) أبو زكريا المغربى : هو الفقيه الصالح ، كان مقيماً عند قبر الخليفة عمر بن عبدالعزيز وقد زاره السلطان سنة ٥٨٤ هـ بعد مغادرته لحلب ، وله كرامات ظاهرة ، وكان مع صلاح الدين فى الزيارة الأمير أبو فليتة قاسم بن المهنا الحسينى أمير المدينة المنورة (أبو الفداء ج ٣ : ٧٥ ط. المطبعة الحسينية) .

(٤) عمر بن عبد العزيز : هو الخليفة الأموى ابن مروان بن أبى العاص بن عبد شمس. خلف سليمان بن عبد الملك فى الخلافة سنة ٩٦ هـ ، كان متحريا سيرة الخلفاء الراشدين ، قيل إن مولده كان بمصر سنة ٦١ هـ وتوفى سنة ١٠١ هـ بقرية دير سمعان من عمل معرة النعمان (أبو الفداء. ج ١ : ٢٠١ المطبعة الحسينية ١٣٢٥ م) .

عاطيا . وعمق خندقها فى الصخر ، وحصنها على الدهر . وبنى فيها الدور المرخمة ، والأروقة المهندسة المهندمة : وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها . وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة ، فاضلة فى الشام كل مدينة .

فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى فى الخدمة على رسمه . وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرته ورفعنا ، والنادى قد جمعنا ، والشادى قد أسمعنا . والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب . فما انفصلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وعرف[1] أنشر . وفضل سنى ،وعدل أحيى ، ورسم نائل للسماح أجرى، وزند سائل بالنجاح أورى ، وسنى جد أعلى ، وجنى جود أحلى .

وقرأ لذوى الحاجات القصص ، وأزال من الظلامات الغصص ، وأنال لذوى الخصاصات الحصص . وأصبحنا على الرحيل ، ووصلنا العَنق[2] بالذميل[3] . وعبرنا مغذين على حمص ، وزدنا فى الوصول الى دمشق على طريق بعلبك الحرص . وجئناها قبل شهر رمضان بأيام ، وركنا الى ما أنسنا به من مقام . وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلالنا أهلها . وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم . فما لبث السلطان ولا مكث ، ولا نقض عهد عزمه على الغزاة ولا نكث . وقال « لا نبطل الغزوة ، ولا نعطل هذه الشتوة . وقد بقيت صفد وكوكب وأخواتها ، وبطول مضايقتها فنيت أقواتها وقواتها ، فننتهز فرصة فتحها التى لا يؤمن فواتها » .

---

(١) فى ب شرف والتصحيح من ل .

(٢) العنق : السير السريع .

(٣) الذميل : السير اللين .

وخرج من دمشق فى أوائل شهر رمضان وحد عزمه رميض(1) ، ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ووجوه الأيام بأياديه البيض بيض ، ولسان الدهر فى ذكر سيزه وتسيير ذكره مفيض ، وجناح الكفر بنجاح(2) رجائه ورواج مناجحه مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

(1) رميض : حاد .

(2) ق ب بجناح والتصحيح من ل .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، فى تسلم حصن الكرك . وذلك أن مدة غيبتنا فى بلاد أنطاكية ، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية . وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين فى العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر . مقويا للامراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته فى الأمور عادة السكون . وكان صهره سعد الدين كمشبه الأسدى بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقى داوه معضلا ؛ وأمره مشكلا ؛ حتى فنيت أزوادهم ، ونفدت موادهم . ويئسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحلت(١) عليهم مصايفهم ومشاتيهم . فتوسلوا بالملك العادل ، وأبدوا له ضراعة السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل . فما زالت الرسالات تتردد ؛ والاقتراحات تتجدد ؛ والقوم يلينون والعادل يتشدد ؛ حتى دخلوا فى الحكم ، وخرجوا على السلم . وسلموا الحصن ، وتحصنوا بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة .

وكتبت عن السلطان فى بعض البشائر ، ما ألهى بحلاوته عن أرى الشائر(٢) . وهو أنا لما عدنا الى دمشق رأينا أن لا نستريح ، ولا نثنى عن كسر العدو عزمنا الصحيح . فقلنا نغتنم هذه الشتوة ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة الغزوة . ونستخلص هذه القلاع التى شغلت منا فى هذا الجانب قلوبا وعساكر . وأبقت لأهل البلاد فى طريقها ندوبا ومعاثر . وبيمن صدق هذه العزيمة ؛ والاستمرار فى الجهاد على الشيمة ؛ وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد اليه بعد الجماح الإصحاب ، وخرج منه الفرنج ودخله الأصحاب . وهو الحصن الذى كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب أشراك إشراكه منه على طرق الاجتياز .

---

(١) أمحلت : أجدبت .

(٢) أرى الشائر : العسل الذى يجتنى .

فأذقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذى كان يعتصم به فى هذا العام ، واضطر الكفر فى اسلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام .

وقد كان هذا الحصن ذنب الدهر فى ذلك الفج ، وعذر أهله فى ترك الحج . وابتسم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا . فالحمد لله على ماقدر من الحسنى ، ويسر من النعمى . حمدا يكون لما قدر إزاء ، ولما يسر جزاء . والحمد لله الذى أنجز صادق عِداته[1] ، فى كاذب عداته[2] .

---

(١) عداته : جمع عدة بكسر العين وهى الوعد .

(٢) العداة : جمع العادى وهو العدو ، المعتدى ، المعادى ، المتجاوز الطور .

وقطعنا مخاضة الأحزان خائضين فى بحار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت راياته مفتوحة أبوابها ، والنصرة فوق ألويته ممدودة أسبابها . فى أطلاب أبطال اذا أوعاها الفجر لم يسعها إلى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط من عجاجها على عشائه . ونزلنا على صفد ، والصبر قد نفد ، والنصر قد وفد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد .

وجاء الملك العادل وظاهر أخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشد بالرأى والحزم ما الزمان أرخاه ، وبعث كل ذى عزيمة على التصميم ونخاه . وشرعنا فى مراومة(1) القلعة ، ومساومة السلعة . وجثت المجانيق لاجتثاثها ، وحدثتها بألسنة آحداثها . ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وسمت الى هضاب تلك الأبراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجارة ، ولم نعطها من العذاب الواقع بها إجارة . فما رفع بها الحصن الراسى رأسا ولا الحجارة مست منه ركنا ولا النقوب باشرت أساسا . ودامت المجانيق منصوبة قد قام دَسْتُ(2) شطرنجها(3) والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها .

ودمنا عليها الى ثامن شوال ، ونوعنا فى افتتاحها الاحتيال . حتى أذن الله فى الفتح فسهل ما تصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ما تحجب . وتيسر ماتعسر ، وأمكن ما تعذر . وتأتى ما تأبى ، وأجاب نداءالاسلام ولبى . وعلموا أن صفد إن لم تخرج من أيديهم دخلت أرجلهم فى الأصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالآساد . ونزلوا من سماء العز الى ارض

---

(1) مراومة : طلب .

(2 و 3) دست شطرنجها : الدست فى لعب الشطرنج : يقال « الدست لى أو على . وغلبت » وهنا كناية عن أن الحرب قامت من أجل فتحها فاما أن تسفر عن الانتصار أو الهزيمة .

الهوان ، فأذعنوا للضراعة وتضرعوا بالاذعان ، وأخرجوا أسارى المسلمين ليشفعوا لهم فى طلب الامان .

وصارت صفد للمسلمين (١) صدفا ؛ وكانت للمشركين هدفا . وعادت للاسلام سدا ، بعد أن كانت للكفر ردءا ومردا . وطالما مكث فيها المشركون (وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدّا ، تكادُ السماواتُ يَتَفَطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرضُ وتخرّ الجبالُ هدّا(٢)) . ولقد كانت مارنا(٣) للكفر جدع ، ومرفقا للشر قطع . وناظرا للعدو غض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص . ويدا للباطل شلت وقد امتدت ، وعقدة للضلالة حلت وقد اشتدت . وتخلصت الداوية بأدواتها ، وتملصت بأسوائها . وصاروا فى صور ، وأبدوا بعد استطالتهم القصور .

---

(١) فى ب المسلمين والتصحيح من ل .

(٢) الآية ٨٨ سورة مريم .

(٣) المارن . طرف الأنف او مالان من طرفاه والمعنى هنا كناية عن الذلة بعد العز والأنفة

ذكر مادبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج أن صفد لنا صفت ؛ وأنها على الفتح الذى يشفى أشفت ، قالوا « لم يبق لنا الا كوكب ، وان صلاح الدين عن قصدها لايتنكب . وقد أقوت من القوة ، وهى تهى ان لم نعاجلها ونعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها ، وقل ظهورها لظهور إقلالها ، وهذا أوان انجائها وانجادها ، وهى مشرفة على العدم فدبروا فى ايجادها . فاذا قويناها وحميناها بقيت عدة فى العواقب ، وعصمة من النوائب » فقال مقدم الاسبتار « هى كوكبنا المتلالى ومنكبنا العالى . ومعقلنا المحكم ، ومعقدنا المبرم . وحصننا الحصين ، ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع ، والمنبع المنيع ، والمحل المحلى ، والمعلّم المعلىّ . وهى قفل من البلاء على البلاد ، وموئل من الخطوب الشداد . ولعلها تثبت الى أن توافينا من البحر ملوكنا ، وتعود إلى عادة الانتظام سلوكنا ، فما تبطىء جداتنا ، وما تخطىء نجداتنا » .

وأجمعوا على تسيير مائتى رجل من النخب ، المعدين لدفاع النوب . من كل جرخى نخى (١) ، وكمى أكمى ، وجهم(٢) جهنمى . وسقر سقرى ، ووعل جبلى ، وبطل باطلى . وكلْب كلب ، وذئب سغب . وعاسل معاسر ، وباسل باسر . ومغوار مغو ، ومتلوّم متلوّ ، وذمْر(٣) متذمر ، ونمر متنمر . وسبع ضار ، وشواظ من نار . وجمر من الجحيم ، وحام من الحميم . من شياطين يجنون الجنون ، ويمونون(٤) المنون ، ويشينون الشئون ، ويهدون الهُدون(٥) ، ويحزون الحزون ، ويفوتون الفتون ، ويظنون بالله الظنون .

---

(١) نخى الرجل : افتخر وتعظم .

(٢) جهم : عابس الوجه .

(٣) ذمر : شجاع .

(٤) فى ب يمنون والتصحيح من ل ، ويمونون : أى يحتملون مئونتهم ويقومون بكفايتهم

(٥) الهدون : هنا بمعنى كل أحمق جاف ثقيل فى الحرب.

وقالوا لهم « كيف تمضون وطريق السلامة مخيف ، وطارق الاسلام مطيف ، والشجا منيف ، والشجب مضيف » فقالوا « نحن نسير ونصير فى ضمائر الكهوف أسرارا ، وعلى أجياد الأطواد أزرارا ، وفى أوكار المغارات أطيارا ، وفى أعماق السيول أكدارا ، وعلى ظهور الريود(١) أوزارا ، نسرى ليلا ونختفى نهارا . والليل للعاشقين ستر ، ولكم أدلج من له وتر ، والنهج وان بعد فهو فى قرب عزمنا فتر . ومن رام النفيس الخطير رمى نفسه فى الخطر ، وطار الى الوطر ، وغرب(٢) الى الغرر .

ثم عزموا على ما زعموا ، وعملوا بما عنه عدوا . وخطروا الى الخطر ، وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوقلوا فى الأكم ، وتوغلوا فى الأجم . وتبطنوا فى الأودية ، وتكمنوا فى الأفنية . واحترسوا بالكمون(٣)، واحترزوا من العيون ، وتحركوا على السكون . وكادوا يصلون الى الموضع ويحصلون على المطمع . ويدركون الطلاب ، ويهتكون الحجاب ، ويعيدون الى الحصن روحه ، ويأسون بعد اليأس جروحه . فعثر — بواحد عثر منهم — بعض المتصيدين فتصيده ، وقاده وقيده . وأتى به الى صاحبه صارم الدين قايماز ، واستغرب من الافرنجى هناك الجواز . فأخبره بالحال ، وأن بالوادى مكمن الرجال . فركب اليهم فى أصحابه ، والتقطهم من سرر الوادى وشعابه ، وركب الشجاع (مسعود) فى طلب أولئك الأشقياء ، وانتشر الناس فى تلك الأكناف والأرجاء . فما نجا منهم ناج ، ولا نجح راج . ولا عاش عاش ، ولا حصل عاثر بانتعاش .

فما شعرنا ونحن على صفد للحصار ، والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من الأنصار ؛ حتى وصل صاحب قايماز بالأسارى مقرنين فى الأصفاد ، مقودين فى الأقياد . وكان فيهم مقدمان من الاسبتار ،

---

(١) الريود : جمع ريد وهو الحرف النائى من الجبل .

(٢) غرب إلى الغرر : تغرب عن وطنه وبعد معرضاً نفسه للهلاك .

(٣) الكمون : الاختفاء والتوارى .

وقد أشفيا على التبار : فان السلطان ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية ، فأحضروا عند السلطان للمنية . فأنطقهما الله بما به حياتهما ، وناجيا بما فيه نجاتهما . وقالا عند دخولهما ، وأمام مثولهما ؛ « ما تظن أننا بعد ما شاهدناك يلحقنا سوء » ، فعرفت أن بقاءهما مرجو . وانتظرت أمر السلطان فيهما وأيقنت أنه يبقيهما . فمال الى مقالهما ، وأمر باعتقالهما . فان تلك الكلمة حركت منه الكرم ، وحقنت منهما الدم .

واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفر من التدبير ، واتعاس من جردوه بالتدمير . وفتح الله علينا صفد ثامن شوال ، فشكرناه على أن مدد النصر متوال ، وسلمت القلعة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

وجئنا إلى كوكب ، ووجدناها فى مناط الكوكب . كأنها وكر العنقاء ، ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية ، ونزعت بها ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية ، وحمتها بحميتها وأبت النزول على أمنيتنا ولو بنزل منيتها .

واختارت العطب على العطاء ، وامترت خِلف الخُلف والشقاق للشقاء ، وأبت غير الإباء . وبصرت بالأمر فصبرت على الضر ، وأصرت على تحمل الإصر . وترامت على التعامى بالمصائب ، وتعامت عن المرامى الصوائب .

وقالوا « لو بقى منا واحد لحفظ بيت الاسبتار ، وخلصه الى الأبد من العار ، ولا بد من عود الفرنج إلى هذه الديار ، فنتجلد للاصطبار ، ونتشدد للانتظار » فقاتلوا أشد قتال ، ونازلوا أحد نزال . وفوقوا الجروخ المصمية ، وصوبوا الصخور المردية ، ورفعوا المنجنيقات الموجية . وتواترت زيارات الزيارات الموترة ، وتناوبت نوائب الزنبوركات المطيرة .

واجترأوا على الاجتراح ، وجرى سيل الجراح ودمنا فى الدم ، وردالوجود الى العدم . وتجرئة الرجال ، والتجريد للقتال ، وايتار الحنايا ، وايثار المنايا . والرمى فى المنجنيق ، والجمع والتفريق ، والرقع والتخريق ، والنقب والتعليق ، والحفر والتعميق ، والحصر والتضييق . والهد والهدم ، والرد والردم ، والصد والصدم .

وكان الوقت صعبا ، والغيث سكبا ، وتكاثرت السيول ، وتكاثفت الوحول ، ودامت الديم لدموعها مريقة ، وبقيت الخيم فى الطين غريقة . فلا لمركب مبرك ولا مربط ، ولا لسالك مسلك ولا مسقط . وكنا فى شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الأقدام ، ووهى الأطناب ووقوع الخيام . وكأن الخيم مناخل الأنداء ، وعدمت الأنوار لوجود الأنواء ،

وفقد ماء الشرب مع سيل الماء : والروايا مانهضت ، ولا نزعت ولا غمضت . والرواحل في الطين باركة ، وللحياة فاركة ، وللعلف تاركة . والمطية مطينة ، وسبل السيل مستبينة . وقد كشر البرد بالبزد ، عن أسنان عضاضة بالدرد (١) . والطرق زلقة لزقة ، وهي مع سعتها ضيقة . وللثق (٢) ثقل ، وللعلق عقل .

وما ثم الامانيط بالطين . وصعب علينا بصعوبة هذا الأمر أمر أولئك الشياطين ، فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان ، لتقريب وجوه الامكان . وبنى له من الحجارة ، ماصار له كالستارة . فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا ، والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا . والنقاب قد قلع وعلق ، والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند ، وأنجد الجد . ونزلت الأثقال والخيم الى أسفل التل ، فخف (٣) الثقل بنقل الثقل (٤) ، وطاب المقام بالغور وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين ، وتحللت الى الطيب عقد الطين .

وما زال السلطان ملازما للحصن ؛ وهناك ظاهرة له منه أسباب الوهن ؛ حتى علق بعض جدرانه وطرق الهدم الى بنيانه ، فتسلمه بامانة ، وأذهب سكون سكانه . فأخرجهم راغمين ، وأحرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل مافيه ، وأصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معتفية . وذلك في منتصف ذي القعدة ، وانتصفت الأيام بحل تلك العقدة ، ورجعت الليالي بالسكون الى طيب الرقدة .

وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها ، وخلوها وأبوا أن يلوها ، وتخلوا عنها بهمم واهية ، فوليها قايماز النجمي على كراهية ، بعزيمة عن مهامها لاهية .

وانتقل السلطان إلى المخيم بالفضاء ، وحمد الله على قضاء التوفيق

(١) الدرد : ذهاب الأسنان .

(٢) الثق : اللزج من الطين .

(٣) في ب ثخفت وهو تحريف والتصحيح من ل .

(٤) الثقل : بفتح الثاء وسكون القاف : الأمتعة .

وموافقة القضاء . وودعه (الأجل الفاضل) على عزم مصر ، بعد ما استكمل لنا مدة مقامه بصدق اهتمامه وجد اعتزامه الفتح والنصر . ثم تحول السلطان إلى أرض بيسان ، وأزال البؤس وزاد الاحسان .

وأقام بقية الشهر ، فى تمهيد مجد يقيم باقى الدهر . واظهر من الفضل مالم يكن مستورا ، وأعطى الأمراء والأجناد فى انفصالهم دستورا (١) . وسار ومعه أخوه الملك العادل مستهل ذى الحجة ، واضح المحجة ، لائح البهجة . وأوجها إلى القدس فى طريق الغور ، وزاراه للبركة وتبركا بالزور ، ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر . وصلى فى قبة الصخرة ، وخص ذوى الخصاصة بعميم المبرة . وعيد بها يوم الأحد الأضحى ، وأضحى بعد ماضحى ، وقد أصحب مراده وأصحى .

وسار يوم الاثنين الى عسقلان للنظر فى مهامها ، ونظم أسباب أحكامها ، وتدبير أحوالها ، وترتيب رجالها . وأقام أياما يوضح الجدد ، ويصلح ما فسد ، وينشد من النفع مافقد ، ويخمد من الشر ما وقد . فاذا وجد شعثا لمه ، وان ألفى نشرا ضمه ، وان صادف فتقا رتقه ، وان لقى حقا حققه ، وإن عثر على باطل عفى أثره ، وإن بصر بآمل خصه بعرفه وآثره ، ثم ودعه أخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره .

ورحل السلطان على صوب عكاء موفقا فى مورده ومصدره ، فما عبر ببلد إلا قوى عدده ، وكثر عدده ، وواصل بالرجال مدده . وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان ، لعارض مرض سلبنى الامكان . والحمد لله الذى وفر حصة الصحة ، وحول المحنة الى المنحة . وكل الشفاء بعد الإشفاء (٢) ، وأهدى عند اليأس أرج الرجاء .

---

(١) الدستور : فى الأصل الدفتر الذى تكتب فيه أسماء الجند أو الذى تجمع فيه قوانين الملك ، ويطلق أيضاً على الوزير الذى يرجع فى أحوال الناس إلى ماتركه ، وصاحب القوة ، ومنه استهلال الدولة فى كتابها إلى وزرائها بقولها «دستور مكرم» وهو مركب من دست بمعنى قاعدة ومن « ور» أى صاحب . ومن السياق يفهم أنه بمعنى أمر سلطانى (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . ب ١٩٠٨) .

(٢) الاشفاء : الأشراف على الموت .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان فى عكاء مقيم ، والأمر مستقيم ، والنهج قويم . وهو يبوب أسباب حفظها ، ويسبب أبواب حظها . ويهذب مراتب مصالحها ، ويرتب مذاهب مناجحها . ويعدل جوانح أمورها ، ويذلل جوامح جمهورها ؛ ويقوى ما وهى ، ويسوى ماهوى . ويحلى من الشان ماعطل ، ويعلى من المكان ما سفل . ويعيد نظم ما انتكث ولم ماتشعث ، ويجيد كل ما دعا الى بعث ما مات منه وبعث . ومكث بها لا يريم القصر ، الى أن وصل جماعة من مصر . فأمرهم فيها بالاقامة ، محافظة على الحماية المستدامة . فأمر (بهاء الدين قراقوش) باتمام بناء السور ، وإحكام أحكام الأمور . وولى الأمير (حسام الدين بشارة) بعكاء واليا ، ولم يزل لآثار الدولة فى إيثار العدل تاليا .

ثم خرج السلطان وسار على طبرية ودخل دمشق مستهل صفر ، وقد استكمل الظفر ، ووجه الدين به قد سفر ، وعز من آمن وذل من كفر . وحزب الهدى قد أنس ، ونفر الضلال قد نفر ؛ وجلس على سرير السرور ، ولبس حبير (١) الحبور . وبدأ بحضور دار العدل فدرّ عدله للبادى والحاضر ، وأقام سفور بشره للمقيم والمسافر . وأفاض الفضل ، ومحا المحل (٢) . وأعلى أعلام العلماء ، وأحلى أحلام الحلماء ، وأمضى أحكام الحكماء ، وقضى بإكرام الكرماء . وأسدى المعروف ، وأعدى الملهوف . وأنكر المناهي ونهى عن المنكر ، وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر . وأقام مدة الشهر ، وأولياؤه جناة النصر ، وأعداؤه عناة القهر . وأيامه مسفرة ، ولياليه مقمرة ، ومغارس أياديه بثمار المحامد مثمرة ، ومجالس أعاديه فى ديار الشدائد مقفرة .

والملك بزهوه زاه زاهر ، والدين ببهائه مباه باهر . والآفاق منيرة

(١) الحبير من الثياب : الناعم الجديد ، البرد الموشى .

(٢) المحل : الخديعة والكيد .

والأنوار مفيقة ، وللدولة (١) حق مدال (٢) وحقيقة . وللجد واف (٣) جاده ، وللجود وفى عهده (٤) . وللسماح سماء تهمع (٥) ، وللمراد مراد يمرع . وللوجوه بالبشر بهجة ، وللألسنة فى ديمة (٦) الشكر لهجة ؛ وللهمم علو ، وللشيم سمو ، وللكرم نمو . وللفضل قيمة ، وللافضال ديمة . وللشريعة شرعة واضحة ، وللحق سنة لستر الباطل فاضحة ، والصنائع راجحة ، والذرائع ناجحة .

---

(١) فى ب و ل وللدولة وفى أ (١٥٤ ش) والدولة .

(٢) مدال : متداول .

(٣) واف : كامل غير منقوص وهى فى أ (١٥٤ ش) أوفى .

(٤) فى أ (١٥٤ ش) وللجود أوفر عدة ، والمذكور هنا فى ب ول .

(٥) المذكور فى ب ول وأما فى ا (١٥٤ ش) وللسماسماء تهمع .

(٦) مثبتة فى أ (١٥٤ ش) ساقطة فى ب و ل .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولى العهد
— عدة الدين أبى نصر محمد (١) بن — الامام الناصر لدين الله —
أبى العباس أحمد أمير المؤمنين

بتاريخ أوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر الخلافة . ومربع الامامة ، وموضع الكرامة : ومطلع الهدى ، ومنبع الندى . ومشرق نور الايمان ، ومشرع فيض الأحسان . ومرجع المرجين ، ومفزع الملتجين ، ومنتحى الناجين ، ومنجى المناجين . ومهبط الوحى ، ومصعد الأمر والنهى ، ومقصد نجاح السعى . ومخفض جناح الرحمة ، ومقطف جنى النعمة . ومجر ذيول المناقب ، ومجرى سيول المواهب . ومزار أملاك السماء ، ومدار أفلاك العلاء . ومحج ملوك الأرض ، ومحجة سلوك الفرض . وموطن التنزيل ، وموطىء جبريل : ومقام الخلافة ، ومرام الرآفة . ومحمل الأمانة ، ومحل الديانة : ومطاف الطائفين ، ومطار العاكفين ، ومعرف الواقفين ، وموقف العارفين ، وقبلة المقبلين ، وموئل المؤملين ، وكعبة القاصدين ، ومثابة الوافدين . ومعفر وجوه العظماء ، ومكفر ذنوب الكرماء .

ومعصب السيادة القرشية ، ومنصب الوراثة النبوية ، والسدة الشريفة الناصرية . ودار السلام ، وقبة الاسلام .

فابتهج السلطان بوصول الرسول ، وأيقن بحصول السول . وسُرّ سِرّه وأبرّ برُّه ، وصدر بنشر الانشراح صدره ، وقدر على الاتسام بالتسامى قدره . واحتفل بأسباب التلقى ، والتحف بأثواب الترقى . وسأل عن الرسول

---

(١) محمد بن الإمام الناصر لدين الله . هو الخليفة الظاهر بأمر الله ، أبو نصر محمد ابن الناصر لدين الله تعالى أبى العباس أحمد، الهاشمى العباسى البغدادى ، كان مولده سنة ٥٧٠ ، وأمه أم ولده ، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٢ هـ ووقعت له شدائد إلى أن مات سنة ٦٢٣ هـ كان فقيهاً عادلا ، قطع الظلامات والمكوس (النجوم الزهرة ٦ : ٢٦٥ . دار الكتب) .

المندوب ؛ للسؤال المخطوب . فقيل هو (ضياء الدين عبد الوهاب ابن سكينة (١)) ، وصل بالضياء والسكينة ، والأحوال الحالية المزينة .

وكان وزير الخلافة يومئذ (معز الدين بن حديدة (٢)) فعين لهذه الرسالة (ابن سكينة) حين عرف آراءه السديدة . فتلقاه — يوم دخوله إلى دمشق — السلطان وأولاده ، وكان يوما مشهوداً حضره أعيان البلد وأماثل العسكر وأشهاده . وأنزله فى دار الكرامة ، ورتب له وظائف الإقامة . ثم جلس له فى يوم سعد صباحه ، وبدت فى جبهة الدهر البهيم غرره وأوضاحه ، وملأت ظرفى الزمان والمكان أفراحه ، وجاء على وفق الآمال اقتراحه ، وختم باليمن والإقبال رواحه . وورد بكل ما أبهج الأولياء ، وأزعج الأعداء . وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه ، وثنى عطف تباهيه وهزه . ورسا له طوداً بالوقار فى إيراد الرسالة ، وجلا له فى مهب المهابة أنوار الجلالة . وتلفظ له بالتفضل ، وتطوق منه بالتطول . وبشر بأن أمير المؤمنين فوض ولاية عهده ؛ إلى ولده — عدة الدين — أبى نصر محمد من بعده ، وأخذ بذلك العهد على من حضره من أعيان الأمة ، وحفظ عليهم بتوليته ما أولاهم الله به من النعمة .

وأمر بأن يخطب له بمصر والشام وجميع بلاد الإسلام . فاستبشر بهذه الموهبة ، واستظهر بما خص به من هذه المرتبة . وأمر بذكر اسمه ونقشه فى الخطبة وعلى السكة ، وعاد الإسلام به ظاهر الشوكة والشكة (٣) .

---

(١) ضياء الدين ابن سكينه ؛ هو ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، الشيخ أبو محمد الصوفى ، المعروف بابن سكينة ، سبط شيخ الشيوخ اسماعيل بن أحمد النيسابورى ، كان فاضلا محدثاً ، عابداً زاهداً ، توفى سنة ٦٠٧ هـ — (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٠١ ط . دار الكتب) .

(٢) معز الدين ابن حديدة ، هو الوزير ، الرئيس ، سعد بن على بن أحمد ، أبو المعالى ، ابن حديدة ، من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارى الصحابى ، كان مولده بكرخ سامرا (بالعراق) سنة ٥٣٦ هـ ، وكان له مال كثير ، استوزره الخليفة الناصر لدين الله ، وقع له بعد ذلك محن — فهرب واختفى الى أن توفى سنة ٦١٠ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٠٩ ط . دار الكتب) .

(٣) الشكة : السلاح .

وخطبنا لولى العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صفر ، ولم يبق من الأمراء والأماثل والأفاضل الا من حضر ، وأحضر معه الدنانير ونثر . وتولى ذلك الملك الأفضل فأظهر أبهة ملكه وبهاء فضله ، وحصل الإسلام من رى رأيه على نهله وعله (١) .

وندب للرسالة إلى الديوان العزيز (ضياء الدين الشهر زورى ، القسم(٢) ابن يحيى) لينشر به ما كاد يعفو من سنن الموافاة ويحيا . وسيرت معه الهدايا ، والتحف والطرف السنايا . وأسارى الفرنج الفوارس ، وعددها الكوامل النفائس . وتاج ملكهم السليب والصليب والملبوس والطيب .

وأضفيت على رسول الإمام ملابس الإكرام ، وقفل ناجح المرام . واصطحب الضياءان لإضاءة مطالع الإيمان، بسفارة سافرةعن سنى الإحسان، وبشارة شائرة جنى النحل من نحل الجنان . واهتزت الأعطاف ، واعتزت الأطراف . وابتسمت ثغور الثغور لسدادها ،وانتظمت أمور الجمهور لسدادها . وسرت القلوب وسريت الكروب . وخزى الحاسد الحاشد ، وقوى الساعد المساعد . وواصل فى طريقه الاغذاذ ، حتى وصل إلى بغداد . فتلقى الرسول بالسول ، وقوبل بالقبول . وخرج إليه الموكب الشريف ، وأضيف له إلى تالد جده القديم جده الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيئة يوم قراعها ، راكبة حصنها فى طوارقها وبيارقها وأدراعها ، وقد نكست بنودها وأتعست أنوفها . وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها ، ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها . ثم عطف به إلى دار الكرامة فنزلها :

وألفى الوزير ابن حديدة قد عزل ، وأقام فى بيته واعتزل . وتصدر فى الدست للنيابة ، وسماع الخطاب والإجابة ، من له المجد الأثير ، الصدر الكبير ، مؤيد الدين صاحب ديوان الإنشاء ، وقد خص بتولى الحل والعقد والأخذ والإعطاء . فتولى سماع الرسالة وجوابها ، وأولى صوبها ووالى صوابها .

وسيأتى فى موضعه ذكر ما انتهت إليه الحال ، وجرى به الفال ، وكيف شغلت العوائق وعاقت الأشغال :

---

(١) عله : العل ، هو الشرب المتتابع .

(٢) فى النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٨٤ (القاسم) .

فصل مما كتبته فى المعنى عن السلطان إلى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال ، وأداه من فرض الإعظام والإجلال . وقام به من الأمر الذى قام به أمر الدين والدنيا ،وبادر إليه من استثمار طاعته التى دامت لها من نعمة الدار العزيزة فى ازكاء مغارسها السقيا . وحل حبا (١) الحب لما حل من حبائها ، وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها ، وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من اسعادها ، واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات(٢) مهادها ، ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين. وأبرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووفق لما وافق المراضى الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضى ، واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء فى استيفائه بما قضى . وسبق إلى ماسبق به جواد صدقه فى جواد قصده ، وافتتح فريضة طاعته فى حلاوة عبوديته بتلاوة فاتحة حمده ، وانتهى إلى نهاية النهى ، وأطاع ما أطاق فيما أمر الله به ونهى . وما وضع الكتاب من يده حتى رفع بالدعاء يده ، وسأل الله لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين وافد النصر ومدده . وأن يعضده بولده ولى عهده المطاع بأمر الله عدة الدنيا والدين ، ويقربه عيون المسلمين . فقد فاضت البركات ، وآضت الحسنات ، وأضاءت الكرامات ، وراضت جماح الأمانى المبرات المبرات ، وهاضت جناح الكفر النتكات المرديات. وعمت الميامن ، ونمت المحاسن ونـَمَّتْ ونَمَّتْ النعم الظواهر والبواطن ، وضمت بسكون الدهماء أهلها المعاهد والمواطن . وصدحت المنابر ، وصدقت المفاخر ، وصدعت الأوامر ، وصدفت الفواقر (٣) وصدمت قلوب أهل النفاق من بواعث الرعب البواعث البوادر . ونقشت صفحات الدرهم

(١) الحبا : هنا بمعنى المحاباة .

(٢) ثرات : هنا بمعنى غزير وكثير وواسع .

(٣) صدف الفواقر : صدفت ؛ مالت وانحرفت . والفواقر جمع فاقرة وهى الداهية الشديدة فكأنها تكسر فقر الظهر .

والدينار ، ونعشت عثرات الأخيار الأحرار ، وفرشت مفوفات الأنواء والأنوار . وعرشت أسرة المبار والمسار ، ورفعت رغبات الأبرار ، وسمعت دعوات الأسحار .

ونزل النصر ، وفضل العصر ، ووجب الشكر ، وشجب الكفر ، ورحب الصدر ، وأصحب الدهر . وسحت سماء السماح ، وصح إرواء الأرواح ، وتضوع نشر الانشراح ، وتوضح صباح الصلاح ، وطال جناح النجاح وطاب جنى الأفراح .

وعظم القدر ، ونظم الأمر ، وحسن الذكر ، وأمن الذعر . واهتزت أعطاف الإسلام ، واعتزت أطراف الشام ، وتباجحت أيامن الأيام ، وتروجت أماني الأنام . وأرجت أرجاء الرجال . وثبتت باسناء الإسناد رواية أمالي ري الآمال . وقرت الأعين وابتهجت بالسعد الطالع ، وأقرت الألسن والتهجت بالحمد الجامع ، وقرت الأنفس وانتهجت بوسعها سنن العز الواسع ، ونابت هذه الموارد العذبة المشارب ، الصافية المشارع ، في نقع الأوام ونفع الأنام مناب المنابع . وأ خت السير وسيرت التواريخ ، وحلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمها وتضخيمها التضميخ(١) .

وأشرق المغرب من بشر البشرى ، وأنارت مصر من حسن هذه الحسنى وبسمت بسمة الشرف منابر الأقاصي والأداني موافقة لمنبر المسجد الأقصى . وتطرزت الفتوحات الفاضل عصرها الشامل نصرها بهذا المذهب المذهّب ؛ وفاحت في مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب . وعاد الزمان إلى اعتداله وعاد العدل بزمانه ، وتاب الدهر من عدوانه ، وآب إلى إحسانه ، ورجع الدين إلى سناء سلطانه ، وفجع الكفر بعبيدة صلبانه ، وبطش الإيمان بأيمانه ، واستخلص من الشرك بلدانه بلدانه(٢) .

وتقاضى الربيع بقروضه ، وضافت ضبوف فيوضه ، وعتب العزم

---

(١) التضميخ بالطيب . التلطخ به .

(٢) لدانه : لينه ورقته وسماحته . وتطلق اللدان على السلاح أيضا .

على ربوضه ، وحض الحظ على نهوضه. وحث الحب على إقامة سنن الجهاد وفروضه . فقددرت أفاويق الآفاق. وذرت أشعة الإشراق، وافترت نضرة الحدائق لنظرة الأحداق ، وراقت أوراق الألوية كالتواء الأوراق ، وأزهرت البيض والسمر كأزهار الرياض ، وأنفت غرار الجفون فى الأغماد من الاغماض .

وتيقظت الأقدار للإقدار على ايقاظ عيون البيض لإجراء دم الشرك المطلول ، وتنزل البركات فى انتجاع المراق من نجيع المارقين لإنزال نص النصر على النصل المسلول ، وقد آن أن ترعى الحشاشات منهم على رعى الحشيش ، ويطير إلى أوكار المقل طير السهم المريش ، وترتع ثعالب العوامل فى عشب الكلى ، ويطن ذباب المناصل فى لوح الطلى ، وترن رقاق المرهفات فى الرقاب رنين الخطب على الأعواد ، وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد ، وتحمل أشجار القنا بثمر الهام (١) ، ويجيش الفضاء المعشب بزهر الجيش اللهام ، ويقطف ورد الموت الأحمر من ورق الحديد الأخضر ، ويوقف حد الهندى الأبيض على قصر بنى الأصفر . ويجرى فى ورد الوريد جداول البواتر ، وترمى من الحصن(٢) العاديات إلى حصون العدا جنادل الحوافر ، وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر ، والظهور المضافر ، ضوامن الضوامر ، وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر من عقبان الجو بالفتخ (٣) الكواسر ، ويعبق ثوب الدارع من ردع الثواب بسهك الماذى (٤) وتعلق فى ملتقى التقى ألفات السمهرى(٥)، بلامات السابرى .

ويظهر الحق بخذلان الباطل ، ويحل بأيدى الأيد ما بقى مع الفرنج من معاقل المعاقل ، ويغرق بحر المجر الجرار ما تخلف من ساحات الساحل . فلم يبق به من المدن المنيعة إلا صور وطرابلس ، ومعالم الكفر بهما فى هذه السنة المحسنة بعون الله تدرس . وأما أنطاكية فإنها بالعراء منبوذة ، وعند

---

(١) فى ب الهام والتصحيح من ل .

(٢) فى ب الحصون والتصحيح من ل .

(٣) الفتخ : مخالب الأسد .

(٤) سهك الماذى : أى السحق الذى يحدثه كل سلاح من حديد .

(٥) السمهرى : الرمح الصلب .

الاتجاه إليها مأخوذة ، على أنها بوقم قومها عام أول موقوذة ، وحدود العزائم إليها عند انقضاء هدنتها مشحوذة . فإنها قد نقصت من أطرافها ، يد خل عليها من أكنافها ، وجدعت بفتح حصونها عرانينها (١) . وضيق على أسدها وسيدانها(٢) المحصورة المحشورة فيها عرينها ، فهى نهزة لمفترص، وطعمة لمقتنص ، وسلعة لمسترخص ، وبلغة لمستفحص .

وقد خرج الخادم ليدخل البلاد ، ويستأنف بجهده الجهاد ، ويستقبل الربيع بربيع الإقبال ، ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لأوقات النزال ، وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله أن ينجد جند أرضه بجند سمائه ، ويوفق الخادم لتصديق أمله فى تطهير الأرض من أنجاس أجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فالجحافل حافلة ، وأسراب الكفر بين يديها جافلة ، ومعاطف الإسلام فى لباس الباس رافلة ، ونصرة الله بانجاز عداته فى قمع عداته كافلة .

والحمد لله الذى وفق عبد مولانا أمير المؤمنين فى طاعته لنصر أمره ، وإخلاص الولاء له فى سره وجهره ، واقتناء كل منقبة حقق بها فضل عصره، وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره . فما يفتح مرتجا (٣) إلا بتقليدها ، ولا يستنجح مرتجى إلا بتأييدها .

---

(١) العرانين : جمع عرنين وهو هنا بمعنى الأنف كله أو ما صلب منه وهذه كناية عن أن كل ركن قوى فيها قد سقط وذلت بالنصر عليها .

(٢) سيدانها : ذئابها .

(٣) المرتج : الطريق الضيقة .

ذكر خروج السلطان من دمشق لأجل شقيف أرنون
وما جرى له مع صاحبه

وأقام السلطان شهر صفر فى دمشق وقد أطاب لناشق الآمال من نشره النشق، ثم خرج منها فى ثالث شهر ربيع الأول يوم الجمعة بالمحبة المجتمعة، والمهابة الممتنعة ، متوجهاً إلى شقيف أرنون ليقر بفتحه العيون ، ويصدق فى استخلاصه الظنون .

وأتى مرج برغوث، وأقام به إلى يوم السبت حادى عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث ، ثم رحل على سمت بانياس وقد أوقع رعبه بين أهل الكفر الياس ، وأتى مرج عيون (١) وخيم منه بقرب الشقيف ، وجمع على من به من آلات الحصار أسباب التخويف. وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول فى أواسط فصل الربيع .

وأقام فى ذلك المرج الوسيع ، والررض الوشيع .وأسمنا الخيل فى أعشاب واصية ، ورتعنا فى ألطاف من الله دانية غير قاصية . وكان الشقيف فى يد صاحب صيداء — أرناط ، وقد أكمل فى حفظه الاحتياط . فنزل إلى خدمة السلطان لحكمه طائعاً ، ولأمره سامعاً ، وارضاه تابعا ، وفى موضعه شافعاً ، وعلى حصنه خاشياً ، ولأجله خاشعاً .

وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله ، وأظهر أنه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله ، وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ، ويدخل فى طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على إقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه . فأكرمه وقربه ، وقضى إربه ، وأجابه إلى ماسأله ، وقبل منه عزيزاً ما بذله بذلته، وأمهى غرب غربه وأمهله ، وأخذله وما خذله ، وخلع عليه وشرفه ورفعه فى ناديه بنداه وعرفه ، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ، ووجد إليه سكونا وعنده سكينة .

---

(١) مرج عيون : مرج واسع بين نهر اليرموك وشقيف أرنون (النوادر السلطانية ط . ليدن رقم M) .

فشرع ارناط فى إذالة (١) حصنه ، وإزالة وهنه ، وترميم مستهدمه ، وتتميم مستحكمه ، وتوفير غلاله ، وتوفية رجاله ، وتدبير أحواله ، وتكثير أمواله ، ونحن فى غرة من تحفظه ، وفى سنة من تيقظه ، وفى غفلة من حزمه ، وفى غفوة من عزمه .

وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميرة ، ويكثر فيه الذخيرة . وقد صدقنا كذبه ، وحققنا اربه . وأنهى إلى السلطان ماهو مشتغل به من عمارة يجدها ، وذخيرة يعدها ، وثلمة يسدها ، وقوة يشدها، وميرة يستمدها . وكان بالمذكور سديد الظن . شديد الضن(٢) . لايقبل مافيه يقال ، ولايظن به عثوراً يقال .

فلما كثر فيه القول ، وتمكن من مسألته العول (٣) لم يرد أن يبدى له ما قيل ، ولم يصدئ بالتغيز عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج إلى سطح الجبل ، وتحويل الخيم إليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثانى عشر جمادى الآخرة . وأظهر أن المرج وخيم ، والمقيم به سقيم، وأم الدهر فيه بالصحة عقيم .

وكان المقصود أن الشقيف من عيانه يقرب ، وأخباره عنه لاتعزب . فلما علم صاحب الشقيف بقربه ، شرع فى إزالة مافى قلبه . وجاء إلى الخدمة واستمسك بالعصمة . وذكر أنه متعزز بذل الطاعة ؛ وبذل الاستطاعة . وتضرع خاضعاً ، وتعرض خاشعاً . وذكر أنه تخلف له أهل بصور ، وأنه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وأنه يترقب وصولهم ، ويأمل عنده حصولهم . وشرع فى تقرير هذا الحديث ، وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده النكير النكيث . وأقام يوما وعاد إلى حصنه ، وقد وجد من السلطان دلائل أمنه .

وكانت المدة قد دنا انتهاؤها، وقرب انقضاؤها . فإنها إلى آخر هذا الشهر ، ولم يجد بدا من التسليم أو الغدر(٤) . فعاد بعد أيام ؛ باكتئاب واغتمام .

---

(١) فى ب إزالة والتصحيح من ل ومعنى كلمة أذال هنا كناية عن التقوية والتوسيع . أذال الثوب : جعل له ذيلا .

(٢) الضن : ما يضن به من الشىء والمعنى هنا كناية عن عدم التسليم بما يقال فيه .

(٣) الصياح .

(٤) فى ب الغدر والتصحيح من ل .

وحضر عند السلطان فقال ما أظهر به الابتهال ، واستزاد الإمهال . وذكر أنه رقيق الامتنان ، وعتيق الإحسان . وأنه العبد القن (١) ، وقد دخل عليه الوهن ، وغلق به الرهن ، وأنه يبقى أهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن. ومن أنشأ غرساً سقاه فأبقاه ، وأشكاه فأزكاه ، وأسماه فأنماه . وقد اصتنعتني ورفعتني فلا تضع الرفيع ، ولا تضع الصنيع . وسأل أن تكون المدة سنة ، وأن يتبع الحسنة فى حقه حسنه . وأن يرخى بطوله طوله وأن يشفى بشفاء أله أمله .

فراقه قوله ، فرق له طوله ، ثم أفكر فى أمره ، واستمر فى فكره ، فغادره على عزيمة غدره ، وجاهره بسر شره . بعد أن ماطله وطاوله ، وزاوله على ما حاوله . وأقام أياما يردده ويخصه من الكرامة بما يجدده .

ثم كشف له الغطاء، بعد أن أجزل له العطاء . وقال له . « قد قيل عنك مالا نظنه فيك ولا نعلمه منك » . فجحد ماعنه رقى ، وأنه كيف يلقى بالكفران ما من الإنعام لقى ، وأنه إن لم يسعد بإمهاله فى الشقيف شقى .

ثم سأل فى ندب من يوثق بأمانته ، ويؤمن إلى وثاقته . ليدخل الموضع ويلمحه ، ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه ، وذكر أن الحصن قد غيروه . وأنه قد استجد فى سوره باب ، واستمدت له من أحكام إحكامه أسباب ،فاستحكم به الارتياب ، وعرف أن السرح قد حوته الذئاب .

فوكل به وحفظ من حيث لايعلم ، وقيل لعله يحسن فلايحوج إلى مقابحته ويسلم . ثم قيل له « قد بقى يومان من المدة المضروبة ، والمهلة الموهوبة ، فتقيم عندنا حتى تنتهى المدة وتنقضى ، وتُسلّم الحصن وتَسْلَم وتمضى . فأبدى ضرورة وضراعة ، وقال : سمعاً وطاعة . وكان له ملق وملق ، وفى لسانه ذلق ، وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال « أنا أنفذ إلى نوابى فى التسليم » . وهو قد تقدم إليهم بالوصية والتعليم . فاظهروا عصيانه ، وقالوا يبقى مكانه . فقال قد بقى من المهلة يومان فماذا العجلة التى يفوت بها الغرض ، ويطول منها المرض؟ فصبر عليه إلى يوم الأحد ثامن

---

(١) عبد قن : مملوك هو وأبواه .

عشرى جمادى الآخرة وهو آخر مدته ، وأول شدته ، وأوان انقضاء عدة عدته .

وقد رتب على الشقيف يزكا بمنع الخروج والدخول ، والصعود والنزول ، ويضايق غريمه المطول ، قبل أن يمتد حصاره ويطول .

وحمله جماعة من الأمراء ووقفوا به إزاء حصنه ، فناداهم فى دراك أمره ، وفكاك رهنه . فخرج إليه قس قاس ، باسرعن باس ، فحادثه فى حادثه بلغته ، وناقثه (١) فى كارثه (٢) بغلته ، وتحاوروا فى السر ، وتشاوروا فى الشر . وكأنما أمره بالتجلد ، وصبره على التشدد .

وعاد القس الشقى إلى الشقيف ، وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف ، فقيد وحمل إلى قلعة بانياس ، وبطل الرجاء فيه وبان الياس .

ثم استحضره (٣) فى سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ فى تخويفه ، على أن يبلغ المراد فى شقيفه . فلما لم يفد خطابه ،ولم يجد عذابه ، سيره إلى دمشق وسجنه ، وألزمه شجاه وشجنه .

وتحول السلطان من مخيمه إلى أعلى الجبل يوم الأربعاء ثامن رجب لمحاصرة الحصن ، ورتب لها(٤) عدة من الأمراء ، وأمرهم بملازمته(٥) فى الصيف والشتاء ، إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه ، وأجرى عليه حكم الحلم .

---

(١) خاطبه .

(٢) كارثه : الكارث هو الأمر الذى يسبب الغم الشديد .

(٣) يقصد السلطان .

(٤) أى البلد .

(٥) يقصد الحصن .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمرج عيون من الأحوال
وما كان من غزواته ونهضاته ووقعاته فى حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذى خلص من الأسر، وقالوا: نحن فى جمع جم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر، فثربنا للثار، وأعرنا من هذا العار.

وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، وفارقوا بالاستطالة القصور. وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات، وحالت بين اتفاقهما حالات. فلم يمكنه من دخول البلد، ولج معه فى اللدد(١). واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر، وأنه منتظر لما يبرمونه من الأمر، ويصله من الأمر. ثم اتفقوا على أن يقيم بصور المركيس، ويدوم منه لملكهم التأسيس، ولملكهم التأنيس. وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين وقتالهم، ويتساعدون على رم ما تشعث من أحوالهم، ويتعاقدون (٢) على حل إشكالهم، ويتعاضدون فى تسديد اختلالهم. ويقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمون عليه بالنوازل إقامة المنازل. والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد، وبجميع ما يحتاجون إليه من الميرة والأسلحة والعدد. فأجمعوا على هذا الراى، وبلغوا فى الغى إلى هذه الغاى. وشرعوا فيما شرعوه، وفرعوا ذروة الأصل الذى فرعوه.

ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى من اليزك، أن جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر(٣) إلى المعترك، وأنهم على قصد صيداء للحصر، وقد جسروا على عبور الجسر. فركب السلطان فى الحال فيمن خف من ثقال الرجال، وأقتال(٤) القتال، وأطلاب الأبطال.

---

(١) اللدد. شدة الخصومة.

(٢) فى ب يتعاقدن والتصحيح من ل ومن أ. (١٦٤ ى)

(٣) الشديد السواد.

(٤) اقتال: جمع قتل بكسر القاف وهو القرن أو الصديق.

وأنجاد الأجناد ، وأجلاد الجلاد ، والباذلين المهج للجهد فى الجهاد . ووصل إلى الملتقى والشغل قد فرغ ، والسيل قد بلغ . والصدمة قد وقعت والوقعة قد صدمت ، والثورة قد ثأرت ، والسورة قد أسأرت(١) . فإن اليزكية لما شاهدت جاهدت ، وتعاقدت على لقائهم وتعاضدت . وخالطتهم وباسطتهم ، وواقحتهم وواقعتهم ، وجالدتهم وجاولتهم ، وحاردتهم(٢) وحاولتهم . وردتهم مفلولين مخذولين ، وصدتهم مهزومين مثلومين . وقسرتهم وكسرتهم . وأسرت سراتهم ، وبزت بزاتهم، وقنصت عقبانهم ، وقصمت شجعانهم . وصادت صيدهم، وفرست فرسانهم . ووقع فى الأسر من سباعهم سبعة ، وغودرت للنسور من أشلاء المارقين بالمأزق شبعة .

واستشهد من المماليك الخواص (أيبك الأخرش) — وقد كان شهماً بالوقائع يتحرش، وثبتا بالروائع لايتشوش، وأنيساً بالحوادث لايتوحش، وكمياً كميشاً بالكوارث لايتكمش . وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان وكانت الدائرة على أهل الشرك والطغيان .

وعاد السلطان إلى خيم ضربت له بقرب اليزك ، وقال لعلهم يعودون إلى ذلك المعترك ، فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم ، وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم . وأقام إلى يوم الأربعاء تاسع عشر الشهر ، والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوى الظهر ، وركب فى ذلك اليوم ، ليطلع من الجبل على القوم . ولم يكن له نية القتال ، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال . وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه ، وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال وعلى عزمه : وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه ، ثم ظنوا أن وراءه عسكراً فى الكمين يحميه . وأنفذ السلطان بعض الأمراء إلى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا ، وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا . وختمت بشهادة أولئك السعداء تلك العشية ،

---

(١) أسأرت : بقيت .

(٢) حاردتهم : أى كانت تعطى ثم تمسك. وحاولتهم: أى أرادت وطلبت الشيء بحيله .

ونفذت من الله فى استشهادهم المشية . وحمل الحاضرون من الأمراء والعسكرية على الفرنج حملة أردتهم وردتهم ، وصدقتهم عن الجرأة وصدتهم . وتزاحموا على الجسر فغرق منهم زهاء ثمانين فى النهر . وكان يوما علينا ولنا ، جنى ألمنا وأجنى أملنا . وللحرب رجال والحرب سجال . ولم يكن لأولئك الغرباء بقتال الفرنج دربة ، وإقدامهم على العدو لله قُربة . فخاضوا من الدم فى اللجج ، واعتاضوا الجنة من المهج .

وممن لقى الله بالشهادة ؛ وختم له بالسعادة ؛ (الأمير غازى بن سعد الدولة مسعود بن البصارو) — وكان شابا لنار الحرب شابا ، ولدين الرب رابا . ولما شاهد ما تمّ من الغزاة ؛ انقض فى أصحابه على الفرنج انقضاض البزاة . فدعته جنته ، إلى طعنة لبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده ، وكُدّرت عليه موارده . وأوجد جمعنا الأسى على فقد ذلك الواحد ، وساء عدم الساعد ، وبتنا نشكر مساعى ذلك المساعد . وضاقت القلوب ، وفاضت الكروب . وألمّ البوس ، وألمت النفوس .

وهذه وقعة ندرت ، وواقعة بدرت ، ونذير حدث وحادثة أنذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة ، وأذاقونا بعد أن حلا لنا جنى الفتوحات مرارة هذه المرة ، فأيقظتنا من رقدة الغرة . وأخذ الناس حذرهم ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا إلى الله وقالوا : « بهذا وعد الله حيث قال (فيقتلون ويُقتلون(١)) ، وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون » .

ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم فى مخيمهم ، وكسبهم فى مجثمهم . وعبور الجسر إليهم ، والاحداق بهم من حواليهم . وشاع صيت هذا العزم وصوته ، وأسرع الناس إلى موسمه وخُشى فوته . وتسامع أهل البلاد ؛ بتصميم عزيمة الجهاد . فتباشروا وتبادروا ، وتسابقوا وتسارعوا . وأتوا من كل فج ، وجاءوا من كل نهج . وسالوا فى كل واد ، وجالوا فى

---

(١) الآية ١١١ سورة التوبة .

كل يفاع ووهاد . ووافت مطوّعة دمشق وحوْران (١) ، يجرون إلى مر الموت ويجرّون المرّان (٢) . وتوافد من بالبرج والغوطة ، على الحالة المغبوطة ، وقالوا : « هذا أوان احضار الضوامر المربوطة » .

واجتمعت (بمرج عيون) ، جموع مرجت العيون . فخافت الفرنج من هذا الجمع ، وأنافت (٣) على القمع . وتعكّست إلى سور صور ، وعاين أولئك البور الثبور . وتحرزوا وتحرسوا ، وتوجلوا وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم ، ليتمكن على غرتهم حشدنا من حصدهم .

وعاد العسكر إلى المخيم وسار السلطان إلى (تبنْين) ، صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين . — لتنقدّ أحوالها ، وتوْمل أعمالها ، وعرض رجالها . ثم صار منها إلى عكاء جريدة ، ورتب فى عمارتها وولايتها أحوالا سديدة . ووصى رجالها بالاحتياط والتحفظ ، والاستظهار والتيقظ . وأسرع عودته إلى المعسكر ، عظيم المفخر ، كريم المعشر ، موفق المورد والمصدر ، مقرظ المنظر والمخبز . وأقام إلى يوم السبت سادس جمادى الآخرة ، وبحر مخيمه يموج بأمواج العساكر الزاخرة .

---

(١) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق تتبعها قرى كثيرة ومزارع سكنها كثير من العرب (ياقوت ج ٧ : ٣١٧ — ٣١٨ ط . ب) .

(٢) المران : الرماح اللدنة فى صلابة .

(٣) أنافت : أشرفت ، وطالت وارتفعت .

وانتهى إلينا أن الفرنج ينتشرون فى الأرض ، وينبسطون فى موضع القبض ، ولا يتحفظون فى الرفع والخفض ، ويحتطبون ولا يحتاطون . ويحتشّون ولا يختشون . ويجنون ثمار الجبل ، ويجنون على من يصادفونه بأنواع الغيل . وهم فى غرة من غارة ، وفى جسارة تعود عليهم بخسارة . وفى غفلة تجرعقلة (١) ، وفى ضلّة ترفع عليهم من العذاب ظلّه . وأنهم إذا خرجوا للاحتشاش والاحتطاب ، وانتشروا لضم الأعشاب من الشعاب ؛ خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد ، وتحفظهم من متعد .

ونفذ السلطان إلى خيل تبنين ، وأمرهم بأن يصبحوا أولئك الملاعين . فإذا خرجت الخيل إليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها الكمين . وذلك يكون فى صباح الاثنين ثامن الشهر المذكور ، وواعدهم على هذا السر المستور . ونفذ إلى عسكر عكاء ليكمن(٢) فى موضع عينّه ، ولا يظهر مكمنه . حتّى يكون من وراء القوم ، مستعدا لما ينالهم من الوقم .

وسار السلطان ليلة الاثنين على الموعد ، مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد أغارت وأثارت ، وأبرت وأبارت . فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها ، وعين اليزكية وأوقد عينها . ورتب ثمانية أطلاب من الأبطال ، وكمن بتلك الأرجاء كماة الرجال . وانتخب من كل طلْب عشرين فارسا ، أجوادا على الجياد ، وأجلادا فى الجلد على الجلاد . فأمرهم بأن يتراءوا للفرنج حتّى تصل إليهم ، وتحمل عليهم . وهم يفرون قدامها ، ولا يقرون أمامها . ويجذبونها إلى قرب الكمين ويوقعونها عليه ، ويواقعونها إذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به أمروا ، ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا ، وأنفوا من أن يقال عنهم فروا بل جالوا فيهم وكروا .

---

(١) ما يربط به كالقيد .

(٢) فى ب ليمكن والتصحيح من ل ومن أ (١٦٦ ى) .

واتصل القتــال واشتد ، واحتدم المصال(۱) واحتد ، وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات الصفاح ، وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البرى(۲) ، ودارت عثرات الثرى . وانحلت عُرى اللمم(۳) ، وانحطت ذرا القمم . وعدم كل قرن قراره ، وكل جفن غراره ، ودام نهارنا يُجرى بأنهار الدم أنهاره .

وعرف من بالكمين أن الحرب قد اشتبكت ، وأن الأسد قد اعترکت ، وأن البزُل(٤) قد ارتبكت وابترکت : فتواصل انجادا للانجاد ، وتراسل أمدادا بعد الأمداد .

فلما رأى العدو أن المدد يكثر والعدد يكثف ؛ وأن عساكرنا لا تتوق ولاتتوقف ؛ صمم العزيمة على الهزيمة ، وعلم أن النجاة عين الغنيمة . فثنى أعطافه ، وضم أطرافه ، ورد أحلافه . وجرت بين الفريقين مقتلة ، عادت أرض المعركة بها وهى مثقلة . وكان قد حمل العرب على وعد العود إلى الكمين ، والرجوع إلى أسد ذلك العرين : ولم يكن لهم بالطريق خبرة ، ولا عبرت من الطوارق بهم عبرة : فتطاردوا بين يدى الفرنج فى واد ماله نفاذ ، ولا لسالكه إلى منهج ملاذ :

ورآهم العدو فعدا وراءهم ، وسار بجمعه ازاءهم : فلما انتهوا إلى الجبل ادركوا ، ولم يقدروا أن يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا ، وأقبلوا على الله فقبلوا . وهم : الأمير زامل بن تبل بن مرّ بن ربيعة أمير النقرة ، وسرىّ الأسرة . والأمير حجّى بن منصور بن غدفل بن ربيعة ، والأمير مُطرف بن رفيع بن بردويل بن مرّ بن ربيعة ، وآخر معهم . فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت لهم فى جنة الخلد ربوع ، وقدر لهم فى رياض النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز ، وانتقلوا من العز الفانى إلى الباقى من العز

---

(۱) المصال : مكان الصول والقهر.

(۲) التراب.

(۳) اللمم : الشدائد.

(٤) البزل : جمع بازل وهو الرجل الخبير.

وكان معهم من المماليك الخواص ؛ من ذوى الجد والاخلاص ؛ تركى عربى النخوة ، غضنفرى السطوة . فلما حصل فى المضيق ؛ وأيس من الطريق ؛ نزل عن فرسه على صخرة بنجوة ، ونثل بين يديه كنانته فارعا للذروة ، وقد أوتر قوسه وسدد إليهم سهمه ، وقبل قضاء الله وحكمه. وحن إلى منيّته من حنيته ، وأصاب منيته من إصماء العدو فى المصاب بأمْنيته .

فوقفوا عنه بعيدا حتّى خافوا قربه ، ومازالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا أنه قضى نحبه ، فأصبح وقد نزف دمه ، فترجح على وجوده عدمه .

ولما قيل أنه استشهد ؛ وطلب ليلحد ؛ رمق وبه رمق ، وهو فى دمه غرق . فحمل على أنه من الأموات ، ولم يرج له فوات الوفاة . فأحياه الله بعد أن أماته ، وجمع أعضاءه عليه وقد شارف منها شتاته . وأنشأه خلقاً جديداً ، وأوجده فى أجله مزيدا ، وهو (أيْبك الساقى) ، زاده ما جرى اجتّراء على الإقدام ، وإجتْراء إلى مضمار الحمام . فما سمع بعد ذلك هيعة إلا طار إليها ، ولا أبصر للكفر ضيعة إلا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج إلى عكاء والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم إليها

وصل الخبر يوم الأربعاء ثامن رجب ؛ أن العدو قد ركب . وأجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودبّ دباه فى رجْله . وسرحت ذئابه ، ونبحت كلابه . وجاش عرام جيشه العرمرم ، وطاش إلى أهل الجنة بأهل جهنم . ونوى القرب من النواقير (١) ، وأضرم بنار السعير مساعى المساعير وهو على قصد عكاء يجرى إلى المدى برأى جمعه المدامير (٢) . وأن نفرا منهم نفر ، وسبق إلى النواقير وعبر . ونزل باسكندرونة ، واستباح طرقها المصونة . وهناك من المؤمنين رجال يحمون طرف الثغر ، ويضمون نشر الأمر . ويصمون نحر الكفر ، ويجبون غارب الشر ، ويجوبون جانب البحر . ويطوفون للحراسة ، ويطولون بالحماسة .

فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها ، وعاقروها وقارعوها . وأهلكوا عدة ، وملكوا عُدة . ولما تكاثرت أعداد الأعداء ؛ استظهروا بالانكفاء عن الأكْفاء . وتدافعوا بعد ما دافعوا ، وتراجعوا بعد ما راجعوا . واطلع السلطان على خبرهم ، وعرف نفورنفرهم . فكتب إلى العساكر الدانية بالدنو ، للعدْو على العدوّ . فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوافروا للجهاد ، وتوافقوا فى ادناء المراد بابعاد المرّاد .

ورحل الفرنج ثانى عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد وافرة العدد . ونزلت على عين بصّة(٣) ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة . ووصل أوائلهم إلى الزيب ، وأجابوا داعية الصليب .

---

(١) النواقير : جمع النقيرة ، وأصله نواقر ، وهى فرجة فى جبل بين عكاء وصور على ساحل (البحر الأبيض المتوسط) (ياقوت ج ١٩ : ٣٠٦ ط.ب) .

(٢) برأى جمعه المدامير : أى أجمعوا على رأى كان فيه دمارهم . أو هو من دمر دموراً : إذا دخل بغير إذن وهجم هجوم الشر .

(٣) عين بصه : موضع بين الطور والزيب (النوادر السلطانية ط . ليدن ، الفهرس الجغرافى رقم A) .

فأصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ، ووصل العنق بالذميل ، وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة(١) فى الأودية جرْى السيل . وسرنا على جبّ يوسف (٢) إلى المنْية ، آخذين بالحزم تاركين للونْية . وجئنا بمصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنّا (٣) ؛ وبتنا بها تلك الليلة وسكنا . ثم أصبح يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخرّوبة (٤) ، واطلع منها على الأسرار المحجوبة . وأشرف على العدو النازل ، ودنا حزب الحق من حزب الباطل .

وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هُونين ، للفرنج مقابلين مقاتلين . فوصلوا فى هذا اليوم ، وقد نالوا فى طريقهم من القوم . ونزلنا فى أرض صفورية بالأثقال ، وتجرد الرجال منها إلى المخيم السلطانى للقتال .

وكان من رأى السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ؛ ولم يزل رأيه بنور فطنته وطيب فطرته أذكى وأزكى ؛ أن يسايرهم فى الطريق ، ويواقعهم عند المضيق . ويقطعهم عن الوصول،ويدفعهم عن النزول . فانهم إذا نزلوا صعب نزالهم ، وأتعب قتالهم . وإذا نبتوا تعذر حصدهم ، وإذا ثبتوا تعسر قصدهم . وإذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، وإذا حلقوا فى جو الدو(٥) طاروا كالجراد . فعند الانتشار يمكن التقاطهم، وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له : « بل نستقيم على السنن القويم ؛ ونطابهم طلب الغريم . وما أهون قطعهم إذا وصلنا ، وأعجل ادبارهم إذا أقبلنا . والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التطاول فيه عذر . فنمضى على أسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق » .

---

(١) الملاحة : بقعة قريبة جدا من الركن الشمالى الغربى لبحيرة الحولة

(The Damscus Chronicle P. 330)

(٢) جب يوسف : على بعد اثنى عشر ميلا من طبرية ، بين سنجل ونابلس (ياقوت ج ٥ : ١٠٠ و١٠١ ط.ب) .

(٣) كفركنا : بلد بفلسطين بها قبر يونس عليه السلام وقبر أبيه (ياقوت ج ٧ : ٢٦٦ط الخانجى ١٣٢٤ هـ) .

(٤) الخروبة : أو الخرنوبة ، تل وجبل كذلك ، وحصن مشرف على عكا بسواحل (البحر الأبيض المتوسط) (ياقوت ج ٧ : ٣٦٢ ط.ب) .

(٥) الدو : البرية .

وتبين لنا بالعاقبة أن الرأى السلطانى كان أصوب ، فان نزالهم عند نزولهم صار أصعب . ونزل الفرنج على عكاء من البحر إلى البحر ، محتاطين بالانحصار محيطين بها للحصر . وضرب الملك العتيق (كى) خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبة .

وبعث السلطان ليلة وصوله إلى مدينة عكاء بعثا دخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث إليها التى هى على التزايد والنمو . حتى استظهرت بقوتها ، وقويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر واتصلت الأوائل بالأواخر ؛ عبى جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا : وسار بهيئته وهيبته ، وأنزل العسكر على تعبيته . ونزل بمرج عكاء على تل كيسان(١) فى ذوى اختصاصه ، وقد نصب من خيامه عليه أشراك أقناصه . وامتدت الميمنة إلى تل العياضية والميسرة إلى نهر الماء العذب .

فدارت رحى الحرب ، ودام كر الكرب ، وطاب طعم الطعن والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووافى للانجاد عسكر الشرق ماضى الغرب . وصرنا محاصرين للمحاصرين ، مكابرين للمكابرين . قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط . وأحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم فى وعرها وسهلها . ورتبنا بالزيب والنواقير رجالا يصدونهم عن سبلها . ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم ، ونراوحهم ونغاديهم ، ونعاودهم ونباديهم ونقدم ، بعوادينا على عواديهم ، ونصدهم ونصدمهم ، ويوجدهم البحر وتعدمهم .

وما زالت مراكبهم تتواصل ، ومناكبهم تتطاول . وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون ، مترادفون مترافدون . قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجذبوا بالقلوس على ثبجه عران الرعن(٢) . وألقوا على

(١) تل كيسان : موضع فى مرج عكا من سواحل الشام (ياقوت ج ٥ : ٤٣ ط. ب).

(٢) القلوس : حبل السفينة الضخم . ثبجه : معظمه ووسطه . العران : المسمار الذى يضم بين السنان والقناة ، القرن بكسر القاف . الرعن : الجبل الطويل . والعبارة كناية عن أنهم كانوا يجذبون بالحبال الضخمة على سطح البحر سفنا ضخمة كأنها الجبال .

تياره بسط البطس ، وحملوا على البحر أوزار النجس : وتباً لهم وتعسا . فانهم زادوا على رجسهم رجسا .

وبقى القتال بينهم وبين اليزكية ؛ كل بكرة إلى العشية ؛ إلى أن وصل الملك المظفر تقى الدين عمر و مظفر الدين كوكبورى — الأسد الغضنفر . فاستظهرنا بهما وبعسكرهما الدهم ، ووصل مقدمو الرجال فى الجمع الجم . واستدارت الفرنج بعكاء كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا فى التحرس والتحرز . ومنعوا من الدخول والخروج ؛ ولج أولئك العلوج فى ضبط طريق الولوج . وذلك فى يوم الاربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه ، والاسلام ينادينا باستصراخه .

وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته ، واستقلت آياته . وعز عزمه وعلا حكمه . وما منا إلا من أسرج الجرد وجرّد السريجيات ، وعاج بالأعوجيات ، وأشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتقال الردينيات ، وردبان العقيليات ، وأذكى المذاكى وقرب المقربات . وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه . وساف سيفه ردع الدم ، وضاف جوده مضيف العدم .

وأقبلنا والنصر مقبل ، والظفر متهلل . والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان . واتفقت الآراء ؛ وأجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة . ومناب منابر الاسلام عن أهله فى جميع بلاده ، واجماع الألسنة والقلوب فى الضراعة إلى الله فى نصرة المجاهدين من عباده . وأحاط العسكر الاسلامى بجوانبهم . وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وفلّل مضاء مضاربهم . وهم فى مواضعهم واقفون ، وعلى مصارعهم عاكفون ، وفى مواطنهم ثابتون . وعلى مواطئهم نابتون كالبنيان المرصوص ما فيه خالل ، وكالحلقة المفرغة ما إليها مدخل . وكالسور المحيط ما عليه متسلق ، وكالجبل الأشم ما فيه متعلق .

فزحفنا إليهم فلم يتزحزحوا ، وقربنا منهم فلم ينزحوا . وحملنا عليهم

فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها . ودامت الحرب قائمة ، وديمة الدم دائمة . وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه . حتى دخل الليل وحجز ، ووعد النصر ما نجز ، وحزب الحق ما عجز .

فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا ، وزادوا على ماجرى أمس وألهوا عنه وأنسوا . فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شمس الظهور ، وأصحبت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض النور .

وحمل الناس من جانب البحر شمالى عكاء حملة شديدة ، كانت لمن قدامهم من الفرنج مبيدة . وفرشوهم على تلك التلول ، وردوا مضاربهم من فلهم بها بادية الفلول . وانهزم الفرنج إلى تل المصلبة نحو القبة وثبتوا عند الوثبة . وأخلوا ذلك الجانب ، وخلوا تلك المذاهب . وقلعت خيامهم منها ، وقطعت أطماعهم عنها . وافتتح لنا طريق عكاء ودخلها الرجال ، وحملت إليها الغلال ، ونقلت إليها الأحمال . ودخل العسكر إليها وخرج ، وانكشف ضيق حصرها وانفرج . وذلك من باب القلعة الوسطى إلى باب قراقوش ، واستطرقت إليها العساكر والجيوش .

واطلع السلطان على الفرنج من سورها ، وشرع فى تدبير أمورها . وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادى ، وترك الهوادة فى قصْر القصر والهوادى[1] . والفرنج قد رهبوا ، ولو قدروا هربوا ولكن أصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة ، وأنهم أى وقت أرادوا كانت منهم عزيمة ، ومن العدو هزيمة . وتوقفوا عن الاتمام ، وتقدموا عن مقام الاقدام . ولو أنهم استمروا فى الحرب على هيئتهم وهيبتهم ؛ لباء الأعداء لنجحنا بخيبتهم . فان الصدمة الأولى أخافت وحافت ، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها أنافت . لكنا تركناهم حتى عادت إليهم الأرماق ، وعاود فرقهم الإفْراق[2] . وأبصروا ما بين أيديهم وما خلفهم وأزالوا فيما بينهم

---

(١) الهوادى : من الليل أوائله ، ومن الإبل أول رعيل يطلع منها .

(٢) أى أن جمعهم التأم بعد التفرق والتشتت والفزع .

بالموافقة خلفهم . وأثبتوا فى مستنقع الموت أرجلهم ، ورأوا أن الوقت قد أمهلهم :

وقال أمراؤنا : « هؤلاء قد سهل أمرهم ، وخمد جمرهم . وقد حص[1] رياشهم حصرهم . وهم فى قبضتنا أى وقت أردنا ، ولقصدهم تجردنا » . وقالوا : « نصبر إلى الظهر ونمضى ونسقّ الخيل ونعود ، وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهم الوجود » . فانصرفوا على وعد العود ، وتفرقوا فى مراتعهم تفرق الذود .

وبلع العدو ريقه ، ووجد إلى الجلد طريقه ، وجمع بعد التفرق فريقه . وضم عن الانتشار راجله ، وزم رامحه ونابله . ووقفوا كالسور من وراء الجنويات ، والتراس والقنطاريات . وقد صوبوا الجروخ وفوّقوها ، وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها . كأنهم فى الدروع أراقم ، وفى المجان علاجم[2] ، وفى النهوض قشاعم ، وفى الضراوة ضراغم .

واختلفت الآراء مع العلم باحتراسهم ، وتسترهم بتراسهم . فمنا من يقول : « نصبحهم بالزحف ، ونزورهم بالحتف . ويترجل الأمراء فيتبعهم الأصحاب ، وتنشب من آسادنا فى تلك الخنازير من النشاب الأظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب . فننسفهم ولو أنهم جبال ، ونطفىء نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال » .

ومنا من يقول : « يدخل راجلنا إلى البلد ، مستعدا بالأهب متأهبا بالعدد . فاذا زحفنا إليهم وأوجفنا عليهم ، خرج من فى البلد من العسكرية والراجل ، وناولناهم من أمامهم ومن ورائهم بالنوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين ، ولا يبقى للدين بعد درك الثار منهم دين » .

ومنا من يقول : « لا بل نفرج عنهم ، ونبعد منهم . فما دمنا على هذه المضايقة والمصابرة ؛ والمحاققة والمحاصرة ؛ والمكابدة والمكابرة ؛ فانهم

---

(١) انقص .

(٢) المجان : جمع مجن ومجنة ، وهو الترس أوكل ما وقى من السلاح. علاجم : جمع علجم وهو الطويل من الإبل والحمر .

يتيمّظون ويتنبهون ، ويتحفظون ولا ينتهون ، ويتحرزون ويتحربون ، ويتوجلون ويتوجمون . فاذا أرخينا طولهم (١) ؛ وأوسعنا أملهم ؛ استرسلوا بعد ما استبسلوا ، واستقبلوا الدعة بعد ما استقتلوا . واطمأنوا فطمعوا ، وإذا أبطأنا تسرعوا . واغتروا بأنا على غرة فأغاروا ، وظهرت لهم آثار ركودنا عنهم فظهروا وثاروا ، فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . وإذا ظهروا ظهرنا عليهم ، ومتى أصحروا أصحرنا إليهم . وإن بارزوا بارزناهم ، وأنجزنا عدة أمانينا فيهم وناجزناهم » .

ومنا من يقول : « هؤلاء فى عدد النمل ، وكثرة الرمل ، وظلام الليل ، وعرام السيل . فما يقمهم إلا العدد الكثير ، ولا يقمعهم إلا الجمع الجم الغفير . والمصلحة أن تستقر العساكر ، ونستحضر لابادتهم البادى والحاضر . ونستجيش الجحافل ، ونستثير الفارس والراجل . ونلقاهم بأمثالهم ، ونقدم عليهم مستظهرين فى قتالهم » .

ومنا من يقول : « هؤلاء عالم لا يحصى ، قد حضروا من الأدنى والأقصى . وأزوادهم عن قريب تفرغ ، وآمادهم فى الصبر تبلغ . وأمدادهم تنقطع ، وأنجادهم تمتنع . وموادهم تقل ، وجوادهم تضل . ولمراكبهم فى الشتاء شتات ، ولحبائلهم وحبالهم انبتات (٢) . فإما أن يضطروا إلى الانفصال ؛ وإما أن يؤذن فناء أرزاقهم بحلول الآجال ، ويهون علينا حربهم فى تلك الحال (وكفى الله المؤمنين القتال) (٣) فهذا عسكر الاسلام ، وجند مصر والشام . فى الاقدام بهخطر ، وفى المباشرة بحربه غرر . والمصلحة العامة تلحظ ، ورأس المال يحفظ »

ومنا من يقول : « نستدعى من مصر الاساطيل ، ونستدفع بحقها الأباطيل . ونستكثر من مراكبها ، ونستعدى على هذه الأفاعى بعقاربها ، ونستطيل على الشناة (٤) المستطيلة بشوانيها ، ونعدو على عوادى الأعادى

---

(١) الطول : حبل يشد به قائمة الدابة ، أو تشد به وتمسك طرفه وترسلها ترعى .

(٢) انبتات : انبت بتشديد التاء أى انقطع .

(٣) الآية ٢٥ سورة الأحزاب .

(٤) الشناة : هم البحارة الذين يقودون الشوانى وهى المراكب الكبيرة المعدة للجهاد .

بعواديهما . وإذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحر ؛ وصلت لنا أسباب النصر . وحينئذ نقاتلهم برا وبحرا ، ونوسعهم بمضايقتهم فيهما قتلا وأسراً ».

وما زالت هذه الآراء بيننا متداولة(١) ؛ وخواطرنا فى تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفرنج جارية ، وزناد الهيجاء لاشعال نارها وارية . وفى كل يوم نتصافح بالصفاح ، ونتكافأ فى الكفاح . وننطق فيهم بكلام الكلوم ، ونلحق منهم الموجود بالمعدوم ، وللطلائع وقائع ، وللوقائع طلائع . وللسهام أفواق فائقة ، وللحمام أسواق نافقة . وسرايانا فى كل يوم وليلة تسرى وتأسر ، وتبرى وتأبر(٢) . وتكبس وتكسب ، وتسبي وتسلب . والسلطان يباشر ذلك كله بنفسه ، وهو يدأب فى يومه لغده مجتهدا فى الزيادة على أمسه . نائبا عن أعوان المسلمين وأنصارهم ، ساهرا لهم فى ليلهم قائما بأمرهم فى نهارهم . والعين الساهرة فى سبيل الله قريرة ، وتعب يوم واحد لله فى اليوم الآخر ذخيرة .

---

(١) فى ب متداون له والتصحيح من ل .

(٢) تأبر : أى تهلك أو تلدغ بابرتها .

ذكر وقعة تمت يوم الأربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج آخر يوم الأربعاء سادس شعبان بأجمعهم ، وتقدموا من مواضعهم ، واشتاقوا إلى مصرعهم ، وفارقو الحزم فى تسرعهم . وخرجوا عن رجالتهم ، وتجردوا بخيالتهم . وحملوا على الواقفين من أصحابنا حملة الرجل الواحد ، فتحرك الصف الثابت الساكن أمامهم كالبنيان إذا تحلحل من القواعد . وتراجع عنهم المسلمون استدراجا ، وملأت الأرض السماء عججا وعجاجا ، وزخر بحر الحرب على أمواج أمواجا .

فما قربوا من خيام اليزك ؛ إلا وقد اعتكر جو المعترك . وعساكرنا قد أوجفت (١) عليهم ، وزحفت إليهم ، وأردتهم بعقابهم ، وردتهم على أعقابهم . ووصلت إلى رؤسائهم فقطعت رءوسا ، وألحف بأسها ذلك الجمع بوسا ، وثنت وجه الكفر عبوسا . وولوا مدبرين ، وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عابر عاثر ، والذمر الباسل باسم بالموت باشر .

فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل . وبات كل حزب على حرب ، واعداد عدد طعن وضرب . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ ، وهمة متنبهة للتحفظ . وحراسة وحماية ، وسياسة ورعاية .

فلما أصبحوا عادوا إلى عادتهم فى اللقاء ، وهاجوا بعاديتهم إلى الهيجاء . هذا وأبواب البلد مفتوحة ، والصدور بطروق الظهر إليها مشروحة . والفرنج قد ندموا على ما قدموا . وعدموا بصيرتهم بما صدموا . وعادوا لا يفرطون ولا يتورطون ، وينقبضون ولا ينبسطون .

---

(١) أوجفت عليهم : حركتهم وصيرتهم مضطربين ، أو جعلتهم يعدون عدواً سريعاً .

ذكر وفاة حسام الدين طُمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادى عشر الشهر إلى تل العياضية ، ليكون منه فى الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل المصلْبة منزلة العدو ، وهو مشرف عليهم للعلو . وضربت خيام الميمنة ممتدة إلى البحر ، وخيام الميسرة إلى النهر ، واتسع مجالنا وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الأمير طمان — صاحب الرقة — مريضا ، ولم تزل وجوه الأيام الغبر فى سبيل الله باحمرار بيضه بيضاء . وهو الحسام القاضل ، والهمام الباسل ، والقرم البازل (١) ، والندب الحلاحل . والمحترّق لحمية الدين ، والمقترح لحماية المسلمين .

ولما وافت وفاته ؛ وفاته رجاوه ولم يُرج فواته ؛ أسف على عمره ، وأسى على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيداً ، ولم يستشهد فى الجهاد سعيدا. وقال : « قدموا حصانى حتى أشهد الحرب وأستشهد ، وأجاهد إلى أن أقتل وأجهد . فانى أرى موتى على الفراش غبنا ، وقد عرفتم منى شجاعة لاجبنا » . وتوفى عصر الأربعاء ثالث عشر شعبان ؛ وبوأه الله الجنان ، وبشر به رضوان .

وكان قد توفى بالقرب الأمير الندب ؛ فارس الحرب ؛ ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب ؛ (حسام الدين سنقر الخلاطى) النجيب المنتخب . فنبت مضارب الدين باغماد الحسامين ، وجات الهموم لأجل أجل الهمامين . فوجمت النفوس ، وألمت القلوب ، وفاضت لغروب فيضهما الغروب .

---

(١) البازل : الخبير.

ذكر واقعة للعرب أربت لنا بالأرب

انتهى إلينا ان الفرنج يتطرقون ويتطرفون، ويأمنون ولا يتخوفون.. ويخرجون للاحتشاش ، وينتشرون لضم الأعشاب من الأعشاش . ويصلون إلى طرف النهر وهم لمن يحلق عليهم من فوقهم تحت القهر . فانتدب جماعة من العربان، وضراغم فارسة من الفرسان . فأغاروا وهم غارون(١) ، وساروا إلى جمعهم وهم بتجمعهم سارون . وحالوا بينهم وبين خيامهم ، وحشروهم إلى حمى حمامهم . وحملوا إليهم حين حملوا عليهم بوسًا ، وقطعوا منهم لما اتصلوا بهم رءوسا . وأحضروها عند السلطان فاجتابوا بها خلع الأجتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء . وذلك يوم السبت ثالث عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين أصحابنا فى عكاء متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم منتق وفيهم منتقل . وفى كل يوم تقوم الحرب على ساق ، والأرواح فى مساق ، والمصاع على اتساق . وكم قتل من حزب العدو وأسر ، وكم حمل ليكسر فكُسر . وربما مل الحزبان ، وكل الغربان ، فتوافقا على الأمان ، وتواقفا يتكلمان . وربما أقدموا ثم نكصوا ، وغنوا ورقصوا . وإذا لغبوا لعبوا واستراحوا إلى الوقوف إذا تعبوا .

ومن نوادر ما جرى وغرائبه ؛ وملح ما تم وعجائبه ؛ أن الطائفتين فى بعض الأيام ضجرتا من مباشرة الحرب على الدوام . فقال واحد من الفرنج : « إلى متى هذا القتال ، وقد فنى الرجال . فأخرجوا صبيانكم إلى صبياننا ، ليكونوا فى أمانكم وأماننا » . فبرز منهم صبيّان ومن البلد آخران . فقاتلوا مليًا ، وألفوا نار الحرب صليا . ثم وثب أحد الصبيينْ المسلميْن ، على أحد الصبييْن الكافرين . وضرب به الأرض ، وقفز عليه وانقض . وقبضه كسيرا ، وجذبه أسيرا . فافتداه بعضهم بدينارين ، وعاد المسلم من ظهوره وسروره إلى جنتين ، والعدو من كفره وفكره إلى نارين .

---

(١) أى على غرة .

ومن الاتفاقات النادرة ؛ وأمارات السعادة الظاهرة ؛ أنه أفلت من بعض مراكب الفرنج حصان ؛ له عندهم صيت وشان . فلم يقدروا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربطه . ومازال يعوم فى البحر وهم حواليه ، حتى دخل مينا البلد وتسارع أصحابنا إليه . وأهدوه إلى السلطان ، وعده العدو من أمارات الخذلان ، ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الوقعة الكبرى

وأصبح الفرنج يوم الأربعاء العشرين من شعبان ؛ وقد رفعوا الصلبان ، وزحفت أسودهم فى غاب المران ، وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح ، وجالوا دون التل كأنهم له وشاح . وخرجوا على التعبية ، وشفعوا نداء الكفر بالتلبية ، وشعفوا (١) بالتبرية للتربية . وتقدموا معتزمين ، وعزموا مصممين . وثاروا ثورة الشيطان ، وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل أمام الفرسان . وزحفوا أطلابا ، وحفزوا طلابا . ودبوا دبيب الليل إلى النهار ،وهبوا هبوب الخيل إلى المضمار ،وأجروا سيول السوابق إلى القرار ، وجروا ذيول السوابغ إلى الغوار . وتحركوا وهم هضاب ، وتدركوا وهم غضاب ، وما زالت ميسرتهم تكثر وتكثف ؛ وتعطوا (٢) وتعطف ؛ وتفور وتثور ؛ وتزود وتدور ؛ وتهم وتهمهم ؛ وتدمدم وتدوم .

وقد عبى السلطان ميمنته وميسرته ، وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثابت ، وحزبه فى صف الحرب نابت ، ورعبه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف ، ويأمر بالوقوف ، ويحض على حظ الأبد ، ويحث على الجلاد والجلد . ويثوب للوثوب ، ويندب إلى الندوب .

ولما شاهد شروق بروقهم ؛ وخروق مروقهم ؛ وكثافة ميسرتهم ؛ وحشو حشود كثرتهم ؛ أنهض رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقى الدين من الميمنة على الجناح ، فى جمع يعثر بعثيره وارد الصباح . وكلما تقدموا تأخر يستجرهم ،ويحذر مكرهم ومكرهم فعرفوا أنهم لا قبل لهم لمقابلته ، وأن هذا ليس ميقات مقاتلته . فتركوه واستقبلوا القلب ، وزخر بحرهم وعب . وحملوا حملة دوى منها الدو ، واسود منها جوى(٣) الجو .

---

(١) شعف : شغف به .

(٢) تعطوا : عطا الشيء واليه : تناوله . عطا إليه يده أورأسه ، رفعها .

(٣) فى أ (١٧٨ ش) واسود منها الجو.

ووصلوا إلى جموع ديار بكر(١) والجزيرة(٢) ، وغاصوا فى لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغزيرة . وكانت من القلب على الجناح للطيران ، وجبالها على الرياح للجريان . فعرفوها بالغرّة ، واستضعفوها لدى الكرة . وألموا بها فما ألمّت ، وهموا بها فما همت ، واندفعت ومادفعت ، وتراجعت وما رجعت ، وتعكست وما عكست ، وأدبرت وما تدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال الفرنج هابت وماهبّت ، ولابت ومالبّت ، ورابت وماربّت .

وجاءوا إلى القلب وقلبوه ، وحاربوه وحربوه . وخربوا حزبه ، وخرقوا حجبه . وهنالك استشهد كرام باعوا انفسهم بالجنة ، وأسنوا نحورهم نحو الأسنّة . منهم : (الأمير مُجلّى بن مروان) — وكان مجليا فى المروة ، و (الظهير أخو الفقيه عيسى) — وكان ظاهر الفتوّة . وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، فرحضوا (٣) بماء الشهادة درن حوْبهم (٤) . وصعدوا إلى مخيم السلطان ، طامعين فى استطالة حزب الصلبان .

وكنت فى جماعة من أهل الفضل قد ركبنا فى ذلك اليوم ، ووقفنا على التل نشاهد الوقعة وننتظر ما يكون من القوم . وما ظننا أن القوة تهى ، وأن الواقعة الينا تنتهى . فلما خالطونا فى المخيم ، وباسطونا فى المجثم ؛ وكنا على بغال ؛ بغير أهبة قتال ؛ استدركنا أمرنا ، وأخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا ، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا . فوافقنا فى الاندفاع ، وألفينا الاستضرار فى المال عين الانتفاع .

فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل ، ووجدنا ساكنها قد أجفل . فسقنا إلى جسر الصنّبره (٥) ونزلنا على شرقيه ، وكل منا ذاهل عن شبْعه وريّه ، مفكر فيما يكون من أمره ، منكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره .

---

(١) ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة حدها ماغرب من دجلة إلى الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ومنه إلى حصن كيفا وآمد وميافارقين (ياقوت ج ٨ : ٤٩٤ ط . ب) .

(٢) الجزيرة : هو الجزء الشمالى الغربى من بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) .

(٣) رحضوا : غسلوا .

(٤) إثمهم .

(٥) الصنبرة : موضع بالأردن مقابل لعقبه فيق (ياقوت ج ١٢ : ٤٢٥ ط .) .

لا يألف مبيتا ، ولا يلوي بيتا . ممسك بلجام فرسه ، قد آذن ضيق نفسه بضيق نفسه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق(١) ، وهو غير مفيق ، ومنهم من وصل إلى دمشق غير معرج على طريق .

وأقمنا بموضعنا على الجوى ، والخيل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق ، والفرق غير مفارق ، والقلوب مرتاعة مرتابة ، والأدعية إلى الله مرفوعة مستجابة . وتحدث الناس فيما بينهم بأن الاسلام عاد جده ، وعدا جنده ، وأن الكفر حاد فله وفل حده . وأن الميسرة ثبتت فثاب اليسر ، والأسدية انتصروا فأسيد النصر .

وكان هذا الصدى يقوى ، والصدأ يروى ، والبشرى تسرى ، والبرد بها تجرى ، والناس بين مصدق ومكذب ، وذاهب فى مذهب من الظن مذهب مهذب ، حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه (صافى) ، وقد ورد مورد الظفر الصافى . فنادى : أين العماد ! فقد جاءه من النصر المراد .

فأسرعنا إليه ، واجتمعنا عليه . فقلنا : « ما الخبر ، وكيف صفا الظفر ، وصفا الكدر . وقدر السلطان وتسلط القدر ، والى أين أنت سار بالنبأ السار ، وفى أية دار تنزل بمنزل النصر الدار » فقال : « أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم ، والخبر الكريم . فقلنا « أهلا بشائر البشائر وطائر الأوطار ، والسائر بالمسار ، والأخ البار بالأخبار . والصديق الصادق ، والموفق الموافق . ومرحبا بالخصى الخاص لما مر حبا ، فحل بالخير القحل فحلا ، وكم أم للنجح أملا وجلا وجلا .

فأبنا محبورين مجبورين ، وثبنا مثابين مأجورين . وندمنا على ماندمنا فى الهزيمة ، وعز علينا ترك الأخذ بالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل ، وجد وجدل ، وانتقم من القوم ومن مقامه ما انتقل . وقد شل الجموع وجمع الأشلاء ، وأدام الإجراء حتى أجرى الدماء .

---

(١) فيق : أو أفيق ، قرية من حوران فى طريق الغور فى أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق ، والعامة تقول فيق ، تنزل فى هذه العقبة إلى الغور وهو الأردن ، وهى عقبة طويلة نحو ميلين (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٦٨ ط . دار الكتب) .

ذكر حصة النصرة بعد صحة الكسرة

وكيف أدال (١) الله الاسلام وأذال (٢) الكفر بتلك الكرة

ولما تمت الكسرة ؛ وعمت الفترة ؛ وكرت الكرة ؛ وأمرت تلك المرة ؛ وصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان ، وشيم من عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جولة ، وخالوا دولة ، وصالوا صولة . ثم رأواعنهم انقطاع أشياعهم ، وعدمؤا اتباع أتباعهم ، فشرعوا فى اندفاعهم ، وهابوا الوقوف على اجتماعهم . فانحدروا عن التل ، وقد جاءوا بقوة العز فآبوا بضعف الذل . واستقلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم ، وحكموا فى رقابهم أسيافهم . وردوهم وأردوهم ، وعدوا على شركائهم فى الشرك فأعدوهم :

وكان فى ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية . فما زالوا وما زلّوا ، بل وصلوا وصالوا وصلّوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بالجبال الرياح ، وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد من كان من الميمنة الاسلامية بالبعد ، حادّ المضاء ماضى الحدّ . مثل : تقى الدين ، وقايماز النجمى ، والحسام بن لاجين ، ومن ثبت من أبطال المجاهدين . فعكروا على ميسرة الفرنج فشلّوها ، وأنهلوها من دمائها وأعلّوها ، ولفوّها وفلوها ، ولقوها وأقلوها . ووضعوا فيها السيوف ، وأوضعوا اليها الحتوف . وأوسعوها قتلا ذريعا ، وماأبطأ الوقت حتى صار مقدامها صريعا سريعا :

فلم يفلت من الأعداء الاأعداد ، ولم ينج من آلافها الا آحاد . وأمست لنار الحرب فَراشا ، ولأرض المعركة فِراشا :

وتبعها أصحابنا حتى كلت سيوفهم وكلوا ، وملت لتوتهم وليوثهم وملوا . وفرس زهاء خمسة آلاف فارس،من كل ممار ممارس ، ومستوحش

(١) أى جعل الكرة للإسلام على أعدائه .

(٢) أهان .

بالموت آنس . وممن أودى فى الإقدام مقدم الداوية ، ولم تحمه من الحمام ناره الحامية لنار الحمية .

وحكى عنه أنه قال : عرضنا فى مائة ألف وعشرة آلاف ، أحلاف إلحاف وألاف اتلاف بلا تلاف . فلما عجزوا ؛ وبالخندق احتجزوا ؛ وقف عنهم أجنادنا ، وبلغ المدى فيهم جهادنا واجتهادنا . ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لم يبلغوا ألفا فردوا مائة ألف ، وآتاهم الله قوة بعد ضعف. وكان الواحد منا يقول « قتلت من المثلثين (١) ثلاثين وأربعين ، وتركتهم بالعراء عراة مصرعين » ، ولا شك أن الله أنزل ملائكته المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك بما شهده ، ويعهد الينا بما عهده .

وحكى بعضهم قال : « كنت على فرس قطوف (٢) ، ماله منة سير ولا وقوف . وأنا منهزم من فارس مدجج ، فى بحر الحرب ملجج . وهو على جبل يجرى به جرى الريح ، وينادى بشعار المسيح ، وقد لز (٣) بقربى حصانه ، وهز لصلبى سنانه . فما شككت أنه يشكنى بلهذمه ، ويفكنى بمخذمه . وأيست من البقاء ، وأنست للشهادة واللقاء . واستعذت بالله واستعنت ، وتشاهدت مما شاهدت . ثم أبطأت على صدمته ، وأخطأتنى حدمته (٤) ، فالتفت فاذا هو وحصانه ملقى كلاهما ، وما وجدت بالقرب أحدا أقول انه أرداهما (٥) . فعرفت أنه نصر الهى ، وصنع ربانى ، فى مذاق الايمان شهى ، وفى آفاق الاحسان بهى . فأيقنت أن النصرة ماملكت الا للملائكة نصرت ، وأن الظهور ما سر إلا لأسرار لله ظهرت » .

---

(١) المثلثين : يقصد الصليبيين لأنهم يقولون بألوهية الأب والابن وروح القدس (تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً) .

(٢) فرس قطوف : ضيق المشى بطىء .

(٣) لز : شد وألصق به .

(٤) الحدمة : صوت التهاب النار .

(٥) فى ب رادها والتصحيح من ل ومن أ (١٨١ ش) .

ذكر مكاتبة أنشأتها الى بعض الأطراف

بشرح مايسره الله فى هذه الوقعة من الألطاف

قد سبقت المكاتبة بشرح الأحوال وذكرها ، وشكر ألطاف الله الخفية وابداء سرها ، ونشر مطاوى النعم باذاعة طيها واشاعة نشرها ، وذُكر فيها ما الفرنج عليه من اجتماع راجلها وفارسها ، والاحتماء بخنادقها ومتارسها ، وان لنا كل يوم فيهم نكاية بالغة ، وسطوة دامغة ، وثعالب عوامل فى دمائهم والغة ، ومضارب مناصل(1) لرءوسهم فادغة ، ونيوب عواسل لمضغهم ماضغة ، وذيول نقم عليهم فى تقليص ظلال ضلالهم سابغة ، وأيدى أيْد لصفحات البيض بنجيعهم القانى صابغة ، وضمائر وضوامر عن كل شغل سوى شغل الجهاد فارغة ، وهِمَما وعزائم لاترى عن وقم القوم أهل الزيغ زائغة ه

وما برح الفرنج فى برح شديد ، وأمر غير سديد ، وظل للذل مديد ، وضيق حصر فى كل يوم جديد جديد ، حتى ضاقت أنفُسهم وأنفاسهم ، وأخنق رجاؤهم وظهر يأسهم ، ووقع بينهم بطول المقام باسهم . فأجمعوا أمرهم على أنهم يجدون فى اللقاء ، ويهيجون الى الهيجاء . ويلقون الألوف بالألوف ، ويصدمون الصفوف بالصفوف ، ويعرضون نحورهم ووجوههم على الأسنة والسيوف ، ويجمعون فى كلام الكلوم من الصواهل والصوارم بين الأصوات والحروف . ويكسفون بشُبه التثليث أدلة التوحيد ، ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد ، والحد الحديد .

وبرز ذلك الخميس يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان ، ورفعوا الصلبان وأشرعوا الخرصان (2) ، وتبعوا (3) الشيطان ، ورتبوا الرجال وطلبوا الفرسان . وحملت لهم أطلاب تضم أبطالا ، وتضمن بباطلها

---

(1) فى ب مناصل والتصحيح من ل ومن أ (١٨٢ ى) ومناصل جمع منصل وهو السيف .

(2) الخرصان : جمع خرص بكسر الخاء وسكون الراء ، وهو الرمح القصير السنان .

(3) فى ب اتبعوا والتصحيح من ل ومن أ (١٨٢ ش) .

للحق إبطالا . وتأمل لشملها المتفرق اجتماعا ، وترجو للصليب السليب ارتجاعا . وعصفت رياحها الهوج وأقبلت بحار سوابحها وسوابغها تموج . وكاد أن يثبت للشيطان قدم ، ويراق للايمان دم . فانها خرقت حجاب الصف ، وفرقت شمل الجمع الملتف . وراع جنان الجبان وهمّه وهمّه ، وأدبر موليا وعزْمه زعمه . فظن من لايقين له أن الاسلام قد أسلم ، وأن نصر الله الموجود قد عدم ، وأن الكفر المتأخر قد تقدم ، وأن الصبح المتبلج قد أظلم .

وهناك عرف أهل الثبات وثبت أهل العرفان ، ورقصت المرّان على أشاجع الشجعان ، والتفت العنان بالعنان ، والتقى السنان بالسنان . وخطبت الصوارم على منابر الطلى (١) . ورتعت اللهاذم فى كلأ الكُلى (٢) . وفتحت اليغالق مغالق الحتف ، وزحفت الفوارس الى فوارس الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الأطلاب ، ووصلت ضرب الأعناق بقطع الرقاب :

وما زالت تشل الفرنج وتفلهم ؛ وتحل بعقدهم الوهن وتحلهم ؛ وتروى ظمأ الظبا من ورد وريدهم ؛ وتخضب شيب البيض بدم طريدهم ؛ حتى فرشت بعد أن سلبت أشلاؤهم بالعراء عريا ، وجرحت خيولهم وخيالتهم(٣) فلم تستطع اجراء ولم تطق جريا . حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهم صفحات الصفاح ، ووقفت أشباحهم وقفة الوداع لفراق الأرواح ، وأعرب حديث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح .

وقتل من مقدّميهم ومُقْدميهم زهاء خمسة آلاف زهى الاسلام بما اتسع من عطن عطبهم ، وحسن منقلبه بسوء منقلبهم . وعاش بما شاع من قتلهم ، واشتغل العسكر المنصور بشغلهم .

وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين ، وقصم

(١) الطلى : جمع طلية وطلاة وهى العنق أوأصله .

(٢) جمع كلية (معروفة) .

(٣) فى ب خيالاتهم والتصحيح من ل ومن أ (١٨٣ ى .)

الهدى متّن الضلال المتين ، وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين . وانجلى الغبار عن كل قتيل ما لعاثره من مُقيل ، ولا لقائله من مقيل . وعادت أعلام الاسلام ظاهرة ، وأيمان الإيمان باطشة قاهرة . وهدىّ الهدى على النصر مزفوفة ، وعيون العدا عن النظر بالعمى مكفوفة . ولم ينج ممن حمل من حمل راسه ، ولم يقدم من أولئك الرجال الا من فقد رجاءه ووجد ياسه .

وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الألوف ، وأصيبوا بمن صمَّا فى تلك الصفوف ، وتراءت وجوه الفتوح لنا من خلال تلك الحتوف . ودخل الليل عليهم ، ووقفت العساكر حواليهم . وهم وان وهنوا لما أصابهم من الكسرة ؛ وأخطأهم من النصرة ؛ وحل فيهم من الرزء ؛ وسخر بهم الشيطان فى موقف الهزء ؛ وفجع كلهم (١) بالجزء ؛ ونقص منهم العدد الكثير ؛ وركد من ريحهم ذلك العاصف المبير ؛ فانهم فى حشد كالدبى (٢) ، وجمع أغص الوهاد والربا ، وقد أخلدوا الى الأرض وشدوا على حب الموت الحبا ، وودوا لو وجدوا مهربا ، وتفرقوا أيدى سبا . وقد عادوا وتحصنوا وتصبروا ، وتحيزوا المقام على الحين حين تحيروا . وأوسعوا الخنادق وعمقوها ، وأحكموا المتارس ووثقوها . وندموا على الحركة ، فانها أفضت بهم الى الهلكة . وانهم ما داموا رابضين ؛ وعلى يد الصبر قابضين ؛ يتعذر الوصول اليهم ، والدخول عليهم ، وتطول أيام الاحاطة بهم من حواليهم ؟

وفى تلك الحركة التى حلا بها للشجعان طعم الطعن ؛ وغلب فيها للجبناء وهم الوهن ؛ وتجافى عن الثبات من محيى الدنيا جنْب الجبن ؛ ارتاع عسكر الشرق من ذلك الغرب ، واختار المتسللون المتفللون منهم البعد على القرب . وما ثبت الا عسكر سنجار ، فكله محرب مجرب

---

(١) فى ب أكلهم والتصحيح من ل .
(٢) الدبى : أصغر الجراد أو النمل .

للامور ، سديد ساد للثغور . ومجاهد الدين يَرنُقُش(١) — قد صدق نعته بالمجاهدة للدين ، وجلا ظلمة الوهم بنور اليقين . وقرت عين (طُمان) بالجنة باقدام الولد ، وماذا يقال فى شبل ذلك الأسد . وانما الغرباء هابوا ، وكانوا قد ضجروا من الحضور فغابوا . والفرنج الآن فى ذل وخسر ، وفى عسر بغير يسر ، وفى حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه — أن يقدر على قطع دابرهم ، واهلاك بسائرهم عن آخرهم ، وتحريك همم المؤمنين فى تسكين سائرهم ، وتخريب عمرهم وعامرهم ، وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهم .

وما دام البحر يمدهم والبر لايصدهم ؛ فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بأدوائهم وأسوائهم ملازم . وتدبيرنا الآن فى التدمير على هذه الجموع ، وسوقهم الى مصارعهم فى ورطة الوقوع . فأين حمية المسلمين ، ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليقين ؟ .. وما ينقضى عجبنا من تضافر المشرك على شركه ، وتظاهره فى اتساع مسلكه واتساق سالكه . وقعود المسلمين عن المسلمين وتقاعدهم وتعاضلهم فى تعاضدهم ، وانحلال عقود تعاقدهم . فلاملبى فيهم لناد ، ولا مثقف لمنآد (٢) ، ولا مورى منهم فى اجابة داع لزناد .

فانظروا إلى الفرنج أى مورد وردوا ، وأى حشد حشدوا ، وأية ضالة نشدوا ، وأية نجدة أنجدوا ، وأية أموال غرموها وأنفقوها ، وجِدات(٣) جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم‌يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ؛ ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم ؛ الا جارى جاره فى مضمار الانجاد ، وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد . واستقلوا فى صون ملتهم

---

(١) مجاهد الدين يرنقش : هو ابن طمان بن غازى ، كان مملوكاً لعماد الدين زنكى ابن مودود بن زنكى صاحب سنجار والخابور والرقة ، توفى سنة ٥٩٤ هـ ، وقد أصبح أتابكا مدبراً لدولة ابن عماد الدين — قطب الدين محمد بن زنكى (أبو الفداء ج ٣ : ٩٣ ط. المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) ثقفه : أدركه . المنآد : من دهته داهية والمقصود أنه لا مدرك لمن دهته داهية .

(٣) جدات : جمع جدة وهى الرزق .

بذل المهج والأرواح ، وأمدوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا ؛ ولا بذلوا مابذلوا ؛ الا لمجرد الحمية لمتعبدهم والنخوة لمعتقدهم .

وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل اذا ملك ؛ ورفع فيهم حجاب عزهم وهتك ؛ يخرج بلد من يده ، أو تمتد يد الى بلده .

والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا ، وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة ، وعدموا الغيرة . ولو انثنى — والعياذ بالله — للاسلام عنان ، أوخبا سنى ونبا سنان ؛ لما وجد فى شرق البلاد وغربها ، وبعد الآفاق وقربها ، من لدين الله يغار ، ومن لنصرة الحق على الباطل يختار .

وهذا أوان رفض التوانى ، واستدناء أولى الحمية من الأقاصى والأدانى. على انا بحمد الله لنصره راجون ، وله باخلاص السر وسر الاخلاص مناجون ، والمشركون باذن الله هالكون ، والمؤمنون آمنون ناجون .

ذكر ماعرض للعسكر بعد ذلك من العذر
فصد عن قصد المباكرة لمناجزة أهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء ، وزادت مشاربه من مادة الصفاء ، وأمر بمواراة الشهداء ، ومن جملتهم : الفقيه (أبو على بن رواحه)(١) — وكان غزير الفضل قد أكمل الرجاحة والسجاحة . وهو شاعر مفلق ، وفقيه محقق ، من ولد (عبد الله بن رواحه الصحابى الأنصارى) — فى الشهادة والشعر معرق ، فطرفه الأعلى يوم مُؤتة (٢) مع (جعفر الطيار(٣)) ، وطرفه الأقرب يوم عكاء فى لقاء الكفار .

ومنهم : (اسماعيل الصوفى الأرموى المكبس) — وكان سديدا عفيفا ، عاريا من العار لايتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم : شيخ من الحاشية فى بيت الطشت . وغلام فى الخزانة أمين على البيت : وآخرون صودفوا عند التل . فجاءتهم السعادة ، وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع فى الوقعة ، وذهب قبل الرجعة :

---

(١) الفقيه أبو على بن رواحه : هو الحسين بن عبد الله بن رواحة بن ابراهيم بن عبد الله بن رواحه ، أبو على الأنصارى ، الحموى الأديب ، الشاعر ، ولد بحماه ونشأ بها ، ورحل الى دمشق فأقام بها مدة ، واشتغل بالفقه وسمع الحديث من ابن عساكر وغيره ، ثم رحل إلى مصر ، ثم عاد إلى دمشق ، وقتل شهيداً فى واقعة مرج عكا سنة ٥٨٥ هـ (معجم الأدباء ج ١٠ تحقيق د. فريد رفاعى) .

(٢) يوم مؤته : مؤته ، قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام ، وقد حدثت عندها موقعة بين جيش الرسول صلى الله عليه وسلم وبين جيوش هرقل امبراطور الروم سنة ٨ هـ ، إستشهد فيها زيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، وجعفر ابن أبى طالب (الطيار) فقاد المسلمين خالد بن الوليد وأمكنه الانسحاب (تاريخ الإسلام السياسى ج ١ : ١٤٤ للدكتور حسن ابراهيم)

(٣) جعفر الطيار : هو جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم — هاجر الى الحبشة فى الهجرة الأولى ثم عاد منها ، قتل فى موقعة مؤتة سنة ٨ هـ = ٦٢٨ م .

وأجمع السلطان وذوو الآراء أنه يصبح القوم ، ويباكر فى طلب أرواحهم السوم . وقال : « هؤلاء قد أضعفنا قوتهم ، وأعجزنا قدرتهم ، وفثأنا سوْرتهم ، وأخمدنا فورتهم ، وقتلنا مقاتلتهم ، وأدوينا داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق ، وبلغوا فى الاحتراز والاحتراس الطريق . فنحن نوافيهم غدا ، ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع ، ونذرعهم بباع السباع ، ونقيسهم بذراع اليراع ونوسعهم قِرى القِراع . ونذيقهم حرّ الحرب ، ونسيغهم (١) فى طعم الطعن ضرَب الضرْب . ونعيّن من عيونهم للسهام سهاما ، ونتخذ لأرواح النصال من أجسامهم أجساما . ونغرقهم بماء فرند الهُنْدُوَانيّات ، ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم النصر ، ونطيب من نتنهم النشر . ونقطع دابرهم ، ونلحق بأولهم آخرهم » .

فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم ؛ واجراء هذا الحكم ، تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب ، لما ناب من الأمر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها ؛ وأوباش الجمع وأوشابها ؛ ظنوا تلك الفورة هزيمة ، فنهبوا الأثقال والأحمال وعدوها غنيمة . وانهزم من انهزم من الجند ، وثبت من ثبت من أهل الجد . فمن عاد إلى رحله وجده منهوبا مسلوبا ، وكان ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقّى خطوبا . فمضوا وراء الغلمان ، وبلُوا بسوء دين السودان . وأصبحنا واذا العسكر غائب ، والعازم عازب(٢) . والقاصم قاص ، والطائع عاص . والجمع متفرق ، والثابت قلق ، والآمن فرق . والغنى معدم ، والجرىء متندم . فهذا خاف ما ذهب من ماله ذاهب ، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب . فتفتّر ذلك العزم ، وتأخر ذلك الحكم .

وانتعش الفرنج فى تلك المدة ، وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار ، وفرغوا لشغل الحصار : وجاءتهم فى البحر مراكب

---

(١) فى ب نسيغهم والتصحيح من ل ومن أ (١٨٦ ى) .

(٢) عازب : بعيد ، غائب ، خفى .

أخلفت من عدم ، وبنت ماهدم . فكمل بالمدد مانقص من العدد . ولولا أن الله تعالى قدر بقاءهم ، لكُنّا عاودنا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة ما أمكنت ، والحصة تعينت . والجو خال ، والضوّ عال ، والحال جميلة والجمال حال . فقضى الله بما قضى ، وعرانا المضض بما مضى .

وبقيت هناك تلك الجيف منتنة منبتة مبتثة (١) ، وتلك الجثث محينة (٢) مخبثة مجتثة . تنعّرفنا أن نشورها من حواصل النسور ، وأن قبورها بطون الضباع والنمور . فشكونا نتن رائحتها ، وشكرنا يمن جائحتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر ، ليشرب من صديدها أهل الكفر . فحمل الى الماء أكثر من خمسة آلاف جثة ، بعث الى النار قبل يوم البعثة . فما عبر بها الامن اعتبر ، واستشفى من أقبل بمن أدبر . وسلم الله من أسلم ، وكف وردّ بالردى من كفر .

---

(١) مبددة .

(٢) هالكة .

ذكر ما اعتمده السلطان فى استرجاع ما نهب من الثقل واستدراك ما حزب من الخلل

تقدم الأمر الى المقدمين والامراء ، بعد النداء واعلام الجهلاء . باحصاء كل ما نهب ، واحضار كل ماسلب . وانه من لم يرد ما أخذه أخذ بالردى ، واعتدى عليه بمثل ما اعتدى ، فأحضر كل ماعنده ، وبذل فى الكشف جهده ، وجمعوا ما تفرق منه فى الخيام فى خيمة السلطان ، وضاقت عن كثرته سعة ذلك المكان .

وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان ، فكل من عرف من ماله شيئا أخذه بعد إحلافه (١) ، وحلا فى مذاق الشكر قطاف ألطافه . وسعى فى معاناة ذوى الأخلاق الصعبة على سهولة أخلاقه ، وشفى العلل والغلل بالنهل والعلل (٢) من اشفاقه . وقمش ذلك القماش ، وحصل من ذلك الوبل الرشاش ، وصح بعد العرى والعثار الارتياش والانتعاش .

وكتب الى الولاة بالأمصار والنواحى ؛ والأقطار والضواحى ؛ بحث البحث وجد الكشف ، واستخلاص كل مايوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس ، وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائها ، وقضاة القواضب الى اقتضابها واقتضائها . وغار الآنف وأنف الغيران ، وتسلط العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحنق الثائر ، وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل(٣) الذكور ، واشرأب للشرب نبات الأسل الى ماء النحور . وحمى ذوو الحمية للتقاضى ، وقالوا حتى متى التراضى بالتغاضى » .

(١) أى تحليفه بالقسم .

(٢) أى الشرب الثانى أو المتتابع .

(٣) الخلل : جمع خلة وهو جفن السيف المغشى بالأدم أوبطانة يغشى بها جفن السيف

وحضر أكابر الأمراء عند السلطان يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان . فقال : « اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله ، وأناخ بكلكل كلّه(١) ، وقد برز بالكفر كله إلى الإسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه ، واستنفد وسعه . وان لم نعالج الآن فريقه ، والبحر قد منع طريقه ، أعضل داؤه ، وتعذر غداً لقاؤه ، فإنه إذا سكن البحر ، واستسهل ركوبه السفر ، تضاعفت أعداد الأعداء ، فظهر الاعدام من الإعداء ، وخرج الداء عن قبول الدواء .

ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها ، ولا قوة نستحضرها . وما بلى بهذا المعشر إلا معشرنا ، وما بإزاء عسكر الكفر إلا عسكرنا ، وما فى المسلمين من ينجدنا ، وما فى بلاد الإسلام من يسعدنا . وعساكرنا حاضرة ،وعزائمنا للتوانى حاظرة ، وعيون أسنتنا إلى الفتك بالعدا ناظرة ، وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين . ولابقاء للنقاد إذا أصحر منه ليث العرين . فالرأى كل الرأى فى المناجزة ، قبل وقوفهم على محاج المحاجزة » .

ثم قال: « ليشركل منكم برأيه ، ولا يقدم على قول ورأيه من ورائه » فتجاذبوا حبل الاضطراب ، واختلفوا فى الآراء بحسب اختلاف الآراب ؛ وركب كل منهم هواه ، وأعلن بما نواه . ومنهم من قال : « هذا ثالث عشر تشرين الثانى لا الأول ، وقد دفعنا إلى الخطب الأعضل ، والتعب الأطول ، والنائب الأعصى والناب الأعصل (٢) ، وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً ، وما طعمنا فى هذه الليالى نوماً ، ولا سمنا لطارق طيف غمضاً ، ولا شمْنا إلا لبارق سيف ومَضا ، ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها(٣)

---

(١) الكل : الثقل .

(٢) الأعصل : الأعوج فى صلابه .

(٣) اللهوات : جمع اللهاة ، وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .

وكأن أبا الطيب(١) عنانا بقوله ؛ (وكأنما خلقوا على صهواتها) . وقد كلت الصوامر ، وفلت البواتر ، وملت العساكر . وهذا الشتاء قد أقبل ، والعدو قد استقتل ، والشر قد استفحل . وما يتأتى قلعه إلا لمن يتأنى ، وبالصبر يدرك الأريب ما يتمنى . وهم بالمصابرة مصابون ، ونحن على المثابرة مثابون . وهؤلاء لا يتمكن منهم إلا بالجمع الجم ، والسيل لا يغلبه غير الخضم . والصواب أن نصابرهم هذه الشتوة ، ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتأخر عن هذه المنزلة ، لتحصيل هذه المصلحة المؤملة ، ونوكل بهم مناوبة من يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البرد نرجع إلى معالجة هؤلاء العلوج . ونعيد السريجيات إلى سلها والسلاهب إلى السروج . والصواب الأخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل إلى الأطراف والأوساط . ومكاتبة دار السلام ، واعلام الإمام — عليه أفضل السلام — بما دفع إليه الإسلام بالشام . فإن المسلمين لا شك ينجدون ، ويقومون بالنصرة ولا يقعدون . ولا يترك استنفار التركمان ، وترغيبهم بالبر والإحسان . واستدعاؤهم بالعطايا ، والتشريفات السنايا . وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية في تحريك الهمم والعزائم الوانية . إلى أن تمتلىء بالجموع ساح الساحل ، وتغلى بنار الحميات بها مراجل الراجل .

فحينئذ ينتهى أمد المصابرة ، ونصمم على المكابرة مع المكاثرة . ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر ، ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر . وننسفهم ولو أنهم جبال ، وننزفهم ولو أنهم بحار ، ونعدمهم حتى لا يطرق جفن بلد منهم خيال . ولا يلم بجفن طارق لهم غرار » .

ومازلنا فى مشاورة ومحاورة ؛ ومجاذبة ومجاوبة ؛ ومناظرة ومساورة(٢) ؛ حتى تنخل الرأى وتمخض ، وخالوا أنه تبين الصواب وتمحض . ومالوا إلى الدعة ؛ والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب إلى المنزل الرحب . ومن المعترك المعتكر إلى المبرك المبتكر .

فلم تعجبنى هذه الحالة ، ولم توافقنى هذه المقالة . وقلت : « لعمرى

(١) يقصد أبا الطيب المتنبي الشاعر المعروف .

(٢) مساورة : مواثبة .

أتيتم بمصلحة ، ولكنها غير مترجحة . فإن الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار ، ولم يحدقوا بجميع الأسوار . فإذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخينا خناقهم ، وأطلنا إلى مرادهم أعناقهم . وباب عكاء من جانب البحر مفتوح ، والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق (١) مصبوح . والطريق إليها سابلة ، والذخائر إليها فى كل يوم داخلة . والفرنج عن قطع الطريق عاجزة ، وعزائمنا على مصابحتها ومماساتها لها دون قصدها محاجزة . وان تأخرنا تقدموا ، وان هونا أحكموا ، وان نقضنا أبرموا . وان قعدنا قاموا ، وان بعدنا حاموا . ومتى رمناهم تحفظوا ، ومتى نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فإنهم لحصر البلد لا يتفرغون ، وإلى أمد الأمل لا يبلغون » .

فقالوا : « هذا أمر هين ، وماذكرناه صواب متعين ، ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا أنسوا بالرجاء ، لم ييأسوا من الارجاء . وأرخينا لهم حبل الإنظار ، حتى استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة ، ونعاجلهم كرة بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البُغاث ، ونصدهم بالباعث الباغت(٢) لهم عن الانبعاث » . وكان السلطان متكرها لما أبدوه من الرأى الملتاث(٣) ، لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

---

(١) المغبوق : مشروب بالعشى .

(٢) الباغت : المفاجىء .

(٣) الملتاث : التاث عليه الأمر أى اختلط والتبس .

ذكر الرحيل إلى الخروبة عند خيم الأثقال المضروبة

كان السلطان مع ما ألم به من الألم ، غير مبد وجه الملل والسأم . وهو فى كل يوم يركب وعلى العسكر يطوف ، ويقف مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر ، وعليه أثر الضر من الصبر . فليم على فعله ، وخصه الطبيب بعذله . فانتقل إلى الثقل ليلة الثلاثاء رابع شهر رمضان ، وخلى المنزل الأول وأخلى العسكر ذلك المكان . وتقدم إلى من بعكاء باغلاق الباب ، وسلوك نهج الاحتراس والاجتناب . وجرى الأمر على ماكنت قلته ، وتحقق من الخلل ما خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذى كان خالياً ، ورخص عنده ماكان من سوم خوفه غالياً .

وشرع الفرنج فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكاء من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ماكان فى مراكبهم من آلات الحصر . وفى كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم ، وبماظهر من أثرهم ، والجد فى تعميق الخندق وتتميم محتفرهم . والعسكر هاجم ، كأنه واجم ، والظن فيه راجم ، وشر الكفر ناجم ، وما فينا لعود الأمر عاجم .

وقلت يوما للسلطان « يركب العسكر إليهم ، ويركض عليهم . فلعله ينال ظفراً ، ويقضى من كسر العدو وطراً » . فقال « ما يعمل العسكر شيئاً إلا إذا كنت معه راكباً ، ولعمله مشاهداً مراقبا » . ولقد صدق فى مقاله ، فإنه كان أعرف برجاله . فإنهم كانوا يبذلون معه المهج ، ويخوضون من بحر الحرب اللجج ، ويوسعون لهزم العدو المأزق اللجج . وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم ، وأمهلناهم بل أهملناهم . حتى عمقوا الحفور ، ووثقوا من ترابها السور . وملأوه بالستائر ، ومنعوه من الطير الطائر . وبنوه وأسسوه ، وستروه . وترسوه ورتبوا عليه رجالا ، ولم يتركوا إليه[1] لواغل[2] مجالا . وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ، ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً .

---

(١) زيادة من ل وفى أ (١٩١ ى) عليه .

(٢) واغل : أى متوغل ، داخل مبعد فيه .

ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقول : « لامبالاة بهم ولا اكتراث ، وما أسهل إذا عزمنا عليهم لاصولهم الاجتثاث ، وبسيول سوفنا نغسل تلك الأخباث . وأى وقت قصدناهم وجئناهم وجأناهم ، ونكأنا قرحهم ونكبناهم . وما فوارسهم لنا الافرائس ، وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما حفروا الا قبورهم ، وما دبروا الا ثبورهم . ومتى قصدناهم كذبت ظنونهم ، وصدقتهم منونهم . وامتلأت بأشلائهم خنادقهم ، وأظلمت عليهم بغربنا مشارقهم ، وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم »

ذكر رأى راثب ، عن النظر فى الغاى غائب ، أسفرعن داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب

وقع لبعض الأكابر فثنى عليه خنصره ، ووكل بإتمامه سمعه وبصره . لما تمت على الفرنج تلك المقتلة ، وعمت فيهم الهلكة ، وضمت أشلاءهم المعركة ، وشوهدت على الربى حجب نحورهم المهتكة . وخمدوا وخملوا ، وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الأكابر أنه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر . وأنهم قد عدموا القرار ، وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا ، ولو فتحنا طريقهم ماتصبروا ولاتربصوا .

وقال للسلطان : « ارحلوا عنهم حتى تروا ما يكون منهم . فإنهم يرهبون ويهربون ، ويبعدون إلى صور ومن بعدها ومن عكاء لايقربون » . فمال قوم إلى مقاله ، وتخيلوا مثل خياله . وأشار بقطع طريق البلد ، والصدر عن ورد الرصد ، والجد فى تعمية الجدد . وأن يفتح لهم ماسد من الطريق ، ولايعوقهم فإنهم كلاب تعوى من التعويق .

ولما بلونا رأيه ، وتلونا آيه ، أخلف ظنه ، وبدا وهنه . ومازاد الفرنج الاثباتا ، ولم نعرف لشملهم على ما توهمه شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الرأى الفائل ، ونقول ما أعجب قبولنا قول هذا القائل .

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث ، وتجدد للعزائم من البواعث

أقام السلطان بالمخيم لإصلاح مزاجه ، وايضاح منهاجه . ومداراة ألمه ، ومداواة سقمه ، فوهب الله له العافية ، وكمل له عصمته الكافية ، ومنته الشافية ، ونعمته الوافية ، وأبدى له ألطافه الخافية . وقوى قلبه على المقام بنية الانتقام . وصرف الأجناد الغرباء ليرجعوا فى الربيع ، ويستريحوا فى مرابعهم لوقت الرجوع . وأقام فى مماليكه وخواصه ، ورجال حلقته المنصورة من ذوى استخلاصه . ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا ، وأدار بهلاك القوم منه فلكاً .

وكان فى مماليكه كل مقدم مقدام ، وكل همام همّام . وكل ليث ذى لوثة وكل حدث محسن له حُسْن أحدوثة ، وكل ضيغم ضاغم ، وكل أسد عرين ليس إلا عرنين قرنه براغم . وكل ريبال ذى بال ، وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطّال . وكل مغير للنصر مريغ(١) ، وكل مسىء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ . وكل تركى للرماء غير تارك ، وللاصماء غير فارك(٢) قوسه فى ظفر الهدى موتر على الوتر ، وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر ، وسيفه فى رداء الردى حال بدم الكفر . وكل (حميدىّ) فى الروع حميد ؛ وبالحرب عميد . وكل (هكارى) على القرن عكار (٣) ، وفى الوغى كرار ، وللقنا جرار . وكل (زرزارى) بالأسد زار ، وللبسالة كاس ومن العار عار ، وكل (مهرانى) فى القتال ماهر ، وللرجال قاهر ، وعلى الأبطال ظاهر . وكل كمى كميش ، واكديش على اكديش .

فما خلا يوم من وقعة ، وما صار من بارزهم إلا إلى صرعه ، وماعاد من نجا من زنابير سهامهم إلا بلسعة ، وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من

---

(١) مريغ : فعله راغ ، ذهب ههنا وههنا ، وراغ الرجل عن الطريق . حاد عنه وذهب هكذا وهكذا مكراً وخديعة .

(٢) فارك : تارك .

(٣) عكار : كثير الكر .

طاولهم إلا على لطعة . وما تبقى على لتوتهم ليت ، ولصوتهم فى النزال كل صباح ومساء صيت . وبلى الفرنج منهم بالمبير المبيد ، واعتاق بهم مراد العدو المريد .

وما زال هذا دأبهم فى الركوب ، ومباكرتهم ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم ، وثبتوا عدل النصر بتعديهم ، وصدوا شر الشرك بتصديهم ، وحركوا ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم .

وفى يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكاء مركباً للفرنج إلى صور مقلعاً ، واجتلينا به من سنى النصر مطلعاً . وكان المركب محتوياً على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة ورزمة (١) من الحرير . وجاءت حظوة حلوة ، وغنيمة صفوة ، ونشوة أعقبت صحوة ، وصبيحة(٢) استصحبت ضحوة . وقوة من وهن العدو ، ومحبة فكت رهن السلو . فقد كان انكسر نشاطهم ، وانقبض انبساطهم ، وانخفض اغتباطهم . وفترت عزمتهم ، وقصرت همتهم ، وخمدت فورتهم ، وركدت ثورتهم .

فلما عثروا بالمركب انتعشوا وانتقشوا (٣) ، وتنغموا وتنغشوا . ودب الروح ، وشب المروح . وتحرك الساكن ، وتدرك الضامن . وصارو يخرجون ويحرجون ، ويقتلون ويجرحون ، ويمسون على القتال ويصبحون ويكافحون ويدافعون ، ويقارعون ويواقعون . والعسكر فى المنزلة هاجم ، وجمجمعه واجم . واليزكية زكية ، والعيون ذكية . والنوب راتبة ، والعدة المعينة فى كل يوم راكبة .

(١) الرزمة : من الثياب وغيرها ما جمع وشد معا .

(٢) فى ب صحيحة والتصحيح من ل .

(٣) انتقشوا : يفيد السياق معنى الفرح والانبساط .

ذكر وصول ملك الألمان(١)

ونما الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية فى عدد دهم دثر (٢) ، ونظم من خيله ورجله ونثر . وهو على قصد العبور إلى بلاد الإسلام ، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وأنه فى ثلاثمائة ألف مقاتل ، من كل سالب باسل ، وطالب باطل . وجهم جهنمى ، وأشقرى سقرى ، وأنمش أفعوانى ، وصل صليبى صلاتى (٣) . وأرقش حنشى ، ومستعر سعيرى . ومحرب لظوى ، ومغوار نارى . وضار بالقرن ضارّ ، وجار للدرع جارّ . وكل ذئب عاسل ، ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل ، وأصهب لأسمر معتقل . وكل جحيمى جاحم ، وجمرى فاحم . وحربى بحرى ، وبار برى . وقاطع فى طريق الوصول ، وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال ، وصال بنار الصيال (٤) . ومشمر على الموت متمرن ، ومتحين إلى المنون متحنن .

وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع ، ماله سوى السوء من مقنع . وأنّه مع الألمانى ملوك وكنود ، وكل شيطان لربه كنود(٥). وكتب صاحب

---

(١) ملك الألمان : هو فردريك بربروس (ذو اللحية الحمراء) وهوأول من تحرك للحرب بعد هزيمة حطين ، وقاد الألمان بعد تجمعهم فى راتزبون Ratisbon سنة ١١٨٩ م فتقدموا إلى آسيا الصغرى بعد اختراقهم بلاد المجر والبلقان ثم جبال طوروس وكليكيا ١١٩٠م وهناك رمى الامبراطور نفسه فى نهر سالف ليستحم فغرق ، تقول بعض المراجع المعتمدة كسيرة صلاح الدين لابن شداد وغيرها أنه لم يغرق بل تحرك عليه مرض شديد فهلك به . وخلفه ابنه دوق بسارابيا على قيادة الألمان حتى عكا حيث مات بها سنة ٥٨٦ هـ (ارجع إلى سيرة صلاح الدين لإبن شداد . تحقيق محمد محمود صبح ط . الدار القومية ١٩٦٢) . وإلى (مذكرات تاريخ العصور الوسطى فى أوروبا والشرق لمحمد رفعت) .

(٢) دثر : كثير .

(٣) صل صلاتى : الصل هى الحية الخبيثة جداً والصلاتى النارى .

(٤) الصيال : السطو والقهر .

(٥) كنود : كافر بالنعمة عاص .

قلعة الروم[1] مقدم الأرمن – وهو فى قلعته على الفرات ؛ ومن أهل الذمة فى المأمن . يبدى تنصحاً واشفاقاً ، وتخوفاً على البلاد واحتراقاً . ويقطع بأن الواصلين فى كثرة ، وأن الناهضين إلى طريقهم فى عثرة . وأبرق فى كتابه وأرعد ، وأبدع بخطابه وأبعد . ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل ، وبملاءة أهل ملته قائل .

ولما وصل هذا النبأ وقيل إنه عظيم ؛ وورد هذا الخبر وخيل أنه أليم ؛ كاد الناس يضطربون ، على أنهم يصدقون ويكذبون ، ومن طرف كل حبل من الرأى يجذبون . وقلنا : ان وضح هذا الخطر ؛ وصح هذا الخبر ؛ فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولايرضون أنهم لايعضدون . على أن الله ناصرنا وموآزرنا ومظاهرنا .

وحققنا بإظهار القوة لمن استوحش التأنيس ، وبثثنا بالإرسال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس . وندبنا رسل الاستنصار ، وبعثنا كتب الاستنفار إلى جميع الأمصار والأقطار . وقلنا : ماهذه المرة إلا مرة ، ولايسيغها إلا كل مرئ أبى ، وماهذه الكرة مثل كل كرة ، ولايحضرها إلا كل كميش كمى .

---

(١) قلعة الروم : قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط (ياقوت ج ١٦ : ٣٩٠ – ٣٩١ ط . ب) .

وعول السلطان على (القاضى بهاء الدين بن شداد ، يوسف بن رافع ابن تميم)(١) ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له : « ما أحتاج أوصى ، وأنت تستوفى القول وتستقصى » . وجعل له إلى كل ذى طرف فى طريقه رسالة ، وأودعه إليه مقالة .

فسار من عندنا فى شهر رمضان مغذاً ، يبذ خيل العزم بذاً ، ويجذ(٢) حبل السير جذاً . ووصل إلى حلب والقاضى ضياء الدين القسم بن يحيى ابن عبد الله الشهرزورى — رسول السلطان ببغداد قد عاد ، وذكر أنه قد بلغ المراد ، وأنه استجدى واستجاد ، واستفاد واستزاد ، وأنه استكمل للعِدَة الاستنجاز ، وللعدّة الاستنجاد .

فما هذا الرسول الرائح . وربما تعرضت لتلك الحوائج الجوائح (٣) . وإذا اختلف الحديث حدث الاختلاف ومنى ألنى(٤) غير ما ألقى ألغى الائتلاف . فما هذا العجل ، ومم الوجل . فصدقه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، عن كل ما أبان عنه وأعرض .

وكتب إلى والده ، بذكر مقاصده ، وقال : « أنا لا أقدر على صد من

---

(١) القاضى بهاء الدين بن شداد : هو أبو المحاسن ، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبه ابن محمد بن عتاب الأسدى ، الفقيه ، الشافعى قاضى حلب ، ولد بالموصل ٥٣٩ هـ ، واتصل بخدمة صلاح الدين ٥٨٤ هـ فولاه قضاء العسكر والحكم ببيت المقدس ، كان من خلصاء صلاح الدين ومستشاريه ، كان عالما دينا حسن السيرة ، أصبح قاضى حلب فى عهد الملك الظاهر بن صلاح الدين عمر مدرسة له بحلب والحق بها داراً للحديث النبوى ومقبرة له ، توفى بحلب ٦٣٢ هـ (ارجع إلى سيرة صلاح الدين لابن شداد تحقيق محمد محمود صبح — المقدمة ط . الدار القومية) (وإلى النجوم الزاهرة ج ٦ ط . دار الكتب) .

(٢) يجذ : يقطع .

(٣) الجوائح : جمع جائحه وهى البلية والتهلكة والداهية العظيمة .

(٤) فى ب ألف والتصحيح من ل ومن أ (١٩٥ ى) .

للخدمة تصدى ، ولارد من بثوب الرسالة تردى ، وأنت تمضى إلى السلطان ، بما أوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم ، ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع ، ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعاً ، وتجد شمل ما ألفته جميعاً » .

فوصل ضياء الدين الشهرزورى وهو مغتاظ ، وسجاياه السجاح غلاظ . وتغير على ، ونسب انفاذ القاضى بهاء الدين إلى ، فإنه كان مخالى ومخالطى ومجالسى ومباسطى . فأزلت عنه كل ظن ، واعتذرت إليه بكل فن ؛ فما بسط عذر ؛ ولاقبض ذعر . فإنى على أسبابى ببغداد خائف ، ودون رضى كل سائر إليها واقف . واسترضيته فما رضى ، ومضيت إليه مراراً قبل أن يمضى .

ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ما قدمه ، وأعلمه بما علمه . وقال له : « الشغل قد فرغ ، والمقصود قد بلغ ، والسؤال قد أجيب ، والسؤل قد أصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم (١) ، وكل ملك سواك لأجلك من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للإمام يكن لك ، واقبل أمره ليقبلك » .

واجتمع بالسلطان دونى ، واتفق بجماعة شاركوه وأفردونى . وقرروا معه سرا أمراً ، وحذروه أن يصير جهراً . ولوكنت معهم لعرفتهم أن الأمر الذى أبرموه غير مبرم ، وأن الرأى الذى أحكموه غير محكم .وما زلت أؤكد الأمر حتى يؤمن انتقاضه ، وأتعرض دون الرأى حتى لايمكن اعتراضه . وأتيقن أن الأمر ما فيه خلاف ، وأن الوعد ماله اخلاف . فما فعل الرسول يتلبث ، ولا أمهل بتمكث ، بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه ، وزعم فيما دبره نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب ، وأسرع العودة على النجب .

فلما انفصل عن السلطان ، بما وصله من الإحسان ، جمع السلطان الأمراء على المشورة ، ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم : « قد وعدت

---

(١) أى وضع الخطام فى أنفه ، والخطام هو كل ماوضع فى أنف البعير ليقتاد به .

الخليفة على لسان الشهرزورى بشهرزور (١) ، واستدعيت عسكره المنصور، وربما قدم إلينا الحضور، فيكمل لنا النصر والحبور» . فقالوا : « هذا رأى راثب ، وشأو شائب (٢) ، وأمر عنه الصواب ناء ، وكيف تعد الإمام بما لا يقرن بوفاء . وكيف ينجز هذا الوعد وينجح هذا القصد ! ودونه ايحاش من هو فى طاعتك ! فكنت تبذل ما يدخل فى استطاعتك . أما صاحب الموصل طلبها فمنع ، وصاحب اربل(٣) عنها دفع ، ومملوكك بها لمن يجاوره خائف ، وكل ابوائى لحدها وحقها حائف (٤) . وما من هؤلاء إلا من بذل عنها أموالا وأحوالا ، والتزم من الجنود والنقود أنجاداً خفافا وحمولا ثقالا . فإذا عرف أنك أخرجتها لمن له الأمر؛ دخل عليهم الضر. وملك مالك الأمر أمرهم ، وأبدوا فى انقطاعهم عنك عذرهم . وانقطع الواصل، وارتفع الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد ، ولا ساعد على ما نحن فيه بعدها مساعد . فأما هذا بكتمر فى خلاط (٥) قد جمع الأخلاط ؛ وجهر بالعداوة ؛ وأقام على الغباية والغباوة . » .

فقال السلطان : « الخليفة ملك الخليقة ، وهو مالك الحق والحقيقة . فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد ، فكيف شهرزور ! وسيحدث الله بعد الأمور الأمور » .

ولما وصل ضياء الدين الشهرزورى إلى بغداد ؛ وصادف بها القاضى بهاء الدين بن شداد . فلم يسفر أمر سفارته عن سداد . وقيل له : « جواب ما أتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، وننديه فيما نتخيره » . وشرف بهاء الدين وأعيد ، وزين ضياء الدين وزيد . وذكر ماجرى فتم الاعتداد ، ونم الإحماد . وسيأتى ذكر ما آلت إليه نوبته ، حين كانت أوبته .

---

(١) شهرزور : مدينة بين الموصل وهمذان وأهلها كلهم أكراد (ياقوت ج ١٢ : ٣٧٥ – ٣٧٦ ط.ب) .

(٢) الرأى الراثب هو الذى فيه شبهة وكدر . والشأو الشائب : هو الغاية الغير سديدة .

(٣) أربل : مدينة بين الزابين (كانت فى زمن ياقوت من أعمال الموصل) وهى قلعة حصينة ومدينة كبيرة (ياقوت ج ٢ : ١٣٧ – ١٤٠ ط . ب) .

(٤) منقوص .

(٥) خلاط : أو اخلاط ، بلدة عامرة مشهورة كثيرة الخيرات والمياه ، وهى عاصمة أرمينيا الوسطى (ياقوت ج ٧ : ٢٨٠ – ٢٨١ ط.ب) .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخى السلطان والاستظهار بجموعه والاجتماع بظهوره لنصرة الإيمان

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال ، فى جيش وآل ، وجمع حال . وشوكة (١) رائعة وشكة رادعة ، وشارة سارة ، وديمة من البأس دارة . وعدة منتخية منتخبة ، وعدة منتقاة مهذبة . من كل أجدل على مرقب ، وأجود على جواد مقرب . وصاف عتيق على صافن عتيق ، وطود على طود ونيق على نيق ، وصقر على سوذنيق (٢) . وبحر على سابح ، وجذع على قارح (٣) . ومن كل رئبال على تتفل ، وأغر محجب على اغر محجل . ومن كل أبيض ضرب بالبيض ضراب ، وكل أسمر باسل بالسمر سلاب ، وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعتقل شجاعاً . وكل أحمى أحمس ، وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر ، وقسور قاسر ، وضيغهم ضاغم ، وقمقام واقم . وليث به لوثة ، وحدث له فى الشهامة أحدوثة .

وأحضر معه من سودان مصر كل ذمر كأنه العبسى عابس ، وكل مغامر للموت مغامس . وكل غربيب حلكوك(٤) ، وكل سرحان صعلوك . وكل ضرغام غريفى (٥) ، ومقدام ريفى . وكل خارج لثار ، وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ ، وكل رأس فى الشر راسخ .

وجاءوا بالغبسة (٦) القبطية ، والترسة (٧) اللمطية ، والصلال القفطية .

---

(١) شكة : سلاح .

(٢) سوذنيق : صقر.

(٣) الجذع : الشاب الحدث . والقارح : الأسد .

(٤) الغربب : الأسود الحالك . والحلكوك : الشديد السواد

(٥) سريع .

(٦) الغبسة : يفهم من السياق أنها آلة تنسب إلى قبط مصر.

(٧) الترسة : جمع ترس وهو صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف .

والإلال (١) النوبية ، والحراب الحربية ، والصعاد الصعيدية . والصوارم المذروبة ، والصرائم المشبوبة . والأسنة المسنونة ، والصوابغ الموضونة . والسراحين السارحة ، والثعابين الجارحة . والتماسيح المزدردة ، والشياطين المتوقدة . والزانات واليزنيات ، والهنديات واليمانيات .

وكان يوم وصول العادل مشهوداً ، لم يترك فى كل ما يراد من القوة مجهوداً . وأقبل فى روع ظاهر وضوع باهر . وبشر ذائع ، ونشر ضائع. وحبور تام ، وسرور عام . وهزة وطرب ، وعزة وأرب . وقلنا : سيف الدين المنتضى ، وناصر الإسلام المرتضى ، وغياث الأنام المرتجى ، وسلطان جيوش المسلمين المجتبى . لقد نص النصر ، وكف الكفر . وسلم الإسلام ، ونام الأنام . وأمن الإيمان ، وتسلط السلطان . وحليت الأحوال وفرغ البال ، وبلغت الآمال ، ونيل رجاء الرجال ، وأزيل إبطاءالأبطال . وورت زناد الأجناد ، ورويت ظماء الصعاد . فما بعد اليوم إلابعد القوم . وإدراك ما استقام من النهج ، وهلاك من أقام من الفرنج .

ونزل الملك العادل فى مخيمه ، وقدم اليمن بمقدمه . وتقدم السلطان إلى راجل دمشق والبلاد فحضر ، وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخل العدو فى كل حين من حين ، وفى كل وقت من مقت ؛ وفى كل شأن من شين . وفى كل بقعة من وقعة ، وفى كل صقع من صقعة . وفى كل ليلة من بلية ، وفى كل سحرة من كبسة بالنكاية فيهم ملية . والملك العادل يركب فى كل يوم ويبلى ومن جهده فى القتال لايخلى . والفرنج على البلاء صابرون ، وللعناء والعناد مكابرون لايبرزون ولايبارزون ، ولايجاوزون خنادقهم وهم فيهامتحاجزون.

---

(١) الإلال : جمع ألة وهى الحربة العريضة النصل .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجارى الأحوال

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل ، ومجاولة أهل الغواية بالغوائل ، ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة فى البحر بعدد أمواجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكاء المحروسة ، براياتهم المنكوسة ، وآرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة ، وجموعهم المحشودة ، وظلال الضلال الممدودة ، وإقدام الأقدام المصدودة المسدودة .

وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم فى الوقعات التى روعت ، والروعات التى وقعت ؛ أكثر من عشرين ألف مقاتل ، من فارس وراجل ، ورامح ونابل . فما أثر ذلك فى نقصهم ، ولا أرث (١) إلا نار حرصهم . وما فلل حدّ حديثهم الحادث ، ولا قلل عدد كثيرهم الكارث (٢) . ولا غضوا عيون أطماعهم ، ولا فضوا ختوم اجتماعهم . ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى ، ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى ، ولو قطعوا بالمدى ، وهم لمواضعهم ملازمون ، وفى مصارعهم جاثمون ، وعلى الموت صابرون ، وإلى الحمام صائرون . وبالخنادق من البوائق محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتصمون ، وعندهم أنهم للبلد محاصرون ، وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصوّون ، وان جندنا لهم المنصورون .

وللعساكر الإسلامية فيهم كل يوم نكاية شديدة ، وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية ، وجمرة ذاكية ، وصدمة صادعة ، وحدمة رادعة .

ولما امتنع الدخول عليهم ؛ وتعذر الوصول إليهم ؛ جُمع راجل البلاد ؛ وحُشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد . حتى نقاتل الراجل بالراجل ، والفارس بالفارس ؛ ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل

---

(١) أرث : أوقد .

(٢) الكارث : المسبب للغم الشديد .

الأخ العادل وفقه الله للمراضى الشريفة ، بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحاً لأبواب الفتح ، ويعجل لليالى آمال المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير ، ويأتى عليه التدميز . وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من فى ديار الكفر . فإنه لم يبق لهم مدينة ؛ ولا بلدة ولاجزيرة ؛ ولاخطة صغيرة ولا كبيرة ؛ إلا جهزت مراكبها ، وأنهضت كتائبها . وتحرك ساكنها ، وبرز كامنها ، ونفضت خزائنها ، وانفضت معادنها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخايرها . وثار ثائرها ، وسار سائرها ، وطار طائرها . ونثلت كنائن كنائسها ، واستخرجت دفائن نفائسها .

وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها . وتصلبت للصليب السليب ، وتغضبت للمصاب المصيب . ونادوا فى نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم ، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجراً ؛ وبحرب الإسلام مجاهراً ؛ ولمتعبده مسترداً ؛ وبجده فى النخوة لدينه مستجداً ، فقد وهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه .

ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدر . فجاءوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد ؛ وتواصلت منهم الأمداد بالإمداد ، وتوالت أنجاد الإنجاد . وهم على النقص يزيدون ، وعلى الأبد يبيدون ، وبالمهج يجودون ، وعن اللجاج فى خوض اللجج لايعودون .

وهؤلاء هم الواصلون فى البحر القاطعون أثباجه ، المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون فى البر فقد تواترت أخبارهم ؛ بأن خلت منهم ديارهم ؛ ورمتهم إلى أغراضهم البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر ، ويعضل الأمر . ويصول الكفر ويجول ؛ ويتطاول الشرك ولكنه لايطول . فإن لدين الله من خليفته ناصراً لايسلمه ، ورازقاً لايحرمه . وما تمسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه (١) وحاز السناء قدحه ، وأسفر صبحه ، ووفر نجحه . وبدا علوه ، وباد عدوه .

---

(١) القدح بكسر القاف : هو السهم قبل أن ينصل ويراش والمعنى هنا كناية عن السمو.

والخادم بقوة رجائه فى العوارف الامامية ؛ والعواطف النبوية ؛ وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية ، آن أن يفرق الجمعين ويجمع للفريقين القمعين . ويعيد البر بحرا من دماء وافدى البر والبحر ، ويقطع دابرهم دابر الكفر .

ذكر وصول الأسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة فى المراكب المستعدة المستبدة بالبأس والشدة وكانت عدته خمسين شينياً

كان السلطان منذ وصل الفرنج إلى عكاء قد كتب إلى مصر بتجهيز الأسطول ، وتجزية حباله ، وتزجية أمور رجاله . وتكثير عدده ، وتوفير عُدده . وإصلاح شئون شوانيه . وإسناء رواسى سواريه . فتولى (حسام الدين لؤلؤ[1] الشيخ) أمره ، وشرح لإيراده وإصداره صدره . وأنفق من ماله ما جمع به شمل رجاله .

وهذا لؤلؤ قد اشتهرت فى الكفر فتكاته ، وشكرت فى العدو نكاياته . وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد ، ولم يكن فيها على الإسلام لغيره يد . وماسلك نهجاً الاملك ، و لاطلب غاية إلا أدرك . وهو ميمون النقيبة ، مشكور الضريبة . وهو الذى رد الفرنج عن بحر الحجاز ، ووقف لهم على طرق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف ؛ ولم يبق لهم دليلا يعرف . وغزواته مشهورة ، وفتكاته مذكورة . وأمواله مبذولة ، وأكياسه لعقد الإنفاق فى سبيل الله محلولة .

فتولى الأسطول ، وجمع به الطوْل والطُول . ووصل به . وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ، ولواسب [2] سوالب ما تغيب وما تغب . وسفن حمالة ومقاتلة ، وبطس[3] للأزواد والمير ناقلة .

فصدمتْها مراكبنا بمناكبها ، وملأت معاطنها بمعاطبها . واستطال الأسطول المنصور على أساطيلها ، وجاء حقه بازهاق أباطيلها . وطلعت فى سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما ، وقذفت لشياطين الكفر رجوما . وأقبلت سواريها بالرواسى ، مبرمة الأمراس محكمة المراسى . وقطعت

---

(١) هو الحاجب لؤلؤ وقد سبقت ترجمته .

(٢) لادغات : ضاريات .

(٣) بطس : جمع بطسه ، وهى المركب الكبيرة – (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣٦٩) .

اللجة بأشباه أمواجها ، وسدت فجاجها بأفواجها ، ونكست أعلام الأعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود ، وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود . وطارت بقوادم المجاذيف وخوافيها ، وزارت بجوارح المقاذيف وعوافيها .

فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمرُّ مر السحاب ، وتطوى اللجة كطى السجل للكتاب . فصدّتها وصدعتها ، وردّتها وردعتها . فكأنما نعبت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها ، وأناخت ظعائن الضغائن على شوانى شوانيها ، وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريها .

فأول ما ظهر الأسطول المنصور بشينى للفرنج عظيم الشان ، عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان . فقتل مقاتليه ، وتبع ما يليه . فوقعت بطشته الكبرى ببطسة كبيرة ، تشتمل على ميرة لهم وذخيرة وأمتعة كثيرة .

وتفرقت سفن الفرنج أيدى سبا ، وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محسورين قد دفعت مراكبهم التى دافعت عن مباركهم ، وأيقنوا أنهم تورطوا فى مهالكهم . وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار ، وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول أنشأتها فيها

منها فصل

ولما رأينا أمدادهم فى البحر متضاعفة ، وجموعهم متكاثفة ، استدعينا الأسطول المصرى المنصور فجاءها فجاءة ، وامتد أسطراً على طرس البحر أعيت متأملها قراءة ، وأقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص ، وصدمت شوانيه شوانى الشناة فعادت مراكبهم وهى نواكص . وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الإسلام ناعبة(١) ، واطردت على طرائد(٢) الفرنج فطردتها غالبة لا لاغبة .

وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة ، وألهبت فى الماء على أهل النار كل نار للنكال مسعرة . وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت ، وعملت ماشاءت ، وتبعتهم مراراً ، وبالغنائم فاءت ، وأعشت أعين الرائين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعاً ، ولم تجد من بعدها مطعماً ولامرعى .

---

(١) ناعبة : مصوته منذرة بالبين .

(٢) طرائد : جمع طريده أوطراد وهى سفينة لحمل الخيل وفرسانها وتحمل نحو أربعين فارسا بأفراسهم . (Dozy. Supp. Dict.Arabe) (والسلوك ج ١ : ٥٦ تحقيق د . زيادة) و(الروضتين ج ٢ : ٥٩٨ تحقيق د. محمد حلمى أحمد) .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الأسطول المصرى ، بالسطو الشديد والبأس القوى . فارتاع الكفر من وصوله وصوْله الرائع ، وذل جمع الكفر لعزه الجامع ؛ وجاء بكل شيئ شانئ . لشانئ الدين واجئ، مفاجع للعدو بالهلاك مفاجئ . مفرق لمراكب الشرك المجتمعة ؛ مضيق لمناهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها ، ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة ، ولامداد اعانتها ممن وراءها مستمدة . وقتل من فيها من الرجال ؛ وغنم ماوجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى

وصل الأسطول المنصور فى كل شينى شانئ للشرك شائن ، زائد لبهجة الإسلام زائن . زائر بكل أسد زائر ، سائر بكل مقدام إلى مقام الإقدام سائر .

وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها ، وأرهفت غروبها وسنّمت غواربها . وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض ، وأرجلها على الثبات فى روابى متون سفنها روابض . وهم على انتظار الأسطول . ليطاولوه ؛ ويلقوه وبالمدافعة يجاولوه .

فلما وصل وصال ؛ وراع أمره وهال ؛ وجلا عليهم الأوجال والآجال ؛ بتوا المراسى والحبال، وانهزموا بسفنهم،وآذنت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائروالأحمال مملوءة ، وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ماوصف صورة الحال على جليتها، وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد
ونقل الرجال والذخائر والعدد

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث ؛ وتبحرت السهول والوعوث ؛ وحالت الأوحال ؛ ولاحت على خلاف المراد الأحوال ؛ وتعذر الخروج إلى تلك المروج ؛ وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج ؛ وزال حكم النزال ؛ واستقال من استقل بالقتال ؛ شرع السلطان فيما هو أنفع وأجدى، وأنجع وأنجى ، وأرجع بالاحتياط والحزم وأرجى ؛ وهو تقوية عكاء بالميرة والذخيرة ، والأسلحة الكثيرة . والرجال الحماة ، والأبطال الكماه .

فنقل إليها فى المراكب جماعة من الأمراء الأمْلئاء[1] بأجنادهم ، فدخلوا إليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضاً برجال الأسطول ورؤسائه وقواده ، فما دخل أحد فيه إلا بزيادة فى زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحرى حربى ؛ على الجرى إلى الموت جرى . فامتلأ البلد بكل منتخب منتخ ، ومرخص مهجته الغالية للإسلام مصرخ . وانتفع بهم فى جذب المنجنيقات ، والرمى فى العرادات[2] ؛ والحذف بالنفاطات ، والإحراق بالزراقات ؛ والزرق بالمحرقات . وإلقاء القوارير ، واذكاء المساعير . وتطريح النار ؛ وتطويح الأحجار ؛ ومواصلة القطاعات ، والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروخ والزنبوركات ، وتطيير الناوكات النواكى من مقاتل العدو إلى الوكنات . ومناشبة الفرنج فى كل وقت بالأخذ والوقذ ؛ والجد فى الجد والجذ[3] . وطُروقهم ليلا على سبيل التلصص ، وسوْقهم من سُوقهم على وجه التصيد والتقنص .

وكبسوا ليلة سوق الخمارات والعواهر ، وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر . واستنصروا بذلك واستبشروا ؛ واجترأوا منه على ما أجروا .

---

(١) الأملئاء : الأغنياء المتمولون أوالحسنو القضاء منهم .

(٢) العرادات : وأحدها عرادة وهى آلة حربية لرمى الحجارة .

(٣) القطع .

وكذلك من عندنا يدخل إليهم الرجال متسوقين ، ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه وأخرجه ، ومن تعذر عليه إخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل فى خيمته ويرهبه بمد مُديته . ويسلبه سكونه بسكينه ، ويجعله إن لم ينجذب معه من حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر ، ويجذبه بخدام الأسر .

ووقع القوم من هذا فى بلاء مُبرْح ، وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر إليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز ، وشق عليهم الاحتراس والاحتراز. وتحيل الناس فى اغتيالهم بكل طريق ، وازداد فرقهم من كل فريق .وأعدت الحال من الليل إلى النهار ، والمكابرة والجهار ، حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش فى أجراف الأنهار ، فإذا صادفوا فارساً ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

وصلت فى مركب ثلاثمائة امرأة افرنجية مستحسنة ، متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر ، وانتدبن للجرائر . واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء ، وترافدن على الإرفاق والارفاد ، وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية، زاهية هازية، عاطية متعاطية ، حاظية خاطية ، متغنية متغنجة ، متبرزة متبرجة ، نارية ملتهبة ، متنقشة متخضبة ، تائقة شائقة ، فائقة رائقة، راتقة فاتقة، راقعة خارقة ، مارقة رامقة، قاسرة سارقة ، فارجة فاجرة ، فاتنة فاترة ، مشتهاة متشهية ، ملهاة متلهية ، متفننة متفتية ، ناشية منتشية ، متشوقة متسوقة ، مقترحة محترقة ، متحببة متعشقة . حمراء مرحاء ، نجلاء كحلاء ، عجزاء هيفاء ، غناء لفاء ، زرقاء ورقاء ، متخرقة خرقاء .

تسحب غفارتها ، وتسحر بنضارتها نظارتها . وتتثنى كأنها غصن ، وتتجلى كأنها حصن . وتميس كأنها قضيب ، وتزيف وعلى لبتها صليب . وهى بائعة شكرها بشكرها ، باغية كسرها فى سكرها .

فوصلن وقد سبلن أنفسهن ، وقدمن للتبذل أصونهن وأنفسهن : وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن . وأنهن لايمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان، وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب، وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب . وفتحن أبواب الملاذ ، وسبلن ما بين الأفخاذ . وبحن بالإباحة ، ورحن إلى الراحة ؛ وأزحن علة السماحة ، ونفقن سوق الفسوق ، ولفقن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور ، وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور ، وعرضن الإمتاع بالمتاع ، ودعون الوقاح إلى الوقاع :

وركبن الصدور على الأعجاز ، وسمحن بالسلعة لذوى الإعواز ، ودمن على تقريب خلاخلهن من الأقراط ، ورمن فرشهن على بساط النشاط . وتهدفن للسهام ، وتحللن للحرام . وتعرضن للطعان ، وتضرعن للأخدان .

ومددن الرواق ، وحللن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للأوتاد واستدعين النصول منهن إلى الأغماد . وسوين أراضيهن للغراس ، واستنهضن الحراب إلى التراس . واستنفرن المحاريث إلى الحرث ، ومكن المناقير من البحث . وأذن للرعوس فى دخول الدهاليز ، وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقرين الأشطان(١) من الركايا ، وفوقن النبال فى أعجاس(٢) الحنايا ، وقطعن التكك ، وطبعن السكك .

وضممن الأطيار فى أوكار الأوراك ، وجمعن قرون كباش النطاح فى الشباك . ورفعن الحجر عن المصون ، وترفعن عن ستر المكنون . ولففن الساق بالساق ؛ وشفين غليل العشاق . وكثرن الضباب(٣) فى الوجار(٤) ، وأطلعن الأشرار على الأسرار . وطرقن الأقلام إلى الأدوية ، والسيول إلى الأودية . والجداول إلى الغدران ، والمناصل إلى الأجفان . والسبائك إلى البواتق ، والزنانير إلى المناطق والأحطاب إلى التنانير ، وذوى الأجرام إلى المطامير(٥) والصيارف إلى الدنانير . والأعناق إلى البطون ، والأقذاء إلى العيون .

وتشاجرن على الأشجار ، وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لاسيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة . وسقين الخمر ، وطلبن بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية .

وأبق من المماليك الأغبياء ؛ والمدابير(٦) الجهلاء ؛ جماعة جد بهم الهوى ، واتبعوا من غوى . فمنهم من رضى للذة بالذلة ، ومنهم من ندم على الذلة فتحيل فى النقلة . فإن يد من لايرتد لاتمتد ، وأمر الهارب إليهم

---

(١) جمع شطن وهى الحبل الطويل .

(٢) أعجاس : جمع عجس بضم الجيم وهو العجز .

(٣) الضباب : جمع ضب وهو حيوان من الزواحف ذنبه كثير العقد .

(٤) الوجار : الجرف حفرة السيل من الوادى وجحر الضب .

(٥) المطامير : وهى الحفائر تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب ونحوها .

(٦) المدابير يقال « هو لا يعرف قبيله من دبيره » أى « لا يعرف ماقدامه ولا ماخلفه » يكنون بذلك عن فرط جهله .

لاتهامه يشتد ؛ وباب الهوى عليه يستد . وماعند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج ، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضاً فى البحر امرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر ، وهى فى بلدها مالكة الأمر . وفى جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم ، وغلمانهم وأشياعهم . وهى كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة . وهم يركبون بركباتها ، ويحملون بحملاتها ، ويثبون لوثباتها ، وتثبت ثُباتها (١) لثباتها .

وفى الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس . وكن فى زى الرجال ، ويبرزن فى حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة ، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة . فسبحان الذى أضلهن ، وعن نهج النهى أزلهن .

وفى يوم الوقعة قلعت منهن نسوة ، لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن مع لينهن قسوة ، وليست لهن سوى السوابغ كسوة . فما عرفن حتى سُلبن وعرين ، ومنهن عدة استبين واشترين . وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز ؛ وهن يشددن تارة ويرخين ، ويحرضن وينخين . وقلن ان الصليب لايرضى إلا بالإباء ، وأنه لابقاء له إلا بالفناء ؛ وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء . فانظر إلى الاتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء . فهن للغيرة على الملة مللن الغيرة ، وللنجاة من الحيرة تاحين الحيرة . ولعدم الجلد عن طلب الثأر تجلدن ، ولما ضامهن من الأمر تبلهن وتبلدن .

---

(١) أى شجاعتها وصادق حملتها .

ذكر ما أهداه عز الدين مسعود
ابن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل
من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة ؛ وتقوية النجدة ؛ لكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة ؛ سير من أحمال النفط الأبيض مع عزة وجوده — ما وجده . ومن التراس والرماح — من كل جنس — أحكمه وأقومه وأجوده . وشاع الاعتداد ، وذاع الإحماد ؛ ودل ذلك على اتشاج الوداد ؛ والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا فى شكره

وصل السلاح ، وتم للاسلام من قروح الكفر الاقتراح ، واستجيدت التراس والرماح ، وفارقت للقائها أجسام الأعداء الأرواح . واتصل بالنفط الواصل إلى أهل النار الاحتراق ، وطعنت وضربت منهم النحور والأعناق . وقد هدأ بما أهداه النصر الى الهدى ، والردى إلى العدا . وأجود الأكارم وأكرم الأجاود من جاد بما أجدى وأهدى ما هدى ، وعاد من المكرمة بما بدا .

لا أخلى الله المجلس من يد يتخذها ، وأياد يسيرها وينفذها ، ومحمدة يستخلصها لنفسه ويستنقذها ، وحمية للدين يقم بها حماة الشرك ويقذها ، ونخوة للاسلام تُمْهى حدود الهمم النابية وتشحذها .

وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة ، والضرورة الشاقة . فان الحروب المتطاولة المدد ، أتت على جميع العدد . فالسمر متحطمة ، والبيض متثلمة ، ووجوه الصفاح بلثام النجيع متلثمة . وعيون النصال عن حواجب القسى إلى مقل الأقران رامقة مارقة ، وحمام الحمام فى مريشات السهام بكتب الكبْت من حنايا المنايا السائقة سابقة .

وقد أفنى المصال النصال ، والنضال النبال . والرماء الأفواق ، واللقاء

العتاق . والمصاع المناصل ، والقراع الذوابل،والصيال الصواهل ، وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضامر إلا وهو وان كان غالبا لاغب ، ولا صارم إلا وهو فى دم العدو الفائض ناضب . ولا جارح إلا وهو مجروح ، ولا قارح إلا وهو مقروح . ولا جامح إلا وهو مصحب ، ولا باشر إلا وهو مقطب .

فبأية عدة من هذه العدد أنجد ، غار الحمد وأنجد ، وتأسس الشكر لانعامه وتمهد . ومن العجب أن العدة تفنى ولا تفنى العُداة ، وتنمو على الحصاد وكأنها النبات ، ويتسارع إلى أمدادها الموت والهلاك ويخلفها فى إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم ، والكفر إلى الردى يردهم ، وكلما أخلقتهم الأيام فان الليالى تجدّهم . وما جمعهم القدر إلا ليفرقهم ، وما حمل أهل النار فى الماء إلا ليغرقهم فى دمائهم وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بأن عماد الدين قد جهز عسكره ، وقدم عليه قطب الدين(١) ولده وسيره .فقال السلطان « هذه أيام الشتاء ، ولا يتنصف فيها من الأعداء . ونحن محتاجون إلى العسكر فى الربيع ، واستنهاض الجموع إلى شمل النصر الجميع » فكتب بتأخيره ، والتمهل فى تسييره . فتأثر قلب عماد الدين برد ولده ، ورجوعه بعد المسير من بلده .

فكتب إليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى إليه صدق اهتمام المجلس بأمره ؛ والتقدم بتجهيز العسكر إلى نجدته بكل ما يعود بسرور سره ؛ وانشراح صدره؛ وعرف مسير قطب الدين أدام الله له مضاعفة العلاء ؛ وأقر بأنواره عيون الأولياء ؛ وظن أنه لم يقدم حركته المقرونة بالحسنات ؛ ولم يقرب من عبر الفرات ؛ أشفق عليه من التعب ، ليكون عسكره مستريحا عند الطلب . فان الحاجة إليه فى الربيع أدعى ، ومصلحة الاسلام فى ذلك الأوان أولى أن ترعى .

ولو عرف أن الركاب القطبي قد دنا ؛ لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالنفوس والأرواح ؛ وتلقته القلوب بالقبول العبق بنشر الانشراح . وان اشتغل القلب بما فاته من حظ الاستسعاد بوفوده ؛ فقد بشر أمله بنضارة عُود نجحه عند عوْده ونجاز وعُوده .

وفى آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الأقطار والأمصار ؛

---

(١) هو القطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر ، خلف أباه على سنجار أثر وفاته سنة ٥٩٤ هـ فلقب بالملك المنصور ، كان حسن السيرة فى رعيته ، وقد تملك سنجار مدة ، ثم حاصره الملك العادل الأيوبى أياما ثم رحل عنها بأمر الخليفة ببغداد ، توفى سنة ٦١٦ هـ ، وخلفه ابنه عماد الدين شاهنشاه (أبو الفداء ج ٣ : ١٢٢ ط. المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

للاستنفار والاستنصار . وبث الكتب وكتب بالبث ، وحث الرسل وراسل[1] بالحث ، وبعث المسرعين لاستبطاء البعث . وأنهض بالتبليغ كل بليغ ، وجرع كأس التدبير فى حسن السفارة كل مشيع مسيغ . وسرح (عدنان) النجاب إلى سيف الاسلام[2] باليمن : وشرح فى الكتاب إليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جلية الحال . وما نحن عليه من دوام القتال ، وطلبت منه الإعانة بالمال . واستعين واستجد . واستاين واسترفد . وحض على حظه من إنجاد الاسلام ، وأن يكشف بسنى طلوعه ماغشيه من الاظلام . وأرشد إلى نهج السماح ، وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح . وتجريد الجرد العناق ، وتوفير الحمول التى تخرجها فى سبيل الله يد الانفاق .

وكوتب (قزل أرْسلان) بهمذان ، بما دنا منه عزمه ودان ، وحكم على كل ملك بحجة الإيمان ، وهدى إلى محجة الاحسان .

---

(١) فى ب أرسل والتصحيح من ل .

(٢) يقصد سيف الإسلام طغتكين أخى السلطان صلاح الدين وقد سبقت ترجمته .

ذكر وصول رسول سلطان العجم

ركن الدنيا والدين طُغْرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه (١)
بالالتجاء إلى ظل السلطان . وارتجاء ماله من فضل الاحسان

ورد من عند طغرل سلطان العجم أميرٌ من خواصه — هو (أيلْدُكز) أمير العلم . فضرب له من الخيم الخاصة سرادق ، ووفرت فى الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته : أنه خانته من أمرائه ومماليكه العامة والخاصة ، وخصته في سفراته ونسكباته الخصاصة . وأن عمه — أخا أبيه من أمه — قد استولي على مماليكه ، وضيق عليه سعة مسالكه . وألجأه إلى هذا الالتجاء ، وهو بقوته من هذا الجانب قوى الرجاء . وقد وصل إلى حد مملكتك بقرب اربل ، وأراد الوصول إلى الموصل . لكنه نزل فى بيوت (عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق) . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم دولتكم ، والمستمسكين بعصمتكم ، والمستوثقين بذمتكم . وأنا عنده مقيم ، وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتْني إليك قدمتْ ، وإن أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدْتُ من النصر ماعدمت . وأنا الآن هزيل عاملك ، ونزيل انعامك

ووصل معه كتاب بخطه ، قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة ، واستدعى الاعانة ، وأردف رسولا برسول ، وكرر سؤْالا فيما التمسه من سول .

فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل ، وأنه لامطمع مادام العدو ملازما لنا فى مفارقة الساحل . فكتب إلى زين الدين يوسف (٢) .

---

(١) طغرل بن أرسلان : هو طغرلبك شاه السلجوق ، قتله فى المصاف علاء الدين خوارزمشاه تكش بالرى سنة ٥٩٠ هـ ، وبقتله انقرضت الدولة السلجوقية (أبو الفداء ج ٣ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) و(النجوم الزاهرة ج ٦ . ١٣٦ ط . دار الكتب) .

(٢) زين الدين يوسف : هو ابن على بن بكتكين ، كان أميراً كبيراً ، شجاعاً مقداما مدبراً ، قدم نجدة إلى صلاح الدين فمرض ومات سنة ٥٨٦ هـ ، خلفه أخوه مظفر الدين على اربل من قبل صلاح الدين (النجوم الزاهرة ج ٦ . ١١١ — ١١٢ ط . دار الكتب) .

صاحب اربل وإلى (حسن بن قفجاق) وإلى نائبه بشهرْ زور بالتوفر على خدمته ، والارتياد لمصلحته ، واشاعة معونته .

ثم ندب كبيراً للسفارة بينهم وبين مظفرالدين قزل أرسلان وهو (جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد كُويه نسيبي) ، ليكون القيام بهذا الأمر من نصيبي . وسعى فى المصلحة والمصالحة ، والمصافاة على صفقة المودة والمصافحة ، وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه . وسيأتى ذكر ما آل إليه الأمر فى موضعه .

وتوفى الفقيه (ضياء الدين عيسى الهكارى) بمنزل الخروبه سُحْرة يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ولقد كان من الأعيان ، ومن مقربى السلطان ، ومن أهل الجد فى نصرة الإيمان ، فنقله الله إلى الجنان . وحمل من يومه إلى القدس فدفن به .

وكانت فى هذه السنة وفاة الفقيه الكبير (شرف الدين أبى سعد عبد الله ابن محمد بن أبى عصرون (١) بدمشق ، يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذى لم يخلفه مثله ، ودفن معه فضله . وكان مولده فى أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

وكانت وفاة الأمير (عز الدين مُوسك بن جكوّ) (٢) بكرة يوم

---

(١) الفقيه شرف الدين بن أبى عصرون : هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر ابن على بن أبى السرى بن أبى عصرون ، أبو على ، التميمى ، الموصلى ، ولى قضاء سنجار ونصيبين وحران ، جاء إلى حلب سنة ٥٤٥ ﻫ ودخل دمشق مع نور الدين عند فتحها سنة ٥٤٩ ﻫ ، تولى مناصب عدة فى دمشق وخارجها وكان قاضى قضاة دمشق سنة ٥٧٣ ﻫ ، كف بصره قبل موته بعشر سنين (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٠ ط . دار الكتب) و(الروضتين لأبى شامة ج ٢ : ٥٧٣ تحقيق د . محمد حلمى) .

(٢) عز الدين موسك بن جكو : هو ابن خال السلطان صلاح الدين الأيوبى كان حافظاً للقرآن ، سامعاً للحديث ، محسناً إلى الناس ملازما للسلطان فى غزواته ، دينا صالحاً جواداً ، مرض بمرج عكا فأمره السلطان أن يتوجه إلى دمشق ليتطبب بها ، مات بها سنة ٥٨٥ ﻫ (وهو الذى باسمه يسمى حى الموسكى الآن بالقاهرة نسبة إلى القنطرة التى كانت على الخليج باسمه فى هذا الموضع . المحقق) (ارجع إلى النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٠ ط. دار الكتب) .

الجمعة النصف من شعبان منها ، وكان من الأبرار الأخيار ، والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر فى خيمته المضروبة . وعكاء محصورة ، وجموع الفرنج إلى حصارها محشورة ، وعلى تعذرها عليهم محسورة .

وخرجت هذه السنة والحصر مستمر ، والسلطان فى ملازمة القتال مستقر ، وحيا النصر فى الأحيان مستدر . وقد تسنت للاسلام مباهج ، ووضحت للسعادة مناهج ، وبانت للقتال مداخل ومخارج ، وانقطعت بين الوشيج وأرحام الأرواح وشائج ، واشتدت لتباريح الأشواق إلى لقاء الأعداء لواعج ، وتألفت فى الاقدام مقدمات ونتائج ، ولمناجح المنى منا فى مدى الرجاء مدارج ، ولخطباء الظبا فى منابر الطُلى معارج . وللجهاد جهات ؛ وللعزمات أزمات ، واتفقت حسنات ، وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هى لأعدائنا مساءات .

ووقعت عجائب ، وأعجبت وقائع ، وأبدعت غرائب ، وأغربت بدائع . واجتمعت كتائب ، ونابت نوائب ، وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الأقدار ، وتباعدت الأكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين فى الوقائع عدد لا يقع عليه الحصر ، ولكم أسفر صبح أصحب فيه جماح الظفر وسفر النصر .

وسيرد حديث كل حادث بمفرده ، ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب أحيانا للصيد ، بعد أن يحذر على ما يظهر للعدو من الكيد . وهو لا يبعد من الخيم ، ولايقرب من مسائل الديم .

وركب يوما فى صفر على عادته فتصيد ، وطاب له قرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة ، على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقت العصر ، فى عدد لا يدخل فى الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا إليهم ، وحملوا عليهم ، وطردوهم إلى خيامهم ، وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم . وما زالت بينهم حملة وحملة ، وشلّة وشلة ، وسلة وسلة ، وركضة وركضة ، ونفضة ونفضة ، ومشقْة ومشقة ، ورشقة ورشقة ، وجذبة وجذبة ، وضربة وضربة ، وشدة وشدة ، وردة وردة ، وضمة وضمة ، ولمة ولمة .

وأصحابنا ظاهرون ، وبالمراد ظافرون . ولهم فى كل دفعة من العدو قلائع ، وللفرنج فى كل كرة على الرمل مصارع . حتّى فنى النشاب وبقى الانتشاب ، وشاع نداء الأصحاب باستدعاء النشاب . والفرنج لا يعجزهم إلا الرماء ، ولايهتكهم إلا الاصماء . ولاينفرهم إلاّ رنة الأوتار ، ولاينذرهم إلاّ أنّة القسى بالدمار والبوار .

فاما أنسوا بخلو الجعاب ، تجاسروا على الدنوّ من تلك الشعاب . وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر ، وكادت تعبث بهم يد القهر . فثبت من العادلية فى وجوه القوم صف مرصوص البنيان ، وأشرعوا إلى نحور تلك الذئاب ثعالب الخرصان .

واستشهد جماعة من الشجعان ، استحلوا طعام الطعان ، وشاقهم جنى الجنان . وذلك أنهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا ، وصرعوا أقرانا . فنزلوا بعد فرْسهم ، لسلب لبسهم . فمرت بهم الحملة فى الأوبة ، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان ، واجتمع فى

مراكزها الفريقان . وكثر التأسف على من فقد ، وكان الحاجب (أيدغمش المجدى) ممن استشهد . وزاد التلهف على فوات الفرصة ، وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصة ، فان العدو صار عرضة للصرعة فى تلك العرصة .

ومن نوادر هذه الوقعة ؛ وطرائف هذه الدفعة ؛ أن مملوكا للسلطان يقال له (سر اسنقر) ؛ وهو يتطاول فى كل معترك ولا يقصر ؛ عثر به جواده ، وثبت على الجرأة فؤاده ، ورجله عثاره ، وأسلمه أنصاره . فقبض من أسره شعره ليجذ به ، وسل آخر سيفه ليضربه ، فضرب يد قابض شعره فسيبه . واشتد سراسنقر يعدو ناجيا ، وللخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه ، وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المنون من لهاتها بعد ازدراده ، وانتضاه (١) الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

---

(١) انتضاه الحمام : أبلاه الموت .

ذكر فتح شقيف أرنون

وفى يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تسلم بالأمان شقيف أرنون ، واستمر الحصار عليه منذ نزولنا فى السنة الماضية بمرج عيُون . وصاحبُه أرناط – صاحب صيداء – فى دمشق لأجله معتقل ، وباب خلاصه دون فتح (شقيفه) مقفل . وذلك أن الشقّى فى الشقيف فنى زاده ، وعز اجتهاده ، ومرد عليه فى الحفظ مراده ، وخانه فى الصبر ارتياؤه وارتياده ، ونخب من الرعب فؤاده ، وأصلد باليأس زناده (١) ، وامتنع عليه اصداره وايراده . فسلمه على أن يسلم صاحبه ، وتخلص فى النجاة مذاهبه ، وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه ، وتركه للاسلام بما يحويه ، وأفرج عن صاحب صيداء وصار إلى صور ، ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور .

(١) أصلد : صوت ولم يور . والزناد : جمع زند وهو العود الأعلى الذى يقتدح به النار

ذكر حال عكاء ودخول العوامين إليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتنم هيجان البحر ، وحضور مراكب الأسطول من مصر . فما زال يقوى عكاء بتسيير الغلات والأقوات والقوات إليها فى المراكب ، وقد ملأها بالذخائر والأسلحة والكماة المساعير والحماة المحارب. فلما سكن البحر ، وأمن غائلته الكفر ، عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها ، ودبت عقاربها وأفاعيها ، وشُدتْ مراكبنا فى موانيها . وانقطع عنا خبر البلد ، وامتنع عليه دخول المدد والعدد . فانتدب العُوّام للسباحة ، وحملتهم السماحة لهم بالرغائب على وضع المهج فى ميزان السماحة .

وعلموا أنهم إذا سبحوا ربحوا ، وإذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم ، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور ، ونكتب إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور ، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفى المستور .

وكان فى العسكر من اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل فى منزلته . وعمل لها برجا من خشب ، وهرادى (١) من قصب . ويدرّجها على الطيران من البعد ، ويوردها لشبعها وزيها أحب الحبّ وأعذب الورد . وكنا نقول : ماهذا الولع بمالا ينفع ، والوله بمالا ينجع . حتى جاءت نوبة عكاء فنفعت ، وشفت الغلل ونقعت . وأتت بالكتب شارحة سارحة ، ووفت بمفاتح الغيب بالبشرى مفاتحه .

فصرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء ، ونخصه بالمدح والثناء . ونأمره بالاستكثار ، ونطلبها منه مع الليل والنهار . حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال ، وكنا نعرف بها جلية الأحوال . ونعلم أن الله علمه ذلك البر ،

---

(١) هرادى : هرد الشى : مزقه وقطعه .

وألهمه ذلك السر . فانه اطلع على ما يدفع إليه أهل الاسلام ، فحمى حمى هداهم بهداية الحمام . فإنها أمينة على الأسرار ، ضمينة بالأخبار ، ضنينة بالأسفار . قمينة بكرامة الأحرار ، مصونة من بين الأطيار ، جريئة على الأخطار ، بريئة من الأعذار ، معدودة من الأذخار، مودودة مع الأخيار .

وحمام البلد إلينا مع العوام محمولة ، وعقود الأكياس عليهم محلولة . فلا ينكر على المحتاج ان عام بالانعام . ومعوله التحرز من الضلال ، والتحفى بستر الظلام . والضرورة تحمل على تحمل الضرر ، والغرارة تبعث على الانبعاث إلى الغرر ، والفقر يدعو إلى ركوب الخطر . وفيهم من سلم مرارا من القوم ، فاجترأت نفسه وأنس بالعوم . ولقد عطب عوامون ، بالأمانة قوامون ، فما ارتدع الباقون ، وما قالوا إنهم لما لقي رفقاؤهم لاقون .

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء
وانكسار البرد فى الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر ، وانتشى الربيع وانتشر ، أمر السلطان عساكره بالعود ، فتوافت أمداد أجوادهم توافى أمداد الجود .

فكان أول من وصل الملك المجاهد (أسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه (١)) — صاحب حمص (٢) والرحبة (٣) وهو بأكمل العدة ، وأحسن الأهبة . وسابق الدين عثمان (٤) (صاحب شيزر (٥)) وهوالذى بيسالته يقسر الليث القسور ، و (عز الدين ابراهيم بن المقدم) المقدام ، والهمام ابن الهمام ، والكريم ابن الكرام ، والأسد الضرغام ، والسيد القمقام (٦)

ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان ، وحشود من العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء ، واكتسى برياشهم العراء . وكثرت الجنود ، وانتشرت البنود . وحلقت عقبان الألوية ، وتلاحقت ذؤبان الأودية . ولمعت بوارق البيارق ، وارتفعت عوائق البوائق . وحملت بواسق السوابق ، وثبتت

---

(١) أسد الدين شيركوه بن محمد : أعطاه صلاح الدين حمص بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه سنة ٥٨١ هـ فأقام بها وحفظ المسلمين من الفرنج وخونة العرب ، ومات بها سنة ٦٣٧ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣١٦ ط. دار الكتب) .

(٢) حمص : مدينة كبيرة بين دمشق وحلب (ياقوت : ج٧ : ٣٠٢ — ٣٠٣ ط.ب) .

(٣) الرحبة : كانت إحدى قرى دمشق ، وكانت تبعد عنها بمقدار ميل وقد خربت وتسمى رحبة دمشق . وهناك رحبة أخرى وهى ناحية بين المدينة والشام قريبة من وادى القرى (ياقوت ج ٤) .

(٤) سابق الدين عثمان : هو الأمير عثمان بن الداية ، صاحب شيزر وقلعة جعبر وتل باشر (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٤ ط . دار الكتب) .

(٥) شيزر : كورة وقلعة قرب المعرة ، يخترقها نهر الأردن (ياقوت ج ٥ : ٣٢٤ ط.ب) .

(٦) القمقام : الكثير العطاء

وثائق العلائق ، ونبتت شقائق العقائق ، ونظرت أحداق الحدائق ، وتيسرت طرائق الطوارق .

وأعجبت أزهار الرايات ، وانتهت غايات الغيايات (١) ، ونزلت بحسن الصنيع نصوص النصول ، ودارت بيد الربيع فصوص الفصول . وعلت الأعلام . وحلت الأحلام . وومضت المواضى ومضت، واقتضت القواضب القواضى وقضت .

وعريت البيض من الحلى ، وغريت السمر بالكلى ، واشتاقت لدات(٢) اللدان إلى العناق ، وتاقت شفاه الشفار إلى لثم الأعناق ، وتحدث الأحداث فى المجاراة باجراء العتاق . وطالت رقاب الرقاق إلى غلاظ الرقاب ،وأعجم عن جمجمة الجماجم اعراب العراب . وحمى عزم البطل ، ومحى رسم الملل . وعاد الجد إلى جدته ، والحد إلى حدته ، وخرج البرد من عدته ، وفاز النصر بعُدّته ، وجليت بنت الغمد فى زى الهند وريّ الفرند ، وقطف ورد الوُرْد للشد إلى الورْد .

وقال الناس : « إلام ننتظر ، وعلام نصبر ، ولم لا نشتغل ، وكيف لا نشتعل ، وحتّام القعود ، وممّ الركود ؟ ولماذا الرقود ، وقد نظرت السعود ، ونضر العود ، وصدقت من أصحابنا الوعود ؟ » .

فرحل السلطان وتقدم ، وعزم على طلب العدو وصمم ، ونزل على تل كيْسان بوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول ، فى الفصل الأعدل ، والفضل الأكمل . وتدانى العسكران ، وتعالى العثيران ، وتقارب القرنان ، وتحارب الحزبان .

وترتب العسكر الاسلامى فى نزوله ميمنة وميسرة وقلبا ، وفى ركوبه على ترتيب منازلهم طُلْبا طلبا . فكان الملك المظفر تقى الدين فى آخر الميمنة الميمونة ، والملك العادل فى آخر الميسرة المنصورة المصونة ، والملك الأفضل

---

(١) فى ب الغايات والتصحيح من ل .

(٢) لدات : جمع لدة ، وهو الترب الذى ولد معك أوتربى معك .

فى أول ميمنة القلب ، وأخوه الملك الظافر(1) فى أول ميسرته على الجنب .

والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء بالنقع الثائر منقبة ، والأرض بوقع الحافر مثقبة . والعساكر مترادفة مترافدة ، متوافرة متوافدة ، متتابعة متواردة . متسابقة متلاحقة ، متناسبة متناسقة ، متوالية متوافية ، متجارية متبارية . منقضة كالبزاة ، منفضة إلى العداة . داعية إلى الانتصار ، عادية على الكفار .

---

(1) الملك الظافر : هو خضر بن صلاح الدين الأيوبى ، لقب بمظفر الدين ، وكنى بأبى الدوام ، وأبى العباس ، قيل له «المشمر» وهو لقب غلب عليه منذ أن قسم والده البلاد بين أولاده الكبار فقال «وأنا مشمر» . وهو شقيق الملك الأفضل ، ولد بالقاهرة ٥٦٨ هـ توفى بحران سنة ٦٢٧ هـ عند ابن عمه الملك الأشرف موسى ، ولم يكن وقتذاك ملكها إنما كان مجتازاً لها عند دخوله بلاد الروم (وفيات الأعيان ج ٦ : ٢٠٤ - ٢٠٦) و(مفرج الكروب ج ٢ . تحقيق د . الشيال)

ذكر وصول رسول دار الخلافة
مع ضياء الدين الشهرزوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الأول رسول دار الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرأفة ؛ – وهو (الشريف فخرالدين) نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام (١) ، فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام . واحتفل لوصوله ، واستقبله لقبوله . وتلقاه الأمراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه إلى البعيد ؛ ومنهم من وقف له بالقريب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد ، وماجدا بعد ماجد ، وبادئا بعد عائد .

ثم ركب السلطان إليه عند القرب من سرادقه ، وأدناه إليه بتعانقه . ثم سار معه قليلا ، وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا . حتى نزلوا به في باركاه (٢) له مضروب ، وخصه بصنوف من الألطاف وضروب . ووصل معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخطيّ الخطّار ، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقترض على الديوان العزيز من التجار ، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار .

فاعتد السلطان بكل ما أحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره ، غير أنه أبدى رد التوقيع مع ود الصنيع ، وقال : « كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شملني من عاطفته . ولعل الله يوفقني للقيام بالفرض ، ويغنيني عن الالتزام بالقرض » .

وأركب الرسول مرارا معه وأراه مبارك النزال ، ومعارك القتال ، ومصارع الرجال ، ومجامع الأبطال ، ومطالع اللقاء . ومواضع الهيجاء . ومصالت الإقدام ، ومنابت الأقدام . ومواقف الصفوف ، ومصاف

---

(١) أي بغداد .

(٢) باركاه : مأخوذة من اللفظة الفارسية (بارجاه) ويقصد بها بلاط الملك ، والمضرب السلطاني ومحطة الرحال (المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم للجواليقي : ٧٥ ط. دار الكتب) .

الوقوف . وأماكن البعوث ، ومكامن الليوث . وتل الفضول ، وبقية التلول . حتى يشهد بما يشاهد ، ويبين له المجتهد والمجاهد ، وأراه ما لم يره ليأثر أثره ، ويخبِر بجملته ويجمل خبره .

وأقام الرسول طويلا ، وأقام له السلطان من طوله دليلا ، ووفر له عطاءً جزيلا ، وعرفا جميلا . حتى استأذن فى العود فعاد ، واستصحب الشكر والإحماد .

ذكر مقاتلة الفرنج عكاء بالأبراج والاعجاز بها والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار ؛ شرعوا فى عمل الأبراج الكبار . وركبوها من الأخشاب الطوال ، والعمد الثقال . وبنوها وقدموها ، ونصبوها وأحكموها . وسقفوها طباقا ، وسمّروها بالحديد وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا . ولبسوها بالسلوخ ،وملأوها بالجزوخ . وزحفوا بها إلى السور ، وكشفوا بالرمى منها بعض سقوف الدور . وتساعدوا على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق .

ووصل من المدينة عوّام ، يخبر بأن التلف بها حوّام . وأن البلد قد أشرف ، والخطر قد أسرف ، والأبراج علت ، والأسوار خلت ، والبلاء قد عم ، والخندق قد طم . وأنتم إنْ تمّ هذا عراكُم العار ، وأظلم على الدنيا والدين بليله النهار .

فاحتمى السلطان واحتد ، وشد واشتد . وكرّب وركب ، وكان يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحف إلى الفرنج ليشغلهم عن الزحف ، ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك فى العشرين من ربيع الأول يوم الجمعة ، بالجحافل المجتمعة ، والغماغم المرتفعة ، والصوارم الملتمعة ، والصلادم الممتنعة ، والأسنة المشرعة ، والأعنة المسرعة . والحوائم المنتجعة من النجيع ، والبيارق المختفقة كأزهار الربيع .

واتفق فى هذا اليوم وصول عماد الدين — صاحب دارا (١) (محمود ابن بهرام الأرتقى) ، بالجمع الوافر الوفى ، والعسكر النخى التقى . وسار إلى القتال على حاله ، بخيله ورجاله . وضايقهم السلطان مضايقة عظيمة ، ولم تزل جادة الجد فى مقاومتهم مستقيمة ، حتى دخل الليل ، ولغبت الخيل . فقوى تلك الليلة اليزك ، وألزمهم فى الحفظ والدرك . ورجع إلى مخيمه ساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور نحوهم مجاهرا .

---

(١) داراً : بلد فى لحف جبل بين ماردين ونصيبين (ياقوت ج ٨ : ٤١٨ ط.ب) .

فلما أصبح يوم السبت صبحهم بالحرب ، وسبحهم على بحر الكر والكرب . ورجّل الرجال إليهم ، وأنزل النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد النقع ، واتسع خرق الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم وقد انقرض القوم . وتفرق الجمعان وقت العشاء ، عن قتيل غريق فى الدماء ، أو جريح على بقية الذماء . وبات الناس فى السلاح (١) شاكّين ، وبنار المذاكى ذاكين ، ولما تم منهم وعليهم حاكين .

ورجع السلطان إلى خيمة ضربت له على تل العياضية ، وقد ألزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع فى رياض الأخلاق الرياضية . وأصبح يوم الأحد راجعا إلى قتال أهل الأحد ، واستن من الجد على أنهج الجدد ، وأمر بانتقال السوق إلى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الأظهر والظهور الأنضر . وأقام كذلك وهو فى كل يوم يغدو وينازل ، ويعدو ويقاتل .

ثم نقل يوم الأربعاء الخامس والعشرين الأثقال إلى المخيم لئلاّ يغيب حاضر ، ولا يصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين ، ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهم معاشرين . فانتدب منهم إلى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح ، وكل محترق على نار الهيجاء للهياج مقترح . وكل وقاح (٢) بالحراب وقّاع ، وكل ضرّار بارداء الكفرة نفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لغام (٣) ، وكل أسد غدا إلى الشد له فى حومة المأزق زئير وبُغام (٤) . وكل مُتلاف للغيرة متْلاف ، وكل جاف عن سوى السوء متجاف . وأخذوا من بيت السلاح السيوف والتراس ، وطلبوا بقصد العدو والاقتناص والافتراس . وأبلوا بلاءً حسنا ، وأوضحوا بالنكاية فى العدو سننا .

ووصل فى صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين ؛ عوّام من البلد

---

(١) فى ب الصلاح والتصحيح من ل .

(٢) وقاح : صبور على الركوب .

(٣) لغام : زبد .

(٤) بغام : صوت الظبية .

يخبر بقوة المشركين المحاصرين . وأن البلد قد ضويق ، وأن العدو المخذول يحيق به كيده إن حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتاله ، ويكفه بنزاله عن نزاله . وجدد الكتب إلى الأمصار ، بالاستنفار والاستنصار .

فأول من وصل ؛ ولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وانفرد بوصوله ، وحظى من نظر والده بسوله . وذلك يوم الجمعة السابع والعشرين . ثم عاد إلى معسكره ، وجاء يوم السبت فى حسن منظره ، وإحسان أثره . فى منظر ناضر ، ورونق حاضر ، وجمع كثيف ، وحشد لفيف . وبهجة رائعة ، وروعة مبهجة وهيئة معجزة ، وهيبة للعدو مزعجة . وصولة دائلة(١) ، ودولة صائلة ، وميامن رائقة ، ومحاسن شائقة . وبحر من الحديد مائج ، ومجْر من العديد هائج . ورقاق وذوابل ، وعتاق وصواهل ، وعوابس وعواسل ، وشعوب وقبائل .

وقدم فى هذا اليوم (مظفر الدين بن على كوُجك) — وهو صاحب حرّان(٢) جريدة ، وقد استأنف للجهاد عزيمة جديدة . ثم عاد إلى عسكره ليقدم به ، ويحضر بجنده وتركمانه وعربه .

---

(١) دائلة : ظاهرة عليهم .

(٢) حران : مدينة قديمة كانت من أعمال حلب ، وهى على طريق الموصل والشام وآسيا الصغرى (ياقوت ج ٦ : ٢٣٥ — ٢٣٦ ط.ب) .

ذكر وقوع النار فى أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ماكان ومن كان فى طباقها

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم ؛ وهو السبت الثامن والعشرون ، تتابعت بظهور دلائل النصر ؛ وتناصر أسباب الظهور المبشرون . فنظرنا والنار من أحد الأبراج فى السماء بشعلها متسامية ، وفى الجو بشرارها مترامية . وما يدرى ما سبب هذا الحريق ، وكيف تيسر هذا التوفيق .

وأحدقت النار بالبرج فإذا هو كشجرة من نار ، ، وقلوب المشركين لاستعارها فى استعار ، ووجوه المؤمنين لأنوارها فى استبشار . ثم رأينا البرج الثانى وهو يحترق ، والنار فى أثنائه تخترق . ثم نظرنا إلى البرج الثالث فإذا هو يشتعل ، وبألسنة النيران يبتهل . فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها . وبلغت إلينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها .

وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشائر النار ، ونسير بطاقاتها على أجنحة الأطيار . والعجب أن الأبراج كانت متباعدة غير متدانية ، وقد أبعدها الفرنج لمسافات متنائية . فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف أسواره وكسفه . فاحترقت على تباينها فى وقت واحد وقدر من الله وارد . فلم يكن ذلك إلا سرًا إلهيا ، ولطفا ربانيا . وفرجا بعد الشدة ، وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقدة .

وكان سبب حريقها أن رجلا يعرف بعلىّ — ابن عريف(١) النحاسين بدمشق — كان استأذن السلطان فى دخول عكاء للجهاد ، وأقام فيها باذلا للاجتهاد . وغرى بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره ، وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره ، وتقدير معاييره . والناس يضحكون منه ، ويغضون عنه . ويقولون : « هذا يضيع ماله فيما لا يعنيه ، وما هذا الهوس الذى وقع فيه » . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويجد فى تلك الأدوات ، ويكثر القدور ، ويرتب الأمور .

---

(١) عريف : هو النقيب وهو دون الرئيس .

فلما قدمت إلى البلد تلك الأبراج ؛ وحصل من الامتزاج الامتراج (١) ؛ قوتلت بكل فن ، وأدنى إليها من النفط كل قدرودن . ورميت بكل قارورة محرقة ، وكل نفاطة مرهقة . وبالغ فى صنعته الزراق ، فلم يتم فى شىء منها احتراق . ووقع الياس ، واستسلم الناس . فمضى ابن العريف ، بل ابن العرّيف ، إلى بهاء الدين قراقوش — الأمير . وقال : « قد رأينا ما اعترض من التدبير ، وما عرض من التقدير . فأفسح لى فى رمى هذه القدور ؛ فلعل الله يأتى منها بشفاء الصدور » . فأذن له على كره . وقال : « ما أرى لاحراق هذه البروج على يده من وجه ، فان الصناع قد أبلسوا (٢) ، والزراقين العارفين بالصناعة يئسوا » .

فلما وجد الاذن ، وزن القدور وعيرها ، ورمى بواحدة منها إلى أحد الأبراج فى المنجنيق وعبرها واعتبرها . ثم لما استوت رمايته ، وصحت فى الاصابة درايته . رمى بقدور نفط لا نار فيها ، وهو يصبها على أعالى البرج ويسقيها . والفرنج يعجبون من البلل، ولا يدرون بما وراءه من الشعل . ثم قذف بقدر نارية ، متشعبة بكل بلية ، فوقعت فى الطبقة الوسطى ، ورمى أخرى فوقعت فى السفلى ، فاشتعل البرج من طرفيه الأدنى والأعلى . وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين ، فاحترقوا أجمعين . ودخل إليه أيضاً جماعة لاستنفاذ ما فيه فاحترقوا بدروعهم وسيوفهم ، وتقلبت الجحيم عليهم غيظاً لاستبطاء حتوفهم .

وتحول ابن العريف إلى مقابلة البرج الثانى ، ولم يلحقه فى إحراقه التوانى . وانتقل إلى الثالث فأحرقه ، وما كان ذلك بصنعة منه بل لأن الله وفقه ، وما زالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا ، حتى عاد جمرها رمادا ، وبياض نارها واحمرارها فى السماء على الأرض سوادا . واحترقت المجانيق والستائر التى كانت بقربها .

(فبُهت الذى كفر (٣)) وأسف على نصبه فى نصْبها . وخمد الكفار

---

(١) الاضطراب والقلق .

(٢) فى ب أبسوا والتصحيح من ل وأما فى أ (٢٢١ ى) أبلغوا .

(٣) وبهت خطأ وتصحيح الآية (فبهت الذى كفر) وهى الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

بذلك الضرام ، وسلوا عما كانوا فيه من غرام العُرام . وحبطت أعمالهم ، وخابت آمالهم . وركدوا بعد جريهم ، وركنوا إلى خزيهم . وضلوا فى سعيهم ، وتورطوا فى بغيهم ، وسقط فى أيديهم بسقوط أيْدهم ، وحيق مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم .

وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدوا الثغر ، وأظهروا بظهور القدر القدْر . وجاءوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها ، واستخرجوا الحديد من مكامنها . ونبشوا الرماد عن الزرديّات التى انسبكت ، وكشفوا عن الستائر التى تهتكت .

فأخذوا ما وجدوا ، وحصلوا على ما نشدوا . وأتْرب من ترب من تراث ذلك التّراب ، وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب . وبردت من حر تلك النار ، وشفى أوامها بذلك الأوار .

والحمد لله الذى جعل تلك النار لأوليائه بالبرد والسلام ابراهيمية ، وعلى أعدائه بالحرّ والضرام جحيمية .

ذكر فصول أنشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما أجده الله من الجد ، وأنجزه من الوعد ، وأجزله من الرفد ، وأعذبه حال الظمأ البرح من الورد . وذلك ما ظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الأول من الاتفاق الحسن ، والنصر الذى يقصر عن وصفه ذوو اللسن .

وهو أن أصحابنا بعكاء رموا بقدور النفط عُدد العدو المدحور ، وأحرقوا جميع مالهم من المذخور . واحترقت ثلاثة أبراج كانوا قدموها ، ودبابات قربوها ، ومنجنيقات نصبوها . ولهم منذ تسعة أشهر يجمعون هذه الآلات ، ويستسهلون عليها الغرامات . حتى أقاموا أبراجا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها ، وقربوها ناكية فى الثغر المحروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها ، وأطالوا على مناكب البلد أعناقها . فأشفق الاسلام من نكاياتها ، وأظلمت الآفاق من غياياتها .

وكشفت من البلد جانبا ، وجبت من سوره غاربا (١) . فأقدر الله على إحراق ما عمل فى تلك المدة المديدة فى ساعة ، وأمسى العدو بقلوب وأفئدة مرتابة مرتاعة . وما أفصح ألسن النيران على تلك الأعواد خاطبة ، وما أبسط أيديها على من كان فيها من الرجال للارواح ناهبة سالبة .

(١) غاربه : أعلاه .

فصل

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذى ورت زناده ، والنصر الذى قرب ميعاده . وذلك ان أصحابنا بثغر عكاء استظهروا وظهروا ، وصبروا فانتصروا . ورموا من البلد أبراج الفرنج المنصوبة عليه بقدور النفط ، وأنزلوها من سماء الرفعة إلى أرض الحط . وأطالوا بها ألسن النار المضرمة ، ودبت من الأبراج المقربة إلى الدبابات المقدمة . وعلم العدو أن كرته خاسرة ، وأن يده عن نيل المنى قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهنى ، والنجح (١) السنى . والنور اللامع من النار ، والنصر الوارى الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور أصحابنا بعكاء يوم السبت ثامن عشرى ربيع الأول ، وقد خصهم الله بالنجح الأفضل الأكمل . وقد كان العدو قدم أبراجه ، وسلك فى المضايقة منهاجه ، ولزم فى الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الأصحاب عليهم وقت الظهر ، ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر . فطالت ألسنة النيران تدعو على أهلها بالبوار ، وتبدى فى تضرمها تضرعها إلينا للاعتذار . وشاهد أهل النار ما أعد لهم فى سقر ، وتلونا قول الله سبحانه فيهم (كذلك نجزى من كفر (٢)) .

---

(١) فى ب النجع والتصحيح من ل ومن أ (٢٢٣ ى) .

(٢) هذه ليست بآية قرآنية ويبدو أن المؤلف رحمه الله قد اختلط عليه الأمر إذ أن هناك آية فى سورة القمر وهى قوله تعالى (كذلك نجزى من شكر) .

ولما كان يوم السبت ظهر أهل الجمعة على أهل الأحد، ورمى الأصحاب(١) المحصورون - المنصورون عدد العدو وأبراجه بقدور النفط من البلد، فخطبت ألسنة النيران على تلك الأعواد، بل على تلك الأطواد، وألحفتها رداء الردى وألحقتها بالوهاد، وفرشت رمادها لمأتم أولئك المرّاد.

فكانت تلك النار على الكفر ضراما، وعلى الاسلام بردا وسلاما. واحترقت الأبراج الثلاثة على معتقدى التثليث، ودبت النار إلى الدبابات بصدمة التأثير وحدمة التأريث. وما أطول ألسن النار وأفصحها بالدعاء على أهلها بالتبار، وقد أبدت إلى الاسلام بتضرمها وتضرعها وجه الاستبشار. وما أحسنها وهى (ترْمى بشرر كالقصر (٢)). ويكسو سنى لهبها وجوه المؤمنين بِشْر النصر.

وما أقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الآلات عن البلد أجنحة الحصر، وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر. وقد بغتت هذه الفجيعة فجأة من حوته تلك البروج، ودخل إلى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج. وهلك فيها أكثر من ثلاثمائة دارع، وخرج من أهل البلد لما حُق الفرج كل مسابق إلى الغنيمة مسارع. وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف، كل ما وجدوه خلل رماد تلك الحتوف.

وكان القوم قد اعتصموا بالأبراج وثوقاً بوثاقتها، واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقتها، ووصلوا بها أجنحتهم، وذخروا فيها أسلحتهم. فأخفقت ظنونهم، وسخنت عيونهم (وخسر هنالك المبطلون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون)(٣).

---

(١) فى ب أصحاب والتصحيح من أ (٢٢٣ ى).

(٢) قال الله تعالى فى الآية ٣٢ من سورة المرسلات «انها ترمى بشرر كالقصر».

(٣) الآية ٧٨ سورة غافر.

فصل من كتاب إلى اليمن فى وصف الأبراج
وإحراقها

استنفد الفرنج أموالهم فى عدد أعدوها ، وآلات أجدوها . وأحكموا أبراجاً شامخات ، ومجانيق شادخات ، وزاد غرامهم بالغرامات ،واستقلوا على عمل الأبراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم ، يطرقون بين يدى أبراجهم ، ويمهدون الأرض لتسوية منهاجهم .

فلما قدموها بعد لأى ؛ وأحكموا باحكامها كل تدبير ورأى ؛ وأشرفوا منهاعلىسور البلد بأسوارذاتأسواء؛وجاءوا بألآت عـلآتوإداواتأدواء(۱) وأشفى البلد من بلائها وأشفق؛ ووجل كل قلب وفرق ، واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل ، ومداواة الأمر العليل إلى أن نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر ؛ وتضرعنا إلى الله فى إنزال ملائكة النصر ؛ فكان من لطف الله ما لم يكن فى الحساب ، وأتى الله المجرمين بالعذاب . وألهم أصحابنا ما داووا به المرض ، وأدركوا به الغرض . وأظهرهم(۲) ظهر يوم السبت الذى خصهم فيه بالظهور ،وأقدرهم على رمى تلك الأبراج بالنفط فىالقدور وظهر من سر صنع الله ما كان فى المقدور.

فتسلطت النار على عمل أهل النار ، وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان،وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يُرسل عليكما شواظ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنْتصِران)(۳) .

وعادت تلك الأكم وهادا ، وذلك الجمر رماداً . وتحلحلت تلك الجبال وتحال تركيبها ، ولصق بالتراب ترتيبها ، وتنكس منها صليبها . وكانت ثلاثة أبراج شاهقة ، نلعبت فى ملاعبها النيران فإذا هى زاهقة ، وتنقلت

---

(۱) أى تسبب فى المرض .

(۲) فى ب أظهوهم والتصحيح من ل ومن أ (۲۲٤ش) .

(۳) الآية ۳٥ سورة الرحمن.

نجوم الشعل فى تلك البروج ، وعجز شياطينها برجمات جمرات شهبها عن الخروج . وتسلط الحضيض على يفاعها ، وباد الدارعون فيها بأدراعها . وأضحك الله ثغر الثغر بما أطابه من أرج الفرج ، وأخمد باشتعال ذلك الوهج ما أكرب قلوب المؤمنين من الوهج ، وصان مهج أهل التوحيد بما أرداه لأهل التثليث من المهج .

فصــــل

تقدم المشركون بالأبراج إلى البلد فقربوا الأسوار من أسواره . وألصقوا منها جدرانا بجداره ، وأشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره . فأظهر الله ما كان خفياً من سر أقداره ، وأحرق عمل أهل النار بناره .

وكان أصحابنا لما عاينوا مادهمهم وهمهم ، وخصهم من الخطب وعمهم ، نصبوا مجانيق بازاء الأبراج ، وصدعوها بها صدع الزجاج . ورموها منها بقدور النفط فاشتعلت رءوسها وشابت وشبّت ، ومشت النار فى أطرافها وأعطافها ودبت ، وأرسل الله فى تلك الساعة بعذابها ريحاً بها هبت ، فأمست أجنحتها قد حُصت ، وأسْنمتها قد جُبّت ، وسقط فى أيديها ووجبت جنوبها(١) ؛ وكبت على وجوهها فى النار وكُبّت ، فما أفصح ألسنة النيران وقد نادت بنصرنا ولبت ، وألفت منها قلوبنا بما ألفت من نقع غليلها وأحبت ، والحمد لله على ألطافه التى ما غابت ولا أغبت .

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الأحوال التى جرت بحقها وحقيقتها ، وحليتها وجليتها . فإنه يشتمل كل فصل على تمام ما أغفل فى غيره ، ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره .

---

(١) وجبت جنوبها : أى صارت كالإبل إذا سقطت على الأرض بعد نحرها (غريب القرآن لابن الخطيب ط. المطبعة المصرية) .

ذكر تاريخ وصول الأكابر فى هذه السنة

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشر ربيع الآخر ، قدم (عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى) بمن استنهضه من العساكر . وكان أول من استقبله حين ظهرت راياته من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه (الملك المظفر تقى الدين) بتل كيسان ؛ ولقيه بعده (الملك الظافرخضر) و(المعز إسحاق)[1] ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له ، وتعمدا إعظامه وإجلاله . ثم تلقاه الملك الأفضل أدنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما ، إعفاء له من النزول ، وتلاقيا بالإقبال والقبول .

ثم وصل إليه السلطان بالوجه الضاحك ، واللطف المتدارك . واعتنقا على ظهر ، واتفقا على بشر ونشر . وكان (الملك العادل) تأخر فلحق وأظهر من أرج سجاياه مابنشره عبق ، وبحبه علق ،وسار مع السلطان بأطلابه وأبطاله ؛ وحماته ورجاله ؛ حتى وقف قبالة العدو بصفوفه ، ووقف عليهم طول الرعب بطول وقوفه .

ثم رده السلطان إلى خيمته على رسم الضيافة ، وترفرفت ألطافه عليه بالإطافة . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس ، وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا أطلس . وأكرمه السلطان بإجلاسه إلى جنبه على الطراحة (٢) . وآنسه ببشر السماحة والسجاحة . ووقف الأمراء والخواص والأولياء صفين . وأنشد الشعراء من المدح والنسيب (٣) صنفين .

ثم أحضرت المائدة فماد نحوها الحضور ، وعقد الحبا لهم الحبور .

---

(١) المعز اسحاق : هو فتح الدين ، اسحاق بن صلاح الدين الأيوبى ، ولد سنة ٥٧٠هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٦٢ ط . دار الكتب) .

(٢) الطراحة : مرتبة تفرش للسلطان إذا أراد الجلوس (الروضتين ج ٢ : ٥٣٩ تحقيق د . محمد حلمى أحمد و)

(٣) النسيب : رقيق الشعر فى النساء .

ثم رفع الخوان وارتفع الإخوان ،وحسن الخبر والعيان ، وخلا المكان وحلا الإمكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب ؛ وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض ، ولوجه العذر عارض . ونزل فى خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية ، وملأ تلك المروج بعساكره الملية .

ثم وصل من بعده ابن أخيه (معز الدين سنْجَرْ شاه بن غازى بن مودود(١)) صاحب الجزيرة ؛ بعساكره الكثيفة الكثيرة ؛ وذلك يوم الأربعاء سابع جمادى الأولى ، بالأيد الأطول واليد الطولى . فالتقاه السلطان وأخوه وأولاده على قاعدة عمه ، وأجراه فى الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حُكمه ، لكنه يقصر فى القاعدة عن رسمه . ونزل بخيمته فى فناء السرادق العمادى ، وقد استكثر من العسكر الجهادى . فكأن ذلك المرج بحر أمواجه الخيم والمضارب ، أوسماء كواكبها ما أشرعته من صعادها الكتائب. أوغيل آساده فى آجام القنا الفوارس ، أوغدير من السوابغ حبابُه الترائك والقوانس . أوسحاب بروقه الصوارم الرقاق ، أووهاد اكامها الصواهل العتاق .

ثم وصل (الملك السعيد علاء الدين خُرم شاه) (٢) ابن صاحب الموصل (عز الدين مسعود بن مودود)(٣) وهو كوالده مسعود مودود ، وفى شهامته وصرامته مشكور محمود . وذلك تاسع جمادى الأولى يوم الجمعة ؛ بالمحاسن المتنوعة ، والمفاخر الأصلية المتفرعة ، والصنائع المبدعة ، والبدائع المُصنعة

---

(١) معز الدين سنجر شاه : هو ابن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر ، صاحب جزيرة ابن عمر ، تولى الملك سنة ٥٧٦ هـ ، كان ظالماً قبيح السيرة ، لا يمتنع عن قبيح يفعله ، من قتل وقطع للألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى ، وتعدى ظلمه إلى أولاده وحريمه ، قتله ابنه غازى سنة ٦٠٥ هـ إلا أن غازى قتل وخلفه أخوه معز الدين محمود (أبو الفداء ج ٣ : ١١١ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) علاء الدين خرم شاه : حبسه أخوه أرسلان شاه المتوفى ٦٠٧ هـ ، حتى مات فى حبسه (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٠٠ ط . دار الكتب) .

(٣) عز الدين مسعود : هو السلطان مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر بن أخى نور الدين محمود ، توفى سنة ٥٨٩ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٣٣ دار الكتب) .

وجيشه للقوة ضابط ، وجأشه على الحمية رابط ، وبأسه ليد الأيد باسط ، وجنانه على الكفر ساخط .

وهو شاب أول ما بقل خطه ، وابتهج بكماله رهطه . وكان أبوه قد عزم على الوصول بنفسه ، واذهاب وحشة الخطب الملم بأنسه . ثم رأى المصلحة فى الإقامة وتقديم ولده المشكور المشهور الشهامة ، فأنهض العسكر المجر معه ، ثم أتبعه بمن حشده وجمعه . فورد ورود السحاب الكنْهَور(١) ، ونور المطالع بسنى السنَوَّر (٢) ، وأطلع بطلوعه على معنى البأس المصور .

واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه ، وحافظ من الكرامة على توفير سهمه . وأنزله فى سرادقه وأضافه . وأهدى له خيله وألطافه . وأمر بإنزاله فى الميمنة بين ولديه الملكين الأفضل والظاهر ، وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر .

ولم يبق فى أهل السلطان إلا من اقتدى به فى الاحتفال بقدوم هؤلاء ، واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة فى الولاء . والمسارعة إلى الضيافة والإهداء ، والإعادة إلى المكارمة بعد الإبداء .

---

(١) الكنهور : من السحاب ، قطع كالجبال .

(٢) السنور : جملة السلاح ، لبوس من قد كالدرع ، كل سلاح من حديد .

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل فى شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذى نصر الدين بأهله ، وعجل بانصاره جمع شمله ، ووفق أسد عرين الملك أن يحمى حوزة الإسلام بشبله . وللمجلس فى طوله اليد الطولى ، والمنة الثانية التى أربت على الأولى . حيث حث همته العلية ، وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضية ،وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منة ، وتعجل من وفوده أقوى مُنة(١) وأوقى جنة . فلقد ورد إلى الساحل بحراً ، وطلع فى ليل القساطل بدراً ، وأسفر لمرتقبى صباح النصر فجراً ، وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشراً ، وملأ صدر الإسلام أمناً وقلب الكفر ذعرا .

ثم وصل (زين الدين يوسف بن زين الدين على كوجك) صاحب اربل ، يوم الأربعاء فى العشر الأخر من جمادى الأول ، ذو السماح المؤمل والمجد المؤثل ، بجيش كالسحاب المسبل . فدرت أخلاف(٢) النصر بجفول ذلك الجحفل(٣) . وورد بكل ورد هنى ، وجد سنى . وقدم بكل مقدام ، وزأر خيس(٤) الجيش بكل ضرغام ، وزأر بكل ُهمام بالمنون همّام . ووصل بكل واصل لسبب النصر ، قاطع دابر الكفر . ووفد بكل وافد باليمن الوافى ، والنجح الكافى ، والعز الصافى ، والعزم الشافى . وطلع بكل طالع بالسنى ، جامع للمنى ، فارع بالغنى ، فارك للخنى ، سافك دم الشرك بالظبا والقنا . وكان هذا أول يوم لقائه للسلطان ، وأحسن إليه بالإكرام وزاد فى الإحسان . وكان يجمع بين الحماسة والسماحة ، والبشاشة

---

(١) قوة .

(٢) أخلاف : جمع خلف ، وهو حلمة ضرع الناقة والمقصود ، نتائج الخير التى أتاحها النصر .

(٣) فى ب الحجفل والتصحيح من ل ومن أ (٢٢٨ ى) .

(٤) خيس : غابة الأسد .

والرجاحة (١) . والتودد إلى الناس ، والتشدد بالباس . والتواضع مع الكرم، ودنو الود مع علو الهمم . ماله مبذول ،ونواله مأمول ،وسيفه على الكفر مسلول وأمره بالطاعة فى رعيته ومن فى جملته مقبول . وهو مرجو مخشى ، وكريم مغشى . ومهيب مرجو ، ومحسن بسنى الحمد مجلو .وكان معه خلق كثير ، فى سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير . وأنزل بقرب أخيه مظفرالدين فى الميسرة ، وتمكن الرعب بما تم من الجمع فى قلوب الكفرة .

(١) فى ب الرجاجة والتصحيح من ل .

ذكر وصول الأسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير أسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميرة ، والعدد الكثيرة . فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الأولى ؛ ظهر الأسطول ، وتم بظهوره النصر المأمول . فركبالسلطان فى جحافله ، وسدد سهام الردى إلى العدو ومقاتله . وأحدق به حول خنادقه ، ليوسع عليه الهلاك فى مضايقه . وليشغل الفرنج عن قتال الأسطول ، ويسهل عليه بتشاغلهم طريق الوصول . فعمر الفرنج أسطولا ، وصف شوانيه على البحر عرضاً وطولا . وقدر أنه يلاقى الأسطول المنصور ، ويحظر (١) بسد الطرق عليه وصدها العبور . فجاءت مراكبنا ونطحت مراكبهم وطحنتها ، وأوهت متنها (٢) وأوهنتها . وأخذنا لهم مركباً ، وأخذوا لنا مركباً ، وكان تقصير الرؤساء فى حفظه لأخذه سبباً . واتصل الحرب فى البر إلى حين غروب الشمس ، وعاد المسلمون بجبور القلب وسرور النفس . وقتل من الفرنج عدة وافية ، وكلاءة الله لنا ولأصحابنا واقية .

---

(١) فى ب يخطر والتصحيح من ل ومن ا (٢٢٩ ى).

(٢) فى ب وا (٢٢٩ ى) والذى يتفق مع السياق والمعنى التصحيح المذكور من ل .

ووصفت هذه الحالة فى مكاتبة كتبتها لتعرف منها الصورة
وتكشف القضية المستورة وهى

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهنى ، وهناه من النجح السنى ، وأجنى المسلمين من ثمر الظفر الجنى .

وذلك بوصول الأسطول الثانى المصرى المنصور ؛ ظهر يوم الخميس متظاهراً بإمداد الظهور ، متوافراً بوفود الوفور ، ودخوله سالما غانماً إلى ثغرعكاء المحروس المعمور ، فأثرى(1) البلد بعد إنفاضه ، واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه . واستجد جدة وافية ، وعصمة واقية ، وذخيرة كافية .

وكان الفرنج عند وصول أسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها ،وأبرزت مناكبها ، وحمت بالرجال والعدد جوانبها ، وسنمت غواربها ، ورفعت هضابها وهواضبها ، وسحبت على ثبج البحر سحائبها ، وأدبت إلى عقبان أساطيلنا المحلقة بعقابها ثعابينها وعقاربها ، وظنت أنها تستطيل على رواسى أساطيلنا بسواريها ، وأنها تواجه عرائسها المجلوة بجور جواريها . فلما جاء الحق زهق الباطل،وصال الواصل ، وحاص العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب ، وحطت تلك المناكب بما أحاط بها من النواكب.

وخرج الأسطول الأول من الثغر مستبشراً بدخول الثانى ، واجتمع شمل الشوانى بالشوانى . وتفرقت سفن العدو شذر مذر ، وعذر حين ذعر فحذر. وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها ، ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتها ، وكانت الفرنج حملت فيها تجائر وذخائر تطالب ربحها فخسرتها .

---

(1) فى ب فأثر والتصحيح من ل ومن أ (٢٢٩ ى).

فصل آخر

وصل الأسطول ظهر يوم الخميس ظاهراً خميسه ، ثائراً بالأسد عريسه . فى شوان للعدو شوائن ، وشلنديات (١) لشله وفله ضوامن . وحراريق لأهل النار بنارها محرقة ، وعقبان مراكب فى مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسوارى هواضب كرواسى هضاب ، وسحاب بوائق كبوارق سحاب .

من كل مركب للنصر مركب ، ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو قاطعه ، وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة . وتلعة فى ذروة العزة تليعة ، وذروة فى مرقى الهدى راقية منيعة . وجاءت فى البحر أمواجاً فى الأمواج ، ودخلت إلى الثغر أفواجا بعد الأفواج .

وكان العدو قد أبرز أباطيله ، وجهز أساطيله . وشب عواديه ودواعيه ، وأدب عقاربه وأفاعيه . وأسمى مناكب مراكبه ، وجد فى إمهاء غروبه وتسنيم غواربه .

ولما وصل الأسطول طال وصال ، ولاح للعدو صده بحيلة من حال فحال ، وامتنع مراده واستحال. وأخذ الأسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت أسبابها ، وقصمت من عبدة الصليب أصلا بها ، وخيبت حسابها .

(١) شلنديات : يفهم من السياق أنها نوع من السفن الكبيرة .

فصل

وصل الأسطول إلى البلد، مستطيلا بالجلاد والجلد . وأثرى به الثغر بعد الانفاض ، واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . ودخل إليه ما خرج عن حد الحصر، من ذخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت فى الآفاق رياضا، والمراكب الإسلامية انقضت فقضت للمسلمين أغراضا . ووافت ووفت فاعادت جواهرها مراكب العدوّ أعراضاً .

وجاءت سواريها كالرواسى ، وجُواريها محكمة المراسى . ومن شأن شوانيها شن الغارات على الشناة ، ومن عادة شلنديّاتها شل أندية العداة . ومن شيمة حراريقها (١) شيم بوارق البوائق لإحراق أهل النار فى الماء ، ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء الإرداء . من كل جبل يمر مرّ السحاب ، وضامر يشد شد العراب ، وعقاب محلق على الشرك فى مطار العقاب ، وغراب ناعب فى أعداء الله ببيْن الاحباب ، وهضبة موفية على الهضاب ، وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب .

وما أحسنها وقد زفت عرائس ، وجليت أوانس ، وطلعت بأهل الإيمان بواشر ، وعلى أهل الكفر عوابس ، وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس . وخلا وجه البحر من سفن الضلال ، وتقلص مالها من الظلال .

ولما شوهد الأسطول ساطيا ؛ وجيد النصر منه عاطياً ؛ وأخذ البحر من الأعداء بحقه ؛ وأشرق سنى النجح فى أفقه ؛ ركب العسكر المنصور للقتال وأخذ أهبة النزال ، وزحف الرجال إلى الرجال ، والتقى الأبطال بالأبطال ، وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال . واحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق ، وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق .

وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح ، وفكهم القتل والجراح . وأقوى الأقوى من الثبات ، وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات ، وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات ، وأدرك المشركين ما فاتهم من الآفات .

---

(١) حراريق : السفن الكبيرة فيها مرامى نيران لرمى العدو .

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج. وخطب فى تلك المروج بمروجه الخطب المريج (١) وأنه وصل بجمعه إلى مضايق صعب عليه منها العبور ، وعمهم فى تهضاتهم العثور . فقيل إنهم أقاموا فى قفار ومواضع شهراً ، عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضراً . وكان التركمان الأوجية(٢) على طريقهم يمنعون بغربهم من تشريقهم . فاضطروا إلى المقام بغير زاد ، وهم فى جهد وضر واجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها ، ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها .

فترجلت منهم ألوف ، ورغمت أنوف . وكان ذلك فى البرد الشديد ، وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا ، وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواباً لحمل الأثقال ، ونقل عدد الرجال . فدفنوا وأحرقوا منها ، وتركوها وسلوا عنها ، وكان ذلك من الله لطفاً ، وأمست قوتهم ضعفاً .

وكانوا فى خلق لايعد ، وجمع لايحد . فما أثر فيهم ذلك النصب ، ولاصدهم عن مقصدهم ذلك التعب. ومازالوا يسيرون والأوجية تبدى إليهم للوبال فى أوجها أوجها ، والافرنجية لاتنتهى حتى تبلغ إلى مالها من منتهى. حتى بلغوا إلى بلاد (قليج أرسلان بن مسعود) ومسلكها دونهم غير مصلود ولامسدود . وقليج أرسلان محكوم عليه من ولده (قطب الدين ملكشاه) (٣)

---

(١) الملتبس : المختبط .

(٢) تركان الأوجية : أو الأوج : صنف من الأتراك الخزلجية فيما وراء سيحون ، يسكنون قرية صغيرة (ياقوت ج ٣ : ٧٦ ط. ب) .

(٣) قطب الدين ملكشاه ؛ هو ابن قليج ارسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش السلجوقى ، كان مقيما بسيواس ، وحينما أصيب أبوه بالفالج تقدم إلى قونية ، وأخرج له أبوه عسكره فكسرهم وبدد شملهم ثم نقل أباه مكرهاً إلى قيسارية ، ووقع له معه أمور أخرى ، وقد عهد أبوه إلى أخيه غياث الدين بالملك دونه (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٨ ط . دار الكتب) .

وهو يدبر أمره ويتولاه ، ويسومه الإكراه . فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم ، وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثم اندفع من بين أيديهم وتعدى عن جانب تعديهم .

ودخلوا قونية (١) دار ملك المسعودية . واعتصم قليج أرسلان بقلعتها المحمية ، وتراسل هو وملك الألمان واتفقا فى الباطن على ماكان بينهما من المواثيق والأيمان . وحمل ملك الألمان له وفراً وافراً ، وأشبه المسلم بالكف عن الكافر كافراً .

ووافقه على العبور إلى الأقاليم الشامية ، والبلاد الإسلامية . وعلى أنه يسير فى بلده إلى بلد ابن لاون (٢) ، وأعطاه عشرين مقدماً من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى المأمن رهائن . وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه ، وأن يعاوضوهم من الخيل والعدة بما يرومونه . وأقام لهم الأسواق ، وعرض عليهم الأمتعة والأعلاق . فساروا فى رفه ورفق ، وتقو بلا توق .

فلما وصل الملعون إلى بلاد الأرمن غدر بالرهائن ، وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بأن التركمان سرقوا منهم فى طريقه ، ونكث جميع مواثيقة . ووصل (ليفون بن اسطفانة بن لاون) مقدم الأرمن إلى خدمته ، ودخل فى طاعته ، وكان بمفرده خالياً من عسكره بمجرده . وذلك فى طرسوس (٣) فتمكثوا بها ليربحوا بها النفوس .

وقيل عنّ لكلب الألمان أن يسبح فى النهر ، ويميط عنه ما عراه من الوضر والضر . وكان شيخاً مسناً قد عاد لكبر سنه شناً (٤) . وحسب أنه إذا

---

(١) قونية : مدينة كانت من أعظم مدن الإسلام (بآسيا الصغرى) (ياقوت ج ١٦ : ٤١٥ ط . ب) .

(٢) ابن لاون : هو ليون الثانى صاحب أرميلية (مفرج الكروب ج ٢ : ١٠٠ تحقيق د . الشيال) .

(٣) طرسوس : احدى مدن آسيا الصغرى وكانت ثغراً على ساحل البحر الأبيض المتوسط (ياقوت ج ١٣ : ٢٨ - ٢٩ ط . ب) .

(٤) شنا ؛ قديما . يقال شنت القربة أى خلقت ويبست .

سبح سحب ذيل الاستراحة ، فكان موته فى تلك الراحة وهلكه فى تلك السباحة . فإنه عام فى الماء البارد ، وتورط منه فى أصعب الموارد (١) . وخرج وبقى مريضا إلى أن خرج من ثوب البقاء ، وتحول إلى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية ، وحملوه إلى نار الله الحامية . وسمعت نصرانياً يقول فى معناه : « كنت معه لما سلك فهلك ، وأعجله مالك النار عما ملك . وذلك أن النهر ماكان فيه إلا عبر واحد ، والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الألمان : هل تعرفون موضعاً يمكن فيه العبور ، ويؤمن فيه العثور . فقال له واحد : ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ، ولايعبر فيها إلا واحد بعد واحد إذا تثبت واستظهر » . فبدر إلى تلك المخاضة ، ذات الجرية الفياضة . ودخل الماء فطغى على ذلك النارى الطاغى ، وأعجل ذلك الباغى عن المباغى . ورماه فى جريانه إلى شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه ، وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه . فتعبوا فى إخراجه ، وأيسوا من علاجه . ومات عدو الله شر ميتة ، وبلى شمله بتشتيته ، وحبله بتبتيته .

وخلفه ولده على خلف من أصحابه وأجناده (٢) ، لمكان الولد الذى خلفه فى بلاده . وقيل إنهم سلقوا ذلك الهالك فى قدر حتى تخلص عظمه ، وتهرى لحمه . ثم جمعوا فى كيس عظامه ، وراموا بذلك إكرامه وإعظامه . ليحملوه إلى كنيستهم بالقدس قمامة ، ويدفنوه على ماكان أوصى به ورامه .

ولما عرف ابن لاون بهلاكه ، وسكون حراكه ؛ وماجرى من الإختلال والاختلاف بموته ؛ وأنه لاتلافى لما فرط من تلفه وفوته ؛ فارقهم إلى بعض قلاعه ، واتصل الضر بهم لانقطاعه .

ووصل كتاب من الكاياغيكوس صاحب قلعة الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد ، ويقول ويعدد ، ويدهده ويهدد . ويرى أنه ناصح ، وللقصة شارح ، وأن الأمر واضح ، وأن الخطب فظيع فاضح . وأن هذا

---

(١) فى ب الموارخ والتصحيح من ل ومن ا (٢٣٣ ى) .

(٢) فى ب أحتاده والتصحيح من ل .

الملعون أول ما خرج من بلده ؛ أوصى فيه إلى ولده . ثم جاء إلى بلد المنكر (١) فدخله غصباً ، وأوسعه نهباً . حتى أذعن له وانقاد ، وبلغ بطاعته المراد وأنه أخذ من ماله ورجاله ما اختار ، وتزود من عنده وامتار .

ثم وطىء أرض ملك الروم وداسها ، وتوسط ديارها وجاسها ، وفتح بلادها ، وملك قيادها . وأحوج ملك الروم إلى طاعته ، وألزمه بمادخل فى استطاعته . وأخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين ، ومن الثياب الطلس المعدنية ما بلغ الألوف وتجاوز عن المئين . وأخذ على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه ، ومعروفى كبرائه . وأخذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر فى التعدية من مراكبه سحباً . وأنه لما عبر وفرغ من الخروج ، تلقاه بالخيل والدواب والأبقار والأغنام (تركمان الأوج) . ثم وقع بين التركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم فى طريقهم سائرون ، وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من (قونية) فاعترضه قطب الدين ولد قليج أرسلان ، والتقى الأقران بالأقران ، وهزمه ملك الألمان .

ولما أشرف على قونية خرج إليه جموعها ، وطالت إليه بالحرب بوعها (٢) ، ثم اندفعت حيث ضم على الروع روعها ، وأنه هجم على قونية عنوة ، ونال منها حظوة . وأقام خمسة أيام حتى استقرت بينه وبين قليج أرسلان قاعدة أكيدة ، وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة . وأخذ منه رهائن عشرين ، من أكابر دولته المتميزين .

وقدم كتابه إلى ابن لاون بالجواز فى بلاده ، فتلقاه بما أعده لإرفاده . ونزل حين وصوله إلى طرسوس على بعض الأنهار . ونام ساعة بعد تناول الطعام ، ثم انتبه وتشوق إلى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضاً ، وتشكى أياما قلائل مضضاً ، ثم قضى وانقرض أربه وانقضى . وخلفه ولده بعده واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصداً للقاء أبيه ،

---

(١) بلدالمنكر : يقصد بلاد هنغاريا أوالمجر الحالية (مفرج الكروب ج ٢ : ٣٢٠ تحقيق الشيال) .

(٢) البوع : الباع والمقصود بأنه طالت إليه بالحرب أياديها .

فلما عرف موته وجلوس ولده ، اضرب عن تلقيه . وعرض عسكره فى اثنين وأربعين ألف مجفجف (١) ، من كل سرحان أهرت (٢) وذئب أغضف (٣) . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض ، وغص بهم طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس ، وهجروا الثياب ، ولزموا المصاب ، وداوموا الاكتئاب . وهم صابرون على الشقاء والتعب ، لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار ، اضطربت الديار ، وارتاعت الأنجاد والأغوار . وقالوا : «هذا جانب لا يطاق ، وأى جانب قصده عنه لا يعاق . ولا شك أنه يتوسط بلاد الشام ، ويثلم ثغور الإسلام ، ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام » .

وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد ، وصدهم عن القصد . ثم ثبت على رأى الثبات ، وتنظر الأوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم ، وأنه يعود كل منهم إلى مكانه آخذاً بحكم الحازم .

فأول من سار (ناصر الدين محمد) (٤) ــ ولد الملك المظفر صاحب

---

(١) مجفجف : أى لابس التجفاف وهو آلة حربية يتقى بها كالدرع ، وتستعمل للإنسان والحيوان .

(٢) السرحان : الأسد . أهرت : واسع الشدقين .

(٣) أغضف : مسترخى الأذن .

(٤) ناصر الدين محمد : هو الملك المنصور ، ابن المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ، كان شجاعاً عالما يحب العلماء ، وكان فى خدمته منهم قرابة ٢٠٠ عالم ، وله مصنفات مثل : المضمار فى التاريخ ، وطبقات الشعراء ، وكان معنياً بعمارة بلده والنظر فى مصالحه ، وكان له من البلاد حماة والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم كما فتح بارين ، توفى بقلعة حماة سنة ٦١٧ هـ ــ وخلفه ابنه الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان ، (جاء فى النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٥٠ ، أن وفاته كانت سنة ٦١٨ هـ) . (أبو الفداء ج ٣ : ١٢٦ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

منبج (١) ، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج (٢). ثم (عز الدين بن المقدم) الباسل المعلم . ثم (مجدالدين بهرامشاه)(٣)صاحب بعلبك ، ليجمع ويأخذ على العدو المسلك . ثم (سابق الدين عثمان) — صاحب شيزر ، الليث الهمام القسور . ثم (الياروقية) أسد الهياج ، ونجوم ليل العجاج .

ثم رحل (الملك الأفضل) وقد عرض له ألم ، ثم (بدر الدين) والى دمشق وقد ألم به سقم ، ثم سار (الملك الظاهر صاحب حلب) — لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر ، ولخوف الناس فيه أنهم على الخطر . حتى غلت الأسعار واستعرت الغلة ، وخلت الأماكن وتمكنت الخلة .

ثم رحل (الملك المظفر تقى الدين) لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة ، ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفلة ، وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة .

ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما ، ولحفظ النوب فى اليزك مستديما . فانتقل الملك العادل إليها ، وجاء إلى منزلة الملك المظفر ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام ، واعتز الصادقون وصدق الاعتزام . ثم مرض أكثر العسكر وخام للوخم ، وألم بالبعد للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافية ، مستعقباً لألطاف الله الواقية الوافية . ووقع المرض فى الفرنج وكان المبيد (٤) المبير ، والمدنى لأصحاب السعير . السعير . وعم فيهم الموت والوبا ، وكثر عن نبوأتهم النبا . وتقدم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية وهدم سور صيداء وجبيل ونقل أهلهما إلى بيروت .

---

(١) منبج : بلد قديم بين الفرات وحلب كان حاضرة العواصم أيام الرشيد (ياقوت ج ٨ : ١٦٩ — ١٧١ ط.ب) .

(٢) يرهج : يهيج بعضهم على بعض .

(٣) مجد الدين بهرامشاه : هو ابن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، كان صلاح الدين أعطاه بعلبك عند وفاة أبيه سنة ٥٧٨ هـ فأقام فيها ٥٠ سنة حتى حصره الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب وأخرجه منها ، وساعده عليه ابن عمه أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، فانتقل الى الشام وسكنها حتى قتله بعض مماليكه غيلة ، كان فاضلا شاعراً فصيحاً كاتبا ، وله ديوان شعر كبير (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٧٦ ط . دار الكتب) .

(٤) فى ب المبيد والتصحيح من ل ومن أ (٢٣٥ ى).

وأما ولد ملك الألمان فانتحس ، ومرض أياما فى بلد الأرمن واحتبس. وهلك أصحابه جوعاً ، ومنهم من عزم رجوعاً . ووقع الموت فى خيلهم ، فآذن ذلهم بقلوص ذيلهم . وقدم الملك لمرضه ؛ والتياث جوهره بعرضه ؛ جموعه قدامه ، وساروا أمامه . وخرجوا لكثرتهم فى ثلاث نوب ، فى بيض وسُمر وبيْض ويلب . ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير ، غير عارفين بطريق ولامتحفظين فى مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم ، ويتألفون عن مسالكهم ويتلفونهم .

ووصلوا إلى انطاكية ووصل إليها الملك،بعد أن ضاق به ويجمعه إليها المسلك . وضاق به الابرنس صاحب أنطاكية ذرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعماً ولامرعى . وطلب منه القلعة فأخلاها له ونقل إليها ماله وأثقاله . وسأله أن يجعل ط يقه على حلب فخاف ، وأبدى له الخلاف . وقبل وصوله إلى أنطاكية فلت جموعه وجنوده ، وبليت بحشد التركمان حشوده .

واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس،فلقيت البوس والباس . وخرج رجالها عليهم (١) على قلتها ، وصدمتهم ببسالتها . وأسرت منهم زائداً على مائتين ، وطمعت فيما وراءهم من الفئتين . وقيل : إنهم حسبوا أن بغراس باقية بحالها مع الداوية ، فجاءوا إليها سحراً بأحمالهم وأموالهم السنية . (فلم يشعروا إلا بالبغال على الباب واقفة) (٢) ، والجنى دان يرقب أن يكون له أيد قاطفة . فخرج إليها وتسلمها بغير طعن ولاضرب ، وتخلى عنها أصحابها لما عرفوا الحال . ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالى من ذلك اليوم ، من مال القوم . ثم أنكر حتى لايطالب بشىء منه ، وغفلت الأيام عنه .

---

(١) فى أ (٢٣٦ ش) اليهم والمذكور فى ب ول .

(٢) فى أ (٢٣٦ ش) فلم يشعروا إلا بالبغال عليها واقفة .وماذكر فى ب ول .

وذكر (الأمير علم الدين سليمان بن جندر) فى كتابه ؛ أنه أنهض جماعة من أصحاب أمراء حلب وأصحابه ؛ ليقتفوا آثارهم ، ويكشفوا أخبارهم . فوقعوا على خلق عظيم منهم ، فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاض (١) البزاة على الحجل (٢) ، وزأروا فيهم زئير الأسد فى النقاد(٣) وزاروهم بالأجل . وأسر كل واحد من أصحابنا ثلاثة وأربعة ، وتركوهم متمزقة متمزعة . وعادوا بالأسارى إلى حلب وباعوهم فى الأسواق ، وامتلأت بالأسلاب منهم والأعلاق . فطابت قلوب الرعايا، وأنست من الله بما ظهر من ألطافه الخفايا . وطمع فيهم أهل القرى ، والتقطوهم من الوهاد والذرا . وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم الابرنس إلى أنطاكية ، وأراح من آلامها الألمانية . وذابوا فى هذه الطرقات ذوباً ، وصب عليهم العذاب صباً إذا أخذوا صوباً . وهلك بأنطاكية الكند الكبير مقدم العسكر ، وتبعه إلى سقر كبير من ذلك المعشر. وحصل الابرنس بتلك الأموال المجتمعة ؛ والذخائر المودعة ؛ حتى قيل إنه إنما غرب فى الوصول إلى بلده ؛ ليحصل على سبده (٤) ولبده . فأخلى له قلعته ، لينقل إليها خزانته . ففعل وما رجع إليها ، واحتوت يد الابرنس عليها .

ثم ساروا على طريق الساحل ، بالفارس والراجل . وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقية ، وسقتهم كئوس المنية ، وألقتهم على البوس والبلية . فأغذّوا فى السير حتى وصلوا إلى طرابلس وقد نقص نصفهم ، وتم بعواصف البلاء نسفهم ، وبلغ أمدهم وانتهى مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق ، لما لقيت جموعه فى طرقاتها من التفريق . فركب البحر فى عدد يسير لا يزيد على ألف ، برُعب قلب وقصور يد ورغم أنف . واختلط مع الفرنج على عكاء فسقط اسمه ، وسخط حكمه . وهلك بعد قليل ، ولم يحظ بنقع غليل .

وسألم بذكر حالاته فى مواضعها ، وذكر مصارف جماعته ومصارعها.

---

(١) فى ب الانقضاض والتصحيح من ل ومن أ (٢٣٦ ش) .

(٢) الحجل : طائر فى حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين وهو يعيش فى الصرود العالية ويستطاب لحمه .

(٣) النقاد : جمع نقده ، وهو جنس من الغنم صغير الأرجل .

(٤) السبد واللبد : الشعر والصوف والعبارة كناية عن الحصول على كل شىء فيه .

وكتبت إلى الديوان العزيز فصلا
بخبر ملك الألمان عند ارعاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء ، والغمة الغماء ، والنكبة النكباء ، والشدة الدهماء ، والليلة الليلاء . وهى أن ملك الألمان ومعه ملوك الافرنجية وحشودها ، وقوامصها وكنودها ، وأحزاب الشياطين وجنودها ، وألوية اللأواء وبنودها . وصل جارّا على السماء ذيول قتامه ، مجْريا فى الأرض سيول لهامه . ثائراً بأطلابه لطلاب ثاره ، سائرا بخيله ورجله كالسيل إلى قراره .

وأنه فى عصائب صلبان فى عصبيتها متصلبة ، وأتباع شياطين لإرضائها متغضبة(١) ، وأسراب سراحين على سرح الإسلام متوثّبة . وأنه فى مئين من الآلاف الألآف تلمنون ، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائرسوئها رحى الحرب الزبون (٢) . وقد أوقدوا للشر شرارا ، وأضرموا للشرك الداعى إلى النار نارا . فان حسرتهم على (قُمامتهم) دائمة ، وقيامتهم قائمة . والموت يدعوهم إلى المقبرة التى يدّعونها . والآجال تلبيهم لمناياهم التى يدْعونها .

وكان خبر وصوله متداولا على ألسنة الأراجيف ، وتشيّعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الإسلامية للتوجّه إلى بلاد الروم فى الربيع ، ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع . وانتُظر ورود خبر صحيح،ويقين نبأ بأمر صريح . حتى إذا صح الخبر ؛ سار العسكر . ثم انقطعت الأخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع آذار (٣) . ونيسان(٤)وأيّار (٥) .

---

(١) فى ب متغضنه وفى أ (٢٣٨ ى) متعصبة ، والمذكور وهو أنسب السياق من ل .

(٢) الزبون : الشديدة التى يدفع بعضها بعضاً من الكثرة .

(٣) يقابل شهر مارس .

(٤) يقابل شهر أبريل .

(٥) يقابل شهر مايو .

وكانت كتب سلطان الروم قليج أرسلان وأولاده – ورسلهم متواصلة بما ينبىء عن التعاضد ، وينبى أمر الوفاء والوفاق منه على التعاون والتعاقد . وهم بإنهاء ما يصح عندهم واعدون ، ويزعمون أنهم فى رد الواردين وإردائهم مساعدون . فأخلف ذلك الوعد ، وضيع ذلك العهد . ووصلت كتبهم بغتة فى هذا الأوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان .

وقالوا : انهم قد توسطوا بلاد الإسلام،وإنهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بأنهم صالحوهم وصانعوهم ، وأخلوا لهم الطريق ووادعوهم . ووسعوا لهم فى المضايق ، وسعوا فى أمن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباعث فاجىء فاجع لأهل الحمية فى الدين باعث . وناكب لعقود العقول فى تعاظم ضرره ؛ وتفاقم خطره ناكث .

وقد تعيّن الجهاد على كل مسلم ، وما فى الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهمّ الفروض ، والخادم منفرد فى حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه ، وأن الذى يستبعد من النصر القريب يتّسق ويتسع به سلكه ومسلكه – إن شاء الله .

فصل فيه فى جواب أمير

عرفنا خبر العدو المشئوم ، الواصل من جانب الروم . وهذه هدية أهداها الله إلينا،وفضيلة خصنا الله بها . حيث أقامنا فى مقابلة أعدى أعدائه ، وأقدرنا على مقاتلة من نازعه فى كبريائه . وقد ساقهم الموت إلى المقبرة التى يدّعونها ، ولبّتهم المنايا التى يدْعونها ولا يدعونها . ومعاقلنا بحمد الله قوية ، وصوارمنا من دماء أعداء الله رويّة . فيجب أن يكون فى جميع أموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من أسلابهم وأشلائهم اغتباطا .

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف أن العدو الألمانى المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصرة الإسلام من ثمر السعادة مجنى . وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده ، وأوان بذل وسعه وجده واجتهاده . فإنه محضر لا يغيب عنه إلاّ من ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفى بعهد الله فيه من سبق له معه فى السعادة ميثاق . وإنها لغنيمة أوفدها الله علينا ، وهدية أهداها الله إلينا ، وفضيلة خصّنا الله بها ، وأسعدنا بسببها . بل هى بلية جلا وجه النعمة فيها ، بل قضية وفى الله فى النجح بموعود توافيها . بل ملمّة اختارنا الله لدفعها ، وطاغية استدعى أولياءه لقمعها ، ونائرة كلفنا الله بإطفاء جمرها وارداء جمعها .

فلينهض نهوض الكريم إلى مساعدة الكرام ، وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام ، وليثب وثوب الأسد على الفريسة ، وليتنخ للإسلام انتخاء ذوى الأنفس الأبية والهمم العلية النفيسة .

وليكن أول سابق فى مضمار الجد ، وأسعد طالع فى أفق الجد . فإن الإسلام فى انتظاره ، والمطالع مستشرفة إلى إشراق أنواره . لا زالت الأقدار جارية فى إسعاد الدين والدولة بإقداره .

فصل من كتاب

قد أحاط العلم بما عرا من الملم ، وعرض من الخطب المدلهم . ووصل من العدوّ الثائر(١) ، ونزل من النازلة التي هى أمّ النوازل ، والدائرة التي هى أم الدوائر . وقد آن للإسلام أن يُسْلِم ، وللإيمان أن يُعْدم ، وللتثليث أن يُعْلن ، وللتوحيد أن يُكتَم ، وللكفر أن يقدم ، وللهدى أن يحجم .

فقد قذف البحر من الفرنج بزبده ، والبر أتى أتيّه من كل بلد للكفر بسبده ولبده ، ووصل الألمانى — المخذول — بعدده وعُدده . وهذا خطب قد دهم ، وعدو قد هجم ، وشر قد نجم . وجمر داهية قد وقد ، وجمع طاغية قد وفد . فى جيوش جائشة ، وجموع طائشة . وجنود محشورة ، وبنود منشورة ، وخيول مُجفجِفة ، وسيول مُجْحفة .

وهذا أوان تحرك ذوى الحمية ، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية . فإن القوم فى كثرة ، ولا يقاتلون إلاّ بالكثرة . وهم مغترون بعلوهم ، معتزون بعتوهم . مستنون فى طريق العثرة . والسيل إذا وصل إلى الجبل الراسى وقف ، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف . والمجلس أوْلى منْ تولىّ تفريج هذه الغمة ، وكشف هذه الملمة . حتى تُخلف أمانى الألمانى ، وتُبطش أيْمان الايمانى ، وتخذل أنصار النصرانى ، ونجنى وتبزّ رؤوس الجنوى (٢) والبيزانىّ (٣) .

فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين ؛ وأين المهتدون فى نهج الرشاد المتبين ؛ وأين المسلمون ؟ — وحاشا أن يكونوا للاسلام مُسلمين ! وأين المقدمون فى الدين ؟ — ومعاذ الله أن لايكونوا فى نصرته على الموت مقدمين ! ولولا التقيّد بهذا العدو الرابض ؛ لأطلقت أعنّة النهضة إلى العدْو الناهض . ولا بد من لقائه قبل تلفق الجمْعيْن ، وإراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

---

(١) فى ب السائر والتصحيح من ل .

(٢) الجنوى : أى من أهل جنوا بإيطاليا .

(٣) البيزانى : أى من أهل بيزا بإيطاليا .

فصل فيه

قد سد طريق القلق فيلقه الطارق ، وزحف إلى الحق الثابت باطله الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب[1] ، وثار لثار الصليب السليب . وقد وقد جمر جمعه ، ورتق فتق الصبح رقع نقعه . وما فض الفضاء ختام قتامه ، حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه ، والرجاء محقق أن الألماني مخفق بإلمامه ، والإسلام مشفق من إسلامه ، والدين موفق بنصرة إمامه ، وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وأمامه ، والله الكافل بإعلاء أعلامه ، وإحكام أحكامه .

---

(١) الوجيب : الذى يخفق القلب ويجعله يضطرب .

كان الفرنج لما صحّ عندهم وصول ملك الألمان إلى البلاد ، وأنه ملأ أحشاء الربا والوهاد بالأحشاد ، قالوا إنه إذا جاء لا يبقى لنا حكما ، والصواب أن نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما ، لا سيما وقد خفت عساكر الإسلام ، وقفل أكثرها إلى الشام . فنحن ننتهز الفرصة ، ونحرز الحصة ، ونهتبل الغرة ، ونهجم عليهم هذه الكرة ، ونذيقهم المرة المُرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم ، ونمت بعز العزائم ، ونفل حدودهم بحدود الصوارم .

فخرجوا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة ، فى حشر يذكر بحشر الساهرة (١) ، واسود بياض النهار من سوادهم ، وتراءت الآجام لنا متوافية بآسادهم . وامتدوا إلى الخيم العادلية ، واشتدوا بما استصحبوه من البلية . فى كل ذئب أمعط (٢) ، وسيد قد تورط . وسرحان سرح ، وافعوان كلح . وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمى أقدم وما أحجم . وسعيرى نارى استعار حدمة (٣) النار . وسقرى قسورى عاد بعادة الاقتسار (٤) ، وباروني طالب للبوار ، واسبتارى راغب فى التبار (٥) . وداوى معضل الداء ، وتركبولى غير تارك للبلاء . وسرجندى(٦) كرار ، وفريرى غير فرار ، وفارس يفرس الرجال ، وراجل يرجل (٧) الفرسان الأبطال . وأزرق

---

(١) الساهرة : يعنى الأرض التى يبدلها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .

(٢) سقط شعره .

(٣) شدة اتقادها .

(٤) القهر

(٥) التبار : الاهلاك .

(٦) سرجندى : يفهم من السياق أن المؤلف استعمل الكلمة الفرنسية sergent للدلالة على معنى جاويش ويقابلها فى اللغة الإنجليزية sergeant

(٧) فى ب وراجزيرجز ، وماذكر من ل ومن أ (٢٤١ ش) .

وَرقة الموت الأحمر ، وأنمشى(١) يمشى واليوم أغبر . وأشقر وهو أشقى ، وأبقع إذا غوى فى الوغى ما ترك ولا أبقى .

ودخلوا الحيم العادلية وتجاوزوها ، وقد كانت أخليت قبل أن يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه ، وعن يمينه ويساره أمراء الميمنة الذين بقربه ؛ مثل : صارم الدين قايماز النجمى وعز الدين جرديك النورى وجماعة من المعروفين بالشهامة ، الموصوفين بالصرامة .

ولبث الملك العادل لبث المخادع المخاتل ، حتى يطّلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الأطماع إلى الانتشار ، وأفضى بهم الاعتزاز إلى الاغترار. فحينئذ بدأ بالحملة ولده الأكبر — شمس الدين مودود ، وهو فى كل وقعة يحضرها جاد مجدود ، فعضده والده ، وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر ، قبل أن يتصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشتهم على الأرض ، وذكّرتِ الواقعة العارضة بوقوعهم فى النار يوم العرض .

وكانوا قد بعدوا أكثر من فرسخ ، وأجفلوا ولم يلتفت أخ إلى أخ . وركبت العادلية أكتافهم ، وفلّوا فيهم أسيافهم . وعقروهم وعرقوهم(٢) ، وبجّوهم (٣) وبعجوهم . وحكموا فى الرقاب الغلاظ منهم الرقاق ، وضربوا ممن أعنقوا إليهم الأعناق . وأشبعوا اللتوت من لحوم الليوث ، وبثوا بعوث المنية فى تلك البعوث ، حتى رتعت فى كلأ الكُلى صوار الصوارم، وأرعد وأبرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم . وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل ، ووصلت بهم إلى النجاح مُنى المناصل .

فلم تترك اللهاذم لها ذماءً ، وغادرها شاّبها بالعراء أشلاءً . ورأيناها كأنها أعجاز نخل خاوية ، وما أحسن أجسام أهل الهاوية وهى هاوية . فكم جثة بلا راس ، وبنية بلا أيساس . ونحْر قد نحر ، ودم قد أنْهر . ويد قد

---

(١) أنمشى : ذو النمش وهو نقط بيض وسود أو بقع فى الجلد تخالف لونه .

(٢) عرقوهم : أى أزالوا لحومهم عن عظامهم والمعنى آت من عرق العظم : أكل ماعليه من لحم ، أخذه كله .

(٣) بجوهم : طعنوهم وشقوهم .

بتّت ، وكبد قد فتّت . وعنق قد قطع ، وأنف قد جدع . وودج[1] وجد مفريّا ، وظهر قد ظهر مبريا . وحلقوم قد حلق ، وغُلصوم [2] قد فرق . وداوى قد دوى ، وبالدم روى . وصليبى كسر صلبه وقُلِب على صدره قلْبه ، وحربى أتاه الحرب ، وغرّب فى نبع عينه النبع والغرَب .

وكان السلطان قد ركب ، وخشى أن جانب الميمنة نكب ، وسير جماعة من كماة المماليك والأمراء على مقدمته ، وانتظر الميسرة لتنهض فى خدمته . فوصل إلى الوقعة سنقر الحلبى فى العصبة العزيزية ، وفاز من الغزوة بالحظوة السنية . وجاء علاء الدين ابن صاحب الموصل فى أثناء المعركة فعرف بركة سرعة تلك الحركة ، لأنه أخذ حظا وافرا ، ولقى من النصرة وجها سافراً . وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجال الميسرة أحد ، ولم تمتد منها إلى إلى قتال الكفرة يد .

ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره ، وعرف لطف الله وبره ونصره . وعاين هنالك مصارع الأعداء ، ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين فى مدى فرسخ على الأرض ، وهم فى تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض . وكل صفّ يزيد على ألف قتيل ، وشاع القتل من الفرنج فى كل قبيل .

ولما وصل السلطان رأى عماد الدين وابن زين الدين وأمراء الميسرة قد عزموا على الدخول إليهم والهجوم عليهم . فإنهم ندموا على ترك الإسراع ، فراموا اتباعهم ليأخذوا بنصيب الفتك بهم والايقاع . فصدهم السلطان وردهم ، وشكر عزمهم وقصدهم . وأشفق من مضرة تشوب ، ومعرة تنوب . فإن الدائرة كانت على العدو ، وقد فاز بالنصر الحلو والصفو المرجو .

وكانت النوبة بلا نائبة ، والغزوة بلا شائبة . وقتل منهم زهاء عشرة آلاف ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة ، فاغتنمها تجارة رابحة

---

(١) ودج : عرق الأخدع الذى يقطعه الذابح فلا يبق معه حياة .

(٢) الغلصوم : هو اللحم بين الرأس والعنق .

وغنيمة ميسرة . ولما عرفت بالواقعة ؛ والنصرة الجامعة ، صدرت ثلاثين أربعين كتابا بالبشارات ، بأبلغ المعانى وأبرع العبارات . وقلت « إذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة ، ولأرى البشائر شائرة » .

وركبت أنا والقاضى بهاء الدين بن شداد ، لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى واجساد . فما أعجل ما سلبو ا وعرّوا ، وفرّوا وفُرّوا . وقد بقرت بطونهم ، وفقئت عيونهم . ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة ، وسمعناها وهى خامدة بالعبرة قائلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ؛ ونفكر فيهم ونعتبر ؛ حتى ارتدى العشاء بالظلام ، فعدنا إلى الخيام . وأخذت الكتب التى نمقتها ، بالبشائر التى حققتها . وجئت وإذا السلطان قد استبطانى ، وعدم إجابتى لما دعانى . فما صبر ولا انتظر ، ولا ت قبنى أن أحضر . ولا أمهل أن أعطى البشارة حقها ، وأجلو بأنوار المعانى أفقها ، وأبلغ بالبلاغة مداها ، وأسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها . وأصف بحدود الأقلام ما صنعته حدود السيوف ، واروج نقودى عند السلطان واغنيه عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفى المطابخ والأبيات ، ومدونى الجرائد بالإثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة فى رقاع خفيفة ، بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها ، وعروها من بزتها ، وشوهوا جمالها ، وأحالوا حالها .

فذهب بها المبشرون ، وسار القاصدون . فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع ، ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع . وأرادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها ، ولو وردتهم بزينة عبارتى وبراعتى زينوها . وفى تلك الحالة التفت السلطان إلى وقال : « اكتب بهذه البشارة إلى بغداد ، وعجل بها الانفاذ » . فقلت على سبيل العتب : « أنتم ما تريدون ما أكتبه ، ولا ترغبون فيما أرتبه وأهذبه » . » فقال : « كأنك كتبت البشائر فهاتها ، حتى تهدى إلى طرقاتها » . فقلت : « ما فات فات ، وهيهات هيهات » وأخرجت له ما بقى من بشارات البلاد التى أنشأتها ، بالألفاظ والمعانى التى ابتدعتها وابتدأتها .

فسارت فسرت البعيد والقريب ، وخصت من جداها بالخصب الجديب ، وصدحت بأسجاعها المنابر وصحت بسماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها العبر ، وبهرت بزبرها الزُبر . وعمرت بمعانيها المغاني ، وعمّت مباهجها مناهج الأقاصي والأداني .

فما أصحها كسرة ، وما أسحّها نصرة ، وما أبينها محجة ، وما أثبتها حجة ، وما أفرجها مسرة ، وما أسرها فرجة ، وما أبرحها بالكفر صرعة ، وما أوضحها للاسلام شرعة .

فصل فى ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الأكابر ؛ ومفارقة عدة كثيرة من العساكر ؛ خرجوا متجاسرين وامتدوا متقاطرين ، وانتشروا متغاورين ، وأغاروا للواء اللأواء ناشرين . ووصلوا فى الميمنة إلى الخيم العادلية فأخليت حتى دخلوها ، وتفرقوا فيها بجموعهم وتخللوها . فركبنا إليهم ، وحملنا عليهم . وتركناهم صرعى بالعراء ، فوضى بالفضاء ، فما بكت عليهم الأرض ولا السماء .

ورويت السيوف من دمائهم ، قبل أن تشبع الوحوش من أشلائهم ، وظهرت لنا نعمة الله فى بلائهم ، وجبى الإسلام بهلاكهم ، وضمتهم أشراك الردى برداء إشراكهم .

وانجلت المعركة عن أكثر من عشرة آلاف قتيل كافر ، وثبت حكم إدالة الإسلام وظهوره بأوضح دليل ظاهر . ولو اتفق خروجهم من مراكزهم بأسرهم ، لكنا فرغنا من شغلهم وأخلينا بالنا بتأييد الله من أمرهم . والآن قمع انطفاء جمرتهم ؛ وصحة أمزجة العزائم بكسرتهم ؛ وتطرق القلة إلى كثرتهم ؛ نرجو من الله أن يسهل أمرهم العسير ، ويهون خطبهم الخطير . وأن ظهورنا عليهم قطع ظهورهم ، وعثور هذه الوقعة بهم حقق عثورهم ، والله تعالى يحقق تبارهم ودحورهم .

فصل فيــه

وصلوا إلى الخيم العادلية فى الميمنة الميمونة ، واشتغلوا باستباحة أحوالها المصونة . فأطلقنا عليهم الأعنّة ، وشرعنا إلى نحورهم الأسنّة ، وبعنا النفوس لنتسلم ثمنها الجنة . وفرشناهم على الأرض ، وأدينا بإردائهم بعض القرض . وانجلت المعركة عن عشرة آلاف قتيل مشرك ، وشملتهم المنون فكأنهم جاءوا على موعد مهلك . وأروينا من دمائهم ظمأ السيوف ، وجعلنا أشلاءهم قرى الوحوش لا الضيوف . وأمن الإسلام بحمد الله من المخوف . وأدرك الله بأخذ أرواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم ، وخمود مصابيحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم ، وأحاطت بهم من حواليهم . ورضتهم بالدبابيس واللتوت[1] ، وتركتهم صرعى بتلك المروت[2] . وساحت بتلك الساحة دأماء الدماء ، واكتسى ع ى العراء بتلك الأشلاء ، وأفضى بذلك الفضاء جمرهم إلى الانطفاء ، وأمرهم إلى الانقضاء . ورتعت ثعالب الرماح من كلأ كلاهم فى المرعى .

وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف (فترى القوم فيها صرْعى[3]) . وطابت من نتن جيفهم [4] ريح النصر ، وحسنت [5] من سماجة مرآهم وجوه الدهر . والآن ألان الله شدة شكّتهم ، وقطّ شوك شوكتهم ، وهبت نكباء نكبتهم .

ونرجو أن يسهل من أمرهم ما تصعّب ، ويؤلف بصدعهم من الإسلام ما تشعب .

---

(١) اللتوت : جمع لت ، وهى كلمة فارسية الأصل ، وهى القدوم أوالفأس الكبيرة (القاموس المحيط) .

(٢) المروت : أراض لانبات فيها .

(٣) الآية ٧ سورة الحاقه .

(٤) فى ب جيوفهم والتصحيح من ل ومن أ (٢٤٥ ش) .

(٥) فى ب حنت والتصحيح من ل .

فصل

وصلوا إلى الخيم العادلية فدخلوها ، وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها . وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر ، وتموّج بحارها الزواخر . فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الأمراء والمماليك ؛ كولدنا الحُسام ابن لاجين وصارم الدين قايماز النجمى وبشارة وجرديك . وعطفوا عليهم عطفة صدتهم عن الانعطاف ، وصرفتهم عن الانصراف . وثارت آثارهم بواتر البواتر ، واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الأسرار بالحوافر الحوافر . وفضتهم بالفضاء ، وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء . وتمت نعمة الاسلام ببلائهم ، وشفى الدين بدائهم ، وكان بقاؤه فى فنائهم ، ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم ، وأتى القتل على أولهم وآخرهم .

وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل ، ملأت كل واد وسدت كل سبيل . وقد ذلت عزتهم ، وضعفت قوتهم ، وعجزت قدرتهم ولما انقضت هذه الوقعة ؛ وتم للناهضين إلينا الرجعة ؛ رأيت أحد مماليكى ونصله قد خضب ، وعزمه قد رضى بعد ما غضب . فسألته كم قتل ؛ وإلى أين وصل ؛ فقال : « أما أنا فما أبقيت ، وخضت البحر وما توقيت . وهذا غلامى قتل تسعة ، وشام من عارض نجيعهم نجعة » . وكان الذين حملوا ، وهزموا وقتلوا أقل من ألف . فقتلوا أضعافا مضاعفة ، وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة .

وحكى من نوادر هذه الوقعة أن فرنجيا عقر فجثا للصرعة ، فعثر به راكب برذون(١) بغير رفيق ولا عون . فعرقب الفرنجى فرسه بسيف فى يده ، فنزل بجده مستنا فى جدده . وقتل ذلك الفرنجى وروى من دمه المندى ، وحل من وسطه ثمانين دينارا . فانقلب ربحا ماعده خسارا . وامتلأت الأيدى بالأسلاب والأكساب ، وحصل من العدد ما لم يكن فى الحساب . وبيعت الزرديات — ذوات الأثمان — بالرخص ، وزادت أرباح أهل السوق بذلك النقص .

(١) برذون : التركى من الخيل ، أودابة الحمل الثقيلة .

وفى يوم الخميس الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ؛ ورد فى عصره نجّاب من حاب بعد خمسة أيام ، بكتاب يتضمن نجح كل مرام . ويخبر بأن عسكرا مجرا من الكفار ؛ خرج للغارة على الأطراف والأقطار فخرج إليه العسكر وأخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع فى الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد فى منهاج ، ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان ، وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسرّ الخواص والعوامّ وخص وعمّ السرور ، وأنارت المطالع وطلع النور .

وشرع الفرنج فى الخداع ؛ والمراسلة فى أمر للنّجانبيّن(١) عام الانتفاع . وسألوا فى الصلح ، والخروج من ليل الحرب فى السلم إلى الصبح . وأذن لهم السلطان فى الخروج ، للنظر إلى أولئك الصرعى بتلك المرُوج . وهى قد تورمت وأنتنت وجافت ، وحميت للشمس على جيفها وحافت ، وضافتها القشاعم والخوامع (٢) وعليها أطافت . فساءهم ما سرنا ، ونفّرهم ما أقرّنا .

---

(١) فى ب الجنانبين والتصحيح من ل .

(٢) الضباع .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهرّى(١) بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط اشفاقا من التفريط والإفراط

وما زال الفرنج فى وهن وضُعف ؛ وتوزع بينهم وخلف ، حتى وصل فى البحر كند يقال له هرى ؛ وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم ، وأحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وأفاض عليهم الأموال ، وحلّى منهم بعد عطلها الأحوال . ورصّع بالرجال مراكز من صرع ، وقرع السن ندامة على من قلع وقُرع ، وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم أن نبادرهم على ضعفهم ، قبل أن يمدهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه ، والتوانى فيما تعين تتميمه .

ولما وصل هذا الكند وتمكن ، وقوى أهل الكفر بكل ما أمكن ، أظهر أنه يكبس عسكرنا ليلا على غرّة ، وبدت منه أمارات كل شرّه وشِرّة . وشاع هذا الخبر على ألسنة الجواسيس والمستأمنين ، فأحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقدمه من الصواب ، ويفتحه فى المصالح الراجحة من الأبواب . فأشاروا بايساع الحلقة ، وإدارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه ، حتى يأنس (٢) إلى الخروج لحربه ، فوافقهم السلطان على هذا الرأى وحسن فى قلبه ، فرحل يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة إلى منزله الأول بالخروبة ، واشتغل بالتدبير فى الفوز بالنصرة المطلوبة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحوالى سفوحها . واحتوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتب اليزك فى المنزلة الأولى كل ألف فارس بالنوبة فى يومين ، وضويق بأهل الصدق منهم أهل المين (٣) .

---

(١) هو الكند هنرى Hinricus .

(٢) فى ب يؤنس والتصحيح من ل .

(٣) المين : الكذب .

وتدبر الترتيب وترتب التدبير ، وعرف فى اليزك أوقات نوْبته وأوْبنه الصغير والكبير . وأمّا عكاء فالكتب مترددة إليها ومنها مع السبّاح ، والحمام إليها ومنها تحمل البطاقات على الجناح . والمراكب تدخل إليها وتخرج ، وإليها وعنها تعوج وتعرج . وأخبار ملك الألمان متواصلة ؛ بأن أنصاره له خاذلة ؛ وأنه ضعف ووهى ، وأنه إلى أنطاكية انتهى . وأنه تعوق هناك ، وتوقع من مرامه الإدراك . وتوقف عن المسير ، واعتاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء فى جمعه ، وتعجل قمعه قبل أن يصل إلى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالإنفاق فى رجال الاستجناد والاستنجاد ، والاحتشاء والاحتشاد . وأن أصحابنا يأسرونهم ويتلفونهم ، ويتلقطونهم من الطرقات ويتخطفونهم .

ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا ، ويجمع قطافا ونطافا وألطافا . ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة ، وأنه مستمر على المودة راغب فى المحبة . ويعتذر عن عبور الألمانى ؛ وأنه قد فجع فى طريقه بالأمانى . وأنه لاقى من الشدة ؛ ونقص العدة ؛ ووصل المشقة ؛ وقطع الشقة ؛ ما أضعفه وأوهاه ، وألهبه وألهاه . وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع ، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع . ويمت بما به كاده ، وأنه بلغ فى أذاه اجتهاده . ويطلب رسولا ، يدرك به من السلطان سولا . فأجيب فى ذلك إلى مراده ، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنيقات

وفى رجب من السنة أنفق الكندهرى بعد وصوله ؛ ما وصل معه من المال فى الرجال ، فأعطى عشرة آلاف راجل فى يوم واحد ليجدّوا معه فى القتال . وضايق مدينة عكاء أشد مضايقة ، وأخذ القومص والكنود بذلك موافقة . ونصب عليها كل منجنيق ، من الرمى غير مفيق . رجومه للشهب بالشياطين ، ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر إلى سماء الدين . فهى مجانيق مجانين ، وميادين ثعابين ، ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها ، واحتد على صُقعهم صقعها . وقالوا : « كيف نجد من مناصبها المناص ، وهل نلقى من شؤم خصائلها الخلاص ؟ » .

فأجمعوا على الإقدام وأقدموا على الاجتماع ، وأخذوا بالارتياء فى ترك الارتياع . وخرجوا بالفارس والراجل ، وأموا بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة إلى خيامهم ، وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها ، خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها ، فاحترق جميعها ، وغرق فى بحر النار صريعها .

وقتل فى ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا فى اللقاء ، وقطع الواصلون إليهم عليهم طريق البقاء . وأسر منهم خلق كثير ، من جملتهم أربعة من من المعروفين ، فبهم فارس كبير . فما أمهلوه حين أخذوه ، حتى قتلوه ونبذوه . فطلبه منهم الفرنج بالأموال ، ولم يعرفوا بالحال . فاخرجوه إليهم قتيلا ، فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فبأتوا يندبونه نوحا ، ويذيعون سر تقدمه فيهم بوْحا . فخمدوا بعد ذلك الضرام ، ركدوا بعد هبوب ريح المرام .

وضربت عليهم الذلّة ، وشجتهم عقودهم المنحلة ، وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس ، وعرا طمعهم اليأس . وصارت الخنادق تهجم ؛ والستائر

تهتك وتضرم ؛ والحدود بالمصال تثلم ؛ والخدود بالنصال تلثم ؛ إلى ليلة شعبان من السنة ، فآبت بالحالة الحسنة . فإن أصحابنا خرجوا على غرة، ومضوا إلى القوم بإنكاء مضرّة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار ، وانفق على أحدهما كندهرى ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة الأولى من شعبان مباركة ، ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركه .

ذكر وصول بطسة بيروت فى العشر الأخر من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت ، وأن الأفكار باستدعائها عنيت ، وأن الأجسام لفقدان قُوتها ضنيت . وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة من مصر بالغلات ، فرأى أن ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا ، ويجعل له أجلا موقوتا .

فكتب إلى والى بيروت — عز الدين أسامة — أن يهجر فى كل ما به عز الدين السآمة . ويعطى ويتزكى ، ويحتال فى إنقاذ ميرة إلى عكا . فعمر بطسه كبيرة وأعدها ، وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها . وتولاها بخلق سمح ، وملأها بأربعمائة غرارة قمح . ونقل إليها أنواع الطعام ، وأصناف الإدام ، وقطيعا من الأغنام .

وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة ، وهى بساحل بيروت منبوذة . فأمر السلطان بترميمها وتتميمها ، وإخفاء البغية منها وتكتيمها . وأزيحت منها العلّة ، ونقلت إليها الغلّة . وملئت بالشحوم واللحوم ، وبكل ما تدعو إليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها من أحمال النشّاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت ، ورتبت فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت .

وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو فى البحر ، وألا ينكشف للفرنج ما لها من الستر ، فتصوروا رهبانا ، وصوروا صلبانا . ومسحوا لحاهم ، ومسخوا حلاهم . وتملطوا (١) وتكوفوا (٢) ، وتشبهوا بهم فى كل بزة لئلا يتخوفوا . وشدوا زنانير(٣)، واستصحبوا خنازير . وساروا بها فى البحر بمراكب الفرنج مختلطين ، وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين . والقوم لجهلهم ، لايشكون أنهم من أهلهم : ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث، وتصور الطيب بصورة الخبيث .

---

(١) تملطوا : تملسوا أى أزالوا ما فيهم من شعر ذقن .

(٢) تكوفوا : أى تجمعوا واستداروا .

(٣) زنانير : جمع زنار وهو ما يشد على الوسط .

فلما حاذوا بها عكاء صوبوها نحوها،والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه طريقها،وهى كالسهم النافذ قد سدد فوقها ، وقد عقت رفقتها ؛ وهى تكاد تعوقها . فدخلت الثغر ، وأدخلت إليه كل خير ، وعجب الناس منها ومما تم لها من حيلة فى سير . واجتزأ البلد بها شهرا ، ووجد منها لكل كسر جبرا . فيالها من لطيفة قضينا منها الأرب ، ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر إلى عكاء

ظهر يوم الإثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب إلى النواب بالاسكندرية على وجه الاستظهار ، بأن يشرعوا فى تجهيز البطس الكبار . ويملأوها بالغلات وأصناف الأقوات ، ويعمّروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها عند موافقة الريح إلى الثغر ، فإن خلصت إليه ولو واحدة منها أغنته بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر ، واستبعد وصولها مع امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب ، والرجاء يضطرب .

ووردت كتب أصحابنا بعكاء أنه لا يبقى لنا ليلة نصف شعبان قوت ، ولا شك أن كتاب أجلنا إلى هذا الأمد موقوت . فأشفقت النفوس ، واستشعر البوس . وألمت القلوب ، وألمّت الكروب . ولجأنا إلى الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يخيب من رجاه ، ولا يضيع من استرعاه .

فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان ، ظهرت من أقصى اللجة ثلاث بطس كأنهن الأعلام ، واستبشر بظهورها الإسلام ، وقد زفت عرائس جواريها الحسان ، وخفت رواسى سواريها الثقال ، وذكرت بقوله تعالى (وهى تجْرى بهم فى موج كالجبال (١)) . والريح تطردها طرد النعام ، والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم أضل من الأنعام .

فما تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشوانيها ، وأحاطت بها تقاتلها من أقاصيها وأدانيها . وهى تشقّ عليها وتشقّها ، وتعوقها عنها وتعقّها ، حتى برّت منها لبرّ الإيمان الأيمان . وهزأت بتلك الأكمات

---

(١) الآية ٤٢ سورة هود .

المطيفة بها جبالها الرعان . (١) . وعبرت والكفر خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو فى ذيل الذل يعثر .

ووصلت الثلاث وهى سالمة ، والمثلثة راغمة ، والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها غمة الثغر ، ودفع ما ألم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التى أدركت الأرماق ، وأدرت الأرزاق . وتلافت الأرواح من التلف ، وحملت على النفوس المشفية مشاق الكلف .

---

(١) الرعان : جمع رعن وهو أنف الجبل أو الجبل الطويل .

فصل من كتاب إلى سيف الإسلام فى هذا المعنى

كان كتب إلينا أصحابنا بعكاء أننا حسبْنا ؛ وإلى ليلة نصف شعبان لا يبقى لنا شيء نقتاته ؛ وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فواته . فبينا نحن فى هذا المهم مفكرون ؛ ومن هذا الهمّ (١) متنكرون ، إذ ظهرت للعيون بالقرّة ، وللقلوب بالقرار والمسرّة ، ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا ، وتحثها الريح القوية حثا . كأنها جبال بإقبالها تروع ، وتسور أجنحتها القلوع .

وشعر الفرنج بها فضاقت مذاهبها ، وبرزت مراكبها ، ودبت عقاربها . وقربت من البطس شوانيها ، وقويت فى البطش أمانيها . وحمى ما فيها من فيها من الرجال ، (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) . وكأن جواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثوب بتلك الأعلام المنشئات مُعْلَم الطراز ، بل كأنها تجار (٢) تحمل الصدقات إلى ذوى الإعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة ، وأتى الأتى بها موافقة موفّقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شبْى شانىء ، وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كالىء .

وجازت والكفر خزيان ينظر ، وفازت بالعز والعدو بذيل الذل يعثُر . وكان وصولها أوان انفضاض الأزواد وانفادها ، فملأت المدينة بغلاّتها وأزوادها ، وعصمت أرماقها ، ودسّمت(٣) أمراقها ، وقسمت أرزاقها ، وأشبعت جوعها ، وشعبت صدوعها ، وأنالت آرابها ، وأزالت إجدابها ، وخصتها بخصبها ، وصحت لها بسحبها .

---

(١) فى ب لهم والتصحيح من ل ومن أ (٢٥٨ ى) .

(٢) تجار : جمع تاجر .

(٣) فى ب ديمث والتصحيح من ل ومن أ (٢٥٢ ش) .

فأفاقت من الفاقة وأفرقت من الفرق (١) ، وسكنت بعد القلق ، وعاد إليها بعد الغسق إسفار الفلق .

والحمد لله المغنى بعد الإعدام ، المدنى السنى بعد الإظلام ، المفنى بأوليائه أعداء السلام .

(١) الفزع .

ذكر عيسى العوام

وما تم عليه فى العشر الآخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوّام ؛ قد تردد بالكتب والنفقات ؛ إلى عكاء ومنها فى ذلك العام . وكان ناصحا أمينا ، بحفظ الأسرار ضمينا ، يسبح ليلا فى البحر ، ويعبر على مراكب أهل الكفر ، ويصل بما معه إلى الثغر . ولكمْ خاطر بنفسه فسلم ، واعتورته أسباب المتالف والآلام فما ألم .

واتفق أنه عام ذات ليلة غير مكترث بما فى طريقه من أخطار ، وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألفا دينار . ومعه من نفقات الأجناد ودائع ، ومحقرات بضائع . فعدم ولم يتسمع له خبر ، ولم يظهر له أثر . فظنت به الظنون ، وما تيقنت المنون .

وكانت له ولا شك عند الله منزلة ، فلم يرد أن تبقى حاله وهى مجملة محتملة . فوجد فى مينا عكاء ميتا قد رماه البحر إلى ساحلها ، وأذهب حق اليقين من الظنون بباطلها . وبرأه الله مما قالوا ، وأحال الذى عليه أحالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الأكياس ، وتعجب من حاله الناس . فلم يذهب بذهابه الذهب الذى صحبه ، وطهره الله من الرجس وعنه أذهبه .

ذكر وصول ولد ملك الألمان الذى قام مقام أبيه إلى الفرنج بعكاء

ذكرنا حديث الألمانى وملم حادثه ، وما أداه إليه من دواعى كفره وبواعثه ، وكان مسيره من انطاكية يوم الأربعاء خامس عشرى رجب ، ولقى فى طريقه على اللاذقية الشجى (١) والشجن (٢) والشجب(٣). وأذن ضعف خيلهم ، بضعف ويلهم . ووجدت لهم ما بين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرسا قد عطبت ، وعلى أعواد عظامها سود الغرابيب خطبت .

وقد استقبله المركيس ، وقصده التأنيس . وأن يهديه بضلاله إلى الطريق التى تؤمن طوارقها ، ويتسع عليه فيها مجال الأمن وإن سلكت مضايقها . فوصل به إلى طرابلس فى العشر الأول من شعبان ، ووصل خبر وصولهم فى سادسه إلى السلطان . وحزرهم من شاهدهم فى الطريق بخمسة عشر ألفاً ، وسمعنا فى حزرهم بالقليل والكثير خلفاً .

ثم انتقل فى البحر ، إلى عكاء فى موضع الحصر . ووصل آخر النهار سادس شهر رمضان ، بعد أن عاين فى البحر من اختلاف الهواء الهوان . فلم يبق له وقع ، ولم يحصل لخرق القوم به رقع . وأقام بين جنودهم ، كأحد كنودهم . وقال الفرنج : « ليته لم يصل إلينا ، ولم يقدم علينا . فإنه لو أقام فى موضعه ، وأمدنا بفيضه من منبعه ، لهيبت عظمته ، وعظمت هيبته . وأرعب روعه ، وراع رعبه ، ورجى منا وخشى من المسلمين قربه . وقد قطع بنا منذ وصل ، وحصّ لنا جناح نجاح حصل » .

ووصل فى البحر وحده ، ولم يستصحب جنده . ثم وصل إليه الأصحاب ، (وتقطّعت بهمُ الأسباب (٤)) . ثم رام أن يظهر لمجيئه وقعا ، ويبدى له نفعا ، ويثير لنقع غلة ناره نقعا . فقال : « إلام القعود عن القوم ، وما بقى

---

(١) الشجى : الهم والحزن .

(٢) الشجن : الهم والحزن .

(٣) الشجب : العنت يصيب الأنسان من مرض أوقتال .

(٤) الآية ١٦٦ سورة البقرة .

إلا النهوض إليهم من اليوم ، ولابد من ضرب المصاف معهم ، وإنى على الخروج إليهم لأدفعهم » . فقالوا له : « أنت ما أرثت وهج قتالهم ، ولا أثرت نهج نصالهم ، ولا حربت بحربهم ، ولا كربت بكربهم ، ولو حزبت بحزبهم ، لأصحب جماحك بلجماح صحبهم » . فأبى ونبا ، وشب الشبا .

فلما عرفوا جهله ، وأن صعب الأمر عنده ساوى سهله ، قالوا له : « نبتدىء بالخروج إلى اليزك ، فلعلنا نوقعهم عندالإحاطة بهم فى الشرك » . فدبوا فى راجل كرجل الدبى (١) ، وخيل أغصت الوهاد والربا . ومرجوا فى المرج ، وطووا تلك المدارج طى الدرج ، وأشعلوا الخرصان فى ليل النقع عوض السرج . وقربوا من تل العياضية ، وعليه خيم اليزكية ، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية ، والعصبة الموصلية . فلما بصرت بهم ثارت إليهم ، ودارت عليهم . وأنهضت بنات الحنايا من خدودهم إلى الخدور ، وأوردت ظماء الظبى منهم ماء التامور (٢) .

وأنبعت بالنبع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من أعناقهم الديون . وطيرت بإطارة السهام إلى الإحداق بهم الأحداق ، وخاطت الآماق وما أخطأت الأرماق . وصار كل سهم سهم شهم ، وخطر فى محل خاطر أسرع من وهم .

وركب السلطان من خيمته وتقدم إلى تل كيسان ، ووقف ينُهّض بعده الفرسان الفرسان ، فلم تزل وجوه البيض تحمر ، وثنايا السمر تفترّ ، وذيول النقع تنجر ، وصفحات الجو تغبر ، وأرجاء رجاء النصر تخضر ، إلى أن جن الظلام ، وكف الكفر وسلم الإسلام .

وكانت الدائرة على الكفرة ، فأعرضت بالوجوه المتنكرة ، وأبنا بالأنوار المسفرة . ومرّ الألمانى متألما ، ومن ظلمة حاله متظلماً ، وبكلوم قلبه متقلبا

---

(١) الدبى : أصغر الجراد أو النمل .

(٢) التامور : النفس وحياتها .

منكلما . وقد عاين ما عاناه من العناء ، وشق عليه ماشق مرائره من الشقاء، وبلى مما بلى به من البلاء . وعلم ما جهله ، واستصعب ما استسهله[1] وذاق ما ضاق به ذرعه ، وكاد يتم فى القتلى رصعه لو تم صرعه ، لكنه تجرع من الغصص ما سهل عليه الموت جرعه . وتاب وما ثاب ، وأبى الرجوع إلى اللقاء لما آب . وحينئذ جدوا فى قتال البلد وحصاره ، واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

(١) فى ب استهله والتصحيح من ل ومن أ (٢٥٥ ى) .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكاء فى البحر برج يعرف ببرج الذُبّان ، وهو فى حراسة المينا عظيم الشان . وهو منفرد عن البلد ، محمى بالرجال والعدد . وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان ، فى الثانى والعشرين من شعبان . ببطس كبار جهزوها ، ومراكب عظام وآلات أبرزوها . ومكر مكروه ، ودبر دبّروه . وبغى غى بلغوا غاياته ، وريب رأى رفعوا راياته . وشر شرك ألهبوا شراره ، وأيد كيد أرهفوا غراره . وعنان عناد أطلقوه ، ولسان ضرام أذلقوه . ويد بطش بسطوها ، وعقلة معالقة أنشطوها .

وأحد تلك المراكب قد ركب برج على رأس صاريه ، لا يطاوله طود ولايباريه . وقد حشى حشاه بالنفط والحطب ، وضيق عطنه لسعة العطب . حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته ، أعدى إليه بآفاته . ورميت فيه النار فاحترق ، واحترق من الستائر والأخشاب ما به التصق . واستولت(١) النارعلىمواقفالمقاتلة فتباعدوا عنها ، ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه التسلق ، ولم يصعب به التعلق .

وملأوا بطسة أخرى بأحطاب ، يسرى فيها النفط ويسرع بإلتهاب . حتى يوقدوها ، وعلى السفن التى لنا بالمينا يوردوها . فيعدى عدوانها ، وتنير وتسدى فيها نيرانها . وهم فى مراكب من ورائها للحرب مستعدون ، وللشر مستمدون . حتى إذا تم برجائهم فى البرج والمينا مناهم ، نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم .

فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور ، وصار الصارى ملاصق السور ، جاء الأمر بعكس ما قدروه ، وأخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فإن الهواء كان شرقيا ، فلم تجد نارهم فى مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج

---

(١) فى ب تستولى وهذا تحريف لا يتفق والسياق .

الصارى وتراجعت ناره إلى أهلها ، وعاملت ذوى الجهل بجهلها ، وأوقدت بطسة الحطب من ورائها ، وتطايرت إليها شعل إذكائها . وعادت على الفرنج فالتهبوا ، وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا . فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا ، والناجون منهم فارقوا وفرقوا (١) ولم يفرقوا .

واحتمى برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب ، ولم يفتح للعدو فى الكيد له باب .

---

(١) فرقوا : فزعوا .

فصل مشبع فى المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى

من كتاب إلى سيف الإسلام باليمن

وأفكر الافرنج فى أمرهم ، وأجالوا قداح الرأى فى مكر مكرهم ؛ « هذا البرج المعروف ببرج الذبان ، منفرد عن البلد بوسط البحر منقطع المكان ، فإذا أخذناه تسلطنا على مراكبهم التى فى المينا ، وإذا لم نؤثر بمجيئنا تأثيرا فلأى سبب جينا » ومن حديث هذا البرج أنه يحيط بالبحر من جوانبه ، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه . وقد رفعناه وأعليناه ، وبالعدد والرجال قويناه . وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه ، وبكلاءة الله وعصمته إياه عصمناه وكلأناه . وقد حاموا حوله حوْلا ، فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولا حوْلا .

فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا — كأنه سلم ، وهو فى مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها بحيث إذا قربت إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه ، فصعد الرجال إليه فى تجاويفه . وتعبوا فى ذلك أياما ، وأشبعوه توثيقاً وإحكاما . وهو بمرأى من الأصحاب ينظرونه وينتظرونه ويبصرونه ، ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه . والقوم قد أصبحوا بتلك البطسة زاحفين ، وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط ، وتوالت أمطار البلايا من الجروخ والحجارات والمنجنيقات على أولئك الرهط .

ووجدت النار بسطة فى البطسة ولم يسلم السلم ، وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذى ألم بهم وآلم . وقتل منهم من باشر القتال ، ونزل العذاب بمن حاول النزال . والحمد لله الذى آيات ظهور دينه متناصرة ، ودلائل نصر أوليائه متظاهرة .

ثم عمل الفرنج برجا عاليا فى أكبر مركب ، وحشوه بالحطب . وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق ، ويتأتى له فيه الاحراق .

وقدموه إلى برج الذبان ، وسلطوا على جوانبه جوانى النيران . وقصْدهم بذلك إحراق ستائر البرج المنصور ، ورأوا أن فى ذلك هدم بنيانه المعمور . وحسبو أن الستائر إذا وقعت فيها النار ، تعذر على رجاله القرار ، وتعجل منهم للحذار الفرار .

وكادت الستائر تشتعل ، والخواطر تشتغل . والحال تضطرب ، والبال يلتهب . والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فأهب الله من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس ، وأكبت الفرنج على الوجوه والرءوس . وتعس جدهم وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح التى لهم عليهم ، وصوبت مرامى العذاب إليهم .

ولما وقم الله القوم ، قالوا لاطاقة لنا اليوم . وعادوا وقد غرموا ورغموا ، وأخلف ما عزموا وزعموا . واشتغلوا بملء بطس لهم شحوما وأحطابا ، وأدهانا وأخشابا . وأشعلوا فيها النار وألهبوها ، وأرسلوها إلى مراكبنا فى يوم ريح عاصف وصوّبوها ، وأدنوها منها وقربوها . وكادت سفننا تحترق ، ومراكبنا تفترق .

فأنزل الله الفرج وقت الشدة ، وآمن من المخافة المحتدمة المحتدة . وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد أن كانت موافقة ، وحالة تلك الحالة للعادة خارقة . فاحترقوا بنارهم ، وشرقوا (١) بعارهم . وجذبت بطس أولئك الكلاب بالكلاليب ، وتوالت ألطاف الله فى تلك النوب المتناسقة مطردة الأنابيب ، مستهلة الشآبيب .

(١) شرقوا : شرق الموضع بأهله ، امتلأ فضاق والمقصود أنهم ضاقوا نفساً بعارهم .

ذكر الكبْش وحريقه

بعد تعب العدو فى احكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابه هائلة ، وآلة للغوائل غائلة . فى رأسها شكل عظيم يقال له الكبش ، وله قرنان فى طول رمحين كالعمودين الغليظين ؛ أقفال الأسوار المعلقة بها تفش . فكم سور إذا نطحته طحنته ، وكم معقل حصنه الدهر حصته وصحنته .

وهذه الدبابة فى هيئة الحربشت الكبير . وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد ، وكملوا لها أسباب الاحكام الشديد . ولبسوا رأسى الكبش بعد الحديد بالنحاس ، وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس الباس . فلم يبق للنار إليها سبيل ، ولا للعطب عليها دليل .

وشحنوها بكماة المصاع (١) ، وحماة القراع . ورماة الحدق ، وكساة الحلق . وعفاة الحتف ، وجفاة الزحف ومجتابى الزغف(٢) ، ومُجْتَبِيِي العسف . من كل سرحان لا ينظر إلا من جلد أرقم ، وكل شيطان لا يقتحم من الحرب إلا جهنم . وكل شجاع لا يعتقل إلا شجاعا ، ولايرى لغير النجيع القانى اقتناء ولا انتجاعا .

فلما استدفت (٣) لهم هذه الدبابة ، وماجت بالحديد لجتها العبّابة ، وأطافت بذلك الكبش تلك التيوس النبابة (٤) وأمنوا عليها الحريق ، وأموا بها الطريق ، سووا بين يديها الأرض ، ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها ، وقروا بها أعينا بل أنفسا وقربوها . فجاءت

---

(١) كماة المصاع : الشجعان المقاتلون الضاربون بالسيوف .

(٢) الزغف : الدروع الواسعة الطويلة .

(٣) استدف : الطائر قرب من الأرض . الأمر : استقام . تهيأ وأمكن وهذا هو المعنى المقصود هنا .

(٤) النبابة : التى تصيح عند هياجها .

صورة يزعج مرآها ، وروضة يعجز مرعاها ، وآلة تروق هيئتها ، وعدة تروع هيبتها . وبلى البلد من دنوها بالبلاء الدانى ، وتغاشت وتعاشت دونها نفس الرامى وعين الرانى .

وقال أصحابنا : « هذه ما فى دفع خطرها حيلة ، ولا لبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل ، وفيم الأمل ؟ ومن للكبش العظيم وقطع رأسه ؟ ومن لبناء الحديد ونقض أساسه ؟ فإن كانت هذه الدبابة دابة الأرض فما هذا أوانها ، وما حان زمانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام برهانها . ونصبوا على صوبها مجانيق ، ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فأبعدت رجالها من حواليها ، وطردت المطرقّين بين يديها . ثم رموها للحزْم بحُزَم الحطب حتّى طموا ما بين القرنين بجُرزه(١) ، وقذفوها بالنار فترنم فى أثنائها عجاج اللهب برجزه . ودخلت من باب الدبابة فاشتعلت نار ضلوعها وشرع من فيها فى الخروج بعد دخولها وشروعها .

وجاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبتّيات (٢) ، يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات . فأطفأوا نار الظاهرولم يعلموا بِر الباطن، ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمدوا الجمر ، أحمدوا الأمر . ورجعوا ولم يزل اللهب يأكل سقوفها ، حتّى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها المنجنيق ، فانهدّ ذلك النيق ، وصوّح (٣) ذلك الروض الأنيق ، ووهن ذلك التّركيب الوثيق . ونفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبابة ، وخرج من بالثغر المحروس ، باشرى الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس الكبش ، واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش . وحمل كل من الحديد ما أطاق حمله ، واستطاب لثلج صدره وبرد يقينه حرّه واستخف ثقله .

وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار ، فقل فى آلة لبست بهذا المقدار

---

(١) خرمه .

(٢) البتيات : جمع بتية وهى البرميل الصغير .

(٣) صوح : جفف أيبس .

وهو أعظم مقدار . وعاد أصحابنا على عدوهم ظاهرين ، ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم ينشد وهو ينشيء وينشد جدا وجدا .

نازلت كبشهـــم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط ، وسخط الشيطان واستشاط الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت أعمالهم ؛ وهبطت آمالهم ؛ أن الشقاء أدركهم ؛ والشقاق أهلكهم . وأن مدبرهم مدبر ، وأن ترتيبهم مدمر . وأن آلاتهم غير نافعة ، وأن نهلاتهم غير ناقعة .

والحمد الله ذى الطول العميم ، والفضل الجسيم . الذى نعش عثار الثغر بعد أن تل للجبين فتلونا[1] قوله تعالى : (وفديناه بذبح عظيم[2]) . وكان ذلك فى يوم الاثنين الثالث عشر رمضان واحترقت البطسة يوم الأربعاء خامس عشر .

وفى هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عساكر الشمال ، يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب ، وقد استصحب معه الأجناد وجلب . فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده ، ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وقد استكثر معه واستظهر ، وعز الدين بن المقدم ذو القدر الأفخم ، والنجر[3] الأكرم . وحسام الدين حسين باريك ، وجماعة من الأمراء من ذوى المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرا مشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب صاحب بعلبك ، وقد استصحب غلمانه الأكاديش ومماليكه الترك .

وكان لذلك اليوم رونق ، وصفاء لم يشبه رنق (٤) . واتفق فى يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد ، فى الخلق العظيم ، جحيميين

---

(١) فى ب فتلينا وهذا خطأ لغوى اذ أن الفعل تلا يتلو.

(٢) الآية ١٠٧ سورة الصافات .

(٣) النجر : هنا بمعنى القصد .

(٤) الرنق : الكدر.

يلتهبون بنار الجحيم . وتركهم أصحابنا حتى قربوا من السور ، وأقدم العدو إقدام المتهور الجسور . فلما ازدحموا وكثروا ؛ واضطرموا واستعروا؛ غنت لهم الأوتار برنين القسى فطاشت لها السهام ، ودعت إليهم الأقدار بحنين الحنايا فلبّاها فى لبّاتهم الحمام . وزارتهم من الزيارات الجروخ ، وأخذت نيرانهم تبوخ (١) . ورضّتهم المجانيق بالأحجار ، وآذنت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج أصحابنا عليهم فشلوهم إلى الخيام ، وفلوهم بحد الإقدام . وأفضى الخرق بالعدو إلى الخرق ، وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق .

(١) تبوخ : تسكن وتفتر وتخمد.

وصل الخبر فى سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشرَه وبشرَّة ، ووصل الجاسوس بخبره ، وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب أصحابنا له كمينا ، ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله ، وأفلت وباله فى وباله . وانْهاض من تلك النهضة ، وضعف من تلك العضة . وفى هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل الزيب بطستين خرجتا من عكاء بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب . وفيها امرأة محتشمة ، غنية محترمة . فأخذتا وأخذوا وأخذت ، وجد الفرنج فى استنقاذها فما استنقذت . وسرّنا ما ساء العدو ، وآتانا الله من إحسانه المرجو .

وفى عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا إلى منزل يعرف بشفرعم ، وخص بهذا الرحيل النفع وعم . وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج ، وأخبروا أنهم فى عزم الخروج إلى الم ج . هائجين للثار ثائرين إلى الهيجاء ، مائجين فى دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق ، ووضح الحق وتحقق . فأحضر السلطان الأمراء الأكارم ؛ ورجال الحقائق الضراغم ؛ الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه ، وذخائر نصر عند اعتزامه . فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم ، واستنبط دفائن ضمائرهم . واستكشف منهم الصواب ، وتعرف من جانبهم الجواب.

فقالوا « الصواب أن يفسح لهم عن هذه المروج ، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج . فنصبحهم فى اليوم الآخر ، ولا يتعذر بهم إحداق العساكر . وإنما لايقدرون على القصد دفعة واحدة ؛ إلا إذا كانت أيديهم متساعدة ، وآراؤهم متعاقدة . فإن انفردوا عن الراجل وساقوا ؛ كسرناهم وأسرناهم . وإن توقفوا للراجل،قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم »

وأجمعنا على أن نرحل إلى شفرعم ونخيم على هضابه ، ونبطل على العدو ما كان من البيات فى حسابه . فخيمنا هناك على أحسن تعبية ، وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنية . ورحبت المنازل ، وعذبت المناهل ، وعادت

معالم تلك المجاهل . وحللنا التلاع والآكام ، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام . ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين ، ولأسباب التوقى من الأمطار مستجدين .

وأضحينا على تلك الأطواد موطدين ، وعند تلك الأوتاد موتدين . وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الأسنمة ، وتمكنت تلك البُنَى وبنيت تلك الأمكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها ، وأحبت الرجال التوطن بها وسلت عن أوطانها . ودارت الأسواق ، ودرت الأرزاق ، وأنارت الآفاق. وصهلت الصلادم على معالفها ، وصقلت اللهاذم لمراعفها . ونوب اليزك بحالها تدور وترود ، وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود . والحرب تتناوب ، والزحف يتعاقب . والأقران تتواقع والوقائع تتقارن ، والأعوان تتعاضد والأعضاد تتعاون . والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمحم ، والرقاق بصليلها لشوق الجماجم تجمجم .

والمقربات للإجراء صوافن ، والضوامر للشد ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع ، ورجاء الرجال نبع النصر فى قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل ، والايمان للكفر مقاتل . ولا كلام إلا للكلام ، ولا سلام إلا بالسلام . فلا يسمع إلاّ : « أسْرج وألجم ، وتقدّم وأقْدم ، وأصْم وصمّم ، وأضْرِ وأضْرم . ولا تله حتى تلهب ، ولا تعج حتى تعجب . واقطع وصل ، واكتل بصاع المصاع وكل ، ولا تقلق والق وقلقل » . ولكل داع إجابة ، ولكل ساع إصابة . ولكل سهم فى المرمى فوق ، ولكل شهم فى المرام سوق . ولكل صعدة فى الطعان صدعة ، ولكل قعدة للرماء قدعة (١) .

ولكل عقدة بالضرب حل ، ولكل عدة فى الحرب فل . ولكل عضب(٢) عض ، ولكل ذى حظ حض . ومن له نصيب فى الشجاعة نصب فى التشجيع ، ومن له جرأة الهيجاء هاج إلى الصريخ بالجسد السريع . والايام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الحديد بامواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير صباح الصفاح فى دياجير القتام متبلجة . ولله نعمة فى كل بلية ، وسر فى كل قضية .

---

(١) قدعه : اتمامه ، قدع الأمر أمضاه .

(٢) سيف قاطع .

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى شهر رمضان وماجرى بعده من الحال

قد جرى ذكرهذا الأمير ، وما يتحلى به من الكرم والخير . وهو (يوسف نيالتكين بن على كوجك) . ومن سعادة جده ماطلب غاية فى الكرم إلاأدرك. وماكان أسره يوم الحضور ، وأحظره يوم وفاته بالسرور . فلقدكان جاراً للكتائب ، باراً بالأباعد والأقارب . ساراً بإسداء المواهب ، داراً بأخلاف الرغائب ، مارا فى سبل المناقب ، قاراً على قلق النوائب .

وكان فى ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع . وشبابه الطرى طرير الشبا ، وحبه لعقد السؤدد معقود الحبا . فمرضت الأيام بمرضه أياما ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد أمست مراضا(١) ضراما. وعُدْته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن إلى طبه . لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين فى موضعه ، وأنه يتعش بمصرعه . فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على ما يحبه . وهو جاهل بمزاجه ، ذاهل عن علاجه . فشب الحمام فى حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ما أزهى أزهاره ، وما أنضر نضاره !

ونقله الله من جناب الحياة إلى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لإحسانه بالإحسان . وحوله من بين الأتراب إلى التراب ، ومن دار الاغترار والاغتراب إلى موطن الثواء (٢) بالثواب ، وآذن الزمان بعد الإجداء بالإجداب . ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الغم حتى قيل إنه سره موته ووافقه .

وقصدناه معزين على ظن أنه جلس للعزاء ، فإذا هو فى مثل يوم الهناء . وهو فى خيمة ضربها فى مخيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه . ووكل بالأمراء أصحاب القلاع ليسلموها ، وخشى أن يعصوا فيها إذا رجعوا إليها

---

(١) المراض : مكان صلب فى أسفل الوادى ، يمسك الماء .

(٢) الثواء : الإقامة .

ويحموها . وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ إربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التى معه وأعادها . وزاده السلطان شهرزور وأحكم بمسيره الأسباب والأمور . فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقى الدين لينزل فى منزلته بجنده وصحبه الميامين . فوصل يوم الأحد ثالث شوال ، فحلى بعد العطل الأحوال .

وكان قد انفصل صاحب الجزيرة — معز الدين سنجر شاه — وذهب مغاضباً وكان السلطان له فى الانفصال عاتباً . فأعاده تقى الدين من الطريق ، وقبح له ما استحسنه فى ترك الموافقة من عدم التوفيق . وكان هذا سنجرشاه دخل يوم العيد بكرة للهناء ، فاستأذنه فى الإنكفاء . فخرج على حالته وسار وتبعه أصحابه ، ولج جماحه وتعذر إصحابه . فلما اجتمع به تقى الدين رده ، وبذل فى صيانة منزلته عند السلطان جهده . وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد فى الاستئذان فى الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام . وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله . فكتب إليه السلطان .

من ضاع مثلى من يديه فليت شعرى ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح فى الخطاب ولاغادى .

وغلت الأسعار عند الفرنج واستعرت الغلل ، وأعلهم ما عراهم وعرتهم العلل . وباءوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء . وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة . وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم ، وقصرت عن القرار بوعهم ، وأمحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم . وبعثهم الرهب على الهرب ، والقحط على الشحط(١) . لكنهم أقاموا على الموت ، واستناموا إلى الفوت . وبلوا بأمور صعبة ، وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة . وقد بادوا من الضعف البادى ، وأعداهم الضر العادى . فمن سألناه عن مقتضى فراره ؛ ومقض قراره ، يخبر أنه طواه الطوى ، فنوى النوى حين التوى ،

---

(١) الاضطراب ، وشحط المكان : بعد .

من حذر التوى[1] . وقد أنساه المحل الذحل [2] ، وأبغض إليه حب السلامة الولد والأهل .

وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار ، والسعر من الزيادة لديهم فى استعار . فما جاء إلا كل ضعيف لا يقوى على النزاع والنزال ، ولامسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال . فقبلناهم وأنفقنا فيهم ، وألفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم . فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد ما أقووا . فمنهم من أسلم وخدم ، ومنهم من ند وتندم . ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستاد .

---

(١) التوى: الضياع والهلاك .

(٢) المحل : الجوع الشديد والجدب . والذحل : الثأر والعداوة والحقد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ؛ وأشرقهم جرعهم (١) ؛ وعرقهم قرعهم ؛ وأخلفهم خلف عيشهم ، وضرهم ضرعهم ؛ وعيل صبرهم ؛ وعال ضرهم قالوا : « نخرج ونبلى ، ونصل ونصلى . ونقصد ونصدق ؛ ونلقى ونقلق ؛ ونفل ونفلق . ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم . ونجرى ونجترى ، ونبرى ونبترى ونزحف ونحفز ، ونزعج ونعجز . ونجهد ونجهل ، ونحمى ونحمل ، ونقطع ونوصل . ونثور ونثير ، وندور ونديز . ونتتصف وننصف ، ونعفر ونرعف (٢) . ونقرح ونحرق ، ونعقر ونعرق . ونخرج ونحرج ، ونلج ونلجج . ونضرى ونضرب ، ونغلى ونغلب . ونجن ونجنى ، ونتيف ونفنى . ونرد ونردى ، ونجد ونجدى . ونقد ونقدم ، ونعدو ونعدم. ونصد ونصدع ، ونقد ونقدع (٣) ، ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ونسل ونسلب ، وذ وع ونرعب . ونبلو ونبيد . ونتصدىونصيد . ونظهر ونظفر ، ونرهق ونقهر ، ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر .

فخرجوا فى عدد خارج عن العد ؛ واستقاموا مع الاعوجاج على جدد الجد ؛ وذلك يوم الاثنين حادى عشر شوال ، بعد أن رتبوا على البلد من لازم القتال . وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها . وكان اليزك على تل العياضة فركبوا ، وأشعلوا القوم بنيران النصال وألهبوا . فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ما تركت الأتراك . فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون .

---

(١) جرعة : شربة ، والمقصود ماتجرعوه من نكال وشدائد حرب.

(٢) أرعف : أعجل ، والرعف سرعة الطعن والمقصود أنهم يعجلون ويسرعون فى الطعن وإسالة الدماء .

(٣) قدع : قدع الفحل ، أى ضرب أنفه بالرمح والمقصود أننا نشق بسيوفنا ونطعن برماحنا .

ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل إلى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الأمن والسكون . وبقى الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد . وركب العدو يوم الثلاثاء سائراً ، وقد عب عبابه زاخراً ، وهب غابه زائراً . وطما بحره مائجاً ، وسما جمره مارجا .

وعساكرنا فى أحسن تعبية ، ولدعاء القراع فى أوحى تلبية . وقد امتزجت زجرات الجاووش ! بنعرات الجيوش . والميمنة إلى الجبل ممتدة ، والميسرة إلى النهر بقرب البحر وصفوفها مشتدة مستدة . والسلطان فى القلب كالقمر فى الهالة ، عليه إكليل من أنوار الجلالة .

فسار حتى وقف على تل عند الخروبة، على المهابة الحالية والحالة المحبوبة . ومقدمو ميمنتة عظماء دولته ، صاحب دمشق ولده المبجل الملك الأفضل وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصاحب بصرى ولده الملك الظافر ، وأخوه الملك العادل فى آخرها ، والأمراء بعساكرها . يلى حسام الدين بن لاجين ، قايماز النجمى صارم الدين ، والامير بشارة صاحب بانياس ، وهو الذى لايرجو منازلته إلا من فيه بان الياس . ثم بدر الدين دلدرم الياروقى صاحب تل باشر ؛ وقد طالما بشر الإسلام بما باشر . وعدة كثيرة من الأمراء يطول ذكرها ، على أنه يطيب نشرها .

وعظماء الميسرة ومقدموها ، وأمراؤها ومقدموها ، والملك عماد الدين صاحب سنجار — وهو العادل للإسلام وعلى الكفر جار . وابن أخيه معز الدين سنجرشاه صاحب الجزيرة ، والملك المظفر تقى الدين ذو السطوة المبيدة المبيرة . وسيف الدين على المشطوب — الذى تشب بناره الحروب ، وتصب على العدا منه الكروب . والهكارية ، والمهرانية ، والحميدية ، والزرزارية . وأمراء القبائل من الأكراد ؛ أقتال(١) القتال وأجادل(٢) الجلاد .

---

(١) أقتال : جمع قتل بكسر القاف ، شجاع مقاتل ، قرن ، نظر .

(٢) أجادل : جمع أجدل وهو الصقر.

ورجال الحلقة المنصورة (١) واقفون فى القلب لابسى الحلق السرد(٢) خائضى بحر الحرب . من كل فارس فراس ، وهرماس رماس(٣) . وضيغم ضاغم ، وضرغام غارم . وليث قضقاض(٤)، ملوث بفضفاض(٥) وقسور قاسر ، وهزبر زابر (٦) زائر. وأسد فى غاب الأسل ، وقارع فى القراع باب الأجل . وقارثعالب الخرصان ، وذباب الظبا من دم الأقران ، وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان . وقارئ (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) (٧) ثقة بوعد القرآن ، وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله فى الجهاد ؛ للتمتع بعمر الجنان . وسابق إلى حلبة الشهادة ، وسامق على ذروة السعادة . وملابس للروع مباسل ، وعاسل كالذئب إلى ذب العدا عن الهدى بعاسل .

وسار الفرنج شرقى النهر لنا مواجهين ، وللكريهة غير كارهين . حتى وصلوا إلى رأس النهر ، وأشفقوا من باس القهر ، فانقلبوا إلى غربيه ونزلوا على التل بينه وبين البحر. والجاليشية الرماة منا حولهم جائلة ،وعيون أعيانهم على نصالنا سائلة . وجرح فى ذلك اليوم وهو الثلاثاء خلق من أهل التثليث ، وما نبا عن كثير منهم ناب النائب الكريث . والسلطان فى خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد المجاهد .

وأصبح الفرنج يوم الأربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين . ووقفوا على صهوات الخيل إلى ضحوة النهار ، والراجل مطيف محدق بهم كالأسوار . وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وأرادوا

---

(١) أمراء الحلقة المنصورة : أى أمراء السلطان وخواصه .

(٢) السرد : نسيج الدرع ، الدرع والحلق . ويقال نجوم سرد أى متتابعة بانتظام .

(٣) هرماس : هرمس وجهه : عبس . رماس : الرمس : القبر . دفن ، ورمسه بالحجر : رماه به .

(٤) القضقاض : الأسد وقض الوتد : قلعه .

(٥) فضفاض : واسع .

(٦) الهزبر : الأسد . زابر: رام بالحجارة .

(٧) الآية ١١١ سورة التوبة .

يياسطونهم . والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة . وهم ثابتون نابتون ، ساكنون ساكتون . ونحن نقول « لعلهم يحملون ، ويغضبون فيجهلون ، فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وتفريج الغمة بنزع جمتهم (١) » .

وأحس العدو بالضعف ، وأنه متورط فى الحتف . فسار مولياً ، ولعذره لذعره مبلياً . ومضى على مضض ، ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره ، وقد أيقن إن صح منه الثبات بانكساره . وعسكرنا يصافحهم بالصفاح ، ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات السهام ، ويلهبهم بجذمات الضرام . ويحرقهم ويشويهم ، ويصميهم ويُشويهم . ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب ، ويخيض فى دأماء الدماء منهم سوابح السلاهب . ويغيض فى ماء الوريد منهم ماء الفرند ، ويغيظ بنى الكفر فى الجمع بين الأختين عليهم ابنتى الغمدوالزند .

وأدبروا مولين ، وأرخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين . وعسكرنا يتبعهم ، ويعلق بهم ويقلعهم . وهم مجتمعون فى مسيرهم ، محتمون فى تقديمهم وتأخيرهم . يتحركون فى سكون ، ويتظاهرون فى كمون ، ويتطلعون فى غروب (٢) ويتفللون بغروب (٣) . ويتذوبون فى جمود ، ويتلهبون فى خمود . وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه ، وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهم ، ولايصح لدينا كسرهم .

ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا إليهم ويعوق . وأبلى المسلمون فى ذلك اليوم فى الجهاد بلاء حسناً . وأتوا كل ما كان فيه مستطاعاً ممكناً . وقام (إياز الطويل) فى ذلك اليوم مقاماً أقعد فيه من الكفرة كل قائم ، وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداما هماماً ، وأسداً ضرغاما . يطيز وحده إلى الروع إذا أبدى له ناجذيه ، ويجيب المستصرخ ولايسأله عما يدعوه إليه . وهو فى كل يوم يصبح فى

---

(١) الجمة : معظم الشيء والكثير منه ، مجتمع شعر الرأس .

(٢ و٣) الأولى بمعنى أفول واختفاء والثانية بمعنى ابتعاد .

سلاحه شاكياً ، وبنار عزمه ذاكياً ،ويقف بين الصفين ، ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز إليه إلا من يصرع ، ولا يصل إليه إلا من يقطع .

فعرفه الفرنج وتحاموه ، فما راموه بعد ذلك ولاراموه . وبذل هذا اليوم جهده ، وفل فى فل حدهم حده . وأصابته جراحات ، وأصابتهم اجترّاحات .

وكذلك سيف الدين يازكوج (١) أبلى فى الجهاد ذلك اليوم ، ووقم بنصاله ونضاله القوم . وخرج وبه جرح ، وفى قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه وإصابة سهامه قـ ح . وأصبحوا بكرة الخميس ، وقد بكر الخميس، وحمى الوطيس ، وسار فى أسده العـ يس . فأشرفنا عليهم وإذاهم داخلون إلى مخيمهم ، سائرونَ إلى مجثمهم . فعاد السلطان إلى سرادقه ، حامداً خلائق خلائقه ، مسفراً فى ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الأثقال إلى معسكره ، واستزاد من الله له الإقبال فى مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرد بمفخره . وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكندهرى ، وأقام ملك الألمان على عكاء يبرى ويفرى.

---

(١) سيف الدين يازكوج : أو يازكج الأسدى ، أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، ولاه أمر قلعة حلب سنة ٥٧٩ هـ وتدبير أمر ولده الظاهر بها (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣) .

فصل من كتاب فى المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادى عشر الشهر ؛ واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفى مرج عكاء ؛ عين غزيرة الماء . يجرى منها نهر كبير إلى البحر ، فخرجوا إلى شرقى النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد ، وقد تخلف لحفظ حصره ألوف من أهل الجلد .

ثم أصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهم ، والأسد سائرة بالأسل فى عرينهم ، والحمية مشتعلة فى عيونهم وعرانينهم . ونزلوا رأس العين (١)، وتطرق بها إليهم من عساكرنا المنصورة طارق الحين . ولما أصبحوا وجدوها بهم محدقة ، وبنيران النصال والمناصل لهم محرقة . وكنا نقول إنهم يتحركون للمصاف والأمر بالخلاف ، وإنهم لسهام المنون من الأهداف ، وماداروت بهم إلا الجاليشية تجول وتصول ، وتصيب وتصوب ، وتطيل وتطول :

وكانت الأطلاب واقفة تنتظر حملاتها ، وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما أبصر الفرنج ما حل بهم من العذاب ؛ عدوا الغنيمة فى الإياب ، وشرعوا فى طريق الذهاب . فعادوا من غربى النهر راجعين، وساروا صوب خيامهم مسارعين . وأصحابنا وراءهم يرمونهم ، ويشوونهم ويصمونهم. وقتل منهم خلق ، وسرى فى حجب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه ، وباتوا خائفين هائبين ، ورحلوا سحراً خاسئين خائبين. وخيولهم الناجية مجرحة ، وقلوبهم الراجفة مقرحة ، وأشلاؤهم من كسوة الحياة عارية وبالعراء مطرحة . وعرفوا أن حركتهم للهلكة ، وان هلكتهم فى الحركة . وأقاموا على الضر والزاد معدوم ، والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم . ولاطعم لهم إلا من لحوم الخيل ، وهم يدعون بالثبور

---

(١) رأس العين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر تبعد عن نصيبين ١٥ فرسخاً وعن حران نحو ذلك وعن دنيسر عشرة فراسخ (ياقوت ج ٩ : ١٣ ط .ب) .

والويل . ومع كثرتهم قلوا عناءا ، وضلوا رجاءً ، وذلوا بلاءً ، واعتلوا جدباً وغلاءا .

ولما عاد الفرنج إلى خيامهم ؛ لخافقين من مراميهم ؛ مخفقين من مرامهم ، وأبصر المقيمون بها أصحابنا وراءهم ؛ يطلبون إرداءهم ؛ متعطشين إلى دمائهم ، يرومون إرواءهم ؛ وثبوا على جيادهم ، وثاروا لمراد مرادهم ، ولاقوا أجمعنا بأجمعهم ، وفاضوا لفيضنا من منبعهم .

فاندفع الأصحاب حتى تبرزوا ، ثم ردّوا عليهم الكرة فأثخنوا وأجهزوا . وقتل فى تلك المعركة كند كبير ، وشيطان لنار شره من سعيره مستعير . وطلبوا بعد انفصال الحرب جثته فأعطوها ، والتمسوا هامته فلم يجدوها . وكان رجلا يعد برجال ، وسلبه قوم يأموال . ولولا ما اتفق من التياث مزاج السلطان ، ما سلم من سلم من حزب الشيطان . ولله فى كل قضية سر ، وفى كل بلية بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقاً فى آرائه ، مشرقاً بلألاء آلائه ، ومن آرائه الراجحة ؛ ومساعيه الناجحة ؛ ومتاجره الرابحة ؛ أنه رأى أنْ يرتب على العدو كميناً ، وعلم أن الله يكون ينجحه ضمينا . فجمع يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال منتخبى رجاله ، ومنتجبى أبطاله ، وخواص أتراكه ، وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته ، وسبقت معرفته ، وأحمدت فى الجلاد جلادته ، وفى لقاء العدا عادته ، وعلمت فى الفتك جهالته .

وأمرهم بأن يكمنوا على ساحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة ، فمضوا وكمنوا ليلة السبت متنبهى الهمة متيقظى العزيمة . وخرجت منهم عدة يسيرة بعد الصباح ، منادية بحى على الفلاح .

ودنوا من خندق القوم ، ونادوا لاقعود بعد اليوم . ومطروهم سهاما ، وأسعروهم (١) ضراما . فطمع الفرنج فيهم ، وظنت أنها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح(٢) ، وسربا قد سرح . فقطعت خنادقها ، وبتت علائقها ، وحثت سوابقها . وأخاضت بحر الحرب سوابحها ، وقد أفاضت سوابغها ، وشامت (٣) صفائحها . وتجردت عن رجالتها ، وتفردت بضلالتها ، وحملت بجهالتها ، وأقبلت بإدلالها لا بدلالتها .

وتطارد أصحابنا أمامها ، وانهزموا قدامها . حتّى وقفوها على الكمين ، وأوقعوها فى الهلك المبين . فخرج الكمين عليها ، وتبادر إليها . فلم يستطع فارس منها فراراً ، ولم يطق من غرته أن يمضى غراراً . وكانت فى مائتى قنطارى ، من كل مقدم باروني وبطل داوى واسبتارى . فقتل معظمهم ،

---

(١) فى ب أسرعوهم ، والتصحيح من ل .

(٢) فى ب سح والتصحيح من ل ومن أ (٢٧٠ ى) .

(٣) شامت صفائحها : أى استلت سيوفها .

ووقع في الأسر خازن الملك ، وعدة من الإفرنسيسية ومقدمهم . وملكوا وسلبوا وملك سلبهم ، وتقطع بهم سببهم ، وما وصلهم أربهم .

وجاء الخبر إلينا ، فركب السلطان وركبنا . وسار ووقف على تل كيسان ، فشاهد من الله هنالك الإحسان . وجاءه مماليكه يقودون أولئك الأعزة بخزائم الذل ، ويجودون بما استخلصوه من ذلك القل . ويقدمون المقدمين من سراة الأسارى ، وتلونا لما شاهدناهم ، (وترى الناس سُكارى وماهم بسُكارى) (١) فقد رضتهم اللتوت ، وقضقضتهم الليوث ، وبعثتهم إلى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث .

وترك السلطان الأسلاب والحيول لآخذيها . وكانت بأموال عظيمة ، فما أعارها نظرة ولا تردد أمره فيها . وفيها حصن كأنها حصون ، وزرد موضون (٢) ، وخوذ منها مذهب ومدهون ، وسيوف ذكور تتولد منها المنون . وملابس رائقات تحار فيها العيون .

وأبنا بالملوك مصفدينا ، وحمدنا الله الذى بإرشاده هدينا . وجلس السلطان فى خيمته على دست ملكه ، وقد انتظم له عقد النصر فى سلكه . فمن كان عنده أسيراً أحضره ، فأنعم عليه وشكره .

وكنت عند السلطان جالساً ؛ ولحبير الحبور لابساً ؛ وقد جمع عنده(٣) أولئك الأسراء ، وما أسعد الله إلا فى تلك الساعة أولئك الأشقياء . (ودامت محاورته (٤) لهم مشافهة) (٥) ، وأطعمهم بعد ما آنسهم (٦) فاكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان وأشبعهم وأرواهم ، ثم أحضر لهم كسوة وكساهم .

---

(١) الآية ٢ سورة الحج .

(٢) موضون : متقارب النسيج ، منسوج بجوهر .

(٣) ساقطة فى ب مثبتة فى ل وفى أ (٢٧١ ى) .

(٤) ساقطة فى أ (٢٧١ ى) .

(٥) العبارة فى أ (٢٧١ ى) دامت لهم مشافهة .

(٦) فى ب آنسوا والتصحيح من ل ومن أ (٢٧١ ى) .

وألبس المقدم (١) الكبير فروته الخاصة ؛ فقد كان الزمان قد برد ، وفصل الشتاء قد ورد . وأذن لهم فى أن يسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره ولإعلام من يوثرون (٢) أن تعرف معارفه أخباره . ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال ، وحفظهم بالقيود الثقال .

(١) المذكور فى ب ول . وفى أ (٢٧١ ى) مقدمهم .
(٢) فى أ (٢٧١ ش) يؤثره .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشرى شوال ؛ كانت نوبة اليزك لأخينا الملك العادل ؛ فأشار بانفاذ عدة إليه تكون فى الكمين ، وتقيم فى المكمن إقامة خادرات الأسود فى العرين . فأنفذنا إليه من مماليكنا سرية سرية سرت سراً واستسرت وسرت ، وقرت فى مكمنها إلى أنْ طابت الأنفس بصنعها وقرت .

ولما أصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين ، وللمنايا إلى ناديهم منادين . فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم، وأظهروا أنهم قد ظهروا عليهم وهربوا ورهبوا إقدامهم .

وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم ، يقوون فيهم رجاءهم ، حتّى أبعدوهم عن المأمن،وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم ، وفتح عليهم أبواب حتفهم ، وأروهم وجوه المنايا فى مرايا غرر الجياد ، ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد . فلقوا البيض بالبيض ، وفلحوا (١) الحديد بالحديد ، وأشعلوا نار الظبا فى ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء ، وعروهم بالعراء ، ولتوهم باللتوت ، وبتوا أعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج ، ولم يبق منهم للبقاء راج .

وأسرت عدة من مقدميهم ، ومعروفيهم ومحتشميهم . وكانت هذه بحمد الله نوبةبغير نبوة ، وكرة بغير كبوة ، وغزوة آذنت بأوفر حظوة ، ووقعة أدنت بل أجنت كل نصرة نضرة عذبة حلوة . والحمد لله الذى تزكو أنعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لشاكريها جدد الجد .

ولولا مرضنا فى النوبة الأولى التى خرجوا فيها بأجمعهم ؛ لما نجوا بحشاشاتهم بل تعجل مصيرهم إلى مصرعهم . لكنا ماقدرنا فى ذلك اليوم على الركوب ، وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر مايكون من العسكر

---

(١) فلحوا : شقوا .

المندوب . والآن بحمد الله قد توفرت حصة الصحة ، ولزمت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام أول شهرين ، والحمد لله على المهلة فى السنتين . فأقمنا مع السقام ، وسقمنا فى المقام . وصبرنا وصابرنا ، وجاهدنا وجاهرنا . ومقامنا فى هذه المدة المديدة فى بلد الغور (١) ، والوخم فيه يقضى على ماء الصحة بالغور . وما منا إلا من التاث ، فأعانه الله بغيث فضله المديمة ديمته الإلثاث (٢) ، والحمد لله الذى أعان وأغاث .

---

(١) الغور : هو غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق (ياقوت ج ١٤ : ٢١٦ - ٢١٨ ط.ب) .

(٢) الالثاث : الدوام ، لث المطر ، دام أياما .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من العساكر إلى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق ؛ بشمول الشتاء العنيف ؛ وانحرف حريف الخريف ؛ كانحراف مضيف المصيف ؛ واشتعلت رؤوس الجبال شيباً للثلج ؛ وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج ، والتحفت كل هضبة ببرد البرد ؛ واكتست الغدران من الجليد بالزرد السرد ؛ ولبست سود الذرا بيض الفرا ؛ وجر السيل الذيل وجرى ؛ وطمر المطر هوادى الوهاد ؛ وقبض أنامل الأنام عن البسط للجهاد ، وجمد الخمر ؛ وخمد الجمر ؛ وارتعدت الفرائص ، وارتدعت الأخامص ، وقرست الأيدى ، وأمسى الجو بالجوى المسىء يعدو ويعدى ؛ وحل الهواء بالوهاد عقود القوى ؛ وعقد المترفون على حب الاصطلاء الحبا ؛ واشتغل الملوك بملازمة المشاتى ؛ ومنادمة المواتى ، ومناقلة المناقل ، ومعالقة (١) العقائل ومعاقرة العقار (٢) ؛ ومسامرة السمار ؛ ومداناة الدنان ؛ واجتناء الجنان ؛ ومناغاة الغوانى ؛ ومناجاة المثالث والمثانى ؛ وملابسة السوالف (٣) والسلاف وملامسة اللطائف واللطاف : فلت نار عزم السلطان حد الشتاء العاتى ؛ ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى إلى المشاتى . وماصده البرد عن مقصده ، ولارده عن مورده . ولم يحتفل باحتفاله ، ولم يبال ببلاله . ولم يكترث بكارثه ، ولم يحدث أمراً لحادثه . فاعتاض الاصطلاء بجمر الحرب عن الاصطلاء بناره ، وجرى على عادته فى مصابرة الأعداء والجرى لها فى

---

(١) المعالقة : الاتصال بهم .

(٢) العقار : الخمر .

(٣) السوالف : جمع سالفة وهى صفحة العنق عند مقدم القرط ، وسالفة الفرس ما تقدم من عنقه .

مضماره . وما لها عن الله ولا رفض فرضه ، وسما إلى سماء الآلاء وأرضاه لما طهر بدم أنجاس أعدائه أرضه .

واستمر على بذل جهده فى الجهاد ، ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهاد . وقال : « إنما أربأ بهذا الأرب ، وأرى راحتى فى هذا التعب . ويقينى يقينى فى ثلج صدرى بلطف الله عنف الثلج ، وما يزد قلبى مع تقلب الحر والبرد إلا برد النصر والفلج . لكنه رأى أن مقام العساكر بجمعها وصرفها عن العود إلى البلاد ومنعها ، يوذن بملالها ، واختلال أمورها وانحلالها . والفرنج قد أمنت غائلتها ، وتكفى فى مداومة قتالها فى نوبها مقاتلتها .

فأذن للجماعة فى الانصراف على المواعدة فى المعاودة فى الربيع ، والرجوع إلى مراد الروع المريع . وليأخذوا أسباب الاستعداد لأوقات الاستدعاء ، وليستكثروا من الرجال المحققين فى نصرة الحق للرجاء ، من أهل الغنى والغناء ، والمضارب والمضاء .

فسار صاحب سنجار — عماد الدين زنكى — خامس عشرى شوال يوم الاثنين ، وتلاه صاحب الجزيرة — ابن أخيه سنجر شاه — ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما — ابن صاحب الموصل — علاء الدين غرة ذى القعدة وما انصرفوا إلا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعة ، وخلعة رائقة رائعة . ومستعملات مصر ، ومصوغات تبر . وخيل عتاق ، وخير واطلاق .

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل عند عود ولده إليه
وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان أسعدنا بقرب الملك السعيد ؛ وما أجد جدنا بإنارة نوره ،وأوفر حبورنا بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده ! وما أبهج الإسلام بنصرة ناصره ؛ ونجدة وليّه وودوده ! ولقد تمت بأيامن أيامه وبركات مقامه في العدو نكايات ، وظهرت لأولياء الله من ألطاف كفاياته آيات ، ووقعت بالمشركين روعات ، وراعت وقعات .

وقد أردنا أن نستظهر بمرافقته ، ونبنى الأمور على موافقته . فما أيمن سعده ، وما أسعد يمنه ! وما أوقر وزنه ، وأغزر مزنه ! لكنا عرفنا شوق المجلس إلى اجتلاء سناه ، بمقتضى آدابه التى استكمل بها أدوات الارتقاء فى مطالع علاه . فقد فاق بسداد رأيه الكهول ، وما أزكى الفروع الطيبة إذا أشبهت الأصول . وما أسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ، أدام الله علاءه ، وسر بفضائله أولياءه .

وقد توجه والقلوب معه متوجهة ، والنفوس لغيبته متكرهة ، والعيون لترقب ورود البشائر عنه متنبهة ، والأيام لظلمة الاستيحاش بالليالى متشبهة ، والموارد إلى أن يمن الله بعود الأنس بعودته متسنهة ، والألسن بذكر أخلاقه الطاهرة والإفاضة فى شكر محاسنه الزاهرة متفوهة . والخواطر فيما تمثلته أيام الاستسعاد به من مبهجات آلائه متنزهة .

ولا شك أنه يصف بلهجته الفصيحة ، ما اقتناه من المتاجر الربيحة ، وقدمه من المساعى النجيحة ، واستنجحه فى الغزاة من مغازيه الصحيحة ، وأبداه فى البأس من بسالته الشيحة . وأطلعه فى ليل العجاج من صبيحة (١) بهجته الصبيحة . وله فى كل نصرة وهبها الله للإسلام أوفى نصيب ، فقد أصمى مقتل الكفر بكل سهم مصيب ، وهو لمستصرخ الهدى أسبق ملب وأسرع مجيب ، وأن الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح إرادته أفضل مثيب .

---

(١) فى ب صحيحة وفى أ (٢٧٤ ى) صبحه .

ذكر ما تجدد بعد ذلك فى هذه السنة

لما هاج البحر وماج ؛ وأظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج سفنهم خوفاً عليها إلى صور فربطوها بها،وأخلوا ساحل عكاء من إرعابها وارهابها . وخلا لنا وجه البحر ، وغابت عن الساحل مراكب الكفر . فاشتغل السلطان بانفاذ البدل إلى البلد ، من الثابتين فى الجلاد على الجلد .

فانتقل الملك العادل بمخيمه إلى جانب الرمل ، ونزل قاطع نهر حيفا فى سفح الجبل ، لتسهيل طريق من يسيره إلى البلد من البدل . فإن المقيمين فى عكاء شكوا أمراضاً معترضة ، وأعراضاً ممرضة . وكثرة السواد ، مع قلة النفقة والزاد .

وكان فى البلد زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندى ، وأسطولى وبحرى . ومتعيش وتاجر وبطال ، وغلمان ونواب وعمال . وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا ، وإذا عاينوا خوفاً على الموضع موهناً عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان أن يفسح لهم فى الخروج رفقاً بهم ورآفة . وما أفكر أن فى ذلك مخافة وآفة .

فقد كان فيه أمراء أمروا الأمر ، وألفوا الصبر ، وما نعوا الحصر ، واجترأوا وتجاسروا ، وصبروا وصابروا ، وحاربوا وحربوا ، وجاروا وجربوا ، وزاولوا وأزالوا ، وحاولوا وأحالوا ، وعرفوا مكامن المكايد، وكشفوا كوامن المقاصد . وأخذ كل موضعه فى الحرص على الحراسة ، وشاعوا بالسماحة والحماسة .

وكان فيهم من يطعم وينفق ، ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق ، مثل حسام الدين أبى الهيجاء السمين (١) ، فإنه أنفق ما ادخره من الألوف

---

(١) حسام الدين أبو الهيجاء السمين : كان مقدم الأكراد الأسدية ، شجاعا مقداماً ، عارفاً متجملا ، سيوسا ، ولى نيابة القدس فترة ثم عزله العزيز عثمان بن صلاح الدين ، سار إلى بغداد وأصبح من جملة أمراء الخليفة فسيره إلى همذان فلم يتم له أمر واختلف أصحابه عليه فاستحيا أن يعود إلى بغداد فسار الى الشام ومرض بها ومات سنة ٥٩٤ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٥ ط. دار الكتب) .

والمثين . مستمراً على إنفاق ، لا تعتريه فيه خشية إملاق . وهناك ستون أميراً ومقدماً ، وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق ، والإعانة على ما يتفق في الحصر من التضييق .

فلما خرج الخواص خرج معهم العوام ، وتبدد بتبدد نظمهم النظام . وألزم السلطان جماعة من الأمراء بالدخول ، فخدموا على أن يعفيهم بالبذول . فلم يقبل منهم بذلا ، وألزم بنقل الأزواد لبعض ستهم كلا . فلم يدخلوا إلا بعد لاى ، وقد بلغوا في غي الرأى إلى أقصى غاى . وأكثرهم صرف رجالة المعروفين المستخلصين ، واقتنع بمن استجد استخدامه من المسترخصين . وأذهبوا الأيام بالمدافعة ، وأبطأوا عن فرض المسارعة .

والملك العادل هناك يحثهم ويحضهم ويحرضم ، ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من دخل عشرين أميراً مقدمهم الأحمد — سيف الدين المشطوب على بن أحمد . وأمر السلطان بالمناداة في الأبطال البطالين(١) ، ليحضروا لقبض النفقات ؛ وكان يحضر الجاووش في كل يوم مئين ، ويصبح نواب الديوان في أمرهم مرتبين . لحرصهم على توفير الدرهم ، وبخلهم بالنفقة ويعدونها من المغرم . ومعظمهم من نصارى مصر ، ومن هو مصر في نصرة النصارى ، وفي تعسير ما يجب تسهيله ؛ وتعقيد ما يجب تحليله ؛ لا يجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم للقبط قطب ، وفي الخبط خطب . وللشر شرك ، وفي الحس حسك(٢) . وللمشرك مشارك ، وللدين تارك فارك .

ولهم أخلاق أخلاق ، وطباع بالطبع أغلاق . تأوى للبخل والتبخيل إلى التأويل ، وتقلى لتكثير السوء في الخير سوى التقليل ، وهم جالبون للغى ، طالبون

---

(١) البطالون من الأجناد والأمراء . هم العاطلون من اقطاعات الدولة ووظائفها لكبر السن أو لغضب السلطان أو لغير ذلك (السلوك ج ١ : ٧٣ تحقيق د . زيادة) و (الروضتين ج ٢ : ٥٣٢ تحقيق د . محمد حلمى أحمد) .

(٢) غضب .

للبغى ، كاسبون للذم ، مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولى الخزانة ، يرى الشح بما يجود به السلطان من الأمانة . وأصنعهم فى الكفاية عندهم أمنعهم للإطلاق ، وأعذقهم (١) بالخلق أقذعهم ، وأعقدهم للحق أقدعهم (٢) . وأجودهم أرداهم ، وأضلهم أهداهم . وهم متفقون فيما بينهم على الخيانة ، مختلفون فى الظاهر لإبداء الصيانة .

وكان يحضر هؤلاء لعرض البطالين واستخدامهم ، ويوحشونهم بخطابهم وينفرونهم بكلامهم . ويقابلونهم بالجبة ، ويعاملونهم بالنّجه (٣) . ويواجهونهم بالسوء ويسوءونهم فى الوجه . ويشتطون فى طلب الضمان ، ويشترطون ما ليس فى الإمكان ويطردونهم بقبيح الزجرة ، ويكسرونهم فى صحيح الأجرة .

والسلطان يجود جود السحاب ، ويأمر بالعطاء الحساب . ويجد حث النواب ، ويجد فى بعث الأصحاب ، ويقول : «أنفقوا ولا تخشوا اقلالا ، وأنهضوا الرجال خفافا وثقالا ، ولا تؤخروا شغل اليوم إلى غد إمهالا أو إهمالا . ولا تقدموا على هذا الفرض فرضاً ولا نفلا ، ولا تعتقدوا أن لنا أهم من هذا الشغل شغلا » . ونواب الديوان على عادة جهالتهم ، وعادية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير ، وما دخل الثغر إلا قليل من كثير . وما صح من البدل إلا بعضه ، وما قضى حق الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقوى أسباب الضعف ، وأوفق دلائل الخلف .

وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه فى سنة سبع ، فإنه عاد كل ما دبر بضرر على الثغر لا بنفع .

وأقام الملك العادل على البحر لازاحة علل الداخلين ، وإراحة قلوب الواصلين . حتّى عاد الفرنج بمراكبهم ، وانقطع بوصولهم الطريق من جانبهم . واقتنع البلد بمن إليه تحول ، وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثانى ذى الحجة ، وصلت من مصر بالغلة بطس

---

(١) أعذقهم : من اختص منهم .

(٢) أقدعهم : أذلهم وأضعفهم .

(٣) النجه : الرد بأقبح الرد والاستقبال بما يكره .

سبع . وكان لها للحاجة اليها وقع ، وقيل قد تم بها للجائعين شبع . وانقلب أهل البلد إلى البحر لمشاهدتها ، ومعاونة جماعتها ومساعدتها . ونقل مافيها من بضائع وحوائج ، وسلع روائج . ومأكول ومطعوم ، ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهدهم ، وانتهى إلى الغاية جهدهم .

فلما تسامعوا بالبطس ؛ تسارعوا إلى الملتمس . فعلم الفرنج بانقلاب أهل الثغر إلى جانب البحر فزحفوا زحفاً شديداً ، وحملوا جندلا وحديداً. وأتوا بسلالم لينصبوها على الأسوار ، وصارت عكاء وهم حولها كالمعصم فى السوار . وترقوا فى سلم واحد متزاحمين ، وللضيق متصادمين . فاندق بهم السلم المنصوب ، وسطا بعصابتهم المعصوب بها النصب سوط العذاب المصبوب .

وتدارك الناس ، وتلافوا وتلاقوا ، وتعاطوا كؤوس المنايا وتساقوا . ورأوا غمرات الموت فزاروها ، وداروا حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه ، وألفوا الأجل كامنا فأثاروه . وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع ، ورفعوا لقرى العواسل الجياع نار القراع ، وأطالوا بشبا العوالى للعوافى باع الإشباع . وأنبعوا عيون النجيع من عيون الجميع على جداول البيض ، وأفاضوا فيوض الدم القانى بالصارم المفيض . وقتلوا وسفكوا ، وفتكوا وهتكوا . وردوهم على أعقابهم ناكصين ؛ ومن حسابهم ناقصين . ولاشتغال الناس بكشف ماعرا من الغمة ؛ وأظل من الظلمة ؛ والتهائهم بنقل الغُلّة ، عن نقل الغَلّة ؛ وتركوا البطس بحالها ، مملوءة بغلالها ، حتى هاج البحر فضرب بها الحشف ، وأذهب بكسرها كل ما فيها وأتلف. وغرق من كان فيها ، وأتى الغرق على الأمتعة التى تحويها . حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفساً ، عدموا ولم نجد لهم حساً . ناموا والقدر منتبه ، وذهلوا وحكم القضاء إليهم متوجه .

وفى ليلة السبت سابع ذى الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكاء على فصيلها فهدمته ، وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة ، فتبادروا إليها طمعاً فى هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم ،

وصلوا عنها بنحورهم . وبنوها بأبدانهم إلى أن بنوا ذلك البدن ، وعمروا ما خرب وقووا ما وهن . وقتلوا وجرحوا من العدو خلقاً ، وأوسعوا بالمضايقة فى كل ذى خرق خرقاً، فانجلت الحرب عن طريح صريع ، وجريح إلى الهزيمة سريع ، وطليح للعقير قريع .

وعاد الثغر أقوى مما كان وأحكم ، وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر الأمراء وضجوا ؛ وطلبوا الخروج ولجوا ؛ أقام ولم يرم ، ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم .

وفى ثانى عشر ذى الحجة هلك ابن ملك الألمان بمرض الجوف ،ولعله من عرض الخوف ، وأدرك أباه فى الدرك الأسفل من النار ، وأبصر فى جهنم مصاير أمثاله من الكفار . وزاد بهلاكه ألم الألمانية ، وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه فى السفر إلى سقر ؛ كند كبير يقال له — كند تيباط ، دافع القدر فما قدر . وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير ، واشتغلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرى ذى الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان فى براكيس (١) ، ليغزوا فى البحر ويكونوا أيضاً لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا وغلبوا ، وكسروا وكسبوا ، وسروا وأسروا ، وقسروا فظفروا . وذكروا أنهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس ، وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس . وأسر التجار وأخذ المال وحيزت تلك المراكب وجذبت إلى الساحل ، فاذا هى مشحونة بالكرائم الجلائل . من كل آنية مطبوعة ذهبية ، وحلية مصوغة نضارية ، وآلة فضية ، وأباريق وأكواب وأقداح ، وأطباق وموائد وسبائك وصفاح ، وكاسات وطاسات، ومرافع وشربات . فوفر السلطان

---

(١) البراكيس : جمع بركوس ، ذكر الدكتور الشيال فى مفرج الكروب ج ٢ : ٣٣٨ — بتحقيقه عن محيط المحيط أن البركوس أو الباركوس ضرب من السفن بين البريق ، والفرقاطه وعن kindermann op. cet. p.5 أنها مأخوذة من الكلمة الايطالية Barcoso ويقابلها بالفرنسية Barque وبالإنجليزية Bark .

عليهم هذه الأكساب ، ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب وأظهروا لهذه النهضة أنهم مناصحون ، وليمين الإيمان مصافحون .

فلما أكرموا بتلك المكرمة ؛ أثنوا على اليد المنعمة . وأسلم منهم شطرهم ، وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطانى كرموا ، وأنسوا وأسلموا . وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة عالية ، ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها فى الوزن ، ويتعذر وجود ذلك للملوك فى الخزن . ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطاراً ، فما أعارها السلطان طرفه احتقاراً . وقال لهم : «خذوها فأنتم بها أولى » . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى .

وكنت عنده جالساً ، وبلطفه مستأنساً ، فقلت له : « ما أظن فى الوجود ملكاً يسمح بمثل هذا المال ، خصوصاً وقد أغنمه الله من الحلال» . فتبسم لقولى غير معجب به ، وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه .

وفى الرابع والعشرين من ذى الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفراً ، فجلا لنا نصراً ، وعلا نجحاً وحلا ظفراً .

وفى الخامس والعشرين منه أخذ أيضاً بركوس ، فيه من الفرنج مقدمون ورءوس . وهم نيف وعشرون ؛ منهم أربعة خيالة ، ضمتهم من الأسر حبالة (١) . ومعهم ملوطة (٢) ؛ مكللة باللؤلؤ منوطة ، وبأزرار الجوهر مربوطة . قيل إنها كانت من ثياب ملك الألمان ؛ وأسر فيه رجل كبير قيل إنه ابن أخته ؛ وهو كبير الشان .

وفى هذا الشهر كان قدوم القاضى الأجل الفاضل (٣)، رب الفضائل والفواضل من مصر ؛ فأشرقت المطالع ، وأشرقت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه ، ، وغزرت المواهب بسماحه . وغابت بحضور

---

(١) حبالة : مصيدة .

(٢) ملوطة : جبة من الحرير

(٣) القاضى الفاضل : يقصد القاضى عبد الرحيم البيسانى الكاتب المعروف وثقة صلاح الدين ووزيره الأول وقد سبق التعريف به .

مكارمه المكاره ، ونزع بلبسة أفضاله لباس الخمول ذوى الفضل النابه ، وأعاد روح السلطان بإعادة الروح إلى سلطانه ، وسر بمكانه ، واقترن إحسانه بإحسانه . وظهرت فى وجهه به الطلاقة ، وفى قلبه العلاقة ، وروى رأيه برى رايه ، وتلقن آيات النصر من نص آيه .

وانتعش عثارى بمقدمه ، وانتقش خط فخارى بكرمه . وحلى عطلى ، وحيا أملى ، وقوى عملى . ووضح منهاج مناى ، وصح مزاج غناى . ونبه قدرى ، ونوه بذكرى . وسعى فى رفع رتبتى وزيادة راتبى ، وسن غربى (١) ؛ وأسنى غاربى(٢) . وأقرنى وقربنى ، واستكتب الحظوط بالحظوظ كما كان استكتبنى . فعشت ونعشت ، وفرشت بساط الغنى فرشت. ولولا أننى قويت به لأقويت ، ولولا أنه أولانى عارفته لما عرفت ولاتوليت، فأنا شاكر نعمه عمرى ، وعامر كرمه بشكرى .

(١) سن غربى : ملح وأطرى نشاطى .

(٢) أسنى غاربى : أعلى قدرى .

استشهد فى عكاء سبعة من الأمراء كل منهم سبع ، ما فى لقائه للقرن طمع . ومن جملتهم (سوار) من المماليك الخواص ، ومن ذوى الاستخلاص وكان هذا (سوار) فى كل حرب مساورا . ولكل هول مباشرا ، وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر ، فإذا هو إلى الجنة سائر . وكذلك عدة من أمراء الأكراد ، كانوا من الآساد ، ففازوا بحظ الاستشهاد .

وخرج أسطولنا فى هذه السنة بشوانيه المعجبة المحسنة . ليكبس شوانى الفرنج فى مواضع الربط ، وإحراقها بقوارير النفط . فخرجوا إلى شوانينا بشوانيهم ، ولقوا عواديها بعواديهم . وظفرت أساطيلنا وطالت ، ووصلت إليها وصالت ، ونالت من الظفر ما نالت . وأحرقت للكفر شوانى برجالها ، وغرقتها بأبطالها .

وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه أمير مبارز ، كالأسد الخادر(١) . لا يصحر إلا للفريسة ولا يبرز . وهو يعرف بجمال الدين محمد بن أركُكُز . فشين الشينى وشانه ، وما أعانته أعوانه ، وامتلأت بالأعطاب أعطانه ، واضطربت للانكار أركانه ، واضطرمت بأهل النار نيرانه . فتواقع من فيه إلى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء .

ووقف الأمير على قدم جلده يجالد ، ويجد ويجاهد ، وقد أثقله بلبس البسالة الحديد، وخف به العزم الشديد السديد، وقد دعاه إلى أمنية المنية الذكر الحميد ، والأجر العتيد . فما ارتاع للروع ولا استطاع الانقياد بالطوع . ولامكن العدو من مكانه ، وأخذ مع الشانىء بشنآنه .

ولولا أن ملاحيه جبنوا وفروا ، ومناصحيه خذلوا وما قروا ، لجنى بسيفه ثمر النجاة ، لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة ، فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع ، وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا : « خذ

(١) الخادر : الفاتر الكسلان ، أو الذى لزم خدره وعرينه .

منا الأمان واستأسر ، وهون الأمر عليك ولا تعسر ويسر . فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم ، وأنت فى عين الهلاك إن لم تعطنا اليد وثبت على هذه القدم » . فقال : « ما أضع يدى إلا فى يد مقدمكم الكبير ، ولا يخاطر الخطير إلا مع الخطير » . فسموا له كندا أرضاه ، وأراد أن يشركه فيما الله قضاه .

فلما دنا ليأخذ يده لزمه وعانقه ، وقوى عليه وما فارقه . ووقع إلى البحر وغرقا ، وترافقا فى الحمام واتفقا ، وعلى طريقى الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم ، وصلى الكند الكنود بنار الجحيم .

واستشهد أيضاً فى ذلك اليوم الأمير نصير الحميدى ، جرح فمضى حميدا ، وشهد مقامه فى الجنة شهيدا ، وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر ، وسعداء المعشر ، وكرماء المحشر ، وندماء الكوثر ، وحلفاء المفخر .

واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى (القاضى المرتضى ابن قريش الكاتب) . وكان صدرا تتجمل به المراتب . وجريًا جارى القلم ، بليغا بالغ الحكم . مهيبا يخشى ، مرهوبا لا يغشى . وهو فى أهبة من المهابة ، وكتيبة من الكتابة . صوبه فى الصواب منتجع (١) ، وخطابه فى الخطب مستمع . ولرأيه ريّ وريّا ، وتدبيره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية دينا ودنيا . ولم يكن له فى الكفاية كفء ، ولم يزل لخروق الخطوب بقلمه رفء .

وكان رجل دمشقى بنابلس له ملك بدمشق قد تركه ، ورغب فى ابتياعه (القاضى المرتضى) ليملكه ، فتقاضى قاضى نابلس مرارا بإحضاره ، فلما حضر رغبه فى البيع على إيثاره ، بأضعاف الثمن ونقد ديناره . فانفصلا على التراضى ، ونجح سعى القاضى للقاضى . وبكر البائع إلى سلام المشترى ، ووثب وثوب المجترى . وطعنه بمديته ، وهو آمن فى خيمته . وفتك به

---

(١) المنتجع : الموضع يقصده الناس طلبا الكلأ .

فتك اللعين — أبى لؤلؤة(١) بالفاروق(٢)، وخرج من الخيمة كالسهم فى المروق . فلقى قاضى نابلس فقتله ، ومضى يسلك سبله . فأدركه الناس وقتلوه، وكاد يفلت لو لم يعاجلوه ، ففجع المنصب بمصابه ، وناب عنه أخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين ، والشتاء لم يشمله شتات شمله ، وعقد البرد لم يقرب محل حله . وللغيث عيث ، ولزور الربيع ريث(٣). وللسحب سح ، وللضح (٥) شح . ولعين الشمس غض ، ولوجه الغيم ومض ، ولأيدى العارض بسط وقبض ، ولنواظر البرق تنبه وغمض ، ولنواجز البرد كشر وعض ، ولفص الفصل ختم وفض . وكل صاد فى بحر كانون (٥) كنون ، وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأوحال أحوال ، وللأهواء أهوال . وللشمال شمول ، وما للقبول قبول . وللجنوب ذنوب ، وللدبور (٦) فى إدبارها وإقبالها هبوب . وللصبا صبابات وصُبابات ، وللندى الندى جنايات وسرايات ، وللجو الجوى آيات ونكايات . وللغمائم غماغم ؛ ولهام الربا من هامى الرباب(٧) عمائم . وللنكباء نكبات ، ولشبا شباط(٨) شبات . والرواعد رواعف ، والهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو ، وحركة وهدو . ومحبة وسلو ، ونزول وعلو ، ونصفة وعتو . وللرعايا العرايا من الرياح الحيارى رذايا أذايا ، وخبايا المروج النابتة فى زوايا الثاوخ النازلة

---

(١) أبو لؤلؤة : هو فيروز عبد المغيرة بن سورة ، طعن عمر رضى الله عنه بخنجر فى خاصرته فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ (أبو الفداء ج ٣ : ١٦٤ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

(٢) الفاروق : هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد أطلق عليه هذا اللقب لأنه استطاع أن يفرق بين الأمور .

(٣) الريث : مقدار المهلة من الزمن .

(٤) الضح : الشمس ، أو ضوؤها أوما أصابته الشمس .

(٥) هو مقابل شهر ديسمبر وأما ما يقابل يناير فهو كانون ثانى .

(٦) الدبور : الريح الغربية .

(٧) الرباب : السحاب الأبيض وواحدته ربابه .

(٨) شباط : ما يقابل شهر فبراير .

خفايا . والعواصف القواصف عواص غير قواص ، والعارض عارض للحب فى العراص عراص(1) ، والقوارس قوارص ، والخوالس(2)خوالص. والبحر فى هيجانه ، والغيم فى هطلانه .

والسلطان مقيم بمخيمه على شفرعم ، ولطف الله به قد خص وعم . والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا ، لتجهيز البدل فى المراكب إلى عكا . والسفن تدخل إليها بالأزواد ، وتعود وترجع إليها بالأجناد . ويحرص ويحرض ، ويرسل إلى السلطان ويستنهض ، والسلطان يفاوض النواب فى ذلك وإليهم يفوض . وفى كل يوم يعرض الرجال ، وينفق فيهم الأموال .

والأمر مستمر ، والقرار مستقر . واليزكية زكية ، وسنتهم فى المناوبة سنية ، ولوافح عزماتهم ذاكية ؛ ونوافح مكرماتهم ذكية . والمماليك الخواص ، ومن خصهم وعمهم الاستخلاص ؛ يغادون القتال ويراوحونه ، ويكافئون العدو ويكافحونه ، ويجاورونه ويجارحونه ، ويبرحون به ولا يبارحونه .

والعدو على عكاء حاشد ، ولضالة ضلاله ناشد . يحتمون ويحمون ، ويرامون ويرمون ، ويذبون ويشبون ، ويجبون إلى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقد قسموا الأسوار على الأجناد والأبراج على الأمراء ، واستقبلوا النعمة فى البلاء ، والسعادة فى المشقة التى تعدها الأشقياء من الشقاء ، إن وجدوا غرة اهتبلوها ، أو استوعروا كرة استسهلوها ، أو صادفوا ملمة صدفوها ، أو لقوا غمة كشفوها ، أو صرفوا أوجههم إلى نائبة صرفوها .

---

(1) عراص : جمع عرصه وهى كل بقعة واسعة بين الدور ليس فيها بناء – والعراص بتشديد الراء هو السحاب ذو الرعد والبرق .

(2) الخوالس : الخلس هو الكلأ اليابس نبت فى أصله الرطب فاختلط .

فى يوم الأربعاء تاسع المحرم ؛ سار الملك الظاهر لقصد بلد صافيثا ؛ بالعزم المصمم ، والرأى المحكم . وفى ثالث صفر ؛ عزم من بقى من أصحاب الأطراف السفر . فإن السلطان رخص لهم فى ذلك ، فانتهجوا فى عودهم إلى بلادهم المسالك .

وأقام السلطان فى أصحابه ، وخواصه وملازمى بابه ، وملابسى جنابه ، ورجال رجائه ، وخلص أوليائه ، ومقربى أمرائه . وفى هذا اليوم رحل الملك المظفر تقى الدين ليتسلم ما فى شرق الفرات من البلاد التى كانت مع مظفر الدين ، مضافة إلى ميا فارقين . فصارت معه جبلة واللاذقية والمعرّة (١) وحماة (٢) وسلمْية (٣) والرها (٤) وحرّان وسميساط (٥) والموزر (٦)

---

(١) المعرة : اسم لموضعين بالشام أحدهما معرة مصرين وهى بليدة وكورة بنواحى حلب . ومعرة النعمان ، وتنسب إلى النعمان بن بشير الصحابى وهى مدينة كبيرة بين حلب وحماه (مراصد الاطلاع تحقيق على البجارى) .

(٢) حماه : احدى المدن الكبرى بسوريا على نهر العاصى وتشتهر بنواعيرها (ياقوت ج ٧ : ٣٠٠ ط.ب) .

(٣) سلمية : من أعمال حمص تارة ، وتارة من أعمال حماة سماها أهل الشام سلميه (بكسر الميم وتشديد الياء) وهى مقربى العباس قبيل بدء دعوتهم السرية وفى أثنائها (ياقوت ج ١٠ و١١ : ٢٤١ – ٢٤٢ ط.ب) .

(٤) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ (ياقوت ج ٩ : ١٠٦ ط.ب

(٥) سميساط : غربى ، نهر الفرات على شاطئه من طرف بلاد الروم (آسيا الصغرى) ولها قلعة فى شق منها يسكنها الأرمن (ياقوت ج ١١ : ٢٥٨ ط.ب) .

(٦) الموزر : كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم (ياقوت ج ١٨ : ٢٢١) .

وميّافارقين (١) . وشرط معه أن يحافظ على عهد صاحبيْ آمد (٢) وماردين (٣) .

والبلاد المظفرية كانت قد بقيت إلى هذه الغاية ، مع كثرة الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب ، غير مسموح بشيء منها للطلاب . فإنه ما رامها من الملوك ، أخى السلطان وأولاده ؛ إلا من يشرط الفسحة له فى استضافة ديار بكر إلى بلاده . ويقال له : « لا سبيل إلى قصد أحد ، ولا انتزاع بلد ، ولا إزالة يد . فإن أرباب البلاد أكثرهم لنا معاهد ، وعلى ودنا معاقد ، وفى شغلنا مساعد . فأما من هو عنا متقاعد ؛ ومنا متباعد ؛ فما هذا أوان مكافأته ، ولا زمان كف آفاته ، وهو منا فى حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق ، وعزمنا فى قمعه متحقق . فلا نثير علينا من المسلم الكاشح ؛ والحاسد الحاشد ؛ من يشغلنا عن هذا المهم الفرض ، والرأى الراشد » .

فقال تقى الدين : « أنا لى فى ذلك الجانب ميّافارقين ، فإذا أخذت حرّان وسمسياط والرها ؛ أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهى ، وبلغت المنتهى . وأنا أدخل على الشرط وعنه لا أخرج ، وأجمع العساكر وإلى نصركم أعرج . وآتيكم بعد أشهر بأوفى عسكر ، وأكرم معشر ، من لابسى سنوّر (٤) ، وملابسى مورد فى الروع ومصدر » .

وما زال يستسعف السلطان عمه ؛ ويسترهف فى تخصيصه بتلك الولاية عزمه ؛ ويسأل ويتوسل ؛ ويرسل ويتوصل ؛ حتى أخذ دستوره ، واستكتب منشوره . وسار على أنه يسرع إيابه ، ويحكم فى العود أسبابه . وإنما يلبث

---

(١) ميافارقين : مدينة بديار بكر قرب آمد وهى أقوى تحصيناتها (ياقوت ١٨ ٢٣٥) .

(٢) آمد : أعظم مدن ديار بكر وهو بلد قديم حصين ركين مبنى بالحجارة السود (ياقوت ج ١ : ٥٦) .

(٣) ماردين : قلعة على قمة جبل الجزيرة ، تطل على دارا أودنيسر ونصيبين (ياقوت ج ١٧ : ٣٩) .

(٤) سنور : لبوس من قد كالدرع .

ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم ترتيب نوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب ، ويأتى بالأتى العباب ، ويعرض عساكر لا تدخل فى الحساب . وسارع إلى الرحيل وسار ، بعدما استشار ، والله استخار .

وفى يوم السبت رابع صفر ؛ وصل كتاب الملك المجاهد ؛ الجواد الماجد ؛ أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ؛ وهو الجرى الذى إذا جارى أضرابه من الملوك فى حلبة المجد لم يدركوه ، ولم يشركوه .

ومضمون الكتاب : أنه خرج فى آخر محرم ، على جشير (١) العدو بطرابلس واستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصّه منه أربعمائة رأس ، تلف منها فى الطريق أربعون ، غير ما كان أصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم أيضاً أبقارا وآب قارّا ، وسار بالغنيمة سارا . وأهدى لى من ذلك بغلة سرجية ، عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله : « لما أبصرها واستحسنها ، قال : تصلح للعماد . فإنه إذا ركبها زينها » .

وفى ليلة هذا اليوم وهو السبت ، كبّت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت ، وكان فيها من الفرنج خلق ، فغرق فى بحر الأسر ؛ من لم يسر إليه فى البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا ، وما هديتا بل أهديتا . وشاهدت الأسارى قدّام السلطان وقد أحضروا ، فردهم على الذين أسروا .

وفى أول ليلة من شهر ربيع الأول ، خرج أصحابنا من البلد على العدو بالناثب الأعضل(٢) ، والناب الأعصل . (٣) وكبسوه فى مخيمه ، وخيموا عليه فى مجثمه . فما انتبهوا لهم حتى أسروا من الفرنج وقتلوا جمعاً ، وأوسعوهم إلى أن ضويقوا قمعا . وعادوا سالمين غانمين ، كاسرين كاسبين . ومعهم اثنتا عشرة امرأة فى السبى ، وعرف الله لهم حق ذلك السعى .

---

(١) الجشير : جاء فى القاموس المحيط أنه الجوالق الكبير أو الوفضة وهو وعاء كالجعبة من الجلد أسفلها مستو أو الخريطة يحمل فيها الراعى زاده وأداته ، غير أنه يفهم من السياق أن المؤلف قصد الجشار وهى الماشية ترعى فى مكانها ولا ترجع إلى أصحابها عند المساء .

(٢) الأعضل : الشديد ، المعضل .

(٣) الأعصل : المعوج فى صلابه .

وفى الأحد ثالث هذا الشهر ، شهر سلاح الحرب أهل الكفر . وخرجوا على اليزك ، وكانت النوبة للحلقة المنصورة خواص السلطان مساعير المعترك . وعظمت الوقعة ، وفخمت الروعة ، وصدمت الصدعة ، واحتدمت على الفرنج بنارها الصرعة . وهلك منهم عالم كثير ، وقتل منهم مقدم معروف كبير ، ولم يفقد منا إلا خادم رومى صغير . عثر به فى الحملة فرسه فلم ينتعش ، واستشهد ليعيش فى الآخرة مع من فى الدنيا مات فى سبيل الله ولم يعش . وهذا الخصى كان فحلا من الفحول ، ناهضا على الكفر للإسلام بحمل الذحول (١) .

وانتهى إلينا أن الفرنج على عزم الخروج ليحتشّوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . . فلا مرعى لدوابهم ولا علف ، وإن لم يتلافوها بالاحتشاش خشوا عليها التلف. فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن يذهب ويقصد الساحل. ويكمُن بعسكره وراء التل الذى كانت فيه قديما منزلته ، وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته .

ومضى السلطان بنفسه فى خواصه وأجناده ، وأقاربه وأولاده ، فكمن وراء تل العياضية ، فى العصبة المنصورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شهر ربيع الأول ، مستظهرا بصحبة ولده الملك الأفضل . ومعه أيضاً أولاده الصغار ؛ ليستأنسوا بالحرب ، ويدمنوا على مباشرة الطعن والضرب . فعرف العدو الخبر ، فما أقدم على الخروج ولاجسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء ، فبات فيها وحوله الملوك والأمراء .

ووصل إليه من بيروت خمسة وأربعون أسيرا من الفرنج : أخذوا بالمراكب فى البحر من اللج . وفيهم شيخ هم (٢) هرم ، عمره فى الكفر منصرم . قد طعن فى السن ، ووهن كالشن(٣). وانحنى كالحنيّة ، وما أمن من المنية . وتحاماه الحمام ، وعامت فى بحر لياليه وأيامه الأعوام . وهو ممسوخ الحلية ، ممسوح اللحية . قد بلى مما بلى ، وقلى من طول ما لقى . وسئم

---

(١) ذحول : جمع ذحل : الثأر ، العداوة ، الحقد .

(٢) الهم : الفانى ، الرقيق النحيف .

(٣) الشن : القربة الخلقة الصغيرة .

حياته وسئم ، وعدم لداته (١) ولذاته وما عدم . وكم جاوز قرنا وعبزه إلى قرن ، وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتى لم يبق منه إلا إهابه ، ولم يرقب منه إلا ذهابه .

فتعجب السلطان من مجيئه من البلاد الشاسعة ، واختياره الضيق على الأرجاء الواسعة . فسأله كم بينه وبين وطنه ، ولأى سبب حركته من سكنه ! فقال : « أما بلدى فعلى مسافة شهور ، وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور » . فرق له ومن عليه بالاطلاق ، وأخرجه من ذل الرق إلى عز العتاق . ورده إلى الفرنج راكبا على فرس ، ولم يرقتله ولا أسره ، حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس . وسأله خدام أولاده الصغار ؛ أن يأذن لهم فى تجريب سيوفهم بجرح الأسارى الكفار . فلم يأذن لهم فى ذلك وأباه ؛ فأرضى كل منهم — بامتثال الأمر — أباه . فقيل له : « لأى سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم ؟ » فقال : « لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم » . فانظر ما تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

---

(١) لداته : جمع لدة وهو الترب الذى نشأ وتربى معك .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

أول من قدم من العسكر الإسلامية علم الدين سليمان بن جنْدر ، وكان بحلب المقدم المؤمر ، وهو شيخ له رأى وتجربة ، ومنزلة كبيرة ومرتبة ، ومعه حصنا عزّاز وبغراس (١) . وللسلطان بقربه ومجاورته الاستئناس . فقدم فى شهر ربيع الأول فى عسكره ، وأبيضه وأسمره ، وبيْضه ومغْفره ، وجنى جنده وسنى سنوّره . وجلبه ولجبه ، وزمره وعصبه ، وبيارقه ويلبه ، وبوارقه وسحبه .

وقدم فى ذلك التاريخ بقدومه الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه — صاحب بعلبك ، وقد استصحب معه مماليكه الترك ، وقد نوى بالمشركين الفتك ، ولسترهم الهتك ، ولدمائهم السفك . فوصل بقواطعه وقواضبه ، وصوافنه وسلاهبه ، وطلائعه ومقانبه ، وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من أسنة العوامل بكواكبه ، وأظمأ جواده ليرد به دماء أهل الكفر ، فإنه يعدها من مشاربه ، فعنّ ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين (٢) بذلك القضاء ؛ جيش زرّت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء ، وجرى ذلك الوادى من (٣) الأجناد والأمراء بسيل خيل ترد دأماء الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن فى حافاته الحرق ، ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق ، ومن علاقته عند الظماء أن لا يرويه إلا العلق ، ومن صبابته بالسير إلى عناق الأعداء بسواعد سيوفه الخبب (٤) والعنق(٥) . ومن شيمته عوض التغلف

---

(١) بغراس: مدينة فى لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب فى المنطقة المطلة على نواحى طرسوس (ياقوت ج ٤ : ٤٦٧ ط.ب) .

(٢) فى أ (٢٨٧ ش) المستقلين .

(٣) فى ب مع والتصحيح من ل ومن أ (٢٨٧ ش) .

(٤) الخبب : ضرب من الجرى.

(٥) العنق : السير السريع .

بالعبير التضمخ (١) بالنجيع ، ومن ديمته وبل النبل من الأحداق والنواظر فى نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته إسْماء حنين الحنية بسهمه ، وإسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا فى ذلك اليوم فوارس لا عرائس ، وقوانس لا عوانس .

وقدم بدر الدين مودود والى دمشق بعد ذلك فى سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ، ووصول الجمع الوافر .

(١) التضمخ : تضمخ بالطيب : تلطخ به .

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكاء واسمه فليب(١)

وفى ثانى عشر ربيع الأول وصل ملك افرنسيس إلى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت(٢) والشت(٣) ، وكان وصوله فى بطس ست ، حملت من الفرنج كل ذى شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصُوله وصوله ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجرى على قوله. وأنه إذا جاء؛ حكم وأحكم ، ونقض وأبرم ، وقدم ما قدّم به من المال وأقدم . ونحن منه على مواعدة ، فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة ، وجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم : « ربّ صلف تحت راعدة ، وما هذه الأراجيف منكم بواحدة » . .فلما وصل فى العدد القليل ، والنظر الكليل ، أعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته . وقلنا : « ما يكاد تصل صولته ، أو تدوم دولته » .

(١) هو فيليب أغسطس ملك فرنسا وأحد الزعماء الذين ساروا بعد هزيمة حطين سنة ١١٨٩م فى الحرب الصليبية الثالثة (مذكرات تاريخ العصور الوسطى فى اوربا والشرق لمحمد رفعت) .

(٢) البت : القطع .

(٣) الشت : التفرق .

وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب . ففارقه يوم وصوله ، بحيث عجز عن حصوله . وأفلت من يده وطار ، وحشا حشاه الباز الذى نار النار . ووقع على سور عكا ، وحزن الملك يوم سروره بفراقه وأبكى . واستجابه فما استجاب ، وأبى وما آب ، وثبت وما ثاب .

فبصر به أصحابنا فأخذوه ، وإلى السلطان أنفذوه . فأبدى للسرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزّة من بز الباز ، وأظهر به احتفالا ، وعده للظفر والمنحة فالا . وبذل فيه الملك ألف دينار فما أجيب ، ولا وهب له ولا هيب ، وما بيع ولا عيب ٥

خبر نادرة فى غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج إلينا ، تسلموا براكيس يغزون فيها ويجرون بجواريها ، وينهضون بسواريها ورواسيها ، وينهشون بعقاربها وأفاعيها . ووصلوا إلى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم ، وقد جمع القس فى كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم . فصلوا معهم فيها صلاتهم ، ثم أغلقوا أبواب الكنيسة عليهم ليأمنوا إفلاتهم . وأسروهم بأسرهم وسبوهم ، وبغتوهم من البلاء بما أتوهم به وبلوهم . وكنسوا كل ما كان فى الكنيسة ، من الأعلاق النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم إلى براكيسهم .

ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما أخذوه من البيعة . ومن الجملة سبع وعشرون نسوة سبايا ، وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا ، واقتسموها خرصا (١) ، وزادوا بما نالوه حرصا . واستغنوا بما استغنموه . وأثروا بما أثاروه وأثروه . وفرحوا بما راحوا به من مغنم ، وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم أربعمائة درهم .

وفى سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية فاقتطعوا قطيعا من غنم الفرنج غنيمة ، وخالطوهم فى خيامهم وأمطروهم من وبل النيل ديمة . وركبوا بأسرهم ، بخيلهم ورجلهم فى إثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

---

(١) خرصاً : كذيا .

خبر وصول ملك الانكتير (١) واسمه ليجرت (٢)
إلى قبرس (٣) واستيلائه عليها

وصل الخبر أن ملك الانكتير وصل إلى جزيرة قبرس فى السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر فى الجمع الوافر ، حاملا جموعا كالسيل الجارف فى البحر الزاخر . وتقدمته إلى الجزيرة ، مراكب وشوانى على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس إليها ، واستولى عليها ، وغنم أموالها ، وصدم رجالها . فلما وصل أرهف حد عزمه ، وأقضى فيْض غيظه إلى غيض حلمه ، وهو مغضب غير مغض ، مريض من ألم الحقد ماله سوى التشفى شاف مرْض . فلبث مفكرا ، ومكث متحيرا ، وتروى متخيرا فرأى أن قبرس فى يده ، فاستن من جده فى جدده . وناشب القتال ، وواظب النزال ، وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالاعناق ، واعتناق الغلاظ مع الرقاق .

ونفذ يطلب من الفرنج على عكاء نجدة ، ليجد بشدة ويوجد شدة . فنفذوا له جفرى أخا الملك العتيق (٤) ، فى جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب ، واشتدت الكروب . ورأى أن فريضته تعول ، وأن حالته تحول ، وأن شغله يطول . واتفق أيضاً أنه كان رام الروم من الفرنج الفرج ، وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج . فتراسلوا فى الصلح ، وخرجوا من ليل الحرب المظلم فى سنى السلم إلى أسفار الصبح .

واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير ، واثقا بما تم من التقريب

(١و٢) ملك الانكلتير ليجرت : هو Richard قلب الأسد ملك انكلترا ابن هنرى الثامن وقد تم الصلح بينه وبين صلاح الدين سنة ١١٨٩ م بعد مراسلات عدة .

(٣) قبرس : هى جزيرة قبرص الموجودة فى شرق البحر الأبيض المتوسط وقد حصلت على استقلالها منذ قليل .

(٤) الملك العتيق : هو « كى » كما جاء فى كتب المؤرخين العرب وهو Guy of Lusignan. king of Jerusalem وقد أسره صلاح الدين يوم حطين وفك أسره بعد أن أقسم أن لايحاربه .

والتقرير . وحمل له هدايا ، وتحفا سنايا . ووسع له الأزواد ، وبذل له الأمداد . فأخله فى مأمنه ، وأبرز له مكره من مكمنه ، وغلّه ثم غلّه وشده وما حله ، وجازاه لمّا أعزّه بأنْ أذلّه ، وغادره بغدره فى القد والقيْد ، وما بطشت يد عادمة إلاّ يد كيَد الكيْد .

واستولى بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق فى جمات أمواله الغزيرة . وسيأتى ذكر وروده وما تم به لأحزاب الشيطان وجنوده .

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الأحد ، وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة بالنجح المتجدد ، وهو أن أصحابنا أخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية فى البحر من مراكب الانكتيز خمسة وطرادة ، ولم تكن لولا إباء رجالها للضيم معتادة ، وبخزام القهر مقتادة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال ، وذخائر أخاير من عدة ومال ، وأثقال وأنفال ، وأخشاب وآلات وأحمال وأحوال . وفى الطرادة أربعون رأسا من الخيل الجياد ، قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا وأجيزت إلى بيروت وأجيزوا ؛ فأما السبايا فقد أخرجن على البيع بالنقود والنسايا (١) ، وأما الأسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفى يوم الخميس رابع جمادى الأولى زحف العدو إلى البلد ، بالجد والجلد ، والعدد والعدد ، والمدى والمدد ، والجمع المحتشد ، والجمر المتقد . والبيض واليلب ، والبيْض والقضب ، والسمر السلب ، واللجب والجلب . والصياح والضجيج ، والعجاج والعجيج ، والوشيج بالوشيج ، والأمر المريج . والقصد بالقصْد (٢) ، والزغف والزرد . والحديد والعديد ، والقريب والبعيد ، والاتباع والعبيد . والأوباش والأوشاب ، والكلاب والذئاب ، والسباع والضباع ، والضوارى الجياع . والأساود والأسود ، والزرق والحمر والسود . ودبوا وذبوا ، وشبوا وسبوا ، وصابوا وصبوا ، ونابوا ونبوا ، وعبوْا وعبُوا ، وجابوا وجبوا ، وزحموا ورجموا ، وأقدموا وتقدموا .

---

(١) النسايا : البيع بالأجل وأنسأ فى البيع ، باعه وأخر له دفع الثمن .

(٢) القصد : جمع قصده وهى القطعة مما يكسر .

وقدموا سبعة مجانيق وقربوها ، ونصبوا فيها ونصبوها . فعلت كأنها قلاع ، وارتفعت على التلاع كأنها تلاع . وهى فى الجو مترامية ، وبالجو رامية ، وفى السماء سامية ، ولأهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها ، مقتلعة بمقالعها . منقضة أحجارها لانقضاض الجدار ، منفضة أسواؤها لانفضاض الأسوار . حاصرة حاصبة ، عاملة ناصبة . قائمة قاعدة ، بارقة راعدة . صادمة صادعة ، صارمة صارعة . حبالى من الجبال أجنتها ، وحنايا للحنين على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع فى حجورها الأحجار ، ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق ، صوائل بالفلق على الخلق . مطايا للمنايا ، روايا لحبايا ها البلايا .

فى كفاتها آفاتها . وفى حركاتها إدراكاتها ، وللتعذيب عذباتها ، وللترهيب جذباتها ، وما أعظم جنايات جنادلها ، وأظلم غوايات غوائلها . وهى الروائم الروامى ، والحوائم الحوامى . والهوادم بالهوادى ، والصوادم الصوادى ، ودواعى العوادى ، ونواعى النوادى . والنواعب بالنوى ، والجوائب بالجوى . والصوائب بالمصائب ، والنوائب بالشوائب . إذا جذبت جذت ، وإذا قذفت أقذت ، وإذا طوحت طرحت ، وإذا حلقت حلقت . وإذا أطارت أبارت ، وإذا ألقت ألقمت .

فشق على أصحابنا بالبلد شقاقها ، وكادت تفتح إليه الطرق طوارقها وطراقها . فاستصرخوا بنا واستنهضوا ، وحضوا على حظنا وحظهم وحرضوا ، واستنفروا واستنصروا . واستعدوا واستدعوا . فأصبح السلطان راكبا فى العساكر ، طالبا شغل العدو الكافر ، الحاضر الحاصر . وسير من كشف هل للعدو كمين ، أو كيد دفين . ثم وقفت العساكر عنه ومر إلى تل الفضول بالقرب ، وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب ، ونكايتها فى الضر والضرب . وعرف أماكن القتال ، ومكامن الرجال ، وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد أطل وأظل ، ذل جمعهم وكل ، وترك الزحف وانفل . وإذا عاد عادوا وعدوا ، وأثاروا فى الحرب وأسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا فى الليل استلبوا طفلا من يد أمه ، وفطموه رضيعا له ثلاثة أشهر فى غير أوان فطمه ، واستحلوا بحكم الجهاد فى جنح الظلام جناح ظلمه . وفجعوها بواحدها وساعدها ، وكدروا صفو مواردها . وقطعوا عنها فلذة كبدها ، وأسعروا عليها جذوة كمدها ، وحرموه درّ لبنها فدرّ دمعها . وأبعدوه عن مناغاتها ومناجاتها ، فوقر عن كل حديث سمعها .

فخرجت والهة ، وللحياة كارهة ، وللخد خادشة ،وللوجه خامشة . معولة مولولة ، مذهلة مشتعلة : قد شُدهت (١) ودهشت ، وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها ، مذ سلب طفلها . وغاب ذهنها،مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والأنين ترجيعها ، وتردد للقلوب مما فجأها ، وفجعها من الكروب تفجيعها . وهى نائحة فى كل ناحية ، نادبة فى كل ناد ، نادية لكل فؤاد ، عادية فى كل واد .

فلم يشعر السلطان إلا بامرأة بالباب واقفة ، وبالنحيب هاتفة . وللدموع حادرة بتصاعد أنفاسها ، ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها . قارضة صدرها بتقطيعها ، ضارعة لفقد رضيعها ، معوّلة على الطفل معولة على الطف ، متنكرة من النكر متعرفة إلى العرف .

فأحضرها السلطان وهى باكية ، ونار اكتئابها ذاكية . تتحدر عبراتها ، وتتصعد زفراتها ، وتتلهب حسراتها . تبكى ببكائها ، وتشتكى من دائها ، وتنشد ضالتها ، وتطلب مهجتها ، وتسأل عن حشاشتها ، وتشتعل نار قلبها على فراشتها .

فلما شاهدها السلطان حريبة حزينة ، مسكينة مستكينة ، متجننة متحننة مولعة مولهة ، موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها ، ورثى لبلواها ورحمها

(١) شدهت : دهشت .

ورق بلطفه للطفل الرقيق ، وسلك بفضله طريق التوفيق . وطلب الرضيع ، فقيل له إنه بيع وأضيع . فإنّ آخذيه باعوه بثمن بخس، ولم يعرضوه فى سوق بزّ ، ولا سوق نخس . فما زال يبعث ويبحث عنه ؛ ويلوم باذله كيف لم يصنه ؛ حتى جيء به فى قماطه ، وقد كاد يلف فى عباءة اعتباطه .

فلما أبصرت واحدها ؛ ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت ، وشدّت يدها به وشدت . فأعادها وبنواله أفادها، وبردّ حرّها بردّ روحها، (وأسا ما أساء[1] الأسى[2]) من جروحها وقروحها ، وروّحها بروحها، وفرّع دوحها ، وأغناها بغنائها ، للشكر عن نوحها . وظهر سر سرورها عليها ببوحها ، وشيع معها من أوصلها إلى موضعها ، وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . وما رد الطفل إلا بعد ما اشتراه من مشتريه بثمن يرضيه، (وهذه نادرة[3]) من جملة أياديه .

---

(١) فى أ (٢٩٣ ش) أساته .

(٢) فى أ (٢٩٣ ش) « وأسى ما أساته الأسى » أما فى ب ول « وأسا ما أساء الأسى » .

(٣) ما بين المقوسين ساقط فى أ (٢٩٣ ش) .

ذكر انتقال السلطان إلى تل العياضية

لما أصر الفرنج على مضايقة عكاء فى كل يوم ؛ وخطبوا متاع متاعبهم فى ابتياعها بكل سوم ؛ وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم ؛ وداروا حول حمى دارها بكل حوم ، ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر إليهم فى كل بكرة وعشى ؛ وإرعاب القوم بكل حد موهوب وجد مخشى ؛ وكانت المسافة نائية ؛ والآفة دانية ؛ انتقل السلطان إلى تل العياضية ، بعساكره وأثقاله بالكلية ، بالعزائم والصرائم الماضية المضية ، الراضية المرضية .

ولم يكن انتقاله دفعة واحدة ، بل مهد له قاعدة . فإن يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغه أن القوم قدعاودوا العوادى ،ورفعوا من ضلالتهم الهوادى . وضايقوا البلد أشد مضايقة ، وعالقوه أجد معالقة . فأمر الجاووش حتى نادى ، وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل إلى الخروبة وقوى اليزك ، وألزم المقدمين والأمراء بحفظ نوبهم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو إذا عاين قلتها خرج بالكثرة ، وتورط فى العثرة . فلم يشغل بها بالا ، ولم يلفت إليها جنانا ، بل تصرف على عناده ، ولم يصرف نحوها عنانا .

واشتد على البلد زحفه ، وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم ، فترك (١) العدو الحصار وأحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو إلى مجثمه ، والسلطان على قصد العود (٢) إلى مخيمه . ولما وصل إلى تل الخروبة ؛ ونزل فى خيمة لطيفة لأجله (٣) مضروبة ، وصل من اليزك من أخبره أن العدو لما علم أنه قد انصرف ، عاد إلى أشد ما كان فيه وزحف ، وأنه قد أرعب

---

(١) فى ب ول (وترك) والمذكور من أ (٢٩٤ ى) .

(٢) فى ب ول العدو والتصحيح المذكور من أ (٢٩٤ ى) .

(٣) فى أ (٢٩٤ ى) له .

وأرعف ، وأرهق وأرهف ، وألهى وألهب (١) وألهف . وأرهب وأرهج ، وأعجز وأزعج . وثار وأثار ، وألحم الملحمة بناره وأنار .

فبعث السلطان هذا الخبر على أن بعث إلى العساكر بالمخيم فأعادها ، واستنهض إلى الفريسة آسادها ، وأجرى فى حلبة الحمية جيادها . ودعاها إلى طعن يبرح بالذوابل ، وضرب يرنح أعطاف المناصل ، وأمرها من الحرب بأمرّها ، وأدارها من مرْى أخلاف الدم بأدرّها .

ثم سار آخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأولى إلى تل العياضية قبالة العدو ، وضرب خيمته بأعلاه ظاهر العلو . والعدو بالحصر والزحف مصر مضر ، وعلى عنائه وعناده مستمر . والسلطان فى كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم ، ويراوحهم ويغاديهم ، ويفاتحهم ويباديهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا ، وطعْن كما اقترحته كعوب القنا . وفتك كما تمنته المنية ، ورمْى كما حنت إليه الحنية . هذا ومجانيق الكفر على الغى مقيمة ، وللرمى مديمة . وبالأحجار متقاطرة ، وعلى الأقطار حاجرة . وللجلاميد بالجلاميد قارعة ، وللصخور بالصخور قالعة .

وتمكن الفرنج بها من الخندق ، فدنوا منه دنوّ المحنق . وشرعوا فى هجمه ، وأسرعوا إلى طمّه . وداموا يرمون فيه جثث الأموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون إليه موتاهم . وأصحابنا فى مقابلتهم ومقاتلتهم قد اقتسموا فريقين ، وافترقوا قسمين . ففريق يلقى من الخندق ما ألقى فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه .

---

(١) ساقطة فى ب مثبتة فى كل من ل وأ (٢٩٤ ش) .

ذكر وصول ملك الانكتير

وفى يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور ، أشاع أشياع الكفر من السرور ، وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكتير ، وأظهروا أنه فى الجمع الكثير ، والجم الغفير . وكانت معه من الشوانى خمس وعشرون قطعة ، كل واحدة منها تضاهى تلعة ، وتوازى قلعة ، واحدث فى القلوب روعة ، وأرّث فى النفوس لوعة .

ولمعت لنا من خيامهم تلك الليلة نيران زائدة ، وأنفاس للشرار متصاعدة ، وألسنة للشعل نضناضة (١)، واشعة على الجو مفاضة . فكأنما أوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها ، وأوصلت لوصول أولئك الشرار شرارها ، وأوْرت(٢) لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قد بسطت على أهل الدياجير(٣) الأضواء ، وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضلالهم الظلماء .

فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم ، ولما كانوا من أهل النار (قامت النار (٤)) ببرهانهم ، وأتتهم باتيانهم ، واضافتهم فى مكانهم ، وملك الملك بأمره أمرهم ، وأراهم أن بيده نفعهم وضرهم . وملأ عين الملاعين ، وأطال لتطاولهم أشطان (٥) الشياطين . وحفر للمكايد آبارا ، وأثر فى المكر آثارا ، وأرث للشر نارا ، وأثار لنصرة النصرانية ثارا .

وتحدث الناس بحادثه وحديثه ، وبما تاثرت القلوب به من تأثيره وتأريثه ، وارتابوا وارتاعوا ، والتاحوا (٦) والتاعوا . وغدت الألسنة ترجف

---

(١) نضناضة : النضناضة من الحيات التى أخرجت لسانها تحركه ، والتى لاتستقر فى مكان أو التى نهشت فقتلت من ساعتها ، والمقصود متحركة قاتلة .

(٢) فى أ (٢٩٥ش) ورد .

(٣) فى أ (٢٩٥ ش) الدياجر .

(٤) ساقطة فى ب مثبتة فى ل وأ (٢٩٥ ش) .

(٥) أشطان : جمع شطن وهو الحبل .

(٦) التاحوا : عطشوا . التاعوا : احترقت قلوبهم من الهم ، وكانت بها لوعة .

والقلوب تجف . وكاد الباسل يجبن ، والباطل يخشن . والحق يلين ، والدين يدين .

والسلطان قوى الجنان ، روى الإيمان . صاف يقينه ، واف دينه . شاف نصحه ، كاف نجحه ، مسفر لعين الاسلام صبحه ، مسرف فى قلب الكفر جرحه . ماض عزمه ، قاض حكمه، مثبت جيشه بثبات جاشه ، عامل لمعاده ، ونصر الحق فى معاشه . متأن فى تفكره ، متأت فى تدبره، متوكل على ربه فى نصرة دينه ، متوسل إليه فى تأييده وتمكينه . لا تروعه المخافات ، ولا تخيفه الرائعات . ولا تزعزع الخطوب طود وقاره،ولا تفض النوائب ختم ذماره . ولا يلين للشدائد،ولايستكين للروائع الرواعد . وكم سكن الإسلام بحركاته ، وأخصبت الأيام ببركاته ، ونام الأنام ليقظاته،وأمنت مصر والشام بنهضاته .

فما راعه ما عرا ، وما درأ عزمه لما درى. ولارد وجهه عما قصد ، ولاصدف رأيه عماعليه اعتمد ،بل ازداد قوة بصيرة،وازدان بسريرة لكشف أسرار الغيب مستنيرة ، وعمد إلى السماء فاستعار من أنجمها أسنة الذبل(١) ودلف فى الأرض فوهب تربها للقسطل .وأعلم ملك الانكتير أن جمع كفره للتبتير ، وأن نشاط سره للتفتير ،وأن أسنة أهل التوحيد مولعة من نحور أهل الاشراك بهتك الستير .

وركب فى مراكب حلت المنايا الحبا فى كتائبها ، لتحتبى أعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها ، بخيل تأبى الضيم مثل إبائه ، وفخرمثار النقع ينوب عن لوائه ، ووجه كلامع البرق فى ضيائه،وقلب كمصدر العضب فى مضائه .

وأقام السلطان على هذه الحالة ، ساميا فى مطالع الجلالة ، لم ينفض سلاحه ، ولم يخفض جناحه ، ولم يركز رماحه ، ولم يردع للروع مراحه .

---

(١) الذبل : جمع ذابل : الطويل ويقال قنى لاصق بالليط ذابل أى رمح دقيق .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر فى بيروت بطسة ، وزادها من العدد والآلات بسطة . وأودعها من كل نوع ميرة ، وملأها غلة وذخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا ، من كل مَنْ طهر وتزكى ، وشكره الإسلام إذ الكفر منه تشكى . فلما توسطت ثبج اللجة ؛ وتورطت على نهج المحجة ؛ صادفها ملك الانكتير بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه ، وعدتها عواديه . وقاتلتها نصف نهار ، وهى لاتذعن لاقتسار . فأكبت من العدو مراكب ، وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت ، وهتكت وخرقت ، وفرقت وما فرقت . وقتل من الفرنج خلق عليها ، وما امتدت يد عدوانهم إليها .

فلما يئست من سلامتها ، وزلت عن استقامتها ؛ وانحلت عرا وثاقها ؛ وانحطت ذرا اعتلائها واعتلاقها ؛ ومالت إلى الاستسلام ، وجالت على الاصطلام ، قال مقدمها : « علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل ، والشح بالدين أحب إلينا من البذل » ، فنزل إلى البطسة فخرقها ، ومانع عنها حتى أغرقها . وسعد أهلها ، وافترقت وسيجتمع فى دار النعيم شملها .

ووصل إلينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الأولى فقلنا : « الدهر يومان نعمى وبؤسى ، وما يزالان على ذلك حتى يزولا » وكانت هذه الوقعة أولى حادثة للوهن محدثة ، وللهم مورثة ، ولنار الأسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة ، قد أظهرت لها فى الشر غائلة . ولها أربع طباق ، شدها على الارتباط باق . ولها من الإحكام باس ولباس ، وهى خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها إلى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس ، وفى طباقها سباع ضوار وذئاب طلس(1) . وبلى البلد منها بكل بلية ، ورزى بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل ، ليقربوا بتقريبها أسباب الأجل ، فباتت القلوب منها على الوجل .

وكاد أصحابنا يطلبون الأمان ، وخضع كل أبى واستكان ، فقارعوا عندها أشد قراع ، وماصعوا (2) أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط ؛ قوارير النفط . وهى تضرب فى حديد بارد ، وتضرب عن كل شيطان مارد . وتنبو عن الإحراق ، وتُنْبى عن الإخفاق . حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب ، فأخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم فى الالتهاب . فعوذناها بسورة (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبُكم وما غوى(3)) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب ، ومن حرّ أنفاسها برد النفوس ، وكشف شعاعها ظلم الكروب ، ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بكل نور ، ولهم ببوار قوم بور .

ودبت شعلها فى أضلاع الدبابة وجنوبها ، فأحرقها الله إحراق أهلها بذنوبها ، وكما أضاءت الآفاق بنيرانها ، أظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر فى السواد ، فكأنه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد ، بل سواد المداد يأتى من أثواره بالإمداد . فجلا حريق هذه الدبابة صدأ قلوبنا المغتمة بالبطسة الغريقة ، وأحمت نارها فى حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فإنما احترقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة ، فكان تشميتا لتلك العطسة .

---

(1) طلس : لونها أغبر إلى سواد .

(2) ماصعوا : قاتلوا وجالدوا .

(3) الآيتان 1 و 2 سورة النجم .

ذكر وقعات فى هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا فى عكاء عند زحف العدو دق الكوس حتى إذا سمعناه جدنا فى الزحف إلى العدو بالنفائس والنفوس . ولما أصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته ، ونظرنا من جانب العدو مثارغبراته . فعلمنا بزحفه ، وعملنا فى حتفه ، وضرب الكوس السلطانى إصراخاً لصراخ ذلك الكوس ، فتمايلت أعطاف ذوى الحمية من حميا العزائم لامن حميا الكؤوس .

وركب السلطان فى كل مشمر للبرد (١) مضمر للجرد ، فضفاض السرد(٢) ، قضقاض كالأسد الورد، مشتاق إلى الطرد ، ملتاح من ماء الوريد إلى الورد ، من الترك والأكاديش والعرب والكرد . يهوى إلى الأقران هوى المصلتات إلى الرقاب، ويظمأ إلى ارواء الأسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب . وكل نمل كأنه نزيف الحميا ، يعيد السماء من الأرض بركضه شاحبة المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره ، وكل طلاع مع النوب لاينام ثاره ، ولايثبت فى الجفن غراره . وكل منصلت (٣) ينير فى ظلام العجاج بنجوم الأسنة ، وكل مطرد يعيم السوابح السوابق فى بحور الأعنة ، وكل رام فروج المأزق حتى تفرى بأيدى المذاكى ، وكل شاك فى السلاح مشكور فى إشكاء الحق الشاكى . وكل مصمم مصم درعه غير محقبة (٤) ، وسهامه غير مجعبة . وسيوفه غير مقروبة ،

---

(١) مشمر للبرد ، المشمر : الماضى فى الأمور المجرب ، الجد أو الرافع اثوبه . والبرد : ثوب مخطط ، كساء من الصوف الأسود يلتحف به ، والعبارة كناية عن المشمر عن ساعد الجد فى الحرب .

(٢) السرد : اسم لكل درع وحلق .

(٣) المنصلت : من الرجال : الشجاع الماضى فى الحوائج . ومن السيوف ، الصقيل الماضى

(٤) محقبه : حقب المطر احتبس ، استحقب الشىء : ادخره . الحقب : الحزام الذى يلى حقو البعير ، والمقصود أن درعه غير محبوسة بل عاملة مستخدمة .

وقبابه لمداومة اجراء قبه (١) غير مضروبة .

وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله ، وابيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله ، واشتبهت فى النقع ألوان خيله ، وامتدت إلى قرار اللقاء أعناق سيله . فكأنما غارت الشمس من شموس شمسه ، فتوارت بالحجاب ، وعد النقع فى وبل النبل من حساب السحاب .

وولجت العساكر عليهم فى خيامهم ، وحمات ليالى القتام إلى أيامهم ؛ وغلت الصدور بما فيها ، حتى وصلوا إلى القدور على أثافيها (٢) . وهتكوا وفتكوا ، وأدركوا وسفكوا . فتراجع الفرنج ، واصطفوا على خنادقهم ، ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحماون ويعلّون من دمائهم وينهلون . ودخل الظهر ، وحمى الحر ، فافترق الفريقان، وتراجع إلى خيامهم الجمعان .

---

(١) القب : يقصد بها هنا جمع أطرافه من قب الشىء : جمع أطرافه ، أوقب القوم : رفعوا أصواتهم فى الخصومة .

(٢) جمع أثفية وهى الحجر يوضع عليها القدر.

وقعة أخرى

وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر ، ضايق أهل الكفر البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة ، وكانت من أشدها وأجدها كريهة . غير أنه فى هذه النوبة عرضت نبوة ، وكادت تتم كبوة : فإن الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من عساكرنا (١) داخل خنادقهم ، فحملوا عليها بسباق رجلهم وراكبى سوابقهم . فانتشب الحرب ، واشتجر الطعن والضرب . وكثرت الجراحات ، وكرثت الاجتراحات . واستشهد ممن عرف من المسلمين اثنان ، تسلمهما رضوان (٢) إلى الجنان ، وقتل من المشركين جماعة أسرع بهم مالك (٣) إلى النيران .

ومن عجائب هذه الوقعة ، أن رجلا من مازندران (٤) من أهل الرفعة ؛ وصل فى تلك الساعة وافدا ، واستأذن وقت السلام على السلطان أن يقدم مجاهدا . فحين شهد الوقعة استشهد ، فلقى الله بعهده كما عهد .

---

(١) فى ب عسكرنا والتصحيح المذكور من ل ومن أ (٢٩٥ ش) .

(٢) رضوان : أى خازن الجنة .

(٣) أى خازن النار .

(٤) مازندران : اسم آخر لطبرستان (ياقوت ج ١٧ : ٤١ ط . ب) .

وقعة أخرى

وفى يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العدو فارساً وراجلا، ورامحاً ونابلا . وامتدوا من جانب البحر أطلابا ، وتحزبوا فى ذلك الفضاء أحزاباً . وركب السلطان من مجالس عادته ، إلى مجال سعادته ، موقناً أن أداء عبادته ، فى إبارة العدو وإبادته . وتقدمت المقدمة وأقدمت ، وجحمت(١) نار إقدامها وما أحجمت . وما زالت نجوم النصول تنقض ، وختوم النحور تنفض ، وعيون العيون ترفض ، وديون الذحول وحقوق الحقود تقتضى ، وأبكار الدروع بحدود الذكور تقتض .

فى شعواء حضرها التباب (٢) الغائب ، ونكباء لها من الذوابل ذوائب . وبحر تسبح فيه السوابح ، وشرب بكاس المنية منها المهج غوابق(٣) صوابح . وغبراء أساود نبالها تتواثب عن عقارب القسى ، وثعالب لهاذم صعادها تتلاعب فى أراقم السمهرى . وذباب ظباها تطن فى مسامع الذئاب ، وعقبان راياتها تحلق إلى مطالع السحاب . وغدران سوابغها تفيض عليها جداول القواضب ، وغران(٤) سوابقها تغيض فى غطامط الغياهب . وأرواح أغمادها البارية عن الأجسام برية ، وقلوب آسادها الضارية على الردى جرية .

حتى دخل على ليل النقع الليل ، وجرى من ديمة الدم السيل ، والتفت لما التفت بالخيل الخيل ، وأفرج المأزق عن قتلى جر(٦) عليها من السوافى الذيل . واستشهد من المسلمين بدوى وكردى ، (ولكم وقع من المشركين

---

(١) جحمت : اضطرمت .

(٢) التباب : النقص والخسارة والهلاك .

(٣) الغوابق : جمع غبوق وهو ما يشرب فى العشى بخلاف الصبوح .

(٤) غران : جمع الأغر؛ من الخيل ماكان له غرة .

(٥) غطامط : عظيم الموج . والسوابق ؛ الخيل التى تكون فى المقدمة .

(٦) فى ب جرى والتصحيح من ل .

ورد ردىّ)(١) ، له فى الهاوية هوى ، وعليه (٢) من زفير جهنم دوى .
وأسر من العدو فارس بفرسه ، ولأمته وقونسه (٣) . وتفرق الفريقان عن
المعترك عند معتكر الدجى ، وقد عم من الشجب ماشجا .

(١) فى أ (٣٠٠ش) ولكم من المشركين ردى.

(٢) فى ب عليها والتصحيح من ل ومن أ (٣٠٠ ش) .

(٣) قونسه : القونس أوالقنس بسكون النون : أعلى الرأس ، والقونس والقونوس
— بسكون الواو — أعلى بيضة الحديد ، وعظم ناتىء بين أذنى الفرس .

وأصبح العدو يوم الأحد التاسع والعشرين ، وقد أخرج من جانب النهر راجلا فى عدد رمل يبرين (١) بقواطع يبرين . وقواضب يفرين ، وطوالع غروب فى الطلى يغربن ؛ وبالردى يغرين ،وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين . فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء ، ويوافقه القضاء فى المضاء . وكل معتقل للردينى أخف إلى الوغى من سنانه ، وكل مشتمل للمشرفى خضيب الغرا ريانه، وكل ملثم بعثير حصانه ، معتنق لعطف مرّانه . وكل صبح كالصباح نضارة وجهه فى شحوبه مدفونة ، وكل قارح على قارح شرارة عزمه فى سكونه مكنونة .

وامتد راجلنا أمامهم ، وأثبتوا قدامهم أقدامهم . وطال القتال ، وطارت النبال . وحاضت الذكور ، وفاض التامور . وأعمى العثير وعم العثور ، وأسروا منا واحداً فأحرقوه فصحب نوره بين يديه إلى دار القرار ، وأسرنا منهم واحداً فأحرقناه فشبثت به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين فى حالة واحدة تشتعلان ، والصفان واقفان يقتتلان .

وفى يوم السبت الماضى هرب خادمان ذكرا أنهما لأخت ملك الانكتير وأنهما كانا يكتمان إيمانهما فى سر الضمير . وأخبرا أنها زوجة صاحب صقلية فلما هلك صادقت فى الاجتياز بها أخاها هذا الملك . فألزمها بأن تتبعه واستصحبها معه . وقدرا ما النجاة من تلك الفاجرة لنجاة الآخرة . فأكرم السلطان وفادتهما ، وأجزل بالإحسان إفادتهما .

(١) يبرين : قرية قرب حلب (القاموس المحيط باب الراء فصل الياء) .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب فى ذلك

وفى الاثنين انسلاخ الشهر ، ذكر عن المركيس (١) أنه هرب إلى صور ، وأنه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوساً ، وألقوا عليه من الضلالة فى الاستمالة دروساً . فنبا قبوله ، وانقطع وصوله .

وكان سبب نفاره ؛ وموجب استشعاره ؛ أن (هنفرى) كانت زوجته ابنة الملك الذى هلك والقدس فى يده ، وعادتهم أنه إذا مات ملك ينتقل ملكه إلى ولده . وسواء فى هذا الميراث ، بين الذكور والإناث . فيكون الملك بعد الابن إذا لم يخلف ابنا للكبرى ، فإذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى.

وكان الملك العتيق (كى) أخذ الملك بسبب زوجته الملكة ، فعزلوه عن الملك لما احتوت عليه يد الهلكة . وبقيت هذه زوجة هنفرى ، فأصبح المركيس عليه يجترى ، ويقول : « لست من أهل الملك لتكون الملكة لك زوجة ، ولابد لى من تقويم هذا الأمر حتى لا أبقى فيه عوجة » . وغصبها منه ، وصرفها عنه. واتخذها له عروساً ، وأحضر لنكاحها قسوساً .

وقيل إنها كانت حبلى ولم تخرج من حبالة الحبل ، فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل . وادعى المركيس أن الملك انتقل بها إليه ، وأن أمر الفرنج بشرعهم فى يديه . فلما جاء ملك الانكتير تظلم إليه هنفرى والملك العتيق ، فانفتح بذلك له إلى مؤاخذة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وماقر ، وأخذ معه الملكة وفر .

(١) فى ب المرقيس. والتصحيح من ل .

ذكر من وصل فى هذا التاريخ من العساكر الإسلامية

وفى يوم الاثنين انسلاخ جمادى الأولى قدم عسكر سنجار ، وقد سد بسواد عديده النهار ، وأفاض ببياض حديده الأنوار ، ومقدمه مجاهد الدين يرنقش — الشهم الشديد ، والسهم السديد . والألمعى اللوذعى ، والكميش الكمى ، والنقاب النقى ، والعف التقى . وهو ذو همة فى الغزو عالية ، وعزمة بالمضاء المضىء حالية ، وقيمة فى سوم السلطان لقربه غالية ، وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية .

وأكرمه السلطان فى استقباله بنفسه ، وإقباله عليه بأنسه . وسار بعسكره إلى أن وقف تجاه العدو من جانب البحر مما يلى الزيب (١) ، وقد أحسن فى عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد فى خدمة السلطان مكرماً الى جنبه ، مقدماً على صحبه . فأنزله فى خيمته وخصه بمواكلته . وتقدم إليه بالنزول فى ميسرته .

وفى يوم الأربعاء ثانى جمادى الآخرة ، وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة ، بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة . مثل : علم الدين كرجى — الذى يسرع إلى لقاء أقرانه ولا يرجى ، وكسيف الدين سنقر الدووى ، ذى الزند الورى ، والسيف الروى ، وأمثالهما من المماليك الناصرية ، والمساعير الأسدية . أسد العرين ، الشم العرانين ، الغر الميامين .

وفى عصر هذا اليوم ، وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل إلى الخروبة ونزل بها ، ليصل بكرة إلى المعسكر بالعساكر فى أحسن أهبها . فركب السلطان إليه ولقيه وعاد ، وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد . وأصبح يوم الخميس فى خميسه ، سائراً بآساده فى عريسه ، مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . فى غلب(٢) كأنهم أجادل والجياذ مراقبها ، وخيل

---

(١) فى ب الذيب والتصحيح من ل .

(٢) غلب : اعداد كثيفة ، والأجادل : جمع أجدل وهو الصقر ، أو الدرع المحكمة .

كأنها الظلماء والترائك كواكبها . ونقع (١) كأنه الأتى(٢) والمقربات (٣) قواربه ، ومجر تصادم مناكب الآكام مناكبه ، وتملأ الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه ، عاليات غواربه . ثقال مذاكيه بأعباء عواليه ، كأنما نهضت لإذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتائبه ، وأعربت عن مناقبه مقانبه .

وتلقاه من أولاد السلطان الملك المعز فتح الدين إسحاق — وهو من جملتهم البحر بل الغيداق (٤). والملك المؤيد نجم الدين مسعود (٥) — وهو كاسمه مسعود مجدود . وتلقاه الأمراء والعظماء ، والخواص والأولياء . وساق على تعبيته ، واجابته دعوة الإسلام وتلبيته ، إلى جانب البحر ، ليرعب أهل الكفر . وعرض وتعرّض ، وعلم العدو بأنه إليه نهض واستنهض .

ولما انفصل السلطان أخذه معه إلى خيمته ؛ وأحضر له أسباب تكرمته . وآنسه بانبساطه ؛ ونظمه مع أصحابه فى سمط سماطه . وأجلسه إلى جنبه ، وعقد له حبا حبه . وخصه بخلع وثياب ، وحصُن عراب ، وما يليق به من كل باب . وانصرف عنه ونزل على ميمنته ، نزوله عام أول فى منزلته .

وفى يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة أعنة خيلها إلى الجهاد ثانية ، ساطية على الكفر ببأسها جانية ، وقد علمت الوقائع أنها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الأخضر جانية . فما نزلت حتى عرضت على العدو مقانبها ، وأبرزت لعينه قناها وقواضبها . وأرنت برسل المنية إليه قسيها ، ثم جاءت وألقت بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد ، والجموع تتواقد .

---

(١) النقع : الماء المستنقع ، الغبار . والمعنى الأول أنسب للسياق .

(٢) الأتى : الذى أتى من حيث لا يدرك .

(٣) المقربات : من الخيل التى يقرب معلفة ومربطه لكرامته .

(٤) الغيداق : الكريم .

(٥) الملك المؤيد نجم الدين مسعود : هو ابن صلاح الدين الأيوبى ولد بدمشق سنة ٥٧٢ هـ وتوفى سنة ٦٠٦ هـ (النجوم الزاهرة ٦ : ٢٦٢) و (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ١١٢) .

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة آيست منه ، وأسلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافاته ، وسمت إليها بآفاته ، وأعادت جوانبه مهدومة ، ونواجزه مهتومة . وانحطت عنه بمقدار قامة ، فلم يتمكن أحد عليه من إقامة .

وضعف البلد والجلد ، وخلا بالهم عليه الخلد . وقد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم ، ووكلوا بها فيالقهم . ونحن لانألوا فى الجهاد جهداً ولانترك جداً ، ولانجد من مضايقتهم بكل نوع بدا .

وجاء الخبر أن ملك الانكتير قد أشفى من المرض ؛ وأشرف من المضض ؛ حتى حلق رأسه حلق لحيته ، واستلقى لانتظار منيته . فتثبط الفرنج وتثبتوا ، وسكنوا وسكتوا . إلى أن يركب فيركبوا ، ويثب فيثبوا . وكان فى هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق . وانتعاش عثرة ، وانجبار كسرة ، وانطفاء جمرة ، وانسداد ثغرة .

فصل من كتاب إلى صاحب الموصل

فى شكر وصول ولده ووصف الحال فى ضعف البلد

قدم علاء الدين – دام علاؤه – فى مقدمى الجنود الأنجاد ، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد . وما أكرمه قائماً فى المقام الكريم ، وعظيماً خاطباً دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح ، وأنشر الصدور بما صدر به لها من نشر الانشراح ، وجاء والكريهة ذاهبة بالأرواح ، والحرب ساقية طلاء الطلى فى صحاف الصفاح ، وقد برزت بنات الأغماد الذكور على أكف أكفاء الكفاح ، لنكاح الهام بالسفاح . وشارك فى الجهاد وشد الأزر ، وسدد الأمر . وآزر وعضد ، وظاهر وأسعد . ولا خفاء عن العلم بحال الفرنج فى هذه السنة ؛ واجتماع ملوكهم وكنودهم ؛ وتوافد أمداد حشودهم ، وقد استشرى شرهم ، واستضرى ضرهم ، وأعضل خطبهم ، واستفحل أمرهم . واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات ، وتركيب آلات ودبابات . وزحفوا إلى بلد عكاء بجمعهم ، ووقدوا بجمرهم . وأخلوا فيه نقوبا ، وحكموا فى الأسوار من الأسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد أشرف ، والعدو قد أسرف . وكلما زحف إلى الثغر زحفت العساكر الإسلامية إليه ، وهجمت عليه . والعدو بخندقه محتجز ، ولفرصة الغفلة عنه منتهز ، ومن جثوم الموت عليه فى مجثمه محترز. ولم يبق إلا أن يتدارك الله الثغر بلطفه ، ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه .

والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج ، ووضح لهم فى ثبات جنانهم المنهج . وفى كل يوم يسدون بأشلاء الهاجمين عليهم الثلم ، ويجلون عنهم بما يشبونه من نيران الظبا الظلم .

والعدو قد لج ، والحديد من قرع الحديد قد ضج . والبلد مشف ، والبلاء عليه موف . والمأمول من الله أن يأتى من نصره بما ليس فى الحساب ، وأن يعيد ما جمح من أمر الأصحاب إلى الإصحاب ، ويكفى هذه النوبة الصعبة ، فهو كافى النوب الصعاب .

فصل فى وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التى وفت بعدتها المناجدة ، ووافت بعدتها المنى جده (١) . وأقبلت إقبال الآساد فى عرين الوشيج ، وماجت موج البحار فى غدير الزغف النسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق ، وألمت بالعدا المام العوادى الطوارق .

ولقد جاءت فى وقتها منجدة من جدة . موجدة للانتقام من الكفربكل موجدة . واستظهر الإسلام بظهورها ، وسفرت وجوه النصر بسفورها ، فأحجم الكفر بإقدامها ، وانتظمت أحداق المشركين فى عقود سهامها ، وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها ، وفض بالفضاء ختام قتامها . وما أشكر الدين والإسلام لعزائم عماده وغياثه ،وأبعث امداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه .

---

(١) الجدة : السعة .

فصل فى الاستنفار

قد عرف أن العدو قد احتشد بجميع ملوكه ، وغصت مسالكه وطرقه بطوارق سلوكه . وهو جديد الشوكة ، شديد الشكة . قد لج فى حصر الثغر ونصب آلاته ، وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب من الضرب ، وأخذ منه مواضع فى النقب . وقد أشفى على خطر عظيم ، وخطب جسيم . وإذا لم يصل فى هذا الوقت فمتى ، ومن أتى فى غير الوقت المحتاج إليه فما أتى . وهذا أوان رفض التوانى ،ونهوض المسلمين من الأقاصى والأدانى . والوصول بكل ما يقدر عليه من العسكر ، والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضرورة ، والنهوض بعسكره إلى قصرة عساكرنا المنصورة . فلايجنح إلى عذر فللأعذار أوقات ، ولايلتفت إلى غير هذا المهم الذى ليس للمسلمين إلى سواه التفات . وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم ، ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الإفرنج

كان قد خرج مذ أيام رسول ، وسأل أن يكون له إلى السلطان وصول . فاجتمع به الملكان العادل والأفضل ، وقالا له : « لايمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود عليه يعرض ، ليعلم فى الأول هل هو مما يقبل أو عنه يعرض » . فأعلمهما الحال ، وعرفهما ماسبب الإرسال . فأحضراه بالنادى السلطانى فمثل بين يديه ، وأوصل تحية ملك الانكتير إليه . وقال : « هو يوثر بك الاجتماع ، ولخطابك الاستماع . فإن أعطيته أمانا خرج إليك ، وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به فى المرج ، خالين من مقتضيات المرج (١) . وكلاكما عن عسكره منفرد ، ولحديثه فى الخلوة مورد » فأجابه السلطان وقال : « إذا (٢) اجتمعنا فهو لا يفهم بلسانى وأنا لا أفهم بلسانه ، ونحيل بالبيان على ترجمان وترجمانه . فيكون ذلك الترجمان رسولا ، فلعله يرد بسول ويصدر سولا » .

فلما لج فى الطلب ؛ وألح فى الأرب ؛ استقر أن يكون الحديث مع الملك العادل . وأن تنجح من عنده وسائل الرسائل . ودخل وقد أخذ أمانا ، وانقطع بعد ذلك زمانا . فشاع عندنا أن ملوكهم منعوه ، ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكتير رسوله بعد أيام ، ينكر ما شاع من تأمر للفرنج عليه وأحكام . وقال : « الأمور مفوضة إلىّ : وأنا أحكم ولايحكم علىّ . وإنما تأخرت بسبب مرض عرض ، ففاتنى الغرض » .

ثم قال الرسول : « من عادات الملوك المهاداة ، وإن دامت بينهم الحرب والمعاداة . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون فى حمله وقبوله ، وأخذه من يد رسوله ؟ » . فقال الملك العادل « . تقبل الهدية بشرط المجازاة ، واستدامة المكافأة للموازاة » . فقال : « عندنا بزاة وجوارح ، قد لقيتها فى سفر البحر جوائح ، وقد ضعفت فهى طلائح روازح ، وتريد طيراً

---

(١) المرج : الاضطراب والالتباس والفساد فى الأمر .

(٢) فى ب لو والتصحيح من ل .

ودجاجاً تصلح لطعمها ، فإذا استوت حملناها للهدية على رسمها » ، فقال العادل : « لاشك أن الملك مريض وقد احتاج إلى دجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل ما إليه احتيج ، فلانجعل حاجة طعم البزاة فى طلبها حجة واسلك غير هذه المحجة » .

وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول : «هل لكم حديث؟ » فقلنا : « أنتم طلبتمونا لانحن طلبناكم ، وما لنا معكم حديث قديم ولاحديث » . ثم انقطع حديث الرسالة إلى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة . نخرج من عند الملك فى الرسالة مقدم ، ومعه أسير مغربى مسلم . وأحضره على سبيل الهدية ، وأوصل إلى السلطان ما حمل من التحية . فشرفه بخلعته ، واعتدله بهديته .

ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة ، وماكانت رسالتهم تسفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثة . وهؤلاء طلبوا للملك فاكهة وثلجاً ، ولم يسلكوا فى غير هذه الحاجة نهجاً . فأكرمهم السلطان بما سألوا ، ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا أن يتفرجوا فى الأسواق ، ففسح لهم فيه على الإطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الفرنج من تكرير الرسالات ، تفتير العزمات ، وهم مشتغلون بموالاة الرمى بالمنجنيقات ، وتسوية المنصوبات ، وتعبية الآلات وتعديل العرادات (١) ، وتثقيل الحجارات . حتى تخلخل السور وحان انهدامه ، وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزعت أركانه ، وتضعضعت أبدانه . وكاد يهى ليهوى ، ولا يبقى ولا يقوى كى يثوى (٢) . وأهل المدينة قد كثر تعبهم ؛ لكثرة النوب ولقلة العدد . والحجر هاتك ، والسهر ناهك : والعمل دائم ، والخلل لازم . والقلوب قلقة ، والظنون مخفقة . والمتاعب شاقة ، والمشاق متعبة ، والأحوال متصعبة ، والأهوال مرهبة .

وكانت فى البلد منجنيقات تُنصب ، وتفيض بها قوى الرجال وتَنصب . فلما اشتد الزحف ، وزاد الضعف ؛ احتاجوا إلى رجال المنجنيق للمقاتلة ، والتناوب على المنازلة . وهناك ظهر أن العدد لا يبقى ولا يفى ، وأن القليل لا يكف ولا يكفى . وأن خروج من كان فى البلد لأجل دخول البدل لم يكن صواباً ، وأن تقصير النواب ابتداء فى الإعطاء جلب فى الانتهاء إعطابا .

ولما علم السلطان سابع جمادى الآخرة يوم الثلاثاء ؛ بما عليه البلد من غلبة البلاء ؛ زحف بعسكره ولجّ حتى ولج خنادقهم ، وطرق إليهم بوائقهم . ونهب من خيامهم ما تطرف ، وأسرف فى ارهاقهم بما أشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مزارا ، وأجرى من الدم أنهاراً ، وأراهم بالنقع النهار ليلا وبالبيض الليل نهاراً . وأمسى السلطان تلك الليلة ساهداً لم يذق طعاماً ولم يستطب مناما . ثم أمر بدق الكوس سحراً حتى عادت العساكر إلى الركوب ، والقساور إلى الوثوب . والفوارس إلى الفرس ، والأنداب إلى الندوب ، وأعادت إلى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل من يلقى الجيوش على الجيوش ، ويرمى الوحوش على الوحوش . ويرعف الصدور بصدور

---

(١) العرادات جمع عرادة وهى آلة حربية كانت تستعمل لرمى الحجارة .

(٢) يثوى : يقيم بالمكان .

الرواعف ، ويشير بالأمن عن مواقف المخاوف . وكل من للضرب فى جبينه شامة ، وللطعن فى جنبيه (١) علامة . على خيل كأمثال القنا تحمل القنا ، وضمر كالحنايا تهوى هوى السهام إلى الوغى .

فى غداة صباحها فى حداد نسجتها أيدى المطهمة القبّ (٢)

وظلام يجلوه بريق اليمانية القطب . فجرى ذلك اليوم من القتال أشد مما كان أمس ، واتصل من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وفى هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها : « أن العجز بلغ بهم إلى غايته ، وانتهى الضعف بهم إلى نهايته ، ولم يبق إلا تسليم البلد إن لم تعملوا شيئاً ، ولم تنجحوا فى الذب عنه سعياً » فضقنا بهذا الكتاب ذرعا ، وقلنا : «لاحول ولاقوة إلا بالله ، لا نملك لأنفسنا ضراً ولانفعاً» والسلطان من هذا فى أمر عظيم ، وهم مقعد مقيم . وهو مجتهد فى بذل وسعه ، سائل من الله لطف صنعه . معاود إلى الحرب فى كل صباح ، طائر إلى اللقاء بجناح كل نجاح .

وفى هذا يوم الأربعاء بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا إلى خنادقهم وخالطوهم ،وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر أنه وقف فى ثغرة من تلك الثغر إفرنجى ، كأنه جنى مستشيط للشيطان نجى . وهو يدافع ويمانع ، ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقه لجسمه صدفاً ، وصار لسهام المنية هدفا . وهو كأنه مما نشب فيه من النشاب القنفذ ، وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ .

فلم يزل واقفاً إلى أن أحرقه بقارورة النفط زراق ، فأمسى وهو حراق . ووقفت أيضاً امرأة بقوس من الخشب ترمى ، وتديم اصماءها وتدمى . فلم تزل تقاتل حتى قتلت ، وإلى سقر انتقلت .

---

(١) فى ب جبينه والتصحيح من ل .

(٢) المطهمة القب : أى الخيل الضامرة البطون الضامرة الخواصر الجميلة .

ذكر خروج سيف الدين على المشطوب إلى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكاء من جانب ؛ وعروه بكل نائب ؛ ومل أصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح ؛ وقلة البدل الذى كان قد اقترح ؛ ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنة (١) ؛ وزادت المخافة فلم يبق معها أمنة ، خرج المشطوب إلى ملك الإفرنسيس بأمان ، وحضر عنده بترجمان . وقال له : « قد علمتم ما عاملناكم به عند أخذ بلادكم ، من النزول عند طلب أهلها الأمان على مرادكم . وأنا كنا نؤمنهم ، ومن المسير إلى مأمنهم نمكنهم . ونحن نسلم إليك البلد على أن تعطينا الأمان ونسلم ، وإذا فعلت هذا فقد حزت المغنم » ، فقال : « إن أولئك الملوك كانوا عبيدى ، وأنتم اليوم مماليكى وعبيدى ، فأرى فيكم رأيى من وعدى ووعيدى » .

فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظة ، وأغلظ له فى القول عملا بقول الله تعالى : (وليجدوا فيكم غلظة)(٢) . وقال : « نحن لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا . ولايقتل منا واحد حتى يقتل خمسين ، ومتى عرف أن الأسد يسلم العرين ! » .

---

(١) بدنه : اصطلاح معمارى وهو وما يعبر عنه بكتف البناء .

(٢) الآية ١٢٣ سورة التوبة .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب ؛ ولم يظفر بالغرض المطلوب ؛ قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء : « هذا الأمير الكبير ؛ والمستشار والمشير قد اشتغل باله ، فسواه ما باله » . وعمروا بركوسا ورأوا في هربهم رأيا منكوساً ، وربحاً في دار البقاء مبخوساً . وذلك ليلة الخميس التاسع ، وقربوا عليهم الأمر الشاسع .

وجاءوا إلى العسكر مختفين ، ومن رفقائهم في نسب الوفاء والوفاق متنفين . فنمى إلى السلطان الخبر بهرب الجماعة ، وأنهم خرجوا لله وله عن الطاعة ، وأنهم جبنوا عن بذل الاستطاعة ، وخفضوا عنهم صيت الشجاعة ، وأبدلوا الإضاءة بالظلمة والحفظ بالإضاعة ، وكان فيهم من الأمراء المعروفين وذوى الشهامة الموصوفين ، عز الدين أرسل ، ــ وهو الذى كان المثل بشهامته يرسل . وحسام الدين تمُرتاش بن جاولى ــ وهو شاب أول ما توفى والده وجا ولى . وسنقر الوشاقى من الأسدية الأكابر ، ومقدمى العساكر . وكل منهم محظوظ بالإقطاع الوافر . فقطع السلطان إقطاعاتهم وأقطعها ، وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها .

واستعاذ (أرسل) بالأسدية ثم بالملك الأفضل ، المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولى بالملك العادل ، وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل . فلم تعد معيشتهم ، ولم تعذب عيشتهم . وعادوا ممقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين ، وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين .

وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبى نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها ، فشفع فيه على أنه يضمن على نفسه العودة ويلتزمها . فعاد فى ليلته ، وأسقط عنه الذمة بأوبته . ووقع بعد ذلك فى الإسار ، واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار .

فصل من كتاب إلى مظفر الدين صاحب إربل فى المغنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا إليه بشرح الأحوال ، وما نحن عليه من رجاء النصر الذى هو متعلق الآمال . وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فإن منجنيقاتهم هدته بكثرة الضرب ، وكثرت ثلم السور فى مواضع النقب ، وعظم الخطب ، واشتدت الحرب . وأشفى البلد وأشرف ، واشتفى العدو بما فيه أسرف .

ولما لج العدو فى الزحف ، واستسهل فى التطرق إلى البلد طريق الحتف ، ركبنا فى عسكرنا إليه ، وهجمنا عليه . لكنه بسوره وخندقه محتم ، وإلى مطمحه البعيد من أمره مرتم . ولما عاين أصحابنا بالبلد ما عليه من الخطر ، وأنهم قد أشفوا على الغرر ، فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثوقه ، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين فى ثغرهم ، وباءوا بوبال غدرهم ، وما قوى طمع العدو فى البلد إلا هربهم ، وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلته إلا رهبهم . والمقيمون من أصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام ، وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم . وأنهم يبذلون فى صون ثغرهم غاية اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج فى التسليم فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم فى القوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب ، والله تعالى يسهل تنفيس ما هم فيه من الكروب .

ونحن وإن كنا للقوم مضايقين ؛ وبهم محدقين وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين ، فإنهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون أنهم إن خرجوا إلينا فى تبار . والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع . ولله قدر لايرد ، وقضاء لايصد . وسر لايشارك فى علمه ، وأمر لايغالب فى حكمه . وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل ، وتدقيق ألطافه فى دفع الخطب الجليل ، وما توفيقنا إلا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل .

ذكر ما جرى من الحال

وفى ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس ، وحمى الوطيس ، وتحرك بالضراغم الخيس . واسود الجو ، وانسد الضو . وانقضت القضب انقضاض الشهب ، واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب . واختضبت البيض ، وتألق من بوارقها الوميض . ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل ، وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل .

فللروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع . ولغربان الرماح نعيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب . ولحريق الظبا معمعة ، ولرحى الحرب الزبون (١) جعجعة .

واللاحقيات (٢) سابقة ولاحقة ، والسريجيات (٣) راعدة وبارقة ، وشموس الترائك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة ، (وأيدى الأسنة هاتكة ، لحرز النحور سارقة)(٤) . وثعالب الأسل فى لبة الأسد ضابحة ، ونشاوى اللدان من نجيع الأقران غابقة صابحة . فى رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان ، وصفاح يصافحها شعاع الشمس (٥) فيكسو لجينها العقيان (٦) .

وتقدم السلطان إلى الأمراء فترجلوا ، وتنازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم فى آجامها ، وأحوجوها بجد الإقدام إلى إحجامها . ونصب صارم الدين قايماز النجمى علمه على سور الفرنج بيده ، ووقف عنده

---

(١) حرب زبون : شديدة يدفع بعضها بعضا من الكثرة .

(٢) اللاحقيات : جمع لحاق وهو غلاف القوس .

(٣) السريجيات : السيوف التى تنسب إلى سريج وهوقين .

(٤) فى أ (٣١١ ش) وأيدى الأسنة هاتكة وبحور النحور شارقة ، وهذا مخالف لما فى ب ول .

(٥) فى ب الشمع والتصحيح من ل ومن أ (٣١٢ ى) .

(٦) العقيان : الذهب الخالص .

بجلاده وجلده . ووصل فى ذلك اليوم عز الدين جورديك ، ومعه من النورية المماليك . فترجل وقاتل وأبلى ، وأضرم نار الوغى وأصلى ، وما ترك من جهده شيئاً ولاخلى .

وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظراً لنجح الأمل البعيد . فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سرى السيل . ويذبون عن أنفسهم بسيوفهم ، وينجون بأنفهم وعز أنوفهم . ولو صح هذا الموعد ؛ لنجح المقصد . لكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر . وحرسوا الجوانب والأبواب ، وارتابوا بما أراب . وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا إلى الملاعين . وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال .

وأصبح العسكر يوم الجمعة العاشر ، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر ، واقفة على ترتيبه صفوفه ، مرهفة على عدوه أسنته وسيوفه ، ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفه . ولم يتحرك من القوم ساكن ، ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من أقسام الرسائل ، وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط ، ولأذى مقامه بمقامه مميط . وبتنا على تلك الحالة ، وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة .

وأصبحنا يوم السبت وقد ركبت الإفرنجية وتدرعت ، وتحزبت وتجمعت . حتى ظننا أنهم على عزم اللقاء ، فهاجت العزائم منا إلى الهيجاء . وخرج من بابهم أربعون فارساً ووقفوا واستوقفوا ، واستدعوا ببعض المماليك الناصرية ، فلما عطف إليهم عطفوا إليه ، وأخبروه أن الخارج صاحب صيداء فى أصحابه ، وهو يستدعى نجيب الدين أبا محمد العدل (١) لخطابه . وهذا العدل من أمناء السلطان ، وقد أنس الفرنج به لتردده فى الرسالات

---

(١) العدل : اصطلاح يلقب به من يثق به القاضى ويطمئن إلى شهادته فيعينه فى أعماله ومنها تسجيل الأحكام (الروضتين لأبى شامه ج ٢ : ٥٨٦ تحقيق د. محمد حلمى أحمد عن صبح الأعشى) .

نحوهم فى سالف الأزمان . فلما حضر أرسله إلى السلطان ، ليتحدث فى
خروج من بعكاء بأنفسهم بحكم الأمان ، وطلبوا فى مقابلة ذلك مالايدخل
تحت الإمكان . وزادوا فى الاشتطاط وتناهوافى الاشتراط . فأنفذالسلطانالملكين
العادل والأفضل ، ليفصلا المجمل ، ويجملا إذا حزا المفصل . فتردد العدل
مزاراً ، ووجدمنهم على الإضرار إصراراً . ولم تتحرر قاعدة ، ولم تظهر فائدة .
وانفصلوا على غير قرار ، وعادوا والأمر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

فى يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين ــ صاحب شيزر . وفى يوم الأربعاء بدر الدين أيوب بن كنان ؛ وقد حشد وحشر . وفى يوم الخميس أسد الدين شيركوه ؛ وقد أبهج بقدومه العسكر . وفى هذا التاريخ ضعف البلد وعجز من فيه ، ضعفاً لا يمكن تلافيه . ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم ، وباشروا الأسنة المشرعة إليهم بنحورهم .وشرعوا فى بناء سور يقتطع جانبا ، حتى ينتقلوا اليه إذا شاهدوا العدو غالبا .

ذكر ما طلبه الفرنج فى المصالحة على البلد

وكانوا اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق أساراهم من الأقياد . فبذل لهم تسليم عكاء بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا ، وبذل لهم فى مقابلة كل شخص أسير فلم يقبلوا ، وسمح لهم برد صليب الصلبوت إليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكاء وكيفية دخولها

وفى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة ، ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخرة ، وسالت إلى ثغر البلد سيل الأتى إلى القرار ، وطلعت فى السور المهدوم طلوع الأوعال فى فرج الأوعار . وانحدر عليهم أصحابنا انحدار الصخور المدهدهة (١) ، وفرسوهم فرس الآساد المحرجة المكرهة . وردوهم أقبح رد ، وصدوهم أفظع صد . وما زالت الكَرات تتناوب ؛ والحملات تتعاقب ، حتى كلت الرجال ، وفلت النصال . وعرفوا أن الفرنج يستولون ، وعلى أحد منهم لايبقون ولايخلون .

فخرج سيف الدين على بن أحمد المشطوب وحسام الدين حسين ابن باريك ، وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وأنفسهم على تسليم البلد ، ومائتى ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من المعروفين ، وصليب الصلبوت ، وعشرة آلاف دينار للمركيس ، وأربعة آلاف دينار لحجابه .

فلم نشعر إلا بالرايات الفرنجية على عكاء مركوزة ، وأعطاف أعلامها مهزوزة . وما عندنا علم بما جرت عليه الحال ، وماأحد منا إلا والبال منه قد عراه الوبال . وعم البلاء ، وتم القضاء . وعز العزاء ، وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللأواء .

ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره إلى تقى الدين وما عن له فى سفره ، فإنه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره . فاشتغل بقصد خلاط وأثار فى ديار بكر الاختباط ، والاختلال والاختلاط . وتأخرت عساكرها عن القدوم ، فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم . وكذلك لم يكن فى البلد عدد يفى بصونه ، وما كان يضبطه السلطان إلى هذه الغاية لو لم يكن الله فى عونه .

---

(١) دهده الحجر : دحرجه .

ونقل الثقل تلك الليلة إلى منزله الأول بشفرعم ، وأقام بخيمة لطيفة متلهفاً متلهباً على ما تم ، ثم انتقل سحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر إلى المخيم ، صابراً على حكم القضاء المبرم ، وحضرنا عنده وهو مغتم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم . فعزيناه وسليناه . وقلنا : « هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعادها عداه » . وقلت له : « إن ذهبت مدينة فما ذهب الدين ، ولا ضعف فى نصر الله اليقين . وماوعكت بعكاء القلوب إلا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولوحشتها بعد هذه الحادثة الموحشة تأنيس ، ولهذا الدين وإن تداعت قواعد بقعة من بقاعه بالعز ليفاعه تأسيس » .

وخرج فى هذا اليوم (أقوش) ــ رسولا ندبه بهاء الدين قراقوش . يخبر ما قرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملمة الفظيعة . وقال : « أدركونا بنصف المال ، وجميع الأسارى ، وصليب الصلبوت قبل خروج الشهر ، وإن تأخر شىء من ذلك بقينا تحت الأسر ، ونصف المال يصبرون به إلى شهر آخر » .

فأحضر السلطان الأكابر ، وفاوضهم فى ذلك وشاور . فقالوا : « إخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون » . فتقبل السلطان بتحصيله ، وتعجيله بجملته وتفصيله .

***

وأنشأت فى استيلاء الفرنج على عكاء هذه الرسالة وسيرت بها كتباً

قد عرف أمر عكاء وأن العدو قصدها ورصدها ؛ ونزلها ونازلها ؛ وقابلها وقاتلها . وبرك عليها بكلكله ، وحفل عندها بجحفله . وتواصلت إليها جموعه أفواجا ، وجلب البحر نحوها على أثباجه أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها ، ضاربة خيامها ، ملهية بهاغرامها ، ملهبة فيها ضرامها . وانتهت المدة إلى عامين (١) ، كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحاراً ويرد الماء بأهل النار مستصحبين من ماء الحديد الجامد ناراً . وتصل مراكبهم كأنها الأعلام السود والأمواج ناشرة بيض أعلامها ، مالئة جبالها بآكامها ،

(١) فى ب عاملين والتصحيح من ل ومن أ (٣١٥ ى) .

مازجة إصباحها بإظلامها . وتتنافس ملوكهم الباغية ، وطواغيتهم الطاغية ، فى الورود بنفوسها ونفائسها ، والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها ، مستخرجة ضمائر خزائنها ، مستفرغة ذخائر مكامنها ، موضعة ظعائن ضغائنها . مستبضعة متاع متاعبها ، مسرعة إلى معاطن معاطبها . وترد بقناطير أموالها ، وجماهير رجالها ، ومساعيز مصالها ، ومشاهير أبطالها . ويحدقون بها من برها وبحرها ، ويجثمون بين سحرها ونحرها .

وما زالوا يقاتلون أبراجها بالأبراج ، ويسومون جدتها بالإنهاج ، ويرومون علاج كرامها بمراماة الأعلاج . ويقارعونها ليلا ونهاراً ، ويلقمون (١) أفواه خنادقها أحجاراً ، ويناجونها بألسنة المجانيق الطوال ، ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الآجال . ويكافحونها قراعا ، ويدبون إليها للمضايقة خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش ، ويعاقرونها من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش(٢) ، وحيات النهاش . ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق ، كأنه حامل على الطلق . لاتلد إلا أمات الدواهى ، ولا تدع الراسخ الراسى إذا قابلته غير الواهن الواهى .

ويقتل الله منهم العدد الدهم (٣) ، والجمع الجم . ويهلك ألوفا ، حتى يعود نافرهم للمنون ألوفاً . وقد تجاوزت عدة القتلى منهم فى هذه المدة ، سوى من هلك بالضائقة والشدة ؛ خمسين ألفاً قولا لايتسمح فيه المعبر بالبيان ، بل يتصفحه المحرر بالعيان . إلى هذه السنة والحالة فى تحقيق قمعهم وتفريق جمعهم جارية على الوتيرة الحسنة . واشتعلت فى قلوب أهل النار نار البواعث ، وتحدثوا فى الحادث . وثاروا للثار ، وزاروا بالزار .

وانبرى ملكا إفرنسيس وإنكلتير ، وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاءوا فى مراكب بحرية حربية ، وبطس حمالة فرنجبة ، وأجروا فى البحر منها السيول ، وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول ،

---

(١) فى ب يقلمون والتصحيح من ل .

(٢) الهراش : الخصام والقتال .

(٣) الدهم : الكثير العدد .

وحملوا فيها الخيالة والخيول . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة ، وكل بطسة كأنها تلعة . وكل سفينة فيها مدينة ، وكل مجرة على سماء البحر بنجوم الرجوم مزينة . فأحدقت بالثغر من البر والبحر ، وأحاطت بمركز الإسلام دائرة الكفر . وأطافت منها الأسواء بالأسوار ، والظلماء بالأنوار . ومنعت الداخل والخارج ، وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح الموالج والمناهج .

وزاحفوه بكل منجنيق كنيق(١) ، وكل برج وثيق ، وكل دبابة كأنها دابة الأرض التي تقوم عندها القيامة ، وكل سلم لا ترجى معه السلامة . وكل آلة آلت أن الفتح منها بالحتف ، وأقسمت أنها تقسم سهامها لذوى الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق ، وسور وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقه ، وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه ، ولا يدخل إليه لضيق مسالكه . وهو متحر متحرس ، متستر متترس . عاص على الهجم ، عاس (٢) على العجم . لا يقتحم سده ، ولا يتثلم حده .

ولم تزل الحالة تتمادى ، والواقعة وليدها لا ينادى ، والمدى يتطاول ، والمدد يتواصل . والقضية تترامى ، والرمية تتقاضى ، ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون ، مكابرون مضابرون (٣) . فمن مستشهد عدله الجرح ، ومن مستنجد عطله القرح ، ومن دام بالجرح رام عنه ، ومن نازع فى القوس نازع منه ، ومن متعرض للموت خوف عار عارض ، ومن ناه عن السلم آمر بالحرب ناهض ، ومن ندب فيه ندوب ، ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب ، حتى ضج الحديد من قرع الحديد ، ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد .

هذا وعدد المقاتلة فى كل يوم ينقص ، وظل المصابرة يقلص . والعدم يتمكن من الوجود ، والقيام للإثخان فى زى القعود . وكاد البقاء يودع الباقين

---

(١) النيق : أرفع موضع فى الجبل .

(٢) عاس : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة ومنه العسس .

(٣) مضابرون : مجتمعون للغزو .

والمنون تلاقى الملاقين . فلم يشعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تأخر وتستر ، واستشعر الذعر ؛ فتعذر وتحذر. واستبدل الجبن من الشجاعة ، واستملى العجز من الاستطاعة ، وقدم العصيان على الطاعة . وظن أنه لا نجاح له فى العزيمة ، ولا نجاة له إلا فى الهزيمة . وجنب أمثاله من الجبناء ، وجمع إلى أمره جماعة من الأمراء . فخرج بهم من الثغر فارا ، وذهب على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب ، وحسب فتسحب . فأضعف قلوب البقية استشعارا ، وأعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثابوا إلى صبرهم ، وثبتوا على أمرهم ، ودفعوا مكر العدو بمكرهم .

وما برحوا على مصابرة ومكابرة ، ومقارعة ومعاقرة ، ومكافحة وملافحة ، ومواقعة ومواقحة ، ومطاحنة ومناطحة ، وجلد على الخنادق التى طمت ، ورمى فى خروقها التراب ورمت . وطرقها العدو بالسوء إلى السور ، وطرق الظلمة إلى النور ، وهجم على السنى بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب ، وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حاميه ، وأشرفت مراميه . وكثرت ندوب نقوبه ، وكرثت خطاب خطوبه .

ودخل العدو فى النقب فلم يجد لكونه مجدلا أو مجرحا مخرجا ، وتوغل فى الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من أصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ، وولى الوحشة بأنسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله ، وأثبت فى مستنقع الموت رجله .

ولم يزل النقابون يوسعون ويمشون ؛ ويعلقون ويحشون ؛ ويخرقون ويحرقون ؛ ويجمعون ويفرقون ؛ حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا ، وتعانقت الأسياف فزادت قلولا (١) . وتكشفت الوجوه لقبل الطعان ، وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية فى الايمان ، وبردت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الإيمان .

وأصحابنا لا يهولهم الهائل ، ولا يميلهم إلى الحذار الجدار المائل ،

---

(١) القلول : الارتفاع .

ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردعهم الرعب الرادع . يواصلون بالقواطع ، ويتواقعون على الوقائع ، ويردون بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . إذا انتظموا مع العدو نثروه ، وإذا نهضوا له أقعدوه وعثّروه ، وإذا صعد إليهم حدّروه ، وإذا بادر إليهم بدروه وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا ، وكم تركوا على تلك المصارع من جاثميها جثمانا .

وما زالوا يقتلون ويُقْتلون ، وينهلون من ورد النجيع ويتهلون ؛ ويصلون ويقطعون ، ويشعبون (١) ويصدعون ، ويكيلون بصاع المصاع ، ويجيبون للعمر الراحل داعيَ الوداع ، ويتناجون بألسنة المناصل ، ويتقابلون بوجوه الصواقل ، ويتشاكون بكلام الكلام ، ويتلاقون بسلام السلام ، ويتساقون بصحاف الصفاح ؛ ويتماشون بمراح الرماح ؛ ويستحلون ضرب الضراب ؛ ويستجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب ؛ إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن الستائر إلى الستور ، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح ، ومن المضايق إلى الفساح ، ومن المراقب إلى السفوح .

حتى لم يبق من المجاهدين إلا سبائك زحوف ، وترائك حتوف . وبقايا طرائح ، ورذايا (٢) طلائح ، ومسوقو جرائح ، ومشوقو ضرائح . قد فصلتهم المشرفيات ، وخاطتهم الخطيات (٣) . ورشقتهم القسى القاسية ورشفتهم الظبا الظامية . لا ينهض قويهم من الكلول ، ولا يفرى فريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق ، ورد أولئك الخلايق .

فما شعروا إلا وقد دخلت من أقطارها ، وتوغلت من أسوارها . وازدحم العدو فى مشارعها وسبلها ، (ودَخلَ المدينةَ على حينِ غفْلةٍ مِنْ أهلها (٤)) .

ولما عرف العدو الداخل ، والعادى الواغل ؛ أن القوم مستقتلون ؛

---

(١) يشعبون ويصدعون : أى يجمعون ويفرقون .

(٢) رذايا : جمع رذيه وهو المزيل الضعيف . وطلائح : جمع طلح وهو الهزيل التعب.

(٣) الخطايا جمع خطية .

(٤) الآية ١٥ سورة القصص .

وللموت مستقبلون ؛ وأنه لا طاقة له بمقاومتهم ؛ ولا قوام له بطاقتهم ؛ وأنهم لا يسلمون وهم يسلمون ؛ ولا يبقون وهم يبقون ؛ أعطاهم أمانا أخطر من المخافة ، ودخل على الإغارة باسم الضيافة .

وعز أصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا ، وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . ولامرد لما فيه لله من المراد ، ولا مدفع لحكمه فى البلاد والعباد . وإن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين ، وإن غاض معين فما غاب المعين ، وإن ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح المرتج فما فات المرتجى . وإن ادلهم الديجور فلا بد أن يسفر عن الصبح الدجي . ولا يشمت عدو الاسلام(1) بما جرى ، فعند الصباح يحمد القوم السرى .

---

(1) ساقطة فى ب مثبتة فى ل .

فصل من كتاب

إلى قطب الدين بن نور الدين بن قرا أرسلان(١)

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر فى هذه السنة من مدد ملوكه وكثر على نهار الإسلام بإظلام ليل الكفر وحلوكه . فالإسلام ينشد ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمته من (ابن نوره) نوره .

وهذه عكاء التى كنا عنها نداقع ؛ وعن ثغرها نمانع ؛ ونجرى دماء الواردين فى البحر لقصدها فى بحرها ؛ ونرد للرد عنها مكايد العداة فى نحرها ؛ قد تمكن منها الكفر على كره من الإسلام ، واحتاج مَنْ أبى اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الإسلام .

وكانت مودودة فعادت موءودة . وصارت مغصوبة بعد أن كانت عارية من الكفر مردودة . وإذا أفكر من خذلها ؛ وما أخذ لها ؛ وغاب عنها وما حضرها ؛ علم أنها أسيرة إهماله ، وأخيذة إغفاله . وحاشى أن يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا ، وعن النجدة عند تحقق الحاجة إليها متغاضيا .

وما بقى للفرنج مع استيلائها على الموضع ، إلا زائد قوة فى المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف ، وصد صدمة الكافر بالجد الكافى الكاف ، والله كافل دينه بالنصر ، والمردى بمكره أهل المكر . وما هذا أوان الونى ، بل هو زمان استنجاح المنى . فإن العدو الخادر قد آن أوان أن يصحر ، وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

---

(١) قطب الدين ابن نور الدين ابن قرا أرسلان : هو محمود بن محمد بن قرا أرسلان ابن أرتق ، الملك الصالح ، ناصر الدين صاحب آمد ، كان شجاعا عاقلا جوادا ، محبا للعلماء ، وكان الأشرف يحبه وخدمه غير مرة ، توفى سنة ٥٩٤ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٥٠ : ط . دار الكتب) .

ومن رسالة أخرى فى استدعاء مظفر الدين من أربل

تشتمل على حادثة عكاء ووصف الحال الجارية فيها

قد علم ما دهم المسلمون من العدو الكافر ؛ والطاغية الحاشد الحاشر ، وأنه ورد فى البحر بكل من للكفر فى البلاد والجزائر ؛ وما قصْده إلا بيضة الإسلام وحوزته ، وأن الله تعالى هو الذى تكفل بذلة أعدائه عزته . ولاشك أنه عرف ما تم منه على عكاء بعد ذبنا عنها فى هاتين السنتين ، والمضايقة للفرنج ممن بعكاء ومنا بين الحصارين . وأنهم كلما دبروا أمرا دمرناه، وكلما حققوا كيدا أبطلناه ، وكلما قدموا منجنيقا أخرناه وعطلناه ، وكلما ركبوا برجا أحرقناه ، وكلما كثفوا حجابا خرقناه ، و (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله (١)) . حتى لم يبق لمكرهم مكرّ ، ولا لكيدهم مجال ، ولم يتسق فى هذه المدة لهم حال .

وقتل منهم فى عدة دفعات زهاء خمسين ألف مقاتل ، من فارس وراجل ولم نشك فى استيعابهم بالردى ، وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى وحسْبنا أنهم بائدون ؛ فإذاهم زائدون . وظننا أنهم هالكون ؛ فإذاهم فى نهج القتال سالكون . وهم حطب نار الحرب ، وطعم الطعن والضرب : وكم بذلوا أرواحهم على حب (المقبرة) ، وحصلوا تحت العجز لزعمهم أنهم يأتون بما فوق المقدرة :

ولما دخلت هذه السنة أشفقنا على من فى عكاء من الأصحاب والأجناد وقلنا : « هؤلاء قد بذلوا فى الجهاد ما كان فى وسعهم من الاجتهاد : ورأينا أن نجدد للبلد البدل، وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل » . وكان فيه أكثر من عشرة آلاف رجل ، من كل قمر مشيح وكمى بطل . فخرج هؤلاء ولم يدخل إليهم مثل تلك العدة ، ولم يكن أيضاً من دخل بذلك الجد وبتلك الشدة . فإن البحر قبل استكمالها منع راكبه ، وحمى جانبه

(١) الآية ٦٤ سورة المائدة .

ووصل العدو وعجل مراكبه . فاكتفى البلد بمن فيه وما فيه كفاية ، واتكل على الله الذى عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام ، فى جد واعتزام ، وحد واهتمام ، وجمع لهام ، ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام ، وغرام بالواقعة وعرام ، واحتداد للحادثة واحتدام ، وباس وإقدام ، وناس وأقوام . وحشد ملأت به سفنها ، وأخلت منه مدنها .

ووصل ملكا إفرنسيس وانكتير ، وقد أحكما التدبير ، وأجلبا بخيلهما ورجلهما ، وأناخا بكلكل كلهما ، وبركا بثقلهما ، وزحفا بجهدهما وجهلهما . ووافوا بكل برج وثيق ، وكل منجنيق كنيق . وكل آلة هائلة ، ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد ، وأهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ؛ والخندق بالطم ، والسور بالنقب والثلم . وخرج من نقابى البلد من ارتد عن الدين ، وأعان نقابى الملاعين . حتى وقعت أبدان السور وأبراجه . وتبادر إلى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه (١) .

وأصحابنا مع ذلك ثابتون ، ناكبون كابتون . قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم ، وجعلوا حجارات الفرنج وجراحاتها مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبل السهام ، وتلفعوا من وقع بيضها بحمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم ، وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وسخاءهم . كلما انتظموا مع العدو انتثر ، وكلما نهضوا لتلقيه عثر . وكلما طلع إليهم ردوه بغربهم ، وكلما اجتمعوا به فرقوه بطعنهم وضربهم . وهم يواقعون ويواقحون ، ويكافحون ويلافحون . وكل قد وقف فى موقف الكرام وسل نصله ، وأثبت فى مستنقع الموت رجله ، وودع للجنة فى لقاء أهل النار أهله .

فخانهم بعض الأمراء الجبناء ، وأخذ للحياة بترك الحياء ، وفر من البلاء إلى البلاء ، وحسب النجاة فى النجاء . وهرب فى بركوس قد أعده لذلك اليوم ، وآثر على جراح السيف جراح السب واللوم . واستصحب أمثاله

(١) أعلاجه : جمع العلج وهو الرجل الضخم القوى من الكفار والعجم .

واستتبع ، وأبعد فى فراره وأبدع . وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين ، وأطمع أفاعى الكفر فى نهش الراقين .

على أن الأصحاب ما آذنوا بالإصحاب ، ولم يقابلوا الضراب بالإضراب : وما زالوا يواصلون بالقواطع ، ولا يرتاعون للروائع ، ولا يريمون مقام المقامع ، ويطالبون من الأرواح بالودائع . حتّى انتقل القتال من السور إلى الدور ، ومن القوارع إلى الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلْم بالحرب شبيهة ، وأمن أخوف وأخطر من كريهة ، وقطيعة فظيعة ، كل منة لها غير مستطيعة .

ولولا ما اتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة ، لم تكن عكاء بالممكنة للعدو ولا المذعنة . وإن ذهبت المدينة فالدين لم يذهب ، وإن عطبت فالإسلام لم يعطب. وإن ملكت واحتلت فما اختل الملك ، وإن سلكت ووهت فما وهى السلك . وإنما نبه الله بها العزائم الراقدة ، وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات الناعسة ، وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره ؛ سيظهرعزنا بنصرته وظفره .

ونحن إلى الآن كما كنا ؛ محدقون بخنادقهم ، آخذون بمخانقهم ، نوسعهم الردى في مضايقهم ، ونجذبهم فى كل يوم إلى مصارعهم ، ونكدر بعلق نجيعهم صفو مشاربهم ومشارعهم . فما خرج منهم من دخل ، وما انقطع إلا من وصل . وما أصحر إلا من ندبه عريسه وعرسه ، وما برز إلا من واراه من بطون الخوامع (١) رمسه . فهم مقيمون لا يريمون مخيمهم ، ولا يرومون أن يهجروا مجثمهم . وما أنسوا بمرابض المضارب ، إلا لنفرتهم من مضارب القواضب. وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج إلى المصاف ، وآونة بالنهوض إلى بعض الأطراف . وفى كلا القصدين إن شاء الله دمارهم المعجل ، وبوارهم المؤمل . فإنا نعترضهم أينْ واجهوا . ونواجههم أين اعترضوا ، ونعثرهم أين نهضوا ، ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهم عكاء فطمحوا وطمعوا . وإتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعوا

(١) الخوامع : الضباع .

على نار الحرب وقوع الفراش ، وتعوضوا مصارع أمثالهم والثرى لهم وثير الفراش .

فإن برز العدو فالمنون له بارزة ، والعزائم له مناجزة ، والعساكر الإسلامية إليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس أولى منْ ينتخى ويحتمى ، وإلى هذا المرام من قهر الكفر يرتمى وينتمى : ويصل بجمعه اللهام الملتهم ، وبجمره الملتهب المضطرم ، وبمجره المحتد المحتدم ، وبفيلقه الفالق ترائك العدا ، السافك السابك فى نار الوغى سبائك الظبا . الحاص الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه ، ويستدعى من إذا ناداه أجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله فى حقى خفى

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكاء بسنة ؛ قد عمل ترجمة تفرد بها القاضى ابن قريش لمكاتبته الأصحاب ، ليكتب بها إليهم ويعود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة إبتداء وجوابا بخطى ، وخرج حكم عكاء في الكتابة عن شرطى . فقلت لأصحابى : « ما صرف الله قلمى عن عكاء إلا وفى علمه أن الكفر إليها يعود ، وأن النحوس تحلها وترحل عنها السعود » .

واستعاذنى الله من استعادتها ، وردها إلى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلمى وكلمى ، وعرف شيم مخايل ألطافه من شيمى . وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمرى ، وما أجراه الله إلا بأجرى . فالحمد لله الذى صانه ، وعظم شانه ، وما ضيع إحسانه . وهو للفقه والفتيا ، ومصالح الدين فى الدنيا . وما عرف إلا بعرف ، فما صرف إلا عن صرف .

وما سفارته إلا فى نجح ، وما إسفاره إلا عن صبح ، وما تجارته إلا لربح . فهو يمين الدولة وأمينها ، ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد إمدادها ، وبسداده للثغور سدادها . ودواته دواء المعضلات، وبعقده حل المشكلات . وبخطه حط عوادى الخطوب ، وبقطه قط هوادى القطوب . وببريه برء الأمراض ، وبدره در الأعراض .

وبدره انتظام عقود العقول ، وبدراريه ابتسام الإقبال والقبول . وبجريه جرى الجياد للجهاد ، وبسعيه سعى الأمجاد للإنجاد ، وبحركته سكون الدهماء ، وببركته ركون الرجاء .

فما كان الله ليضيعه فى صون ما لا يصونه ، وعون من لا يعينه . فخفت على عكاء من وقوف قلمى عنها ، وكان قد ألهمنى الله فإنه صانه ولم يصنها . وشكرت الله على هذه اللطيفة ، والعارفة الطريفة .

ذكر ما جرت عليه الحال بعد استيلاء الفرنج على عكاء من الوقائع

وفى يوم الخميس انسلاخ جمادى الآخرة ، خرج الفرنج من جانب البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج (١) إلى الآبار التى كان حفرها العسكر ، فضرب الكوس (٢) السلطانى ، فثار المعشر ، وقام المحشر . وأنهض السلطان إلى اليزك من قواه ، وأتبعه بمدد تلاه . وقد طار غراب الغبار ، وتبرقعت بالتراب عراب المضمار ، وشبت الوغى بكل شبوب تمانع سوى فارسها ركابها ، وتعير الشمس من نسج حافرها نقابها . فى غلب كالقواضب يروّون القواصب ، وطوالع من الغروب يعُدن فى الغوارب غوارب .

وحمل على أبطال الباطل حماة الحق ، فردوا الكفر بذلك الخرق المتسع متسع الخرق . وانهزم الفرنج فجالت العرب دونهم ، وحالت بينهم وبين أسوارهم ، وأحالت عليهم منونهم . وصرعوا زهاء خمسين رجلا ، كروا عليهم بكاسات المنون نهلا وعلا . وردوهم إلى مراكزهم ، ولم يبن لقادرهم فضل على عاجزهم .

ثم كر الفرنج على المسلمين كرة عظيمة ، كادت تحدث هزيمة . فوقف أصحابنا وثبتوا ثم وثبوا ، وأسعروا نار الحديد وألهبوا . ونظموهم بالقنا ونثروهم بالظبا ، وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبت سيوفهم بالأعناق والطلى ، وحلت من حياة العدا الحبا . ودخل القوم إلى خنادقهم ووقفوا وراء أسوارهم بإثارة عثيرهم وآثارعثارهم . وانتصف الإسلام من الكفر فى ذلك اليوم بعض الانتصاف ، وأخذ يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف .

وفى يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل فى تقرير القطيعة المق رة ، لخلاص الجماعة المستأسرة . وأخبروا أن ملك إفرنسيس صار إلى صور . ورتب الدوك (٣) نائبه وولاه الأمور . وأنه قد عزم على العود إلى بلاده

---

(١) فى أ (٣٢٤ ى) فى المرج .

(٢) فى ب القوس والتصحيح من ل ومن أ (٣٢٤ ى) .

(٣) يقصد الدوق Duke بالإنجليزية . وهو لقب بمعنى الأمير .

بعد ما جرى الأمر بعكاء على مراده . وأنه وكل المركيس فى قبض نصيبه ، ورضى بتدبيره وترتيبه . فأنهض إليه السلطان وراءه رسولا بتحف تليق به ، يستخرج ضمائره فيما هو من أربه ، ونقل خيمته يوم السبت العاشر إلى تل بإزاء شفرعم وراء التل الذى كان عليه نازلا ، وحلّى الموضع الذى حلّه وخلىّ الذى أخلاه عاطلا .

وما زالت الرسل تتردد ، والرسالات تتجدد ، والآراء والآراب تجتمع وتتبدد ، حتى أحضر مائة ألف دينار والأسارى المطلوبين وصليب الصلبوت ، ليوصل ذلك كله إلى الفرنج فى الأجل المضروب والوقت الموقوت .

ووقع الخلف فى كيفية التسليم والتسلم ، وكيف يحصل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السلطان : « أسلمه إليكم على أن تطلقوا أصحابنا أجمعين ، وتأخذوا بباقى المال على سبيل الرهن قوما معينين » ، فأبوا إلا أخذ الجميع ، فى الزمان السريع . والوثوق بأمانهم وأمانتهم ، والتفويض فى أصحابنا إلى خيرتهم . فقلنا لهم : « يضمنكم الداوية » . فما دخلوا فى الضمان ، وساء فيهم ظن السلطان . وقال : « إذا سلم إليهم من غير شرط الاحتياط عليهم ؛ كان فيه على الإسلام غبن عظيم ، وعار إلى الأبد مقيم . فلو أيقنا خلاص أصحابنا ؛ وعرفنا بنجاتهم انتظام أسبابنا ؛ سمحنا لهم فى الحال ، بصليب الصلبوت والأسارى والمال » .

وبقى الأمر واقفا إلى أن انقضى الأجل ، وانتهى الترم (١) الأول . وجاء الرسل وأبصروا الأسارى حضورا ، والمال موزونا موفورا . وظنوا أن صليب الصلبوت قد أرسل إلى دار الخلافة فليس له وجود ، فسألوا إحضاره وهم شهود . فلما أحضر ، خروا له ساجدين ، وأقروا به شاهدين . وعرفوا أن الشرط بالوفاء مقرون ، وأن الأداء بخلاص أسارانا مرهون . وظهرت علامات مكرهم ، ولاحت أمارات غدرهم .

وفى يوم الأربعاء العشرين من رجب أخرج الفرنج إلى ظاهر المرج خياما ضربوها ، وقبابا نصبوها . وخرج ملك الانكتير إلى خيمته ، ومعه خلق من خيالته ورجالته .

---

(١) الترم : يفهم من السياق أنه المدة ، الأجل . ويبدو أنه كلمة Term الإنجليزية .

ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخوذين بعكاء

وفى عصر يوم الثلاثاء سادس عشر رجب ركبت الفرنجية بأسرها ، وخرجت من مستقرها ، وسارت بخيلها ورجلها ، وجحفلها وحفلها . وجاءت إلى المرج الذى بين تل العياضية وتل كيسان ، ونفذ اليزك وأخبر السلطان ، وركبت العساكر نحوها متسابقة متلاحقة ، وشامت صوارم صادقة ، وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد أحضروا أسارى المسلمين فى الحبال واقفين . وحملوا عليهم وقتلوهم بأجمعهم ، وألقوهم على مصرعهم. فحمل عليهم العسكر وهاجمهم ، وضرب بأمواجه أمواجهم . وقتل منهم خلقا ، وأوسع فيهم خرقا . واستشهد مناكردى حميْدى وبدوى ، وكلاهما من الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روى .

فلما انصرف العدو إلى خيامه ، وركد الروع بمثار قتامه ، شوهد المستشهدون بالعراء عريا ، وإنما عروا ليكتسوا من حلل الجنان التى أكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس إليهم فعرفوا معارفهم ، ووصفواْ فى سبيل الله مواقفهم . وما أكرمهم رجالا ، وأحسنهم فى الشهادة والسعادة حالا .

ولما غدر الفرنج بسفك الدماء ، وهتك ستّر الوفاء ، تصرف السلطان فى ذلك المال ، وبسط فيه يد النوال . وأعاد أسارى الفرنج إلى دمشق لتعاد إلى أربابها ،وترجع إلى أيدى أصحابها ،فإنهم كانوا جمعوا من أهل البلد للحاجة إليهم ، فلما استغنى عنهم ردوا عليهم . وأعيد صليب الصلبوت إلى الخزانة ، لا للإعزاز ؛ بل للإهانة . فإن غيظ الكفار بحفظنا للصليب شديد ، والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا ، وأنفذوا بعد رسول رسولا ، فما وجدوا قبولا ، ولا صادفوا سولا .

وفى يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر ، وقاربت البحر. وضربت بينهم الخيام ، وأنبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقيل للسلطان ما حركة القوم إلا لقصد عسقلان . فجاشت همومه ، وعب عبابه ، واجتمع بناديه لإجالة قداح

الرأى أصحابه ، وسح سحابه ، وصح حسابه . وحكم فأحكم ، وبرى فأبرم .
واستشار وأشار ، واستثار وأثار ، واستورى زناد الآراء ، وامترى مراد الأمراء .
وقال : « هذا العدو طغى واستكبر ، وأصحى له الأفق وأفاق وأصحر .
وقد تحرك بعد سكونه ، وظهر بعد كمونه ، وغرته عكاء فطمع فى عسقلان ،
واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة ، وكعوبه
راكزة . وعوراته بادية ، وثوراته عادية . ونكراته معروفة ، وغدراته
موصوفة .

وكنا نقول إذا برز نبارزه ، وإذا خرج نناجزه . وإذا فارق مكانه
نتمكن من تفريقه ، وإذا ركب الطريق نركب إلى طريقه . وإذا توجه إلى
موضع أوضعنا إلى مواجهته ، وأغرينا ألسنة الأسنة بمشافهته ومسافهته ؛
والآن ألان الله لنا الشديد ، وأدنى علينا البعيد ، وأخرج العدو من الضيق
إلى السعة ، وأبرزه من وراء الأسوار والخنادق الممتنعة ، وإن لم نلقه فى طريق
مسيره ؛ ونجد فى التدبير لتدميره ؛ وصل إلى عسقلان فصار لنا منها شغل
عكاء وأصعب ، وحينئذ نتعب ، وصدعُنا بها لا يشعب » .

فقالوا : « هو يسير بالبحر محتميا ، وعن النهج منتثيا ، ويقصد الساحل
الساحل ، ويقتصر المراحل . والذى يلى الساحل فى الطرق إما آجام وغياض
غلقة متأشبة(١) ، وإما رمال وتلال ضيقة متكثبة . وهناك مواضع يمكن
فيها مضايقته على المضايق ، ومواقعته بالعوائق » .

فتقدم السلطان إلى علم الدين سليمان بن جَنْدر ، وأمير من أهل الخبرة
آخر بالمسير إلى تلك المناهج ، ومشاهدة ما لها من المخارج والموالج . وكشف
المواضع التى يلقى فيها العدو ، ويؤمل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو .
فسارا ينفضان تلك المسالك ، ويكشفان الأماكن التى تكون معارك ،
ونتخذها لمبار المرام مبارك ، ولمدار المراد مدارك .

---

(١) متأشبة : أشب الشجر ، التف واشتبك والمعنى المقصود هنا أنها متشابكة الأشجار .

وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع . وعيّنا على أماكن ومكامن ، ومواطىء ومواطن . ووقع الإجماع على الإجتماع ، على اللقاء والقراع . فى مذاهب تعينت ، ومسارب تبينت . وسهول عرفت ، ومروت (1) وصفت . وصمم العزم على أن الفرنج إذا ساروا سرنا على عراضهم ، واستقمنا على جدد الجد فى اعترائهم واعتراضهم .

(1) مروت : جمع مرت وهى المفازة لا نبات فيها .

وفى سحرة الأحد غرة شعبان ، أضرم الفرنج فى منازلهم النيران . وأصبحوا على الرحيل والأصوات مختلطة بالصهيل . والأرض مضطربة ، والسماء محتجبة . والقباب تقوض ، والعياب[1] تنفض . والجعاب تنثل ، والهضاب تنقل ، والذئاب تعسل . والزغف يفاض ، والحتف يخاض . والخيل تسرج ، والسيل يمرج . وذوائب الذوابل تنشر ، وأنياب النوائب تكشر . ولواء اللأواء يعقد ، وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخفق ، والبوارق تأتلق . والدوّدوّ ، والجوّجوّ . وللحديدتبوج [2]، وللعديد تموج . وقد ثارت الجواء[3] ، وفارت الجأواء[4] ، ودجت الأضواء ، ورجت الضوضاء . وسال الوادى ، وعدت العوادى ، وسار الأعادى .

وعلم السلطان تدبيرهم ، وعرف مسيرهم ، فرعدت كوساته ، وغردت بوقاته . وصاحت طبوله ، وساحت سيوله ، وانسحبت ذيوله ، واصطخبت خيوله . وبرقت لوامعه . وأشرقت طوالعه . ومضت عزائمه ، ومضت صوارمه . وحلقت العقبان إلى مطار مطارده ، وتألقت الخرصان فى معاقل معاقده . وسار وأرضه جرد الضوامر ، وسماؤه نسج الحوافر . فى بحار سوابح يموج على شكائمها [5] اللعاب ، وغدران سوابغ كالزلال لمعه الحباب . وبجر ملتهب الجوانب ، مشتعل القواضب ، وقُبٌّ معقودة السبائب[6] ، مقودة الجنائب ، معصوبة الهوادى هادية العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب ، ملوثة البرود بالقضب .

---

(١) العياب : جمع عيب وهو الزنبيل من أدم ، وما تجعل فيه الثياب كالصندوق .

(٢) تبوج : لمعان وتكشف .

(٣) الجواء : الوادى الواسع ، البطن من الأرض .

(٤) الجأواء : أرض غليظة فى سواد .

(٥) شكائم : جمع شكيمة وهى من اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

(٦) السبائب : جمع سبيب ، وهى من الفرس شعر الذنب . والقب : الضامر من الخيل .

وترك كالأقمار في هالات الترّوك ، ومماليك في حالات الملوك . وعتاق الوجوه على الوجيهيات العتاق ، قد خلقوا للثبات مع قلق الأخلاق . وأعاجم على العراب ، هضاب على هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين ، وبقباب اليلب مستعصمين . في مسرودة الحلق ، مسلودة الحدق . تقهقر عنها اللهاذم ، وتقهقه إذا فلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو ولايصاب ، ويعيب الأقران ولا يعاب .

من كل ناصر للحق ، على ضامرللسبق ، خارق للنقع راقع للخرق ، فاتق للرتق ، راتق للفتق . معتق إلى الضرب ضارب للعنق . وفيلقهمه فلق الهام ، وجحفل ملتهم للجحفل اللهام . يحوى كل أغلب عبل [1] اللراع ، وأشم رحب الباع . خواض الكتائب ، فياض القواضب . رواض الرعان ، نضناض السنان ، موارالعنان ، فوار الجنان . قائد الخيل ،زائد السيل ، رائد الليل . وهاجت العسا كر ، وماجت الزواخر ، فزأرت القساور وأزهرت الزواهر . وتناوحت جذبات الحديد وعذبات الحرير ، واشتبه سهك الماذى [2] بعبيق العبير .

وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك الأفضل[3] ، وهو في نخبة الجحفل بدور ليل[4] القسطل ، وشموس يوم المحفل . فوقف لهم وقفاً أثرهم ، وألهبهم بنيران النصال وأسعرهم . وقطع طريقهم ، وقصد تفريقهم وسطا على أوساطهم (ونادى بإبراء زناد إيراطهم[5]) . فانقطعت أواخرهم عنأوائلهم ، وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم . وأرهق إليهم الأجل ، وأحرق عليهم العجل ، وطرق نحوهم الوجل ، وانهزم من تقدم ولحق الأول ، وتعكس من تأخر والخذل وانخزل[6] .

---

(١) أغلب عبل اللراع : أسد غليظ الذراع .

(٢) الماذى : كل سلاح من حديد .

(٣) فى ب الملك الأفضل والتصحيح من ل ومن أ (٣٢٩ ى) .

(٤) ساقطة فى أ (٣٢٩ ى) .

(٥) فى أ (٣٢٩ ى) . نادى بايراد زناد أنباطهم » .

(٦) انخزل : مشى فى تثاقل .

وأوقد نارا على أهلها مشعلة ، وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغلة . ونفّذ إلى والده يستنجده ، حتّى يسرع إليه مدده . ويقول : « إن أُمْددتُ بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا ، ومتى يتفق مثل هذه الفرصة لو أرى لى مساعدا » . وتردّدت إلى السلطان رسل استنجاده واستمداده ، وهو متحقق أنه لوساعده القدر بالقدرة لمرى در النصر على مراده ، فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم إنجاده وإسعاده . ثم قيل للسلطان « ما كنا ركبْنا بنية المصاف فى هذه المرحلة ، والناس قد سبقوا إلى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب أمكن ، والقلب إلى انتهاز الفرصة أسكن » . وأبطأوا عن الإصراخ ، فآذن روع الفرنج بالإفراخ .

وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته ، وأن الذى وراءه فى عاقته . فصرف عنانه وصرّف عناده وعاد عاديا بحماته ، فحمى بمدده أمداده . والملك الأفضل قد بذل وسعه ، وأوضح فى الجد شرعه . وقتل من وصلت إليه يده ، ولقد كان يضعف عدد الأعداء لو تضاعف عدده . وبقى يتلهف على ما فاته من الفرصة ، وأعوزه من حصة تلك الحصة . فقد أنهاض بانتهاضه جناح الكفر ، وكاد يفتح لارتجائه رتاج النجاح فى النصر .

ومن جملة من كان مع الملك الأفضل من خواص الأمراء والمماليك ؛ سيف الدين يازكوج وعز الدين جُوْرديك . واتفق قولهم على أن العدو كان قد انكسر ، وتبدد نظمه وتبتّر . وأنه لواتصل بهم مدد لم يبق من الأعداء أحد . ونزلنا تلك الليلة بالقيمون فى الوقت الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الأثقال لتؤمن على ما تخلف فيها من العدو الغارة ؛ علم الدين سليمان وحسام الدين بشارة .

ورحلنا يوم الاثنين ثانى شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين ، وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الأساود . وأمر السلطان للمشورة بحضور أوليائه وأمرائه الأماجد الأجاود . والفرنج لما وصلوا إلى حيفا وقد وصل إليهم الحيف ، وساق ساقتهم السيف ؛ وخلصوا من نواجذ النصال ؛ وأنياب النبال ؛ أقاموا بها حتى يندمل جريحهم ؛ ويستريح طليحهم ، وتهب بعد الركود ريحهم .

وركب السلطان إلى الملاحة وهى بعد حيفا منزلة القوم ، وكشف ما حولها بالحوْم . وعرف هل عليهم منها مدخل ، وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد إلى منزلته وأقام بها يوم الثلاثاء وسير الأثقال إلى مجدل يابا ليلة الأربعاء . وأصبح راحلا ، فما حل حباه بأرض إلا أحيا ماحلا . ونزل على النهر الذى يجرى إلى قيسارية ، وعسكره قد طبق تلك البرية . وكان العدو قد تحول إلى الملاحة ، ومكث بها للاستراحة .

وأقام السلطان بتلك الناحية ، يتحول من رابية إلى رابية ، ويرهف للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابية . وأتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقفهم ، وقطفوا من منابتهم ، وطرق الإنكدار إلى ثواقب ثوابتهم . فأمر بإراقة دمهم ، وإطاحة رممهم . وأخبره بعض الأسارى أنهم يوم رحلوا وصلوا إلى حيفا حيارى . وطرح منهم وجرح كثير ، سوى من أخذ فهو الآن أسير . وهلكت بين عكاء وحيفا أربعمائة فرس ، ونجوا منكم بأنفسهم على آخر نفس . ولو أنكم كبستم كسبتم ، وأعريتموهم من الحياة لو أنكم بهم التبستم .

فصل من كتاب إلى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكاء إلى هذه الغاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكاء حسب أنّ (كل بيضاء شحمة (١)) ، وأن(كل سوداء فحمة (٢)) . فرحل على صوب حيفا واقعا فى حيْفه ، باحثا عن حتْفه بظلفه . زاعما أنه على قصد عسقلان — خذله الله وخيبه — فى قصده وزعمه ، وهو حاصل منا على صده ورغمه .

وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير قائدهم إلى البوار ، ووافد أهل النار إلى النار ، ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار . وقد رحلنا فى عراضهم لاعتراضهم ، وتعثيرهم فى طريق انتهاضهم . ولقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة ، وكل روعة لهم مبيدة . فإنهم قطعوا ساقة العدو عن اللحاق بمقدمته ، وفلوا عن الحدة فى الحركة حد عزمته . وقتلوا خيلا وخيالة ، وفوارس ورجالة . وقدروا وتمكنوا ، وجرحوا فأثخنوا . ونهبوا وسلبوا وأخذوا رءوسا قطعوها ، ووقذوا نفوسا قلعوها . وغنموا أقمشة وأسلحة ، وحصوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة .

ونزلوا على نهر حيفا وقد تم عليهم الحيف ، وتحكم فى فلهم السيف . فأقاموا إلى هذه الغاية لمداواة جريحهم ، ومواراة طريحهم ، وإراحة طليحهم وإثارة ما ركد من ريحهم ، وقد رحلنا وسبقناهم إلى طريقهم ، عازمين على تبديدهم وتفريقهم ، وتشتيتهم أيدى سبأ وتمزيقهم . فقد تمكنت بتأييد الله أيدى الأيْد من سبيهم وقتلهم ، والله يجمع شملنا لتفريق شملهم .

وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة ؛ ولأعدائنا من عبطة ، إلا ونبادر ببشراه إلى المجلس لتقوى فى نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق فى مواقفنا شيمته ، وتروض مواحل الآمال مع أوان الديمة الربيعية ديمته ،

(١ و ٢) ما كل سوداء تمرة أو فحمه ، وما كل بيضاء شحمة : مثلان يضربان فى موضع التهمة .

ويغلو فى سوق رواجه من الدين ماظن أنه رخصت قيمته . وكيف لايأخذ ذلك الكريم بثار الإسلام وقد سبيت من عكاء كريمته . وإذا تأمل عرف أن الخطب عظيم ، وما لدفعه إلا العظيم ، والهم مقيم ، وما لرفعه إلا بأسه المقعد المقيم ، وسيقتضى دين هذا الدين الغريم الزعيم .

وفى غدوة الإثنين تاسع شعبان ، جاء من أخبز برحيل الفرنج السلطان . وأنهم سائرون ثائرون ، وعلى أجنحة الجرد طائرون ، وحول رجالتهم بخيلهم دائرون . وهم فى جمع لهام ، وقد انقسموا ثلاثة أقسام . كل قسم راجله بخيله محفوظ ، وبأعين القسمين الآخرين من خلفه وقدامه ملحوظ .

وكان السلطان تقدم من الليل ، بركوب الخيل . فركب فى كل خواض للغمرات ؛ فياض بالعزمات ، رواض للجامحات ، نهاض بالجانحات . ملتثم مع اللثم بالنقع والدجى ، ملتحف لولا الروع — بالحلم والحجا . مقتحم فى حومة الوغى ، مضطرم بجمرة الظبا . على نزائع (١) ينقلن الردى على صهواتها ، وصواهل يقذفن الحمام من لهواتها ، ويكشف الظلام بجبهاتها ، ويبارين الصفاح بصفحاتها ، وتعاسل الرماح بأعناقها وطلاتها .

وفيهم من رجال الحلقة المنصورة كل سابق إلى المنون على سابق ، وكل نائق إلى المازق مازق . وكل طائر فى الغبار على سابح ، وكل غابق بالنجيع صابح . فى عراب متمطية بالعراب ، ورقاق متخطية إلى الرقاب . وسار العدو وسرنا نبريه ونباريه ،ونجترى عليه ونجاريه . والجاليشية ترمى وتدمى ، وتصمم وتصمى . وطيور السهام تقصد من الأحداق أوكارها ، والأوتار تنشد بالإرنان أوتارها . وهم فى لباس حديد سد على السهام المنافذ ، واشتك النشاب فيهم فأشبهوا قنافذ .

وكانت هناك بركة كبيرة ، ومياهها غزيرة . وهم على عزم ورودها ، والإحاطة بحدودها . فحلأناهم عنها ، وأبعدناهم منها . وكان الحزم تركهم حتى يخرجوا إلى الفضاء ، فيدخلوا من تمكننا منهم تحت حكم القضاء . لكنهم ارتابوا وارتاعوا ، وطلبوا النزول بها فما استطاعوا . فانحرفوا إلى

(١) نزائع : جمع نزيعة ، وهى من النجائب : التى تجلب إلى غير بلادها ، أو من الابل والخيل التى انتزعت من أيدى الغرباء .

الساحل ، وانصرفوا بالفارس والراجل . واجتمعوا سائرين ، وساروا مجتمعين.

وما زلنا نلزهم (١) ونهزهم ، ونحفزهم ونحزهم ، حتى تمت مرحلتهم ، وعمت مقتلتهم . وتثلمت الصفاح ، وتحطمت الرماح ، وأجرت الأنهار الجراح ، وجرى بالأرواح السماح .

وحضر السلطان مع الجاليشية ، ناجح الإرادة نافذ المشية ، ونزلوا على نهر يقال له : نهر القصب (٢) . وقد انصبوا إلى النصب . وما كانوا يرجون ، وما كادوا ينجون . ولما نزلت بهم فى مسيرهم النوازل نزلوا ، وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

(١) لز : شد وألصق . واللز هو الطعن وهو المقصود هنا ، وكذلك لز بمعنى الزام الشىء بالشىء .

(٢) نهر القصب : بين القصير وأرسوف (الفهرس الجغراف للنوادر السلطانية رقم F ط . ليدن)

واستشهد فى ذلك اليوم ؛ الهمام المقدام ، الأسد الضرغام ، الطاعن الضارب ، الباسل السالب . الغضنفر الهِرْماس ، الفارس الفرّاس ، أياز الطويل . وطالما عرض نفسه فى سوق الشهادة ، وأقدم إقدام الساعى إلى السعادة . وكان إلى الصريخ أسمع متنصت ، ولعطاس النقع أسرع مشمّت ، وإلى ضيف الحمام أسبق متلفت ، ولسيف الإقدام أرشق مُصْلِط . لايروعه الروع إذا حفزته عزمته ، ولا يهوله الهول إذا همت به همته .

وهوأول من يركب وآخر من ينْزل ، ويدبر سواه وهو يقبل ، ويسابق إلى المضار ولا يمهل . وهو أبداً يدعو إلى المبارزة ، ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصفين على صافنه ؛ ويرحل على مطايا الحنايا من بنات كنائنه ؛ إلى مقاتل المقاتلين ظعائن غائنه . فما برز إليه إلا من برزت إليه منونه ، وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كفّ للكفر كفها ، وبِكْر للنصر زفها . وأنف للشرك جدعه ، وذى أنف للفتك صرعه . ولبة للغضنفر ضبحت لثعالب رماحه ، وطُلْيَة (١) للمتغشمر(٢) طنت فيها أذبّة صفاحه . وأجفان للأقران نبتت فيها أهداب سهامه ، ووجوه للشجعان تفصلت فى حساب حسامه .

فلما جاءه الأجل ما أجل ، ولكن إلى الجنة به عجل . فإن حصانه خانه وما صانه . فعثّر به فى حالة الإقدام ، وجلا قمره فى هالة الحمام ، ولم يخف لثقل الحديد للقيام . وطعن وضرب ، وأتاه من الكوثر سلسبيله فشرب . ولما أدركه الأصحاب ألفوه وقد فات ، ورافق فى عليين الأحياء فى سبيل الله لا الأموات .

ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شديدى الشوكة ، حديدى

---

(١) الطلية : العنق .

(٢) المتغشمر : غشمر الرجل : ركب رأسه فى الحق أو الباطل فلا يبالى بما صنع ، تغشمر الجيش أو السيل : أقبل .

الشكة . ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصب فى أوله ، وهو الذى نزل العدو فى أسفله . وتقاربت ما بيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الأمن وعند العدو المخافة .

ولما أصبح السلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدوّ ، ينتظر مايكون من خبر العدو . وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحاتهم . وكذلك ما ملكهم من رعب الهلاك ، والابتراك فى الارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقدم فى ساقة اليزك ، مستيقظاً للحفظ والدرك . فبصر بجماعة من الفرنج مقبلين ، ركبوا بغير عدة مسترسلين ، ولأخبار عسكرنا مستشرفين ، وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر إليهم النهر من ورائهم ، واستظهر عليهم فى لقائهم . فقتل منهم عدة ، ولقوا منهم شدة وأسر ثلاثة قبل أن ينالوا إغاثة . ثم ركب الفرنج إليه ، وحملوا عليه . وكانت وقعة عظيمة ، جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة .

وأحضر الأسارى عند السلطان ، بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالأمس منهم ألف ، وسرى فيهم وهن وضعف . وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم . ورحلنا وقت الظهر ، وعبرنا شعراء أرسوف فى الطريق الوعر . ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب (١) .

ومضى السلطان جريدة ، إلى قرب أرسوف ، وأطال هناك الوقوف . حتى رأى أرضاً فى طريق العدو تصلح للقائه ، والإحداق به من أمامه وورائه . وأقام يوم الأربعاء فى ذلك المنزل ، والعدو فى منزله الأول .

---

(١) دير الراهب : بفلسطين قرب أرسوف (الفهرس الجغرافى للنوادر السلطانية رقم : D ط . ليدن) .

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير

كان فى اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر « فاسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه . فاجتمعا يوم الخميس على التأسيس . ثم تحدثا فى الحوادث وعوادى الحروب العوائث (١) . وأن السلم متعينة ، والسلام فيها متبينة . والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة (٢) . قال : « وما جئنا إلا لإصراخ أهل الساحل ، فوقعنا فى الشغل الشاغل . فإن أصلحتموهم واصطلحتم استرحنا واسترحتم » . فقال له الملك العادل : « ماالذى فيه تحاور وله تحاول » . فقال : « رد البلاد برد البلاد ، وسلوك مسلك الإسعاف والإسعاد » . فقال العادل : « هذا لا مطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه . ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخلط القتام وخرط القتاد ، وصرف عنان صرف العناء إلى المتصرفين بالعناد » .

وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته فى الكلمات الكالمات الغليظة . وكان الترجمان بينهما هنفرى بن هنفرى ، فلما سمع ملك الانكتير ما راعه ، ما استطاع سماعه . وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما إلى التفرق .

---

(١) العوائث : جمع عيوث وعياث وهو الكثير الفساد .

(٢) فى ب مترجمة والتصحيح من ل .

وقعة أرسوف

لما عرف السلطان من أخيه الملك العادل ما جرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغى الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الإصباح الأصحاب واستحضر من أسد غابه من غاب . وأمر برحيل الأثقال ، وأقام فى رعيل الرجال . وركب فى عجم أنجاب ، وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد . على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمن . بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى. ونبال مصمية لبان المصمم ، ورماح لدن لدنها ضغم الضيغم المعلم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرار نصله ونومه .

فلما أسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صوب أرسوف ؛ وقد ضم الرجال والفرسان . وهو سائر فى ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك . وحزب الشيطان ، وحرب الإيمان ، وأصحاب الجحيم ، وأقطاب الضلال البهيم . وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب . وكفاة الكفاح ، وصفاة الصفاح . وأجناس الكفار ، وأنجاس الداوية وأرجاس الاسبتار. وكل غيران غيور وان وأفعوان معتقل أفعوان ، وكل أرقم فى جلد أرقم ، وكل أزرق أشقر على أدهم .

فأحدقت به أحلاف عساكرنا إحداق النار بالحلفاء ، ونقلت بنسور ضوامرها الأرض إلى السماء . وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت(١) المهجات . وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات . وألهبت شعل اليمانية ، وألهت بها مقل الفرنجية . وجال عليهم فى الجاليش ، الترك على الأكاديش . وأحدقت سهامها كالأهداب بالأحداق ، وبرزت بيضها لمعانقة الأعناق .

ولمع شرار النصال فى دخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق

---

(١) أفاظت : أماتت .

حجاب الحجاج ، وأفضى فيض بنابيع النبع إلى إعجال الأعلاج . فإن الفرنج أغذوا فى سيرهم وجدوا ، واحتدموا واحتدوا وامتلوا . وقربت منهم الأطلاب ، واختلط بهم الأصحاب ، وتعانقت الرقاق والرقاب ، وأحرج القوم وتقطعت بهم الأسباب . وقربوا من أرسوف وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف . وضاق خناقهم ، وحاق بهم إرهاقهم . ونشبت الجاليشية فيهم بالنشاب ، وشبت نيران المرهفة فى أولئك الأوشاب .

فاحتملوا فى جلودهم الجرح ، ومن أجلادهم الطرح . ووجدوا الموت الغالى مسترخصاً ، وأيقنوا بالدمارولم يجدوا مخلصاً . وعرفوا أن البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وأن قواهم لما فوق مالقوه من النكاية غير محتملة . فحملوا على الأطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها وكادت تحلئها شوارع القنطاريات عن مشارعها . لكنها تحيزت إلى القلب المنصور ، وفازت من وجوه النصر بالسفور .

واستشهد فى تلك الفورة الثائرة ، والثورة الفائرة ، سعداء استقبلوا بالأسنة الأسنة ، وأجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة . فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما أشرعت إليهم الرماح أشرعوا . ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة أردتهم وردتهم ، وصدفتهم عن الاستنان فى جدد تلك الحملة وصدتهم ؛ وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس . وفرشت بالعراء لهم أشلاء ، وأثخنوهم طعانا ورماء . فنزلوا فى أرسوف وقد كسروا وخسروا ، وقتل قوم منهم وأسروا .

وفى ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل — سيف الدين ، وحمل فى أصحابه أسد العرين . وسدد إلى نحورهم الشوارع ، وقلع منهم قلائع . وثبت عسكر الموصل ، وكذلك قايماز النجمى فى موضعه الأول . وكانت العساكر فى شعراء أشبة[1] ، وشجراء متنشبة .

فلما رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم.

---

(١) أشبة : ملتفة متشابكة .

فعاد وعبر أرسوف ونزل قريبا من الماء . وبات السلطان تلك الليلة على نهر العوجاء (١) ، وأقام العدو يوم الأحد فى موضعه ، منكوبا بتعب تبعه . ثم رحل يوم الإثنين سائراً إلى يافا ، ليستدرك بها فارطه ويتلافى . ونازلتهم العساكر بالنوازل إلى أن نزلوا ، وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا .

(١) نهر العوجاء : نهر صغير بفلسطين يصب فى (البحر الأبيض المتوسط) بين يافا وأرسوف .

فصل من كتاب السلطان إلى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكاء

ساروا فى مواضع ما لليزك عليهم فيها سبيل ، ولا لقداح القراع فى مجالها مجيل . وعساكرنا تضايقهم فى كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا فى كل طريق . وهم على البحر لايفارقونه ومن المورد إلى المورد فى كل مرحلة لايتجاوزونه . فإن المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة مابين المنهلين ، وإذا لزوا لم يبعدوا بين المنزلتين . وكانت لنا إلى هذه الغاية معهم فى كل بقعة وقعة ، وفى كل مرحلة مقتلة ، وفى كل منزلة منازلة . وأوردناهم الردى فى كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد فى كل مقصد . وسبّلنا حماهم للحمام فى كل سبيل ، وساء صباحهم منا فى كل مغدى ومقيل . وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لايتسع فيها مجال ولايتهيأ قتال .

وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهفنا حدود العزائم والصوارم وأرهقناهم . وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور ، ودائرة السوء على أهله بنا تدور ، وماء أهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور . ولولا أن الله تعالى قد أخر موعده فى نصر أوليائه ، وقهر أعدائه ، لوقع القرار من شغلهم ، وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم .

فمنها : يوم رحيلهم عن عكاء أرهقتهم اليزكية الزكية ، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنية . وكان الولد الأفضل يومئذ متولى اليزك ، فتولى إسعار لهب المعترك . ووقف لهم فى المضيق على الطريق ، وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخرهم عن أولهم ، وعاق الساقة عن الوصول إلى منزلهم . وبتر وبتك ، وفتك وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك .

وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من الأمر ، واحتموا بالمنزل الوعر . ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول ، وتجمعوا فى الوعور عن السهول ،

ولم يبق إليهم نهج للوصول . وأقام الفرنج فى تلك المنزلة أياما ، وقد نالت معاطسهم إرغاما . حتى استجدوا عدداً ، واستنجدوا مدداً ، واستجدوا ممن وراءهم عُدداً . وأحكموا التدبير ، واستأنفوا المسير .

ومنها يوم انفصالهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة ، وبرتهم بالمبرية ، وأنفذت إليهم رسل المنية . وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولم تزل السهام إلى مقاتلهم مصوبة مسددة ، إلى أن احتموا بالنزول ، وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول . وقد قتلت من خيلهم عدة ألف راس ، لم ينفصل راكبها إلا وهو من ثوب النجيع كاس . ثم كانت المياه فى طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل . فإذا لزوا بالمنازلة، ارتزوا (١) إلى المنزلة . ولاذوا وهم أهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال إلى الاحتماء .

ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم وعاديتهم (٢) ، شاكين فى منعتهم ، ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجرى بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم فى مثل سواد الليل . العساكر الإسلامية جائلة فى عراضهم ، مائلة إلى اعتراضهم . موفقة فى مرامها ، مفوقة لسهامها ، محرقة أهل الجحيم بضرامها .

ولما نشب فيهم النشاب وأعجزهم ؛ وأزعجهم وأحرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهجهم ؛ كابروا وصابروا إلى أن وصلوا أرسوف ، وقد شارفوا الخسوف ، وقاربوا الحتوف . فحملوا بجملتهم حملة واحدة ، وجاءوا كالسحاب بارقة وراعدة .

واندفعت الأطلاب الإسلامية أمامها . ولم تثبت قدامها . حتى أبعدوا بجملتهم فى حملتهم ، وتفردوا بحركتهم فى معركتهم . وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة أنها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز، وموئلا للمتفزز المتحرز . ووقف الأخ العادل ثابتاً قلبه ، نابتاً طلبه . وكر عليهم فى حزبه ذوى الحمية ، والأنف والأبية ، والهمم العلية ؛ كرة ردتهم وأردتهم ،

---

(١) ارتزوا : ارتز البخيل عند المسئلة : ثبت وبقى . والسهم فى الحائط : ثبت .

(٢) فى ب عاديهم والتصحيح من ل .

وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم . فاستدركت مافرط فى النوبة من النبوة واستمسكت بما استأنفته فى العزمة من القوة . وقتلت منهم كندا كبيراً ، وعددا كثيراً ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا . ونزلوا بأرسوف ، راغمى الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم .

وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وإبليس تلك الشياطين – والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه ، قبل وصول ملوك الإشراك . وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية . ونفذ أمره على الداوية والاسبتارية . وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه ؛ أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين ، فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا . وجزع ملك الانكتير لمصرعه ، وفزع من ورود مشرعه .

ونزلت العساكر الإسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار . ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده إياها تلفه وتلافى . فجال دونهم لقدح منونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بوقمهم محيلا . حتى باسطهم فى ميادينها ، وخالطهم فى بساتينها ، ورابطهم بالأسود فى عرينها وأسرى الحين إلى سراحينها .

فما وصلوا المدينة إلا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وأفلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا . وعلموا أنهم إن خرجوا أخرجوا ، وإن سلكوا هلكوا ، وزعموا أنهم إذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج إلى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الأثقال كلها به فى تلك الرحلة . ورحل ليلا وأصبح على (يُبْنَى) ، وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام به تبنى . وزرنا بيُبْنَى قبر أبي هريرة (١) رضوان الله عليه ، وتبادر الناس للتيمن به إليه . ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الأمر .

---

(١) أبو هريرة : هو الصحابي الجليل ، المحدث المعروف وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور فى أمر عسقلان ذوى الآراء . فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها للعجز عن حفظها على ما بها . ووافقه الجماعة ، وقالوا : « قد ضاقت عن صونها الاستطاعة . فإن هذه يافا وقد نزلوا بها وسكنوا فيها ، مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ، ولاسبيل إلى حفظ المدينتين ، ولاتفى الحال بحماية البلدين . فإن كل واحد منهما يحتاج فى حفظه إلى عشرين ألف مقاتل ، وإلى الاستكثار لأجل ذخائره من كل حاصل . فانظر إلى أصوب الرأيين فقدمه ، وأبصر أخطر الداءين فاحسمه ، واعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وأحكمه ، وتيقن أن عسقلان إذا وصلوا إليها وهى سالمة تسلموها ، واستظهروا بها وأحكموها . وتقووا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم إلى منتهاها » .

واقتضت الآراء ، إقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء . حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم .

ووصل السلطان إلى عسقلان ، وشرع فى هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان . ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنباً متجنبا . وقد راعتهم نوبة عكاء وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين . وقال من تعلل واعتذر عن دخولها ؛ وحل عقد عزمه عن حلولها : « تدخلها أنت أو أحد أولادك ؛ فندخلها اتباعاً لمرادك . » .

فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها ، وغض أنوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، وتطفية نارها . ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ؛ مذ يوم فتحها واقتنائها ؛ لما تطرق إلى أيدها خلل ، ولا إلى يدها شلل ، ولا إلى حدها فلل ، ولا إلى ودها ملل .

وقد كنْت ركبت إليها وطفْتها ، واستحسنتها واستلطفتها . ورأيت سورها قبل فصم سواره ، ونورْها قبل ذبول نوّاره . فما رأيت أحسن منها ولا أحصن ، ولا أحكم من مكانها ولا أمكن .

وسكانها كانوا فى رفاهية ، فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا أنْفس الأعلاق بأبخس الأثمان ، وفجعوا بالأوطار والأوطان . وساءت أسواؤها ، ونأت أنواؤها ، وأناخت لأواؤها ، وباخت أضواؤها . وسمع غناء المعاول فى مغانيها المعولة ، ورئيت دائرة الزلزال فى دورها المتزلزلة . وناحت تلك النواحى ، ومسحتها المساحى .. وجرفتها المجارف ، وأخافتها المخاوف ، ونكرتها المعارف ، وبهرجتها الصيا ف ، ونعتها النواعب ، ونابتها النوائب ، ونزلتها النوازل ، وغالتها الغوائل . وسفتها السوافى (١) ، وعفتها العوافى .

وخلت مدارس آياتها من التلاوة ، وتخلت مجالس مكرماتها عن الطلاوة . وصوحت (٢) مجانى مبانيها ، وطوحت معانى مغانيها ، ودجت مجالى معاليها ، وعادت مقاوى مقاربها . ووقفْت على طلولها واستوقفت ، وأسيْت عليها وأسفت ، وتلهبت وتلهفت ، وشاهدتها وقد حسرت وحفيت ، ومحى سنى محاسنها وخفيت . وبكيت تلك الربوع ، وأهديت لسقياها الدموع . فلقد أصيب الإسلام بعروسها ، وعبست الوجوه لعبوسها ، حين ثار نقع بوسها .

فلما خلت مساكنها من سكانها ؛ وتخلف بالبيوت رماد نيرانها ، رحل السلطان يوم الثلاثاء ثانى شهر رمضان ونزل على يُبْنَى ، بعد أن ترك سور عسقلان وقد تعذر أن يبنى . ونزل يوم الأربعاء ثالث الشهر بالرملة ، وتفضيل جميله باد على التفصيل والجملة . وأمر بتخريب حصنها وتخريب (لُدّ) ، وبذل كلّ فى ذلك الجهد . وركب جريدة إلى البيت المقدس ، وأتاه يوم الخميس ، وأعاد إليه رسم التأنيس . وخرج منه يوم الإثنين ثامن

---

(١) السوافى : هى الرياح التى تسفى التراب وتذره .

(٢) صوحت : شققت .

شهر رمضان بعد الظهر ، وبات فى بيت نوبة (١) ، وقد نال بما رتبه من مصالح القدس المثوبة .

وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء ضحوة ، وقد أكمل من كل مارامه حظوة . وفى يوم الإثنين ثامن شهر رمضان،وصل صاحب ملطية (٢) معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، ملتجئاً من أخيه وأبيه إلى السلطان . فتلقاه الملك العادل، وجاءته منه الفواضل . وأقام فى الخدمة السلطانية مدة ، واستجد بها جدة ، وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة ، وقوى منها بالمضافرة . فإنه تزوج بابنة العادل ، وعاد بتاريخ مستهل ذى القعدة ناجح الوسائل .

وفى هذا التاريخ وهو الإثنين خرج ملك الانكتير فى خيالته متنكراً ، ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفراً . فخرج عليه الكمين ، ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم ، وكان لأصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقذ والطعن فى لبته ينفذ . ففداه فارس من أصحابه بنفسه ، وشغل طاعنه بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به وأسره ، وأفلت اللعين وأخفى أثره . وقتل وأسر من خيالته جماعة ، وانهزموا من أمر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعة .

وجرت أيضاً يوم الجمعة ثانى عشر الشهر ، حرب بين اليزكية وبين أهل الكفر ، سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف ، بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشرة ، ونزل على تل عال عند النطرون ، وهى قلعة منيعة معجبة للظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها ، وفل غربها وثلمها . وأشاع بها الاقامة ، وأفاض فيها على العسكر الكرم والكرامة . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الأثقال ، وإنفاذ الجمال لنقل الأزواد والغلال .

---

(١) بيت نوبة : أو نوبا ، بليدة من نواحى فلسطين (ياقوت ج ٤ : ٢٥٣ ط . ب) .

(٢) ملطية : إحدى مدن أرمينية (ياقوت ج ١٨ : ١٩٢)

فصل من كتاب إلى الديوان العزيز فى وصف مطاولة

الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار (١) ، وأنضاه قتال الكفار بالليل والنهار. لاسيما فى هذه السنين الأربع ، فإنه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولامربع . ولاشتا ولاصاف ، إلا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف ، وتعثرت به الحتوف ، وتفللت منه السيوف ، وتحلحلت به الصفوف ، وتمخضت بآحاده الألوف ، وتمحضت لجنى بيضه وسمره من ورق الحديد الأخضر القطوف . حتى سئم ومل ، وضجر وكل ، وكم عقد عزمه وحل ، وأنهل نصله من دم الكفار وعل ، وأمل النصر فقال عسى ولعل .

وأما خيوله فقد أجهدها الجهاد ، وأنضاها الطراد ، وفرى جلودها الجلاد ، وعزت منها لكثرة الجراح الجياد ، وأعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروخ للجروح ؛ وتفريق السهام منها بين الجسم والروح ، صارت تنفر من رنة الحنية ، وأنة المبرية . كأن عندها للأوتار أوتاراً ، ولطائرات النصال فى لبانها أوكاراً . أوكأنها لما رأت أنها تباريها فى المطار ؛ وتجاريها فى المضمار ؛ ثارت لإدراك الثار ، وهذا سبب ماحدث من النفار ، وما عادت الآن تدخل على راجل الكفار .

وأما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت ، وتكسرت وتحطمت ، وتقصفت وتقصبت وتقصمت ، وقتلت قبل المقاتل بها وفى يد من استشهد استشهدت .

وأما النشاب فإنه قد فنى ، بعد أن اتخذ من أخشابه جميع ماوجد واقتنى . وقد عدمت أشجاره فى منابتها ، وأعوزت أخشابه من مناحتها . ونفضت الكنائن ، وأنفضت منه ومن كل ما يدخر الخزائن . وما تبرح الصناع فى

(١) البيكار : كلمة فارسية معناها الحرب (Dozy. Supp. Dict. Arabe) .

المالك بمصر والشام ؛ وما يجرى معها من بلاد الإسلام ، يبرون ويريشون، وينصلون ويعملون ، ويكلمون ويحملون .

واحتيج فى هذه السنين التى استمر فيها القتال ، إلى أحمال كثيرة لا يفى بها الصناع ولا يرفعها العمال . وحسبها أن نصولها أعدمت من حديدها المعادن، وخلت من ذخائرها الأماكن . هذا والخادم قائم بأداء هذا الفرض وحده ، مسترهف فى قطع دابر المشركين غرب عزمه وحدّه . وما استمر على مساعدته ، وموازرته ومعاقدته ، إلا صاحبا الموصل وسنجار ،وكلاهما عن سنن الإسعاف والإسعاد ما جار . فهو يحضر تارة بنفسه وآونة بولده ، ويستمر من جد الموازرة على جدده ، ويواظب بعَدده وعُدده ، ومدده فى مطاولة مدده .

وصلت رسل ملك الإنكتير إلى العادل بالمصافحة (١) على المصافاة ، والمواتاة فى الموافاة ، وموالاة الاستمرار على الموالاة ، والأخذ بالمهاداة ، والترك للمعاداة . والمظاهرة بالمصاهرة . وترددت الرسل أياما ، وقصدت(٢) التئاما ، وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل — بأخت ملك الانكتير ، وأن يعول عليهما (٣) من الجانبين فى التدبير . على أن يحكم العادل فى البلاد ، ويجرى فيها الأمر على السداد . وتكون الامرأة فى القدس مقيمة مع زوجها ، وشمسها من قبوله فى أوجها . ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى ، ولايمكنهم من الحصون التى فى الذرا . ولا يقيم معها فى القدس إلا قسيسون ورهبان ، ولهم منا أمان وإحسان .

واستدعانى العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد ؛ وجماعة من الأمراء من أهل الرأى والسداد ؛ وهم : علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة ، وقال لنا : « تمضون إلى السلطان ، وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه أن يحكمنى فى هذه البلاد ، وأنا أبذل فيها ما فى وسع الاجتهاد » .

فلما جئنا إلى السلطان عرف الصواب ، وما أخر الجواب ؛ وشهدنا عليه بالرضى ، وحسبنا أنه كمل الغرض وانقضى . وذلك فى يوم الاثنين تاسع عشرى رمضان .

وعاد الرسول إلى ملك الانكتير لفصل أمر الوصلة ، وإراحة الجملة وإزاحة العلة . واعتقدنا أن هذا أمر قد تم ، ونشر انضم ، وصلاح عم ، وصلح أذم ؛ وحكم مضى ، واستحكم به الرضى . وإن الأنثى تميل إلى

---

(١) فى أ (٣٤٤ ى) بالصالحة .

(٢) فى ب قصد والتصحيح من ل ومن أ (٣٤٤ ى) .

(٣) فى أ (٣٤٤ ى) عليها .

الذكر ، وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل،النزول على الذَّحل(١) وان الشكر(٢) يجلب الشُكر ، ويبدل بالعرف النكر. وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان (٣) القراع ينقضى بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الباء سلم . وان غرم العرس فى العسر يسر وغنم . وان هذا الأخ لتلك الأخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو ، وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج ترويج ، وتقويم لما فيه تعويج .

وشاع الذكر ، وضاع النشر ، وذاع السر . وبلغ الخبر إلى مقدميهم ورءوسهم ، فقصوه على قسوسهم ؛ وعسروا على عروسهم . فجبهوها(٤) بالعذل واللذع ، (وأنجهوها(٥)بالقدع)(٦)والقذع (٧). وقالوا لها: « كيف تفجئيننا (٨) بأفجع ملم مؤلم ، وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم . فإن تنصر تبصر ، وإن تسرع فما تحسر . وإن أبى أبيناه،وإن أتى أتيناه ، وإن خالف خالفناه ، وإن حالف حالفناه . وأى وجه ههنا للائتلاف ، ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف » .

فرهبت بعد ما رغبت ، وبطلت بعد ما طلبت ، وسلت بعد ما سألت ، ونزت بعدما نزلت ، وكرهت وكانت شرهت ، وكانت اكتحلت فودت أنها مرهت (٩) . فأرسلت إلى الرسول ، وأقبلت عليه بالقبول . ثم تصلبت فى القسم وأقسمت بالصليب ، أنها مجيبة إلى التقرير والتقريب . وأنها مسارعة

---

(١) الذحل : الثأر .

(٢) الشكر : النكاح .

(٣) فى أ (٣٤٤ ش) فان أنجهوها .

(٤) جبهوها : فاجأوها ، ردوها عن حاجتها .

(٥) أنجهوها : ردوها أقبح رد ، استقبلوها بما تكره .

(٦) القدع : الجبن والانكسار . والقذع ؛ : القذر ، الخناء ، الفحش .

(٧) ما بين القوسين فى أ . (٣٤٥ ش) ويهجوها بالقدح .

(٨) فى ب تفجئنا والتصحيح من ل ومن أ (٣٤٥ ش) .

(٩) مرهت العين : فسدت وابيضت بواطن أجفانها .

إلى التمكين ، لكن بشرط الموافقة فى الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث ، وأبى الله أن يجمع بين الطيب والخبيث .

اعتذر الملك بامتناع أخته ، وأنه فى معالجتها وتعرف رضاها فى وقته. وكان قد استقر مع تمام العهد ؛ وانتظام العقد ؛ مفاداة كل أسير بأسير ؛ كبير بكبير ، وصغير بصغير . وبشر أولياء الطاغوت ، بصليب الصلبوت . فبطل التدبير ، وعطل التقدير ، وذلك ثانى يوم العيد .

وفى يوم العيد وهو الثلاثاء ؛ أعد السلطان من الليل خلع الأكابر حتى سارت إليهم بكرة ، وأحدث بحسن احتبائه لكل عين وقلب قرة ومسرة . ثم استدعاهم إلى سماطه ، ونشر لهم بساط نشاطه . وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان عن يمينه ، وأعزه بتقريبه وتمكينه . ويليه حسام الدين خضر — أخو صاحب الموصل ، ولسمو منزلته دنو المنزل . وعلاء الدين — ابن أتابك الموصل — عن يساره ، وهو يؤثره باختصاصه ويخصه بإيثاره . ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس ، والأكابر كلهم هناك فى منزلته منافس . ثم تفرق الناس بأنس جامع ، وعرف شائع ، وعرف ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرملة ليقرب من العدو ومواقعته له فى كل يوم

تواتر الخبر بأن الفرنج على عزم الخروج ، وأنهم على الاجتماع فى تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال ، وقد أركب العسكر للقتال . فلما بلغ قبلى كنيسة الرملة ، جميل الحال حالى الجملة ؛ خيم وبات ، ونوى البيات والثبات . وجاء الخبر فى غد ؛ بأنه خرج العدو إلى يازور(1) فى أوفر مدد . وتسارع العسكر إليهم ، وتكاثروا عليهم ، وقربوا من خيامهم ، وأخذوا عليهم من ورائهم وأمامهم . وناشبوهم بالنشاب ، وكاثروهم بالأوباش والأوشاب .

فركب الفرنج إليهم ركبة ، أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة واحدة ، وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين أيديهم ، فأدركوا ضعافاً طمعوا فيهم . وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة ، وكانت مسعاتهم إلى السعادة . وكذلك فى كل يوم يركب السلطان مايخلو من وقعة ، ولابد للكفار فيها من صرعة .

---

(1) يازور : أو بازور ، بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام (ياقوت ج ٢٠ : ٤٢٥ ط . ب) .

ذكر وقعة الكمين

وفى ليلة الأربعاء سادس عشر شوال أمر السلطان رجال الحلقة المنصورة بأن يكمنوا فى جهة عينها فى المواضع المستورة . فكمنوا وأمنوا ، وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش ، وباشروا عثار انحصارهم فى الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم أعراب على عراب ، بصوارم فى أيمانهم كأنها بروق فى سحاب . فركبت إليها من الخيام ، ورحبت فى ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت العرب أمامها ، وحققت انهزامها . وما قدرت على قصد موضع الكمين ، لانسداد الطريق بالآساد الشم العرانين دون العرين . فمرت العرب فى جانب ، والكمين فى جانب . والخيل تركض بسالب من سالب ، وناهب من ناهب .

ونجا العرب ، وفاتهم الطلب . وحضروا بأسارى ونهاب ، وأفراس وأسلاب . فأما أصحابنا فى الكمين ؛ فإنهم أبصروا الفرنج ناهضين ، وفى المعترك راكضين ، فخرجوا على ظن أنهم على قصدهم ، فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن وردهم . وركضوا إليهم على بعد ، فأتعبوا الخيل بما جدوا فيه من إحضار وشد .

ووصلوا إلى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت . فاضطروا إلى القتال وقاتلوا على الاضطرار ، وقتلوا جماعة من كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار ، وهم : (أيلز المهرانى) ، و(جاولى الغيدى) ، و(صارو) ، وسروا فى جنات النعيم بما إليه صاروا . وأسر من الفرنج فارسان معروفان ، وأحضرا عند السلطان ...

وانفصلت الحرب وقت الظهر ، وعاد حزب الإسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه ، والخيل تقاد إليه ، والأسارى يحضرون بين يديه . وأخوه العادل عنده جالس ، وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفى يوم الجمعة ثامن عشر شوال ، ضرب الملك العادل بقرب اليزك لأجل ملك الانكتير ثلاث خيام . وأعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة ، ودامت المثافنة(١) والمنافثة (٢) . ثم افترقا عن موافقة أظهراها ، ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلى المعروف بالصنيعة ، ليتفقد الأسارى الذين بيافا ، ويتدارك أمرهم ويتلافى . وكان قد وصل صاحب صيداء من صور برسالة المركيس ، وأنه يرغب فى سلوك نهج التأنيس . وأن يكون للسلطان مصالحاً ، وله على الطاعة مصافحاً . حتى يقوى يده على ملك الانكتير ، ويتفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال ، فوصل رسوله أيضاً بالإحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيداء إلى المركيس على شرائط قررت ، ونسخ أيمان حررت .

وأما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود ، ولم يجر من تلونه إلا على المعهود . وكلما أبرم عهداً نقضه ونكثه ، وكلما قوم أمرا عكسه وعلثه (٣) وكلما قال قولا رجع عنه ، وكلما استودع سراً لم يصنه . وكلما قلنا يفى ؛ خان ، وإذا خلنا أنه يزين ، شان ، وعن كل خزى أبان .

وفى يوم الأحد سابع عشر شوال عاد السلطان إلى المخيم بالنطرون ، وأقام على الثبات والسكون . وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة سار ابن قليج أرسلان صاحب ملطية مودعاً ، وركب السلطان وسار معه مشيعاً . وعقد له على ابنة الملك العادل بصداق مائة ألف دينار ، ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخار ، واستبصار واستنصار ، ويسر ويسار .

---

(١) المثافنة : ثافنه ، جالسه أو لزمه حتى يعرف دخيلته .

(٢) المنافثة : نافثه ، خاطبه وساره .

(٣) علثه : خلطه .

ورحل الفرنج يوم السبت ثالث ذى القعدة وتقدموا إلى الرملة ونزلوا بها ، وخيموا[1] فى أقطارها[1] وسهوبها . ولم نشك فى أنهم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس .

وأقام السلطان فى كل يوم له سرايا ، للكفر منها رزايا . ولنا فى كل يوم وقعة شديدة ، وفتكة بالكفر مبيدة . وما يخلو يوم من أسرى تقاد ، وغنائم تستفاد . ثم توالت الأمطار ، وتوعرت السهول وتوحلت الأوعار . فحزم على الرحيل ، وأمر بالتحويل .

ذكر الرحيل إلى القدس يوم الجمعة الثالث والعشرين ذي القعدة

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل ، والنصر شامل ، وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون ، ومن بركة الجهاد إلى بركة القدس صائرون . والقاضي بهاء الدين بن شداد يسايرني وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني ؛ حتى وصلنا إلى القدس قبل العصر . وقد نشر السلطان لواء النصر . ونزل بدار الأقساء المجاورة لكنيسة قمامة ، ونوى بها الإقامة . وشرع في تحصين المدينة ، لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجة في قبة الصخرة . وضجت الألسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة ؛ وصل حسام الدين أبو الهيجاء من مصر ؛ بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية . ووصل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون ، وآذن ذلك بتزاحم الأفكار ؛ وتراجم الظنون ؛ وتزايل السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة ، تم على العدو بها صرعة . فإن السلطان نفذ تلك الليلة إلى اليزك قريب بيت نوبة ؛ عدة من الفرسان مجردة(١) ليستصحبوا الإحصتهم المجنوبة . فوقعوا على سرية الفرنج فاستأصلوها ، وأسروها وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين أسيرا الى القدس ، وعاد ذلك مما يبرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة ، ونعمى(٢) كريمة ، وحسنى عميمة . وكذلك سابق الدين صاحب شيزر ، ومن معه من العسكر . واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة وأسر أربعة ، وترك بالمعركة منهم مصرعة . وكسب منهم خيلا ، وكسبهم ويلا .

---

(١) في ب مجرة والتصحيح من ل ومن آ (٣٤٨ ش) .

(٢) في ب لي والتصحيح من ل ومن آ (٣٤٨ ش) .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة فى هذه السنة ، وتضاعفت للحجيج الحسنة على الحسنة . غير أن العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة الخميس الهلال أحد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاة (١) الخاص ، وصلى الناس فى القبة العيد وملأوا حواليها العراص. ثم انصرف السلطان وقد بر عمله ، ودر أمله ، ووفر أجره ، وأسفر فجره .

---

(١) الخركاة : لفظ فارسى الأصل ، يطلق على نوع من الخيام تتكون الواحدة منها من قطع من الخشب تكون على شكل قبة متصلة بقطع من اللبد (Dozy-Supp. Dict. Arabe.)

وقعة

فى يوم الجمعة خامس عشر ذى الحجة ؛ أغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وكلاهما يجد فى الجهاد ولا يقصر . وأخذا غنائم وأموالا ، وساقا خيلا وبغالا ، وكسبا أحمالا وأثقالا . وأسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين ، ووقفوا بين يدى السلطان على ركب الذل جاثين ؛ وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب ، وكثرت منهم الكسوب ، واستعرت فيهم الحروب ، وزادت الكروب . وضاقت عليهم الأرض ، واستولى على عقود عزائمهم النقض . ورأوا أنهم قهروا فقهقروا ، وأحاط بهم البلاء من الجوانب فما صبروا .

ورحلوا إلى الرملة عائدين ، وبالسهول من الحزون عائذين . فإن الثلوج دامت على أولئك العلوج ، وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل فى تلك المنازل ، فنفروا راحلين إلى السواحل . وذلك فى يوم الخميس الثامن والعشرين من ذى الحجة ؛ فطابت قلوبنا بما وضح فى النصر من المحجة ، وثبت للحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان فى عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سوره وإعادة رونقه

وفى هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين ، وعدتهم خمسون رجلا ، إذا اجتمعوا قطعوا جبلا . وقد سيرهم صاحب الموصل إلى القدس ، للعمل فى الخندق وتعميق الحفر ، والقطع فى الصخر . وقد سفرهم بنفقة ، وجعلهم من الإحسان على ثقة . و أصحبهم بعض حجابه ، وناداهم بندى سحابه . وسير مع المندوب مالا يفرقه عليهم فى رأس كل شهر ، ويتعاهدهم فى كل يوم بتفقد بر . فأقاموا نصف سنة ، وأتوا فى صنعتهم بكل حسنة .

وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق ، وإنشاء سور وثيق . وأحضر من أسارى الفرنج قريب ألفين ، ورتبهم فى العمارتين . وجدد أبراجا حربية من باب العمود إلى باب المحراب ، وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب . وبناها بالأحجار الكبار الثقال ، فجاءت أرسى وأرسخ من الجبال . وكان الحجر الذى يقطع من الخندق يستعمل فى بناء السور ، وإذا تكملت العمارة على ما رتبه للقدس من المعمور ؛ كان آمنا من قصد العدو المدحور ، وفى عصمة الله من المخوف المحذور .

وقسم بناء السور فى مواضعه على أولاده ؛ وأخيه الملك العادل وأمرائه وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه . ويخرج الناس لموافقته على حمل الحجر إلى مواضع البناء ، ويتولى ذلك بنفسه وبجماعة خواصه والأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية ، وحواشى العسكر والأتباع والرعية والسوقية . وكنت أركب فى غلمانى وأتباعى ، وأحفظ قلب السلطان فى نقل الحجر وأراعى . فبنى فى أقرب مدة ما تعذر بناؤه فى سنين ، وبذل جهده فى التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفى من الأكابر والمعروفين فى هذه السنة

وفاة تقى الدين

توفى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب — ابن أخى السلطان ، يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ميلازكرد[1] — من عمل أرمينية ؛ وقد سبق ذكر مسيره إلى بلاد الجزيرة ، لاستمداد الأمداد الكثيرة . واستجاد الأنجاد ، والاستنجاد بالأجناد ، والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة ، والجيوش المترادفة المترافدة ، والجنود المتوافرة المتوافدة . والقواضب القاصلة [2] ، والمواضب الماطلة . والمصافحين بالصفاح ، والمختالين فى أعطاف المراح بأطراف الرماح ، والحاملين الجبال على الرياح ، والمتعطشين إلى انتجاع النجيع لإرواء الأرواح . ومكث السلطان على انتظاره ، متوجسا لأخباره . مستوحشا من إبطائه ، متعطشا إلى أنبائه ، منتظرا لوفائه . فلما أخذ الفرنج عكاء نسب ذلك إليه ، واحتسب الله عليه .

فلما تقى الدين فاته عنّ له أن يمضى إلى ميافارقين ؛ واستصحب إليها عسكر ماردين . ونفذ إلى السويداء [3] وانتزعها من أيدى أصحابها ، واستحوذ على جميع ما بها . وحاصر مدينة حانى [4] فتملكها ، وكانت له مقاصد فى ديار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا أرسلان وأطعمها ، وأرعب القلوب بما ابتدأ به وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر ، وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت

(١) فى أ (٣٠٠ ش) منازكرد .

(٢) القاصلة : القاطعة .

(٣) السويداء : قرية بحوران من نواحى دمشق ، (عاصمة جبل الدروز الآن فى سوريا) (ياقوت ١١ : ٢٨٦) .

(٤) حانى : مدينة معروفة بديار بكر بها معدن الحديد (ياقوت ج ٦ : ٢٠٨ ط . ب)

هيبته ، وهبت روعته . ودبت إلى الخواطر مخافة أخطاره ، وشبت فى القلوب لوافح ناره . وارتجت تلك الآجام من زأره ، وازورت من مزاره . وبليت تلك البلاد ببلائه ، وهابت الأعداء هبة أعدائه . وزلت الأقدام لإقدامه ، وانخفضت الأعلام لإعلاء أعلامه .

وتبى عليه من جيلجور(١) جبلّة الجور ، وأذهب بنحايه إليها فوران الفتنة على الفور . ودخل قلب قُلْب ؛ وحكم فى علتّها التلب القضب . وقصد عسكره عسكر بكتمر فكسره ، ثم سرح بالإحسان وأطلق من أسره ، فثار بكتمر واشتعل بنار الأنف أنفه ، واعتلق بأذن الشنف(٢) شنفه ، واشتدت حميته ، وحميت نخوته ، وغيّرته غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همته ، وحركته عزمته فاجتمعت جماعته وأمّته أمّته . وما أرجأ له نجح رجائه رجاله ، وما أبطأ له عن إعانته أبطاله . وأجناه ثمر الطاعة أجناده ، وأنجاه بجهد الاستطاعة إنجاده . وجر عسكرا مجرا ، وساق إلى الحرب بحرا ، وأوقد بالجمع جمرا ، وجلب بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بترا ، وصواهل ضمرا .

وأنهض كته وكاته ، وحشد رعيته ورعاته ، وذوى حميته وحماته ، وساكنى ولايته وولاته ، وقسوره وبغاته ، وسماته وغتاته ، ومتاته ورثاته ، وشباعه وغراثه . وجاء فى سواد اسود منه الجو ، واستد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل العجاج ، وتجلى بسفوره صبح الهياج . وأبرق وأرعد ، وتحدر وتصعد . وسار بين الآكام بالآكام ، وضاهى الأعلام بالأعلام وأذكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهواديها قد ملأت الوهاد ، وأدنى إلى الآساد الآساد . وأغرى بالجلاد الأجلاد .

وجلب الجماح عراته ، وجلب الكفاح رعاته . وأشرع للرواح رماحه ،

---

(١) جيلجور : اسم لكورة كبيرة متصلة ببلد بكر من نواحى أرمينية (معجم البلدان لياقوت ط . الخانجى) و (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٥٠ ط . دار الكتب) .

(٢) الشنف : المترض ، والشنف بسكون النون ما يعلق فى أسفل أو أعلى الاذن من حلى .

وأطلع فى سنى الصباح صفاحه. وماجت غدران دروعه ، وهاجت غران[1] جموعه . ومالت المران ، وجالت الأقران . وسال المرت [2] ومرت السيول ، وتسهلت الوعور وتوعرت السهول . وانفض الفضاء ، وانقض القضاء . واشتكت الأرض من الحوافر الحوافر وقعا ، فأثارت لفرط تألمها على شرط تظلمها إلى السماء نقعا . وحثت فى وجه الفلك ترابا ، وحثت لأتراب الأتراب طعانا وضربا .

وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر إلى الملك المظفر طول المسافة . فلما عرف إصحار خادره ؛ وانتشار بوادره ؛ وانتهاض قوادمه ؛ وارتكاض صلادمه ؛ وانقضاض شهب قواضبه ، وانفضاض دهم سلاهبه ؛ اصطفى له بمن اصطفاه من الأنجاد الأنجاب ، وفض على الفضاء سحاب الصحاب . وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعلوه على العدا . وركب فى كل ضرب يعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل لمحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سالب من كباش الأقران القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المنون . وكل شجاع أشاجعه [3] وصائل القواطع ، وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع . وكل طائر بأجنحة السوابق ، زائر بأسلحة البوائق ، محلق بخوافى الخوافق ، مطرق لطوارىء الطوارق . وكل ذمر مشيح ، بالنمارشحيح ، وكل قاس قوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف . وكل صاد عزمه صادق ، وكل رأم لحظ سهمه إلى المقاتل رامق .

وأيد رجاء الرجال بأياديه ، وقوى عزائم أوليائه لإضعاف أعاديه ، ورغب بالرغائب وأملى ضيوف الآمال ، بفيوض أمواه المواهب . ونخى المتنخين ، وانتخب المنتخبين . وأقدم فى كل مقدم مقدام ، وضيغم

---

(١) غران : جمع أغر وهو الحسن من كل شيء ، ومن الخيل ما فيه غرة ، ومن الناس السيد الكريم الأفعال .

(٢) المرت : المفازة بلا نبات أو الأرض لا يجف ثراها .

(٣) الأشاجع : الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف .

ضرغام ، وهمام همام . ومعتقل آسمر يرشف ظلم القلوب ، ومشتمل أبيض يكشف ظلم(١)الحروب . وكل من يخال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام (٢) ، وكل من ينال اعتزاز الجد بجد الاعتزام . وكل من يعيد أقاحي البيض شقائق ، ويصل بها إذا فارقت أغمادها المرافق . وكل من عنانه فى عين الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح .

وكل من ذبال سمهريه يلتهب ، وذباب مشرفيه يضطرب . ووجوه صوارمه تبكى وتضحك ، وعيون لهاذمه تفتك وتبتك . ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه ترمى ، وسواعد سيوفه من أيدى الأيد تمد وتدمى . وكل أشعث الهامة ذى همة ، تشعب صدع كل ملمة . وكل شهم شيظمى ، أباء حمى . مجرب محرب ، مقرب على مقرب ، مطهر على مطهم ، جار بمرجم ، بار بمخذم ، ضار بأرقم . جواد حليم ، تحمد فى الوغى جهلاته على جواد كريم تدعو إلى الردى صهلاته . وكل بحر مستلئم بغدير ، وكل من عنده إذا لبس الحديد أنه لابس حرير .

فلما بصر عسكر خلاط بعسكره اختلط ، وود لو استدرك الغلط . وجاش وطاش ، ورام من عثرته الانتعاش . وولى هزيما ، ولوى هشيما . وأغنم العسكر التقوى سلاحه وخيله ، وجر على تراب الذلة ذيله . وظفر الملك المظفر بالملك ، وأسلم العدا إلى الهلك . وقيد إليه أمراء أسروا ، وأصحاء كسروا ، فأطلق سراحهم ، وأنهض بتشريفاته جناحهم . ثم حل من صحراء موش ، وساق إلى خلاط الجيوش . ثم بدا له من حصارها فأقرها بسلب قرارها . وعرج على قلعة شميران (٣) فتشمر لها ، وفتح مقفلها ، وكان مجد الدين بن الموفق — وزر خلاط بها محبوسا ، ومن حياته يؤوسا . فخلصه واستخلصه ، وكسر حتى طار منه قفصه ، وأنه لمن أعجب القصص لو شرحت قصصه .

---

(١) ظلم : الظلم : الثلج .

(٢) السوام : أى التى تسم .

(٣) شميران : بلدة بأرمنية وقرية بمرو الشاهجان (ياقوت ١٠٢ : ٣٦٥) .

ثم راح إلى ميلازكرد ونازلها بالتضييق ، وقاتلها بالمنجنيق . وحشد إليها الأمداد ، وأورى فيها من عزائمه الزناد . وجاءته عساكر (أرز الروم) منجدة من جدة ، موجدة لما لها من موجدة . تقدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق كأنها فى الأهبة والأبهة من ملوك سلجق . ووفد إلى تقى الدين الجنود ، ووافقته السعود ، وخافته فى غاباتها الأسود ، وغريت به العقول وعلقت به العقود ، وتوطدت له البلاد وتوطأت ، وتهيبت وتهيأت . واستدنته الممالك القاصية ،وأطاعته المقاصد العاصية . وتشنفت له مسامع الأقطار بأقراط السمع والطاعة ، وعم الإمحال تلك المحال ، ففض بما أفاضه من فواضله مجاعة الجماعة . ورجى وخشى ، واعتنى وغشى . وامتلأت الطرق بالوفود والجنود ، وتوالت إليه أمداد البأس والجود .

فبينا هو فى غفلة من القدر ؛ وغفوة من الكدر ؛ وغرة من الغير ؛ وقد ألهاه حديث الدنيا عن الحادث الدانى ؛ وجنى الحياة عن الموت الجانى ؛ وزيادة الأمل عن زيارة الأجل ؛ ونزل المنى عن نوازل المنون ؛ وسكن الأتراب عن التراب المسكون ، ظهر له سر الغيب المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم . ومرض أياماً ثم قضى ، وانقرض عهده وانقضى .

وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، إلى أن خرج من ذلك الإقليم وجاوزه وفاته . وفتحت ملازكرد بابها ، وسلم الرب أربابها وخرج ولد تقى الدين بعسكره وماله سالما ، وجد فى مقام والده بإظهار شعاره قائما . وجاءت رسله إلى السلطان تسأله ، فى إبقاء بلاد أبيه بيده حتى يبقى مستمرا على جدده . وطلب من السلطان ؛ الميثاق له بأغلظ الأيمان . فلم يقبل الشرط ؛ واشتط فشط ، وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول مامنه فرط ، ونسبوه فى استيحاشه إلى العصيان ، وسعوا له فى أسباب الحرمان . حتى انتخى له الملك العادل فمضى لإحضاره ، وجرى الأمر على إيثاره .

وسيأتى ذكر ذلك فى حوادث سنة ثمان .

وتوفى فى هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين .

ابن أخت السلطان

توفى بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقى الدين فأصيب السلطان بابن أخيه وأخته فى يوم واحد . وكلاهما له أقوى ساعد ، وأوفى مساعد ، فيالله من حسام أغمد ، وهمام ألحد . وركن وهن ، وكنز دفن . وبحر غاض ، ورزء هاض (١) . وصبح كسف ، وبدر خسف . لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل أمه . فإنه كان واحدها وعضدها ومعاضدها . وهو الذى فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وأبقى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقد سبق فى الكرماء ذكره .وذكر فى المكارم سبقه ، وقرظ حذقه . ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته . فإن له مواقف فى الجهاد مشكورة ، ومقاطف لجنى النصر مشهورة . فقطع الأجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به إلى العطل . وأوهن عقد شبابه الطرى وحله ، وثلم حد شباه الطرير وفله ، وما زال فى غزواته مثيرا للترب إلى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه الثرى بحق خلقه معه فاسترهنه ! وغارت عليه الأرض بانطلاق سموه إلى السماء فاعتقلته ، ووجدته فى أوج الفلك فى النيرات فنقلته .

وما كان أذكاه وأزكاه ، وأصحه وأصحاه ، وأبهجه وأبهاه ، وأضوعه وأضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه . ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شفيقا ، ورفيقا رفيقا . فلهفى عليه من شهم توطن التراب ، وسهم أصيب بعد ما أصاب ، وجواد بلا حساب ، لم يخطر بالبال من رزئه حساب ، ﴿لكلّ أجلٍ كتاب (٢)﴾ .

وتوفى فى هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر ؛ وقد سبق ذكره

---

(١) هاض : يصيب مرة بعد أخرى .

(٢) الآية : ٣٨ سورة الرعد .

فى غزواته ، ومواقفه ومقاماته . وكان فى الخدمة مقيما ، والسلطان إلى الأنس به مستنيما . فعرض له مرض استأذن لأجله فى العود إلى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ما طلب . وتوجه من القدس سادس عشر ذى الحجة ، واستقام على المحجة . وقضى نحبه عند قربه من دمشق فى قرية غباغب ، وستر التراب منه المناقب . ووصل الخبر بوفاته إلينا يوم الخميس ثامن عشرى الشهر .

وفى هذه السنة فتك بأتابك (١) مظفر الدين قزل أرسلان بن أيلدكز فى همذان ؛ ليلة الأحد مستهل شعبان . كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعروف ببهلوان فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت إرادته ، ورجحت سعادته ، وصلحت عاداته . وكان السلطان السلجقى طغرل ابن أرسلان (٢) تحت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه . وله اسم السلطنة ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها . فأنف السلطان من كونه تحت حجره ، وبحكم نهيه وأمره ، فإنه لم يكن له صاحب ولا غلام إلا من عنده ، ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده . فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم إليه من الخيل . ودام غائبا فى نواحى دامغان (٣) مدة ، واشتد مصابه وأصاب شدة . فاتصل به عدة من مماليك بهلوان الخواص وسلكوا معه نهج الإخلاص . وأعادوه إلى سرير ملكه ، وانتسق (٤) أمره فى سلكه . وقويت يده ، وتأيدت قوته ، واجتمعت كلمته ، وتكلمت فى الأمر والنهى جماعته . ورهبه قزل أرسلان ولازم ذعره ، وأخذ منه حذره .

---

(١) فى أ (٣٥٥ ش) قتل .

(٢) طغرل : هو طغرلبك بن أرسلان شاه بن طغرلشاه بن محمد بن ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقى ، توفى سنة ٥٩٠ هـ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٣٥ ط . دار الكتب)

(٣) دامغان : بلد كبير بين الرى ونيسابور وهو قصبة قومس ، كثيرة الفاكهة (ياقوت ج ٣ ط . الخانجى) .

(٤) انتسق : انتظم .

وتنافس الأمراء ومماليك بهلوان الذين تبعوه ، وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض،وقابلوا كل إبرام من مكرهم بنقض . وقالوا له : هؤلاء البهلوانية يغتالونك ، وبالسوء ينالونك . فابطش بهم قبل أن يبطشوا وعثرهم قبل أن ينتعشوا ، فسمع مقالهم ، وتبع محالهم . وقتلهم بحضرته وهم غارون ، وساءهم باغتيالهم وهم بالمغالاة فيه سارون . فنفر منه كل آنس ، وحفظ نفسه كل منافس ، وزال بشره وبقى بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم ، ولقوه بتأبيهم(١). وقصده قزل آرسلان فأزعجه ، وأخرجه من دار ملكه وأحرجه . وأجلس سلطانا آخر موضعه ، وكدر(٢) عليه بالشوائب والنوائب مشرعه ، وخطب لمعز الدين سنجر بن سليمان شاه وأطعمه وأطمعه . وأرضاه بالاسم ، وأجراه على الرسم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد ، وانتظمت بينهما أسباب الاتحاد .

وكان السلطان طغرل إذا خلت همذان من قزل أرسلان يعود إليها ، ويستولى عليها . ثم إذا عرف قربه بعد ، وإذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم ، ويشتد فى النهب لشدة النهم . فقتل فخر الدين(٣) رئيس همذان ، وبث العدوان . وقتل وزيره العزيز ابن رضى الدين المستوفى لأمر توهمه ، ولخاطر لم يكشف مبهمه . فألجأ الزمان إلى الوصول إلى الأمير حسن بن قفجاق ، وشكى إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وآزره وضافره ، وظاهره بعد أن صاهره . وزوج أخته منه ، وحمى جانبه وذب عنه .

وراسل سلطاننا قزل أرسلان حتى يصالحه ، ويصافحه على الوفاء ويسامحه وكاد أن يتم الصلح ، ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا ، واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل أرسلان به

---

(١) فى ب بتأبهم والتصحيح من ل ومن أ (٣٥٦ ى) .

(٢) فى أ (٣٥٦ ى) فكدر .

(٣) هو فخر الدين العلوى وزير طغرل شاه (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٣٥) .

وبالتركمان ، وعادت الفتن ملتهبة النيران . وساق السلطان طغرل إلى همذان ، فمضى وراءه قزل أرسلان ، فخرج إليه ثقة بما سبق من الأيمان . فصرف عنانه وقبضه ، وأعرض عنه واعترضه . وحبسه فى بعض القلاع وأبعد عينه وأثره عن الأبصار والأسماع .

فاتسقت له المملكة ،واستقر منه السكون والحركة. وكانت أصفهان منذ توفى البهلوان ؛ قد اضطربت واحتربت ، واقتربت الساعة بها وخربت . وقتل فى ثلاث أربع سنين منها فى محاربة العوام ألوف ، وتوالت بها حتوف وزحوف .

وكانت الشحن(١) من جانب قزل على الشافعية ، وقووا أيدى الترابية فى تخريب المدرسة النظامية(٢) . فأحوجت الضرورة إلى أن أصحابنا دعوا بشعار السلطان ، ووجدوا القوة به أمام قوته والإمكان . فلما اعتقل طغرل ، واستمر أمر قزل ؛ مضى إلى أصفهان ؛ فأخذ رؤساء الأصحاب فى المحال ، وأجرى عليهم حكم(٣) القتل والاغتيال ثم عاد إلى همذان وقد قوى وروى، ونال ماهوى ، ونشر من أمره ما كان طوى ، وجلس على سرير الملك وضرب النوب الخمس ، ووجد بعدم من يوحشه الأنس ، ولها ولعب ، وشرب وطرب .

وغفل عن القضاء المشتبه ، ونام عن القدر المنتبه ، واغتر بالعيش الرفه ، وحلم عن الخطب السفه . وبات فى قصره ، وقد غاب فى سكره ، وهو بين خدمه وحشمه ، وعسسه وحرسه ، وعتقائه وأرقائه ، ومستخصيه ومستخلصيه ، فوجد على فراشه وهو قتيل ، ولم يدر(٤) كيف قتل ولم يكن

---

(١) الشحن : جمع شحنة وهى العداوة .

(٢) المدرسة النظامية : ببغداد ، كانت أكاديمية علمية وجامعة إسلامية للدراسات العليا ، أنشأها نظام الملك،أبو على الحسن بن على بن اسحاق المتوفى ٤٨٥ هـ فى عهد الخليفة المقتدى بأمر الله العباسى .

(٣) ساقطة فى ب مثبتة فى ل .

(٤) فى ب لم يذكر والتصحيح من ل ومن أ (٣٥٧ ش) .

عليه سبيل . فنسب قتله إلى الإسماعيلية (١) تارة وإلى الخاتون (٢) الاينانجية أخرى ، والله أعلم بما به حكمه أجرى .

ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه ، وحل العقاب به دون أربابه ؛ وجلس قتلغ أينانج بن بهلوان موضعه ، وجمع له ملكه ومنعه ، ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر إلى أذربيجان وأرانية (٣) سائقاً إليها واستولى عليها .

وأما السلطان فإنه أيس منه ، وسلا من كان يواليه عنه . فتعصبت له امرأة متولى القلعة ودبرت فى خلاصه ، وهونت على زوجها أمر استصحابه واعتياصه ، واستعانت بمن أعانها ، وأعلت بإعلاء شأنه شأنها .

ولما برز دخل مدينة تبريز (٤) وكأنما الكير أخرج الإبريز . ثم جمع ومضى على سمت همذان . فلقى قتلغ اينانج وعسكره بين أوه (٥) وزنجان (٦) فكسره وهزمه ، وفل حده وثلمه . ومضى إلى همذان

(١) الاسماعيلية : أو السبعية ، طائفة من الشيعة ينتسبون إلى اسماعيل بن جعفر الصادق سابع الأئمة ، وهى التى اتبعت طريقة الدعوة السياسية الدينية المنظمة تنظيما سريا بحيث ينتشر الدعاة لمقيدة الباطنية فى جميع العالم الاسلامى ، والباطنية تعنى أن للقرآن الكريم معنيين معنى ظاهر ومعنى باطن ، وهم يقولون بوجود النفس والعقل الكليين فى امامهم المقيم فى الهند والملقب بأغاخان (المنجد) و (تاريخ الأمة العربية لكرد على وآخرين) .

(٢) الخاتون : كلمة فارسية معناها المرأة صاحبة الكلام فى البيت والمتصرفة فيه ، وقد استعملت الكلمة فى اللغة التركية وكذلك الكردية بهذا المعنى (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . ب ١٩٠٨) . وذكر د . محمد موسى هنداوى فى كتابه معجم الألفاظ الفارسية أنها بمعنى المرأة العظيمة .

(٣) أرانيه : ذكر فى حاشية نسخة : ل ٣١٠ أنها اسم لبلد وذكر ياقوت صاحب معجم البلدان أنها أران وقد سبق التعريف بها .

(٤) تبريز : أو توريز وهى أشهر بلدة بأذربيجان ، وتوريز تسمية العامة لها (ياقوت ج ٥ : ١٣ ط . ب) .

(٥) أوه : قرية بين زنجان وهمذان (ياقوت ج ٣ : ٢٨٣ ط . ب) .

(٦) زنجان : بلد كبير مشهور من نواحى الجبال بين أذربيجان وهرمين قريبة من أبهر ويطلق عليها زنكان أيضاً (ياقوت ج ١٠ : ١٥٢ ط . ب) .

وجلس على سرير ملكه وذلك فى سنة ثمان . وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله .

وتوفى فى هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفى الدين أبو الفتح بن القابض ، وكانت وفاته فى الثالث والعشرين من رجب . ولقد كان سريا ، وبالحمد حريا ، وفى حلبة المكارم جريا ، ومن الخيانة فى ولايته بريا ، ومن العارعريا ، ولم يزل زند مضائه وريا .

وكانت له سياسة ورياسة ، ونفس ونفاسة ، ورأى وفراسة ، وفطنة وكياسة . ومروءة وفتوة ، وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه ، وهو فى كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه فى أموالها ، وحكمه فى أعمالها . حتى نال المنى ، ووجد الغنى . فقال له : « قد اكتفيت واستغنيت ، وإن صرفت الآن ما باليت ، فاصرفنى عن العمل . فقد نلت غاية الأمل » ، فعاش غنيا ، ومات جشريا(1) . وورث السلطان بعض ماله ، وذلك ما فضل عن أفضاله ، فإنه فرق على مماليكه أملاكه وماله . وأخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفى هذه السنة فى شهر ربيع الأول توفى الحكيم الموفق ابن مطران (2) ، وكان بارعا ظريفا ، نظيفا عفيفا . وفقه الله فى بدايته لهداية الإسلام ، ونال أسباب الاحترام . وتقدم عند السلطان ، وما شانه كبر وهو كبير الشان . وكانت له دراية و دراسة ، وذكاء وفراسه .

ولم يزل متلطفا فى طبه ، متعطفا بحبه . متحببا إلى القلوب ، متقلبا من قبوله فى المحبوب . صبيح البهجة ، فصيح اللهجة ، صحيح الحجة بوضوح المحجة . ولم يزل له عند السلطان وذوى الجاه جاه ، ولجده انتباه ، ولمداواته بالشفاء شفاه . حتى حان أجله ، وخان أمله ، وبان عنه حلى حاله ، وبان عطله .

---

(1) أى مالك لجشار — وهى الابل تترك ترعى ولا ترجع لاصحابها فى المساء .

(2) الموفق ابن مطران : هو أسعد بن الياس بن جرجس بن مطران الطبيب ، كان نصرانيا فأسلم على يد صلاح الدين ، وكان غزير المروءة ، حسن الأخلاق ، كريم العشرة ، يحب أهل البيت النبوى الكريم ، مات سنة ٥٨٧ ه (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٣ ط . دار الكتب) .

وكانت له عندى يد أذكرها وأشكرها ، وعارفة أعرفها ولا أنكرها .
وذلك أنى فى ذى القعدة سنة ثمانين كنت متوجها فى خدمة السلطان ، وفى صحبته ، متوليا للإنشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا إلى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض ، وشكا جوهرى العرض . وانتهى إليه بدمشق ما ألم بى من الألم ،فتقسم فكره . من خبر السقم . وركب ووصل فى يومه حتى أدركنى ، ومرضنى وما تركنى . وداوانى حتى أبللت ، وأزال الله انحراف مزاجى بطبه فاعتدلت . وصحبنى إلى دمشق وسبق إلى أوليائى بالبشرى ، وشكرت الله على النعمى . وكذلك كان يطلب مرضاتى ، فى جميع مرضاتى. فلما مرض الطبيب لم ينجع فى مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفى آخر هذه السنة ؛ توفى الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الخبوشانى بمصر (١) وهو الذى بنى المدرسة عند ضريح الإمام الشافعى — رضوان الله عليه ، وأحيا شعار التوحيد ، وبنى أمره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد . وكان السلطان مجيبا له إلى كل ما يستدعيه ،ويقضى له من الحوائج ما يقتضيه . ووقف على المدرسة التى بناها وقوفا ، وأعطاه فى بنائها ألوفا . فلما توفى طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالإباء . ثم شفع الملك العادل فى صدر الدين على بن حمويه (٢) — وهو شيخ الشيوخ ، ويعرف فى العلم والعمل بالرسوخ . فكتب بها له ، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله،وذلك فى أواخر سنة ثمان وثمانين . ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الأنسة .

---

(١) نجم الدين الخبوشانى : هو أبو البركات ، محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن الحسن ابن عبد الله، الفقيه ، الشافعى ، قدم إلى الديار المصرية وتزهد،أعطاه صلاح الدين مالا فبنى به المدرسة التى بجوار الشافعى ، كان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، طائشا متهورا ، وكان يصوم ويفطر على خبز الشعير ، ولما مات وجد له ألوف الدنانير (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٥ ط . دار الكتب) .

(٢) صدر الدين بن حمويه : هو محمد بن عمر بن على بن محمد بن حمويه ، شيخ الشيوخ ، تولى تدريس مدرسة الشافعى بمصر سنة ٥٨٧ هـ بعد موت نجم الدين الخبوشانى ، مات سنة ٦١٧ هـ فى عهد الملك الكامل الأيوبى (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٢٢ و ٢٥١) و (أبو الفداء ج ٣ : ١٢٧ ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ) .

فصل كتب إلى بعض الأكابر فى الدخول إلى القدس

اتفق دخول الشتاء ، وتواتر الأنداء ، وتوافر الأنواء ، وشح الأرض وسح السماء . وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء . وكانت مدينة القدس محتاجة إلى توفر الهمم على شحنها بالرجال ، والميرة والقوة ، والعدة والذخيرة . ورأيناها من أحسن المدن وأحصنها وأحكمها ، وأوجدنا بها جدّتها بعد عدمها . ورتبنا بناء سورها على جوانب أودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح . وهذا أمرٌ لله وفى طاعته ، ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولإعلاء كلمته ، ولحماية أمته . وما لنا فيه إلا السمسرة ، ومارجاؤنا إلاالأجر والمغفرة . ومانصيب الآن نصيب واحدمن المسلمين المجدين ، والمؤمنين المعدين للدين . فما أسعد من ساعد فيه ، ووفى بإسعاف عافيه .

هذا والكفر قد أناخ بكلكله ،وحفل بجحفله . وبرز إلى الإسلام بكليته ، وعراه بيليته ، وقامت قيامته لقيامته ، وثار لثار قمامته . ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذى شرفه الله وكرمه وعصمه كما عصم وحرم حرمه — مقام الأنبياء المرسلين ، ومقر الأولياء والصديقين ، وموضع معراج سيد المرسلين ، ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق وصعد المصطفى — صلى الله عليه وسلم — إلى السبع الطباق ، وأهدى الله ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الإشراق إلى الآفاق .

وهؤلاء الملاعين قد أغذوا لقصده ، وأعدوا لورود ورده . وقد فرض فى هذا الأوان رفض التوانى ، واستدعاء ذوى الحمية من الأقاصى والأدانى . وإن لم يتساعدوا فى الربيع القابل ؛ على إنهاض الجحافل ؛ صعب الأمر واشتد ، واحتدم الخطب واحتد .

فصل فى شكر صاحب الموصل على إنفاذ الحصاصين لحفر الخندق

قد أصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرب(1) عن فضيلة منجده ويفصح . فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح رجاءه ، الحامون بحفر خندقه (2) أرجاءه . وما فيهم إلا من أبان عن جده ، وأبان (3) بجده ، وألان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده . وهذه لاشك مقدمة لما وراءها من نتائج النجدات ، وجدوى سابقة للواحق فى مناهج الجدات ، وعارفة معرفة فى قمع العداة بإجراء العادات فى إنجاز العدات . وللعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب ، وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك أن يكون لها التهاب . والهمة السامية لا تفتقر فى هذا الباعث إلى باعث ، وعنه عزائمه حديث كل حادث .

وفى شهر ربيع الآخر من هذه السنة ؛ كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمى بولاية القدس .

وكانت ولاية القدس مذ يسر الله فتحه ؛ وحقق للأمل فيه نجحه ؛ وأطلع لليل النصر صبحه ؛ إلى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضة ، وصعاب أعماله وشعاب أحواله بندرة آرائه ونصرة آلائه مروضة . وقد استناب فيه أخاه (الظهير) ظهيرا ، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا ؛ إلى أن استشهد فى شعبان سنة خمس وثمانين ، وتوفى الفقيه عيسى فى ذى القعدة منها وانتقل إلى عليين . فأبقى السلطان نوابه من بعده ، محافظة على عهده .

وكان الأمير سياروخ بالقدس مقيما ، وللنظر فى مصالحه مستديما . ويضم من أمره ما يراه منشورا ، وكتبت له فى التاريخ المذكور باستقلاله منشورا .

---

(1) فى أ (٣٦٠ ش) يعرب بينما فى ب ول يعرف . وما ذكر أنسب للسياق .

(2) فى أ (٣٦٠ ش) خنادقه .

(3) فى أ (٣٦٠ ش) ألان .

« الحمد لله الذى أقصى من المسجد الأقصى من داناه من الكفر ودنسه ، ونزه البيت المقدس من رجس أعدائه المشركين بأيدى أوليائه الموحدين وطهره وقدسه ، وأنطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين وأسكت الناقوس وأخرسه ، نحمده على ما عصمه من الحوزة وحرسه ، وفرجه من الشدة ونفسه . ونسأله أن يصلى على نبيه محمد المصطفى الذى شرع الدين وشرحه ؛ ومهد الشرع وأسسه ، وبطل الكفر وعطله ؛ وأرغم الشرك وأتعسه ، وعلى آله وأصحابه الذين أعلى الله بهم منار الحق وأضفى ملبسه ، وأصفى مورده ؛ وأزكى مغرسه . وبعد :

فإنا منذ فتح الله لنا بيته المقدس ، وخفض بإعلاء أعلامنا راية الكفر ونكس ؛ وكسا بأيامن أيامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس ؛ وخصنا بفضيلة فتحه ؛ وجعل لنا به الحظ الأجزل ؛ الأفضل الأكرم الأنفس ؛ ما نزال نطلب وليا لله يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير إحسانه وحسن آثاره وإيثاره حاليا ، ويرجع بنظره الشافى وتدبيره الكافى ما انخفض من منار الهدى عاليا . ولا يزال على بال منا أن نحيي به من رسوم الإيمان ، ونجدد من معالمه ما ظل بمقام أهل الضلال فيه دارسا باليا .

وقد اختبرنا الأمير حسام الدين فألفيناه لأهلية هذه الولاية جامعا ؛ وإلى مضمار السبق فى هذه المكرمة مسارعا . ووجدناه بأعباء الأمانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا ماحضا . فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه فى ولاية مدينة القدس وأعمالها ، وعذقنا (١) برأيه الراجح وسعيه الناجح مهام أشغالها ، وحكمناه فى تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها ، وسداد ثغرها ، وسداد أمرها ، ورعاية أمورها ، وعمارة حريمها وسورها . وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل رباع أماكنها ، وإسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها، وتطهيرها من أدناس أدنى الناس، وتعميرها بالعُدة والعِدة والشدة والقوة والباس .

فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية ، وروية مبصرة وبصيرة روية .

---

(١) عذقنا : قطعنا . عذق به الأمور : اختصه بها .

وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم ، وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع فى كل مايحله ويعقده ، ويقدره ويمهده ، ويصدره ويورده ، والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده » .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس فى دار الأقساء جوار (قمامة) ، وأظهر بها لتقوية البلد الإقامة . وقد قسم سور البلد على أولاده ، وأخيه وأجناده . فشرعوا فى إنشاء سور جديد ، محدق به مديد . وكان يركب كل يوم مصبح ، مشمس مضحٍ ، فينقل الصخر على قربوس (١) سرجه ، فيستن الأكابر والأمراء فى نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيته وهو يحمل حجرا فى حِجْره ؛ لعرفت أن له قلبا كم حمل جبلا فى فكره . ولقد جد فى حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها إلى صدره ، حتى باشر صدور ممالكه بها الصدور . وما تغلو دار يبنيها فى الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملكا فى دارها وقمرا فى دارتها .

وكل بناء قلت حجارته ؛ ووقفت عمارته ؛ ركب وبكر إليه ، وجمع الحجر بنفسه وأجناده عليه . فإذا اكتفى انتقل إلى موضع آخر ونقل إليه الحجر ، ولقد بنى به فى غرفات الجنات الحُجر ، وأثر رواة سيرته الحسنة منه الأثر ، وما أعمر إحسانه وأحسن ما عمر ! وداوم البكور بالركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب . ولان له الصخر لين الحديد لداود ، وجد فى فض جدته وأفاض الجود .

وكان حجر الخندق صلدا لا يتأتى قطعه ، ولا يتهيأ بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلد ، ووهن الجلد . وتيسر الصعب ، ولان الصلب . وصرخ الصخر ، لما حاف الحفر . وضج الحديد لجلد الجلمود ، وصفا قلب الصفا لإصاخة الصيخود (٢)

(١) قربوس السرج : حنو السرج .

(٢) الصيخود : الشديد .

واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل . وسمعث الصماء صوتُ السطو ، وخرج جرح الإساءة إليها عن الأسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق .

وطاب العمل ، وطال الأمل . وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوى الركن . فلا ترى إلا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل . وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف . وحجارة تبنى ، وعمارة تثنى . وكِلْسا يحرق، وأسّا(١)يوثق . وطاقا يعقد، ورواقا يمهد . وطلاقات تطلق ، ومرامى تخرق . وستائر تحجر ، وحفائر تقعر . ومصاعد تهندس وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح ، ومخارج تفسح . وموالج تسرب (٢) ، ومدارج ترقب (٣) . حتى أحكم المكان بكل ما فى الإمكان ، واتصلت الأبراج بالأبدان ، مشيدة الأركان .

والسلطان يشرف فى كل يوم على عمل قوم . فيمدحهم بإحسانهم ، ويجازيهم بإحسانه ، ويعبر جنان المتولى من قوة جنانه . ويدركه بما يستأنفه من عمله ، ويحلى بالفضل ما يبدو له من عطله . وكان ذلك دأبه مدة إقامته ، وقد جد غرامه بغرامته . بل يرى أن كل مال ينفقه ذخر باق ، وأنه إن فاق كريم فبإنفاق ، وما عنده خشية إملاق ، بل يده جارية بإطلاق جوائز وأرزاق ، وأنه تتجلى له أعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق . وإن وفق الله واستمر ما دبره فى حفر الخندق وبناء السور ؛ بقى بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولا يبقى عليه لمسلم فزع ، ولا فيه لكافر طمع . ولو عاش (بخت نصر) لعرف عجزه ، وسلب عز الإسلام عزه . ورأى من المعجزات ما حيره ، وقهقر عن البأس الذى إن ثبت له قهره .

فسبحان الذى أقدر السلطان على ما أعجز عنه الملوك ، وهداه من الفضل إلى نهج ضلوا فيه السلوك .

---

(١) الأس : أصل البناء ، الأساس .

(٢) موالج : جمع مولج وهو المدخل . تسرب : تحرز أى عمل المدخل بثقبه مثلا .

(٣) ترقب : تعل .

ذكر الحوادث مع الفرنج فى هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان ، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها ، وتشاوروا فى إعادة عمائرها ، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والأسدية نازلين فى بعض أعمالها ، مجدين فى نقل غلالها . وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ، ومعه حزبه من جند إبليس . فشاهد دخانا على البعد ، وما عرف ما عنده من العسكر المعد فساق متوجها إلى تلك الجهة وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة وقد بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت . وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الإفطار ، فارغة الأفكار من شغل الكفار .

وكانوا نازلين فى موضعين ، مقيمين فى منزلين ، فلم ير العدو إلا أحد القسمين . فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحربه . فعرف القسم الآخر هجوم العدو ؛ فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا إلى العدو . فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعودون . ووردوا العدو شوطاً ، وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا . ثم تكاثر الفرنج عليهم وتواصلوا وسبقوا إليهم ، فاندفعوا من بين أيديهم ، والفرنج تباريهم . وساقوا أثقالهم قدامهم ، وقد ثبت حفظها على الإقدام أقدامهم . وما فقد من أصحابنا ممن عرف إلا أربعة ، ونجا الباقون وخواطرهم لأجل أولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها .

وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ، ركب السلطان على عادته فى نقل الحجارة والجد فى العمارة . ومعه الملوك أولاده والأمراء ، والقضاة والعلماء ، والصوفية والزهاد والأولياء . وخرج كل من بالبلد ، وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل على سرجه ، واستوى فى نهجه . والناس ينقلون معه على خيولهم فى قفافهم وذيولهم .

ولما دخل الظهر نزل فى خيمة ضربها ولده الملك الظافر بالصحراء ،

وأحضر فيها السماط لمن يدعوه من الأمراء . فحضر على ذلك السماط ، وأحضر طعام مطابخه وبسطه على ذلك البساط. وكنْت قد مضيت فردنى ، وبتة يبه أمدنى . فلما فرغ وفرغنا ، وبلغ مراده وبلغنا ، صلى هناك الظهر وركب عائداً إلى داره ، آيبا بإيثاره وحسن آثاره ، فائزاً بسرور أسراره وخير اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجرد فى سرية سرية ، بارية رقاب ذوى الغلول من الغل برية . فأغارت يوم الأربعاء الحادى عشر من المحرم على يبنى ، وفيها الفرنج بنية السكنى . فغنمت اثنى عشر أسيراً ، وخيلا ودواب وأثاثا كثيراً .

وفى يوم الثلاثاء ثانى صفر ، أغارت السرية وفيها جرديك ، وعسكر القدس وجماعة من المماليك ؛ على ظاهر عسقلان ، وأوفدت بتناصرها على الكفر الخذلان . وغنمت ثلاثين أسيراً قيدت فى الأغلال ، سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصرى(١)

باتت ليلة الأحد رابع عشر صفر بتل الجزر ، وسرت حتى أصبحت على يبنى وكَمُنَتْ ، وصبرت إلى أن استرسلت الفرنج إلى الطريق وأمنت ، ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبرت . فكبست وكسبت ، وكسرت وأسرت . وأخذتها بأسرها مع رجالها ، وبغالها وأحمالها وأثقالها .

ثم أغارت على يافا فقتلت وفتكت ، وسفكت دماء وهتكت . وعادت بالغنيمة والسبايا ، واستغنت بنقودها عن النسايا . وعجز جماعة من الأسارى عن المشى فضربت أعناقهم ، وأوجب ذلك للباقين فى المسير إعناقهم (٢) وعادت سالمة سالبة ، غانمة غالبة .

(١) فارس الدين ميمون القصرى : أحد الأمراء بدولة الظاهر غازى بن صلاح الدين كما كان أميرا من أمراء العزيز عثمان بن صلاح الدين ، أقطعه العزيز عثمان نابلس بعد مقاتلة الفرنج سنة ٥٩١ ﻫ ، وينسب أصلا إلى قصور الخلفاء - الفاطميين ، وهو آخر أمراء صلاح الدين ، توفى بحلب سنة ٦١٠ ﻫ (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٨ و ١٣٧) و (أبو الفداء ج ٣ : ١١٥ ط المطبعة الحسينية ١٣٢٥ ﻫ) .

(٢) الإعناق : للدابة ؛ السير السريع .

قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار فأدى منها ثلاثين ، وأعطى رهائن على عشرين . ووصل إلى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر ، فقام إليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر . وأقطعه نابلس وأعمالها ، وحلى بإيالته لها أحوالها . وعاش إلى آخر شوال من هذه السنة ، وتوفى إلى رحمة الله بأعماله الحسنة . فعين السلطان ثلث نابلس وأعمالها لمصالح البيت المقدس ، وتشييد ركن سوره المؤسس . وأبقى باقيها على ولده وتركه فى تصرفه ويده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الأسر ؛ تلقاه ولده روى السرى قوى الأزر. فوجده على زى أولاد الأتراك مضفور الشعر . فبدا منه الإنكار والإكبار، وقال : « ما للأكراد فى شعورهم هذا الشعار » . فقطع ضفيرته ، وقصر وفْرته . فتطير الناس من قطع شعره على أبيه . وقالوا : « هذا دليل مصابه الذى يأتيه »

أضافه الأسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الآخر فاستوفى رزقه لموافاة أجله ، ووصل إلى الباب قاطع أمله . وقد دعى إلى جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم فى ترقبه ، والدرك الأسفل من النار فى تلهبه ، والسعير فى تسعره ، ولظى فى تلظيها لتنظره . وقد قرب أن تكون الهاوية له حاوية ، والحامية عليه حامية ، والزبانية فى إيقاع العذاب به لمنزل الرجز بانية . وقد فتحت النار له أبوابها السبعة ، وهى جائعة إلى التهامه وهو ملئه بالأكل يستوفى الشُبعة .

فأكل وتغدى ، ومادرى أنه يتردى . وأكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب . فوثب عليه رجلان بل ذئبان أمعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ،وذكّاه عند تلك الذكاكين . وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج النفس الخسيسة . وقال المركيس وهو مجروح ،وفيه بقية روح : « احملونى إلى الكنيسة » فحملوه ، وظنوا أنهم حاطوه لما نقلوه . فلما أبصره أحد الجارحين ، وثب إليه للحين . وزاده جرحا على جرح ، وقرحا على قرح .

فأخذ الفرنج الرفيقين ، فألفوهما من الفدائية الإسماعيلية مرتدين . فسألوهما : « من وضعكما على تدبير هذا التدمير ؟ فقالا : ملك الانكتير وذكر عنهما أنهما تنصرا منذ ستة أشهر ، ودخلا فى ترهب وتطهر . ولزما البِيَع ، والتزما الورع . وخدم أحدهما ابن بارزان ، والآخر صاحب صيداء لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهما أسباب التأنيس. ثم علقابركابه ، وفتكا به . فقتلا شر قتلة ، وجهل عليهما أشد جهلة .

فيا لله من كافريْن سفكا دم كافر ، وفاجريْن فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركّسا (١) ، وفى جهنم منكباً منكسا ؛ تحكم ملك الانكتير فى

(١) مركسا : الركس ، رد الشيء مقلوبا وقلب أوله على آخره .

صور ، وولاها الكند هرى وعلق(١) به الأمور . ودخل بالملكة زوجة المركيس فى ليلته ، وادعى أنه أحق بزوجته . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها ، وذلك أفظع من سفاحها . فقلت لبعض رسلهم : «إلى من ينسب الولد ؟ » فقال : « يكون ولد الملكة » ، فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركة .

ولم يعجبنا قتل المركيس فى هذه الحالة ، وإن كان من طواغيت الضلالة. لأنه كان عدو ملك الانكتير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه فى القليل والكثير . وهو يراسلنا حتى نساعده عليه ، وتنزع ما أخذه من يديه . وكلما سمع ملك الانكتير أن رسول المركيس عند السلطان ، مال إلى المراسلة بالاستكانة والإذعان . وأعاد الحديث فى قرار الصلح ، وطمع فى ليل ضلاله بإسفار الصبح . فلما قتل المركيس سكن رُوعه ورَوْعه . وذهب ضوره وضوعه (٢) ، وطاب قلبه ، وآب لبه . واستوى أمره ، واستشرى شره .

وكان قد تعصب لمضادة المركيس الملك العتيق ، فأظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس وأعمالها ، وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المركيس عرف أنه قد أخطأ فى تقويته ، وخشى أنه لايسلم من عاديته ، ولا يأمن من غائلته . فلما عدم عدوه ، وجد هدوه . وآب سكونه ، وثاب جنونه . وغاض غيظه ، وحضه حظه ، وفاض من منبع الشرك فظه .

مع هذا لم يقطع مخادثته ، ولم يحدث مقاطعته ، ومرى رسل مراسلته ، ورمى سهم مخادعته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل ، وتصديق دعوته ، وراسل فى طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فإنه يبقى (٣) لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامة فإنهم يعتقدونها لملتهم (٤) الدعامة . فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار ، وأبدى لهم الإنكار . وسامهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان ، ويأخذوا على ما يبقى فى أيديهم الأمان.

---

(٢) علق به الأمور : اختص .

(٣) ضورة : الضور : الجوع الشديد . الضوع : القلق والفزع .

(٤) فى ب و ل يبق وهذا خطأ والتصحيح من أ (٣٦٦ ى) .

(٥) فى ب مهم والتصحيح من ل ومن أ (٣٦٦ ى) .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر ، وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر . فلما فتحت حفظت،وتركت وأبقيت ، وبالميرة والذخائر والرجال مليت . وخربت عسقلان وغزة دونها ، وتسلمها علم الدين قيصر على أن يصونها .

فلما شرع الفرنج فى إعادة عمارة عسقلان ترددوا مراراً إليها ، وداروا حولها وأشرفوا عليها . وأنفق السلطان فى جماعة وقواها بها ، وشد بالنجدة قلوب أربابها . ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم ، وسمرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم ، وصارمهم وذابلهم ، ورامحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها ، ونهوضهم إليها ؛ عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أخذوا فيها نقباً وخرقوه ، وحشوه وأحرقوه . وطلب أهلها الأمان فلم يجدوا ، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا .

ولما عرف الوالى أنهم مأخوذون ، وأنهم موقومون موقوذون ؛ عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعرقبها ، وإلى الذخائر فأضرمها وألهبها . وفتحوها بالسيف ، وعرضوا أهلها على الحيف . وأسروا منهم عدة يسيرة، وكانت هذه النوبة على الإسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم يغربوا فيها،ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء يقال له : الحسى[1] ، وقد طاش بهم الغى والبغى . وذلك فى يوم الخميس رابع عشر الشهر ، وقد أنسوا بما ظنوه من أسباب الغلبة والقهر.

ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها : مجدل الحباب ، فخرجت عليهم أسد اليزكيه المكمنة من الغاب . فقاتلتهم قتالا شديداً وتركتهم بحد الحديد بديداً ، وغادرت حبل قصدهم الجديد جديداً ، وكرت عليهم

---

(١) الحسى : لا يوجد بمعجم البلدان لياقوت هذا الاسم وأن ما ورد « حسمى » بكسر الحاء وسكون الميم ، أرض ببادية الشام بينها وبين وادى القرى ليلتان (ياقوت ج ٧ : ٢٥٨ — ٢٥٩ ط. ب) .

وكرّت عليهم فكررت فى ردهم عن جهتهم ترديداً . وقتل منهم فى جملة من قتل كند كبير . وأتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا مفلولين مثلومين ، مخذولين مهزومين ، مثلولين مهضومين .

ثم رحل الفرنج من الحسى يوم الأحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين ، وبعضهم عاد إلى عسقلان ، وبعضهم جاء إلى بيت جبرين ، فتقدم السلطان إلى العساكر والأمراء بأن يكونوالهم مبارين .

وفى يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية (٢) ، بجموعهم الوافرة الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون ، فأرجفت الألسنة بأنهم على قصد القدس على حسب تراجم الظنون . ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة ، واجتلينا نيرانهم المشبوبة .

وسرت منا إليهم السرايا ، وتوالت عليهم البلايا . وأظهر السلطان مقامه بالقدس ، لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالأنس . وفرق الأبراج والأبدان على الأمراء والأجناد ، وذوى القوة والاستعداد ، وأمرهم بنقل الأزواد . ثم زال الرعب وطاب القلب . وخرج الناس إلى خيامهم يتخطفونهم ، ويعسفونهم ويتحيفونهم . وجرت وقعة بعد وقعة ، وكبسناهم دفعة بعد دفعة .

ومن ذلك أن بدرالدين دُلْدرم كان فى اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين فبعث من أصحابه والعسكر إلى طريقهم من يافا من لزم الكمين . فجازت بهم فرسان من الفرنج ، مستقيمون على النهج . فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا وفازوا ونصروا .

وفى يوم السبت نزل الناس إليهم ، وقاتلوهم فى خيامهم ، وألهبوهم بضرامهم . وركب العدو وساق إلى قلونية وهى ضيعة من القدس على فرسخين ثم عاد بائد الشأن بادى الشين . وعساكرنا قد ركبت أكتافه ، وهى تقطع أطرافه ، وتهز أعطاف البيض لتحز أعطافه . وفى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا فى طريق يافا على السابلة العابرة . فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا ، وكسروا وأسروا . .

---

(١) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحى الرملة (ياقوت ج ٥ : ٤٢ ط . ب) .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله ، ويدعوه نجدة لأهل القدس على الكفر وأهله . فضرب العسكر خيامه على بلبيس (١) مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق . وانضم إليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم الاغترار ، وللعدو لقدومهم الانتظار ، وعنده بجواسيسه الأخبار . فجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ، ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ؛ أن العدو — ملك الانكتير — ركب فى سبعمائة فارس وألف تُرْكُبُولى ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع مخاتل . ولايدرى أى جانب قصد ، ولأى نائب رصد . فجرد السلطان أمير (آخر أسلم) ، خوفاً على الواصل ليسلم . وندب معه الطُّنْبَة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس فى طريق البرية . فعبروا على ماء الحسى ، قبل وصول العدو إليه ، واتصلوا بالقوم وأخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه .

وكان مقدم العسكر المصرى فلك الدين — أخو العادل ، ولم يسأل عن المراحل والمنازل . وقصد أقرب الطرق (٢) ، وغفل عما يعرو من الفرق(٣) والفَرَق(٤) . وترك الأحمال على طرق (٥) أخرى سائرة ، ورأى الأمنة ظاهرة ، وأوجه السلامة سافرة . وجاء ونزل على ماء يعرف بالخوْيلفة (٦) ، والأمانى تغره بالمواعيد المخلفة . ونادى تلك الليلة : « إنا

(١) بلبيس : مدينة بمديرية الشرقية بمصر ، كانت على طريق الشام (ياقوت ٤ : ٤٦٩ ط . ب) .

(٢) فى ب الترك والتصحيح من ل .

(٣) الفرق : جمع فرقة .

(٤) الفرق بفتح الراء والفاء : الفزع .

(٥) فى ب ترك وفى ل طرق وفى أ (٣٦٨ ش) طريق .

(٦) الخويلفة : موضع بنواحى فلسطين (ياقوت ج ٨ : ٤٠٨ ط . ب) .

جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة » فلا رحيل إلى الصباح » . فاغتر الناس بالنداء الصراح . وناموا مسترسلين ، وباتوا متغفلين . فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة الشاقة ، والخدمة الحاقة . وعاق ابن ذكاء بإذكاء بنت الداهية العاقة .فجاءهم فجاءة ، والصبح لم يبد إضاءة . والخيط الأبيض من الخيط الأسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة الغفوة لم يتعين . وكل غرار فى جفنه قار ، وكل قاب بأمنه سار . وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش .

فلما بغتوا بهتوا ، وطلبوا أن يفلتوا فما التفتوا . وركب كل منهم على وجهه ، وربما كرّ بكرهه . وفيهم من ركب بغير عدة حصانه ، وأسلم إخوانه وغلمانه . وانهزموا نحو الأثقال ، فأوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والأحمال . فوقع العدو فى سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها . فتفرقت فى البرية . وعاد معظمها إلى الديار المصرية ، ومنهم من عاج إلى طريق الكرك ، فلم يقع فى الشرك ، ولم يحصل فى الدرك . فأخذ الكفار جمالا لا تعد ، وأحمالا لا تحد . وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة عميمة . ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة . ووقعة ذات روعة ، وعولة ذات(١) لوعة . فظنت الظنون ، وأرجف المرجفون . وقالوا : « قد حصل للفرنج من الظهر ما يحملهم وينهضهم ، ومن المال ما يبطرهم ويحرضهم . ومن الآن يقابلهم وبأى عسكر وعدة نقاتلهم ! » .

ووصل الجند مسلوبين ، منكوبين منهوبين . فسلاهم السلطان عن أموالهم ، بما قوى من آمالهم . وحضهم على الحظ من الأخذ بثأرهم ، والجد فى دمار القوم وبوارهم . ولهى الملاعين بما ملأ العين من المال ، عن القيل والقال ، والقتل والقتال . وحلا لهم ما حاولوه من الحال . وجرى هذا كله والملكُ الأفضل والملك العادل غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة فى الإتيان .

---

(١) عولة : رفع الصوت بالبكاء والصياح .

ذكر سبب غيبة العادل والأفضل وما جرى لهما من الأول

كان الملك الأفضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ما له من الولايات . وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ملك تلك البلدان، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان . ورحل من القدس فى ثالث صفر وقد أزمع السفر ، ووجه عزمه الماضى المضىء قد سفر . وأقام فى دمشق حتّى استعد ، واستجدى من أبيه ما كمل به الخزانة واستجد . وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار، سوى ما أصحبه برسم الخلع والتشريفات؛ من مستعملات ثياب ومصوغات نضار.ثم سار فى مَجْرٍ مُجْرٍ سيل خيله جار ذيل نقعه على المجرة ، شاغل بالسير والسرى أسرار ذوى الأسرة . بادية على صفحات صفاحه نضرة النصرة . ووصل إلى حلب ، وقد مرى أفاويق التوفيق وحلب. واحتفل أخوه الملك الظاهر لقدومه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه . ورحب للترحيب به صدره وجنابه ، وسحب على روضه سحابه ، وأصحب فيض فضله صحابه. ووقف لخدمته ماثلا ، وهز عطف الابتهاج إليه مائلا. وأحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كلّ ما فى يده . ولم يبق من الجميل شيئاً إلا عمله ، ولا نوعا من الفضيلة إلا كمله .

وعرض عليه الحصن العراب ، والتحف والثياب . وخلع على خواص أصحابه وعوام أجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بإمداده . وعول أن يسير معه إلى الجهة التى يقصدها ، ويساعده على الضالة التى ينشدها . وسمع ناصر الدين بن تقى الدين بما أقلقه ، ودفع منه إلى ما أرهجه وأرهقه .ووصل رسوله إلى الملك العادل وهو بالقدس لاجئاً إلى ظله ، راجياً لفضله . لائذاً بجنابه ، عائذاً ببابه ، مستجيزاً بإرعائه(١) ، مستجيباً لدعائه . مفوضاً ما حل به (٢) إلى أنوار آرائه ، مروضاً ما حل أمره (٣) بأنواء آلائه . فاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته أمله .

---

(١) ارعاه : فعله أرعى ، والمعنى المقصود هنا مسترحما اياه طالبا رعايته .

(٢) فى (٣٦٠ ش) من

(٣) زيادة من ل ومن أ (٣٧٠ ش) ساقطة فى ب .

وخاطب السلطان فى حقه واستعطفه ، وشفع فى أمره واستشفعه . وقال : « أنا أمضى إليه وأستحضره ، وأؤمنه مما يحذره ، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ماوهى . وتعطيه فى السنة الأخرى حماة والمعرة ، وتكفى المضرة والمعرة » . ثم قرر السلطان مع أخيه العادل أن يأخذ تلك البلاد ويحويها ، ويملك حوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها .

واستقر أن ينزل عن إقطاعاته بمصر ونصف خاصه ، وإذا أخذ تلك البلاد — فما يجاوره — يجتهد فى استخلاصه . فأبدى على الرضى بذلك وجه كراهيته واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر(1) فتمنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر من أبيه بأضعافها واستظهر .

وتقرر مسير الملك العادل فى العشر الأول من جمادى الأولى ، وكتب السلطان بعود الملك الأفضل — فجاء هذا راجعاً ، وذهب ذاك مسارعا . ووصل إلى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده إلى أمد الأمل المنتهى . وعاد فى آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقى الدين ، ووصل فى هذا الشهر إلى دمشق ابن صاحب الموصل علاءالدين . وصاحب آمد — ابن قرا أرسلان قطب الدين ، وعسكر صاحب سنجار ومقدمه — مجاهد الدين يرنقش . واجتمعت بدمشق فى هذا الشهر عساكر بها الإسلام يأنس ، والكفر يستوحش . وأقامت تنظر مسير الملك العادل لتسير فى خدمته ، وتتجلى راياتها فى مطالع رايته .

(1) قلعة جعبر : على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين (ياقوت ج ٥ : ١٤١ و ١٤٢)

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكاء مظهراً أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذرعلى الفرنج قصد القدس ، وعرفوا أن مرضهم به فى النكس . ورأوا أن ثغر بيروت قد براهم ؛ وعراهم من القوة ما منه عراهم . وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه ؛ وقد فجعوا بمصائبه ونوائبه ؛ فقالوا : « أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، وإذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره إلىٰ جانبه ، وخلا القدس من جمة كتائبه ، وجمرة مضاربه ، فتبادر إليه من يافا وعسقلان من يجد فى تملكه الإمكان» ، فلما عرف السلطان ما عزموا عليه من القصد ؛ ودبروه من الكيد ؛ أمر الملك الأفضل بمباراة القوم فى الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل . وسبقهم إلى مرج عيون ، حتّى إذا تيقن من قصدهم المظنون ، سبقت العساكر إلى بيروت ودخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها . وكتب السلطان إلى العساكر الواصلة إلى دمشق أن يكونوا مع ولده ، وأن يضموا أمدادهم إلى مدده ونزل بمرج عيون والفرنج بعكاء بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار ؛ وخلى وراءه الديار ، ترك فى مدينتى يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبى الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ؛ فى حماية البلد ؛ فانتهز السلطان فرصة الغيبة ؛ وأوفد إلى مساغ رجائهم غصة الخيبة . ونهض بعسكره الحاضر ، ولم يتمهل لانتظار العساكر . ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق أحجاراً ، وأراق دماء وساق دماراً .

وزحف الناس وحفز الباس . وفرعت (١) المدينة ، ورفعت منها السكينة . وقتل من بها ومسح ، وأخذ ما بها وكسح . ووجدت الأحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت ، وعلت الأيدى والسيوف من الدماء والأموال ونهلت . ونفضت كنائن ، ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن . وحصل استمتاعنا بأمتعة ، وانتفاعنا بكل منفعة . وامتلأ البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حماتها الأمان ليكونوا لها مسلمين ، وكان الناس قد سبقوا إليها ، وقرب أن يستولوا عليها ، وذلك(٢) يوم الجمعة العشرين من رجب ، وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلبوا(٣) الأمان رد الناس وكفوا ، فظن أن الغنيمة تصفو . فإنه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الأكابر ، على أن يدخلوا تحت حكم الإسار ؛ ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر . على أن يطلق كل واحد منهم بأسير ، ويفدى صغير بصغير ، وكبير بكبير .

وشرعوا فى الخروج آحاداً وعشرات ، وعصباً متفرقات فى ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا إلى الصباح ، وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم ؛ فبذلنا لهم ماعينوه من الاقتراح ، وما زال يخرج منهم من يستدعى زيادة التوثقة : وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة ، حتى وصل ملك الانكتير

---

(١) فرعت المدينة : نزل بها وتجول فيها .

(٢) فى آ (٣٦٢ ى) وكان .

(٣) فى ب طلب والتصحيح من ل ومن آ (٣٧٢ ى) .

فى البحر ، فى مراكب فى سواد الليل بل ظلمة الكفر ، ودخل هو القلعة من الجانب البحرى ونادوا بشعائر الغدر ، فاكتفينا منهم بمن حصل فى الأسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم ، ولانفع بعد فوات الفرصة للندم

ولو أن السلطان توقف فى تأمينهم ، واستمر على توهينهم . لقلعت أساس تلك القلعة . ونفضت رقعة تلك البقعة . ولقد كان ذلك فتحاً عظيما ، وفضلا من الله عميماً . فقد امتلأت الأيدى بغنائم المدينة ، ووهت أسباب قواهم المتينة . واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية ، وفزنا بالغنائم السنية . وقتل من أقام بالبلد وأسر ، وكشط جلد تلك المدرة وبشر. وحصل فى اليد من مقدمى القلعة نيف وسبعون ، وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان القصد فى الأول رجوعهم عن قصد بيروت ، وخشى على فرصة حفظها أن تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود ، وفزنا بجنى الجهاد بغير بذل المجهود ، وجرى الأمر على الوجه المحمود .

وإنما وقع التندم ، كيف لم يقع فى أخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد الإذعان ، وتعذرت بعد الإمكان ، وجمحت بعد الإصحاب ، وجنحت بعد الإكتاب (١) . وأفلتت وقد وقعت فى الحبالة ، واستقلت بعد العثرة والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرّة ، وآذن نشاطهم بالفترة وماانتعشوا ولاانجبروا من تلك العثرة والكسرة .

وعاد السلطان وخيم على النطرون ، والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء إليه الملك الأفضل ولده ، والملك العادل أخوه ، وأسفرت بالمسار الوجوه ، وكان ولده الملك الظاهر أيضاً قد وصل ، وفى هذه الغزاة حضر وبيمنها حصل . وكذلك كان قطب الدين سُكْمان بن محمد بن قرا أرسلان حاضرا ، وأخذ من السعادة حظاً وافراً ، وحصل بيده جرح يئس أن يؤسى ، وظن تلك النعمة بؤسى . ثم اندمل جرحه ، وفازت قداحه وحاز السنى قدحه .

(١) الاكتاب : فعله أكتب : الرجل واليه ومنه وله : دنا منه .

وأقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ، ولحقت أوائلها الأواخر. ووصل الملك المنصور — ناصر الدين ابن تقيه[1] في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه : هذا والملك العادل متأخر في المخيم . بسبب عارض السقم ، وملم الألم . ورحل السلطان ونزل بالرملة والعساكر في عدد الرمل، والإسلام قرير العين من أهله بجمع الشمل ، والفضاء قد امتلأ ، والقضاء قد اجترأ ، والقدر قد أسعد والسعيد قد قدر ، والنصر قد أبدى الصفو وأذهب الكدر. وتلك البزية قد حوت البرية ، وجمعت العسكرية، والكمت الجارية والكماة الجرية : والأعراب والعراب ، والمحارب والحراب ، والأجاود والجياد ، والأساود والآساد . والبياض والسواد ، والعدد والأعداد .

(١) يقصد بابن تقيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخي صلاح الدين الأيوبي .

فصل فى وصف الحال من كتاب إلى الديوان العزيز

الخادم حاله على ما أنهاه غير مرة فى مرابطة أهل الكفر مستمرة ، وأفاويق النصر على حفولها تارة وبكئها أخرى مستدرة . والحرب سجال ، وللاسلام فى مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الإنهاء ، وكلما شارفت القضية الانتهاء، عادت إلى الابتداء . والحادثة متصلة والواقعة مستقبلة ، والنعمة من الله فى إجراء أوليائه على أجمل عاداته بإنجاز عِداته فى قمع عُداته مؤملة .

وما ينقضى يوم إلا عن نصرة تتجدد ، ونعمة تتمهد ، وجمع للعدو يتبدد ، وجمر لنكاية فيه يتوقد ، وخد للسيف من حده بدم الشرك يتورد . وفتح بكر من الحرب العوان بلقاح البيض الذكور يتولد .

وآخر ما تم فى هذه الأيام من مرهجات الكفر ومبهجات الإسلام ، حظوة حلوة ، ونوبة ما لها نبوة . وهى أن الفرنج لما أعجزهم قصد البيت المقدس ، ولم يستقم لهم ما سولوه فى الأنفس ، عكسوا زعمهم ، ونكسو عزمهم . وعادوا خائبين ، ونكصوا هائبين . واستأنفوا مكيدة أخرى وشرعوا فى شرّ خلفُ الشرك به يمرى . وأجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها — أعداء الله أولياء الطاغوت .

فسارت العساكر الإسلامية على مباراتهم ، لمضايقتهم فى مضايق طرقاتهم وتجرد الخادم فى خواصه ووافى يافا ، موقنا من الله تعالى أن مدد نصره إليه يتوافى . وحمل إليها من معتقلى نبات الأسل ومشتملى بنات الخال الأسد والعرين . فإذا نزل بساحتهم ، فساء صباح المنذرين . فأخذها بالسيف عنوة وأعاد ضرام النيران بها جنح الليل ضحوة ، وأتى القتل والنهب على من وجد فيها من الكفار ، واستخرج ما بها من الأموال والعدد والادخار . وخلص من المسلمين من كان بها فى الإسار ، وأضحت الفرنج فيها تبارى بالتبار .

وطلب من بالقلعة الأمان على أن يسلموا من القتـل ويستسلموا للأسر . ونزل البطرق (١) والقسطلان (٢) والمرشان (٣) وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر . فبيناهم مشتغلون بالنزول ، ومنقطعون إلى الوصول ، جاءهم الغوث فى البحر ، وظهرت منهم أمارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله ، ونصر الإسلام وأخذ له ، وسره بما يسره له وأجذله ، ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله .

وكان المقصود ردهم عن موردهم ، وصدهم عن مقصدهم .فأربى ما قيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الأرب . واهتزت أعطاف البيض والسمر المتنشية من كأس نجيعها للطرب . والقوم الآن قد اشتغلوا بمصابهم ، واجتمعوا لضم ما انتشر من أسبابهم . وراسلوا فى الصلح على أن نخلي لهم عسقلان فما أجيبوا ، وعلموا بجهلهم أنهم ما أصابوا فيما دبروه لإدبارهم فأصيبوا . والعساكر الإسلامية اليوم عليهم مجتمعة ، ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعة ، وقد آن أن تحل معاقد معاقلهم التى هى ممتنعة .

وكل ما يجده الله من علو يظهر ، وعدو يقهر ، ونصر يزهر ، ونصل بالظفر يشهر ؛ فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الإمامية الناصرية ، وبحمد الله ويمن أيامها وفضل إنعامها دلائل النصر ظاهرة ، وأسباب الظهور متناصرة ، ووجوه الآمال بنشر نجاحها ويسر مافى اقتراحها سافرة .

---

(١) البطريق : معرب اللفظ الرومى بمعنى القائد patricius (الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط بيروت ١٩٢٥ م) .

(٢) القسطلان : معرب اللفظ اللاتينى castellanus ومعناه مستحفظ القلعة ويقابله فى الفرنسية chatelain (مفرج الكروب ج ٢ : ٧٦ تحقيق د . الشيال) عن (السلوك للمقريزى تحقيق د . زياده ج ١ : ٥٢٤)

(٣) المرشان : يقصد المؤلف كما يفهم من السياق maréchal أى قائد الجيش وهى كلمة فرنسية .

لما عرف ملك الانكتير أن العساكر قد اجتمع ؛ والخرق عليه قد اتسع ؛
وأن القدس قد امتنع ، وأن العذاب به وقع ، خضع وخشع ، وقصر الطمع.
علم أنه لا قبل له بمن أقبل ، ولاثبات مع الجحفل وقد حفل ، فأظهر أنه
إن لم يهادن أقام واستقتل ، وللشر استقبل . وأنه عازم على العودة إلى بلاده ،
لأمور مردها يعود إلى مراده . والبحر قد آن أن يمنع راكبه ، ويسم بالأمواج
غواربه . « فإن هادنتم وطاوعتم تبعت هواى ، وإن حاربتم وعصيتم
ألقيت ههنا عصاى ، واستقرت نواى . وقدكل الفريقان ، ومل الرفيقان .
وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان . ولا تغتروا بهذه العساكر
المجتمعة من الجهات ، فإن جمعها فى الشتاء إلى الشتات ، ونحن إذا أقمنا
على الشقاق والشقاء ؛ رمينا أنفسنا على البلاء . فأجيبوا رغبتى ، وأصيبوا
محبتى . وأودعونى العهد ودعونى ، ووادعونى وودعونى » .

فأحضر السلطان أمراءه المشاورين وشاورهم فى الأمر وأظهرهم على
السر . واستطلع ما عندهم من الرأى ، وسرد لهم الحديث من المبادئ إلى
الغاى ، وقال لهم : « نحن بحمد الله فى قوة ، وفى ترقب نصرة مرجوة ،
فأنصارنا المهاجرون إليناذوو دين وكرم ومروة . وقد ألفنا الجهاد ، وألفينا
به المراد . والفطام عن المألوف صعب ، وماتصدع إلى اليوم بتأييد الله لنا
شعب . وما لنا شغل ولامغزى إلا الغزو . ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه
اللهو . وإذا تركنا هذا العمل فما العمل ؟ وإذا صرفنا عنهم الأمل ففيم
الأمل ، وأخشى أن يأتينى – فى حالة بطالتى – الأجل ، ومن ألف الحلية
كيف يألفه العطل ، رأيى أن أخلف رأى الهدنة ورائى ، وأقدم بتقديم
الجهاد اعتزازى وإليه اعتزائى . وما أنا بطالب البطالة ، فأرغب عن
استحالة هذه الحالة . وقد رزقت من هذا الشىء فأنا ألزمه ؛ ولى بتأييد الله
من الأمر أجزمه وأحزمه » .

فقالوا له : « الأمر على ما تذكره ، والتدبير ما تراه والرأى ماتدبره، ولايستمر إلا ما تمره من الأمر ، ولايستقر إلا ما تقرره ، وإن التوفيق معك فى كل ما تعقده وتحله وتورده وتصدره . غير أنك نظرت فى حق نفسك من عادة السعادة ، وإرادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحة ، والاعتناء بالوسيلة الناجحة . والأنف من العطلة ، والعزوف للعزلة . وإنك تجد من نفسك القوة والاستمساك ، ويقينك يعرفك بالأمانىّ الإدراك . فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت . والرعايا فإنها تعكست وتعلثت . والأجناد فإنها نصبت ووصبت ، والجياد فإنها عطلت وعطبت ،وقد أعوزت العلوفات ، وعزت الأقوات، وبعدت عنا العمارات، وغلت الغلات . ولاجلب إلا من الديار المصرية ، مع ركوب الأخطار المهلكة فى البرية . وهذا الاجتماع مظنة التفريق ، ولايدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق . فإن المواد منقطعة،والجواد ممتنعة .والمترب قد ترب،والمعدم قد عطب . والتبن أعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالى السعر .

وهؤلاء الفرنج إذا يئسوا من الهدنة ، بذلوا وسعهم فى استفراغ المكنة واستنفاد المنة . وصبروا على المنية فى طريق الأمنية ، وأبوا فى الإقبال على دينهم قبول الدنية . والصواب أن نقبل من الله الآية التى أنزلها وهى قوله (وإنْ جنحوا للسَّلْم فاجنَحْ لها (١)) ، وحينئذ تعود إلى البلاد سكانها وعمارها، وتكثر فى مدة الهدنة غلاتها وأثمارها . وتستجد الأجناد عدتها ، وتستريح زمان السلم ومدتها . فإذا عادت أيام الحرب عدنا ، وقد استظهرنا وزدنا . ووجدنا القوت والعلف ،وعدمنا المشاق والكلف. فنى أيام السلم نستعد للحرب ، ونستجد أدوات الطعن والضرب ، وليس ذلك تركا للعبادة ، وإنما هو للاستجداء والاستجداد والاستجادة .

على أن الفرنج لايفون ، وعلى عهدهم لايقفون . فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا ، وقد شقوا بما لقوا . وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويستقل بالملازمة » .

---

(١) الآية ١ سورة الأنفال .

وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضى ، وأجاب إلى ما اقتضى . وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحدة ، والعجاجات (١) على الطلائع متعاقدة . فلو رحنا رحلناهم ، وعلى الهلك أحلناهم ، لكن مراد الله غاب ، وأجيب ملك الانكتير من الصلح إلى ما طلب .

فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها ، وعينت مدتها وبينت قضيتها وذلك فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأول أيلول لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر . وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر ، والسهل والوعر ، والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكاء إلى صور ، وأبدوا بما تركوه من البلاد التى كانت معهم الغبطة والسرور . وأدخلوا فى الصلح طرابلس وأنطاكية ، والأعمال الدانية والنائية .

---

(١) العجاجات : جمع العجاجة ويقصد بها الاغارة ، (لف عجاجته عليهم) أى أغار عليهم .

فصل من كتاب إلى الديوان العزيز فى شرح نوبة يافا ثم إفضاء الأمر إلى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بإنهاء حاله ، وما هو لايزال مستمراً عليه من جهاد العدو وقتاله . وماكان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وأنهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس ، وعزموا على بذل المصونين من النفائس والأنفس . وسلكوا فى القصد كل طريق ، وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . ودنوا على ظن أن جنى الفتح لهم دان ، وأن شبا الحتف عنهم وان . ولما قربوا عرفوا أن المرمى بعيد المرام،وأنهم لايستطيعون مقاومة عسكر الإسلام.فنكصوا على أعقابهم ، ونكسوا ما ضربوه من آرائهم وآرابهم.وعلموا عقبى ما جهلوه وقطعوا من أسباب العزم ما وصلوه . ونكثوا من عقد القصد لما أبرموه ، وشرعوا فى أمر آخر توهموه .

ومضوا واستأنفوا الاستعداد ، واستنهضوا الأمداد . وحصنوا بلادهم وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة ، والعدة النافعة ، والشوكة الرادعة ، والشكة القاطعة . واستظهروا فيهما بكل ما قدروا عليه من المنعة الحامية ، ورجال الصبر على النار الحامية . ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة ، وظلال الضلال الممدودة ، وصلال الصلادم المقودة . مستمطرى شآبيب الأنابيب ،مستنفرى سراحين السراحيب . وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية الحصر وغفلوا عما أجراه الله لأوليائه على أعدائه من عوائد النصر

ولما نمى خبرهم ، وطار شررهم ، وخيف ضررهم ، أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم ، ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل فى مماليكه وخواصه ، ورجال الإقدام ذوى استخلاصه ، على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة ، وجب بها من سنام الكفر ذروة ، وحل منه بغزوته إليها عروة ، واستكمل للإسلام بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته وسبى ،

وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا . وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل ، وأسر من وجد فيها وقتل . ونهب من آلات الحصر ماخرج عن الحصر ، وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدَّثْر للذُّخْر .

وطلب أهل القلعة الأمان من القتل خاصة دون الأسر ، وشرطوا أنهم لا يمكنون من الدخول إليهم من جاءهم للنجدة من البحر. وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم ، وكنودهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبيز والقسطلان والمرشان ؛ ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما أصبحوا جاءهم ملكهم فى البحر فغدروا ، وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك فى جموعه ، وندب إلى عسكره من يأمره برجوعه . ووافت فى البرجحافله حافلة ، وتواردت فى الإسراع إلى الصريخ ظِلْمانا جافلة .

فأجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق ، وسيرهم إلى دمشق فى أقياد الوثاق ، ورجع إلى القوم فهزمهم وردهم إلى عكا ، بعد ما نكى فيهم وأضحك من دماهم البيض وأبكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه ، وكدر المورد لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الإسلام العساكر . واتسعت على المشركين فى المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب الكافر ، وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر . وعاينوا العذاب الواقع ، وعدموا الدافع ، وشاهدوا المصارع . فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة ؛ وبذل الطاعة ؛ والنزول عن الاشتطاط ، والدخول تحت الاشتراط ؛ والغبطة بما هزّ له الإسلام عطف الاغتباط ؛ واحتوى عليه بيد الاحتياط .

وكانوا لا يجابون إلا بالإباء ، ولا تلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وأمراؤها ، وأولياء الطاعة وألباؤها . وأشاروا بعقد الهدنة ، والانتهاز فيها لفرصة المكنة . واستقرت المهادنة على ما أعز للإسلام الأنوف وأذل من الكفر الرقاب ، ورجح وأنجح من أهل الإيمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التى تملكوها ، وبعدوا

الطرق التي سلكوها ، وسألوا الأمان على الأماني التي استدركوها وما أدركوها ، وسلموا عسقلان وغزة والداروم ويُبْنَى ولُدّ وتل الصافية ، وغير ذلك من الأعمال والأماكن الوافرة الوافية .

واقتنعوا بيافا وعكاء وصور ، واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم فى ذلهم ، وصونهم فى بذلهم ، وسلامتهم فى سلمهم ، وغناهم فى عدمهم ، ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز ، وهابوا بعد الاغترار ، وأقروا بعد الإنكار لتعود جفونهم إلى الغرار ، وأمورهم إلى القرار . وخلوا ديارهم وأخلوها ، وما سألوا عن حب الأوطان والأوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين ؛ ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادى والعشرين ، من شعبان سنه ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها ورحضت (١) بماء السلم أوضارها (٢) ، وأخذت من أهل النار ثارها ، وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها . ولاشك أنهم يستعدون فى هذه المدة ، ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة ، ويستجدون عزمة العودة .

وقد شرع الخادم فى تحصين الثغور ، وإمرار الأمور . وإبرام معاقد المعاقل ، وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه حتى يبقى على الدهر آمناً من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الأعمال والأحوال إلى عادة عمارتها ، وحلية نضارتها ، وإجمام العساكر وإراحتها ، ليوم تعبها الذى هو عين راحتها .

ولقد كان الخادم للسلم متكرها ، ولايرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوى الآراء على أن المصلحة فى المصالحة راجحة ، وأن صفقة الكفر فيها خاسرة وصفقة الإسلام رابحة .

وإن فى إطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما ، وأمنا تاما ،

---

(١) رحضت : غسلت .

(٢) أوضارها : جمع وضر : وهو وسخ الدسم ، غسالة القصعة ونحوها ، وأثر الطعام فى القصعة ، والمقصود هنا كل متخلفات وآثار ضارة .

وتفريقاً لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما . فهى سلم أنكى من الحرب فيهم ، وأنها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم ، وإلى متى تجتمع هذه الأعداد الهائلة لهؤلاء الأعداء ، وتتفق هذه الأمداد المتواصلة من أهل النار فى الماء . وما صح لهم هذا الجمع على التكسير إلا فى خمس سنين ، وما وافى إليهم مددهم من ألوفه سوى مئين . وكل ما كان لهم من أموالهم فى بلادهم نقاوه وأنفقوه ، وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى أنفضوا انفضّوا ، وقد آن أن يرفُضوا ويرفضّوا ، وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع ، ويعزم ذاهبهم على الرجوع ؛ يكون الإسلام قد استظهر بقوته ، واستكثر من نجدته ومن جدته . فرأى موافقة الإجماع ؛ وقبل مناصحة الأشياع . وتفرق جمع الكفر وباخ جمره ، وأمن نكره ومكره ، والشرح صدر الإسلام وتضوع نشره ، وتوضح بسنى النصر فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان إلى القدس وعادت عادة سعادته ، واشتغل بإتمام السور والخندق وتكميل عمارته ، وفسح للفرنج كافة فى زيارة قمامة . فجاءوا ووجدوا الأمن والسلامة . وزاروا ورازوا ، ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا أن يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق ، وتوافوا فى طريق وراء طريق ، وقالوا : « إنما كنا نقاتل على هذا الذى وجدناه مع الصلح ، وما زلنا سائرين فى ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح . »

وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الفرنج من الزيارة إلا لمن وصل معه كتابه أو رسوله ، ورغب فى أن يجاب سؤاله فى ذلك ويصاب سوله . فقيل : مقصوده أنهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة ، فيبقون على الاستنفار والاستثارة . ومن زار برد قلبه ، وتنفس كربه ، ولم يبق له فى مشقة العود أرب ، ولم يتصل له بهذه الديار سبب ، فكان الأمر كما حسب ، فاعتذر إليه فى الجواب الذى كتب . وقيل له : « أنت أولى بمنعهم ، وردهم بردعهم . فإنهم يصلون إلينا وافدين ، ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضى كرمنا أن نرد الوفود ، ولا نبلّغ من يقصدنا المقصود » .

ومرض ملك الانكتير مرضا ألهاه عما اشتهاه ، ولم يبلغ فى هذا الغرض إلى منتهاه . وركب البحر وأقلع ، وعجل فى مفارقته وأسرع . وسلم الأمر إلى من يليه ، وهو الكند هرى — ابن اخيه من أمه ، وهو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه . وتبعه فرنج الجزائر ، ولم يقف الأول منهم على الآخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم ، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له فى المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات ، والثياب والكسوات . فقيل له : لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك وعرفته بنهجك . حتى لا يظن بك أمر أنت منه برىء ، ويعلم أن قصدك فى المضى مضىء . والوقت قد ضاق ، ويبلغ الخبر الآفاق . ثم هذه البلاد إذا تركتها على ما بها من الشعث ، لم تبرم مرر(١) حبلها المتكث . وهذه المعاقل التى فى الثغور ، حفظها من أهم الأمور . ولا يغتر بعقد الهدنة ، فإن القوم على ترقب المكنة . والغدر دأبهم ، وملء البغى إهابهم .

فما زال الجماعة بالسلطان حتى حلوا من العزم ما عقده ، وأطفأوا من ثار جده فيه ما أوقده ، فشرع فى ترتيب قاعدة القدس فى ولايته وعمارته ، وتهذيب عمله ومعاملته .

وكان الوالى بالقدس حسام الدين سياروخ ، وهو تركى يقتدى به فى زهادته وحسن سيرته الشيوخ . وكان فيه دين ولين ، وحبله فى الخير متين ؛ ولم يزل مستوفيا لحق الأمانة ، مستعفيا من الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره ، كريما مورده ومصدره .

وفوض السلطان ولاية القدس إلى عز الدين جرديك ، وقال : « تهديك فى الأمور يغنيك عن أن نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانه فيك . فتول آخذا بالحزم فى تثبتك وتأنيك ، وترويك وتأتيك » .

وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ؛ فخرج إليها وتولاها . وأمر بنقل الغلات من البلقاء(٢) لتقوية الفلاحين ،

---

(١) مرر : طاقات الحبال .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان ، فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة (ياقوت ج ٤ : ٤٨٩ ط . ب) .

وإعانة المقطعين . وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ، ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم ، وآذن سؤاله عنها بإجابة سؤلهم وسؤالهم . فإنه كان وقف دار البطرك – مجاورة قمامة – لهم رباطا ، وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد فى الوقوف ، وحكمهم فى الإنفاق بالمعروف .

وكان قد جعل كنيسة صنْدحنّا – عند باب الأسباط – للفقهاء الشافعية مدرسة ، وردها بنية على التقوى مؤسسة . وزاد فى أوقافها ، ووفر مواد تلادها وطرافها . وأمر بأن تجعل الكنيسة – المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة بيمارستانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الأمراض على اختلافها تقضى . ووقف مواضع عليها ، وسير أدوية وعقاقير عزيزة الوجود إليها . وفوض القضاء والنظر فى هذه الوقوف إلى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم(١) . وعول منه على أمين كريم .

(١) يقصد القاضى بهاء الدين بن شداد صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

ذكر خروج السلطان على عزم دمشق من القدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال ، وقد دبر الأحوال ، وأقام بعدله الاعتدال ، وأفاض الفضل والإفضال . وجاوز ناحية البيرة[1] ، وقد جلا جلاله سنى راياته المنيرة . وبات على بركة الداوية ، بالهمة الروية والعزمة القوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة ، وجمع شتات مصالحها المتوزعة . وكثرت الاستغاثات على سيف الدين على المشطوب صاحبها ، وأنه قد طرق الرنق[2] إلى مشاربها ، وزاد فى رسومها ونوائبها . فأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالمها ، وأضحك بالعدل والإحسان مباسمها . وأسقط رسومها الجائرة ، وأمات سننها الضائرة ، وأصفى بها شرعة الشريعة ، وأضفى ظلال الرعاية للرعية فى مراعيها المريعة .

ورحلنا بعد الظهر ، وبتنا ليلة الأحد عند عقبة ظهر حمار بموضع معرف بالفُريْديسة ، ورتعنا فى مروجها الأنيسة . وأصبحنا راحلين ، ونزلنا ضحوة على جينين . وهناك ودعنا المشطوب وداع الأبد ، فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال .

ورحلنا يوم الاثنين وجئنا ضحوة إلى بيسان ، وأزال حلول السلطان عنها البؤس وأشاع الإحسان . وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية . فأبصر قللها العالية ، وقال : « هذه إذا عمرت دامت فى حضانة الحصانة ، وكان جبلها لوثوقه مستودع الأمانة ، والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب » . ولم يزل حتى بين كيفية بنائها ورتب . ووعد بإحكامها ، وإعلاء أعلامها .

ثم ظهر ظهراً وبات على قلعة كوكب ، وشاهدها وصعّد نظر رأيه فيها

---

(١) البيرة : بلدة بين القدس ونابلس (ياقوت ج ٢ ط . الخانجى) .

(٢) الرنق : هنا بمعنى تراب فى الماء من القذى وغيره .

وصوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ، ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء ؛ وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر ، وتلقيناه بالبشر والبر . وأقمنا بها يوم الأربعاء لتوافر الأنداء ، وتواتر الأنواء .

ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل ، وصعد السلطان إليها وأمر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها : الجش[1] ، وهى عامرة محتوية على سكانها كأنها العش . وسرنا منها وخيمنا على مرج تبنين ، وبتنا بأحوال قلعتها معتنين . وأصبح السلطان حوالى حيطانها بأحوالها محيطا ، ممتطيا قرا قلعتها ولأسباب اختلالها مميطا . ووصى الوالى بعمارتها وجعل مصالحها بكفايته منوطة ؛ وسدادها بسداده منوطا .

ثم رحلنا بكرة السبت وجزنا على قلعة هونين ، ونزلنا من الجبل ، وبتنا على عين الذهب ؛ واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الأحد وخيمنا بمرج عيون ، وجلس السلطان على عادته معنا فى تدبير الممالك تلك الليلة وسهرت العيون .

ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى ، وقطعنا فى الطريق الوعر الوهاد والذرا ، وعبرنا بين عمل صيداء يسرة وعمل وادى التيم[2] يمنة على الضياع والقرى . وعرسنا على مرج تلفياثا[3] مقابل مرج القنعبة ، ودفعنا إلى سلوك[4] المسالك الصعبة .

ثم أصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفياثا فخيمنا على جسر كامد ، والسلطان مشغول فى طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد . ثم غدونا يوم الأربعاء وخيمنا بناحية قب إلياس ، وقد أصحرنا إلى الفضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين من الفواضل السلطانية

---

(١) جش : بلد بين صور وطبرية على سمت البحر (ياقوت ج ٣ : ١٠٧ ط . الخانجى).

(٢) وادى التيم بلبنان ، وهو المنطقة التى ينتهى إليها جبل الشيخ منحدرا إليها انحدارا لطيفا (المنجد باب الاعلام و البلدان) .

(٣) تلفياثا : من قرى غوطة دمشق (ياقوت ج : ٥ : ٤٢ ط . ب .)

(٤) ق ب تبوك والتصحيح من ل .

فى النعماء . ولما جن الليل جمعتنا بالحضرة السلطانية الأنوار ، وسرّت أسماعنا منه أسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الأسمار .

ودخل السلطان يوم الخميس إلى بيروت ، وأنجز بالوصول إليها وعده الموقوت . ونزلت الأثقال على مرج قلـْميطيـّة بالبقاع ، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والإيداع .

ذكر وصول السلطان إلى بيروت ودخول بيمند الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر أسامة

ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين أسامة ، بكل ماتوفرت به الكرامة ، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب ، وظل خصيب ، وسماحة أريب ، وسجاحة(١) لبيب . وفتحت الأهراء — على غلاء الغلات بالثغر — ورفع أغلاقها ، وسبلها وما قيد إطلاقها . وقرى وأضاف ، وأدنى القطاف ، وأصفى النطاف(٢) وتلطف فى الهدايا وأهدى الألطاف . وفرق على الصغير والكبير التحف ، وأحضر للسلطان ولكل من معه الطرف . وأغنى وأقنى ، وأعدم فى الجود الموجود وأفنى . وأعطى الخيل والمماليك والجوارى والملابس ، وبذل النفائس ، وزف على أكفاء المحامد من ابكار المناقب العرائس .

وأظهر فى مكان الشدة الرخاء ، وفى مظنة الضن السخاء ، وأهب فى أعصار الإعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء . وأحضر كل ما عنده مما كسبه فى الغنيمة ؛ جريا على كرم الشيمة ؛ من الجوخ الإفرنجية ، والثياب البندقية ، والهنابات(٣) الفضية ، والأكواب اللجينية . والسروج واللجم ، والأكسية والحزم . والمهاميز(٤) والملاليط(٥) والغفافير(٦) ، والعروض

---

(١) سجاحة : سجح خلقه ، سهل يقال : فى عقله رجاحة وفى خلقه سجاحة » .

(٢) فى ب العطاف والتصحيح من ل ومن أ (٣٨٥ ى) .

(٣) الهنابات : جمع هناب وهى وعاء يقدم فيه الشراب

(٤) المهاميز ـ جمع مهمز أو مهماز ، وهو ما يهمز به . أو هو حديدة فى مؤخر خف الرائض . Dozy-Supp-Dict-Arabe. p. 765

(٥) الملاليط : جمع ملوطة ، وهى الجبة من الحرير .Dozy-Supp-Dict-Arabe) Vetements p 412

وهناك كلمة مليط إذا قيل سهم مليط أى لا ريش له ، وملاليط صيغة منتهى الجموع الكلمة

(٦) الغفافير : جمع غفارة وهى زرد من الدرع ينسج على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة (النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦٨ ط . دار الكتب عن شرح القاموس) .

والدراهم والدنانير . ففرق من ذلك ما جمعه ، ورفع إلى كل منهم ما أسمى قدره ورفعه ، وما انفصل عنه إلا كل مواصل بشكره ، مساجل أمثاله بذكره ، مضوع كل ناد للكرام بنشره . وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، وأعجب وأعجز ما صدق من اهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما أراد السلطان عن بيروت الانفصال ؛ وذلك فى يوم السبت الحادى والعشرين من شوال ؛ قيل له : إن الإبرنس الأنطاكى قد وصل إلى الخدمة ، مستمسكا بحبل العصمة ، داخلا حكم الذمة . فثنى عنانه ونزل ، وأقام وما ارتحل ، وأذن للإبرنس فى الدخول ، وشرفه فى حضرته بالمثول . وقربه وآنسه ، ورفع مجلسه . وأظهر له البشاشة والهشاشة ، وسكن من روع روعه الحشاشة .

وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيا ، ووهب كلا منهم تشريفا سريا . وأجزل له ولهم العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبارّ . وأعجبه استرساله إليه ودخوله عليه بغير أمان ، فلا جرم تلقاه بكل إحسان ؛ وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافق مراد السلطان أنه بمراده وافقه . وانصرف المذكور مسرورا ، بين أسرته مذكورا ، محبوا بالمنح والمنن محبورا .

لما خرج السلطان من بيروت يوم الأحد بات بالمخيم على البقاع ، وأحضرنا تلك الليلة فى نادى فضله للمؤانسة والامتاع . وتجاذبنا أطراف الآراء ، وهززنا منه أعطاف الآلاء . واستدنينا قطاف النعماء . وقد قرب الدخول إلى البلد ، والوصول إلى الأهل والولد . وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتراحا ، ويظهر إلى سكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبرنا عين الجر(١) وبتنا على مرج يبوس(٢) ، وقد شرح الله الصدر وأطاب النفوس . ووصل إلينا من أعيان دمشق من سبق للتلق والاستقبال. وأظهروا بقدومنا أسباب الاحتفاء والاحتفال . وجاءتنا فواكه دمشق وأطايبها ، واغتصت بالواصلين إلينا مسالكها ومذاهبها . ورحلنا يوم الثلاثاء وبتنا بالعرادة ، وجرى المتلقون فى التحفى بالتحف على العادة . وأصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا إلى دمشق وقد أخرجت أثقالها ، وأبرزت نساءها ورجالها . وكان يوم الزينة ، وخرج كل من بالمدينة . وحشر الناس ضحى ، وأشاعوا استبشارا وفرحا .

وكانت غيبة السلطان عن دمشق أربع سنين فى الجهاد طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت . وقرت بفضائله الأعين ، وأقرت بفواضله الألسن ؛ وذاعت أسرار السرور ، وراقت حبرات الحبور . وطابت الأنفس ، وغابت الأبؤس . وانجلت المكاره ، وتجلت المكارم ، وافترت المباسم ، وهنيت بموسمه المواسم . وتهوديت التهانى ، وهديت الأمانى ، وغنت المغانى ، ولذت المجانى ، وسفرت المجالى ، وظفرت المعالى . وتحلت الأحوال ، وتملت الآمال . وراج الرجاء ، وأرجت الأرجاء . وفاض الجود ، واستفاضت السعود . وعم العدل ، وتم الفضل. وأشرقت الآفاق ، وأفاق الإشراق . وكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء .

---

(١) عين الجر : موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق (ياقوت ج ١٤ : ١٧٧ط. ب)

(٢) يبوس : اسم جبل بالشام بوادى التيم من دمشق (ياقوت ج ٢٠ : ٤٢٨ ط . ب)

وحل فى القلعة حلول الشمس فى برجها ، وقد جلت أوجه السعود بأوجها ، وأخذت بحار سماحه فى موجها ، وسلكت المناجح فى نهجها ، وجاءت المنائح فى فجها بفوجها . وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على وافدها . وفتحت مرتجات أبواب الآلاء لمرتجيها ، واستجدت عادات إنجاز عدات الجوائز لمستجديها . ويسر اليسار لإسعاف العافى ، ونمت على ألسن الأنام أوصاف الصافى . وجلس السلطان فى دار العدل فأعدى المستعدى ، ولبى المستدعى . وأجاب وأجار ، وأنال وأنار . وجاد وأجاد . وبدأ وأعاد .

وفى هـذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر ؛ واجتمع بنا يوم وصلنا إلى طبرية ، ولقى من السلطان الألطاف الخفية . ووصل معه إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر . وقد صان نفسه ببذل ماله ، وأخرج ثروته ودخل فى إقلاله . وخرجت السنة والسلطان فى أسنى سنائه ، وأبهى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون فى رياض نعمائه . ورسل المماليك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه . وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع وافتراره ، والتهاب زُهْر أزهاره ، وانتهاب سرح أسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عَراره ، وائتلاق أنواء نوّاره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاق(١) أوراق أشجاره ، وانفتاق كمامه ، واتساق نظامه . وانتثار منظومه ، وانتظام منثوره ، وانفجار صبح أسفاره . وانفراج وجه سفوره ، واجتماع لفيف أعشابه ، واستماع حفيف أقصابه ، والتماع بريق سحابه ، واتساع طريق صحابه . وانشقاق شقائقه ، وانعقاق عقائقه . واشتمال شمائله ، واقتبال قبائله . وتأرج صَبا صَباحه ، وتبلّج صِبا صباحه . وتورد وجنات جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، ولتبسم ثغور أقحوانه ، وتنسم ضمير ضيْمرانه(٢) وتصور خدود تفاحه ، وتدور نهـود رمانه . واخضرار آس عذاره ، واحمرار خد جلّناره .

(١) الاصطفاق : الاهتزاز بالريح .

(٢) الضيمران : ضرب من الريحان .

وتشنف أقطار النادى بأقراط قطار الندى ، وتفوف(١) حافات الوادى بالوشى الوشيع من حوك(٢) الرباب(٣) حول الربا . فإذا طاب النسيم ونسم الطيب ؛ ودعا البلبل ولبىّ العندليب ؛ وتعطر عبير الربيع ، وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ؛ ووافق مراد المرعى من المراد المريع ؛ وحلا الجنى اللجينى ؛ وحلى النضير النُضارى ؛ وبقل العذار البنفسجى ؛ واشتعل الخد الجلّنارى النارى ؛ ونجم فى الروض النجم السمائى المائى ؛ وابتسم الثغر الأقاحى ، وتنسم الضوع الصباحى . وتحرك العرف السحرى الشجرى ، وتأرج النشر الروضى ؛ وتبلج البشر الوضى ؛ وانتشى النشأ(٤) الشمالى الشمولى ؛ وانتعشت عاثرات أعشاب الشعاب ؛ وقابلت القبول خطبة الفضل بفصل الخطاب ؛ وصبت الصبا فى محل خطيئة المحل بصوب الصواب ؛ فحينئذ آل جماح الأصحاب إلى الإصحاب ، وصرّفت أشاجيع الشجعان ؛ وأيْمان أهل الإيمان ؛ كل موّاج العنان ؛ رواج السنان . ونزعت النزائع إلى الحلاب ، ورشفت القواطع بشفاه الشفار ضرب الضراب . واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطلوع . ونهض أهل الجد وجد النهوض ، وفاضت المنابع ونبعت الفيوض وضرب السرادق السلطانى حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن يشمل والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمتثل . والجد يسمن والهزل يهزل ، والعزم يولى والونى يعزل . ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتنفس إلا بحديث الضاعة من يحدث نفسه بعصيان .

وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة ، والأجفان مغضوضة على طيب السنة . وظلّ البرد الشديد مديد ، والجلد واه والهواء جليه . وحد الشتاء فى التشتيت حديد ، والجبال قد اشتعلت رؤوسها شيبا ، والثلوج قد زرّت

---

(١) تفوف : يقال ثوب مفوف : أى رقيق أو مخطط بخطوط بيض على الطول .

(٢) حوك : نسج .

(٣) الرباب : السحاب الأبيض

(٤) النشأ : نسيم الريح الطيبة .

على أعناق أطوادها جيبا . والجو فى نظم ونثر ، والثرى من الثرات مُثر .
والمتون ناكب ناكت ، والهتوف ساكن ساكت. والمزن مزين، والحزن(١)
حزين . وللسماء سماط ، وللنشاص(٢) نشاط . وللسحاب حساب ،
وللبرق والرعد انتحاء وانتحاب . وللبرد من ثلجه بُرْد ، وللمطر فى نهجه
طرد . وللغيث حيث ، وللوحل ريث .

وكانون قد أكنّ الوبا ، وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبة مشبوبة ،
وحدود النُكْب مدروبة ، وخدود التُرب مضروبة . والسلطان مشغول
بالصيد والقنص ، منتهز فى العمر للفُرَص . مبتز بالبزاة والصقور ، حشاشات
الوحوش والطيور . بكل جار جارح ، وطائر طارح . يدنى أجل الحجل
وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهى الغرام . وكل شهم ينقض انقضاض
السهم ، ويبطّ بطن البط بالحزم .

وأكثر الجلوس بدمشق فى دار العدل ، وأغزر لمنتجعيه در الفضل .
وحكم وقضى ، وأسخط بالحق وأرضى ، ووقف وأمضى . وما منع بل
أعطى ، وأصاب وما أخطا . وجاد وأجاد ، وأبدى وأعاد ، وأوفد وأفاد ،
وأحسن وزاد . وأغنى وأقنى ، وأجدى وأسدى ، وأولى وولى . وأجار
وأجاز ، وحاز وناز . وقرب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء .
وتكلموا عنده فى المسائل الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية .
وما كان أحسن إلى الحق إصغاءه ، وأسرع للباطل إلفاءه . ولكل ذى فضل
منه حظ ، ولكل ذى حفظ منه حفظ . ولكل محروم منه رزق ، ولكل
مرزوق إلى حمده سبق . ولكل فهم عنده سوق ، ولكل سهم عنده فوق .
ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عُدْم من جوده إعتاب ، ولكل
مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من إسعافه جواب :

ولكل مستجد إجداء ، ولكل مستهد إهداء . ولكل سائل نائل ، ولكل
ماحل وابل . ولكل ظام رىّ ، ولكل حائم ورد هنى . فما أسح مزنه ،

---

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض وقلما يكون إلا مرتفعا .

(٢) النشاص : السحاب المرتفع بعضه فوق بعض .

وما أصح وزنه ؛ وما أسمح يده ؛ وما أوضح جدده ؛ وما أعلى جده ! ؛
وما أجد علاه . وما أجدى كفه ؛ وما أكفى جداه . ؛ وما أكثر حياءه ؛
وأغزر حياه ؛ وأرج رياه ؛ وأبلج محياه ! .

وممن توفى فى هذه السنة من الملوك ؛ سلطان الروم قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان ؛ وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان .

وكان له عشرة من البنين ؛ فولى كلا منهم إقليما ، وقصد به لمتأد أمر ذلك الجانب تقويما . فقوى كل منهم فى ثغره ، واستقل بأمره . ودب فى طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه إلى ما فى يد صاحبه من البلاد . وكان أكبر بنيه — قطب الدين ملكشاه ؛ قد استحكمت قواه ؛ واستطال هواه ؛ وهو حينئذ متولى سيواس(١) ؛ فأطاع فى التملك على أبيه ملكه الوسواس. وسعى إلى أن أبعدمن عند والده اختيار الدين حسن بن غفراس . وصور له أنه يريد أن يستولى على الملك ، وينفرد بانتهاج المسلك وانتظام السلك .

وساعده صاحب أرزنكان(٢) وأمن اختيارُ الدين إلى المذكور واختاره ، واستأذن السلطان أن يقصد دياره ، ويقيم عنده إلى أن يصلح أمره مع أولاده. ويأذن له فى العود إلى بلاده : فاستصحبه صاحب أرزنكان ، وأوقع عليه فى الطريق التركمان . فقتلوه شر قتلة ، ومثلوا به وبولده أقبح مُثلة .

فلما عرف ملكشاه أن وجه والده خلا ؛ وأنه عن حسن بن غفراس سلا ؛ ساق إليه ، وأخنى عليه . ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحوز حوزته ، وقوى بعزته ، وعز بقوته . وقال لوالده : « أنا بين يديك ، أشفق عليك . وأنفذ أوامرك ، وأوفر مآثرك » . وقتل أمراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لا يشتهيه . فبقى معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو العطل ؛

---

(١) سيواس : بلدة كبيرة مشهورة وبها قلعة صغيرة بينها وبين قيسارية ستون ميلا (النجوم الزاهرة ٦ : ١١٨ ط . دار الكتب) عن تقويم البلدان لابى الفداء اسماعيل .

(٢) ارزنكان : أو أرزنجان ، بلدة كثيرة الخيرات من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم وأكثر أهلها أرمن (ياقوت ج ٢ : ١٥٠ ط . بيروت) .

واستكتبه أنه ولى عهده ، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده . وتصرف فى خزانته وملك أقسرا(١) ، وفرع وفرى ، وقرع وقرا ، وقطع وبرى .

وقد مضى حديث ملك الألمان ؛ فى ذلك الأوان . وكيف وصل وعبر إلى الشام ، وكيف قوى بهم فى وَهنَ الإسلام . واستصحب معه والده إلى قيسارية ؛ لقسر أخيه نور الدين سلطان شاه وحصره ، وأظهر أنه بأمر والده وأنه شاد ظهره . وخرج عسكر البلد وصف ، ووقف وكف .

ورأى قليج أرسلان أن ولده عنه مشغول ؛ وأن عقدحراسته له محلول. فخرج من الصف مفارقاً للولد ، وساق ودخل إلى البلد . فأضافه الولد الآخر وأكرمه ، وبره واحترمه . وانفصل ملكشاه إلى قونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بالسلطنة . وبقى قليج أرسلان يتردد فى بلاده ، وفى ضيافة أولاده . ينتقل من بلد إلى بلد، ومن ولد إلى ولد. وكلهم يضجر منه، ويعرض عنه . حتى حصل عنا ولده غياث الدين كيْخُسْرو(٢) — صاحب برْغُلُو — فقواه وآزره ، وضافره وظاهره . وجمع وحشد له ، وأخذله وما خذله . وجاء به إلى قونية فدخلها . وحلى به عطلها .

وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت ، وتمنعت عليه وتعسرت . واسترغب الأوجية(٣)، وجمع العسكرية . فمرض فجاء به ، وقد توفى ، إلى قونية فى محفة ، ونزل يمشى قدامها ويظهر أنه من المرض الثقيل فى خفة . حتى دخل المدينة وقلعتها ، واجتازها واحتاز مملكتها . واستدعى الأعيان فاستحلفهم ، واستمالهم

---

(١) اقسرا : أوأقصرا ، إحدى مدن بلاد الروم (آسيا الصغرى) .

(٢) غياث الدين كيخسرو : ابن عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش بن أرسلان السلجوقى ، قوى أباه على أخيه ملكشاه وحشد له وملك قونيه ، ثم سار إلى أقصرا ، وملك بعد موت ملكشاه ، ثم قوى عليه أخوه ركن الدين سليمان حتى مات سنة ٦٠٠ هـ، وملك بعده ولده قليج ، فسار إليه كيخسرو ودخل قونية سنة ٦٠٠ هـ وظل صاحب الكلمة حتى قتل سنة ٦٠٧ هـ وخلفه ابنه كيكاوس (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ١١٣ ط . المطبعة الحسينة ١٣٢٥ هـ.) .

(٣) يقصد تركمان الأوج وقد سبق التعريف بهم .

وتألفهم . ثم أظهر لهم وفاة أبيه ، وأنه وارث ملكه ومتوليه ، وقوى على قطب الدين ملكشاه أخيه .

وتوفى فى هذه السنة القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش . كان من أهل الفضل ، والرياسة والنبل . وهو قاضى العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم . والسلطان يعول عليه فى المهام ، وفى الأمور العظام . ويؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولى الولايات والعقود . ولما أخذ شهرزور سلمها إليه ، وعول فيها عليه . وما برح بها حتى أنعم بها على صاحب إربل — مظفر الدين ؛ فعاد القاضى شمس الدين . فأرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد أمرهم إلى سداده . فتردد بينهم سنة ، ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة . وعاد ووصل إلى ملطيّة ، وقد استكمل من عمره لله العطية . وتوفى بها فى شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل إلى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة . والسلطان مقيم بدمشق فى داره ، وممالك الآفاق فى انتظاره ، والأيام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالى مترقبة صباحها لإسفاره . ورسل الأمصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفو جنى جنابه . والضيوف فى فيوض إنعامه عائمون ، وبفروض حقوقه قائمون . والفقراء فى رياض صدقاته راتعون ، وفى كلأ كلاءته راعون وادعون . ودار العدل بالفضل دارة ، وأسرار المنى بالمنائح سارة .

والسلطان يجلس فى كل يوم وليلة لإسداء الجود ، وابداء السعود . وبث المكارم ، وكشف المظالم ، وتنفيذ المراسم ، وإمضاء العزائم ، وتشييد الدعائم ، وتقرير العظائم . والاهتمام بمصالح الإسلام ، ومناجح الأنام . والاغتمام للمسلمين بما يتم فى بلادهم من الخطوب ، ويلم من الكروب .

ولمجالسة العلماء ، ومساجلة الفضلاء ، وموالاة الأولياء ، ومصافاة الأصفياء . وإعداء(١) الملهوف ، وإسداء المعروف . وملّ ملازمة البلد ،

---

(١) أعداء : فعله أعدى ، وأعدى فلانا على فلان ، نصره وأعانه وقواه والمعنى هنا بمعنى إعانة ونصرة وتقوية الملهوف .

وخرج عن حكم الجلد . وبرز إلى الصيد شرقى دمشق بزاد خمسة عشر يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما . واستصحب معه أخاه العادل وأبعدوا فى البرية ، وظهروا عن ضمير (ضُميْر) إلى الجهة الشرقية . وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص .

ثم عاد يوم الإثنين حادى عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافق ذلك عود الحاج الشامى فخرج للتلقّى ، وسعاداته فى الترّقى ولما لقى الحجاج استعبرت عيناه ، كيف فاته من الحج ما تمناه . وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجاورين والفقراء ورواتبها وإداراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج . ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الإسلام ، فتلقاه بالإكرام ، وأنزله فى كنف الاهتمام .

جلس ليلة السبت سادس عشر صفر فى مجلس عادته ، ومجلى سعادته . ونحن عنده فى أتم اغتباط ، وأتم نشاط . حتى مضى من الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحدثه . ثم صلى به وبنا إمامه ، وحان قيامه . وانفصلنا بإحسانه مغتبطين ، وبامتنانه مرتبطين . وأصبحنا يوم السبت وجلسنا فى الإيوان ، ننتظر خروجه لوضع الخوان . فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام . فجاء وتصدر وتربع فى دسته ، وجلس بسِمته وسَمْته . وتطيرنا من تلك الحال ، وتفللنا بحد ذلك الفال .

ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ، ومرضه فى الزيادة . وتوفى بكرة الأربعاء السابع والعشرين ؛ ونقله الله فى دسته العالى إلى أعلى عليين . ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال . وغاضت الأيادى ، وفاضت الأعادى . وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق . وخاب الراجون ، وغاب اللاجون . وخاف الآمن ، وخاب الآمل ، وقنط السائل ، وشحط النائل . وطردت الضيوف ، ونكر المعروف .

ودفن بالقلعة فى داره ، وفجع الزمان بأنواره . وعدمت الأيام صباحها ما ل نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وُجُوده وَجُوده العُدم والعَدَم .

وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضحى ، ولا أجد قلبى من سَقَم الهمّ وسُكره صحّ ولا صحا . وحالت حالى ، وزال إدلالى وزاد بلبالى . وبطل حقى ، واتسع خرقى . وتنازل جاهى ، وتنازق أشباهى ، وأعضلَت أدواء الدواهى . وبقيت المعارف متنكرة ، والمطالع مكفهرة . والعيون شاخصة ، والظلال قالصة ، والأيدى يابسة ، والوجوه عابسة ، وعادت أبكار خواطرى عانسة ، ونجوم قرائحى وشواردها الآنسة خانسة كانسة .

وبقى باب كل مرتجى مُرْتجا ، ومنهج كل معروف مُنهجا . وظُنّ الغنى

عنّى ، وأخلف فى ضنّ الأخلاف بى ظنّى . حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام أبيه ، وقام بالأمر بعزم تأنيه ، وحزم تأتيه ، وعز تأبيه . فعرف افتقاره إلى معرفتى وفقرى ، وإلى عطل الملك ومحْله من غزارة حلب درّى ، ونضارة حلى درّى ..فكتبت له ، وحليت من الملك عطله . ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها . وهززت اليراعة ، وأغزرت البراعة وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

خلف السلطان صلاح الدين – رحمه الله – سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة ، وأبقى له مآثر أثيرة ، ومحاسن كثيرة ، . ولم يخلف فى خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما ، فإنه كان بإخراج ما يدخل من الأموال فى المكرمات والغرامات مغرما . وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الرصول : فإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص الآحا من ذوى الغناء فى الجهاد بآلافه . ولا جبه أحدا بالرد إذا سأله ، بل يلطف له كأنه استمهله . فإنه يقول : « ما عندنا شىء الساعة » – ومفهومه : أنه يعطى وإن كان يبطى ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى .

وكان ولى عهده بالشام – الملك الأفضل نور الدين على ، وأنه كاسمه سام على ، ونور فضله كسمته جلى ، وهو الذى حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته . وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه فى إيلاء لآلاء ، وإدناء الأولياء . وخلع على الأماثل والأمراء ، والأفاضل والعلماء . وكان لباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم فى مسالك الرجاء سلوك . فخابوا رغابوا ، ودهبوا وما آبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من أهله

تولى ولده العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها وأبقاها على اعتدالها ، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتى الجود والباس ، وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة ، وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد وأجاد ، وأبدى الكرم وأعاد . وبسط وقبض ، وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ، ومنح ومنع ، وأبصر وسمع ، وضر ونفع ، وقطع وأقطع ، وأصل وفرع . ووعد وأنجز ، وأوعز بغنى من أعوز ، وبرز وأبرز ، وجاهد وجهز . وعرض الكتائب ، وفرض المواهب .

وأجرى الصدقات ، وتصدق بالجرايات . وأدرّ وأدار ، وأجاز وأجار . وأغنى وأسعد ، وأدنى وأبعد . وقدم أمر بيت الله المقدس ، واعتمد فى اعتماد الأشوس (١) الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية ، لتصرف فى وجوه ضرورية . ثم أمده بالحمل ، وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته ، وقوى يده برعايته . ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس ، وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس فى دار العدل ففصل ووصل ، وأحسن وعدل . وقضى وحكم ، وأمضى وأحكم .

واحضر نواب ديوانه فى إيوانه ، واستعرض منهم قوانين سلطانه . واستقرى الضياع والإقطاع ، وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل إقطاع من أقام بالشام ، وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقى إلا مافى يدى من الضياع ، وصان حقوقى من الضياع . وأمر بتخليده ، وأجد جدى بتجديده . فجاءنى كتابه الكريم بكل كرم مكتوب ، ومحبوّ به من الرفد محبوب.

---

(١) الأشوس : من كان شديدا جريئا فى القتال .

ورعى فىّ عهد الوالد ، وأضاف الطارف عندى من العرف إلى التالد . هذا وأنا غائب ، وبرأيى رائب ، ولسواه كاتب ونائب . وما أحوجنى فى النوال إلى السؤال ، وأغنانى استرساله فى إغنائى عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدى ووسائلى إلى تسيير القصائد والرسائل ، وما أغرب بِدَار فواضله للحلول بدار الأفاضل .

ثم أشفق من غدر الفرنج فى فسخ الهدنة ، فأتى من تجهيز العساكر إلى البيت المقدس بكل ما فى المكنة . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم ، وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا فى أيْمانهم حانثين ولعقد أيمانهم ناكثين . فخيم ببركة الجب (١) ، واستشار أمراءه — أهل الرأى واللب . وجهز جيشا جائشا ، وبعثا لعثار الدولة ناعشا ؛ فى كل مقدم مقدام ، وهمام همام ، وضيْغم ضرغام ، وقرْم قمقام . فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلْمهم ، وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم . فرأى أن الحمد أعود ، والعود أحمد .

وسيأتى ذكر ذلك فى مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من شأنه .

---

(١) بركة الجب : ماء فى ديار بنى جب ، وهى من قرى حلب (ياقوت ج ٥ : ١٠٠ – ١٠١ ط . ب) .

وتولى الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن على – ولد السلطان – دمشق والساحل وما يجرى مع ذلك من البلاد . ونفذت فى البلاد أوامره ، ونفدت فى الرجال ذخائره . ورتب الأمور أجمل ترتيب ، وهذب الشئون أكمل تهذيب . وجلا السرير السلطانى بنوره ، وأسفر صباح الإقبال بإقبال سفوره. وهدى وهدّأ ، وملأ بالبشر المتبلج والنشر المتأرج الملأ . وهذب وأذهب ، ورغب وأرهب . ورتب وربت ، وأصلى وأصلت . وأثر وأرث ، ولمّ الشعث . وأبهى وأبهج ، وأجد المنهج المُنْهج، ورجح ونجح ، ومنّ ومنح .

وأرسى وأرسخ ، وبذّ وبذخ . ووعد وأوعد ، وجدد الجدد . وأذاع بحميته سر حمايته وأعاذ ، ووجد الملاذّ من وجد منه الملاذ . وأمرَ وأمرّ ، ونصر ونظر ، وعز وأعز ، وحاز وحز . وساس وراس ، وملك الباس والناس . وأشاع البر وأعاش ، وأشبع الجياع وروى العطاش . واستخلص ذوى الاختصاص ، واختص أهل الإخلاص ، ونهض واستنهض وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط ، وأحاط علمه وحاط . وحفظ أولى الحفائظ ، ولاحظ العرف وعرف أنه لاحظ لغير اللاحظ . وصنع واصطنع ، وأبدى وأبدع . ومد الظل وأسبغ ، وسوى الفضل وسوغ . وأهمى العوارف ، وأمهى الرواعف . وحقق الحقوق ، ورتق الفتوق . وضم الملك ، ونظم السلك .

وجلس فى دار العدل ، وأتى بالحكم الفصل . وحزم وجزم ، وعزم والتزم . وزاد وزان ، وأغاث وأعان . وأبر أرباب الهوى ، وأمر من أرباب التقوى القوى . وحمى النابه ، ومحا المكاره . وفاض بغزارة العطايا ، واستفاض بطهارة السجايا . وآوى إليه إخوته ، وضم جماعته . وجهز أخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا ، وأصحبه عسكرا مجرا . وأنهضه لإنجاد عمه الملك العادل ، فأنار فى فضاء الفضائل ، وسار بجحفله إلى

الجحفل الحافل . فالتزم الشروع ، وهزم الجموع . وقارع القروم ، وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر(١) والرحبة وبعلبك وما يجرى معها فى المملكة الأفضلية داخلة ، وأمداد طاعات الولاة والأولياء بها متواصلة . وصاحب حمص والرحبة — الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان ، وهو أثير الشان ، أثيل المكان . فوصل إلى دمشق مطيعا ، ولسر صدقه ونشر صداقته مذيعا مشيعا ، فأحلى له الملك الأفضل جنى شهيا ، وأحله جنابا وسيعا . وعقد له حبا الحب ، وحباه بكل ما سفر عن سفور مودة القلب ، ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه ابن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب طائعا ، وللأمر الأفضلي تابعا . فأدناه وأجناه ، وأحبه وحباه ، وأسناه وأسماه ، وآواه وآساه . فتأكدت بينهم القرابة المتشجة ، وتشبكت اللحمة المنتسجة ، وتمهدت الآصرة الممتزجة ، وتفتحت أبواب الألفة المرتتجة . وتوافوا على التوافق ، وتصادقوا على التصادق . وتعاضدوا على الأخذ بالتساعد ، وتعاقدوا على ترك التقاعد .

(١) المناظر : موضع فى البرية الشامية قرب عرض وقرب هيت (ياقوت ج ١٨ : ٢٠٣).

وتولى حلب وأعمالها، وحصونها ومعاقلها ؛ وكرائم البلاد وعقائلها ؛ الملك الظاهر غياث الدين أبوالفتح غازى . وهو برجاحته وسماحته للطود والجود الموازن الموازى . وتلك مملكة أقطارها واسعة ، وأنصارها شاسعة . فحواها وحماها ، وبماء العدل رواها وقواها ، وأعز رجال الرجاء ، وهز أعطاف العطاء . ورحب لورّاده وروّاده رحابه ، وسحب بحيا الأحباء سحابه . وأبرت مبراته، وأثرت مأثراته ، وسح وصح غيثه وغياثه ، ورعى رعيته فشبعت ورويت ظماؤه وغراثه(١) . وزخرت أمواجه ، وزهرت بثواقب المناقب أبراجه . وصابت سماء سماحه ، وطابت صبا صباحه ؛

وعزت بسيرته كتب التواريخ، وعزى قلمه وسيفه إلى عطارد والمريخ. وسعدت وفوده ، ووفدت سعوده . وأثر من أمره النفاذ ، وكثر بظله اللياذ . وأدنى الأبرار ، وأقصى الأشرار . وخص الأعزة الخواص بالإعزاز وأوعز بما يعود به إلى نضارة الغنى العود الذى ذوى لذوى الإعواز . وتمهد لسلطانه الأساس ، واطرد لإحسانه القياس . ووجد من عثر من أيد يده الانتعاش ، وعشا إلى جدواه المجتدى وعاش . وفرض الفرص ، ورفض الرخص . وأدى الفروض ، وقضى القروض . واستدنى من المناجح شاحطها(٢)، واستدرك من المصالح فارطها . وملك خلائق التحفظ ، وسلك طرق التيقظ .

وفرق وجمع ، وخرق ورقع . وغلب وبلغ ، ودمر أهل الكفر والنفاق ودمغ . وشفى واشتفى ، وكفى واكتفى ، وراع وراق ، وفات وفاق . وطلب وأدرك ، وأخذ وترك . وفاض بالفضل ، وراض بالعدل .

---

(١) غراثه : جوعه .

(٢) شاحطها : بعيدها .

وقدم الحزم ، وصمم العزم . وأحيا السنن ، وأولى المنن . ولها بالجد عن اللهو ، وانتهى بالعدو إلى اليأس المر ؛ وبالولى إلى النائل الحلو . وأمر ونهى ، وأوهن معاقد ذوى المكايد وأوهى . ووفى للوفى ، وصفا للصفى . وأقر البيرة وأعمالها ، وما يجرى معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود ، ولم يزل مقبولا أمره غير مردود . ودخل فى أمره صاحب حماه ؛ وأعزه وحماه – وهو ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين . واتسع الملك ، واتسق السلك . وكاتب الجوانب وراسل ، وفارق من رأى وواصل ، وطال باعه ، وأطاع أشياعه . وهمت همته بالزيادة ، وسمت لسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب أخى السلطان
وما جرى له بعد وفاة أخيه

كان الملك العادل مع السلطان فى الصيد قبل وفاته ، وكان موافقه ومرافقه فى مقتنصاته . فلما عاد السلطان إلى دمشق ودعه ومضى إلى حصنه بالكرك للاستراحة ، غير مطلع على سر الغيب فى الأقضية المتاحة . فنابه النائب ، ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب . فلما عرف وصل إلى دمشق بعد أيام ، ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام ، ولم يَرم ثلاثا ، ولم يرُم لباثا . ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة ، حذرا عليها من أهل الجريرة .

وكان السلطان جعل له كل ما فى شرق الفرات من البلاد والولايات . ومضى كما ومض بارق ، وتخوف أن يطرق بلده طارق . فلما وصل إلى الفرات ؛ وجد مما خافه دلائل الفترات . فأقام بقلعة جعبر ، ولم يحشد ولم يستحضر العسكر ؛ رغبة فى السلم والسلامة ، ومحبة للدعة المستدامة . وسير إلى الولايات الولاة ، ووصى برعاياه الرعاة .

واستناب فى ميافارقين وحانى وسميساط وحران والرها ، وشحنها بالشحن واستقام أمرها . وحسب أن الأعداء إذا سمعوا بسمعه ، جمعوا لجمعه ، وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت ، وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه فى خيف فخفوا ، وعرضوا وصفوا . وما كفاهم ما هم فيه فهموا وما كفوا . وسافوا تراب الطمع وأسفّوا ، فجرت حركتهم هلكتهم ، وأذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر أهل الشمات وما قدر الله لجمعهم من الشتات

كان الأمير بكتمر صاحب خلاط ، قد هجر الاحتياط ، ووصل النشاط . وضرب البشائر لرزءصلاح الدين ، وظهر فى النوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر، وحدث أمله بجر العساكر . وراسل صاحبى الموصل وسنجار ، وطير إليهم كتب الاستنفار . وضم إليه من ماردين ماردَيْن . وطار وطاش ، وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الأوشاب والأوباش .

فبينا هو فى أتم غرور ؛ وأتم سرور ؛ وأحب حبور ؛ وأشب سفور ؛ وأرقد عين ، وأركد عين ؛ وأغفل قلب ؛ وأذهل لب ؛ وأطول أمل فى أقصر أمد ؛ وأكثر مدد فى أقل مُدد ؛ وقد خرج من الحمّام ؛ ولم يدر أنه داخل إلى مغتسل الحِمام ، استشهد على أيدى الإسماعيلية . ولعل الله غفر له ونقله بشهادته إلى جنته العليه . وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وكأن أيامه كانت أحلاما رئيت فى السنة .

وأول بادىء بالخروج متولى ماردين — فإنه مرد ، وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر بالعزم المُزْور والجد المزوَّر . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين كان أهله عليه ماردين . فلما صالحهم استبقاه واستثناه ، وأضافه إلى نائبه بالرها وأعطاه . ثم تحرك عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكى — صاحب الموصل ، وخرج فى الجحفل الحفِل وأضافه أخوه عماد الدين زنكى بنصيبين ، وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين .

وقدموا الرسل إلى الملك العادل سيف الدين ، وقالوا : « تخرج من بلادنا ، وتدخل فى مرادنا » فكتب إلى بنى أخيه يستنجدهم ويستنفرهم ، ويستصرخهم ويستنصرهم . فأنجدوه بالأمداد ، وأمدوه بالأنجاد . فجاءوه من

كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان إنجاد حلب أقرب ، ولدرّ الإسعاف أحلب .

ولما عرف الملك الأفضل اغتم واهتم ، وجمع عسكره وضم ، وخص وعم . وكتب إلى صاحبي حمص وبعلبك ، واستدعى عسكرهما الترك . فسار أخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر ، وروض عسكره بورق الحديد الأخضر نَضِر ، والملك العادل لقدومه منتظر . وأما المواصلة فإنهم ما أسرعوا بل أبطأوا ، وما أصابوا بل أخطأوا . وسمعوا أن الأمداد العادلية الوافية متوافية ، وأن فئته كافة كافية مكافية . فتجنبوا وتجبنوا ، وكانوا قد وصلوا إلى رأس عين فأقاموا وسكنوا .

والملك العادل مخيم بظاهر حران فى جموعه وجنوده ، وأعلامه وبنوده ، ومساعديه وسعوده . وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم . وجده غالب ، وحده سالب ، وجده لظباء النصر حالب ، ولطيب الذكر جالب . وسيف سيف الدين باتر واتر ، ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر .

وتقارب العسكران حتى أن الطلائع تتواجه وتتجابه ، ورجال اليزك تتناجى وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ؛ وسر تدره المكتوم ؛ تفليل غروب القوم وتقليلهم ، وحار تأملهم وخار تأميلهم ،وجفل رألهم(١) ورتع رعيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض أتابك صاحب الموصل ، ولم يطق الإقامة بالمنزل . وأشفى على الخطر ، وأشرف صفو حياته على الكدر. فعاد إلى الموصل فى محفة ، ورجا أن يتبدل ما ألم به من ثقل ألم بخفه .

وقهقر عماد الدين راجعا ، ولمن وثق به من أشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماردين وتذرع ، وتشفع بالأمراء والأكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا ، وصفح له عما مضى . وأجرى على القاعدة السلطانية معه ،

---

(١) رألهم : الرأل ، ولد النعام .

وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وما وسعه . ورأى عماد الدين أن القوم خانوا واستكانوا ، وما رعوا له العهد كما كانوا . فاضطر إلى الانكفاء ، وكف عن اللقاء ، فخلا الجو ، وجلا الضو ، وعلا النو .

وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن أخيه الملك الظافر إلى الفرات ، فى عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج (١) وهى من أعمال عماد الدين ، وأمده بابن تقى الدين ، وابن المقدم عز الدين — ليث العرين. فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الأحد تاسعه ، واستولوا على البلد وأماكنه ومواضعه .

ورحل الملك العادل منتصف رجب إلى الرقة وتسلمها فى العشرين منه ، وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ما ذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد الخابور (٢) جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء إلى نصيبين ونزل بظاهرها ، وشرع فى ضم ذخائرها . فجاءت الرسل العمادية فى طلب الصلح ، وأسفر ليل الحرب بسنى السلم عن الصبح . ورحل ونزل (دارا) وكان صاحبه دار مع القوم وما دارى . فبُسط عذره ، وقبض ذعره ، وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده من بعده ؛ إلى نور الدين أرسلان شاه ولده . وجرى بينه وبينهم صلح ، وكان له فى كل سفرة تجارة وربح .

وكتب إلينا أن أهل خلاط كاتبوه ، وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وأن كل صاحب حصن قد ضبط موضعه ، وانتظر مطلعه . فإنه تولاهم

---

(١) سروج : بلدة قريبة من حران ، وهى من ديار مضر بشمال الجزيرة (ياقوت ج ١٠ : ٢١٦ — ٢١٧ ط . ب) .

(٢) الخابور : ولاية واسعة وبلدان كثيرة ، غلب عليها اسم النهر الذى يجرى بها بين رأس عين والفرات (ياقوت ج ٧ : ٣٣٤ — ٣٣٥ ط . ب) .

بعد بكتمر المعروف بالهزار ديناری (١) . فلم يرضوا بإيالته لخلاط ؛ ولم يروه كفوا لتلك الهدى . ثم أشرف العادل على خلاط ، فوجد أهلها قد كملوا الاحتياط . ورأى أن البرد يشتد ، وأمد الحصر يمتد . فعاد إلى حران والرها ، وأعرض عن مخالطة خلاط ؛ وتأخر إلى الربيع أمرها .

(١) الهزار ديناری : هو بدر الدين آقسنقر ، أصله مملوك قد جلبه تاجر أرمنى فاشتراه « شاهر من سكمان بن ابراهيم » ملك خلاط وجعله ساقيه . ثم لما جاء سيف الدين بكتمر بن عبد الله سلطانا على خلاط أبقاه ، وجعله خشداشه ، وكان بكتمر قد زوجه ابنته فطمع فى الملك ووضع على بكتمر من قتله سنة ٥٨٩ هـ ، توفى سنة ٥٩٤ هـ (تاريخ أبو الفداء ج ٣ : ٨٨ و ٩٤ ط المطبعة الحسينية ، ١٣٢٢ هـ) .

فصل فى المعنى

أنشأته إلى الديوان العزيز فى آخر رجب عن الملك الأفضل

لا شك فى إحاطة العلم الأشرف بحال الذين حالوا عن الاتصاف بالإنصاف ، ومردوا ومروا أخلاف الخلاف ، وعادوا عن خلق التلاقى إلى الإتلاف ، وبددوا بالانتظام فى سلك الغدر شمل الائتلاف . ونكثوا بعد أيمانهم ، حتى قيل كفروا بعد إيمانهم . وباءوا فى بغيهم بغيّهم ، وأبدوا قوتّهم فى وهيهم . وزعموا أنهم إذا عزموا نالوا فرصة ، ووجدوا إذا جدوا فى العزيمة رخصة . وجاءوا إلى البلاد التى للخدم من إنعام أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — ليتملكوها ، واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها . واغترّوا باعتزازهم واعتزّوا باغترارهم ، وأصيبوا إذ لم يصيبوا ببصائرهم وأبصارهم ، ودخلوا فى دائرة السوء وخرجوا من ديارهم .

واجتمع صاحب الموصل وأخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحسدوا وحشدوا ، وما الظن بشر الحاسدين الحاشدين ! ووعدهم الشيطان وأحزابه فصدقوا كذب الواعدين . وكان العم الملك العادل سيف الدين قد توجه إلى تلك البلاد ؛ لإبقاء أمورها على السداد ؛ واثقا منهم بالمواثيق ؛ محتفلا بالوفاق الحافل الأفاويق . وهو فى خواصه وذوى استخلاصه ، لم ينتظم عسكره ، ولم ينضم إليه معشره ، ولم يصف لدفع الشوائب وردع النوائب مورده ومصدره .

فلما عُرف نكرهم ؛ وعلم فى مكرّهم مكرَهم ؛ توافت إليه الجموع ، وحَنت على قلبه الضلوع ، وحنّت إلى أصله الفروع . وتوافد إليه بنو أخيه فى الجنود ، وتوافوا نجدة ساعدت بالسعود . وأمد الأخ الملك الظاهر من

حلب بالأمداد المتظاهرة ، والأنصار المتناصرة . وندب الخادم أخاه الظافر خضرا وأنهضه ، وسار معه عسكره الذى بدمشق عرضه .

وسمع الأخ الملك العزيز خبر القوم، وأنهم من حول ورد الردى على الحوم ؛ فأخرج المضارب وأبرزها ، وأنفق فى العساكر وجهزها ، وذكر عدة النجدة فانجزها ، واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها ، وأقبل على ذخيرة الفضيلة فأحرزها . وتحركت السواكن ، وثارت الكوامن . وهاجت الأقطار وماجت البحار ، وشابت الأكدار ، وأصابت الأقدار . وأظهر الله قبل الاجتماع معجز آياته فى أهل الشمات ، وخص جمعهم بالشتات ، وحيلهم بالبتات ، وحص من تلك الثُبات أجنحة الثَبات . وشغل كلا منهم بوَباله وباله ، وحطه من يفاع اعتلائه إلى حضيض اعتلاله .

وأعادهم على أعقابهم ناكصين ، وبعُقابهم ناكسين ، وفى آرائهم وآرابهم ناقصين . وأظهر الله فى كل واحد من أعداد الأعداء آية للعادة خارقة ، وقدرة لإقدار الأولياء للسعادة خالقة . وقتلهم وما قاتلوا ، وقابلهم وما قابلوا . وغادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتفكرين .

وعلم صاحب ماردين أنه أخطأ وما أصاب ، فأبان عن ندمه وأناب . وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالأمراء فى أمره وتذرع . فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عادية الخسر عادة الربح ، وأجرى على القاعدة المستقرة له فى عهد الوالد رحمة الله عليه ، فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا إليه .

وكان الأخ الملك الظافر خضر قد وصل إلى الفرات ، حين حكم الله لجموع أولئك بالشتات . فعبر إلى سروج يوم السبت ثامن رجب ، وقلب العدو من الفتح الذى وجبَ وجبّ . وفتحها يوم الأحد ضحوة ، وجاءت هذه المنحة من الله حظوة . ورحل الملك العادل بالعساكر إلى الرقة ، لاسترجاع وديعتها المستحقة .

وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة ، وبيُمْن الائتمار بأوامرها ، وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . وما السعادة إلا لمن شملته سعودها ، وما الجد إلا لمن وصله جودها ، وما الكرامة إلا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها ، وما العصمة إلا لمن لزمت فى حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الإسلام باليمن

وإقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الإسلام طُغْتكين بن أيوب أخى السلطان . وهو هناك سلطان عظيم الشان ، مستول على جميع البلدان ، مختص فى مكانه بالإمكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام ، فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه إلى أخيه ، وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الإسلام بغمه ، وهم فى كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب بانشائى عن الملك الأفضل يشتمل على شرح ما ألم ، وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو : « صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم ، والخطب الجسيم ، والرزء العميم ، والحادث الأليم ، والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت ، والمصاب الساحت (١). والفجيعة الفاجية ، والنكبة الناكية ، والطارقة الطارية ، والملمة المؤلمة والبلية البارية . والواقعة الرائعة ، والصدمة الصادعة ، والحدمة (٢) اللافحة ، والروعة الفادحة . والغمة التى غامت بها الأيام ، وغم لها الأنام ، واعتل منها الإسلام ، واختل النظام . فقد عدمت المطالع ضياءها ، والمشارع صفاءها ، والثغور سدادها ، والأمور سَدادها ، والعيون قرتها والنفوس قرارها ، والقلوب ثباتها ؛ والجفون غرارها ، والأيدى أيدها ؛ والوجوه سفورها ، والصدور انشراحها ؛ والأسرار سرورها .

فقد فقدت الدنيا بهجتها ، وضلت العلياء محجتها . واهتدى الضلال إلى الهدى ، وأقوى نادى الندى . وأقفرت مغانى الغنى ، واكفهرت مجالى السنى ، وأمرّت مجانى المنى . وخفيت مناهج المناجح ، وعطلت مناهل المنائح . وعميت مذاهب المواهب ، وأظلمت مطالع المطالب ، وارتجت أبواب الفتوح ، ودجت أضواء الوضوح . ودرست معالم المعالى ، وطمست

(١) الساحت : فعله سحت . فيقال سحت الشحم عن اللحم بمعنى قشر .

(٢) الحدمة : صوت التهاب النار .

زواهر الليالى . واضطربت الدهماء ، واضطرمت الدهياء . وبطلت مواسم الحق ، وابهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهاد ، وتفجعت ممالك البلاد . وأخلفت عدات الإعداء على الأعداء،وانكسفت أنوار آمال الأولياء.

وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم ، وأظهوره من سر قدره المكتوم. بمصاب مولانا الملك الناصر – روّح الله روحه ، وروض فى جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه . فقد عظم الخطب وجل ، وحل عرا الجلد حين حل ، وثلم غرب الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع ، وأزكى كرب الضلوع . وبت حبل اللاجين ، وشت شمل الراجين .

وأعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث ، وحباؤها غثاث ، وعقودها أنكاث ، وسهولها أوعاث ، وقصورها أجداث ، وسرورها غرور ومواهبها أحداث . وسكونها قلق ، وأمنها فرق . وصحتها سقم ، وأملها ألم ، وغبطتها ندم ، ووجودها عدم . وبقاؤها فناء ، ونعيمها بلاء ، وراحتها عناء . ومُلْكها هُلْك ، وسترها هتك ، وأخذها ترك ، وسلمها حرب وصلحها فتك . ووفاؤها غدر ، ووفاقها مكر ، وعرفها نكر ، ووصلها هجر ، وخيرها شر ، ونفعها ضر ، وجبرها كسر . ومتاعها قليل ، وباعها فى التطاول طويل ، وما لعثارها مقيل ، ولا فى ظلها مَقيل . ولا أرب فيها لأريب ، ولا إلباب فيها للبيب .

فإن ظلها قالص ، وفضلها ناقص . وعمرها قصير ، وغنيها فقير . وريها جرع ، وزيها خدع . وحليها عطل ، وسعيها زلل . وإجداؤها إجداب ، وإعطاؤها إعطاب . وإصباحها إظلام ، وإرغابها إرغام . وسماحتها بخل ، وسجاحتها ختل . وعقدها مفسوخ ، وعهدها منسوخ . وربحها خسار ، وجرحها جُبار ، ويسارها إعسار . وخصبها إمحال ، وحبها محال . وعمارتها شعث ، وشيمتها(١) عيث وعبث . وترابها تراث ، ولا لمسكنها أساس ولا لساكنها أثاث . ولأكيدها فى كيدها يد ، ولا لمكرها فى جد مكرها جدد .

---

(١) عيث : إفساد .

والسعيد من استعد فى معاشه للمعاد ، واستكثر مدة مقامه فى الدنيا لسفر الآخرة من الأزواد . ومن نظر إليها بعين القلى ، وعرف أنها دار البلاء والبلى ، وتقوّى فيها بالتقْوى ؛ وجد فى الإعراض عن جدواها للفوز يوم العرض بالجدوى .

ولقد كان السلطان السعيد –قدس الله روحه – بحقيقتهاعارفا،ولطريقتها عازفا،ولزخرفها عائفا،ومن ملكها آنفا،وعن مالها متعففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين،وخصه الله بتأييده فى علم اليقين . واقتدى بسنة النبى – صلوات الله عليه – فما زاغ بصره وماطغى ، (ونَهَى النفسَ عن الهوى، فإن الجنة هى المأوَى(١)) . ووقف بحياته على إحياء معالم الهدى ، والإعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد ، وإشاعة سنن العدل والإحسان فى البلاد والعباد . وإفاضة سجال الفضل والأفضال ، حتّى كفل جوده بفيض الأرزاق ووفى بنجح الآمال :

وأخلص لله عمله ، ولا ملك ملكا ولا تمول مالا إلا فى سبيل الله أنفقه وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من كان لله كان الله له) ، فلا جرم أذل الله له الملوك الأعزة ، ووهب لأعطاف الدولة للتباهى بملكه الهزة . وملكه الأقاليم والأمصار ، وأجرى بإقداره الأقدار ، فأزال عن مشارع الشريعة الأكدار . وعطل البدعة بمصر واليمن والشام ، وقمع أعداء الإسلام .

ومد الله فى عمره حتّى بلغ المراد ، وفتح البلاد ، ووفى فى حق الجهاد ؛ الجد والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك ، ونهج فى نصرة الدين نهجا أعوز مَنْ قبله فيه السلوك . وأخرج الفرنج عن الساحل وأبادها، وملك عليها ديارها وبلادها . وأوهى على الكفرة معاقد معاقلها ، وطال بحقه على باطلها .

وأقصى عن المسجد الأقصى مدنسيه ، وأزال عنه أيدى غاصبيه . وأصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الأرجاس ، وأبعد عنها أجناس

---

(١) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة عبس .

الأنجاس . وقهر الكفر وخذله ، ونصر الإيمان وأخذ له ، وأحيا للكرم كل سنة حسنة ؛

واستمرت محاسن أيامه سنة بعد سنة . وتعدلت بعدله الجوانح ، وتذللت بيأسه الجوامح . ودانت ودنت له الممالك القاصية ، وأذعنت إذ عنت لحكمه الأمانى العاصية . وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته ، وعمّت الخواص والعوام عارفته وعاطفته . ونفذت فى الشرق والغرب مراسمه،وقامت بالحمد والشكر مواسمه ، ووفت بأمل الدانى والقاصى ، والطائع والعاصى مكارمه .

وأسعده الله وأمهله ، حتّى حقق فى ذويه أمله ، وولى فى كل إقليم من يعمل لله فى العدل والإحسان عمله . ثم توفاه حميد الأثر ، كريم الورد والصدر ، ظافر الرجاء رائج الظفر . صالح العمل ، ناجح الأمل . طاهر الفطرة ، ظاهر النصرة . كاسيا من الفخار ، عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب ، مرتويا من صوب الصواب . مبتهجا بنضرة النعيم ، متأرجا بعرف نسيم التسنيم .

وما كان أبهج الأيام بأيامنه ، والأعصار بمزاينه ، والأمصار بمحاسنه : والإسلام بسلطانه،والآفاق بسنى إحسانه . وما كان أسعدنا بجدوده ، وأجدنا بسعوده ، وأغنانا بعدله وجوده . فقد فُقد الصباح فلا سنى ، ودفن السماح فلا جدى ولا جنى ، وغاض البحر فلا غنى . وهوى (١) الطود فلا ثبات ، وذوى الروض فلا نبات . ووهى الركن فلا سند ، وانتهى اليُمن فلا جدد وغلب الكمد فلا جلد ، وعز العزاء فلا عزو لا قوة ولا عضد .

(إنّا لله وإنّا إليه راجعون(٢)) ، ولأمره تابعون ، ولحكمه طائعون . لاراد لإرادته ، ولا صاد لمشيئته . ولا صادف لمصادف قضائه ، ولا صارف لصرف بلائه . ولقد كادت الأنوار تغرب ، والأنواء تعزب . والمنابع تغور ، والصنائع تبور . والأحوال تحول ، والأهوال تهول : وأضواء المعارف

(١) فى ب هو والتصحيح من ل .

(٢) الآية ١٥٦ سورة البقرة .

لا تضيء ، وأفياء العواطف لا تنيء . وزهر السماء لا تشرق ، وأزهار الروض لا تونق . ومعاقد الإسلام تهى ، وميامن الايام تنتهى . لولا أن الله تدارك الارماق بألطافه ، وتلافى الآمال بإسعافه ، وجلا وجه النعمى من خلال البوس ، وأهدى البشر بعد العبوس ، وأنزل السكينة عند الزلزال على النفوس .

وأجرى الدولة على أحسن العوائد ، وأرشد المقاصد ، وأثبت القواعد . من استمرارها على الالتئام ، واستقرارها فى النظام . واستدرارها بأفاويق الوفاق ، وإهلال بدورها غب المحاق ، وطلوع شموسها من الآفاق . وارتفاع فروعها فى سماء السمو ، وامتداد أصولها فى منابت النمو ، وانفتاح أحداقها النواظر عن نور الأبصار ، وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الأزهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت ، وانتظمت الألفة المتبددة وتأكدت ، وسكنت القلوب الراجفة وأنست ، وسكتت الألسنة المرجفة وخرست . وأنارت الخواطر المظلمة ، وأفاقت الظنون الراجمة والأفكار المتقسمة . وزاد الرونق ، وزال الرنق ، وانجلى الغسق ، وتجلى الفلق . واستقامت الأمور ، واستنامت إلى حفظها الثغور .

ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب ، بكل ما أنجح الأرب ، ووصل السبب ، ومرى در النصر وحلب . وبكل ما أظهر القوة وقوى الظهر ، وشد الأزر ، وأمرّ الأمر ، وسرّ السر ،ونصر الحق وحقق النصر . من الموافقة والموافاة ، والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة والمتابعة والمشايعة فى كل أمر يبرم ، وكل حكم يحكم ، وكل عزم فى قمع العدا يصمم ، وكل عقد فى نصر الهدى يلزم ويتمم .

ووصل المولى الملك العادل فتولى أمر المملوك بكل ما وافق إيثاره ، وأشاع على عادة الوالد — رحمه الله تعالى — شعاره ، ورفع مناره ، وأخلى من كل شاغل باله،ورفه أسراره ، وأراح أفكاره . وما فى الجماعة إلا من خطب الجمعية وخطب فى الجمع ، وأعرض عن الهوى للحق المتبع .

فالكلمة متحدة وإن كانت الأنفس متعددة ، وما أخلقت هذه الدولة

بل استمرت على تجدد الأيام متجددة . وإنما أشفقت فى حال الصدمة الأولى ؛ وبدء الرزية الطولى ؛ على بيت الله المقدس ، ومن غدر الفرنج بقصدها ، فإن الغدر شيمة لهم فى الأنفس . فوقى الله شرهم ، ودفع مكرهم ، وأوهى أمرهم . ولم يزل من قلوبهم الرعب ، ولم يؤثروا على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بإبقاء السلم ، وخطبوا إجراءهم فى الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم شملت ، ووصاياه نفذت وكملت .

وتوجه الملك العادل إلى بلاده الجزرية شرقى الفرات ، لإصلاح تلك الولايات ، وإحراس شقاشق الهادرين بالإرجاف من أهل الشمات ، ليؤذن بهيبة الأسد جمعُ النقاد بالشتات . وليعيد إلى الأنس شارد الولى الراشد، ويبرد بالبأس مكايد الحاسد الحاشد .

والحمد لله الذى أجد الأمن وقد عرت المخافة ، وأنزل الرأفة وقد فجأت الآفة . وأبقى الإسلام بعزه والكفر بذله ، وثبت قواعد الملك الناصرى بجمع شمل أهله، وأحيا بهم سنن إحسانه وعدله ، وشيمى أفضاله وفضله . وفى دوام إقبال المجلس السامى دوام إقبالهم ، ونظام أحوالهم ، وسبوغ ظلالهم ، وبلوغ آمالهم .

ذكر ما افترضه الملك الأفضل من خدمة دار الخلافة المعظمة وإنفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

لما استقر الملك الأفضل بدمشق فى مقام والده ؛ وشفع طارف ملكه بتالده ؛ وأضاف موروث الفضل إلى مكتسبه ؛ وأكرم نسبه بكرم حسبه ؛ بدأ بالأهم الأفرض ، والأتم الأمحض . فقدم إلى الديوان العزيز النبوى نجابين بالكتب ، وأنهى الحال فيما ألم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهرزورى فى الرسالة ، إلى منزل الرسالة وموقف الجلالة : وأصحبه عدة والده فى الغزاة ، أوان لقاء العداة ، وسيفه ودرعه وحصانه ، وأضاف إلى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ؛ ما استنفد وسعه وإمكانه .

فما تهيأ مسير الرسول إلا فى أواخر جمادى الآخرة ، حتى حصل كل ما أراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب وأعلم بمسير رسوله ، حتى لا يظن أنه انفرد بسوله . وقصد مداراة إخوته ، وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد أن جدد نقش الدينار والدرهم بسمى أمير المومنين ،وولى العهد عدة الدين . وأمرنى بإنشاء الكتب وتحريرها ، وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

فصل من الكتاب إلى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء ، وقلبه معمور بالصفاء ، ويده مرفوعة إلى السماء للابتهال بالدعاء ، ولسانه ناطق بشكر النعماء ، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء ، وطرفه مغض من الحياء ، ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء ، وهمته فى العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للأرض مقبل ، وللفرض متقبل ، وبالطاعة ماثل ، وللاستطاعة باذل .

وللجهد والإخلاص عارض ضارع ، وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع . وهو يمتّ بما قدمه من الموات ، وأسلفه من الخدمات ، وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات ، واتخذه عصمة من النائبات ، وعوذة من الطارقات ، وعدة عند الملمات ، وعمدة لدى الخطوب الكارثات ، ومصرفا لصروف الحادثات ، ومؤلفا (١) للشمل عند شمول الشتات ، وعروة للاعتصام بها فى أزمن الأزمات ،وسلوة من الأسى وأسوا لجراح المصيبات .

ولا خفاء بما أخافه ، وفاض له من بحر البرح وضافه ، وأغاض نطافه ، وعاق أوان رجاء جنى النجاح قطافه ، لولا أن الله تداركه بفضله وأولاه ألطافه . فإنه دهمه ما هدمه ، وفجأه ما فجعه ، وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه ما رابه ، وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة ، ومحا عن صفحة صبحه آية الإياه (٢) وألم بألم الأمل ، وأحال الحلى إلى العطل ، وحلأ عن النهل والعلل . وأذهب بهجة الأيام ، وأشمت الكفر بالإسلام . وسر الشرك منه ماساء التوحيد ، وقرب من إشفاق القلوب وإشفاء الكروب البعيد ، وعطل الجهاد وأراح الحديد .

---

(١) فى ل مألفا والمذكور من ب وهو أنسب للسياق .

(٢) الاياه : للشمس نورها وحسنها .

وشب حقود العداة على أنها ما شبت إلا لتخمد ، وشام (١) حدود العتاة على أنها ما شيمت إلا لتغمد . وهذا الحادث أرجف المرجفون بحديثه وأثاروا كوامن الثار ، وحركوا سواكن الأوتار بتأثيره وتأريثه . وأخرج أهل النفاق رءوسهم من كل نفق ، وعاد ثبات ثباتهم إلى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى ، مستلئما من عدد أيامها ومدد إنعامها بالدرع الأتوى الأوق ، فإنه لا يحتفل بحفول أخلاق أهل الخلاف ، ولا يتحلحل طود حجاه الرامى وحصاه الراسخ لعواصف ذوى الإجحاف (٢) .

وقد أحاطت العلوم الشريفة — مجدها الله — بأن الوالد السعيد ، الشديد السديد ؛ المبير للشرك المبيد ، لم يزل أيام حياته ، وإلى ساعة وفاته ؛ مستقيما على جدد الجد ، مستنيما فى صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد . مستنفدا فى كل ما يحوز به المراضى الشريفة وسعه ، مستفرغا طاقته فى الشغل الدينى الذى يهدى بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفتنة الفئة العادية . وكم فرض سنة أعلت سناها للمجتلين ، وأحات جناها للمجتدين الدعوة الهادية .

ولكم أخرس دعاة الأدعياء ، وحرس ولايات الأولياء . وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم أقاليد ، ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان فى الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد . وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب ، وأقام بها منار الإسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها أنابيب . وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير ، وأنجدها بضوامره ضوامر الظفر بمضامير .

وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع ، وعقوده تروق فى سلك الملك وتروع . ومصر بل الأمصار باجتهاده فى الجهاد شاهدة ، والأنجاد والأغوار فى نظر عزمه واحدة . والبيت المقدس من فتوحاته ، والملك

(١) شام : تطلع ببصره .

(٢) فى ب الاجحاف والتصحيح من ل .

العقيم من نتائج عزماته ، وتوفره على العبودية لمالك رقه سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته ، وكل ذلك فى طاعته ومناصحته وبركاته .

وما زال ظاهرا على العدا ، ناصرا للهدى ، معليا معالم العلى ، محييا مواسم التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضه ، مديما بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه . وهو الذى ملك ملوك الشرك وغل أعناقها ، وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلبان وقصم أصلابها ، وجمع كلمة الإيمان وعصم جنابها ، ونظم أسبابها . وسد الثغور ، وسدد الأمور . وأذل للدار العزيزة كل عدو ، وأخذ لها على يد كل ذى عتو ، واستمرت على الأيام مساعيه فى الخدمة ناجحة ، ومعانيه على موازين الموازين راجحة . وسيرته حسنة وحسناته سائرة ، ومحاسنه ظاهرة ، وسريرته طاهرة .

وختم الله له بالسعادة ، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة ، وقضى وقد قضى من آرائه آرابه ، وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محوط ، ووزره محطوط ، وعمله بالصلاح منوط ، وأمله بالنجاح مشروط ، وملكه بحفظ الله وكلاءته مضبوط . والمذاهب مهذبة ، والمراتب مرتبة ، والأسباب محكمة والأحكام مسببة . والأحوال حالية ، والأعمال راضية . والمصالح مصونة ، والمناجح مضمونة . والرعية مرعية ، والعوائد مرضية . والقواعد متأثلة ، والمقاصد متحصلة . والثغور مسدودة ، والخطوب مصدودة .

وأصول الدولة ثابتة ، وفروع الدوحة نابتة . وما ترك أمرا بعده غير مستقيم ، ولا نهجا غير قويم . ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج إلى تقريبه وتقريره ، ولا أبقى لمن بقى له ما يفتقر إلى ترتيبه وتدبيره . وما خرج من الدنيا إلا وهو فى حكم الطاعة الإمامية داخل ، وبمتجرها الرابح إلى دار المقامة راحل

ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها ، والاستعداد لعبادتها . والاستجارة بظلالها ، والاستنارة بجلالها ، والاستعاذة بفضلها ، والاستزادة من أفضالها . وما بنيت القواعد إلا على أساس وصاياه ، ولا أمضيت العوائد إلا على قياس سجاياه .

ولا أبرم إلا ما عقده ، ولا أحكم إلا ما أكده . واقتفيت آثاره ، واجتليت أنواره ، واتبع إيثاره ، وأثمرت فى ائتمار الأوامر الشريفة أوامره ، ومن كان فى نصرة الدولة الإمامية الناصرية فإن الله ناصره .

وما يفتخر العبد إلا بما ورثه فى ولائها من الفخار ، وبعثه من آلائها الغزار ، ونعشه برفعه من العثار ، وعرفه بعرفه المبر المبار . ولا يتسم بالملك إلا من يتسامى بأنه لها مملوك ، ولا يوصل إلى السعادة الأبدية إلا مسلك إلى رضاها مسلوك . ولئن مضى الوالد على طاعة إمامه ؛ فالمماليك أولاده وأخوه فى مقامه ، والأمر فى كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه ، والكفر مفلول الغرب ، مخذول الحزب ، مجبول على الرعب ، مغلول بقيد السلم عن الحرب ، فإن الله أجرى المشركين مع كثرتهم على حكم القلة ، وخصهم لإبقاء عزة الثغور الإسلامية بالذلة .

وقد استمرت الحال إلى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون إذا أحسوا بالمكنة . فإن الغدر فى طباعهم مركوز ، والسوء فى غرائزهم مغروز . والعبد آخذ بالحزم ، عائذ بتأييد الله فى العزم . متيقظ لمخوف غدرهم ، متحفظ من مكر مكرهم . مستعد بكل إمكان ، مستجد كل ما يفتقر إليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة فى أموره ، مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظاهر بقوته من أيدها وأياديها قوى بظهوره . مدل بما له من الموات الأكيدة ، والسوابق الحميدة. والشوافع المقبولة ، والذرائع الموصولة . موقن أن الرعاية تدركه ، وأن العناية تملكه . وأن اختصاصه بفضيلة الماتة القديمة يجد له فضل الاختصاص ، وأن فاتحة الحمد منه والإخلاص ، تفتح له باب الإحماد والاستخلاص .

ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول ؛ وأنه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول ؛ عول على القاضى ضياء الدين فى المثول بالخدمة الشريفة وإنهاء حاله ، والانتهاء إلى مناجح آماله . والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ، وتجح المقاصد ، ونصح

العقائد ، وشرح الأحوال فى المصادر والموارد . وأن بلاغته وفية بالإبلاغ ، ملية بإشباع القول ؛ فى اعتفاء الطول الملى بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه إليه ، واعتمد فى استنجازه واستنجاحه عليه . لا زالت آيادى الدار العزيزة دارة غزيرة ، سارة أولياءها وبإحياء موات مواتها جديرة — إن شاء الله تعالى .

كان مشغوفا فى سبيل الله بالإنفاق ، موقوفا عزمه فى الأعداء بإدناء الآجال ، وفى الأولياء بإجراء الأرزاق . وما عقر فى سبيل الله فرس أو جرح ؛ إلا وعوض مالكه بمثله ، وزاده من فضله . وحسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين(١) معه فى صف الجهاد ؛ مدة ثلاث سنين ؛ مذ نزل الفرنج على عكاء فى رجب سنة خمس وثمانين ، إلى يوم انفصالهم بالسلم فى شعبان سنة ثمان وثمانين ، فكان تقديره اثنى عشر ألف رأس من حصان وحجر(٢) ، وإكديش طمر (٣) . وذلك غير ما أطلقه من المال ، فى أثمان الخيل المصابة فى القتال .

ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم فى طلبه ، وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه وهجر جياده ، فإذا نزل جاء صاحبه فاستعاده . فكلهم يركب خيله ، ويطلب خيره . وهو يستعير جوادا ، ويستعر فى الجهاد اجتهادا .

وكان لايلبس إلا ما يحل لبسه ، وتطيب به نفسه ؛ كالكتان والقطن والصوف ، وكسوته يخرجها فى إسداء المعروف .

وكانت محاضره مصونة من الحظر ، وخلواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزء والهزل ،ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط ، ولا لفظة فظة تسخط .

يغلظ على الكافرين الفاجرين ، ويلين للمؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد ، وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد . وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ؛ ومشاركة القضاة فى القضاء ، أعلم منهم بالأحكام الشرعية ، والأسباب المرضية ، والأدلة المرعية .

---

(١) فى ب الحضرين والتصحيح من ل ومن أ (١٣ ؛ ش) .

(٢) الحجر : الأنثى من الخيل .

(٣) الطمر : الفرس الجواد الطويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو .

وكان من جالسه لايعلم أنه جليس السلطان ، بل يعتقد أنه جليس أخ من الإخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات ، متجاوزا عن الهفوات ، نقيا تقيا ، وفيا صفيا . يغضى ولا يغضب ، ويبشر ولا يتقطب . ما رد سائلا ، ولا صد نائلا ، ولا أخجل قائلا ، ولا خيب آملا .

ومن جملة مناقبه ، أنه تأخر عنه فى بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان مشتغلا بمهماته ؛ فلما وصل سأله عن سبب تخلفه ، وما الذى وقفه عن موقفه . فذكر أن غرماءه لجوا وألحوا ، وضنوا بإطلاقه وشحوا . فأحضر (١) غرماءه وتقبل بالدين ، وتكفل بالعين . وأمرنى (٢) بأن أحيلهم على مصر فحسبتها وهى اثنا عشر ألف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها على الحمل ، لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس فى سنة ثمان وثمانين ، كتب إليه سيف الدولة ابن منقذ (٣) من مصر وهو بها نائبه ، وقد وضحت فى الكفاية مذاهبه ؛ أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها ألفى دينار وتسحب ، وربما وصل إلى الباب وتحيل وتمحل ؛ وخيل وكذب ، فجاء إلى السلطان من أخبره أن الرجل على الباب وخال أنه إليه به تقرب . فقال : « قل له إن ابن منقذ يطلبك فاجتهد ألا تقع فى عينه » ، فعجبنا من حلمه وكرمه ، بعد أن قلنا قدم الرجل بقدمه إلى حينه .

ومما أذكره له فى أول سفرى معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين ؛ ووردت بها من فضله العذب المعين ؛ أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه فى زمانه ؛ فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه .

---

(١) فى ب فأحضروا والتصحيح من ل ومن أ (٤١٤ ش) .

(٢) فى أ (٤١٤ ش) فأمرنى .

(٣) سيف الدولة بن منقذ : هو أبو الميمون ، مبارك بن كامل بن منقذ ، مجد الدين ، ولد سنة ٥٢٦ هـ ، كان من أمراء صلاح الدين ، وقد حبسه سنة ٥٧٧ هـ اثر وشاية ألقيت إليه ، توفى سنة ٥٧٧ هـ (أنظر الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ : ٢٢٣ (و) النجوم الزاهرة ٦ : ٦٩) و (الأعلام للزركلى ج ٢) .

فما طلبها ولا ذكرها ، وأراه كأنه ما عرفها . على أن صاحب الديوان ما أنكرها .

وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صفوا ، ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج فى الجود والجهاد ، ورعاية الوفاد والقصاد . ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة ؛ ولم ير انزواءه فى بيت العزلة ؛ فولاه ديوان جيشه ، وأولاه ما دنت له به مجانى جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران فى سنة إحدى وثمانين ، عم بصدقاته الفقراء والمساكين ، وكتب إلى نوابه فى الولايات ، بإخراج الصدقات وقال لى : « اكتب إلى الصفى بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية » . فقلت له : « الذهب الذى عنده مصرى » ، قال : « فيتصدق بخمسة آلاف مصرية » ، وأشفق من صرف المصرى بالصورى فيكون حراما ، ويرتكب فى كسب الأجر آثاما . فسمح ومنح ، وتاجر (مع) الله وربح .

وسمعت بعد ذلك الصفى — وكان فى الخير مجلى كل مضمار — يقول : « قد أحصيت فقهاء المدارس بدمشق — وكانوا ستمائة — فأطلقت لهم ستمائة دينار » . ولما عزم على الرحيل من حران ؛ أفاض بها الفضل وبث الإحسان .

وقال لى يوم الرحيل : « انظر كم بقى بالباب من الوافدين أبناء السبيل ، وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم ، وفضل على أقدارهم فى القسم » ، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة ، ولم تجد ميسرة ، فعينت لكل اسم قسما ، وعنيت بهم خلقا منى ورسما . فبلغ أربعمائة دينار . ثم وقفت أفكر وأردد النظر إليه وأكرر . فسألنى : « ما الذى عملت ، وهل قسمت المبلغ وكملت » ، فقلت : « جرى قلمى بقسمة أربعمائة دينار ، فهل أنقص من كل اسم ربعا ؟ » . فقال « أجر ما جرى به القلم ، وأحسن صنعا » .

وكان رحاه (١) إذا أطلق لعارف عارفه . وقلت له : « هذه ما تكفيه ردها مضاعفة » ، وكان أصحاب المظالم ، وأرباب المطالب ، والراغبون(٢) فى

---

(١) رحاه : الرحى ، الصدر والمقصود هنا احسانه وكرمه .

(٢) سبق التعليق عليها .

الرغائب ، والذاهبون فى المذاهب ، يحضرون عندى ، ويعرفون فى إنجاز أمرهم وإنجاح قصدهم بذل جهدى . فأكتب لهم توقيعات بتوقعاتهم ، وأنتهى فى الإملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها ويمضيها ، ويضع علاماته فيها ويرتضيها ، وإذا ألفى توقيعا بخطى علم فيه ، ولم يقف بنشره على سر مطاويه . إلفا بما ألفه من صحبتى ومناصحتى ، وكفاء للملمات وكفاية للمهمات بكفايتى .

وكان يأمرنى بكتابة كتب الملوك وأصحاب الأطراف عن كتبهم فى حالتى سلمهم وحربهم . وهى تشتمل على أسباب متنوعة ، وآراب متفرعة ، بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة . فإذا قلت له : « بماذا أكتب ، وما الذى أخطب ؟ فيقول : « أنت أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف » . فأكتب من عندى بالإجابة ، وتوافق منه الإصابة . فقد كنت مطلعا على سره ، مضطلعا بأمره . ما يخفى عنى مراده ، وأنا متيقن لمن ولاؤه ووداده . فآتى بمداناة الأغراض ، ومداواة الأمراض ، وموازنة الجواهر والأعراض ، والتمييز بين أهل القبول وأهل الإعراض . فكم أصلح قلمى بينه وبين من عاداه ، وراض الجامح من سخطه وقاده إلى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر ، ولا يغضى عن الصغائر . ويرشد إلى الهدى ويهدى إلى الرشاد ، ويسدد الأمر ويأمر بالسداد . فكان مماليكه وخواصه ، بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد .

ورأى يوما لى دواة ؛ بالفضة محلاة ، فأنكر حل الحلية ، وادعى حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة ؛ وطريق المناظرة والممانعة ؛ أو ليس تحل حلية السلاح ، واصطحابه فى الكفاح فدواء دواتى أنجع ، ومدد مدادى أنفع ، ويراع براعتى القصير أطول ، وسلاح قلمى أجذ وأحد وأفتك وأقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمى ، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلمها من جوامع كلمى » .

فقال : « ما هذا بدليل ، ولا يعيد تحريما إلى تحليل » . حتى قلت له :

« إن الشيخ أبا محمد — والد الإمام أبي المعالى — قد ذكر وجها فى جوازه ونحن نتبعه ، فلا وجه مع هذا الوجه المحلل لمن يحظره ويمنعه » . فلم أكتب بعدها عنده إلا من دواة الشبه ، وتجنبت طرق الشُّبه . وتركت المحلاة — مخلاة ، وعادت الشبهية(١) مجتباة مجتناه .

وكان محافظا على الصلوات الخمس فى أوائل أوقاتها ، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها ، فما رأيته صلى إلا فى جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة . وكان له إمام راتب ، ملازم مواظب . فإن غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم ، إذا عرفه متقيا متجنبا للإثم . وكنت لملازمتى إياه يقدمنى إماما فى الصلوات ومستشارا فى المشورات .

وكان يأخذ بالشرع ويعطى به ، وينفق من حل المال وطيبه . ويجود بالموجود ، وبالمعدوم فى الحال رجاء الوجود ، فما تتجدد جدة إلا ويستوعبها إنجاز الوعود .

ولم يكن إلى المنجم مصغيا ، ولم يزل لقوله ملغيا . فما عنده منجى لمن جاء بمين (٢) المنجمين ، ولا قبول لمنطق المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ، ولا زمانا على زمان ، إلا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين فى كل قاص ودان . ولا يتعيف (٣) ولا يتطير ، ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل إذا عزم توكل على الله ، وأقبل على محكم أمره وأعرض عن مظان الاشتباه . فكم فل سفه ذى الفلسفة ، ودل بمعروفه على المعرفة .

وما زال ناصرا للتوحيد ؛ قامعا جمع أهل البدع بالتبديد ؛ مستجليا سنى السنة ، مستحليا جنى الجنة . شافعى المذهب أصولا وفروعا ، معتقدا له معقولا ومسموعا . يدنى أهل التنزيل ، ويقصى أهل التشبيه ، ويديم استفادة فقه الفقيه ، واستزادته بنباهة النبيه ، ووجاهة الوجيه . فالعالمون

(١) الشبهية : النحاسية . الشبه ، النحاس الأصفر .

(٢) المين : الكذب ، فعله مان يمين .

(٣) يتعيف : يتكهن بزجر الطير فيتشاءم أو يتفاءل .

فى عدله ، والعالمون فى فضله ، والبلاد فى أمنه ، والعباد فى منه ، والبرية فى بر سعيه . والإسلام فى حماية حميته ، والدين فى إدالة دولته .

وشرعة الشريعة صافية بصفائه ، ومادة المودة له وافية بوفائه . وقامت بعده طريرة طرية ، من العار عرية ، وببر البرية من الشائبات والشائنات برية ، وبالحرية حرية . وبسرور السرسرية . فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها ، وأفضلها وظاهرها ، وفخرت بمفاخرها ، ورويت برواتهم آثار مآثرها ، وتبلجت الآفاق وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض فى أزهارها والسماء فى زواهرها .

والحمد لله مجرى الأقدار ، ومصفى الأكدار ، ومدير الليل والنهار ، ومدبر الإيراد والإصدار . وسلم تسليما كثيرا آمين .

المراجع التى اعتمدت عليها فى التحقيق والشرح والتعليق

١ – القرآن الكريم .

٢ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

٣ – أوضح التفاسير لابن الخطيب (ط . مصطفى محمد) الطبعة الخامسة .

٤ – غريب القرآن لابن الخطيب (. المطبعة المصرية ١٩٦٢ م) .

٥ – القاموس المحيط للفيروزابادى .

٦ – المنجد (للأب لويس معلوف) ، ولسان العرب لابن منظور .

٧ – معجم البلدان لياقوت الحموى . ط بيروت .

٨ – معجم البلدان لياقوت الحموى ط . الخانجى .

٩ – معجم الأدباء لياقوت الرومى ط دار المأمون . تحقيق د . فريد رفاعى .

١٠ – معجم الالفاظ الفارسية للدكتور محمد موسى هنداوى .

١١ – شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجى .

١٢ – الجواليقى (المعرب من الكلام الأعجمى تحقيق أحمد محمد شاكر) ط . دار الكتب ١٣٦١ هـ

١٣ – الالفاظ الفارسية المعربة لادى شير ط . بيروت ١٩٠٨ م .

١٤ – صبح الأعشى للقلقشندى .

١٥ – شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى .

١٦ – وفيات الأعيان لابن خلكان .

١٧ – الأعلام للزركلى .

١٨ ــ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى . ج ٦ ط دار الكتب
١٩ ــ الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة قسم أول وثان
تحقيق د . محمد حلمى أحمد .
٢٠ ــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل تحقيق
د . جمال الدين الشيال ١و٢و٣ .
٢١ ــ السلوك للمقريزى ج ١ تحقيق د. محمد مصطفى زيادة .
٢٢ ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد تحقيق
محمد محمود صبح . نشر الدار القومية ١٩٦٢ م .
٢٣ ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ط . ليدن ١٧٣٢ م .
٢٤ ــ تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن .
٢٥ ــ تاريخ العرب العام لسديو . نشر النهضة المصرية .
٢٦ ــ فنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن .
٢٧ ــ تاريخ أبو الفداء ط المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ .
٢٨ ــ العرب قبل الاسلام لجورجى زيدان بتعليق الدكتور
حسين مؤنس .
٢٩ ــ تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان بتعليق الدكتور
حسين مؤنس .
٣٠ ــ طبقات الشافعية للسبكى .
٣١ ــ الموسوعة التيمورية بقلم أحمد تيمور ط القاهرة ١٩٦١ م .
٣٢ — Lane poole, Saladin & The Fall OF Jerusalem , London
٣٣ — The Crusaders In The East
٣٤ — Dozy Supplements Dictionaire Arabe , V . II
٣٥ — Dozy Supplements Dictionaire Arabe. Vetements

٣٦ — الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الاصفهانى ط . ليدن ١٨٨٨ م .

٣٧ — الفتح القسى فى الفتح القدسى ط . مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ.

٣٨ — الفتح القسى فى الفتح القدسى نسخة مخطوطة بالمكتبة الأزهرية مؤرخة ١١٦٦ هـ .

٣٩ — النثر الفنى تطوره ومذاهبه ج ١ و ٢ للدكتور شوقى ضيف .

٤٠ — مذكرات فى تاريخ الشرق وأوروبا فى العصور الوسطى لمحمد رفعت .

فهارس

شروح المصطلحات والكلمات الغربية ، والأعلام ، والبلدان

(١) شروح المصطلحات والكلمات الغربية

(٢) فهرس الأعلام

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

(ى)

(٣) فهرس البلدان والأمكنة

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

(ى)



الذخائر

سلسلة نصف شهرية



كتاب (الفتح القسّى فى الفتح القدسّى) هو الكتاب الثانى الذى تصدره الذخائر فى تاريخ صلاح الدين الأيوبى ، وهو يجمع - بصورة ما - بين الأدب ممثَّلا فى إنشاء العماد ورسائله وحكاياته ، والتاريخ ممثَّلاً فى تسجيل بطولة وفروسية صلاح الدين الذى لم يحارب من أجل الحرب و إنما حارب من أجل السلام .. السلام القائم على الحق والعدل .. ولذلك ظل دائماً - حتى خلال الحرب - رافعاً شعار الحوار والتفاهم ، لكن الغرب جاءه رافعا لواء العداء والتصادم عزيزى القارىء .. إلى أين سيُنتهى المطاف بالعالم .. إلى الحوار أم إلى الصِّدام ؟ لا أحد يعرف على وجه اليقين ، ولكن الذى أثبتته الأيّام .. أنه حتى الحوار ، بلى وحتى الدعوة إلى السلام .. يحتاج كلاهما إلى قوة تحميه وتؤكده ، بل وتفرضه ، شأنه فى ذلك تماماً شأن مسلك الصـــدام .

الكتاب القادم ديوان ابن سناء الملك

الثمن : ٧ جنيه

